

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

6

إعداد و تحقيق:

عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر في هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

السعر: سبعةَ جنيهات

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء السادس

وزارة الثقافة



مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء السادس)
• إعداد وتحقيق:
عبدالعزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17×24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897
التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء السادس

من أنبا أخرسطودلوس حتى الأب ميخائيل بن دنشترى البطرك ٧١ (١١٤٥ - ١١٤٦م)

السيرة السادسة والعشرون من سير البيعة المقدسة انبا اخر سطودلوس [عبدالمسيح] البطريرك(*) وهو من العدد السادس والستون [١٠٤٦ / ١٠٧٧م]

(*) فى أيامه نقلت البطركية إلى القاهرة. ومن هنا يبدأ ما كتبه موهب ابن منصور ابن مفرج الاسكندرانى الشماس من سير تاريخ البطاركة.

ولما تنيح الاب انبا شنوده وكانت النوبة [نوبة أختيار البطرك] للاسكندرانيين، اجتمع أهل اسكندريه والكهنة والأراخنة وتشاورو فيمن يجلسوه على الكرسى الرسولى، وكان فيها عاملين: أحدهما المعروف بفهد ابن فلوتس

والطريف أن الدسوقى قد أوسع مكاناً فى النار للمنكرين عليه وأحبط أعمالهم. وذلك فى معرض استعراض ألوهيته يوم القيامة يقول: (ومن كراماتنا .. أنى سددت أبواب جهنم السبع بفوطتى وفتحتها لأعدائى وأدخلتهم فيها، ومنها أنى فتحت أبواب الجنة الثمانية بيدى وأدخلت أمة محمد ﷺ فيها ومنها أن صنج الميزان بيدى أصير حسنات مريدى أثقل من سيئاته، ومسيت عليها بيدى فصارت سيئات المنكرين علىّ أثقل من حسناتهم ولو كانوا مطيعين[١].

وقد لعب الإنكار على الشاذلى دوراً هاماً فى حياته، مع أنه اشتهر ظاهرياً بالاعتدال.. ومعلوم أن الإنكار دائماً من نصيب الصوفى المتطرف فى العصر المملوكى ويزداد الإنكار بازدياد تطرف الصوفى فى ادعاءاته.

ثانيا: فى القرن الثامن

أ) ابن تيمية ونصر المنبجى:

فتح هذا القرن عينيه ليشهد ثورة الفقهاء بزعامة ابن تيمية على نفوذ أتباع ابن عربى فى

(١) طبقات الشرنوبى ٣، ٤. مخطوط بجامعة القاهرة تحت رقم ٢١٨٤٦ .

[فلتس]، والآخر يسمى علون [علوان] ابن زكريا من قبل علي ابن حديد ناظر الريف، فحضرا المجمع وذكرا قمص دير القديس ساويرس الهانطون غربي اسكندرية، وكان فيه يوميذ نيف وأربعين راهب فضلا علما منهم شيخ قديس يسمى تيدر الخصي، رأيته أنا الخاطي واضع هذه السيرة وتقربت من يده دفعات واستعلمت قصته من الرهبان، فعرفوني أنه كان قد نزل بالدير جماعة من امرآ العرب القريبين وأن جارية من جوارهم

آواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ممثلاً في نصر المنبجي الذى سيطر على السلطان المملوكي بيبرس الجاشنكير، وقد اغتصب العرش من الناصر محمد ابن قلاوون..

١. محاكمة ابن تيمية الأولى في الشام..

ونتابع المؤرخ الأمير بيبرس الداوداري وهو معاصر لهذه الفترة، يقول أن مجلساً عقد لمحاكمة ابن تيمية في رجب ٧٠٥هـ وسألوه في مواضع خارجاً عن العقيدة، ثم رجعوا واتفقوا أن يحاققه ابن الزملكاني من غير مسامحة، وانفصل الأمر بينهم على أنه أشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعي المذهب، وابتهج أصحاب الشيخ وقالوا: ظهر الحق مع شيخنا، فعزروا أحدهم، ثم حبس أحد أصحاب ابن تيمية لأنه قرأ فصلاً في الرد على الجهمية من تصنيف البخاري ، فظنوا أنهم المقصودون بالتكفير ، فأخرجه ابن تيمية من الحبس، وتنازعوا، وكان نائب السلطان(في الشام) غائباً في الصيد، فلما جاء اعتقل من أكثر من الكلام من الطائفتين (الفقهاء والصوفية) ، وهدد من تكلم في العقائد ليخمد الفتنة»..

٢. محاكمته الثانية في مصر:

«وقد اجتمع القضاة للبحث في العقيدة وانتهى الاجتماع بين ابن الوكيل وابن الزملكاني بأن جعل القاضي نجم الدين صيصرى قاضي القضاة يعزل نفسه رغم إلحاح الأمراء عليه، ثم ورد من مصر بعودته للحكم، ومضمون أحد الكتابين يقول: قد فرحنا بإجماع رأى العلماء

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

تعرضت به وألزمته نفسها. فأخذ سكين مضه [ماضية] وسنها على حجر المآ وقطع بها مذاكره فوقع كالميت حتى جا سرور الراهب قيم الدير فوجده مطروحاً على هذه الحال فشوا جبن خيشي(*) وجعله عليه حتى انقطع الدم وبرى وعاش إلى الان. فاما القمص الذى ذكروه للبطركيه فهو شيخ قديس اسمه يونس ابن تبروس من كهنة اسكندرية وكان له أخ أرشي دياقن اسمه تيدر، فلما عولو على تقدمته مضى قوم من كهنة

(*) الجبن الخيشي: هو الجبن الذى يتم تصفيته من الشرش بلفه فى لفائف الخيش ليفقد الماء الموجود به.

على عقيدة الشيخ تقى الدين(ابن تيمية)، فباشر القاضى نجم الدين مستهل شهر رمضان وسكنت الفتنة، ثم ورد مرسوم آخر فى (٥) رمضان بطلب نجم الدين بن صصرى وابن تيمية وابن الزملكانى، وفيه إنكار على ابن تيمية، ثم وصل مملوك ملك الأمراء (يقصد بيبرس الجاشنكير ولم يكن قد تولى السلطنة) على البريد، وأخبر إن الطلب عل ابن تيمية حثيث، وان القاضى المالكى ابن مخلوف قد قام فى الأمر قياماً عظيماً، وان بيبرس الجاشنكير معه فى الأمر، وأخبر بأشياء كثيرة وقعت فى مصر فى حق الحنابلة(أتباع ابن تيمية) وان بعضهم أهين، وان القاضى المالكى (المنحاز للصوفية) والحنبلى (المؤيد للفقهاء) جرى بينهما كلام كثير، فأمر ملك الأمراء بتجهيزهم فوصلوا فى رمضان، وعقد مجلس لابن تيمية فى دار النيابة (بمصر) بحضور سلار والعلماء والأئمة والقضاة الأربعة وبيبرس فادعى ابن عدلان القاضى الشافعى على ابن تيمية دعوى شرعية فى عقيدته، فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته فى فصل طويل،فقالوا له: ياشيخ الذى بتقوله معلوم ولاحاجة للإطالة، وأنت قد ادعى عليك هذا القاضى بدعوى شرعية أجب عليها، فأعاد القول فى التحميد فلم يمكنوه فى تتمة تحاميده، فقال عند من هى هذه الدعوى؟ فقالوا: عند القاضى زين المالكى، فقال: عدوى وعدو مذهبى.. وطال الأمر، فحكم القاضى المالكى باعتقاله، فاعتقل، وسجن أخوته فى برج من أبراج القلعة.

اسكندرية إلى شيخ يسمى أبا يحى زكريا كان يصحب القايد الأجل المستنصر وكان قريباً من السلطان ومن الوزير على ابن أحمد الجرجانى [الجرجرائى](*) وكان لهذا أبو يحى تقدمة وجاه عريض وكان نايباً عن الاب البطرك المتنيح انبا شنوده، وقالو هذا الاغومنس يونس ابن تبروس الذى عولو على قسمته بطركاً هو اشبين علوان ابن زكريا العامل ومتى جلس على الكرسى الرسولى

(*) الجراجرائى: توفى ٤٣٦هـ = ١٠٤٥م. هو على ابن أحمد الجرجرائى، أبو القاسم، نجيب الدولة: وزير من الدهاة. ولد فى جرجرايا بسواد العراق. سكن مصر تنقل فى الأعمال السلطانية بالريف والصعيد. كثر التظلم منه

- -

٣.سبب المحاكمات:

ويقول المؤرخ بيبرس الداودار تحت عنوان(ذكر السبب الموجب لهذه الفتن المذكورة) يعلل السبب الحقيقى فى اعتقاله: (أحضر بعض أصحاب ابن تيمية له (فصوص الحكم) لابن عربى، فرأى فيه الشيخ مسائل تخالف اعتقاده، فشرع فى لعن ابن العربى وسب أصحابه ممن يعتقد اعتقاده، ثم اعتكف الشيخ (ابن تيمية) فى شهر رمضان وصنف نقيضه وسماه(النصوص على الفصوص)، وبين فيه الخطأ الذى ذكره ابن عربى.. وبلغه أن شيخ الشيوخ كريم الدين شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة له اشتغال بمصنفات ابن عربى وانه يعظمه تعظيماً كبيراً، وكذلك الشيخ نصر المنبجى(ت ٧١٩)، ثم أن الشيخ صنف كتابين فيهما إنكار كثير على تأليف ابن العربى ولعنه فيهما مصرحاً ولعن من يقول بقوله، وسير الكتاب الواحد للشيخ نصر المنبجى والشيخ كريم الدين، فلما وقف عليه الشيخ نصر تألم، وكانت له منزلته عند ركن الدين بيبرس (الجاشنكير المتحكم فى السلطنة) الذى لايقوم ولايقعد إلابه، وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يترددون عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير، فحضر عنده القاضى ابن مخلوف المالكى عقيب وقوف نصر على كتاب ابن تيمية، فأوقفه على الكتاب المذكور، فقال له القاضى: أوقف الأمير ركن الدين بيبرس عليه وقرر ما أحببت وأنا معك كيف شئت، والزم الأمير ركن الدين بطلبه

كان مستحوذ عليه وتنفسد الأحوال، فعند ذلك بطل أمر الاغومنس ثم اجتمعو أيضا وبحثو حتى ذكر لهم انبا اخر سطودلوس وكان قسيسا من اهل بوره في مبدا حداثته في دير برموس بوادى هبيب، وكان له أخ في الرهبنة اسمه يعقوب صار قمص برموس وكان له عجايب كثيرة لأنه كان قديساً عظيما. فخرج اخرسطودلوس من البرية ومضى إلى صومعه على البحر المالح [بحيرة البرلس] في

في أيام الحاكم الفاطمي فقبض عليه واعتقل ثم صدر الأمر بقطع يديه. تولى ديوان النفقات سنة ٤٠٦هـ ولقب سنة ٤٠٧هـ بنجيب الدولة. استوزره الظاهر الفاطمي سنة ٤١٨ وأقره بعده المستنصر الذى حضر وفاته وصلى عليه سنة ٤٣٦هـ.

إلى الديار المصرية ونسأله عن عقيدته فقد بلغنى إنه أفسد عقول جماعة كبيرة، وهو يقول بالتجسيم، وعندنا من اعتقد هذا الاعتقاد كفر ووجب قتله. فلما حضر الأمير ركن الدين عند الشيخ نصر على عادته أجرى له ذكر ابن تيمية وأمر عقيدته، وأنه أفسد عقول جماعة كبيرة، ومن جملتهم نائب الشام وأكبر الأمراء الشاميين، والمصلحة تقتضى طلبه إلى الأبواب العالية، ويطلب منه عقيدته وتقرأ على العلماء بالديار المصرية من المذاهب الأربعة، فإن وافقوه وإلا يستتيبوه ويرجعوه ليرجع عن مذهبه واعتقاده وساير من لعب بعقله من الناس، ثم ذكر له ذنوبا آخر، حتى حرص بيبرس على طلبه)[1].

أى صار لعقيدة وحدة الوجود النفوذ والسيادة في مطلع القرن الثامن ممثلة في تسلط نصر المنبجى على عناصر السلطة المملوكية (بيبرس الجاشنكير) والقضاة، (وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يترددون عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير) وزين القاضى ابن مخلوف لنصر المنبجى استحضار ابن تيمية لمصر حيث يتمكن من قتله متهما بالكفر..

واعتبرا معاً أن دعوة ابن تيمية ضد العقيدة الصوفية بمثابة (إفساد لعقول جماعة

(١) ابن أيبك الداودارى: سيرة الناصر ١٤٣.

نستروه [مركز دسوق] وتعرف بنفره فحبس نفسه فيها فعلم اخوه يعقوب بالروح أنه يصير بطركاً فبكا لاجله وأعلمه بذلك. وكان عنده فى الصومعه جسد تكله الرسولة تلميذة بولس الرسول الذى شهد لوقا الإنجيلى فى الكتاب الذى وضعه لأجلها، وذكر فيه ما كان منها وأنها طرحت للسباع ورميت فى النار بمدينة إنطاكية ولم يصيبها من ذلك أذية بالجملة، وهى التى ذكرها

كبيرة).. وأثار نصر المنبجي خوف بيبرس الجاشنكير من ابن تيمية، منها أنه ضم إليه (نائب الشام) (وأكبر الأمراء)، وذكر له ذنوبا أخر حتى حرص بيبرس على طلبه..

واستمر تجاهل الصوفية في مصر لموضوع العقيدة أثناء محاكمة ابن تيمية فاشتطوا فى منع ابن تيمية من شرح عقيدته (.. فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته فى فصل طويل، فقالوا له: ياشيخ الذى بتقوله معلوم ولاحاجة للإطالة)، بل منعوه فى ذلك المجلس الذى عقد لمحاكمته ـ من مجرد تحميد الله والبدء في الكلام.. وكان التحامل واضحاً على ابن تيمية تنفيذاً للمخطط الذى وضعه ابن مخلوف وباركه نصر المنبجي ووافق عليه بيبرس الجاشنكير.. وانتهى الأمر بحكم ابن مخلوف باعتقال ابن تيمية، ثم لم يكتف بذلك فسعى لدى بيبرس الجاشنكير حتى منع الامراء من الاتصال به، ومازال به حتى حبسه فى الجب، وهدد اتباعه من الحنابلة بالقتل إذا انكروا على عقائد الصوفية الاتحادية..

ولاريب أن جهل القضاة ـ مع تسليمهم للتصوف وخضوعهم للصوفية والحكام ـ أدى إلى تباعد بين ابن تيمية وبقية الفقهاء فى مصر، مع أنهم جميعاً من أشياخ الفقه أو يجب أن يكونوا كذلك..

وقد اعترف خصمه كمال الدين الزملكانى بأن ابن تيمية(اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها)(١).

(١) تاريخ ابن الوردى جـ٢/٢٨٨، ٢٨٩.

القديس اغريغوريوس وقال القديسه العذرى تكله الذى [التى] فازت بالفضيلتين، فضيلة الثلثة فتية فى أتون النار وفضيلة دانيال النبى فى جب السباع، وكان جسدها فى تابوت تظهر منه العجايب كما حدثنى الاب انبا اخرسطودلوس بعد بطركيته، وجسدها اليوم مع جسد فيلاتاوس القايد الشهيد فى صومعة سنجار(*) التى فيها يوميذ ميخاييل الاغومنس الحبيس، وطلعت [أنا موهب

(*) سنجار: من المدن الدارسة، وكانت تعرف كذلك بشنشار، كانت فى فترة ما قبل الاسلام

---

٤. التآمر على ابن تيمية فى المعتقل وخارج المعتقل:

وقد مارس الصوفية الضغط على ابن تيمية وهو فى المعتقل حتى يسلم لهم بعقائدهم ويكف عن الإنكار عليهم فى نظير إخراجه، فكان نصر المنبجي يدعوه للصلح وبعد أن يحصل على موافقته يرفض الصلح معه إلا بعد أن يتنازل عن آرائه، يقول صاحب مخطوطه (تكسير الأحجار) التى فصلت حياة ابن تيمية فى المعتقل (لما كان الشيخ فى قاعة الترسيم جاءه شمس الدين الدباهى للصلح بينه وبين نصر المنبجى، فقال ابن تيمية: أنا أجيب إلى ذلك، فذهب إلى نصر وعنده المشايخ التدامرة، وعرض عليه الأمر ، فقال يا سيدى وكم كتبنا إلى الشيخ مثل هذا وما سمع منا .. فقال له اكتب إنك أجبت إلى ذلك، فقال: إن كتب الشيخ كتبت فاتفقا على ذلك، فسير ورقة للصلح إلى ابن تيمية فكتب : أجبت إلى ذلك ولاحول فاتفقا على ذلك، فسير ورقة للصلح ابن تيمية فكتب : أجبت إلى ذلك ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم وكتبه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، فقال الدباهى لنصر: اكتب مع الشيخ مثل ما قلت وعاهدت الله عليه، فقال ما بقيت أكتب شئ، فقال له شمس الدين: عاديتك فى الله، وكشف رأسه وقال ثم نبتهل ثم نبتهل، وقام من عنده فسير الشيخ نصر لوالى المدينة أن يكبس بيت ابن تيمية ومسك (اعتقال) أصحابه، فسير الوالى نائبه فكبس البيت وقصدوا اعتقال شرف الدين أخى الشيخ، ولكنه هرب وأمسك أصحاب الشيخ واعتقلهم فى بيته ومنع الناس من الدخول على الشيخ.

---

٦٦ : انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

ابن منصور] إلى عنده وتباركت منه ومن الجسدين المذكورين في سنة ثمان مايه وثلثة للشهدا، وصار هذا ميخاييل بطركاً بعد انبا كيرلس القديس، وأما انبا اخر سطودلوس لما ذكر في المجمع اتفق رايهم على تصييره [بطركاً] فسار إليه عشرة من مقدمي اسكندرية وصحبتهم جماعة من جملتهم ابو المليح منصور عامل اسكندرية المعروف بابن العلمي [العليمي] وقس اسمه سيمون في بيعة

كرسي اسقفية. ومحلها اليوم كوم سنجار في جزيرة واقعة ببحيرة البرلس (بحيرة نستروه) على بعد ١٠ك.م من الجنوب الغربي لقرية البرج الواقعة على البحر المتوسط باقليم البرلس التابع لمركز بيلا. وهناك لحن مصرى قبطى قديم يعرف باللحن السنجارى ينسب إلى هذه المدينة.

ثم توسط الأمير حسام الدين مهنا وكلم السلطان من أجله، فأمر بإطلاق سراحه، وتوجه الأمير حسام الدين بنفسه للسجن وأخرجه[1]، ولم يسكت الصوفية عنه، خاصة وانه لم يسترح بعد خروج من المعتقل فأخذ في مباحثة الفقهاء بحضرة الأمير سلار، وعقدت مجالس أخرى بالمدارس الصالحية[2] فكان أن أثار الصوفية عليه الغوغاء فامتدت ايديهم للشيخ بالضرب والأذى، فتجمع أهالي الحسينية ليثأروا للشيخ، فالح عليهم ابن تيمية بالرجوع لأنه لاينتصر لنفسه، وفي نفس هذا الشهر رجب ٧١١ اعتدى عليه آخر بالقول المقذع، وأخيراً لجأ الصوفية للسلطان وتجمهروا حول القلعة. وتزعمهم في هذا ابن يعقوب البكرى (ت٧٢٤) الذى (قام على ابن تيمية وانكر ما يقوله وآذاه حين دخل مصر)[3] وابن عطاء الله السكندرى وكان (المتكلم على لسان الصوفية في زمانه، قام على الشيخ ابن تيمية فبالغ في ذلك)[4].

ومع ذلك تزايد اتباع ابن تيمية وكان (الناس يجتمعون به ويهرعون إليه ولم يزل كذلك إلى أن سافر سنة ٧١٢)[5].

(١) سيرة الناصر ١٥٠ . (٢) سيرة الناصر١٥١.
(٣) شذرات الذهب جـ٦/٦٤تاريخ ابن كثير جـ ٤٦/١٤: ٥٠.
(٤) شذرات الذهب جـ١٩/٦ .
(٥) سيرة الناصر ١٥١.

البشير مارى مرقس واستحق أن صار أسقفاً على مدينة تنيس وهو باق عليها إلى ذلك اليوم وهى سنة ثمان مائة للشهدا، وجماعة معهم ومضو إلى عنده والتمسو أن ينزل إليهم فامتنع إلى أن أحضرو له رجل كان قد تشبن له [أى كان اشبيناً له] يعرف بابن زكرى ابن مرقوره، فطلع إليه ولم يزل به إلى أن قرر معه الإجابة إلى مايريدوه، وقال لهم قد استقر أنه يصير [بطركاً] لكنه ما ينزل من

(ب) آثار حركة ابن تيمية على الفقهاء فى القرن الثامن

مدرسة ابن تيمية الفقهية المناوئة للصوفية:

١ــ أسفرت جهود ابن تيمية عن تكوين مدرسة فقهية ابتعدت عن خط القضاة وكبار الفقهاء الذين دانوا بالتصوف ودافعوا عنه.. وتحمل أولئك التلاميذ الكثير من عنت الفقهاء والصوفية أثناء محنة أستاذهم، وأبرزهم: ابن قيم الجوزيه(١) وابن مرى البعلبكى وابن شاس(٢). وعلى عبد الله الاسكندرى(٣).

٢ــ واستمرت مدرسة ابن تيمية بعد موته تنادى بمبادئه وتدافع عنه وعنها وتتحمل فى سبيل ذلك الكثير من الأذى ، ومنهم المؤرخ ابن كثير(٤) وابن البرهان المصرى(٥) وابن ماجد(٦)وأبو بكر الهاشمى(٧) وابراهيم الآمدى(٨) وابن المنصفى(٩) وابن عبد الله

(١) السلوك جـ٢٧٣/١.
(٢) السلوك جـ٢٦٣/٢، الدرر الكامنة جـ٣٢٣/٢.
(٣) تاريخ الجزرى. مخطوط جـ١٧/٢-٢٨.
(٤) ذيل ابن العراقى. مخطوط ١٤٦.
(٥) عقد الجمان. مخطوط وفيات ٨٠٨، إنباء الغمر جـ ٣٣٢/٢: ٣٣٣.
(٦) شذرات الذهب جـ٦ /٢٨٢.
(٧) إنباء الغمر جـ ٥٢٦/٢.
(٨) الدرر الكامنة جـ ٢٧/١.
(٩) إنباء الغمر جـ١٨٦/٢.

صومعته إلا حتى يلبس الثياب ليلا يجرى امر فيصير هزواً، فألبسوه الثوب فوق وأقسم يوميذ، ولا يملك إلا درهمين ونصف وربع(*)، وسارو به إلى اسكندرية وكرزوه فى كيهك فى سنة سبعماية ثلثة وستين للشهدا. وكانت بداية أمره حسنة وظهرت منه معجزات وكانت روح القدس قريبة منه، ثم سار إلى دير أبو مقار وكرز هناك، وكانت قسمته من الله، وسمعت أنا موهب [ابن منصور

(*) لاحظ هنا أنه كان حتى هذا العهد يصعب اكتشاف جمع الكسور فكان يجب أن يذكر «درهمين وثلاثة أرباع الدرهم».

الناسخ[1] وابن المحب الحافظ[2] وابن الأعمى المصرى[3] وصدر الدين اليوسفى[4] والغزل[5] والحمصى[6] وابن السكرى[7].

(ج) آثار حركة ابن تيمية على خصومه الصوفية:

هجوم بعضهم على ابن عربى

١ـ بعض دهاة الصوفية بادر بالهجوم على ابن عربى وابن تيمية فى نفس الوقت مخافة أن يتطرق الإنكار إلى هدم مبدأ التصوف.. ومن أولئك علاء الدين البخارى، وقد كان يبالغ فى الحط على ابن تيمية وتكفيره حتى ثارت فتنة بسبب ذلك فى الشام[8].. وقد صنف البخارى رسالة فى نقض مذهب الاتحاد سماها (فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين)، قال فى آخرها (أنهم يسمون كفرة وملاحدة وزنادقة) ووصف ابن عربى بأنه (كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش)، وقال عن الفصوص (أفتطمعون من مغربى يابس المزاج يأكل الحشيش شيئاً غير ذلك)[9].

(١) إنباء الغمر جـ٣/٤٢.
(٢) شذرات الذهب جـ٦/٣٠٤:٣٠٥.
(٣) إنباء الغمر جـ١/٤٦٤.
(٤) الدرر الكامنة جـ٢/٢٦٢.
(٥) إنباء الغمر جـ١/١٨٧.
(٦) إنباء الغمر جـ٣/٤٩١.
(٧) تاريخ قاضى شهبة: مخطوط جـ١/٢٢.
(٨) إنباء الغمر جـ٣/٤٧٧.
(٩) تنبيه الغبى ١٨٢:١٨٣.

الاسكندراني] الخاطى من فم هذا الاب أنه لما كان في الصومعة رأى في منامه القديسين بطرس ومرقس وقد سلما له ضبارة مفاتيح كبيرة مشدودة. ومن الوقت أتوه الاسكندرانيين ولبس الثوب الصوف وأنزلوه من الصومعة. ومن بعد قسمته كرز في اسكندرية ست بيع: بيعة على اسم يوحنا الإنجيلي، وسمعت من فاه يوم تكريزه لهذه البيعة أنه رأى في منامه يوحنا ابروطس اسكندرية وفي

وحاول البخارى أن يخرج ابن عربى وأصحابه من دائرة التصوف والأولياء، يقول (إن الملاحدة عبروا عن ضلالتهم بعبارات العارفين بالله يستترون بها فى زندقتهم، فينبغى الحذر من ذلك، فأراد بالفناء نفى حقائق الأشياء .. وذلك غير ما أراده العار فون فإنهم أرادوا بها معانى يصدقها الشرع)[1]. وواضح خوفه من وصول الإنكار إلى ابن عربى إلى درجة اتهام التصوف نفسه..

٢ـ والطريف أن قاضيا للقضاه متعاونا مع الصوفية ويدين بالتصوف ـ وهو البساطى ـ قد فوجئ بموقف علاء الدين البخارى، فقد قال فى مجلس عقد فى القرن التاسع ـ إن كلام ابن عربى يمكن تأويله ـ وقصد بذلك نفاق علاء الدين البخارى وكان حاضرا المجلس ومعه ابن حجر وعبد الرحمن التفهنى والعينى والسيرامى وابن نصر البغدادى وأبو بكر القمنى وابن الأمانة وابن تقى المالكى، فقال له البخارى على رءوس الاشهاد: كفرت.. وسلم له من فى المجلس بتكفيره، وما خلص البساطى إلا بالبراءة من اعتقاده أمامهم[2].. ثم تشجع البساطى فاعتبر الاتحاديين وابن عربى ضمن القائلين بقدم العالم مع ابن سينا والفارابى، وقال (واعلم أن هذه الضلالة المستحيلة فى العقول سرت فى جماعة من المسلمين، نشأوا فى الابتداء على

(١) تنبيه الغبى ١٨٦ : ١٨٧.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/٣.٤ حوادث ٨٣١ .

يده مجمرة من ذهب وهو يبخر الكنيسة من صدرها إلى بابها داخل خارج بعد أن فرشت كلها بورق كرم وزرجون أخضر [عيون الكروم] وكان الذى رأى المنام يقول فى نفسه هذا يوحنا المعمدانى قد حضر ليكرز بيعته لان هكذى جرت عادته يحضر فى صورة إنسان اسمه مثل اسمه، فاتفق نظر هذين الاثنين لهذا المنام فى ليلة واحدة. وكرز بيعة على اسم الشهيد أبو مرقوره، وبيعة

الزهد والخلوة والعبادة، فلما حصلوا من ذلك على شئ صفت أرواحهم وتجردت نفوسهم وتقدست أسرارهم، وانكشف لهم ما كانت الشواغل الشهوانية مانعة من انكشافه)[1].

أى أنه يسلم لابن عربى بصفاء الروح وقدسية السر وقيام الكشف أو العلم اللدنى، ويجعل ذلك كله مؤدياً للقول بالاتحاد والوحدة مع أنه وصفها بالضلالة المستحيلة فهو يقترب بذلك من رأى العلاء البخارى وإن كان أقل منه مهارة فى التلفيق..

وقد قام البساطى سالف الذكر بشرح تائية ابن الفارض بنفس المنهج الرامى إلى التوفيق بين عقيدة ابن الفارض فيها والإسلام، وذلك لصالح الاتحادية، وقد تكلم على الأبيات على وجه يظهر منها حملها على موافقة الشرع فإن عجز صرح بإعتذارات الصوفية[2].

والبساطى معذور، فللبخارى نفوذ فى الدولة، وكان قد تعصب ضد البساطى فى المجلس وأقسم بالله وإن لم يعزل السلطان القاضى البساطى ليخرجن من مصر، وأمر السلطان بإحضار القضاة عنده فتبرأ البساطى من مقاله ابن عربى وكفر من يعتقدها (وذلك حتى لايعزل، واسترضى السلطان علاء الدين وسأله ألايسافر)[3]. وفى ذلك يقول أبو المحاسن عن البخارى (أنه عزل قاضى القضاة المالكى محمد البساطى وتشاجر معه لأنه حاول أن يزول

(١) تنبيه الغبى ١٧٠.
(٢) تنبيه الغبى ١٧٤.
(٣) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٠٤.

رفاييل الملاك، وبيعة الشهيد أبو مينا ، وبيعة لمارى جرجس، وتجديد بيعة مارى مرقس، واوسم يوم تكريز بيعة رفاييل الملاك قس واحد ونيف وستين وشرط على ابايهم أن ليس لهم حق فيما للبيعة، وسبب ذلك أن بعض الكهنة قال له إن هولا إنما يتزاحمو على الشماسية بسبب الحقوق التى للكهنة فى البيع والجوالى التى تدفع عنهم من مالها وتضيق على البيع فى عمارتها فلاجل هذا السبب

كلام ابن عربى ويدافع عنه)[1]. وكان البخارى ينهى الناس عن مطالعة كتب ابن عربى، ومثله فى ذلك كان الصوفى الإتكاوى ٨٣٤فى القرن التاسع، مع اعتقاده بعرفان ابن عربى وكماله[2].

٣ـ ومعنى ذلك أن تأثير ابن تيمية استمر إلى نحو منتصف القرن التاسع فى الصوفية الرامين لخدمة الطريق الصوفى وانقاذه من خطر ابن تيمية..

ومع ذلك فإن أولئك الصوفية المنكرين على ابن عربى كانوا تلاميذ لقطب الدين بن ميمون فى القرن التاسع، وقد اشتهر با نكاره على الاتحادية وكتب فيهم مبتدئاً بالحلاج، وختم بالعفيف التلمسانى.

٤ـ ولولا ابن تيمية ما وجد فى القرن التاسع من ينهج منهج ابن ميمون المعاصر لابن عربى، إذ أن المنطقى فى حكم التاريخ أن يزدهر طريق التصوف باضطراد، ويقل الإنكار عليه وتجتمع آراء الصوفية على عقيدة واحدة بلا نفاق.. إلا أن حركة ابن تيمية أجبرتهم على الهجوم على ابن عربى، ولكن بهجوم صوفى يثبت العقائد الصوفية ولا ينفيها..

*** أثر ابن تيمية العكسى فى ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية:**

(١) المنهل الصافى. مخطوط جـ٥/ ٢٤٩.
(٢) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٤٠.

شرط عليهم هذا الشرط، وفي اليوم المذكور وهو الثامن من مسرى سنة سبع ماية أربعة وستين للشهدا كتب قانونا وأمر فيه(*) أن لا يعمد ذكر وأنثى في معمودية واحدة. ولا يدخل أحد إلى الكنيسة إلا حافي مكشوف الراس . ولا يغطى أحد من المومنين قربانه بخبز قبل التسريح. وأن تتحرز المومنين من الما الذى يعطوا منه قربانهم بثلثة جرع حتى لا يقع منه شيئاً على الأرض فانه مساوى

(*) قانون اخرسطودلوس ومواده تحدد العلاقات داخل الكنيسة.

إلا أن لابن تيمية أثراً غير مباشر في ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية، على غير قصد منه طبعاً.. وترجع هذه المفارقة إلى أن ابن تيمية ـ مع استكمال أدوات الاجتهاد فيه ـ كان إبناً لعصره الذى دان بالتصوف، وحكم على حركته بالفشل وحكم عليه بأن يعيش بين سجن ونفي ومعاناه.. وحتى لا تتشابك عناصر هذه القضية فإننا نبسطها في النقاط التالية ـ

أ) يرى ابن تيمية في التصوف رأياً حسناً، ويقول عن الصوفية (إن الصوفية مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين.. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق انكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره)[1].

وواضح أن ابن تيمية مخدوع بالجنيد ومنافقى الصوفية الأوائل، ويرى أن أصحاب الوحدة والاتحاد ليسوا من الصوفية، وعلى ذلك تتضاءل المسافة بينه وبين خصمه الصوفي علاء الدين البخارى فكلاهما ينشد اصلاح الطريق الصوفي من شرور (أصحاب البدع والزندقة).. بل إن ابن تيمية يقول في الجنيد مقالة الصوفية فيه: (.. فإن الجنيد قدس الله روحه وكان من أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد فقال: التوحيد افراد الحدوث عن القدم)[2].

(١) ابن تيمية: الصوفية والفقراء ١٦.
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ١٠٠ طـ صبيح.

الجوهر. وأن يكون وقوفهم فى البيع فى أيام الحاد والاعياد بخوف ورعدة بين يدى الله جل اسمه بالابتهال والتضرع والسوال فى مغفرة الخطايا والنجاة من مصايد العدو. ولا يتكلم أحد ولا يتحدثن في أوقات الصلاة والقداس إلا فى هذين الأمرين وهما أمر الدين والقراة والعلم والتفاسير مما يكون فيه خلاص النفوس وينصتو لسماع وصايا الرب سبحنه [سبحانه] إلى أن يقف القداس.

ب) ويعتقد ابن تيمية بكرمات الصوفية حتى ممن يعتبرهم أولياء للشيطان، يقول عنهم (وهؤلاء يأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم وهى جن وشياطين فيظنونها ملائكة.. وهذه الأرواح الشيطانية هى الروح الذى يزعم صاحب الفتوحات (يعنى ابن عربى) أنه ألقى إليه ذلك الكتاب.. واعرف من هؤلاء عدداً، ومنهم من كان يحمل فى الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس)[1].

(ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون فى ذلك الموضع، ومنهم من يطير به الجنى إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفه ثم يعيده في ليلته)[2].

وذلك التصديق بادعاءات الصوفية وامكانية حدوثها فعلاً: هو اعتقاد العصر المملوكى الذى لم يستطع ابن تيمية الخروج عنه، وان رده إلى فعل شيطانى يناسب رأيه فيهم باعتبارهم كفرة..

ج) وابن تيمية حين ثار على صوفية عصره فإنما ثار على بيئته، وقد ترسبت معتقداتها فى

(١) الفرقان بين أولياء ٩٩.
(٢) الفرقان بين أولياء ١٤١ : ١٤٢.

وكذلك النسا يقفون في مواضعهم بعفاف ولا ينطقوا بلفظة في أوقات الصلوات والقداسات. ولا النسا يختلطون بالرجال ولا يجلسو في طرقات الرجال لينظرو الداخلين والخارجين. ويكونو طايعات لأزواجهن مقبلات على بيوتهن ليتباركو بركة أمهن سارة ورفقا وراحيل. ويستعمل المومنين في صوم الاربعين النقية التي صام مثلها ربنا والاهنا ومخلصنا يسوع المسيح له المجد وهو النسك

داخل نفسيته. ويتضح ذلك في قراءتنا لهذا النص من مخطوطه (تكسير الأحجار) عن ابن تيمية وصحبه حين قام معهم لهدم ضريح صوفي يقصده الناس بالعبادة والتقديس (.. بلغه ما يفعله الناس عند العامود المخلق (له صورة) فشدَّ عليه وقام واستخار الله في الخروج إلى كسره) وبعد أن وصف الكاتب اجتماع الناس معهم ثم تراجعهم رويداً رويداً مخافة التعرض للغضب المزعوم للولي المدفون قال:(وصحنا على الحجارين (أي من يهدمون الحجارة) دونكم وهذا الصنم، فما جسر أحد منهم يتقدم إليه)ثم قال (فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم وضربنا فيه، وقلنا جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وقلنا إ ن أصاب أحداً منه شئ نكون نحن فداه، وتتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة كل صنم منها نحو شبر ونصف)(١).

فمع أن فقه ابن تيمية حمله على القيام لكسر ذلك العمود المقدس الذى كان في الغالب تمثال من الآثار الفرعونية إلا أن رواسب التصوف التي ارضعتها له البيئة الصوفية لعصره قد جعلته (يستخير الله في الخروج)، وعندما تقهقر الناس خوفاً استمر هو، إلا أن شجاعته في الإقدام لم تخل من خوف زرعته في قلبه عقائد التصوف المتحكمة في البيئة والعصر، وأظهره

(١) تكسير الاحجار مخطوط ١٤٠: ١٤١.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

والتواضع. ولا يكون تزويج البتة فيها. ولا يكون في الجمعة الكبيرة معمودية ولا تجنيز ويلزمو فيها البيعة النسك لأنها جمعة حزن وكاابه. وبعد فراغ القداس في يوم أحد الزيتونة يقرى إنجيل ترحيم الموتى بعد رسالة بولس المعروفة ويقرى بعد ذلك على جميع الشعب التحليل(*) وفي الجمعة الكبيرة لا يجوز فيها ترحيم ولا تحليل ولا تجنيز إلى انقضى يوم عيد الفصح. ويكون القداس يوم

(*)انظر في ذلك القداسات الثلاث، The three Anaphorae.Cairo, .1936, p. 82 sqq

له تراجع الناس من حوله، فقال(إن أصاب أحداً منه شئ نكون نحن فداه)، أي أنه يسلم بقدرة تلك الأصنام على الأضرار، وتشجع ليفدى الناس من ضررها بنفسه..

د) وإخلاص ابن تيمية لعصره وما ساده من تقديس للصوفية - جعله يفقد الطريق الصحيح في حربه لصوفيه عصره المغالين، فطاشت سهامه في حروب متفرقة ضد متطرفي الصوفية من أتباع ابن عربي أو من فقراء الأحمدية الذين كانوا يلعبون بالحيات ويمارسون الشعوذة.. فصرفه ذلك كله عن الهدف الأصلي المنتظر منه باعتباره مستكملاً لأدوات الاجتهاد يخرج باجتهاده عن إطار عصره ويسمو على تقليد المعاصرين .. فكان ينبغي على ابن تيمية أن يدرس باجتهاده عقائد الصوفية الأوائل بدءاً بالجنيد وانتهاءاً بالغزالي ويحكم عليهم بالقرآن، ويحارب مبدأ التصوف من أساسه يبتعد قدر الإمكان عن التعرض لأشياخ الصوفية في عصره حتى لايصطدم بنفوذهم، ويجعل من ذلك الاساس الذى تقوم عليه مدرسته في حرب التصوف باعتباره عقيدة التوحيد الإسلامي، ثم يعرض عقائد الفقهاء أيضاً على القرآن ليرى ما فيها من خلل.

إلا أن ابن تيمية أصر على أن يشارك بثورته في كل ميدان، وصمم على أن تصل سهامه إلى السياسة أيضاً.. فحكم على نفسه بمزيد من العنت والاضطهاد لأن مقاييس (السياسي) في عصره لم تتوافر فيه..

الخميس الكبير برهبة وخوف وسكوت بغير تقبيل [قبلة السلام](*) ولا مصافحة ولا يقال «ابرسفارين» بل يقال عوضه «مادافابوا» بغير تحليل لا في الأول ولا في الاخر. وفي يوم قداس السبت الكبير يقال الترحيم والتحليل بلا تقبيل ولا يعمل في أيام الخمسين لا معمودية ولا شرطونية. ولا يجوز في أيام الآحاد بكآ ولا نوح ولا قوالات ولا يجوز لنصراني يفعل ذلك ولا شيا منه على

(*) في هذا القداس يتلامس الحاضرين بايديهم.

فقد شهد ابن تيمية ـ أو شهدت محنته عصر سلطانين من المماليك .. السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير. والناصر محمد بن قلاوون.. وقد كان بيبرس الجاشنكير مغتصباً لسلطة محمد بن قلاوون السلطان الصغير الشرعي .. ويؤيده في ذلك الصوفية بزعامة نصر المنبجي داعية ابن عربي، وأراد الجاشنكير أن يتسلطن رسمياً ويعزل محمد ابن قلاوون فوافقه علماء مصر من الصوفية والقضاة، ولم يكن للجاشنكير أن يتجاهل وجود ابن تيمية في مصر وهو في المعتقل، وظن أنه تحت ضغطه، فاستحضره من الحبس ليوافق على مبايعته بالسلطنة، فأبى ولم يعترف بتنازل محمد بن قلاوون عن السلطنة، وكذب الشهود الذين جاء بهم الجاشنكير وأعلن أن البيعة له باطلة(فاغتاظ الملك المظفر وقال ردوه إلى الموضع الذى كان فيه، فردوه إلى حبس الاسكندرية. ولم ينقطع ابن تيمية عن مهاجمة الجاشنكير في سلطنته، فكان ينال منه (ويقول: زالت أيامه، وأنتهت رياسته، وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيه)(١).

أى أن ابن تيمية ادخل نفسه في صراع الجاشنكير مع محمد بن قلاون بحيث بات الجاشنكير يعتقد أنه من أنصار محمد بن قلاون. ومن الطبيعى أن يستغل الصوفية الموقف فعقدوا لهم مجلساً بأشارة نصر المنبجى، قام بالإدعاء فيه عليه ابن عطاء السكندرى.. وفى هذا المجلس كان القضاة صوفية لحماً ودماً وليسوا مجرد قضاة يعملون لصالح التصوف..

(١) عقد الجمان: مخطوط حوادث ٧٠٨ تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ٤٦.

ميت إلا الترحيم والقربان والصلاة على الميت والصدقة بمقدار الطاقة ليرحم الرب نفوس موتاكم ويبارك فى أعماركم وأرزاقكم ومنازلكم وأولادكم ويرد غيبة مسافريكم ويصلح لكم زمانكم. وليس لأحد من الأساقفة ولا القسس [القساوسه] ولا الشمامسه الغربا إذا دخلو مدينة اسكندرية أن يقدسو فى كنايسها ولا يتقدمو على مذابحها ولا لأحد أن يقدمهم فيها ولا خدمة البتة. ويجب على

ولم تستمر أيام الجاشنكير كثيراً إذ سقط وتفرق عنه اتباعه ـ والصوفية فى المقدمة ـ وتم الأمر للناصر محمد بن قلاوون.. وكان ابن تيمية معتقلاً بينما الصوفية يعدون العدة لاستقبال السلطان الجديد الذى تخلوا عنه سابقاً..

وبدأ الناصر محمد عهده بالنيل ممن تألب عليه من القضاة واخراج ابن تيمية من الحبس معززاً مكرماً إلى فترة من الزمن.. زاد فيها نفوذه السياسى حتى تم تعيين الأمير الأفرم فى نيابة طرابلس بإشارته، وعزل نائب دمشق لأنه شتم بعض فقهاء المدينة[1]، واستفحل خطر الشيعة فى الشام فقال ابن تيمية بقتالهم، وكتب إلى أطراف الشام يحث على قتالهم واستمر فى حصارهم حتى أجلاهم، وكتب بذلك للسلطان الناصر محمد فخشى السلطان نفوذه (لأن الناس اجتمعوا عليه ولو طلب الملك ما بعد عنه) وانتهز الصوفية الفرصة فكادوا له عند السلطان (وأشاعوا أنه يسعى فى الإمامة الكبرى وأنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه)[2]. أى يريد أن يقيم دولة كما فعل الفقية ابن تومرت فى شمال افريقيا.

وكان الناصر محمد عائداً إلى سلطنته الثالثة وقد ذاق الأمرين من تجارب الحكم وتحكم كبار الأمراء فيه مذ كان صبياً، فحرص اشد الحرص على ألا يعلو رأس فى مملكته وأن يقضى فى الحكم مستبداً، والصوفية من ناحيتهم خير معين للحاكم المستبد ولايخشى منهم مناوئاً، ثم

(١) تاريخ ابن كثير جـ١/٥٣: ٦٢.   (٢) الدرر الكامنة جـ١٦٦/١.

المومنين صيام الرسل الحواريين الذى هو بعد الخمسين شكرا لله على ما أنعم به علينا من موهبة الروح القدس صياما متصلا إلى اليوم الخامس من أبيب [٢٩ يونيو] ويعيدو فيه كما جرت العادة، وان اتفق ذلك اليوم يوم الأربعا فيفطرو فيه قبل وقت الصوم، وإن كان يوم الجمعة فلا يفطرو فيه قبل وقت الصوم الجارى بها العادة. وكذلك صوم الميلاد المقدس يكون من عيد مارى مينا فى خمسة

جاءت تصرفات ابن تيمية فى الشام تأكيداً لمخاوف السلطان ومساعى الصوفية.. فتم التحالف بينهما وأقام السلطان خانقاه سريا قوس للصوفية من أهل جنسه واتباعه وافتتحها فى حفل جامع سنة ٧٢٥[١]. وفى السنة التالية ٧٢٦أمر باعتقال صديقة السابق بسبب فتوى سابقة عن زيارة القبور[٢]. وهى أمور تمس الصوفية وتعبر عنهم، وذكرت صريحة فى دعوى الاتهام، مما ينهض دليلاً على ازياد النفوذ الصوفى فى أقل من عام.. وحمل الاعتقال الأخير كل حقد الصوفية على ابن تيمية، وقد كان يفرح بالاعتقال حيث يتوفر على العبادة والتأليف[٣]. إلا أنهم منعوه فى حبسه الأخير من الكتابة ونشر آرائه مما أثر على نفسيته وهو فى مرحلة الشيخوخة، وقد أمضى حياته فى حرب خصومه من الشيعة والصوفية والمغول، فمات بعد عامين فى الحبس.

وهكذا .. خسر ابن تيمية فى السياسة وأضاف إلى رصيد أعدائه نصراً جديداً عليه حين كان يقابل من الإيذاء فى عصر صديقة السلطان الناصر محمد اضعاف ما لاقاه فى عصر عدوه الجاشنكير .. وتمت للصوفية دولة بجهده وأقيمت لهم أعظم الخوانق التى أنشئت فى العصر المملوكى وهى (خانقاه سرياقوس)على اشلاء ابن تيمية وجهاده..

(١) النجوم الزاهرة جـ٩/ ٨٣.
(٢) تاريخ ابن كثير جـ٤/ ١٢٣.
(٣) تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ١٢٣: ١٢٤.

عـشـر يومـاً من هتـور [١١ نوفـمـبـر] إلى تسـعـة
وعـشـرين يومـاً من كـيـهك [٢٥ ديسـمـبـر] وان
وافقت يوم عيـد الميلاد الشـريف يوم الأربعا أو يوم
الجمعة فيفطرو فيه ولا يصومو بالجملة. وكذلك
عيد الغطاس المقدس في الحادى عشر من طوبه،
وان اتفق يوم أربعا أو يوم جمعة فيفطرو فيه أيضا
ولا يصـومـو. إن وافق العاشـر من طوبه الذى فيـه
صـوم الغطاس أن يكون يوم سبت أو يوم أحد فلا

ولاريب أن تنعكس انتصارات الصوفية على ابن تيمية إلى ازدهار مضطرد فى إعلان العقيدة الصوفية..

هـ ـ وتشجع كثير من الصوفية فاعلنوا عقائدهم بصراحة.. وأبرزهم فى القرن الثامن الوفائية من المدرسة الشاذلية، يقول عميدها محمد وفا(ت سنة ٧٦٥) (اللهم اجعلنى عيناً لذات الذوات ومشرقاً لأنوارها المشرقات ومستودعاً لأسرار ها المكتتمة، ويقول: قال لى الحق أيها المخصوص: لك عند كل شئ مقدار ومقدار لك عندى فإنه لايسعنى غيرك وليس مثلك شئ، أنت عين حقيقتى وكل شئ مجازك وانا موجود فى الحقيقة معدوم فى المجاز ، ياعين مطلعى أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتى، إليك يرجع الأمر كله والى مرجعك، لأنك منتهى كل شئ ولاتنتهى إلى شئ، طويت لك الأراضين السبع ..إلخ)[١].

وقيل عن على محمد وفا(شعره ينعق بالاتحاد المفضى إلى الإلحاد، وكذا نظم والده)[٢]. وقال على بن محمد وفا عن والده (سيدى ووالدى صاحب الختم الأعظم، فالشاذلى وجميع الأولياء من جنود مملكته، فهو يحكم ولايحكم عليه فى سائر الدوائر، فلايقال لنا لم لاتقررون

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٢٠.
(٢) شذرات الذهب جـ٧/ ٧١.

يصام بالجملة بل يصومو يوم الجمعة الذى قبل ذلك عوض ليلة الغطاس. ولا يجوز لأحد من المومنين أن يصوم يوم سبت إلا سبت الواحد فى كل سنة، وهو السبت الكبير الذى هو آخر الصوم. ويوجب صوم الأربعا والجمعة دايما طول السنة إلا أيام الخمسين فقط. ولا يجوز لشماس أن يتأخر عن خدمة بيعته ولا يغيب عنها فى الأيام التى يقدس فيها إلا عن ضرورة أو وجع جسدانى أو أمر

حزب الشاذلى لأنكم من أتباعه)[1] . أى أنه سار فى طريق الاتحاد إلى درجة استصغر معها الشاذلى نفسه وجميع الأولياء. بل أنه استهان بابن عربى وابن سبعين فقال عنهما(أنهما سلكا الطريق معاً إلى فلك يقال الفلك المحدب ورجعا منه ولم ينفذا عنه)[2]. أى أنه وأباه فاقا ابن عربى وابن سبعين فى دعوى الاتحاد..

ومن اتباع الشاذلية الدعاة لابن عربى كان أبو المواهب الشاذلى ٨٨٢ ووصف بأنه (شديد المناضلة عنه والانتصار له)[3].. وقال الشاعر البشتكى أنه نسخ كثيراً من مصنفات ابن عربى للشيخ بهاء الدين الكازرونى ت ٧٧٤وهو من أتباع الشاذلية[4].

وخارج المدرسة الشاذلية كان سراج الدين الغزنوى الهندى ٧٣٣قاضى الحنفية متعصباً للصوفية الاتحادية وعزر ابن أبى حجلة لكلامه فى ابن الفارض[5].

وسلك شمس الدين شيخ الوضوء الشافعى ت٧٩٠ طريق التصوف(ومع كونه فقيهاً شافعياً فقد كان يعتقد ابن عربى)[6]. أى أن مذهب ابن عربى اجتذب إليه كثيراً من الفقهاء

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٢٨.
(٢) مناقب الوفائية مخطوط ٩٩.
(٣) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٣٦.
(٤) إنباء الغمر جـ١/ ٥٠.
(٥) شذرات الذهب جـ٦/ ٢٢٨، ٢٢٩.
(٦) شذرات الذهب جـ٦/ ٣١٤.

سلطانى. ولا يجوز لقس إذا لم يحضر القداس من أوله أن يتقدم يقسم الجسد ولا يمسكه بيده البتة. ولا يخرج قس مجمرة البخور بعد قراءة الإنجيل المقدس انجيل القداس فى وسط الشعب، بل يبخر بها حول المذبح إلى الوقت المعلوم. وإذا عمد طفل فليصوم إلى أن يتقرب إن قدر، وإن هو شرب لبن أمه أو غيرها من المومنات فلا يجوز له قربان. ولا يجوز معمودية بلا قربان. ولا يجوز أن تبيت النسا

والقضاء حتى أن ابن خلدون اتهم الفقيه اكمل الدين البابرتى ٧٨٦ باعتقاد مذهب وحدة الوجود[١]. وفى هذا الجو درست مبادئ ابن عربى لكثير من الصوفية مثل نجم الصوفى ت ٨٠١[٢]. وبالغ بعضهم فى إظهار عقيدته شطحاً مثل ابن الصاحب ت ٧٨٨ (وكان يتعصب لابن عربى، وكان يكثر من الشطح ويتكلم بما لايليق بأهل العلم من الفحش، ويصرح بالاتحاد)[٣]. مما حدا باليافعى إلى المجئ لمصر بعد سنة ٧٣٤ لأنه كان (من جملة المعظمين لابن عربى، وله فى ذلك مبالغة)[٤].

وانضم بعض المماليك إلى حظيرة الاتحاديين بعد أن اعتنقوا التصوف، ومنهم قجماس الصوفى (ت٨٠٠)وكان من نقباء الدسوقية (وداعية إلى مقال ابن العربى)[٥]. ومقبل ابن عبد الله الرومى(ت٨٠٢) وهو عتيق الناصر محمد (طلب العلم واشتغل بالفقه وتعمق فى مقاله الصوفية الاتحادية)[٦].

مراحل العقيدة الدينية وتطورها فى مصر

ـ وحدة الوجود وصراع الصوفية مع الفقهاء. فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

(١) الدر الكامنة جـ٤/ ٢٥٠.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ٨٣.
(٣) شذرات الذهب جـ٦/ ٣٠١.
(٤) الشوكانى. البدر الطالع جـ١/ ٣٧٨.
(٥) إنباء الغمر جـ٢/ ٢٨.
(٦) إنباء الغمر جـ٢/ ١٢٩، شذرات الذهب جـ٧/ ٢٠.

في البيعة ليلة عيد ولا في ليالى الاحاد إلا أن تكون عجوز أو راهبة. ومن تزوج بامرأة ملكية [أى على مذهب الملكانية] فلا يمكن من ذلك إلا أن يتكللا عندنا [أى في الكنيسة القبطية] ولا يعمدو أولادهم إلا عندنا . وان غاب الشمامسة الكبار عن كنايسهم ويحضرو في أيام الأعياد يريدو التقدمة فيها والخدمة فلا يمكنو من ذلك بل يتقدم الذين يلازمون الخدمة وإن كانو دونهم. وأى شماس أو

---

* في النصف الأول من القرن التاسع:
* في النصف الثاني من القرن التاسع:
- حركة البقاعى سنة ٨٧٥هـ.
- بعد موت البقاعى سنة ٨٨٥.
* في القرن العاشر: الشعراني ممثل الفقه والتصوف:
- طبيعة الشعراني: صوفى تسلح بالفقه ليخدم التصوف، هجومه على معاصريه من الصوفية، تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين.
- الشعراني يشيد بالاتحاديين.
- الشعراني يقول بالاتحاد الصوفي.

وحدة الوجود وصراع الصوفية والفقهاء

فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين

أولاً: في النصف الأول من القرن التاسع..

١ـ في بداية القرن التاسع توافد إلى مصر جماعات من أوباش الاتحادية من أجناس الترك

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

علمانى اعترض قسا أو خاطبه أو جرى بينه وبينه
غضب فلا يمضى إلى قسا آخر يتقرب منه، وإن
هو مضى إلى بيعة أخرى فلا يقرب، وإن فعل
ذلك فهو والذى يقرب يكونو ممنوعين. وأى شماس
أو غيره تشارر [عمل شرا] على كاهن وخرج عن
حكم البيعة واستعان بالسلطان أو بالقاضى وعدل
عن الكهنة والبيعة إلى غيرهم، وطلب ما ليس له
بحق إن كان كاهنا فليمنع طقسه، وإن كان

لتعيش على جهد وعمل وإنتاج المصريين بسبب انتمائهم للفئات الحاكمة واحترفوا التسول فى الطرقات والعيش فى الخنقاوات والتكايا التى اعدها الحكام الترك لأوباشهم ومن شابههم.. وكان صدى حركة ابن تيمية لايزال فى الأسماع فهب علاء الدين البخارى الصوفى يهاجم ابن عربى وابن الفارض والاتحاديين ويؤيده فى ذلك السلطان ومنافقوا القضاة الصوفية..

وهكذا فإن الثلث الأول من القرن التاسع شهد خفوتاً فى صوت الاتحادية مع كثرتهم العددية الوافدة إلى مصر، ووصل الأمر إلى حد اضطهاد البارزين من أوباش الاتحادية فقيل فى ترجمة اسماعيل الرومى(ت٨٣٤)وقد أقام بالخانقاه البيبرسية أنه (امتحن بمقاله ابن العربى ونهى مراراً عن اقرائها.. وكان يقرئ العربية والتصوف والحكمة)[١] فى الخانقاه المذكورة، وقيل نفس الكلام عن ابن الفنرى(ت ٨٣٤) أنه (قدم مصر وله عشرون سنة وكان يعاب بنحلة ابن العربى وبأنه يقرئ الفصوص ويقرره، وكان بعض من اعتنى به أوصاه ألايتكلم فى شئ من ذلك)[٢].

فكان من عادة الأعاجم القادمين إلى مصر أن يقرروا عقائدهم فى الخوانق كما كان يفعل نصر العجمى[٣] (ت٨٣٣) إلا أن أساطين الصوفية تحرجوا من شدة الإنكار عليهم من تلاميذ

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٦٥.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٦٥.
(٣) النجوم جـ١٥/ ١٦٥: ١٦٦.

علمانيا فليمنع القربان. ولا تخالف الشمامسة ولا من دونهم قساهم [قساوستهم] ولا يخرجو عما يرسموه لهم لأنهم الامنا في بيعة الله، ومن يكرم الله وكهنته وبيعته يكرمه الله ومن يهينهم يهينه الله. وقد أبحنا للمومنين يعملو القرابين في منازلهم ويحملوهم إلى البيعة على قدر طاقتهم فيكون لهم الأجر والثواب بقدر أمانتهم ويكون عمله مما جرت به العادة أو لا، فان ذلك رفقا بالبيعة ليلا تكثر عليها المون.

ابن تيمية من ناحية وعلاء الدين البخارى من ناحية أخرى، فطالبوا بعض الاتحادية بالتخفيف، خصوصاً دارسى عقائد الاتحاد من القادميين والعاملين فى الخوانق الصوفية حتى أن بعضهم رجع عن عقيدة الاتحاد مثل الشاعر البشتكى[1].

٢ـ واتفق فى هذا القرن ظهور كثير من أعلام العصر المملوكى ممن جمعوا بين الفقه والقضاء والتاريخ مع الانكار على الصوفية الاتحاديين، وقد تتلمذوا على مدرسة ابن تيمية ومصنفاته..

وأبرزهم المقريزى(ت٨٤٥)، وقد صنف رسالة فى دحض مذهب الاتحاد خلص فيها إلى أن اتباع ابن عربى ليسوا بمسلمين[2]، وهاجم صوفية عصره كلهم، فقال فيهم (ذهب والله ما هناك، وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس العمرى:ـ

ما هى شروط الصوفى فى عصرنا اليوم
سوى ستة بغير زيادة
وهى (نيك) العلوق والسكر
والسطلة والرقص والغنا والقيادة

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٣٩٢: ٣٩٢.
(٢) ذكرها جورج قنواتى فى أبحاث الندوة الألفية للقاهرة جـ١/ ٣٥٩: ٣٦٠.

ومن بعد تكريز الاب انبا اخرسطودلوس فى دير أبو مقار بعد خروجه من اسكندرية أتى إلى مصر، وكانت عادة البطاركة الذين قبله جارية أن يكرزو فى كنيسة مارى سرجيوس[ابو سرجه] بقصر الشمع لأنها القاثوليكا [مقرالبابوية] بمصر، فلم وصل هذا الاب إلى فسطاط مصر اجتمع كهنة كنيسة السيدة بمصر بقصر الشمع المعروفة بالمعلقة وقالو كيف تدع كنيستك وتمضى إلى كنيسة أبو

وإذا مـــا هذى وأبدى اتحـــادا

وحلولاً من جـــهله وأعـــاده

وأتى المنكرات عـــقـــلاً وشـــرعـــا

فـهـو شـيخ الشـيوخ ذو السـجـادة

ويعقب المقريزى بقوله (ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها، حتى صاروا من سقط المتاع لاينسبون إلى علم ولاديانة، وإلى الله المشتكى)[١].

وكان ابن حجر (ت ٨٥٢) يعبر عن كراهيته لأتباع ابن عربى فى تراجمه، يقول عن على وفا (شعره ينعق بالاتحاد المفضى للإلحاد[٢]. وذكر نضال أبى عبد الله الكركى عن الاتحاديين فقال عنه (اجتمعت به وسمعت كلامه، وكنت أبغضه فى الله تعالى)[٣].

وامتدت كراهيته للصوفية جميعاً: يقول فى ترجمة ابن مفلح (اشتغل قليلاً وسمع من جماعته، ثم انحرف وسلك طريق الصوفية)[٤].

(١) الخطط المقريزى جـ٣/ ٤٠١ طـ دار التحرير.
(٢)، (٣) إنباء الغمر جـ٢/ ٣٠٩، ٣٠، ٤٩٦ بالترتيب.
(٤) إنباء الغمر جـ٢/ ٣٠٩، ٣٠، ٤٩٦ بالترتيب.

(*) أزمة مقر تكريز البطرك.

سرجه التى هى للأسقف وتتكرز فيها(*)، وجرى بين كهنة هاتين الكنيستين منازعة وخصومة إلى أن مضو به إلى بيعة السيدة المعلقة وكرزوه فيها، وكان معه يوميذ أربعة وعشرين أسقف شيوخ قديسين مقدمين. وقدس معه فى ذلك اليوم انبا فيلاتاوس أسقف مصر، وكان لكنيسة أبو سرجه أرشي دياقن يعرف بأبى الفرج الترس، فلما عدل البطرك عن كنيسته التى جرت العادة بتكريز

وقد شهد ابن حجر المتوفى (سنة ٨٥٢) ازياد نفوذ بعض الاتحاديين، وكان أحدهم مقرباً عند الظاهر برقوق فى عصر اشتد فيه المغارم، وتجادلا فى ابن عربى فهدده الصوفى بالوقيعة فيه عند برقوق فخافه ابن حجر واقنعه بالمباهلة، فتباهلا، ومات الصوفى بعدها[١].

وعرضنا لدور فقهاء القرن الثامن فى الرد على مصنفات ابن عربى والحكم بتكفيره، وقد تابعهم بعض الفقهاء فى القرن التاسع، وأهمهم الشريف الجرجانى وأحمد بن الزين العراقى وابن الأهدل وابن الجزرى وابراهيم الرقى وتقى الدين الفاسى[٢].

وتغيرت الأحوال فى النصف الثانى من القرن التاسع بموت أعلام الفقهاء وعلاء الدين البخارى.. فتحمس أصحاب الاتحاد، وقد ازدادوا كثرة وأصبحت لهم صلات بالسلاطين والأمراء وكانت صلة معظمهم بالدين ظاهرية ضعيفة، فقيل أن الأمير تمربغا (ت٨٧٩) «يحب شياطين الصوفية حتى وصل إلى اعتقاد أهل الاتحاد فكان يقول: وماذا على الإنسان إذا قال أنا الله»[٣]. أى أنهم أثروا عليه حتى جاراهم فى قول الشطح..

وبعضهم أخذ فى الدعوة لمذهبه يجمع الناس على الذكر مثل خلف المشالى (٨٧٤)

(١) تنبيه الغبى ١٥٠ للبقاعى.
(٢) تنبيه الغبى ٧٩: ٨٠، ١٣٥، ١٥١، ١٩٦، ١٥٢، ١٨٠، ١٥٧، ١٨٠، ١٩٠.
(٣) تاريخ البقاعى: مخطوط ورقة ١٥٣ ب.

البطاركة فيها قطع اسمه ولم يذكره على هيكله مدة أسبوع حتى جآ إليها بعد أسبوع وقدس فيها وأزال السجس [سوء الفهم] واعتذر أنه أنما مضى إلى كنيسة المعلقة قطعاً للخصومة التى جرت بين كهنة الكنيستين بسببه ليلا يتفاقم الأمر بينهم، وكانت روح القدس قريبة منه فظهرت منه معجزات وقوة نفس بالله تعالى، منها أنه منع إنسان يعرف بالحواجبى فانفلج وخرس ومات فى الحال،

«وكان ممن يميل إلى ابن عربى وينظر فى فتوحاته المكية، والغالب عليه الإكثار ممن نقل كلامه»[1].

بل كان من الاتحاديين زكريا الأنصارى شيخ الإسلام فى عهده - ويالها من سخرية ـ وقد قال عنه السخاوى (هو أحد من عظم ابن عربى واعتقده وسماه ولياً، وعذلته فى ذلك مرة بعد أخرى فما كف، بل تزايد إفصاحه بذلك بآخره، وأودعه فى شرحه للروض)[2].

لذا لم يكن مستغرباً أن يتعود أتباع ابن الفارض انشاد كلامه يوم الجمعة عند قبره[3] وصارت لهم صوله وجولة أستدعت أن يقوم البقاعى بحركته التى هزت التاريخ المملوكى فى الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى.

فى النصف الثانى من القرن التاسع، حركة البقاعى ٨٧٥هـ..

والبقاعى (٨٠٩ ـ ٨٨٥) تلميذ متأخر لابن تيمية هب ينازع الصوفية الاتحادية بعد أن علا صوتهم فى النصف الثانى من القرن التاسع.. ولم يكتف ـ كغيره ـ بالتصنيف[4]، وإنما

(١) الضوء اللامع جـ١/ ١٨٦.   (٢) الضوء اللامع جـ٣/ ٢٣٤.

(٣) الطبقات الكبرى للمناوى ٩٩ ب.

(٤) ألف البقاعى: تنبيه الغبى فى تكفير ابن عربى وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، وقد حققها الشيخ عبدالرحمن الوكيل فى كتاب واحد حمل عنوان (مصرع التصوف).

ثم اجتمع إليهن رووسا مصر وسالوه أن يحلل ابن أخت الشيخ أبو زكرى يحيى ابن مقاره وهو متقدم يومسيذ عند المملكة ومتولى الديوان [الذى يسمى]«البرهجي» وديوان النفقات لأنه كان ممنوعاً لأجل جرم ارتكبه فلم يحلله، فلما الحو عليه بالسوال فيه قال لهم: الكلمة الواحدة تغنى الحكيم والكلام الكثير لا يغنى الجاهل شراً، فلما سمعوا منه هذا القول سكتو عن خطابه ولم يجسرو بعد هذا يخاطبوه فى مثل ذلك.

قرن القول بالعمل فيما رددته المصادر المملوكية لهذه الفترة تحت عنوان (كائنة البقاعى وابن الفارض)..

وقد ظهر تحامل المؤرخين على البقاعى، لأنه جرؤ على تكفير ولى مقدس كابن الفارض فى وقت سيطر فيه الصوفية على العصر دعاية وسياسة. إلا أن البقاعى فى تاريخه عرض لتلك الحادثة بصورة يظهر فيها الصدق والترتيب المنطقى للحوادث، واتفق فى بعضها مع ما أورده المؤرخون الآخرون من خصومه الذين تجاهلوا سياق الحوادث وذكروا نهايتها مبتورة ومشفوعة بالتشنيع على البقاعى. وقد حدثت كائنة البقاعى سنة ٨٧٥في بداية حكم قايتباى، وكان الأمير يشبك ابن مهدى هو الداودار الكبير، وكان كاتب السر هو ابن مزهر الانصارى المتحالف مع الصوفية.

أ) ونلخص الوقائع فيما يلى حبسما أورد البقاعى نفسه فى تاريخه:

١ـ بعث البقاعى بخطاب مطول يثبت فيه كفر ابن الفارض بالأدلة.. وأرسله للقاضى ابن الديرى يطلب رأية حتى يلزمه بالوقوف معه فى الحق.

٢ـ لجأ الصوفية إلي المكر، حاولوا الحصول على كتاب البقاعى من ابن الديرى بحجة أن كاتب السر يطلبه، ففشلوا.. لكن البقاعى من ناحيته طلب منهم ـ وقد طالعوا الكتاب ـ أن يردوا عليه..

---

٦٦ : انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

ثم جرت له نوبة مع قوم سريان وهو فى كنيسة الشهيد أبو مرقوره بمصر بسبب الزيت والملح الذى يعملوه فى قربانهم حتى أن إنسان منهم يعرف بالشيخ أبو البشر طبيب العظيمية [الأعظمية] خاطبه فأمر التلاميذ أن يقيموه من قدامه فأقاموه من بين يديه وأخرجوه إلى خارج مجرجراً إلى برا الكنيسة، وكان طبيب الملك وقريباً منه فمضى المذكور إلى الوزير وشكاه له، وكتب

٣ـ عجزوا عن الرد بالحجة فلجأوا إلى أساليبهم التى تفوقوا فيها ـ والتى يتحرج منها البقاعى وإصحابه الفقهاء ـ فنشروا الإشاعات واثاروا الجماهير وأصحاب الجاه، حتى صاروا يؤذونهم فى الطرقات.

٤ـ اقترح زعيم الصوفية الفارضية ـ اتباع ابن الفارض ـ أن يعقد مجلس ذكر تسبقه مظاهرة صوفية لإثارة الجماهير، وتمر المظاهرة على بيت البقاعى لتنهبه الغوغاء، وسقط الاقتراح خشية أن يتطور الأمر إلى غير صالحهم.

٥ـ لجأوا إلى طريقة أخرى، استكتبوا أعوانهم، وأذاعوا أن البقاعى قد كفّر المساعد لهم والساكت عنهم ليثيروا الفقهاء المحايدين على البقاعى، ونجحوا فى إثارة زين الدين الإقصرائى وحدثت بينهما مشادة كلامية نتجت عن سوء الفهم والوقيعة..

٦ـ ضاقت الحال بالبقاعى، فحاول الاتصال بالداودار الكبير ليشرح له حقيقة الحال، ثم أن البعض اجتمع بالداودار وافهمه حقيقة الاتحادية، فخفف ذلك عن البقاعى بعض الشئ إلا أن نفوذهم كان لايزال غالباً، وكاتب السر الصوفى يخيفه ويهدده، إلا أن البقاعى ظل على سكينته.. ثم أرسل كاتب السر للبقاعى بعض أصدقائه يشير عليه بالرجوع عن رأيه لأن السلطان فمن دونه كلهم ضده، ورفض البقاعى التراجع، وعرض من جانبه أن يقبلوا منه أحد حلول ثلاثة ـ المجادلة أو المباهلة أو المقاتلة بالسيف فى حضرة السلطان والعلماء.. وقرأ

إلى يوحنا بطرك أنطاكية يشكوه أيضاً فلم يهمه شيأ من ذلك. وفعل بمصر أفعال كثيرة معجزة يطول شرحها.


حلقة ذكر في احد التكايا

وكان من أولاد النصارى بمصر صبى يعرف ببفام ابن بقوره الصواف عمره يوميذ اثنى وعشرون سنة وهو ابن أخت انبا جرجه أسقف ميساره [مركز ديروط]، وكان قد غير دينه فرفضه أبوه

البقاعى على الرسولين اللذين جاءا من طرف كاتب السر بعض كلام ابن عربى فاستمالهما إليه ووافقوه على تكفيره..

٧ـ سأل الصوفية صاحبهم كاتب السر أن يكتب إليهم ضد البقاعى إلا أنه رفض متعللاً بوجوب أن يستمع إلى رأى البقاعى أولاً. فاشترط البقاعى أن يكون ذلك بخلوه، فسعوا فى عدم اجتماعهما خوفاً من أن يستميله البقاعى إلى صفه..

٨ـ عمل البقاعى ميعاداً فى الجامع الظاهرى واستمال الحاضرين فضجوا فى الدعاء على أعدائه ، وابتدأ الميزان يتحول لصالحه فقد حاول الصوفية استكتاب قاضى الحنابلة معهم ولكنه افتى بتكفير ابن الفارض وتابعه فى ذلك آخرون..

٩ـ لما رأت العامة أن أمر الصوفية ابتدأ فى التراجع وان البقاعى لايزال يقرر رأيه وأنهم عجزوا عن مقابلة حججه خف الهرج منهم، وبدأ بعضهم فى التعاطف معه.

١٠ـ حاول السلطان عقد مجلس فى مستهل سنة ٨٧٥ بسبب ابن الفارض فسأله كاتب السر الصوفى أن يترك ذلك، وبذل همته لدى العلماء وسعى لتأخير عقده.. إلا أن السلطان صمم فعقد المجلس وانتهى إلى لاشئ مع اقتناع البعض بأن البقاعى على حق[1].

(١) تاريخ البقاعى مخطوط ورقة ٨، ٩.

وأمــه وأبعــدوه عنهم فــمــضى [بعــد أن عــاد لنصرانيته] إلى كنيسة ميكاييل المختارة وأقام بها أيام وعـول على الدخـول إلى دير أبو مـقـار صـحـبـة جماعة من الرهبان أشارو عليه بذلك، فلما أرادو المسير قال لهم: ما منفعتى إذا مضيت معكم إلى تلك البرية ولم أعترف بالمسيح فى الموضع الذى أنكرته فيه. ثم تركهم وشد زناره وخرج يمشى فى أسـواق مـصـر، وكـان أبوه بقـوره الصـواف يعـامل

ب) آراء المؤرخين الآخرين،

١ – يقول ابن الصير فى عن ذلك المجلس (فى محرم صعد قاضى القضاة ومشايخ الإسلام لتهنئة السلطان، ولم يتكلموا فى شئ من أمر ابن الفارض لابنفى ولاباثبات فالأمر لم يكن بيدهم ولكن بيد السلطان، واطلع البرهان البقاعى فى هذا اليوم قبل كل أحد، وجلس بالجامع وصحبته كتب كثيرة، وليس راجعاً عما قاله فى كلام ابن الفارض وتكفيره، وقد أوصى (أى ترك وصيته) وعنده أن هذا الأمر ليس التكلم فيه إلا فرية محضة، فإن قتل قتل شهيدا)(١).

وواضح أن البقاعى وإن ضم إليه بعض الفقهاء إلا أن الرأى العام يميل إلى تقديس ابن الفارض ويعتبر البقاعى معتدياً على حرمته، ويمثل هذا الرأى جمهرة من الصوفية والعلماء والمعبرين عنهم، ولاريب أن يأتى هذا على هوى السلطان خاصة وأن كاتب السر أقربهم إليه..

٢ـ يقول ابن أياس وهو قريب من هذه الفترة (كثر القيل والقال بين العلماء بالقاهرة فى أمر عمر ابن الفارض، وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها فى قصيدته التائية، واعترضوا عليه فى ذلك، وصرحوا بفسقه، بل وتكفيره، ونسبوه إلى من يقول بالحول

(١) أبناء الهصر ١٧٦.

الاستاذ «عدة الدولة رفق» وهو يوميذ زمام الأتراك ومتولى القصر وقريب من الملك [معد المستنصر بالله]. فلما رأى المسلمين زناره فى وسطه بعد إسلامه أخذوه واجتمعو عليه ومضو به إلى الشرطة فاعتقله الوالى وضيق عليه، فمضى أبوه إلى صاحبه «عدة الدولة رفق» وأوعده بالجملة الكبيرة من المال على أن يخلصه، فقال له ما أقدر أفعل فى هذا شئ إلا أن يرضا ولدك بأن يظهر أنه

والاتحاد، وكان رأس المتعصبين عليه برهان الدين البقاعى وقاضى القضاة ابن الشحنة وولده عبد البر ونور الدين المحلى وقاضى القضاة عز الدين المحلى وتبعهم جماعة من العلماء يقولون بفسقه..)[1] أى أن البقاعى استطاع أن يضم إليه هذا الرعيل من الفقهاء.

ويقول ابن أياس (وأما من تعصب له ـ أى لابن الفارض ـ فهم الشيخ محى الدين الكافيجى الحنفى، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى، وبدر الدين بن الغرس، وابن حجى، والجلال ابن الكمال السيوطى، وزكريا الأنصارى، وتاج الدين بن شرف، فلما زاد الرهج فى هذه المساله كتبت الفتاوى فى أمر ابن الفارض التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة ـ أى أورلت عبارات ابن الفارض لتمشى مع الإسلام ـ فكتب الشيخ الكافيجى على هذه السؤال، وألف الجلال السيوطى كتاباً سماه(قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض)، وألف البدر بن الغرس فى ذلك كتاباً شافياً وصنف بعضهم كتاباً سماه (ترياق الأفاعى فى الرد على البقاعى).. ووقع فى هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها.

ثم إن بعض الأمر اء تعصب لابن الفارض، وتعصب له السلطان أيضاً، فكتب سؤالاً وجهه للشيخ زكريا الأنصارى فيمن زعم فساد عقيد ابن الفارض، فامتنع الشيخ زكريا عن الكتابة

(١) تاريخ ابن أياس جـ٢/ ١١٩ طـ بولاق.

مـجنون وأنفـذ أنا الشـهـود إلى الحبس ينظروه ويسـمعو كلامه وأخلصه وهو نصراني، وكان معه في الحبس راهب سرياني فوعظه وأنار قلبه وأبان له طريق الشهادة وجعل القتل على اسم المسيح عنده أحلا من الشهد حتى صار يشتهيه ويوثره على الحياة، فلما دخل إليه الشهود كلمهم كلام العقلا فاعترف بالأمانة الحسنة كما يجب أنه نصراني مسيحى، فقالو له: إنما قيل لنا أنك فعلت هذا عن

غاية الامتناع، فألح عليه أياماً، حتى كتب بأنه يحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته، وأن ما قاله صدر عنه حين استغراقه وغيبته، ولكن ينبغي كتم تلك العبارات عمن لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر، ولكل قوم مقال.. فلما كتب زكريا ذلك سكن الإضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض، وعقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية، وحصل له عقيب ذلك فالج وذهل وسلب منه العلم وحصلت نكبات لولده عبد البر، وأما البقاعى فكادت العوام أن تقتله، وحصل له من الأمراء مالا خير فيه، واختفى حتى توجه إلى مكة فمات هناك، وأما أمام المدرسة الكاملية فخرج وهو مريض إلى الحجاز فمات فى أثناء الطريق.. وقد جرى على من تعصب على ابن الفارض ما لاخير فيه، وظهرت بركته فى المتعصبين عليه شيئاً فشيئاً إلى الآن..)[1].

ج) دور زكريا الأنصارى (شيخ الإسلام):

ولعب زكريا الأنصارى دوراً كبيراً فى إفشال حركة البقاعى.. وقد سبق أن رد على سؤال السلطان بشأن ابن الفارض وسوغ إيقاع الإضطهاد باتباع البقاعى..مع أن زكريا الأنصارى امتنع غاية الامتناع حسب قول ابن اياس. ثم بادر بالرد.. يقول الشعرانى (لما وقعت فتنة البقاعى فى إنكاره على ابن الفارض أرسل السلطان إلى العلماء فكتبوا له بحسب ما ظهر

(١) نفس المرجع جـ٢/ ١١٩: ١٢٠ طـ بولاق.

جنون لحقك، فقال لهم: لو كنت مجنون ماحفظت دينى وأمانتى وأنا بحمد الله عاقل مومن بالسيد المسيح له المجد، فمضى بهم الوالى إلى الوزير حتى شرحو له ما كان بحضور عدة الدولة رفق فأمر الوزير بقتله، فنزل صاحب سير [حاجب] السلطان يعنى أمير جاندار مع الوالى إلى الشرطة وخاطبوه ولطفو به وأعلموه أنهم قد أمروا بقتله، فلم يرجع عن الاعتراف بالسيد يسوع المسيح،

- -

لهم وامتنع الشيخ زكريا ثم اجتمع بالشيخ محمد الإصطمبولى فقال له: اكتب وانصر القوم وبين فى الجواب أنه لايجوز لمن لايعرف مصطلح القوم أن يتكلم فى حقهم بشر لأن دائرة الولاية تبتدئ من وراء طور العقل لبنائها على الكشف)[1].

ويدين زكريا الأنصارى بعقيدة ابن عربى ويدخلها فى شروحه ولم يلتفت لإنكار السخاوى عليه كما سبق.. وموقف السخاوى كمؤرخ يتسم بالغرابة بالنسبة للبقاعى وحركته.. فالسخاوى فقيه ينكر على الاتحاية وسبق أن أوردنا انكاره على زكريا الأنصارى لغضبه لابن عربى. بل أن السخاوى ألمح إلى الإنكار على التصوف أكثر من مرة.. وقال عن الفقيه ابن صديق (وقد كان من المشتغلين بالفقه.. وبلغنى فى هذه السنين أنه تحول عن طريقته فسلك التسليك والشياخة الصوفية، وكأنه لمناسبة الوقت[2].

ثم أن للسخاوى خصماً شهيراً هو الجلال السيوطى الذى اتخذ جانب الدفاع عن ابن عربى وابن الفارض مع زكريا الأنصارى وغيره..

ومع ذلك فالسخاوى متحامل على البقاعى فى ترجمة له فى الضوء اللامع، وان لم يمنعه ذلك من ذكر جهوده ضد الصوفية فيقول أن البقاعى لمح بالحط على الغزالى وقال (إن

(١) الطبقات الصغرى: ٣٨.

(٢) الضوء اللامع جـ١/ ١٧، ج٣/ ٨٧، ١٤٤: ١٤٥.

فأخرجوه من سجن الشرطة وتبعه خلق كثير من المصريين والعسكرية وغيرهم وبأيديهم العصى وآلات العذاب، فلم يمكن نايب والى المعونة أحد منهم يمد يده إليه حتى انتهى به إلى راس الجسر، فنزل [الوالى] هناك عن بغلته وكان عليها سرج ولجام بحلية ثقيلة وقلع سيفه الجلى وجعله على السرج وقال له: خذ هذه البغلة وما عليها وأنا أثبت اسمك فى ديوان السلطان [معد المستنصر

قوله «ليس فى الإمكان ابدع مما كان» كلام أهل الوحدة من الفلاسفة والصوفية)، وكذلك حط على ابن عطاء السكندرى[1].

واعترف بدور البقاعى فى إبطال المولد الأحمدى بطنطا وإن لم يسند له الفضل كاملاً يقول عنه (قام بإنكار المولد بطنتدا أو ساعد مع القائمين فى إبطاله)[2]. واعتبر إبطال المولد الأحمدى فتنة يقول (كان للبقاعى دور الفتنة التى انتهت بإبطال المولد الأحمدى[3].

ويمكن تفسير موقف السخاوى فى ضوء المنافسة التى تكون بين الفقهاء .. فلا نملك سوى هذا القول.. فالبقاعى خرج على تقاليد عصره وأنكر صراحة ما كان السخاوى يلمح به فى ثنايا كلامه.. فلم يبق للسخاوى إلا التحامل على منافسه ومحاولته للتشكيك والتقبيح حتى فيما يضطر إليه من ذكر أعماله الحسنة.. ثم أنه تجاهل صراعه الأساسى مع أتباع ابن الفارض..

د) والواقع أن البقاعى كان يناضل عصره بكل ما أوتى من عنف، ويكفى أنه حين ساءت به الأمور قال لمن عرض عليه المهادنة (إنى والله قد وضعت بين عينى القتل بالسيف والضرب

(١) الضوء اللامع جـ١/ ١٠٧.
(٢) الضوء اللامع جـ١/ ١٠٨.
(٣) التبر المسبوك ١٧٧، وورد ذلك فى الجواهر السنية فى مناقب البدوى: ٦٥.

بالله] وأجعل لك واجب شي تقبضه في كل سنة وارجع عن هذا الرأى، فقال له: لو دفعت لى ملك مصر ما ألتفت إليه، فرفع يده ولطمه وكان فى أصبعه خاتم كبير ذهب حتى ورمت عينيه، ثم قال للسياف: جرد السيف. فجرده، فقال للصبى: أنظره فانه قاطع، فقال له: يا مولاى وجريدة [النخيل] أيضاً تقطع، والتمسو الرجاله حتى يعصبو به عينيه، فقال لهم: ما تحتاجو. وقطع من

إلى أن أموت منه فرأيته أهون عندى من أن يجهر بالكفر في بلد أنا فيه، ويقال أن الصلاة حجاب، والصوم حجاب، والقرآن باطل أو شرك، ويراد خلع الشريعة المحمدية، ويظهر دين الكفر على دين محمد صلى الله عليه وسلم، فإما أن يعيننى الذين يريدون سكوتى بمال أقدر به على الانتقال من هذا البلد، فإنه والله لو كان معى مال اتجهز به هاجرت منها، وأما أن يختاروا منى واحدة من ثلاث بحضرة السلطان والقضاة الأربعة وساير العلماء وهى : المجادلة ثم المباهلة ثم المقاتلة، فيعطينى السلطان سيفاً وترساً ويعطى أشبهم (أكثرهم شبابا) سيفاً وترساً ويخلى بيننا قدامه فى حوش القلعة، وينظر ما يكون منى على شيخوختى، فإن قتلت كنت شهيداً وإن قتلت خصمى عجلت من اقتله فى النار)[1].

فالبقاعى أراد بإخلاص الطريق الصوفى وأن يربطه بالإسلام الذى أدعى منافقو الصوفية الأوائل أنهم ملتزمون به. وكان نصيبه هذا العنت مما اضطره فى نهاية الأمر إلى الرحيل عن مصر متمتعاً بكراهية حكامها ورجال دينها لمجرد دعوته للحق، بل اعتبر بعض من حاول الانصاف ـ أن تلك هى سيئته الوحيدة. فقول ابن إياس (فى رجب ٨٨٥ جاءت الأخبار بموت برهان الدين البقاعى فى دمشق، وكان عالماً فاضلاً محدثاً ماهراً فى الحديث ليس من مساويه سوى حطه على الشيخ عمر ابن الفارض)[2].

(١) تاريخ البقاعى: ٥٤.

(٢) تاريخ ابن أياس جـ٢/ ١٩٧ طـ. بولاق.

كم غلالته خرقة عصب بها عينية بيده وبرك على الأرض وحول وجهه إلى الشرق وصلب على جبينه ومد عنقه فلكزه السياف بعقيبة السيف ليميل وجهه إلى القبلة [إلى الكعبة] فلم يفعل والتمس مآ فلم يسقا. وضربت عنقه فوقع بطنه على الأرض ورأسه ووجهه قايم منتصب إلى الشرق حتى تعجبو كل الحاضرين وجعلو أربعة يحرسوه فى تلك الليلة فراو [فرأوا] بالليل نوراً عظيما

بعد موت البقاعى سنة ٨٨٥هـ

١ـ كانت حركة البقاعى هزة فى المجتمع المصرى الراكد، وبموته عاد الهدوء وكثر تحول باقى الفقهاء إلى عقيدة الصوفية وشهدنا السخاوى (ت٩٠٢) يقول عن ابن صديق أنه انتحل الشياخة الصوفية(وكأنه لمناسبة الوقت).. واعترف زكريا الأنصارى للشعرانى باعتناقه للتصوف منذ بدايته واستمرت مكانته حتى القرن العاشر تتزايد ليصبح شيخ الإسلام.. وعرضنا لموقف السيوطى من كائنة البقاعى وكيف أنه صنف فى الرد عليه كتاباً يدافع فيه عن ابن الفارض، وكرر السيوطى مقالته فى(تأييد الحقيقة العليه)معتمداً على المبررات المعتاده من السكر الصوفى والتأويل إلخ[١].

وقال الشعرانى عن نور الدين المحلى الشافعى(كان لديه الاعتقاد الحسن فى الصوفية عكس البقاعى، وكان يعتقد حتى فى ابن عربى وابن الفارض، وكان يقول بأن الملاحدة قد دسوا كثيراً فى كلام الأئمة بغير علمهم)[٢]...

وقام الصوفية وأعوانهم بالقضاء على أى أثر لحركة البقاعى بعد رحيله باضطهاد تلاميذ وملاحقتهم بالمحاكمات المتعسفة.

....

(١) تأييد الحقيقة العلية ٧١، ٧٢، ٧٣.

(٢) الطبقات الصغرى ٦٤.

مفزع قد نزل عليه حتى أن اثنين منهم تجننوا والاثنين الاخر خرجوا من مصر ولم يعرف لهم خبر إلى اليوم، ولما بلغ هذا الخبر للملك معد المستنصر بالله أمير المومنين أمر باطلاقه لأهله يدفنون حيث يريدوا فحمله أبوه إلى كنيسة ميكاييل المختارة [بجزيرة الروضة] ودفنه خارج الباب: وفى اليوم الثالث وصل الاب انبا اخرسطودلوس من دير الشمع إلى البيعة المذكورة

يقول ابن اياس في حوادث ٨٨٨[1] (حصر شمس الدين الحلبى تركة يحيى بن حجى فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى: فقال هذا الكتاب ينبغي أن يحرق، وان ابن عربى كان كافراً أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان. فمسكوا عليه ذلك وآرادوا تكفيره.. وآل أمره إلى أن عزروه وكشفوا رأسه ثم حكم باسلامه وحقن دمه، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك.

فى القرن العاشر

الشعرانى ممثل الفقه والتصوف

طبيعة الشعرانى .صوفى تسلح بالفقه ليخدم التصوف..

والشعرانى هو العلم الذى تميز في القرن العاشر وسيطر عليه وعلى ماتلاه من قرون فى العصر العثمانى. والشعرانى صوفى تسلح بالفقه ليخدم التصوف كشأن الغزالى فى القرن الخامس.. وقد عرف العصر المملوكى ـ وعصر الشعرانى على الأخص ـ طائفة من الفقهاء المتصوفة.. أو بعض الفقهاء الذين تصوفوا وأصبحت لهم بعض الدراية بالتصوف .. وقد رأى الشعرانى فيهم خطراً على التصوف إذ أنهم لدرايتهم بالتصوف ومعرفتهم باختلافه عن الشرع

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢١٩: طـ. بولاق.

فوجدهم قد دفنوه خارج البيعة فأنكر ذلك وقال: شهيد يدفن خارج البيعة؟ وأمر بهدم القبر ودخل به إلى الكنيسة وكشف عنه الكفن ليقبله ويتبارك منه وجد عليه دماً طرياً كأنه في تلك الساعة خرج منه فأخذ منه وصلب على لباسه وبنا مذبح هناك على اسمه وكرزه ودفنه مقابله على وجه الأرض وجسده باقي إلى الآن هناك في كنيسة ميكاييل المختارة، وبعد هذه الأيام قسم الاب انبا

الإسلامي يمكنهم أن يصيبوا التصوف في مقتل.. فالشعراني (كصوفي فقيه) تخوف من (الفقهاءالصوفية) خشية أن يكون منهم من يعمل لصالح الفقه كما يعمل الشعراني لصالح التصوف..

لذا نرى الشعراني يفضل الفقيه الصرف ـ رغم انكاره على الصوفية ـ على الفقيه الصوفي لاحتمال أن يكون منافقاً في تصوفه وخطراً على الطريق الصوفي، فيقول(إن الفقيه الصرف الذي لم يدخل طريق القوم مقدم على الفقيه المتفعل فيها من غير اتقان علومها والمشي على طريقها، لأن الفقيه الصرف سالم من النفاق الذي وقع فيه المتفعل مع زيادة عليه بالعلوم الشرعية)، بل تطرف الشعراني فاعتبر العامي المعتقد في الصوفية خيراً من ذلك الفقيه الصوفي (بل نقول العامي الذي يعبد الله تعالى ويسأل العلماء ـ يقصد الصوفية ـ عن كل شئ أشكل عليه في دينه، أحسن حالاً من هؤلاء المتفعلين في طريق القوم)[1].

* هجومه على معاصريه من الصوفية

١ـ فالشعراني يهاجم أوباش الاتحادية في عصره.. يقول فيهم(استحكم في غالبهم الضلال والفساد.. وبعضهم رأى أن كل شئ في الوجود هو الإله، وأن عين هذا الوجود

(١) لطائف المنن ٦٠٦ ـ مكتبة عالم الفكر.

(*) أنباء ميخايل: كاتب سير عشرة من البطاركة في هذا الكتاب بداية من خايال الثالث حتى شنوده.

اخرسطودلوس كاتب له يعرف بأنبا ميخاييل(*) على كرسي تنيس، وكان فاضل عالم وهو الذى كتب سيرة عشرة بطاركة أولهم خايال الثلثة وآخرهم شنوده، ولما عول البطرك على مكاتبة انبا يوحنا بطرك انطاكية تقدم إليه بذلك وكتب عنه السنوديقا وسار بها هو وأنبا غبريال القديس أسقف صا [مركز كفر الزيات]، وكان شيخ رأيته عند دخوله إلى اسكندرية في تكريز أنبا اخرسطودلوس.

الحادث هى عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجان والإنسان والملك والشيطان، ويجعلون الخلق هو عين المخلوق من خسيس ونفيس ومرجوم وملعون ورانس ومرءوس حتى الأباليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان فى حبه مجنون.. وقد نقلت هذا الكلام فى زماننا عن جماعة بالصعيد، فيعقدون هذه الأمور فيما بينهم وبين أصحابهم من الملاحدة، وينكرون ذلك فى الظاهر خوف القتل. بل الذى أقوله أن إبليس نفيسه ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحيا من الله تعالى، وإن كان هو الذى يلقى إلى نفوسهم بذلك.

وقد حكيت لسيدى على الخواص بعض صفات هؤلاء فقال: هؤلاء زنادقة وهم انجس الطوائف لأنهم لايرون حساباً ولاعقاباً ولاجنة ولاناراً ولاحلالاً ولاحراماً ولا آخرة، ولالهم دين يرجعون إليه ولامعتقد يجتمعون عليه، وهم أخس من أن يذكروا لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعانى وسائر الأديان التى جاءت بها الرسل عن الله تعالى، ولانعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء).

٢ـ وقال عنهم (وكان أخى الشيخ أفضل الدين يقول: لوكنت حاكماً لضربت عنق كل من قال: لاموجود إلا الله ونحو ذلك من الألفاظ لأنه لم تأت بذلك شريعة)[١].. ويقول

(١) لطائف المنن ٤٨٦ : ٤٨٧ طـ. قديمة.

ومن بعد ذلك بمدة اجتمع جماعة الأساقفة وهم
أنبا يوحنا أسقف سخا [مركز كفر الشيخ]
المعروف بابن الظالم، الكاتب كان قبل أسقفيته،
وأنبا خايال أسقف قطور [مركز طنطا] وأنبا إيليا
أسقف طموية [مركز السنبلاوين] وأنبا جرجه
أسقف الخندق [منطقة دير الملاك شمال القاهرة]
وأنبا مرقس أسقف البلينا وأنبا ميخاييل أسقف
تنيس كاتب السنوديقا المقدم ذكره وجماعة من

الشعراني أنه سمع بعض الاتحاديين يقول(ما ثم موجود إلا الله، فقلت له ايش أنت؟ فقال كلاماً والله ولو كان معي شاهد آخر يشهد لذهبت به إلى حكام الشريعة يضربون عنقه)[1].

وينصح الشعراني بعدم الاجتماع (بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريق القوم في النصف الثاني من القرن العاشر من غير إحكام قواعد الشريعة، فإنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم، وقد دخل علي منهم شخص وانا مريض ولم يكن عندي أحد من الناس فقلت له: من تكون؟ قال أنا الله فقلت كذبت فقال أنا محمد رسول الله فقلت له كذبت فقال: أنا الشيطان وأنا اليهودي فقلت له: صدقت. فوالله لو كان عندي أحد يشهد عليه لرفعته إلى العلماء فضربوا عنقه بالشرع الشريف..)[2]. فالشعراني يستعدي السلطة عليهم، ولاشك أنهم يتمتعون بكراهية الشعراني وحقده لذا لم يترجم لأحد منهم في طبقاته الصغرى أو الكبرى..

النهي عن مطالعة كتب الاتحاد الصوفية:

١ـ ويقول الشعراني عن أصحاب الاتحاد في عصره (أنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم)فهو بذلك يحقق غرضه بالهجوم على أوباش الاتحادية، وفي نفس الوقت يبرئ فيه ابن عربي وغيره من مقالة الاتحاد، وقد قال في ترجمة ابن عربي

(١) لواقح الأنوار ٧٩.
(٢) لطائف المنن ٣٩٥.

الكهنة بالاسكندرية ودخلوا إلى مصر وتعاقدوا علي خلع الاب البطرك أنبا اخرسطودلوس من البطركية وادعوا عليه في الظاهر بأنه عند تقدمته لم تقرا عليه الصلوات التى جرت بها العادة أن تقرى على البطاركة. وكان سبب ذلك في الباطن خصومة جرت بينه وبين انبا يوحنا أسقف سخا المذكور فشعت [شنّع] عليه هولا الأساقفة والكهنة المذكورين. وقال لهم: إن سكتم عن مساعدتي

(وما انكر عليه من انكر إلا لدقة كلامه، لاغير)، وقرر أن مذهب الصوفية أنهم ينكرون(على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة، خوفاً من حصول شبهة في معتقده يموت عليها ولايهتدى لتأويلها على مراد الشيخ)[1].

ويقول الشعراني (أخذ علينا العهود ألا نمكن أحداً من إخواننا يطالع في كتب الشيخ ابن عربي في التوحيد المطلق، ولافي كتب غيره من غلاة الصوفية، وذلك لعدم الفائدة وشدة الإنكار على من تفوه بما ذكروه فيها مما يخالف عقول الناس، وما كل ما يعلم يقال، وربما فهموا منها أموراً تخالف صريح السنة فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين)[2].

فهو مع اعترافه بأن ابن عربي من غلاة الصوفية وأن كلامه يقابل بشدة الإنكار إلا أنه يوحي بأنها لاتخالف صريح السنة ويلجأ إلى التهديد بالخسران لمن يجرؤ على مطالعة كتبه..

٢ـ ثم يلجأ الشعراني إلى تعميم تحذيره لتشمل مواضع التصوف في المصنفات القديمة الشهيرة لمعتدلي الصوفية (وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء، ومن كتاب النفخ والتسوية له وغير ذلك من كتب الفقه فإنها إما مدسوسة عليه أو وضعها أوائل أمره ثم رجع عنها، وكذلك يحذر من مواضع في كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي نحو قوله(الله

(١) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٦٣ طـ. صبيح.
(٢) البحر المورود ٢٧٤.

عليه فيفعل معكم أكثر مما فعل معي. فصغوا إليه وقامسوا على الأب البطرك فلم يلتفت لهم ولا اجتمع بأحد من الأراخنة بمصر إلى أن اتضع له انبا يوحنا أسقف سخا، وكان من أوفى مساعديه في ذلك، وغيره [أقنعه] الشيخ أبو زكرى يحيى ابن مقاره صاحب ديوان المملكة وأحضر له الأسقف المذكور إلى البيعة وقدس معه وانصلحت الحال بينهم وبطل ما كانوا معولين عليه. وسار في

تعالى قوت العالم)ومن مواضع في تفسير مكي ومن مواضع كثيرة في كلام ابن ميسرة الحنبلي، وقد صنف الناس في الرد عليه، وليحذر من مطالعة كلام منذر بن سعيد، وكذلك يحذر مطالعة كتاب خلع النعلين لابن قسي.. وكذلك تائية سيدى محمد وفاء.. وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيى الدين بن العربي رضى الله عنه لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لاسيما الفصوص والفتوحات المكية)[1].

(وأخذ علينا العهود ألا نمكن أحداً من إخواننا يشتغل قط بأسماء السهروردى ولا أسماء البوني ولاعلم الحرف الأعلى..[2].

تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين،

١ـ وقرن الشعراني كلامه بالدفاع عن ابن عربي بدعوى أن ما كتب في مصنفاته مدسوس عليه أو أن ابن عربي قام بالرد على أهل الحول والاتحاد[3]. ثم شمل شيوخ الاتحاد الباقين برعايته وأضفى عليهم حمايته بقول(ومما من الله تبارك وتعالى به على: عدم إصغائى بأذنى إلى وقتى، ولم أزل أؤول للقوم ما صح عنهم وأنفى مالم يصح)[4]. أى أنه يؤول ما صح نقله من كفرهم ويخفى ما لم يصح ..

(١) لطائف المنن ٢٩٤.
(٢) البحر المورود ٢٧٨.
(٣) لطائف المنن ٤٨٧.
(٤) لطائف المنن ٤٧٩.

تلك الليلة إلى دمنهور وتوجه إلى دمرو بالغداة، وسار من هناك إلى دير أبو مقار بوادى هبيب. وكانو رهبان دير أبو مقار وكهنة اسكندرية يفضلو [يستبقوا] القربان ويخبوه من يوم الأحد الزيتونة إلى يوم الأربعا الكبير، وكان انبا ميخاييل كاتب السنوديقا أسقف تنيس هناك معه فأنكر الاب البطريرك عليهم ما يعتمدوه فى أمر القربان وذكر لهم ما يدخل عليه من العفن والتغيير والدبيب

٢ـ وقد وقع الشعرانى فى المحظور وهو يؤول احدى شطحات أبى يزيد البسطامى بقول ـ مسنداً الكلام لشيخه الخواص ـ فى تبرير قول البسطامى(سبحانى ما أعظم شانى) (إن أبا يزيد لما نزه الحق وقدسه قيل له فى سره: هل فينا عيب تنزهنا عنه قال : لايارب، قال له الحق: إذن نزه نفسك عن النقائص، فلما جاهد نفسه ونزهما عن الرذائل قال : سبحانى قولاً ذاتياً ضرورياً حقا لادعوى فيه.. قال الخواص ـ أو الشعرانى ـ وعجيب ممن يؤول أخبار الصفات كيف لم يؤول كلام العارفين مع كونهم أولى بالتأويل من الرسل لنقصهم فى الفصاحة عنهم[1].

فالشعرانى اسند لنفسه فى البداية علم الغيب حين علم بحديث البسطامى لنفسه، ثم اسند الوحى للبسطامى وجعله يحاور ربه، ثم بعد ذلك يتخل عن دعوى الاتحاد فاعتبر تنزيه نفس البسطامى عن النقائص والرذائل مبرراً لقوله (سبحانى).. وجاءت القاصمة حين طالب بتأويل كلام الصوفية قياساً على تأويل صفات الله تعالى التى قد تفيد مشابهة البشر كالوجه فى (ويقى وجه ربك) أو اليد (يد الله فوق أيديهم).. فاعترف ضمنيًا بألوهيتهم أو من الرسل بالرعاية.

(١) درر الغواص: ٩١.

[الدود] وغير ذلك مما لا يمكن شرحه وأمر بابطال ذلك واحـرم من يفـعله فـيـمـا بعـد بمحـضـر من جماعـة أسـاقـفـة في دير أبو مـقـار وحـضـور وكـيل المسيح بقيـره الرشيدى الكاتب صاحب الصليب، فـقـام الرهبـان على الاب البطرك وجـاو إليـه بالمفاتيح الحديد وقالوا له: ما أنت أفضل من الابا الذين من قـبلك. فـقـام وهو مـغـضب وخـرج إلى قلايته وجرى شعت [أضطراب] عظيم، فـأخـرج

٣ـ وفى موضع آخر يفتخر الشعرانى بتأويله لكلام الصوفية (وحمل كلامهم على أحسن الوجوه، وكذلك كلام اتباعهم، فأحمله على محامل حسنة)(١).

٤ـ والشعرانى كصوفى فقيه يتخذ علمه بالفقه سلاحاً للدفاع عن نحلة التصوف ـ إلا أنه ناقض نفسه بتأويله لأشياخه الصوفيه بما يتنافى مع فلسفة الفقه وأسلوب الإسلام.. ثم أنه تناقض مع نفسه ككاتب ومفكر حين هاجم صوفية عصره فى الوقت الذى نهى فيه عن مطالعة كتب الصوفية السابقين وأول لهم كلامهم بعذر هو أقبح من الذنب.

* **الشعرانى يقول بالاتحاد الصوفى:**

نفاق الشعرانى:

بالغ الشعرانى فى التقية والنفاق متابعة لاشياخة أحمد الزاهد ومدين الأشمونى والغمرى مع قيامه بالتوفيق ين الإسلام والتصوف..

١ـ وقد حاول الشعرانى ـ على عادته ـ أن يسبغ الشروعية على كتمانه لعقيدة الاتحاد بشتى السبل، كالتعلق بأهداب السلف الصالح والخلط بين الفقه والتصوف والعلم والاتحاد، كقوله (ومما منّ الله تبارك وتعالى به على اقتدائى بالسلف الصالح فى كتمان الأسرار التى

(١) لطائف المنن ١٨٥، ١٩٥.

الاب البطرك من خزانة الكتب بدير أبو مقار ميمر
فى هذا المعنى وقراه انبا ميخاييل كاتبه على الجمع
وأعان السيد المسيح هذا الاب على قطع تلك
العاده وابطالها إلى الآن، ولم يعود أحد بعد ذلك
يفضل [يُبقى] قرباناً.

ولما صار جميع مقدمى المملكة والناظرين فى
دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى وهم الملاك

منحتها بفضل الله تعالى، فاعرف فى كل آيه أو حديث أو أثر من الأسرار ما لا يسطر فى كتاب)، ويقول مستشهداً بروايات سابقة كاذبة (وقد كان الأمام على رضى الله تعالى عنه يقول: آه، بعد أن يضرب على صدره ـ إن هنا لعلوماً جمة. لو وجدنا من يحملها؟ وكان رضى الله عنه يقول: علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً لو أفشيته لخضبت هذه من هذه، وأشار إلى لحيته وعنقه، وكان أبو هريرة يقول: أخذت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من علم فأما واحد فبثثته لكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم)[1].

ومعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستحيل عليه اخفاء شئ من رسالته وعلمه، ومعلوم أن الإسلام قد تم واكتمل بانتهاء الوحى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتلك الروايات الكاذبة تتهم النبى باخفاء جزء من الرسالة، وعدم تبليغ الرسالة كلها، وذلك ما يرفضه المؤمن بالله ورسله. إلا أن الصوفية حين عجزوا عن إثبات أصل لعقيدتهم فى القرآن الكريم لجأوا إلى الإيهام بأن التصوف هو العلم الخفى الذى اختص به الرسول على الصوفية، واستشهدوا بأحاديث كاذبة.

٢ـ ثم يلجأ الشعرانى إلى القصص التى وجدت لها السوق الرائجة فى عصره ليثبت بها

(١) لطائف المنن ٤٨٨.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

النافذ أمرهم طنخوا وعتوا وبذخوا هم وجميع
النصارى بديار مصر وتكبروا وعزت نفوسهم،
ووقع بينهم البغضة والحسد وبين مقدميهم، وصار
أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيانية والتجمل والتفاخر
والكبريا على بعضهم بعض، فنزل الأدب من
السما من عند السيد المسيح على جميع النصارى
حتى لحق غيرهم من الأمم لينتقم منهم عن جميع
ذنوبهم في هذه الدنيا ويخلصهم في الاخرة قبل
أن يصيروا إليه كما قال داوود المغبوط في المزمور:

مشروعية التقية.. يقول (ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي عن الشريف الكليمي أنه أخبره أنه كان ذاهباً في طريق العمرة ومعه فقير أعجمي، فتكلم بشئ من الأسرار، فقلعت رأسه من بين كتفيه فخفت أنهم يطالبونني به فهرولت وتركته)[1]. (وقد حكى الشيخ عبد العزيز المنوفي وكان من أصحاب الشيخ إلى عبد الله القرشي أنهم قالوا للقرشي مرة ياسيدى : لم لاتحدثنا بشئ من الحقائق؟ فقال لهم: كم أصحاب اليوم؟ فقالوا : ستمائة رجل فقال: استخلصوا منهم مائة فاستخلصوا ثم قال. فاستخلصوا منهم عشرين، ثم قال استخلصوا منهم أربعة فاستخلصوا منهم أربعة فاستخلصوا له الشيخ قطب الدين العسقلاني والشيخ عماد الدين وابن الصابوني والقرطبي وكانوا أهل مكاشفات وخوارق فقال الشيخ: والله لو تكلمت بشئ من الأسرار والحقائق لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة)[2].

ولاشك أن قصة الاضطهاد التى لازمت التصوف في بدايته ترسبت في عقل الصوفية اللاحقين، وظهرت في أقاصيصهم وكراماتهم حتى في عصر تمتعوا فيه بالحرية بل وسيطروا عليه..

٣ـ ثم وصل الشعراني إلى غرضه وهو فلسفة الاخفاء وتقعيد التقية، واسباغها بالمشروعية الفقهية يقول(ووجه ذلك أن علم الحقائق والأسرار من علم القدرة والجبروت، وافشاء ذلك

(١)، (٢) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

«طوبا للرجل الذى يوديه الرب ومن ناموسه يعلمه لينجيه من اليوم السو» يعني يوم القيامة، وقال سليمان الحكيم: «يابنى لا تضجر من أدب الرب فان الذى يحبه الرب يودبه»، وقال بولس الرسول: «إنكم إن أهملتم وتركتم بغير أدب ولم تلدعوا عن ذلك بما تلدع به الصفوة من الناس صرتم غربا عند الله لا احباء، وكما قال يوحنا الإنجيلى حبيب سيدنا يسوع المسيح فى جليانه(*): «إن الذين أحبهم ابكتهم واودبهم»، فأول ما جرى

(*) الجليان: هى الأقوال والرؤى.

كفر بالله عز وجل، ويجب على العلماء أن يفتوا بكفره، لأن ذلك بما تعبدهم الله تعالى به ظاهراً صيانة للشريعة المطهرة.. وأيضاً فإن الأسرار الإلهية المودعة فى قلوب العارفين هى من أمانة الله عندهم، وهى العهد والعقد وهم مطلوبون بالوفاء بالعهود والعقود وآداء الأمانات إلى أهلها دون غيرهم، فلو قطع صاحب الأسرار إرباً إرباً لما أظهرها، لكن إن أعطى الله تعالى عبداً قوة على التلويح دون الصريح كسيدى محمد البكرى حفظه الله تعالى من عيون الحاسدين.. فعلم أن كمل العارفين لا يقع منهم إفشاء لسر الربوبية، ثم لو تصور وقوع ذلك منهم فى حضور أو غيبة أو غلبة حال حصل القتل، إذ الغيرة الإلهية تقتضى ذلك كما مر فى أسرار الملوك وفى رمزه تعالى فواتح بعض سور القرآن العظيم مع قدرته على إظهار تلك..)[١].

أى أن الشعرانى وصل فى فقهه إلى اعتبار اسرار التصوف كإحدى معجزات القرآن الكريم فى فواتح السور.

٤ـ والشعرانى يعتبر نفسه من (كمل العارفين) الذين (لايقع منهم افشاء لسر الربوبية) مخافة (القتل).. فقد عد من منن الله تعالى عليه (عدم إفشائى الأسرار المتعلقة بالتوحيد ودقائق الشريعة الشريفة لأحد من الخلق إلا بعد طول امتحانه وكثرة التكرات ـ أى الاختبارات ـ والتغريات عليه، واغضابه المرة بعد المرة، وسبه بين من يستحى منهم عادة:

---

(١) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

على الاب البطرك أنه كتب فيه رقعة للوزير اليازورى أنه يمنع ملك النوبة من انفاذ الهدية. فانفذ الوزير الترسيم عليه بماية دينار جعل مع غلام تركى لعضد الدولة متولى الحرب والسيارة بالريف اسمه «درى» فسار إليه وقبض عليه وسار به إلى القاهرة وأوصله إلى [وزير] عصب [عضد] الدولة فأكرمه وأنزله فى داره ومضى إلى الوزير اعنى [عصب الدولة] ومعه ابو البشر طبيب العظمية المقدم ذكره وخاطباه فى معنى [شأن]

«المرة .. وقد جاءنى مرة شخص من دهاة فحول الرجال من معلمى دار الضرب بالقلعة يطلب منى أن اطلعه على شئ من أسرار الطريق وألح فى ذلك فتنكرت عليه وتغربت مدة وصرت أكلمه بالكلام المؤذن بنقص مرتبته.. فزهقت نفسه منى ونفرت.. وتقدم فى هذه المنن أن شخصاً دخل على أبى عبد الله القرشى فرآه يتكلم فى الاسرار فلما شعر به قطع الكلام فقال له الشخص: أنا من المعتقدين فى أهل الطريق لاتخافوا منى..»[1].

ففى عصر الشعرانى اكتملت سيطرة التصوف على الحياة الدينية عقيدة وسلوكاً وشريعة.. ومع ذلك أضحت (دقائق الشريعة) من الأمور الملحقة بالعقيدة الصوفية فى وجوب أخفائها عمن هم خارج الإطار الصوفى، ليس خشية من الفقهاء، ولكن لإظهار تميز الاشياخ الصوفية عن غيرهم من الاوباش، أو من الفقهاء الملتحقين بالتصوف، الذين يتمتعون بكراهية الشعرانى وعدم ثقته فيهم.

المرحلة الثالثة من
مراحل العقيدة الصوفية

*** مدخل..**

١ـ اسهبنا القول فى خصائص المرحلتين (الأولى والثانية) فى تاريخ العقيدة الصوفية..

(١) لطائف المنن ٥٤٥: ٥٤٦.

البطرك انبا اخرسطودلوس وأنه لا صحة لما حكى عنه، فأمر بالافراج عنه وعاد إلى دمرو. وذكر انبا غبريال أسقف صا وانبا ميخاييل أسقف تنيس أنهما لما وصلا بالسنوديقا إلى انبا يوحنا بطرك انطاكية تلقاهما بأحسن ملتقا هو وأساقفته وجميع كهنته وقراها فى جميع كنايسه ونادى باسم ابونا انبا اخرسطودلوس على هياكل البيع بكرسى أنطاكية، وتحدث انبا ميخاييل أسقف تنيس بما شاهده وسمعه من عجايب ابونا انبا يوحنا ويغنينا

وقلنا أن العقيدة الصوفية بدأت (بنفاق الجنيد) الذى حافظ على عقيدة التصوف من ضغط الفقهاء الذى كان فى أبان قوته، وانتهت تلك المرحلة ـ وقد ضعف الفقهاء ـ بعد صلح بين الإسلام رالتصوف ، وبه أضحى التصوف (إسلاميا) على يد «الغزالى» وتحول الإنكار على التصوف إلى إنكار على أشخاص الصوفية ، وأسهم فى هذا الإنكار الغزالى نفسه لحماية الطريق الصوفى..

٢ـ ثم جاءت المرحلة الثانية قبيل العصر المملوكى على يد«ابن عربى» الذى أعلن صراحة ماكان الغزالى يرمز به، فأعلن عقيدة(وحدة الوجود) أو الوحدة الكاملة بين الله والعالم.

٣ـ ثم عرضنا للعقيدة الدينية للعصر المملوكى وكيف انها تبعت ابن عربى وسيطر عليها اتباعه، ومع ذلك فالصراع بينهم وبين الفقهاء لم يهدأ، بل ثار الفقهاء ثورتين فى القرن الثامن بزعامة ابن تيمية، وفى القرن التاسع بزعامة البقاعى.. وكل ما هدف إليه الفقهاء وهو مجرد التمسك بما كان يعلنه الجنيد قبلاً وهو الإلتزام بالكتاب والسنة.. (مع أن الجنيد كان يقول ذلك تقية وخوفاً من القتل)، ووضحا كيف اجهض التصوف المسيطر عى العصر حركتى الفقيهين.. ثم استسلم العصر المملوكى فى نهايته للشعرانى الذى سار على طريق الغزالى فى توثيق أواصر القربى بين الأسلام والتصوف أن الحفاظ على الثوب الإسلامى وتقرير العقيدة

عن ذكر ذلك ما شرحه انبا ميخاييل فى السيره التى ذكرها.

ولما مات الوزير على ابن احمد الجرجرائى تولى بعده الوزارة أبو نصر صدقه ابن يوسف الفلاحى(*) وبعده أبو البركات ابن أخى الجرجرائى وبعده البازورى [اليازورى] المقدم ذكره، فحرك عدوا الخير المبغض للصلاح إبليس على

(*) أبو منصور صدقه: تولى الوزارة سنة ٤٣٦هـ = ١٠٤٤م، فعمل على التخلص من سلطة أبى سعيد إبراهيم ابن سهل التسترى

الصوفية من خلاله ، وبذلك خف الإنكار عليه بل عرف عصره منافقين من الفقهاء داهنوا التصوف لأنه الغالب، بمثل ما فعل الجنيد سابقاً حين أبطن التصوف وأظهر الأسلام..

٤ـ والمرحلة الثالثة بدأ بها بعض الصوفية بقصد التحلل الكامل من الإسلام شكلاً وموضوعاً واسماً.. وقد ظهرت هذه الحركة - فى العصر المملوكى ـ العصر الذهبى للتصوف.. إلا أنها ـ وقد حصرت همها فى رفض الإسلام ـ علناً فلم تعلن بديلاً محدداً بدين واضح وبرنامج معين، وكل ماهنا لك انهم اعلنوا رفضهم للإسلام واستهزءوا به وبالأنبياء والقرآن، وادعى بعضهم النبوة صراحة وادعى آخرون الألوهية، وأعلن بعضهم شرعاً جديداً ينفى الأسلام ويحقق لهم إنحلالهم العقائدى والخلقى..

٥ـ إلا أن هذه المرحلة لم يكتب لها الاستمرار ، فليست إلا فترة زمنية محددة أتت بعد مرحلة ابن عربى وانهتها. وذلك لأكثر من سبب:

أ) ففى التاريخ العقائدى للتصوف لاتبدأ بالإجهاز التام على سابقتها.. وانما تبقى بعض ملامح الفترة السابقة وتكون الملامح الجديدة أوضح وأصرح ..ذلك أن العقيدة الصوفية قاسم مشترك فى المراحل الثلاث، فالجنيد قال بوحدة الوجود وتابعه الغزالى ثم أعلنها ابن عربى فالذى اختلف بينهم هو الأسلوب، والفارق هو فى نفاق الجنيد والغزالى وصراحة ابن عربى..

اليهودى التى امتدت من خلافة الظاهر لاعزاز دين الله حتى خلافة المستنصر بالله. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن ام الخليفة المستنصر كانت ملكاً للتسترى ثم أهداها للخليفة الظاهر فأنجبت منه ابنه أبا تميم معد الذى ولى الخلافة بعده وتلقب بالمستنصر. وقد ساعدت الاحداث ابو منصور صدقة على التخلص من التسترى عندما اشاع أن التسترى دس السم لعزيز الدولة ريحان القائد التركى مما أدى إلى قتله على يد

البيعة نكداً، وذلك أن رأس القديس مرقس الإنجيلى كان فى دار أبو يحيى زكريا الذى قدمنا ذكره، فلما مرض واشتد وجعه جا إلى والدى عشرة من النصارى وهم جبريل ابن قزمان وسيمون القس الذى صار أسقف تنيس وأخوه حسون الشماس وأبو الخير مطروح وسرور ابن مطروح ومن معهم، وقالوا له: الشيخ أبو يحيى زكريا قد اشتد وجعه وهو متعلق بخدمة القايد الاجل عز الدولة معضاد الأستاذ، ونخاف أن يموت فيقبض على داره وما

وقد يأتى فى المرحلة التالية (مرحلة ابن عربى) من يتمسك بأسلوب الجنيد والغزالى كما فعل الشعرانى الذى قال(بوحدة الوجود)مع تنزيهه لابن عربى ودفاعه عن الطريق الصوفى.. إلا أنه مع ذلك يبقى الصوت العالى لابن عربى وتلاميذه فى مرحلته وبنفوذهم أخمدت حركات الفقهاء..

ب) عايشت هذه المرحلة (رفض الإسلام صراحة) العصر المملوكى وهو عصر التصوف الاتحادى واتباع ابن عربى.. ومع أن اتباع المرحلة الجديدة كانوا صوفية اتحاديين استفادوا بالتصوف وعقيدته إلا أنهم وجدوا الإنكار ليسَ من الفقهاء فقط ولكن من الصوفية العاديين أيضاً وبعض الحكام.. ويرجع السبب فى ذلك إلى الأنكار على أسلوبهم الذى يهدف إلى التحلل المطلق من الإسلام شكلاً وموضوعاً.. وذلك الأسلوب لايقول به ابن عربى رغم التعارض التام بين وحدة الوجود والإسلام.. فان ابن عربى حرص على الشكل الإسلامى وحاول أن يجد لعقيدته أصلاً فى القرن الكريم إلى درجة أنه قام بتفسير القرآن الكريم ليوافق عقيدته، وأكثر من الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة لأنه رأى أن الأسلوب الأمثل لايكون بإعلان رفض الإسلام صراحة،وأنما باستخدام اسم الإسلام وهيكله لحماية عقيدة الصوفية وإلباسها الثوب الإسلامى، وتذويب الفوارق بينها بتأويل القرآن ووضع الأحاديث الباطلة.. وليس غريباً بعد هذا أن يكون العصر المملوكى عصر الأحاديث الزائفة الذائعة الصيت والمتداولة حتى الآن..

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

نأمن على راس القديس الذى هى عنده. فمضى معهم إلى الرجل فوجدوه ينازع فأخذوا الصندوق الذى فيه الراس وحملوه إلى دار جبريل ابن قزمان لأن داره كانت قريبة من دار أبو يحيى، فلما كان بالليل حملوه إلى دار والدى التى كنا نسكنها وقالوا له : خفنا أن نجعله بحيث نقلناه إليه لقربه من دار الشيخ أبو يحى زخريا لأنه قد مات الساعة فاجعله عندك، فوقف والدى فى الدهليز وحلف

بعض الجند الاتراك. ولكن أم الخليفة سعت إلى الانتقام من الفلاحى حتى أزالته من الوزارة ثم قتل فى اوائل سنة ٤٤٠هـ= ١٠٤٨م.

وهكذا رأى الصوفية فى العصر المملوكى الخطر كله فى أصحاب الحركة الصوفية الجديدة، فاضطهدوهم مع الفقهاء، كما فعل الشعرانى حين طالب برؤوس الاتحادية المعاصرين له حماية للطريق الصوفى.

جـ) إن المجتمع المملوكى استراح لفكرة المواءمة بين التصوف والاسلام التى قال بها الغزالى واستمرت بعده ليحافظ عليها ابن عربى مع صراحته فى إعلان عقيدته.. ومع دخول العصر المملوكى فى مرحلة التقديس للأشياخ الصوفية وسيطرة التصوف على الحياة العلمية ضعف المستوى العلمى والعقلى وآمن الناس بإشارات الصوفية فى (التفسير) وتخريجاتهم للأحاديث الموضوعة، وصار معلوماً لديهم من الدين بالضرورة أن مبدأ التصوف قرن للإسلام فالخروج على الأسلام خروج على التصوف .. فلاقى أصحابنا اضطهاد الفريقين (الصوفية والفقهاء) حين حاولوا نبذ الإسلام صراحة..

د) ثم إن ثورات الفقهاء وإنكارهم على اتباع ابن عربى ونحلته لم تنقطع.. رغم أنه لم يرفض الإسلام شكلاً واسماً.. حتى ظهر الشعرانى فى أواخر العصر يعيد سيرة الغزالى فى اصطناع الاعتدال والهجوم على أوباش الصوفية.. وطبيعى أن يتحرج الصوفية من ظهور الدعاة الجدد الرامين لنبذ الإسلام مطلقا خوفاً من أن يتعرض التصوف.. من اساسه لإنكار الفقهاء المتحمسين. ذلك أن الدعاة الجدد صوفية اتحاديون استفادوا بالحرية الدينية (الفوضى الدينية) ودعم السلطات التركية الحاكمة التى كانت فى غالبية أفرادها رقيق مجلوب من

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

أنه لا يدخل داره خوفاً من السلطان لأنه كان قد لقى قبل ذلك مصادرة وغرامة وأمور صعبة، فأخذه سرور ابن مطروح ومضى به إلى داره وكانت مقابلة الدار المذكورة، فقال له القس سيمون الذى صار الآن أسقفاً على تنيس: أنا أنقله من عندك إلى عندى وأخدمه أنا وأخى.ومضوا وأخذوه. وكان باسكندرية رجل من مدينة برقه يسمى على ابن بشير فكتب للقايد الاجل معضاد الدولة بصفة

مراعى وسط آسيا لا يعرف سوى الديانات البدائية البسيطة ويحنّ إليها، وقالوا بالشطحات مثلهم فى ذلك مثل الصوفية الأخرين.. فبادر الصوفية للإنكار عليهم وإ علان البراءة منهم ليسحبوا البساط من تحت أقدام الفقهاء..

٦ـ وهكذا.. بدأت المرحلة الأخيرة وانتهت فى العصر المملوكى، لاكمرحلة زمنية وانما كمرحلة موضوعية منطقية فى تاريخ العقيدة الصوفية لم يكتب لها الاستمرار، لأن الظروف التاريخية لم تكن صالحة لاستمرارها.. وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر العصر المملوكى – وهو العصر الذهبى للتصوف ـ قد حفل بجميع التيارات الصوفية المعبرة عن العقيدة الصوفية فى مراحلها الثلاث:

(فالجنيد) الذى نافق لينجو من الاضطهاد تابعة فى العصر المملوكى أحمد الزاهد ولقبه (جنيد القوم..) و(الغزالى) الذى وفق بين الأسلام والتصوف نهج طريقة (الشعرانى)..و(ابن عربى) الذى صرح وأعلن عقيدته سار على طريقة الكثيرون (كالتلمسانى والمنجى واليافعى وزكريا الأنصارى ومحمد الصوفى)ثم أشياخ الطرق الصوفية (البدوى والشاذلى والدسوقى..)..

والمتحللون من الإسلام فى العصر المملوكى أبرزهم الباجريقى والبققى وابن اللبان وآخرون.. وكلهم بدءوا بالشطح الصوفى..

الحال فوصل الأمر بالقبض على والدى والجماعة الذين كانوا معه، وكان والى اسكندرية يومئذ كوكب الدولة البشالى [البشتالى] فأحضرهم وقال لهم: أريد رأس مرقس وعشرة ألف دينار كانت معها، وهذا كتاب السلطان قد وصلنى بمطالبتكم بذلك. وقدم حسون الشماس وقال له: تريد أضربك بالسياط حتى تحضر ذلك. فقال: لا ما أريد. فضحك منه وخلاه. وحمل والدى إلى

الشطح الصوفى فى العصر المملوكى

طريقة لنبذ الإسلام

١ـ أتاح الشطح الفرصة الكاملة لكل الصوفية ـ على اختلاف طرائقهم – فى أن يقولوا ما شاءوا.. وتاريخ الشطح هو تاريخ التصوف.. إذ بدأ التصوف بإعلان عقيدته فيما اعتبر شطحاً.. وقد أودى الشطح بحياة بعض الصوفية الأوائل وأشهرهم الحلاج، وبه اضطهد الآخرون بسبب (كلمات)لهم قيلت فتعرضوا للنفى والطرد والمحاكمات..

٢ـ وبتقرير تدين التصوف في العصر المملوكى لم يعد الشكل الإسلامى حائلاً للصوفية عن قول الشطحات المنافية للإسلام.. بل على العكس أصبح الشطح من سمات العقيدة الصوفية حتى لدى شيوخ التوفيق بين الإسلام والتصوف كالشعرانى، فيقول عن العارفين (منهم من تهب على قلبه نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المؤمن)[١]. فالشطح أصبح عند الشعرانى (نفحة الاهية).. وازدهرت طرائف المجاذيب فى العصر المملوكى ولهم مطلق الحرية فى القول والفعل، فالمجذوب (لا يطالب بأدب من الأداب .. مع وجود الكشف ـ (علم الغيب) ـ وبقائه عليه)[٢]. أى أن المجذوب لايسأل عما يفعل ومهما قال فهو متمتع بعلم الغيب مع أنه لايعلم الغيب إلا الله تعالى.

(١) الجواهر والدرر: ٢٧٥.
(٢) اليواقيت والجواهر ١٥٤.

مصر دون الجماعة، وطالبه معضاد الدولة بعشرة ألف دينار وقال: أريد راس مرقس لأن ابن بشير المذكور كتب إليه بأن الروم يدفعوا له فيه عشرة ألف دينار. فقال له والدى: ما رأيته ولا أخذته وهو ذا أنا بين يديك. فاعتقله. وعلم والدى والجماعة أن هذا ناله بسبب أنه لم يأخذه ورده من باب داره. فأقام معتقل سبعة وثلثين يوماً. وكان سجان الحبس رجل مسلم اسمه بركات [قال] لوالدى

٣- وأصبح الشطح من لوازم الولى الصوفى يحفظ عنه ويكتب فى ترجمته وإذا حدث وشذ صوفى عن هذه القاعدة قيل عنه (لم يحفظ عنه شطح)كما فى ترجمة المرشدى ت ٧٣٧[1]..

ويزداد التقدير والتقديس للصوفى المجذوب إذ بالغ فى شطحه كما قال أبو المحاسن فى ترجمة السطوحى ت ٨٦٥ المجذوب (إذا بدأ فى الشطح يتغير كلامه كله بالسفه والإساءة المفرطة الفاحشة بغير سبب، رحمه الله ونفعنا ببركة أوليائه)[2].

٤- وتوصف الشطحات بالكثرة كما ورد فى ترجمة الشعرانى لعبد القادر السبكى إذ قال عنه.. كثير الشطح)[3]. وأحمد الكعكى يقول عنه الشعرانى(وكان كثير الشطح تبعاً لشيخه محمد الكعكى.. حتى كان لا يقدر على صحبته كل أحد)[4]. وقد قال عن أبى السعود الجارحى (وكان رضى الله عنه له شطحات عظيمة..[5] فوصف شطحه بالعظمة.. وقد كان أولئك معاصرين للشعرانى.

ويقول المناوى فى ترجمة الشيخ عبيد(كانت له خوارق مدهشة، وشطحات موحشة، وكان

(١) أعيان العصر مخطوط ٦، ١، ٤٧.   (٢) حوادث الدهور ٥٦٥.
(٣)، (٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٦٦، ١٦٧، ١١٧ على الترتيب.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٦٦، ١٦٧، ١١٧ على الترتيب.

صبيحة اليوم السابع والثلثين: يا شيخ أبو الفتح رأيت الساعة إنسان شاب بلحية سودا على جبينه ضربة وقف على هذا الباب وهو يقول: «ياأبوالفتح ابن مفرج أنا مرقس الإنجيلى فقد ربحت نفسك بصبرك وكلام آخر غير هذا ما فهمته «وخذ هذه تتخلص» ورمى لك من يده اليمنى حصاة لها ثلثة اروس [رؤوس] وقال إلى ثلثة أيام تتخلص . فقال له والدى: ايتنى بضو حتى أبصر ما قلت. فأتاه

مثقوب اللسان لكثرة ما ينطق به من الشطح الذى لايمكن تأويله)(١). فلم يمنع وصفه للشطحات من وصف صاحبها بالخوارق والكرامات..

٥- وفى إطار الشطحات انعدم الفارق بين الصوفى الاتحادى وأخيه الذى يعلن رفض الإسلام، طالما أن الاتحادى يدعى أنه فى حالة (وجد) أى (قوى عليه الحال) وحينئذ يباح له أن يقول ما يقول.. وقد أورد الشعرانى طائفة من الشطحات فى معرض فخره بأشياخه الصوفية لاتختلف عن أقاويل الرافضين للإسلام..

أ) منها ما استهدف الاستهزاء ببيوت الله بالقول والفعل، كما قال فى ترجمة الشيخ إبراهيم العريان(كان رضى الله عنه يطلع المنبر ويخطب عرياناً فيقول:«السلطان ودمياط وباب اللوق وبين القصرين وجامع طيلون الحمد لله رب العالمين»فيحصل للناس بسط عظيم)(وكان رضى الله إذ صحا يتكلم بكلام حلو)(٢).. فصاحبنا المجذوب يتمتع بتأييد الناس حتى أنه (يحصل للناس بسط عظيم).

ب) وبعضهم كان يجد مجال الاستهزاء فى القرآن الكريم كشعبان المجذوب، يقول فيه الشعرانى (كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن على كراسى المساجد يوم الجمعة وغيرها

(١) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ورقة ٣٥٥ (ب).
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٩.

الضـو لأنه كـان سـجن مظلم فـوجـد الحـصـاة مطروحة قدامه فأخذها وتأملها وقبلها وشدها على ذراعه ورأيتها أنا واخوتى بعد أن تخلص وكانت فى منديل كمه باقية إلى حين وفاته فلما توفى لم نجدها، وبعد نظر السجان لهذا المنام بثلثة أيام انفذ معـضـاد الدولة وأحـضـر والدى وقـرر حـاله على خمس ماية دينار سوى ماية دينار أخرى لأصحابه لتمام ستماية دينار، وقام بها وأفرج عنه، ووصل

فلا ينكر عليه أحد. وكان العامى يظنها من القرآن الكريم لشبهها بالآيات فى الفواصل. وقد سمعته مرة يقرأ على بابا دار(على طريقة الفقهاء الذين يقرأون فى البيوت) فصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول:«وما أنتم فى تصديق هود بصادقين.. ولقد أرسل الله لنا قوماً بالمؤتفكات يضربون ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين»ثم قال اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان إلى آخر ما قال.. وكانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً، لم اسمع قط أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم)[1]. أى تنزه بجذبته عن الإنكار، حتى أن الشعرانى يقول عن تخريفاته أنه(كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن) فجعلها (سوراً قرآنية)..

ج) وبعضهم كان يسب الأنبياء كالشيخ محمد الخضرى، وقد ترجم له الشعرانى فقال(كان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحياً، فإذا قوى عليه الحال تكلم بألفاظ لايطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..» وأخبرنى الشيخ أبو الفضل السرسى أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله واثنى عليه مجده ثم قال: «واشهد أن لاإله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام» فقال الناس: كفر فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى أذان العصر وما

(١) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٦٧ : ١٦٨.

إلينا إلى اسكندرية وأخذ الراس وقبلها كانه لم يصيبه شي. وكان من جملة الشهود المعدلين [العدول] بمصر رجل مقدم فيهم يعرف بالقاضى أبو الحسين عبد الوهاب ابن على السيراقى [السيرافى] واصرف [عزل] من خدمة كان يتولاها بمصر واستخدم قاضياً ومشارفاً بمدينة اسكندرية واصرف منها واستخدم فى عدة خدم بالريف، وكان يبغض النصارى فمضى بعض الأيام إلى دمرو فلم يوفيه البطرك حقه فداخله إبليس خزاه

تجرأ أحد أن يدخل)[1]. ويحس القارئ نبرة الفخر فى حديث الشعرانى عن ذلك الخضرى حين هدد المنكرين عليه بالسيف فهربوا.. ويعنينا أن نذكر أن الخضرى المتوفى ٨٩٧ كان من أصحاب الاتحاد العارفين بدقائق العلوم والمعارف ولم يجد لعقيدته مجالاً إلا فى ادعاء الجذب الوقتى أو بتعبير الشعرانى (فإذا قوى عليه الحال تكلم بالألفاظ لايطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..).

٦- ويذكر أن بداية العصر المملوكى ووسطه شهدا عقد المحاكمات لأصحاب الدعوات المتطرفة الذين وقعوا فى سب الأنبياء تبعاً لغرضهم فى التحلل من الإسلام والشرائع الإلهية..

ففى عام ٨١٣(رفع للقاضى الشافعى أن شخصا يقال له أبو بكر المغزو يدعى المشيخة ويتكلم على الناس ويقول: الأنبياء عرايا عن العلم لقوله تعالى:«سبحانك لا علم لنا» ونحو ذلك من الأشياء الشنيعة، فمنعه القاضى عن الكلام بعد أن عزره بالقول)[2].

وفى عام ٨٤٤(عقد مجلس حكم بإراقة دم على أخى قطلوبغا لأنه يثبت عليه أنه سب الأنبياء وأفحش وذلك بالتركية والعربية)[3]. وتأثر بعض القضاه بهذا الجو ففى نفس العام

(١) الطبقات الكبرى جـ٢/ ٩٧ : ٩٨، ونقل ذلك فى أخبار القرن العاشر مخطوط: ٥٧.
(٢) إنباء الغمر لابن حجر جـ٣/ ٢٢٦.
(٣) إنباء الغمر مخطوط ١٢٨: ١١٣١، ١١٣٩ بالترتيب.

الله وحسن له أن كتب إلى الوزير اليازورى وقال له في حق البطرك أقوال كثيرة وان هذه دمرو هى القسطنطينية الثانية وفيها سبعة عشر بيعة أكثرها مستجد وأنه قد استجد في غيرها من النواحي بيع كثير. وإن هذا الموضع قد عمر فيه موضع لسكناه ونقش على بابه الكفر واهان الإسلام واهله. واشار عليه أن يغلق البيع كلها ويهدم ما استجد منها ويقطع عليها مالا. فأجابه الوزير إلى ذلك وكتب

الدوسة لفرس شيخ الطريقة السعدية على الرياحين لبيالوا التركا

٨٤٤(طلب قاضي دمشق الحنفي بالقاهرة بسبب ما نقل أنه سئل عن الحكمة في طواف النبي (ص) على النساء في ليلة واحدة، فأجاب بأنه فعل ذلك ليعفهن عن الزنا. فأغرمه السلطان مائتي دينار)[١].

وفى القرن التاسع ازداد التصوف وتكاثرت طبقة المجاذيب الصوفية، والمجذوب (لايطالب بأدب من الآداب) فلم يطالبوا بالآداب طالما فى حالة جذب.. بينما تعقد المحاكمات لغيرهم.. وهكذا أصبح ادعاء الجذب غطاء لأصحاب الدعوات المتطرفة يتخلصون به من المحاكمات..

ويلفت النظر إلى أنه فى القرن العاشر ـ عصر المجاذيب الذين ذكرهم الشعرانى ـ عقدت محاكمة سنة ٩١٣لعمر بن علاء الدين الحنفى وكان خطيباً بأحد الجوامع لأنه (وقع فى حق سيدنا ابراهيم، فاستتابه أحد القضاة وحكم بحقن دمه، فتعصب السلطان الغورى للخليل ابراهيم، وصمم على ضرب عنق الخطيب، وجمع القضاة والعلماء وتباحثوا، وبعد تشاجر انفصل المجلس على سجنه حتى يتوب، والسلطان مصمم على قتله فسجن..) والغورى الذى صمم على قتل ذلك الخطيب الفقيه المتأثر بالتصوف هو نفسه الغورى الذى يعتقد فى الصوفية إلى درجة تقبيل أيديهم كما فعل بالصوفى المجذوب ابن عنان على مرأى من الشعرانى[٢].

(١) إنباء الغمر مخطوط ١٢٨ : ١١٣١، ١١٣٩ بالترتيب.

(٢) قواعد الصوفية جـ١/ ١٩ تحقيق طه سرور طـ١.

إليه بأن يكشف عما تضمنه كتابه بالشهود العدول فركب في جماعة من الشهود المستخدمين وجآ إلى دمـــرو ودخل إلى منزل البطرك انبـــا اخـرسطودلوس فوجد عليه منقوش باسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد فكشطه من الباب، فقال له البطرك: إذا كشطته من على الباب تقدر تكشطه من قلبي. فتعجبو الحاضرين من قوة نفسه وجودة كلامه.


الدوسة أو الوطء بحوافر فرس أحد مشايخ الطريقة السعدية على بعض الأتباع، ويتحملونه راضين تلمساً للبركة

فالفارق بين المجذوب والصوفي المتطرف أن الأول يدعي الجذب في قوله للشطح ويتمتع بالتقديس، إما الأخير فيقوله بصراحة وبلا ادعاء، ويتعرض للمحاكمة أحياناً.

٧ـ وهناك عامل آخر يذهب من الفوارق بين الصوفية العاديين وأصحاب الدعوات المتطرفة الرامين للتحلل من الإسلام وذلك فيما قاله أساطين الاتحاد من عبارات شطحية مقصودة تعبر عن عقيدة (وحدة الوجود) بكل وضوح وصراحة مستغلين جو الحرية الذى يتيح للصوفي أن يقول ما يشاء طبقاً لمبدأ الشطح..

فقد قيل في ترجمة عفيف الدين التلمساني (٦٩٠) تلميذ ابن عربي أنه (نسبت إليه عظائم في الأقوال والأفعال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، هذا مع أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتالية)[١]. وأنه (لايحرم فرجاً وان عنده ما ثم (أى ليس هناك) غير ولاسوى (أى لايوجد غير الله ولاسواه فالله هو كل شئ) بوجه من الوجه، وان العبد إنما يشهد السوى(أى لايوجد غير الله من العالم) إذا كان محجوباً، فإذا انكشف حجابه ورأى أن ما ثم غيره (أى غير الله) تبين له الأمر، ولهذا كان يقول«نكاح الأم والبنت والأجنبيه واحد »«وأنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام علينا فقلنا حرام عليك»[٢].. وقال عنه

(١) تاريخ ابن كثير جـ١٣/ ٣٢٦. (٢) شذرات الذهب جـ٥/ ٤١٢.

وبعد هذا أمر الوزير اليازورى أن تغلق البيع فى جميع كورة مصر وكان المساعد على هذا عند الوزير اليازورى رجل يعرف بأبى الفرج البابلى من مقدمى الدولة أصحاب الدواوين وكان ناصر الدولة ابن حمدان والى السيارتين [المقاطعتين] بالريف الشرقية والغربية فأغلق البيع وأخذ البطرك والاساقفة فطالبهم بالمال وذلك فى سنة سبع مايه ثلثة وسبعين للشهد، وكان انبا اخرسطودلوس لما صار بطركاً يقول لمن صيره أسقفاً هذه الكراسى

ابن تيمية (هو من حذاق القائلين بالاتحاد علماً ومعرفة، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات، وحدثنى الثقة إنه قرئ عليه فصوص الحكم لابن عربى وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين فلما قلت له: هذا الكلام يخالف القرآن فقال: القرآن كله شرك وانما التوحيد في كلامنا. وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول، وحدثنى عن من كان معه آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق فقال له رفيقه: هذا إيضا هو ذات الله؟ فقال : وهل ثم (هناك) شئ خارج عنها؟ نعم الجميع فى ذاته)[1]..

فالتلمسانى حلقة وصل ضرورية بين ابن عربى والصوفية الرافضين للإسلام.. ولم يعدم العصر المملوكى من وجود تلامذه للتلمسانى (قال أحدهم لرفيقه ـ وكان يمشى فى الاسكندرية ـ إن الله تعالى هو عين كل شئ، فمر بهما حمار فقال: وهذا الحمار؟ فقال: وهذا الحمار!! فروّث الحمار من دبره فقال له: وهذا الروث ؟ فقال : وهذا الروث!!)، وهذه قصة حقيقية وقعت فى القرن التاسع[2]..

٨ـ وجدير بالذكر أن بعض عتاة الجاهلين استهزأ بيوم القيامة وأعلن أنه سيعطى فى الآخرة

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ١/ ١٤٥.
(٢) تاريخ البقاعى مخطوط : ١٢٣.

هى لمرقـ[س الإنجيلى] وهذا الكرسى الذى أصيرك
عليه أسقفاً يكون النصف منه لمارى مرقس البشير
والنصف لك فـاقـرضنى عن النصف الذى لمارى
مرقس البشير كذا وكذا و اجبى [أجمع] أنت إلى
أن تستوفى قرضك، وبعد هذا مهما حصل فى
الكرسى احمل النصف الذى فيه لمارى مرقس إلى
القلايه. فحصل له من جماعة صيرهم أساقفة مالا
كثيراً من جملتهم مرقس الكاتب المعروف بابن
الظالم أخـذ منه ألف دينار قـرضـاً على نصف

كما أعطى فى الدنيا المال والولد، واعتبر القرآن مقالته إثماً بالغاً يستحق مزيد العذاب، مع أن ما قاله لا يقاس بأى حال بشطح أى صوفى مهما بلغ اعتداله.

والمشركون السابقون لم يقولوا كالصوفية(واشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام ـ إو أن النجاسة والكلاب الميتة والحمير والورث هى عين الله).. وكل ما هنالك أنهم قالوا بأن الله اتخذ ولداً واعتبره القرآن هذا القول كفراً ، ولكنه لايمكن أن يقارن بأقاويل الصوفية السابقة..

فأين هذا من ذلك القائل(طاعتك لى يارب اعظم من طاعتى لك ـ بطشى اشد من بشطك، لأن تراني مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرة..).

الصوفية رافضو الإسلام شيوخ

المرحلة الثالثة

• فى القرن الثامن:

شهد القرن الثامن حركة ابن تيمية الداعية لتمسك الصوفية بطريق الجنيد المعتدل الذى ظن ابن تيمية أنه ملتزم بالأسلام. وقد أحدثت حركة ابن تيمية رد فعل مضاد على الجانب الصوفى المتطرف الذى كان يتوق للتحرر من الشكل الرسمى الإسلامى، فظهرت حركات متفرقة تزعمها الباجريقى الصوفى فى القرن الثامن..

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الكرسي وصيره أسقفاً على كرسي سمنود، وكان يفعل هذا حتى لا يقال أنه ياخذ شرطونيه ويعتقد أنه مخلصاً من الله، فلما قبض عليه ناصر الدولة [الحمداني](*) كما قلنا بدياً وقرر عليه وعلى الأساقفة وجميع النصارى سبعين ألف دينار، فنال النصارى من ذلك ومن غلق كنايسهم ضيق شديد وصعوبة شديدة.

ثم بعد هذا خرج إنسان إلى الريف يعرف بابن

(*) ناصر الدوله الحمداني: ت ٤٦٥هـ = ١٠٧٤م
الحسن بن الحسين بن حمدان التغلبي، أبو محمد. ناصر الدوله. آخر امراء آل حمدان ملوك حلب. كان امير دمشق وعزله عنها المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٤٠هـ وقبض عليه وأرسله الى مصر فجمع حوله الانصار

***الباجريقي:**

استحوذ الباجريقي(محمد بن جمال الدين) (ت ٧٢٤) على اهتمام المصادر التاريخية.. وقد كان في الأصل فقيهاً بالمدراس ثم تصوف وصحب الفقراء وصار له اتباع، غير أنه كان يتفوه بالعظائم مثل أن الأنبياء والرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله، وأنه بإمكانه أن يوصلهم إلى الله بأسرع من الرسل (وقد حكم القاضي المالكي بضرب عنقه مرة بعد أخرى لثبوت أمور فظيعة وكلمات شيعة فتغيب عن دمشق وأقام بمصر بالجامع الأزهر وتردد إليه جماعة، وكان الشيخ صدر الدين يتردد إليه ويبهت في وجهه ويجلس بين يديه.. وكان له قوة تأثير، وشهد عليه أيضاً بما ابيح دمه منهم الشيخ مجد الدين التونسي فسافر إلى العراق ثم سعى أخوه بحماه حتى حكم الحنبلي بعصمة دمه فغضب المالكي وجدد الحكم بقتله)(١).

*** اتباع الباجريقي:**

وقد طوف الباجريقي بدعوته في مصر والشام والعراق واجتمع عليه الأشياع وكان نصيبهم مثله المحاكمات والاضطهاد ، يقول ابن الوردى وأبو الفدا في حوادث سنة ٧٤١ (وفيها ضربت

(١) النويري: نهاية الأرب مخطوط جـ٣٠/ ٢٦، فتوح النصر مخطوط جـ٢/ ٢٠٩، أعيان العصر مخطوط جـ٦، ١، ٢، ٢٤: ٢٧ دول الإسلام للذهبي جـ٢/ ١٧٧، السلوك جـ٢/ ١// ٤، الدرر الكامنة جـ٤/ ١٢: ١٤، ١٣٠: ١٣٢، شذرات الذهب جـ٦/ ٦٤: ٦٥.

القايد الرحيم بسجل إلى ناصر الدولة ابن حمدان [الحمداني] بأنه قد جعل له جباية الجوالي [الجزية وغيرها] بالريف، وكان رجل سو كثير الشر جداً مبغض للنصارى فأصابهم منه هوان عظيم وصعوبة، فلما كان في بعض الأيام ركب مهرة محرومة [شرسه] وكانت له، فلما صارت رجله في الركاب وثبت فوقع على الارض وبقيت رجله في الركاب ولم تزل تجرى وترفصه إلى أن مات، ولما

وقاتل المستنصر فانهزم الحمداني إلى اسكندرية. ثم عاد وحاصر القاهرة فصالحه المستنصر على أن يكون له تدبير الامور والعسكر فتمكن الحمداني من المستنصر ورتب له مئة دينار في اليوم وتلقب بأمير الجيوش ثم قتل على يد مماليكه بمنزله على النيل.

عنق عثمان الزنديق بدمشق على الإلحاد والباجريقية، سمع من الزندقة ما لم يسمع من غيره)[١]، ومعنى ذلك أن (الباجريقية) أصبحت طريقة صوفية تعنى التحلل الصريح من الأسلام وإعلان الزندقة.

ومن أتباعه كان ابن المرحل(ت٧١٦) يقول فيه المقريزى إنه درس في الزاوية بجامع عمرو وكان ممن اتهم في دينه كالباجريقي والطوفى ، وقد تعارضت آراؤه مع ابن تيمية[٢]. وقيل في ترجمة ناصر الدين أبي الفضل المقتول سنة ٧٢٦أنه (اجتمع بمحلولى العقيدة مثل ابن المعمار والباجريقي والنجم بن خلكان وغيرهم، فانحلت عقيدته وتزندق من غير علم، فشهد عليه فهرب إلى بلاد الروم، ثم قدم حلب واجتمع بابن الزملكاني فأكرمه واستتابه، ثم ظهر منه زندقة عظيمة فسيره إلى دمشق فضربت عنقه)[٣].

والنجم ابن خلكان سالف الذكر كان(ابن أخى قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان، وقد ولى القضاء ببعض البلاد الشامية، ونسب إلى انحلال في العقيدة فانقطع رزقه ومقت، فسافر للديار المصرية؛ وقعد مع الشهود حتى مات ٧٦٢)، ومعنى ذلك أن مصر كانت ملجأ

(١) تاريخ أبو الفدا جـ٤/ ١٣٧، تاريخ ابن الوردى جـ٢/ ٣٣٠.
(٢) السلوك جـ٢/ ١/ ١٦٧، حاشية ١٦٧: ١٦٨.
(٣) شذرات الذهب جـ٦/ ٧٤: ٧٥.

دفن رجم قبره بالطوب عدة أيام حتى صار كوم.

ثم أن المستنصر بالله سخط على اليازورى وأمر بنفيه إلى تنيس ثم أمر بقتله هناك، وتسلط على جسده رجل مجنون يجر[ه] بكعبه [من رجليه] وينزله في خرارة الحمام، حمام دنشورة بتنيس، ويشيله في نهاره عدة دفعات ويطوف به الشوارع.

ثم ظهر في السيرافي أعجوبة في نفسه عبرسو عظيمة، ولحقه مرض تحته ودب فيه الدود فكانوا

لمتطرفي الصوفية فقد وفد إليها الباجربقي.. ثم ابن خلكان بعد طردهما من الشام.. ويذكر أن ابن خلكان خدع السلطان أوهمه بمقدرته على عمل الطلسمات والسحر فلما طولب بالبرهان عجز، ومع ذلك ظل مصراً على دعواه[1].

وفي سنة ٧١٥قتل أحمد الرويس الاقباعي (لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة، وكان له كشف واخبار عن المغيبات فضل به الجهلة، وكان يقول: أتاني النبي صلى الله عليه وسلم وحدثني، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة)[2].

* ابن البققي (أحمد بن محمد المصري) قيل في ترجمه في الدرر الكامنة:

ادعى عليه ابن مخلوف المالكي بما يقتضي الانحلال واستحلال المحرمات والاستهزاء بالدين، وقامت عليه البينة فحبس، واعيدت عليه الدعوى فاعترف وصار يتلفظ بالشهادتين فلم يلتفت إليه، وحكم بقتله، وقد استجار بابن دقيق العيد فلم يلتفت إليه .. ويقال أن الشيخ الحندار سمع كلامه فقال له: «كأني بك وقد ضربت عنقك بين القرصين وبقي رأسك معلقاً بجلدة» فكان كذلك وكان يشطح ويتفوه بعظائم عن النبوة والتنزيل وتحليل المحرمات.

(١) الوافي بالوفيات جـ٣/ ٢٤٩: ٢٥٠، الفلاكة والمفلوكون للدلجي ٧١.

(٢) شذرات الذهب جـ٦/ ٣٥، اليافعي: مرآة الجنان جـ٤/ ٢٥٤.

يجعلوا تحته في كل يوم عدة أرطال من اللحم الطرى فيأكله الدود ولا يطل الأكل من جسمه، وهذه مكافاة الدنيا العاجلة ولقى صعوبة شديدة إلى أن مات موت سو.

ثم أن البابلى بعد القبض على اليازورى بسبعين يوماً قبض عليه واعتقل في خزانة [سجن] البنود وكان ناصر الدولة يقول:هذا من عجايب النصارى ما نال ابن القايد الرحيم أولا ثم اليازورى وموت

ومما ينسب لابن البقفى قوله عن نفسه (لوكان لصاحب المقامات حظ لكانت مقالاته تتلى في المحاريب) وأنه كان يفطر في نهار رمضان بغير عذر، وأنه كان يضع الرابعة (المصحف) تحت رجليه ويصعد فوقها يتناول حاجة له من الرف، ويقال أنه كان يستخف بالقاضى المالكى ويسبه ويطعن فيه وكان ذلك يبلغه ولايهيجه إلى أن أظفر بالمحضر المكتتب عليه فطلبه طلباً عنيفاً وادعى عليه عنده فانكر، فقامت البينه فأمر به فسجن ، وحكم المالكى بزندقته واراقة دمه، ونقل المحضر للقاضى لابن دقيق العيد فرفض قتل من ينطق بالشهادتين، فبلغ ذلك والى القاهرة ناصر الدين ابن الشجى، وكان يميل إلى ابن البقفى فانتصر له وسعي في نقله من المالكى إلى الشافعى، فأشير عليه بأن يكتب محضراً بأنه مجنون، فكتب فيه جماعة، وأحضره لابن دقيق العيد فقال: معاذ الله ما أعرفه إلاعاقلاً.

فقال المالكى: قد ثبت عندى كفره وزندقته فحكمت بإراقة دمه ووجب على ذلك.. فلما رأى السلطان انزعاجه قال: إن كان ولابد فليكن بمحضر الحكام. فأرسل إلى الوالى والحاجب وحضر القضاة الأربعة فتكلم المالكى بما حكم فوافقه الحنفى وقال:اقتلوه ودمه في عنقى، فقتل)[1].

---

(١) الدرر الكامنة جـ٩/ ٣٢٩، تاريخ مصر المملوكية نشر زيترستين: ١٠٤ : ١٠٥ .

السيرافى واعتقال البابلى وكل واحد منهم أصيب فى يوم جمعه مثل اليوم الذى أغلق فيه الكنايس، كذلك كان سنان الدولة ابن كابر والى مصر يقول أيضاً لأنه كان رجلا كتامى يحب النصارى، وكذلك الأمير المؤيد حصن الدولة أبو تراب حيدره ابن ميروا الكتامى(*) والى اسكندرية رحمه الله وغفر له كان محب للنصارى ويراعى كنايسهم، حتى أنه لما أمر اليازورى بغلق البيع أحضرنى أنا

(*) الأمير المؤيد حصن الدولة ابو تراب حيدره بن ميروا الكتامى: ت ٤٥٥هـ = ١٠٦٣م.
هو: حيدره بن الحسين بن مفلح، أبو المكرم، المعروف بالمؤيد. من رجال المستنصر الفاطمى. أرسله أميراً على دمشق سنة ٤٤١هـ، فاستمر إلى سنة ٤٥٠ وعزله ثم اعاده سنة ٤٥٣ وعزله سنة ٤٥٥هـ.

أى أن قتل البقفى يرجع إلى خصومته مع القاضى المالكى.. ولولا ذلك ما قتل. كما حدث لابن اللبان..

• ابن اللبان (شمس الدين محمد ابن أحمد بن المؤمن) (ت٧٤٩)..

كان صوفيا من أصحاب ياقوت العرش الشاذلى ت٧٣٧ قال فيه المقريزى (نسبت إليه عظائم منها أنه قال فى ميعاده بجامع مصر أن السجود للصنم غير محرم، وأنه يفضل الشيخ ياقوت العرش شيخه على بعض الصحابة، واستؤذن السلطان فمكن منه، فترامى على الأمير جنكلى بن البابا والأمير الحاج آل ملك والأمير ايدمر الخطير حتى حكم بتوبته، ومنع من الوعظ هو والشيخ زكى الدين بن معضاد الجعبرى وجماعه من الوعاظ)[١].

وكان القاضى الذى يحاكمه هو جلال الدين القزوينى..[٢] ويذكر ابن كثير أن كبار الصوفيه حضروا مع ابن اللبان للدفاع عنه، وهم شيخ الشيوخ مجد الدين الإقصرائى، وشهاب الدين الأصبهانى، وأنه قد ادعى عليه (بأشياء منكره من الحلول والاتحاد والغلو فى القرمطة وغير ذلك، فأقر ببعضها فحكم عليه بحقن دمه)[٣]. وكان المدعى عليه ابن المغربى.. ومنع أهم أصحابه من الوعظ كابن الجعبرى والزركشى وجماعة آخرين[٤].

(١) السلوك جـ٢/ ٢/ ٤٠٨.
(٢) شذرات الذهب جـ٦/ ١٦٤.
(٣) تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ١٧٧.
(٤) فتوح النصر مخطوط جـ٢/ ٢٧١.

الخاطى وخالى صدقه ابن سرور لأنا كنا نخدمه فى مهماته وقال لنا: هذا كتاب الوزير اليازورى قد وصل بغلق البيع والقبض على جميع مالها ومطالبة جميع النصارى باسكندرية بعشرة ألف دينار ويجب أن تمضو الساعة وتنقلو جميع مافى بيعكم من آلات وكساوى وغيرها حتى تنظرو بعد هذا ما أفعله فى غد ويكون هذا أمر مخفى(*). ففعلنا ذلك، فلما كان بالغداة جلس وأحضر القاضى والشهود ومتولى الترتيب وأظهر الكتاب

(*) موقف حصن الدولة والى اسكندرية المدعم للقبط والنصارى.

• ادعاء النبوة:

وعرف فى القرن الثامن أيضاً صوفية ادعوا النبوة. وذلك قريب من القول بالاتحاد ويرى ابن خلدون إن الخروج عن الصراط أدى بأصحاب نظريات (الحلول) (والاتحاد) (والامتزاج)(والاتصال)(ووحدة الوجود)(والقطبى) (والإنسان الكامل)ـ أدى بهم إلى القول بأن النبوة ذاتها يمكن للإنسان اكتسابها والوصول إليها عن طريق الرياضة وصفاء القلب[1]..

وتأسيساً على ذلك حدث فى عام ٧٨١ أن ادعى صوفى أنه محمد بن عبد الله النبى الأمى، وأن حروف القرآن الكريم تنطق له، وأن الذى يأتيه بالوحى جبريل وميكائيل واسرافيل وعزارائيل ورضوان ومالك ودردياتيل.. وأنه أرسل بقتل الكفرة، وقد قبض عليه وسجن بالمارستان متهماً بالجنون، وأفرج عنه بعد أن رجع عن مقالته[2]..

وقيل فى ترجمة وضاح الخياط أنه كان يصاحب الصوفية ويحترف الخياطة فأزله الشيطان فادعى النبوة، فسجن أياماً ثم استتيب، وعزر فى ذلك، وأطلق سنة ٧٥٣[3].

واستمر ادعاء النبوة إلى القرن التاسع فقد ادعى سنة ٨٢٤(شخص من عرب الصعيد

(١) شفاء السائل ٨٤: ٨٦.
(٢) السلوك جـ٣/ ١/ ٣٦٨: ٣٦٩. تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢/ ٢٤٩.
(٣) الدرر الكامنة جـ٤/ ٤٠٧.

وأمرهم أن يمضو إلى البيع ويثبتو مافيها ويحتاطو عليه فمضو وعادو إليه باثبات ما وجدوه وهو حصير ومصيدة للفار في كنيسة السطير المعروفة بالمخلص فقال: إذا كان هذا موجود في كنايسهم وبيعتهم الكبيرة فكيف يكون حال هولا النصارى ومن أين لهم هذا المال الملتمس منهم، وقد صح عندي أنهم قوم مستورين ضعفآ لامال لهم. فأمر أن تغلق بيعنا وبيع الملكيين وكتب إلى الوزير بذلك. ولم يزل يردد رسله إليه [إلى] إن استقر

يقال له عرام النبوة، وزعم أنه رأى فاطمة الزهراء في اليقظة فأخبرته عن أبيها، وانه سيبعث بعده، فأطاعه ناس وخرج في ناحيته، فقام عليه نجم الدين البكري وسعى إلى أن قبض عليه، فضربه تعزيراً وحبسه وأهانه فرجع عن دعواه وتاب..)[1]..

ووصل طوفان الإلحاد إلى المماليك، فقالوا عن طوغان الشمسي ت٧٤١بأنه (ينسب إليه استهتار زائد وكلمات مؤذنة بالزندقة والانحلال..)[2].

• الصعود للسماء:

وعرف القرن الثامن بوادر لإدعاء بعض الصوفية الصعود للسماء وتكليم البارى تعالى، يقول ابن اياس (ظهر بالقاهرة سنة ٧١٧شخص يدعى أنه يصعد للسماء ويكلم البارى جل شأنه في كل يو م مرة، فاعتقده جماعه كثيرة من عوام مسلمي مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلساً بالصالحية، فاجتمع هناك القضاة الأربعة، فأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر فشهد جماعة من أهل الطب بأن في عقله خللاً فسجنوه، ولم يثبت عليه الكفر..)[3].

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٢٤٣.
(٢) الدرر الكامنة جـ٢/ ٣٢٩.
(٣) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٤.

الحال على ألفى دينار فأحضرنا وأوقفنا على الكتاب فشكرناه ودعونا له. ثم شكونا له حالنا فى غلق البيع وانقطاع الدعآ له فى أوقات الصلوات والقداسات، فدفع لنا مفتاح كنيسة مارى جرجس [بالاسكندرية] التى كانت قديماً بيت انيانوس [الاسكافى] أول البطاركة وهو البيت الذى دخله مارى مرقس البشير فى أول يوم دخل اسكندرية لما ثقب الشفا كف انيانوس وهو يوميذ اسكاف وابراه مارى مرقس واستضاف به فى البيت. وقال لنا:

أى أ ن العصر المملوكى يحتفظ لأولئك المدعين ببعض التصديق بدليل استجوابهم وقيام البعض بنصرتهم وادعاء الجنون للتخلص من القتل.. أما العامة من المسلمين فهم أسرع للإستجابة والنصرة.. إلا أن القرن التاسع حفل بحوادث كثيرة من هذا النوع..

• **القرن التاسع:**

ـ طوائف الأعاجم:

توافد على مصر جماعات من الصوفية الزنادقة الاتحادية وملأوا طرقات القاهرة، وقد وصفهم المقريزى بأنهم(يتحلون مذاهب الإلحاد، ويصرحون بتعطيل الصانع تعالى، وينكرون شرائع الأنبياء، ويجهرون بإباحة المحرمات)[١]. وقد قتل السلطان أحدهم بدافع سياسى لادينى قال فيه المقريزى أنه (من سقاط العجم قد ثبتت عليه ـ بشهادة جماعة ـ قوادح وعظائم أوجبت اراقة دمه شرعاً، وكان من جملة اشياع الأمير قرقماس المقتول، وتكلم فى السلطان وفى الأنبياء وغيرهم بما تعجل العقوبة)[٢]..

• **الحروفية أوالنسيمية:**

وكان أولئك الصوفية الأعاجم يشكلون حركات الزندقة الصوفية المعلنة فى القرن التاسع

(١)، (٢) السلوك جـ٤/ ٣، ١٢٦.

امضـو وافتحـو هذه الكنيسة وصلـو فيهـا سـرا
وادعـو لى فـدعـونا له وأخـذنا المفتـاح ومـضـينا
جماعة إلى البيعة ولم نزل نعافر الباب من ثالث
ساعة من النهار إلى التاسعة فبكينا وتضرعنا وقلنا:
يارب قد عـرفنا أنك غلقتـها لاجل خطايانا واثامنا
فـارحـمنا واعف عنا. فـانفـتح لنا البـاب فـدخلنا
وقـدسنا وتقـربنا وأقـمنا هكذى حتى قـسط علينا
ألف دينار وعلى الملكيـة ألف دينار وحـملناها إليـه.
وبعـد أيام أحـضـرنى أنا وأخى وخـالى وصـديق له

فى مصر وغيرها من البلاد المحيطة بها، وكان قدومها عادة إلى مصر، كما سبق لغيرها، عائد إلى التكايا الهائلة بها والتى كان يمنع على المصريين دخولها فى الوقت التى يصرف عليها من كدهم واموالهم، فهى كانت مخصصة لرعاع الترك مدعى الصوفية، وأهمها طائفة «الحروفية» أو «النسيمية»..

وترجع هذه الطائفة إلى الشيخ فضل الله التبريزى. يقول ابن حجر(أحد المتقشفين من المبتدعة، وكان من الاتحادية ثم ابتدع النحلة التى عرفت بالحروفية، فزعم أن الحروف هى عين الآدميين إلى خرافات كثيرة لاأصل لها، ودعا اللنك (تيمور لنك)إلى بدعته فأراد قتله، فبلغ ذلك ولده أمير زاده لأنه فر مستجيرا به فضرب عنقه بيده، فبلغ اللنك فاستدعى برأسه وجثته فأحرقهما فى هذه السنة، ونشأ من اتباعه واحد يلقب«نسيم الدين» فقتل بعد ذلك وسلخ جلده فى الدولة المؤيدية سنة ٨٢١)[١]..

وكان قتل التبريزى سنة ٨٠٤ يقول ابن اياس سنة ٨٠٤ جاءت الأخبار بأن تيمور قتل التبريزى الذى كان قاضيه، وكان على مذهب النسيمى)[٢] وقد أخطأ ابن اياس حين اعتبر الأستاذ على مذهب تابعه.. والسبب فى ذلك الخلط هو الشهرة التى حققها النسيمى بعد استاذه التبريزى حتى سميت طريقته باسمه فأصبحت (النسيمية) بعد أن كانت (الحروفية).

(١) إنباء الغمر جـ٢/ ٢١٩ وفيات ٨٠٤.
(٢) تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢، ٦٥٨.

اسـمـه أبو غـالب ابن سليمان، كان يخـدمه أيضـاً في بضـايع تصل إليـه من الشـام، وقـال لنا: كم وزنتم عـمـا يخـصـكم في القسط فقلنا له مايتي دينار. فـدفع لنا من قمطرته مايتي دينار وقال هذه أخـذتهـا لكم من نصـارى رشـيـد واتكوا [أدكـو، جنوب اسكندرية] والجديديه ومحلة الأمير فخذوها عـوضـاً مما قـمـتم به فـدعـونا له وشكرناه وقلنا له: ياmولاى ما يجوز لنا هذا لأن المقسط قد وزن فـيـه المستور والأرملة وكل أحد وكيف نستعيد نحن ما

- -

ويقول ابن اياس في النسيمي (نزيل حلب صاحب الأشعار التركية، فأفسد عقائد الإتراك وبعث المؤيد شيخ بضرب عنقه وسلخه وصلبه على أحد أبواب حلب)[1].. وقد عرض ابن حجر لترجمته بالتفصيل فهو معاصر له، يقول في حوادث ٨٢٠(قتل الشيخ نسيم الدين التبريزى نزيل حلب وهو شيخ الحروفية.. بعد شيخه فضل (ت٨٠٤)، وقد قرر نسيم الدين أن الشرائع أباطيل لاحقائق، وأنه لا إله، وقد وصل في ضلاله إلى أن وطأ ابنته واتخذها كالزوجات إلى أن أولدها ولداً. وقد سكن حلب وكثر أتباعه وشاعت بدعته، فأمر السلطان بقتله وسلخ جلده وصلبه)[2] ولعل السبب في مقتله سياسي يرجع إلى التخوف من كثرة أتباعه واحتمال أن يؤسس له دولة في حلب ـ وهي بعيدة عن مركز السلطة ـ تتخذ قاعدة لنشر دينه الجديد..

بيد أن دعودة النسيمية لم تمت بموت صاحبها.. يقول ابن حجر معقباً على مقتل النسيمى (وقد وقع لبعض اتباعه كائنة في سلطنة الأشرف (برسباى) واحرقت كتباً كان معه فيه هذه الاعتقاد،فأطلق بعد أن تبرأ من الكتاب المذكور، وتشهد (نطق الشهادتين)، والتزم أحكام الإسلام، وكان سبب الوقوع في ذلك أن شريفاً قدم من الشام، وذكر أنه لم يزل يسعى

....

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٣٦تحقيق محمد مصطفى.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ١٣٦.

قمنا به دونهم. فقال: هذه الدنانير لكم افعلوا فيها ما تريدوا. فدعونا له وشكرناه وأخذناها وابتعنا بها ثياب حلبى وقمح وفرقناه على الضعفا من النصارى فبلغه ذلك فوافقه وفرح به.

وكان رسم النصارى باسكندرية أن يخرجو الزيتونة يوم عيد الشعانين فى الليل ويشقو بها المحجه والسوق من بيعة القديس أبو سرجه إلى بيعة السطير بالدعا والقراه إلى أن جرى من

فى الإنكار على هؤلاء إلى أن عثر على هذا ، وكتب له مرسوم بالقيام عليهم فى بلاد الشام، ثم قدم علينا شخص من أهل انطاكية فذكر لنا عنهم أموراً كثيرة، وكتب له مراسيم بالقيام عليهم فى سنة (٨٤١)(١).

وابن حجر كان قاضياً للقضاه وقد شهد الواقعة بنفسه وقام بمحاكمة الرجل الذى ضبطت معه كتب الدعوة النسيمية ، ومهما يكن من أمر فأن سياق كلامه يدل على ما كانت عليه الحركة النسيمية، من نشاط فى الشام بدليل ما آثارته من فزع لدى الفقهاء فالتجأوا إلى مصر مركز الحكم المملوكى، ثم أن كتب النسيمى كانت ترد إلى القاهرة لأتباعه وضبط بعضها وحوكم من وجدت لديه..

وقد فصل ابن حجر القول فى حوادث سنة ٨٣٨ عن هذه الواقعة فقال (حضر للسلطان شريف من الشام بأوراق فيما يتعلق بالنسيمى وشيخه فضل الله، وإن بالشام ومصر جماعة على عقيدته، وأنه تصدى لتتبعهم، وأنه وجد بالقاهرة شخصاً منهم فأحضره للسلطان وكتبه، وهذه هى الحروفية، وعقد السلطان مجلساً أحضرت فيه الكتب ، وهى بالفارسى فإذا هى مقاله مركّبة من قول المشبهة والاتحادية وفيه «إن شعر الإنسان فى رأسه ووجهه سبعة شعور، وشعر أجفانه الأربعة وحاجبه ورأسه سبعة ، وإن عقد أصابع اليدين أربعة عشر فلذلك عدد

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ١٣٦ : ١٣٧.

المسلمين ما أوجب أن أقامو خمسة عشر سنة ما طافو بها، فلما ذكرنا ذلك للأمير حصن الدولة ابن ميروا أمر باخراجها على جارى العادة وأنفذ معنا أصحابه وأوصاهم بأن يفعلو ما يقوله لهم وأى دار رمى منها حجر يختم بابها ويعلم بها وأى إنسان تكلم من المسلمين يمضو به إلى الحبس ونادى مناديه بذلك في المدينة فأخرجناه تلك الليلة وطفنا بها المدينة بالقراه والتمجيد والصلبان والبخور كما جرت العادة قديماً وكانت لنا ليلة

حروف المعجم»ونحو هذا. وفيه أن الإلهية انتقلت من الله لأدم ومن آدم لآخر إلى أن انتقلت لفضل الله»(التبريزى). وكلام من هذا حاصله «أن الله هو الحروف». وانكر الرجل اعتقاده وكفر من يعتقد بهذا، وامتثل لأمر الشافعي (القاضى الشافعى) وأحرق الكتب بيده، نودى: من عرف من أهل هذا المذهب النسيمى ووجد عنده شئ من كتبه وأحضره للسلطان كان له مائة دينار، ثم أمر فنودى بأن يخرج جميع العجم من القاهرة والقلعة بأسرهم ولايتخلف منهم أحد إلى ثلاثة أيام، ثم لم يتم ذلك)[1].

والواقع أن وفود العجم الصوفية كانت بيئة انحلال عقيديه، وكان ينادى عليهم دائما بالخروج من القاهرة ثم لايتم من ذلك شئ.. وفى نهاية القرن التاسع ـ فى عصر قايتباى ـ وجد طائفة النموسية ـ وكانوا يربون أولاد النموس ـ جمع نمس ـ يقول فيهم المناوى الصوفى (كانوا أصحاب حسين أبى على.. وضرب قايتباى رقاب بعضهم لما شطحوا ونطقوا بما يخالف الشريعة)[2]. وتابع ضهم ـ من أعاجم الصوفية ـ ادعاء العروج للسماء..

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٥٤٨: ٥٤٩.
(٢) الطبقات الكبرى للمناوى: مخطوط ٣٤٩ أ، ب.

حسنة وذلك في سنة أربع مايه وأربعه الخراجية.
وكان في تلك السنة غلا عظيم حتى ابيع القمح
ليلة الزيتونة بدينار ونصف الويبه وكان لا يباع إلا
بالدنانير النزارى وقيمته يوميذ خمسه وثلثون درهماً
ونصف بدينار، وكان الدينار نقد البلد الذى تتعامل
به الناس قيمته ستة وعشرون درهماً فصار الدينار
النزارى بدينار وربع وثمن نقد البلد، فلما آخرجنا
الزيتونة تلك الليلة اتفق وصول شعير جديد بالغداة
من البحيرة فصار القمح ويبه ونصف بدينار وثانى

• ادعاء الصعود للسماء:

يقول ابن اياس في حوادث ٨١٩ (ظهر بالقاهرة شخص أعجمي يدعى أنه يصعد إلى السماء ويكلم البارى عز وجل فى كل يوم مرة، وأنه صرفه فى الكون، فاعتقده جماعة كثيرة من أهل مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان (شيخ) أن يعقد له مجلس بالمدرسة الصالحية، فاجتمع بها القضاة الأربعة فأراد المالكى أن يضرب عنقه فشهد جماعة من الأطباء بأن فى عقله خللاً فسجنوه ولم يثبت عليه كفر وصار مع المجانين[1]. وتمتع ذلك المدعى - كسابقه - بتصديق العامة حتى اهتم السلطان بأمره وتطلب الأمر عقد جلسة للتحقيق فى صدق دعواه وانتهت قصته النهاية المعروفة وهى تخليصه من القتل بحجة الجنون. فكان الإدعاء سهلاً فى بدايته وعاقبته..

وقد حضر ابن حجر محاكمة ذلك الصوفي الأعجمى، يقول أنه فى مجلس سماع الحديث بالقلعة مع السلطان سئل عن الحكم فى شخص يزعم أنه يصعد إلى السماء ويشاهد الله تعالى ويتكلم معه فاستعظموا ذلك، فأمر السلطان بإحضاره - ووصف ابن حجر الرجل - وقال أن السلطان (سأله عن أمره فأعاد ذلك وزاد بأنه كان فى اليقظة وأن الذى رآه على هيئة السلطان فى الجلوس وأن رؤيته تتكرر مراراً كثيرة، فاستفسره عن أمور تتعلق بالأحكام الشرعية

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢٨ : ٢٩، ٢، جـ٢/ ٤.

يوم ويبتين بدينار وبعد عشرة أيام صار أكثر من أردب بدينار وتزايد الرخا وزال الله الغلا برحمته ورأفته وتحققو المسلمين باسكندرية أن ذلك ببركة خروج الزيتونة وتطوافها فى البلد وصارو يفرحو بخروجها فى كل سنة فى ليلة عيد الشعانين إلى الآن.

ثم أن إبليس باغض الخير طرح سجس آخر وألقى فى نفس راهب يسمى فلوطس أن طلب

فظهر أنه جاهل بأمور الديانة، ثم سئل عنه فقيل أنه يسكن خارج باب القرافة تربة خربة، وأن لبعض الناس فيه اعتقاداً كدأبهم فى أمثاله) فاستفتى السلطان العلماء (فاتفق رأيهم على أنه إن كان عاقلاً يستتاب فإن تاب وإلا قتل. فاستتيب فامتنع، فعلق المالكى الحكم بقتله على شاهدين يشهدان أن عقله حاضر، فشهد جماعة من أهل الطب بأنه مختل العقل، فأمر السلطان به بأن يقيد فى المارستان فاستمر به، ثم اطلق بعد موت السلطان)[1].

وحدث أن كان السلطان فى عام ٨٢١ يتفقد أحوال المجانين فى المارستان المنصورى، فقام إليه ذلك المدعى فكلم السلطان أن يفرج عنه فلم يجبه[2].

وسهولة الإدعاء والتهاون فى العقاب شجعت البعض على إعلان التحلل من التكاليف الشرعية بدعوى المنامات، كما حدث من الشيخ شمس الدين الميمونى حين قال «قد اباح لى سيدى اللواط والخمر والحشيش والفطر فى رمضان»، وشهد عليه جماعة وثبت ذلك عليه، فاعتقل وأحضر إلى مجلس السلطان وفيه ابن حجر فافتى بأن فى عقله خللاً، وأعلن الميمونى توبته من رؤيا المنامات[3].

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٩٩.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ١٦٣.
(٣) إنباء الغمر جـ٣/ ٣٤٩.

الاسقفية من الاب اخرسطودلوس فلم يفعل فرفع فيه رقاع للسلطان فمنعوه قوم من الأراخنة بمصر وهم أبو اليمن ابن مكراوه ابن زنبور(*) وابو الطيب الزراوى وأبو السرور يوحنا ابن يوسف الابح وعدلوه واردعوه عن ذلك فارتدع زماناً ثم تجدد السجس بينه وبين البطرك وعاد إلى مواصلة الرفيعه [الوقيعة] فيه عند السلطان إلى أن قبض عليه فوجدو له فى داره بدمرو حوض فيه ستة ألف

(*) ابن مكراوه: هو أبو سعد منصور ابن أبي اليمن ابن سورس ابن مكراوه ابن زنبور. كان أبوه ناظر الريف. تقلد الوزارة أياماً قليلة ولقب بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين عميد الخلافة محب أمير المؤمنين». هرب عام ٤٥٨هـ = ١٠٦٥م بسبب مطالبة الجند لرواتبهم ثم تمردهم على الخليفة

وامتد الأمر للمماليك فقيل فى ازدمر الطويل أنه (كان يخوض فيما لا يعنيه مع سوء عقيدة، واستخفاف بأمور الدينى، ويميل للمتصوفة)(١).

*فى الريف:

وإذا كان هذا الحال فى القاهرة ـ حيث السلطان والقضاة والعلماء.. فالحال فى الريف أشد، ومع الأسف فإن جل اهتمام المؤرخين انصب على تتبع أخبار القاهرة دون غيرها من المدن الهامة، ولا نقول الأرياف حيث الجهل أشد إظلاماً وسيطرة التصوف أعتى استحكاماً. على أن بعض حوادث الزندقة ـ حين زادت وفاضت ـ وصل أمرها إلى علم المسئولين بالقاهرة، يقول أبو المحاسن فى حوادث سنة ٨٦٦ (ورد الخبر من كاشف الغربية وغيره بأن فى قرية ططية بالوجه الغربى من أعمال القاهرة جماعة زنادقة، وفيهم من ادعى الألوهية، ومنهم من ادعى النبوة، وانضم عليهم جماعة كثيرة من أوباش الناس، ومالوا إلى معتقدهم، ووقعت منهم أمور شنيعة، وإن الكاشف أمسك منهم نحو أربعة عشر نفراً، فأرسل السلطان إليهم القاضى ابن الوارث أحد نواب الحكم المالكية والناصر محمد الخازندار لينظروا فى حقيقة أمرهم ويفعل فيهم مقتضى الشرع.. وأحضر الزنادقة فأنكروا أمام السلطان فحكم القاضى بتعزيرهم..)(٢).

(١) الضوء اللامع جـ٢/ ٢٧٣ : ٢٧٤.

(٢) حوادث الدهور جـ٣/ ٤١٩ : ٤٢٠.

المستنصر بالله سنة ٤٦٠هـ =١٠٦٧م.

دينار مشدودة فى ردآ أحمر فأخدوها وسارو بها معه إلى مصر، فاجتمعواالأراخنة وتسببو فى أمره إلى أن رفع عنه الترسيم وحمل المال المذكور إلى بيت المال وعاد البطرك إلى دمرو بعد أن لحقه مرض النقرس بمصر. وكان يوفى السكندرانيين ما يصرفون فى عمارة بيعهم وقرابينهم ثلثماية وخمسين دينار فى كل سنة عن الرسم المستقر لهم على البطاركة ويحملها لهم قبل أن يطلبوها منه، ولما عزل حصن الدولة ابن ميروا المذكور عن ولاية

فأولئك كثرة ادعى بعضهم الألوهية وآخرون النبوة.. وبعث بأمرهم (كاشف الغربية وغيره)، وذلك لأن أتباعهم كثروا (ووقعت منهم أمور شنيعة) ولعل مصادمات حدثت بينهم وبين الكاشف إذ أنه (أمسك منهم نحو أربعة عشرة نفرا) فقط.. أى لولا تجاوز حركة أولئك الزنادقة دور الدعوة القولية إلى الدور الحركى ومناوأة السلطة الحاكمة ـ لولا ذلك لما عرفت القاهرة بأمرهم ولما سجلت ذلك حوليات التاريخ.. ومعنى ذلك أن مدعى الألوهية والنبوة فى الريف فى مأمن من السلطان ومن الرصد التاريخى طالما اقتصروا على الدعوة لأنفسهم ثم إن الزندقة تحولت بعد القرن التاسع إلى شطحات يقولها المجذوب كيفما شاء وفى أى وقت بدعوى غيابه عن الوعى فتكاثر المجاذيب فى ذلك الوقت.. وأرخ لهم الشعرانى[1]. إلى ذلك الحد بلغ اضطراب العقيدة الدينية فى العصر المملوكى بأثر التصوف، ولنضرب بعض الأمثلة:

١ـ يارب سلم الحيطة بتتكلم سنة ٧٨١:

ففى هذا الجو المقفر من عقيدة صحيحة حيث الناس على استعداد للإعتقاد فى أى شىء ولو كان حجراً صلداًـ أتيح لبعض الصوفية أن يعبث بعقول الناس ومعتقداتهم ويتجلى ذلك فى واقعة (الحائط الذى يتكلم)، وبطلها صوفى كان يتمتع بتقديس برقوق وهو الشيخ عمر ركن الدين (وقد كان الناس يتبركون به ويزوررونه لمدة ثلاثين عاما)..

(١) ترجم الشعرانى للأكثرية منهم فى الطبقات الكبرى فى نهاية الجزء الثان، وهى (ظاهرة) أن يكون أكثر الصوفية المعتقدين المقدسين فى القرن العاشر من المجاذيب.

اسكندرية تولاها بعده المنحب [المنتخب] نصر الملك أبى على ملهم وكان رجلا عاقل وانما غلط على نفسه وفعل فعلا كان سبب ميتته وذلك انه بات في بيعة القديس مارى جرجس الشهيد [و] بلد [نام] داخل بيت المذبح الذى قبره تحته مع غلام له امرد فظهر له فارس وهو الشهيد مارى جرجس ولم يزل يضربه برمحه وهو يستغيث ويقول لغلمانه: يافعله أصيح ما تخلصونى من هذا

وموجز الحكاية أن امرأة اشتكت لذلك الصوفى سوء معاملة زوجها لها، فكان الصوفى يعظه ويوصيه بزوجته من خلف الحائط بحيث لا يدرى من المتكلم، واشتهرت الإشاعة بأن حائطاً يتكلم، وسار الصوفى فى الطريق إلى نهايته، فافتتن الناس بالحائط الذى يتكلم وتوافدوا عليه يسمعونه، يقول ابن حجر: (افتتن الناس به شهرين واعتقدوا أن المتكلم من الجن أو الملائكة، وقال قائلهم «يارب سلم الحيطة بتتكلم» وقال الشاعر ابن العطار:

يا ناطقاً من جدار وهو ليس يُرى

اظهر والا فهذا الفعل فتان

ويقول ابن اياس «اشتدت فتنة الناس بالحائط حتى كادوا أن يعبدوه من عظم ما افتتنوا به ويتخذوه معبداً لهم..» وكانوا يقدمون للحائط النذور والقرابين.. ثم اظهر المحتسب الحيلة وعوقب الفاعلون[1]..

٢ـ زندقة بعض الفقهاء:

وتأثر بعضهم بهذا الجو المنحل عقيدياً فاعتاد التلفظ بالكفر مع وصفه بالعلم والفضل، ولكن وقف لهم الصوفية بالمرصاد وكأنما عز عليهم أن ينافسهم أعداؤهم فى ميدان الزندقة

(١) إنباء الغمر جـ١/ ١٩٨ : ١٩٩، السلوك جـ٣/ ١/ ٣٦١ : ٣٦٤. النجوم الزاهرة جـ١١/ ١٧٢ : ١٧٣، ابن اياس جـ١/ ٢/ ٢٤٦ : ٢٤٧.

الفارس ليلا يقتلني هوذا هو مواصل عقربتي برمحه. فقالو له: يا مولاي يعيذك الله الأبواب مغلقة وما دخل إلينا أحد. فمات لوقته. وكان يظهر لنا من رأس القديس مرقص لما أخذته عندي عجايب عظيمة منها أن أخي أبو العلا [فهد] نيح الله نفسه كان قد شك في . فلما نمت تلك الليلة ظهرلي القديس ماري مرقس وقال لي : أخوك فهد قد شك في. فلما أصبحت أعلمت أخي بذلك

والشطحات.. فقد ذكر العيني في حوادث ٧٢٠ مقتل اسماعيل الزنديق.. وقد اشتهر بين الفقهاء بالعلم والفضيلة والأدب مع كثرة الهزل والتلفظ بالكفر حتى لقب بالزنديق، فوقع في بعض الأيام في حق النبي لوط عليه السلام، فشهد عليه جماعة وعقد له مجلس عند ابن الأخنائي المالكي فادعى اختلال عقله،، وهي الحيلة المأثورة في هذا المجال ـ فتوقف المالكي في أمره.. ولكن لم يسمح الصوفية له بالجنون والإفلات من القتل. فادعى صوفي أنه رأى النبي محمد ﷺ في المنام يأمره أن يقول (قل للأخنائي يضرب عنقه فإنه سب أخي لوطا) فحكم القاضي بضرب عنقه، وفي صبيحة مقتله رأى صوفي آخر النبي ومعه لوط عليهما السلام في منام يؤكد الدعوة لمقتل اسماعيل الزنديق فتم تنفيذ الحكم في ذلك الفقيه بين القصرين[١].

٣ـ حوادث الردة بين العامة والمماليك:

كان بعض المسيحيين يدخل الإسلام طمعاً في منصب أو تخلصاً من ورطة وقع فيها ثم اعتاد بعضهم الرجوع والارتداد إلى دينه، بل ارتد بعض العامة المسلمين عن الإسلام ولم يوافقوا على العودة إليه[٢].. وفي تجريده حربية إلى جزيرة رودس ارتدت طائفة من المماليك ورجعت إلى النصرانية[٣]..

(١) عقد الجمان مخطوط حوادث ٧٢٠ لوحات ٢٣٩ : ٢٤١. نهاية الأرب مخطوط جـ٣٠/ ١٣٥.
(٢) تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢/ ٣٢٤.
(٣) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢٣٨ تحقيق محمد مصطفى.

وكنا في بيعة أبو سرجه أنا وهو وخالي صدقه ابن سرور والراهب أبو يعقوب فلما سمع قولي تعجب وارتعب واعترف بما خامر قلبه وأعلمنا ما كان منه ومضى إلى حيث رأس القديس وصلا وبكا وسأله الصفح عنه. ولما كان في برموده سنة ثلثة وخمسين واربع ماية الخراجية ظهر نجمين عظيمين دوايبنه [لهـا اذناب] يسمى أحدهما سفود [سعود]والآخر فانوس، فالاول منها ظهر في آخر

إلا أن أهم أثر للإضطراب العقيدى الذى أحدثه التصوف في العصر المملوكي يتجلى في شيوع التكفير أو سهولة الإتهام بالكفر، على خُطورة ذلك الإتهام الذى يستوجب الحكم بالقتل عندهم.

شيوع التكفير:

١ـ شاع القول بالكفر بين الصوفية وغيرهم.. وتولى القضاة عقد المحاكمات لقائلي الكفريات، وفي جو يعمه الجهل والتعصب وحدّة العاطفة وكثرة الدسائس والحروب بين الصوفية والفقهاء وتدخلات السلطة المملوكية والنزاع المستمر بين القضاة ـ مع انعدام التقوى الذى لدى القضاة وتأثرهم بالتصوف وانحلاله .. وحرص الصوفية على النيل من أعدائهم الفقهاء..ـ في هذه الظروف، انتشر الاتهام بالكفر، وكثر عقد مجالس الحكم وكانت تصدر أحكام القتل أو التعزيز حسب الظروف السياسية أو مقتضيات الأحوال العادية من الميل أو النفور بين القاضي والمتهم وتدخلات الأطراف الخارجية من الصوفية والأمراء المملوكية، كما ظهر في حوادث سابقة عرضنا لها، وسنعرض الآن لشيوع التكفير في العصر المملوكي بين العامة وفي مجتمع الفقهاء.

٢ـ وقد كان أحدهم يقرأ في رياض الصالحين، فشك في البعث وكيفياته فشُهد عليه

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الليل مابين الشرق والقبلة، والآخر ظهر فى آخر
النهار ما بين الغرب وبحرى من حيث تغيب
الشمس في ذلك الشهر ، وكان نجم عظيم يشبه
القمر ليلة تمامه، وظهر أيضاً ثانى يوم بحيث
تكون الشمس فى ثامن ساعة من النهار وتوقدت
دواييه [أذنابه] حتى صار كأنه الفانوس إذا وقد فيه
الضو وظهر ثالث يوم وقد ارخا دوايب عظيمة
رأيتها بعينى إلى الشرق والقبلة بحيث طلع [تبع]

وعُقد له مجلس فجدد إسلامه وحقن دمه(١).. وقال البرهان بن جماعة فى مجلس: قال الله تعالى في كتاب العزيز: ضعيفان يغلبان قوياً.. فعقد له مجلس، ولم يصبه بضرر (٢) وقال آخر إن التوراه والإنجيل بحالهما لم يبدلا، فعزر(٣). واعتبر الشريف المكرانى الزاهد من قال أن الرؤيا خيال باطل فهو كافر(٤).

تقديس الولى الصوفى فى مصر المملوكية

أولا أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم:

* بين القطب وأعوانه، الخضر، المجاذيب، أرباب الأحوال، أصحاب النوبة.

ثانيا: مهام الأولياء: الحملات، النظرة واللحظ والبركة.

ثالثا: الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية:

- الكرامات في فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكى.
- دراسه فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكى.
- أصناف من أساطير الكرامات.

(١) حوادث الدهور ٣١.
(٢) تاريخ البقاعى ٣٧ مخطوط.
(٣) تاريخ الجزرى جـ١/ ١٧.
(٤) التبر المسبوك ٣٧٠.

النجم الأول لأن دوايب الأول كانت تتوقد وتفترش إلى حيث طلع الثانى، ودوايب الثانى كانت إلى حيث طلع الأول. ومن بعد ظهور هذين النجمين كثرت خطايانا وذنوبنا وتزايد طنخنا وبذخنا حتى أن جماعة ثقات من المسلمين والنصارى أبصروا بأعينهم الدموع تجرى من أعين بعض الصور التى فى الكنايس منها صورة مارى جرجس في كنيسة قرية تسمى دمول من قرى

---

* مدخل: جعل الصوفية لأنفسهم مملكة وهمية وزعوا فيها الوظائف بين الأولياء، واختلفوا فى التوزيع وفى الألقاب فى تلك المملكة الوهمية.

كما جعلوا للأولياء وظائف ومهاما، كأن يقوم أحدهم بتحمل المصائب عن الأخرين، أو «الحملات» أو كأن يشمل الآخرين ببركته بالنظرة وبالبركة.. وينبع ذلك كله من اعتقاد العصر فى كرامات الأولياء وقدرتهم ـ المزعومة ـ على التصريف فى الكون وفى الناس.

وهو موضوع طويل، ذلك الذى يتحدث عن أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم، ونحاول هنا اختصاره، لتأكيد ما ساد فى العصر المملوكى من تقديس للولى الصوفى والاعتقاد فى مؤهلاته الإلاهية التى يتفوق بها على النبى، والتى لم يعرفها المسلمون فى عصر النبى.

أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم

أولا: أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم:

* بين القطب وأعوانه:

القطب عند صوفية العصر المملوكى هو الذى عليه مدار الكون ولأجله وجد الكون وعليه مدار كونية الدارين، ولكل عصر قطب، وقطب الأقطاب هو الذى لم يكن قبله ولا بعده مثله،

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

أبوان وصورة السيدة وصورة الملاك ميكاييل فى كنيسة تونه، أخبرنى بذلك مقاره الراهب تلميذ القديس بسوس بدير أبو كما المشهور قدسه وحسن سيرته، فضرب ديار مشر [وادى النطرون] باداب [بكوارث] عظيمة صعبة جداً، فأول ذلك حدوث زلزلة عظيمة ضحى نهار يوم الثلثا ثانى الفصح حتى أنها أقلبت عدة مواضع بالرمله وتنيس وغيرها، ولم يكن لها تأثير باسكندرية وكان بعدها وبا [وباء] كثير حتى لم يبق فى تنيس من الألوف

والأوتاد أربعة على أربع جهات العالم، والأبدال سبعة على حكم أيام الأسبوع، وللقطب رجلان عن يمين وشمال[1]، وأنكر ابن الحاج مغالاة الناس فى قولهم هذا قطب وهذا بدل لأنه يرى أن القطب واحد وقل من يعرفه[2]، وكان هناك دعاء مخصوص للأبدال[3]، وجعلوا الإمام الشافعى أحد الأوتاد الأربعة [4]، ونسب إلى على بن أبى طالب قوله «البدلاء بالشام، والنجباء فى مصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر سيد القوم». ورووا أن الخضر قال ثلاثمائة هم الأولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، واحد منهم القطب الغوث»[5].

*القطب:

١ ـ اختلفت الصوفية فى صفاته فجعل له الشاذلية خمس عشرة علامة إلا هية[6]، و جعل الخواص من علامته كثرة تحمله للبلايا والإنكار عليه، فإن جميع بلاء أهل الأرض ينزل

(١) النويرى الإلمام ١ لوحة ١٧٨، الشعرانى: اليواقيت والجواهر ٢/ ٨٤، الكبريت الأحمر ٤/ ١١.
(٢) المدخل ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) ذكر فى مناقب المنوفى ٣١.
(٤) لواقح الأنوار للشعرانى ٢٤٤.
(٥) روض الرياحين لليافعى ص ٨.
(٦) الشعرانى «اليوقيت والجواهر»، جـ٢ / ٧٩، ٨٢.

التى كانوا فيها إلا تقدير ماية نفر، وان الدار بها يوجد كلمن فيها رقود على فراشهم [موتى] ومالهم وكل شيء لهم فيها، فتحمل من دورهم الأسرة والقباب والدكك والفروش والمال . وخليت [مدينة] الرملة ولم يبقا فيها أحد، ثم تفاقمت الأمور إلى أن قام حرب بين المشارقة [بنى حمدان] والأتراك المتغلبين بمصر على ناصر الدولة ابن حمدان وحسنوا للسلطان [المستنصر بالله الفاطمى] أن أخرج [يخرج] خيمة

عليه أولاً ثم يتفرع منه [(١)]، أما الشعرانى فيرى أن غالب الأولياء لم يجتمع قط بالقطب لعدم طاقته أن ينظر إليه [(٢)]. ومن شأن المريد أن يلزم الأدب مع القطب ولايقول نحن خارجون عن دائرة القطب[(٣)]، ومقام القطبية ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية ملوكاً ورعايا [(٤)].

٢ ـ وعند الدسوقية لا يصير القطب قطباً إلا إذا شرب من نهر الحياة عند جبل قاف سبع مرات. ولا يكون غوثاً إلا إذا شرب منه ألف مرة. ومن هذا النهر شرب الدسوقى والرفاعى والبدوى والجيلى[(٥)]. وقد رأى الشعرانى القطب بمعرفة أستاذه الخواص يبيع الفول الحار فى أحد حوارى القاهرة [(٦)]، وجعل من صفات القطب الغوث الإكثار من النكاح، ويقول إنه رأى شخصاً يدعى القطبية يدخل الحمام فى النهار ثلاث مرات فازداد فيه إعتقاداً وتعظيماً [(٧)]

٣ ـ ورأى آخر القطب الغوث بمكة على عجلة من ذهب تجرها الملائكة فى الهواء بسلاسل من ذهب، فسأله إلى أين؟ فقال إلى أخ من إخوانى اشتقت إليه [(٨)]، وقالوا (كان أبو العباس (ت ٨٦١) قطب وقته، وقد رؤى فى مكة على كرسى بين السماء والأرض)[(٩)].

(١) لطائف المنن للشعرانى ٥٣٢.
(٢) لطائف المنن ٤٩٢.
(٣) الشعرانى آدب العبودية ٣٣.
(٤) الشعرانى «اليواقيت والجواهر» جـ٢ / ٨٣.
(٥) طبقات الشرنوبى مخطوط ٥،٤.
(٦) لطائف المنن ٣٨٣.
(٧) لطائف المنن ٢٦٨.
(٨) اليافعى روض الرياحين ١٨٧.
(٩) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٤١.

حمرا ضربت خارج باب القصر في [الموضع] المعروف بباب الذهب، وأظهر سخطه على بني حمدان ومن معهم، وكان بالقاهرة ومصر منهم طايفة الاكراد وتقديرهم خمسة ألف رجل فصاح فيهم وفى بني حمدان ومن معهم فى ذلك اليوم صايح حتى لم يبق منهم بمصر والقاهرة إلا يسير منهم قطعوا شعورهم واصداغهم واختفوا.

وقتل فى ذلك الوزير الخطير ابن الموفق المعروف بابن العجمى وجلال الدولة ابن

---

٤ ـ وأسرف كثير من الأولياء فى إدعاء القطبية، وأبرزهم المدرسة الشاذلية الذين اعتقدوا أن القطب منهم فى كل العصور[١]، واعترف بهذا الشعرانى [٢]، وزعموا أن الله تعالى قد جعل القطب الغوث من بيت الشاذلى إلى يوم القيامة[٣]، وزعموا أن الرسول قد بشر الشاذلى بالقطبية بعد موت أبى الحجاج الأقصرى[٤]، واشتهر فى الاسكندرية بأنه القطب الغوث[٥]، ومدحه البوصيرى فقال:

أفدى علياً في الوجود وكلنا

بوجوده من كل سوء نفتدى

قطب الزمان وغوثه وامامه

عين الوجود ولسان الموجد[٦].

أما خليفة الشاذلى أبو العباس المرسى فكان يرى أن القطب لا يلزم أن يكون شريفاً حسينياً، بل قد يكون من غير هذا القبيل، وقد قال «وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء

(١) دائرة المعارف ١٣/٥٩.
(٢) آداب العبودية ٣٢.
(٣) تعطير الأنفاس ١٦.
(٤) تعطير الأنفاس ٤٦.
(٥) النويرى الإلمام بالإعلام جـ١ / ١٧٨.
(٦) ديوان البوصيرى ص ٧٣..

ملك بغداد وكان صديق بنى حمدان ووصل ناصر الدولة ابن حمدان ومن معه إلى اسكندرية منهزمين وحالف قيس ولواته وأظهر النفاق، وخرجت العساكر من مصر فى طلبه وكانو مقدميها أمين الأمنا أبو اليمن سورس ابن مكراوه ابن زنبور واخلع عليه وقلد [ه] سيف بحلية ذهب فوق ذراعيه ولقب بسيد رورويسا السيف والقلم والأستاذ عزيز الدولة(*) زمام العبيد

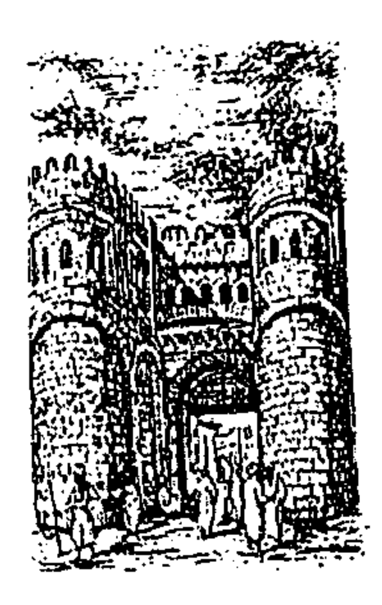
(*) عزيز الدولة ت : ت٤١٣هـ ١٠٢٢م فاتك بن عبدالله

وأشار إلى نفسه»[1]، ذلك أنه ينتمى إلى الأنصار، وذكر ابن عطاء بعض الكرامات التى تؤكد قطبية المرسى[2].

٥ ـ وبالغت المدرسة الدسوقية فى ادعاء القطبية، فادعت أن الله جعل الدسوقى قطباً قبل بناء البيت والحرم، وأنه اجتمع بالقطب الفرد وهو ابن سنه، وخدمه القطب وهو ابن عامين، وتقطب قطب المحبة وهو ابن عشر سنين، وقطب الفردانية العظمى وهو فى الرابعة عشرة، وسقى رجلاً من شرابه قدر درهم فتقطب، وأعطى تفاحة من غير واسطة، وناداه الله بألا يأكلها كلها حتى لا يحتكر القطبية لنفسه [3]، وجعلوا الجيلى والرفاعى على مثال الدسوقى[4]، وممن وصف بالقطبية من الأولياء «المنوفى [5] وأبو القاسم المراغى [6]، وأبو النجا الفوى شيخ الشعرانى، وقد شاع فى ليلة موته أنه القطب[7]، وفتح على شمس الدين الحنفى بالقطبية بعد أن أخذ العهد على ابن الميلق، وقد قال الحنفى «إن القطبية مرت بنا ونحن شباب[8]». وباختصار كان شيوخ الصوفية يتنافسون فى ادعاء القطبية ويتغنون فى توصيفها.

(١) تعطير الأنفاس ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣١.
(٢) لطائف المنن لابن عطاء ٥٨، ٥٩.
(٣) طبقات الشرنوبى مخطوط ٤,١.
(٤) طبقات الشرنوبى ٨,٧.
(٥) مناقب المنوفى ١١.
(٦) ابن الزيات الكواكب السيارة ١٨١.
(٧) الطبقات الصغرى للشعرانى ٦٥.
(٨) مناقب الحنفى مخطوط ١٢٨، ١٢٩، ٢٧٩ ـ ٣٨٠.

الرومى. أبو شجاع: والى من رجال الحاكم بأمر الله. أرمنى الاصل. كان غلاماً لنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر. تولى حلب ولقب امير الامراء عزيز الدولة، وتاج الملك. فدخل حلب فى رمضان ٤٠٧. صنف له أبو العلاء المعرى «رسالة الصاهل والشاحج» فى أربعين كراسة. انقلب على الحاكم الفاطمى ودعا لنفسه، فأرسل له الحاكم الجيوش لاخضاعه سنة ٤١١. فأرسل عزيز الدولة إلى ملك الروم باسيل بالقسطنطينية يستنجده فأقبل ولكنى موت الحاكم أوقف زحف باسيل. ثم جاءته الخلع السلطانيه من «الظاهر» الذى خلف الحاكم ولكنه سرعان ما قتل على يد احد مماليك.



---

*الخضر:

١ ـ عده بعض الصوفية رتبة عليا فى مملكتهم: «فإذا مات القطب الغوث ولى الخضر من يكون (قطبا) بمكة (غوثا)، وجعل (بدل) مكة (قطبا)، وهكذا أبداً، فإن مات الخضر صلى الغوث فى حجر اسماعيل.. فتسقط عليه ورقة باسمة فيصير خضراً ويصير قطب مكة غوثاً»[١]. والصوفية ادعوا أن صاحب موسى المذكور فى سورة الكهف (٦٥: ٨٢) هو الخضر، وهو يحيا حياة أزلية، وليس مجرد رتبة صوفية، ومع أن ملامح صاحب موسى تؤكد أنه كان نبياً، فالله تعالى لا يعطى العلم ببعض الغيب إلا للأنبياء (آل عمران ١٧٩، الجن ٧٦، ٢٧)، ولكن افتتن الصوفية بجعل صاحب موسى ولياً وليس نبياً حتى يحقق أمنيتهم فى أن يكون الولى خيراً من النبى ويقوم بتعليم النبى. ونأتى للعصر المملوكى لنجد ابن إمام الكاملية (ت ٨٧٤) قد وضع رسالة فى حياة الخضر[٢]، ونجد اليافعى يحاول إثبات حياته الأزلية [٣]، ونجد على وفا يؤكد أن لكل ولى (خضرا) يمثل روح ولاية ذلك الوالى [٤]، ويقول العشرانى فى رسالته عن الخضر «أجمع أهل الكشف أى العلم اللدنى قاطبة على حياة الخضر وقت

(١) الدرر الكامنة جـ٢/ ٤٨٣، ٤٨٤.
(٢) البدر الطالع جـ٢/ ٢٤٤.
(٣) روض الرياحين ٢٧٣.
(٤) الشعرانى. الطبقات الكبرى جـ٢ /٢٨، الطبعة القديمة.

ونجـاح الدولة بغـرا(*) وناصـر الجـيـوش ابن أسـد الدولة بلدكـوش ووصلو إلى مـحلة الأمـيـر ولأجل كـثـرة هولآ المقـدمين فى هذا العـسكر اختلفـو ولم يتفق رأيهم وصار كل واحد منهم لايتبع رأى الآخر وإن كـان فـيـه الـصـواب، فلم يفلحـو ولا ظفـرو بشئ لاخـتـلافـهـم وتبـددت الرجـال عنهم لسـو رأيهم وفـسـاد تـدبيـرهم وقلة اتفـاقـهم، فـقـوى عليـهم بنى حـمـدان والذين مـعـه وهزمـوهم واسـتـأسـروهم

(*) هو جيش الكتامى ت ٣٩٠هـ = ١٠٠٠م [نجاح الدولة] بغرا. جـيـش بن مـحـمـد الكتـامى المغربى، أبو الفتح: أميـر، ولى نيابة دمشق لصاحب مصر ثلاث مرات فى أيام الفاطميين . وكان جبارا سفاكاً للدماء مات بالجذام.

إجتماعنا به، وقد اجتمع بعمر بن عبد العزيز، وأبى عبدالله البسرى، والشيخ عبد الرازق، وإبراهيم الخواص، وأبى يزيد البسطامى، وابن عربى، وأبى عبدالله القرشى، والشاذلى، والمرسى، وياقوت العرش» [1]، ويبدو أن الشعرانى قد استقى آراءه تلك من ابن عطاء [2]. إذ كان الكثيرون يدعون رؤية الخضر فى المنام، ولم نجد عالماً فى العصر المملوكى أنكر حياة الخضر بل اعتقدوا صدق بعض من ادعى رؤيته فى المنام، يقول ابن الحاج «ومنهم من يدعى رؤية الخضر ويؤكد ذلك باليمين.. وذلك كله تقول وافتعال.. مع أن هذا لا ينكر إذا وقع من أهله فى محله» [3]، وعلل ابن تيمية كثرة من يدعى رؤية الخضر حتى من اليهود والنصارى ـ «وهم كثيرون صادقون» ولكنهم يرون الجان ولا يرون الخضر [4]. والاعتقاد فى وجود الخضر مستمر حتى عصرنا الحالى كأثر من العصر المملوكى، يقول أحمد أمين (يعتقد بعضهم أنهم رأوا الخضر يقظة وخاطبوه وخاطبهم، ويزعمون أنه شرب من عين الحياة فلم يمت من عهد موسى إلى اليوم، وأن الأولياء الصالحين يرونه جهاراً ويخبرهم بالمغيبات، واذا ذكروه قالوا عليكم السلام إيهاماً بأنه مر عليهم وسلم عليهم [5]، أى نجح التصوف فى التأكيد على

(١) الميزان الخضرية للشعرانى ص ١.
(٢) لطائف المنن لابن عطاء ٤٧ ـ ٤٩.
(٣) المدخل جـ٢/ ٢٠١، ٢٠٢.
(٤) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل جـ١ / ٧٢.
(٥) قاموس العادات والتقاليد المصرية ١٩٣ ـ أحمد أمين.

وملكو بلاد الريف كلها الشرقية والغربية ونهبوها
وأخربوها وقتلوا اهلها وهتكو الحرم وذبحو الأولاد
على بطون أمهاتهم وعلى ظهور ابايهم ونهبو البيع
واخربوها وكشطو وجوه الصور[الايقونات] التى
بقيت فيها، وأخذو اللواتيين الاب البطرك انبا
اخرسطودلوس من داره ونهبو جميع ما فيها وأخدو
له مال كثير جدا. وكان يقول أنه لمارى مرقس
الانجيلى والقديس أبو مقار ولم يقنعهم ذلك حتى

وجود الخضر حياً لا يموت، مع أن الله تعالى يقول للنبى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون؟ كل نفس ذائقة الموت.. الأنبياء ٢٤، ٢٥).

٢ ـ وقد وضع الشعرانى شرطاً لمن يريد الاجتماع بالخضر[١]، وقد تنافس الصوفية فى دعوى الاجتماع بالخضر واشتهر منهم على النبتيتى (ت ٩١٧) فى عصر الشعرانى [٢]، فنقل عنه الكثير من ادعاءاته[٣]، وسبق النبتيتى فى هذه الشهرة ابن الكبش بنحو قرن، فكان يجتمع بالخضر فى غالب الأوقات [٤]، وقبله أيضاً سليمان البسطامى (ت ٧٨٦) «وله فى ذلك أخبار كثيرة يستنكر بعضها» [٥]، وذكرت لقاءات للشاذلى مع الخضر [٦]، وكان الخضر يحضر مجلس شمس الدين الحنفى، ويشيعه للخلوة [٧]، وممن اجتمع بهم أيضاً عبد المحسن الواردى وأبو السعود بن أبى العشائر [٨]. وللخضر دور فى الحكايات الصوفية عن الأولياء

(١) الميزان الخضرية ١٦، ١٧.

(٢)، (٣) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٠٨ ـ ١٠٩، لواقح الأنوار : ٢١١.

(٤) الكواكب السيارة ٢٦١ : ٢٦٢ ابن الزيات.

(٥) ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب ٦/ ٢٩٠.

(٦) تعطير الأنفاس : ٣، ٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، الطبقات الكبرى للمناوى ٢٩٤.

(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ٨٩.

(٨) الكواكب السيارة ٢٤٦، ٣١٧.

عـاقبـوه وعلقـوه بمذاكـره حتى صارو تقـدير الجره الكبيرة. ولم يزل ناصـر الدولة ابن حمـدان بسـوال كـاتبـه أبو الطيب ابن يحنس الزراوى مع اللواتيين يلطف بهم إلى أن اشتـراه منهم بثلثـة ألف دينار، وزن أبو الطيـب منهـا من عنده وعند غـيـره ألف دينـار وانفـذه إلى اسكندرية مـحـتـاطاً عليـه إلى أن يقوم بألفى دينار البـاقيـة، فلمـا وصل إليهـا نزل فى بيعة أبو سرجه وخاطب أولاده فيما هو فيه فاعتذر

المجـهـولين[١]. وكان الإيمان بالخضر عاماً فى هذا العصر من القضاة والعوام، فادعى شيخ الإسلام سراج الدين العبادى (ت ٨٧٧) أنه كان يجتمع بالخضر [٢]، وكان قاضى القضاة البسـاطى يدعى ذلك[٣]، وكانت جنازة ابن حجر هائلة حتى قيل إن الخضر حضرها [٤]، وهكذا أرغم الخضر على المشاركة حتى فى الجنازات الهامة.

• المجاذيب

اعتبرهم ابن خلدون نوعاً من الأولياء مع سقوط التكاليف [٥] عنهم، إلا أنه عاد فاعتبرهم دون مرتبة الإنسـان فـلا يلحقون بالأولياء[٦]، وفـضـل ابن عطاء المجـذوب على السـالك لأن الأول طويت له الطريق ولم تطو عنه[٧]، أى أن المجذوب اختاره الله واختصر عليه الطريق، أما السـالك فقد تركه الله يقطع الطريق ويسلكها بنفسـه. وعلل الشعرانى سبب ذهاب عقلهم بالتـجلى الإلهى الذى أتاهم على غفلة فذهب بعـقولهم، وجعـلهم الشـعرانى عـلى ثلاثة

(١) روض الرياحين فى حكايات الصالحين ١٧٤ ، ١٧٥.
(٢) إنباء الهصر ٤٨٥.
(٣) ذيل بن العراقى مخطوط ٢٥.
(٤) التبر المسبوك للسخاوى ٢٣٣.
(٥) مقدمة ابن خلدون ١١٠، ١١١.
(٦) شفاء السـائل فى تهـذيب المسائل ٨٨ وفى هذا الكتاب ناقض ابن خلدون ما قاله عن التـصـوف فى المقدمة.
(٧) لطائف المنن ١١١.

بعضهم بالغلا وما الناس فيه فقام مغضباً وقال: إذا قعدتم عنى مضيت إلى القاضى صدقه والى النوبه والى بنى هريسة والمسلمين وأقترض منهم وأتصدق. فمسكوه والتزم بعض أولاده أمره وقاموا عنه بالذى بقى عليه وهو ألفى دينار، ولما تخلص وخرج من خوف المطالبة وفاهم [أعاد اموالهم] ذلك لأنه فى مقامه باسكندرية أقسم عدة أساقفة وأخذ منهم ما أوفا به ما عليه، وكنت أنا موهوب [ابن منصور] الخاطى قد قمت عنه بالدنانير

أقسام تبعاً للورد الإلهى والعقل [١]. وتكون حالة المجذوب بحسب الحالة التى جذب فى أثنائها فإن جذب فى حال قبض (أى اكتئاب) فعمره كله قبض، وإن جذب فى حال بسط فعمره كل بسط وضحك [٢]، وساد الإعتقاد بأنهم يعيشون فى عالم آخر يقول ابن عنان «إن من شأن المجاذيب أنك ترى أحدهم ماشياً وهو راكب، وتراه يأكل فى رمضان وهو صائم لم يفطر، وتراه عارياً وهو مرتد لثيابه [٣]» وهذا تصريح للمجذوب بأن يفعل ما يريد. وافتخر الشعرانى بأدبه مع المجاذيب وأرباب الأحوال مذ كان صغيراً، وقال المتبولى سلموا على أرباب الأحوال بالقلب دون اللفظ فإنهم فى حضرة لا يقدرون على خطابى أحد باللفظ [٤]. وأوصى الشعرانى بعدم مخالطة المجاذيب لأنهم يعلمون السرائر والخواطر المذمومة [٥]، أى يعلمون الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ولما قتل العثمانيون بعض المجاذيب قال الخواص: طاب الرحيل من هذه الديار[٦]».

يقول الدشطوطى يصف الجذبة «.. فحصل لى جاذب إلا هى وصرت أغيب اليومين والثلاثة ثم أفيق أجد الناس حولى وهم متعجبون من أمرى، ثم صرت أغيب العشرة أيام

(١)، (٢) الشعرانى اليواقيت والجواهر ١٥٥ ـ ١٥٦ وقد ذكر أمثله لذلك فى الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٢٠.

(٣) أخبار القرن العاشر ١٣٤.

(٤) لطائف المنن ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٥) البحر المورود ١٨٥.

(٦) أخبار القرن العاشر ٢١٠.

المستقرة عليه للبيع بحكم ما ناله وحملت عنه همها.

وبعد هذا تصعبت الأمور وملكت اللواتيين البلاد وقتلوا صارم الدولة أخو الأمير سنان الدولة ابن جابر الكتامي الذى كان والى مصر فى طنتنا [طنطا] فسمع أبو الطيب الزواوى بذلك فصعب عليه لأنه كان قديماً كاتب لأخيه بمصر وجآ إلى طنتنا وشتم اللواتيين الذى قتلوه فوثب على موسى

والشهر ولا آكل ولا أشرب.. فخرجت سائحاً إلى وقتى هذا»[١]. ولسهولة هذا الإدعاء كثر مدعو الجذب والولاية، وكان المجذوب يوصف عادة بأنه معتقد أى يعتقد الناس فى ولايته وأحياناً بأنه مقصد للزيارة أى يقصده الناس بالتبرك[٢]، وكانوا يفسرون هذيانهم على سبيل الكشف وعلم الغيب [٣]، وكان المؤرخون يعللون اعتقاد الناس فى صوفى ما بأنه مجذوب ويقولون «لعوام الناس فيه اعتقاد لإندراجه عندهم فى المجاذيب [٤]» و«.. حصل له نوع من الجذب فصار للناس فيه اعتقاد[٥]» و«.. يذكر بين العوام بالجذب ويعتقد لذلك»[٦].

٣ ـ وتمتع المجاذيب بتقديس المماليك لهم [٧]، وكان السلطان برقوق يعتقد فى الزهورى

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٢٠ ، ١٢١.
(٢) من الصعب حصرهم فى سائر المراجع وعلى سبيل المثال : المنهل جـ٣/ ١٨٧، النجوم جـ١١/ ١٣٨، ١٦/ ١٧٧، ١٩٥، ١٣/ ١٨، ابن اياس جـ٢/ ٢١١ط بولاق، ٣٨٦/٤، الضوء اللامع جـ١/ ١٨٤، ٣/ ٥٠ السلوك ٣ قسم ٢/ ٥١١، إنباء الغمر ٣/ ٢٦١، ٣/ ١٥٣، ٥٩/١.
(٣) ابن حجر ذيل الدرر الكامنة مخطوط ٢٢.
(٤) التبر المسبوك للسخاوى ٢٣٧ ترجمة الشيخ بكير ـ وورد فى الضوء اللامع جـ٣/ ١٨.
(٥) تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى جـ٢ / ٣٦٥ ترجمة الشيخ الطوخى.
(٦) الضوء اللامع جـ٢/ ٢٦٠ ترجمة ابن المؤمنى.
(٧) لطائف المنن الشعرانى ١٢٩.

ابن القرن أحدهم فضربه بسيفه وبادر إليه بقيتهم فقطعوه بسيوفهم ورموه فى حفير.

ثم تزايد الغلا والخوف وعدم القمح إلى أن أكلوا الناس الميتة ثم أكلوا بعضهم بعضاً ومنهم قوماً أكلوا أولادهم(*)، وفنى الناس بالوبا والغلا والسيف حتى لم يبق منهم إلا اليسير، ولقى الناس بمصر وأعمالها من الشدايد والمصاعب والبلايا ما تطول السيرة بشرح بعضه.

(*) الشدة المستصريه.

المجذوب حتى لقد كان الأخير يبصق فى وجهه [1]. ولما افتتح برقوق مدرسته دخل عليه مجذوب وأعطاه (طوبة) وأمره أن يضعها فى المدرسة، فوضعها السلطان فى قنديل وعلقه فى المحراب، يقول ابن اياس «فهى باقية فى القنديل إلى الآن» [2].. ولا نجد أبلغ من وصف أبى المحاسن لإعتقاد الناس فى يحيى الصنافيرى يقول عنه «هو ممن سلم من الإنكار عليه وأجمع الناس على إعتقاده، وهو لا يفيق من سكرته، وكان الناس يترددون إليه فوجاً فوجاً من بين عالم وقاضى وأمير ورئيس، ولايلتفت إليهم، ولما زاد تردد الناس عليه صار يرجمهم بالحجارة، فلم يردهم ذلك عنه رغبة فى إلتماس بركته، ففر منهم وساح فى الجبال مدة طويلة» [3]..

• أرباب الأحوال:

١ ـ شاع هذا المصطلح فى العصر المملوكى خصوصاً فى أواخره، ويقول الشعرانى إنهم (أعطوا فى الدنيا التقديم والتأخير والولاية والعزل والقهر بما لهم من دلال على الله) ويقول الدشطوطى «أرباب الأحوال مع الله كحالهم قبل خلق الخلق وانزال الشرائع» [4]. واحتج ابن

(١) إنباء الغمر جـ٢/ ٥٧، النجوم الزاهرة ١٣/ ١٠.
(٢) تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى ١/٢ ـ ٣٧٣.
(٣) المنهل الصافى مخطوط ٤٨١/٥، النجوم الزاهرة ١١/ ١١٨ ـ ١١٩.
(٤) الشعرانى.. لواقح الأنوار ١٠١، ١٠٢.

ثم وصل إلى الاب انبــا اخــرسطودلوس وهو باسكندرية انسان من أهل البلينا صايغ اسمه بمون بكتاب من الأمير عدة الدولة مقرب ابن ماضي صاحب الواح [الواحات] إليه يسله أن يجعله أسقفاً وأشيع بوفاة انبا بسيليوس أسقف ارمنت فجعل الاب البطرك بمون المذكور اسقف على كرسي ارمنت عوضه واوسم رجلا اسمه بفام اسقف على الواح وذلك في توت سنة سبعماية

الحاج على مدعي ذلك من الصوفية المنحرفين: «ثم أنهم يولون ويعزلون في تلك الأحوال ويخبرون بمنازل أصحابهم.. ولاشك أنها أحوال نفسانية أو شيطانية لأن الفتح من الله لا يكون مع ارتكاب المكروهات أو المحرمات»[1]، أما المرسي فيعلل تميزهم هذا بضعفهم عن كتم أحوالهم وضيقهم عن وسعها [2]، وبالغ بعضهم في إدعاءاته، يقول المتبولي: «وعزة ربي لتتوزع أحوالي بعدى على سبعين رجلاً ولايحملون» [3] أى لن يستطيعوا تحمل الحملات مثله.

٢ ـ وقد يكون الحال بمعنى الإنفعال الصوفي الحاد، فالشيخ أبو الحمايل «كان يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانية والسريانية والعجمية، وتارة يزغرت في الأفراح والأعراس مثلما تزغرت النساء، وإذا اشتد عليه الحال في مجلس الذكر ينهض قائماً ويأخذ الرجلين ويضرب بهما الحائط [4]»، وتمثل هذه الحالة إحدى درجات الجذب، وقد جمع بعض الأولياء بين المرتبتين مثل عبيد البلقيني الذى «كان من أرباب الأحوال والكشف، حصل له جذب في أول عمره..»[5].

(١) المدخل جـ٢ / ١٥١.
(٢) الشعراني. الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٧.
(٣) الطبقات الكبرى. الشعراني جـ٢ / ٧٦.
(٤) الطبقات الكبرى ـ الشعراني جـ٢/ ١١٠، جـ٢ / ١١١.
(٥) الطبقات الكبرى ـ الشعراني جـ٢/ ١٢٧.

سبعه وثمنين للشهدا، وسيرهما صحبة انبا جرجه اسقف بطو ليكرسهما ويتوجه بكتابه إلى ملك النوبه يلتمس فيه شياً يسعفه به ليصرفه فيما تقرر عليه للواتيين ويعلمه بما جرى عليه. فلما وصلو إلى ارمنت وجدو اسقفها حياً لم يمت أعنى ابا باسيليوس وكان قديس روحانى، وحكى احد أولاده وهو الآن قس اسمه مينا أنه كان فى زمان الغلا لا يدع فى بيته خبز إلا ويتصدق به، وانه فى

---

٣ ـ وكان من السهل تعليل ما يصيب الأولياء من أمراض بأنها «حال» وقد عد الشعرانى من المنن معرفته بطب أرباب الأحوال[١].

واستغل أرباب الأحوال شهرتهم فى التسول واعتبروه حقاً لهم لأنهم يدفعون البلاء [٢].

* أصحاب النوبة:

١ ـ فى أواخر العصر المملوكى برزت تقسيمات عدة للأولياء، بالإضافة لما سبق مثل الكمل والعارفين وأصحاب الحضرة وأصحاب الوقت، إلا أن أصحاب النوبة هم الأشهر وهم الذين يحفظون أدراكهم (أى الأماكن التى يحرسونها) فى سائر الأرض وعليهم قضاء الحوائج[٣]. وحديث الشعرانى عنهم متناقض فهو يجعل نفسه أحياناً مساعداً لهم فيطوف بقلبه على جميع أقطار الأرض، وفى نفس الوقت يحرص على استئذانهم كلما خرج من بيته ليكون فى رعايتهم [٤]، فلا نعرف هل يعد نفسه منهم أم لا، ويذكر أن شيخه الخواص كان أحدهم ، ويتمتع بالتصريف فى ثلاثة أرباع مصر وقراها، وكثيرا ما يرسل الحوائج إلى الشيخ محسن المجذوب الذى جعله من أصحاب التصريف فى الربع الباقى، مع أنه «صاحب درك

(١) لطائف المنن ٣٥٥.. الشعرانى.
(٢) لطائف المنن.. الشعرانى: ٤٠.
(٣) لطائف المنن. الشعرانى ١٤٤، ١٥١.
(٤) لطائف المنن ١٤٤، البحر المورود ٨٩، ٩٠.

ليلة من الليالى طرقه رجل مستور فدق باب منزله فقال لولده هذا مينا اعطه خبز ولم يكن بقى عنده الا رغيفين فدفع له منهما رغيف، ثم قرع الباب اخر فدفع له بعض الرغيف الاخر وبقى بعضه فلما هم ان يفطر عليه قرع الباب اخر فضجر ولده المذكور كما قال عن نفسه فالزمه ان يدفع بقية الرغيف للذى قرع الباب فدفعه له وبقى بلا شى يفطر عليه، فلما كان بعد وقت من الليل قرع

بحـــر الهنده[1]، ثم يذكر أن أصحاب النوبة كانوا فى صراع مع الخواص، يعارضهم ويعارضونه، وانتهى الصراع بمقتل الخواص[2].

أما الشيخ محيسن فقد أعطبوا رجله[3]، ومن السهل تفسير هذا التنافس بالصراع المحتدم بين الأولياء فى نهاية العصر حول المريدين والنذور والنفوذ.

٢ ـ وقد احتج الشعرانى على منكرى أصحاب النوبة ووصفهم بأنهم لم يدخلوا دائرة الولاية قط فلو دخلوها لعرفوا أهلها[4]، ووصف الخواص وأبو الفضل الأحمدى بمعرفة أصحاب النوبة فى سائر أقطار الأرض ومعرفة من تولى منهم ومن عزل[5]. ولما دخل السلطان سليم العثمانى مصر أرسل الخواص فقيراً ينظركم معه من أصحاب النوبة [6] (أى من يساعده منهم).

٣ ـ وقد وصف أصحاب النوبة بالشدة والعنف كانعكاس للصراع بين الأولياء وقتها، يقول الشيخ حسن العراقى «لا يأذن أصحاب النوبة لفقير أن يسكن فى مصر إلا إن كان مراعياً

(١) لطائف المنن ١٤٦.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٤.
(٤) لطائف المنن ص ١٤٤.
(٥) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠، جـ٢/ ١٥٠.
(٦) الطبقات الكبرى جـ١٣١/٢.

الباب فقال لولده اجب من يدق الباب فقال وهو ضجر مغضب: [ما] بقى عندنا شى ندفعه لمن يدق كيف اكلمه وليس عندنا شى نعطيه؟. فالزمه باجابته فنزل اليه وفتح الباب فدفع اليه شخص ما يعرفه ولا ابصر وجهه طعاما فى منديل ومضى ولم يرجع إلى الان ولا طلب المنديل.

فلما وجدوا الاسقف حى لم يمت سار بمون مع انبا جرجه اسقف بطو الى ملك النوبة، فلما

للأدب معهم، والا أخرجوه إلى القرى أو إلى خارج السور، وعد الشعرانى من المنن حفظه من تصريفهم فيه بمرض أو سلب حال[1]، وأوصى الخواص بالإستعانة عليهم بالله ورسوله[2]، ولا شك أن المقصود بهذه الصفة هم الأولياء المنافسون، فالخواص هو نفسه القائل «قل من فقراء الزمان من يعرف أنه تحت حكم أصحاب النوبة.. ولو عرف لسألهم ... وأنتظر ما يقع منهم من تولية أو عدمها[3]. وهو يقصد نفسه.

*أصحاب الوقت:

لا اختلاف بينه فى المفهوم عن أصحاب النوبة، اللهم إلا إندراج العلماء بينهم ولهم تقريباً نفس حقوق أصحاب النوبة[4]، وقد أكثر الشعرانى من الحديث المعاد عن أصحاب الحضرة الإلهية والكمل والعارفين[5] عدا تصنيفات أخرى لم يجد الخواص لها أسماءا[6]. مما يجعل القارئ يتخيل عدد الأولياء مساوياً لأعداد الناس فى نهاية العصر، وإن كانت الصفات منحوتة من بيئة العصر وتصوراته وهو اجسه وتخيلاته، بينما كان العقل غائباً فى أجازة مفتوحة.

---

(١) لطائف المنن ص ١٤٧.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٤٤.
(٣) الشعراني. ارشاد المغفلين ص ٢٧٣.
(٤) لطائف المنن ٢٥٦، ٢٧٧.
(٥) لطائف المنن ٣٦٥، ٣٩٢، ٢٩١.
(٦) لواقح الأنوار ٩٩.

وصلا اليه اكرمهما وكرز انبا جرجه للملك بيعة
بناها جديدة فحلت الروح القدس على احد
الاوعية التى فيها ما [ماء] التكريز فاخذه الملك
بيده ومضى به الى منزله، وكرز فى هذه البيعة
اربعة هياكل فى ذلك اليوم ودفع له الملك ما
اوصله الى البطرك ابا اخرسطودلوس الى اسكندرية
وبمون معه، ومن بعد هذا اعاد بمون الى اعمال
ارمنت واقام فى [ضيعة تعرف..] الى أن تنيح

ثانيا: مهام الأولياء:

***الحملات:**

١ ـ يقال أن الولى يتحمل الحملة أى ينوب عن المصاب فى تحمل مصيبته. وقد شاعت هذه الفكرة فى العصر المملوكى، وقد نصح الشعرانى بصحبة الفقراء لأنهم يحملون عن أصحابهم المصائب فى الدنيا [١]. وقد وضع لها القواعد فلا يحمل الشيخ إلا عن أبناء حارته وإلا فقد تعدى دائرته [٢]، وشرط الولى الذى يحمل الحملات الإتصاف بالذلة، والفقر، وكثرة الملازمة فى المراكب الإلاهية، وألا يأخذ عنها مقابلاً، وكف الجوارح عن المحرم والمكروه والشهوات المباحة، والصيام أيام التحمل والتخلق بالرحمة[٣].

ويستلزم التحمل جهداً من الولى فهو يحس بالأوجاع فى جسمه وقد يبقى دون طعام أو شراب أو نوم أو نظافة أو لباس جديد [٤]، وقد أخبر بعض أهل الكشف أن إحمرار الماء الذى تحت بيت الشعرانى فى الخليج إنما هو من كثرة الهموم النازلة علية!!، ويقول إن هذا الأمر قل

(١) صحبة الأخبار ٣٩. (٢) تنبيه المغترين ١٣٦.
(٣) لطائف المنن للشعرانى ١٤٩ : ١٥١، ١٧٢.
(٤) لطائف المنن فصل الشعرانى فيه ما يقاسيه بسبب التحمل ٣٢٢ : ٣٢٣، ٥٥١.

الاسقف ابا بسيليوس فدخل [بمون] إلى ارمنت
وكرز فيها فى اليوم الثانى من توت سنة سبع مايه
سبعه وتسعين للشهد، وبعد هذا جرى بينه وبين
اسقف قوص ابا بدير خصومة فمضى ابا بدير الى
ابا اندونه اسقف اسيوط وابا متاوس اسقف فاو
واخذ خطهما بانه مقدماً على ابا بمون بحكم ان
ابا بديركرز بعد نياحة ابا باسيليوس الذى كان قبله
واحتجو بان الذى تكرز أكبر من المكرز، وكان

من يفعله فى عصره من المتمشيخين، وغاية أمر أحدهم أن يتوجع باللسان فقط[1]!! وقد تحمل الشعرانى عن رجل وامرأته حين ماتت ابنتهما فكاد لحمه وعظمه أن يذوبا!! ويطلب الشعرانى من إخوانه ألا يغضبوا حين يرونه عابساً ضيق الصدر فربما كان مشاركاً فى حملة لحاكم أو لإمرأة مات ولدها أو كانت فى الطلق[2]، وكان إذا نزل بالمسلمين هم أوغم لا يقر قرار حتى يرتفع[3]، وهو يتحمل هم عدوه أكثر من إهتمامه بهم صديقه[4]، وأكثر حملاته عن المرضى[5]، وكان من وقعت له مصيبة يأتى للشعرانى فيحملها عنه ولا يتخلف. والحملة تخف بحسب الإعتقاد وتثقل بعدمه[6]، أى إذا كنت تعتقد فى الشيخ فعلاً فإنه يحمل عنك مصيبتك فيخف وقعها عنك، وإن لم تكن تعتقد فالويل لك!!.

٢ ـ والقارئ للشعرانى يتصوره بطل الحملات الوحيد، إلا أن الأولياء السابقين قد ادعوا ذلك وإن كانوا أقل مقدرة من الشعرانى فى سبك إدعاءاتهم، وعامة فإن الحديث عن الحملات فى أقوال متصوفة المماليك البحرية فالمرسى يلوم العامة لأنهم ينفضون عن الولى الذى بين أظهرهم مع أنه هو الذى يحمل أثقالهم ويدفع الأغيار عنهم[7]، ويقول ابن عطا

(١) لطائف المنن ٥٥١.
(٢) لطائف المنن ١٥١.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٤٨.
(٤)، (٥) لطائف المنن ٥٧٢، ٣٥٢، ٣٥٣.
(٦) لطائف المنن ١٢٣، ١٢٤.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ /١٨.

ذلك بعد وفاة انبا اخرسطودلوس وجلوس انبا
كيرلص القديس فانتهت حالتهما الى الاب المذكور
فحكم بان التقدمه لابا بمون اسقف ارمنت بحكم
ان الاب انبا اخرسطودلوس وضع يده عليه قبل ابا
بدير وان اسمه ثبت في منظرة الاساقفة وان تأخير
تكريزه في كرسيه لا يوخره عن طقسه في التاريخ
الذى اوسم فيه ويقدمه على من اوسم بعده ولو
بيوم واحد، واوجب الطقس لابا بامون اسقف

وفا «إذا حصل لي وارد من واردات الجلال إنما هو تحمل عن الخلق [١]، وفي حكاية للسبكي «تحمل شيخ ألم مريده حتى خرج عن الصلاة فبرئ المريد[٢]»، وفي مناقب الحنفي ـ في القرن التاسع ـ أن بعضهم تحمل الرمد عن غيره فشفاه[٣]، حتى إذا أهل القرن العاشر فأضحت الحملات ميدان المزاعم الصوفية، فيدعي المتبول أنه يتحمل ما يعجز عنه سبعون رجلاً من الأولياء[٤]، وكان أبو الفضل الأحمدى يحمل هموم الناس «حتى صار ليس عليه أوقية لحم[٥]»، ويدعي أفضل الدين الشعراني بأنه منذ عشر سنين يحس بأن جسمه في طبق من نحاس على نار من غير ماء ولحمه ودهنه يطشطش وهو صابر، وذلك «من كثرة توجه الناس إليه في شدائدهم، فيحملها عنهم ويعاني بدلاً منهم»[٦].

٣ ـ وكانت الحملات مجالاً للصراع بين الأولياء، فأثناء خلاف الشعراني مع ثلاثة من أصحاب النوبة حصل له الفرج على يد الشيخ محمد البهوتي، الذى تحمل عنه بعد أن أبى الحملة ثلاثون من الأولياء، فبرئ الشعراني بعد أن كان قد مكث تسعة أيام بلا أكل أو شرب أو نوم[٧].

(١) مناقب الوفائية مخطوط ٤٨.
(٢) طبقات الشافعية جـ٥ / ٢٣.
(٣) مناقب الحنفي ٣٤٠ مخطوط.
(٤) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢ / ١٠٥.
(٥) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢/ ١٥٠.
(٦) لطائف المنن ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٧) لطائف المنن ١٤٧.

ارمنت المذكور الموسوم اسقفاً قبله ولا يوجب لبدير
ان يتقدم عليه. واحتج عن ذلك بحجج صحيحة
منها ان يوحنا المعمدان وضع يده على راس سيدنا
يسوع المسيح له المجد الذى قال عنه انه لم يزل
قبله وانه اقدم منه، وايضاً فان الاساقفة يضعو
ايديهم على البطرك فى وقت قسمته فهل يقدرو
لاجل هذا يتقدمو عليه. واصلح بينهم وزال
السجس عنهما. وحكى لى لوقاس شماس كنيسة

---

٤ ـ وقد يتعاون الأولياء فى الحملات فيرسل المرصفى وغيره الحملات للشيخ بركات الخياط، فيضعون له الحجر على حانوته، فيعلم بالحاجة ويقضيها، ويقول «الإسم لطوبة والفعل لأمشيره»[1] ، مع أنه لو كان ولياً حقيقياً (عندهم) لعرف الغيب وما احتاج إلى حجر يوضع على باب دكانه، ولكن الأساطير تخلو من المنطق.

وكان سويدان المجذوب يحمل الحملات، وكل من حمله حملة وضع حبة من الحمص فى فمه ليتذكر قصته، فربما امتلأ فمه من الحمص، ويظل كذلك شهراً حتى تقضى الحوائج[2]، وكان الخواص يرسل الحملات الثقال للشريف المجذوب فيقوم بها[3]، وبدون حمص !!.

والواضح أن شيوع الاعتقاد فى الحملات كان لتبرير النذور والأموال التى كان يحصل عليها الشيوخ من الناس.

***النظرة:**

١ ـ واذا كانت الحملة فى الغالب يتحملها الولى عن الجميع فإن النظرة أو النفحة للمريدين والأتباع القريبين.

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ /١٢٥، الغزى: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة جـ١ / ١٦٧/.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/١٣٥. الغزى: الكواكب جـ١/ ٢١٣.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠.


دراويش من مختلف الأجناس

السيدة بارمنت انه ابصره وقد كرز مذبح فى البيعة المذكورة فى سنة ثمانماية وواحد للشهد، فلما فرغ اخذ شقاف الاوعية التى فيها ما[ء] التكريز ورماها بيده فى البير التى فى هذه البيعة فصعد الما حتى انتهى الى نصف البير وعلامته إلى الان باقية. وحكى جماعة من اهل الصعيد ان كنيسة بطرس راس الحواريون بحرارة [بالحرازة] قريب ارمنت لما كرزت فاض الما من القدور حتى اندفق فى صحن البيعة.

---

٢ ـ وقد كان الشاذلى يربى أولاده بالنظر من غير كلام [(١)]، ويقول المرسى «والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته» [(٢)]، والمريدون من جانبهم يعترفون بأثر نظرة الشيخ فيهم، يقول أحدهم «فلما جلست نظر إلى الشيخ وأمدنى بما أمدنى، ثم قال لى إنصرف إلى بلدك فقد استغنيت» [(٣)]، ويقول الشعرانى عن أحد المجاذيب «كان يحبنى وكنت فى بركته وتحت نظره» [(٤)]، وينتظر المريدون خروج الشيخ من خلوته لتكون نظرته إليهم أوقع فى الأثر، وقد اختلى شمس الدين الحنفى أربعين يوماً فاستعد مريدوه للظهور بين يديه حين يخرج وقالوا «غداً يظهر سيدى من الخلوة فكل من وقع نظره عليه حصلت له السعادة.. فلما كان وقت السحر ظهر سيدى ووقع نظره على فقال لى محمد قلت نعم يا سيدى، قال : والله لقد حصلت لك السعادة الكلية» يقول الراوى فكل ما أنا فيه من ثمرات تلك النظرة». حتى أنه تقطب قبل موته (أى أصبح قطبا)، وقد وقع نظر الحنفى على كلب فأصبح الكلب ولياً بفضل تلك النظرة يقول الراوى : «فهذه نظرة رجل من الأولياء وقعت على كلب غير

(١) قواعد الصوفية جـ١/ ١٩٢ وقد أخذ عنهم الشعرانى التربية بالنظر ـ لطائف المنن ٣٩٢.
(٢) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.
(٣) الكواكب السيارة ١٥١، تحفة الأحباب ٢٩٠.
(٤) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٢ الشعرانى.

فأما الاب اخرسطودلوس فظهر فى أيامه ايات وعجايب كثيرة، وكان فى زمانه جماعة من الابا والرهبان القديسين (وهوذا اذكر يسير من ذلك ليلا تطول السيره بشرح جميعه)، كان قد وصل إلى ا سكندرية ابا ايليا اسقف طموه [مركز الجيزة] وهو شيخ كبير جداً فحدثنا بعجايب كثيرة، وقد كنت سمعتها من غيره ممن حضرها وشاهدها وهو الشماس ابو حبيب ميخاييل ابن بدير مساعدى



رقص الدراويش

مكلف، فكيف لو وقعت على آدمي؟ أو على أحد من جهة ذلك الولى مثل خادم أو ولده أو على واحد من تلاميذه ؟!!»[1]، وهو سؤال يستحق الإجابة فعلاً ؟

٣ ـ وقد يعبر عن النظرة بالحظ، خاصة فى المراجع غير الصوفية، فالسبكى يقول عن ابن الحسين الأنصارى« كان إذا ألحظ شخصاً انتفع بألحاظه» [2]، ووصل الشيخ محمد الحنفى إلى ما وصل إليه « بلحظ الشيخ أبو العباس السوسى» [3]، والسخاوى يكثر من استعمال هذا اللفظ فيقول عن الزين عبد القادر إنه «انتفع بلحظ أبجد المجنون»، وقال عن الكتانى أنه «انتفع بلحظ الشيخ عمر بن عيسى» [4]، ويقول عن نفسه «إنه انتفع بالشيخ الغمرى»، «وصليت بجانبه ولحظنى» [5].

وفى المراجع الصوفية إستغاثت فتاة بالشيخ فقالت: «لا حظنى يا شيخ أبى» [6]، ويقول الشعرانى عن شيخه على النبيتى «فحصل لى منه لحظ، وجدت بركته فى نفسى إلى وقتى هذا»[7]، وبهذا المفهوم تختلط النفحة باللحظ والنظرة.

....

(١) مناقب الحنفى مخطوط ٢٧٤ : ٢٨٣.
(٢) طبقات الشافعية جـ٥/ ٢٢.
(٣) شذرات الذهب جـ٧ / ٢٩٧.
(٤) الضوء اللامع جـ١ / ٧، جـ١ / ٢٥١.
(٥) التبر المسبوك ١٣٧.
(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ٩٠.
(٧) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٠٩.

على نسخ السير وتفسيرها من القبطي(*) الى العربي، منها انه قدس ، اعنى الاب الاسقف المذكور، يوم عيد مارى بقطر الشهيد الجليل بكنيسته التي بالجيزة فلما تنصف القداس راى نور عظيم على صورة الست السيدة مرتمريم العذرى الطاهرة التي في شاق [أعلى] الهيكل وثبت النور عليها طويلا وشاهده جميع الشعب الحضور في العيد وحدثني القس يونس ريس دير نهيا انه كان

(*) أبو حبيب ميخاييل ابن بدير، وهو الذى كان يترجم سير البطاركة من القبطي إلى العربي.

يقول السخاوى عن أحدهم «وقد عادت عليّ نفحاته وبركاته ونفعنى دعاؤه» [1]، وقد صحب الشعراني الشيخ الزفتاوى نحو خمس سنين وحصل له منه «نفحات»، وقال نحو ذلك عن شيخه صدر الدين البكرى [2].

ثالثاً: الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية:

***الكرامات فى فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكى:**

١ ـ استلزم الاعتقاد فى الأولياء الاعتقاد فى مقدرتهم على الإتيان بالخوارق، أو ما عرف فى العصر المملوكى بالكرامات، التى شاع الإيمان بها فى العصر المملوكى تبعاً لإزدهار التصرف، حتى لقد فرضت نفسها على تفكير الخاصة واعتقاد العامة كما لو كانت معلوماً من الدين بالضرورة.

ويمكن أن نجمل تفكير الخاصة أو العلماء فى العصر المملوكى فيما يخص الكرامات فى اتجاهين: اتجاه عملى هو ألصق بالمتحررين منهم ، واتجاه نظرى يعتقد فى حدوث الكرامة مطلقاً أو مع بعض تحفظات.

(١) الضوء اللامع جـ١ / ١٨٩ .

(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٨ الشعرانى.

حاضر ذلك اليوم وابصر النور فمضيت انا الخاطي وتباركت من الصورة المقدسة.

* * *

قال يوحنا ابن صاعد ابن يحيي المعروف بابن القلزمي ناسخ هذه السيرة في السيرة التى نسختها انا المسكين جرجه ابن مدكور من نسخة بخط المذكور انه مضى إلى البيعة المذكورة في يوم عيد القديس مارى بقطر بالجيزه واسقفها في ذلك الوقت ابا حذقيه القديس الفاضل وحدثه جماعة

---

٢ ـ وكبار الصوفية يعتقدون في إمكانية حدوث الكرامات مطلقاً، فكتاب المناقب الصوفية يثبتون الكرامة في مقدماتها ليؤمن القارئ بما حشدوه فيها من أساطير [١]. وقد أجهد اليافعي نفسه في الاستدلال على جواز الكرامة عقلاً ونقلاً [٢]، وكعادة الصوفية لا يفرقون بينها وبين المعجزة إلا في عدم التحدى كشرط لوقوع الكرامة [٣]، لتتاح الفرصة للتهرب من إثبات الكرامة عملياً. والقارىء لمناقب الحنفي تهوله كثرة الكرامات فيها مع أن المؤرخ أبا المحاسن كان معاصراً للحنفي وترجم له ترجمة عادية خالية من ذكر أى كرامة له [٤].

وقد دان علماء العصر المملوكي عامة بالتصوف باطراد يتناسب مع الأزدهار المستمر للتصوف من بدايته إلى نهايته، ففي أوائل العصر كان ابن خلدون يرى وقوع الكرامة أمراً صحيحاً غير منكر [٥]. ويقول السبكى إن من حق الصوفية إظهار الكرامات للبشارة أو الإنذار أو التربية [٦]، وبينما انصرف جهد السيوطى ـ في نهاية العصر ـ إلى إثبات نواح من الكرامات لم تخطر على بال المتصوفة الأولين، فيصنع رسالة في إثبات تطور الولى وتواجده

(١) في مناقب المنوفي فصل في المقدمة عن إثبات الكرامة.
(٢) اليافعي . فضل مشايخ الصوفية ص ١٧ وما بعدها.
(٣) اليافعي. روض الرياحين ٢٠٥ . الشعراني ، فتح المنة في التلبس بالسنة ٢٢.
(٤) حوادث الدهور جـ١ / ١٤٠. (٥) المقدمة ١١٠، ٤٧٤.
(٦) السبكي. معيد النعم ١٥٩..

من الشعب الذين حضرو فى ذلك اليوم بمثل ذلك من حلول النور على صورة السيدة الطاهرة المصورة فى شاق الهيكل، وانه تامل الصورة فراى الاصباغ التى عليها تقلعت واستعلم السبب فى ذلك فاعلمه بعض الكهنة انه لما حل عليها النور وفرغ القداس تزاحم الكهنة عليها بالشمع ليختموه على جسم الصورة ليكون معهم بركة فى بيوتهم فانقلعت الاصباغ فى الشمع التى طبع عليها.

فى مكانين مختلفين فى وقت واحد [1]، أو ما تعبر عنه كتب المناقب أحياناً بوجود أكثر من جثة للولى فى أماكن مختلفة.

٣ ـ وكانت لبعض العلماء فى أوائل العصر تحفظات على وقوع الكرامة، لا تنال من إمكانية وقوعها من حيث المبدأ، فإبن تيمية يرد كرامات المتصوفة إلى فعل شيطانى ويسميهم أولياء الشيطان ويفرق بينهم وبين أولياء الرحمن. ويرى الأدفوى أنه لا مانع عقلى أو شرعى من وقوعها «.. ولكن اطرت العادة المستمرة بعدم وقوع ذلك والعوائد يقضى بها فى حكم الشرع باتفاق أئمةالإجتهاد.. والأمور البعيدة يتعجب من وقوعها ويتوقف فى قبولها إلا إذا علم صدق الخبر كما فى قصص القرآن عن زكريا ومريم وامرأة ابراهيم، ولا تثبت الكرامة لمجرد اشتهارها واستفاضتها عند الفقراء فإن الكذب فيها كثير، وكثير من الصوفية جاهل بصحة النقل أو مغفل يروى بحسن الظن، ثم إن أكثرها مرسلة وبعضها مبنى على التوهم..» ويرى أنها لوسلمت من ذلك ورويت على نسق الحديث المتواتر قبلت بشرط ألا تكون بعيدة فى العادة، وقد وقع مثلها [2]. أى أن الأدفوى سلم بالمبدأ دون التطبيق، ومع جرأته الواضحة إلا أنه خلط ـ كمحدث ـ بين المعجزة والكرامة.

(١) رسالة السيوطى: القول الجلى فى تطور الولى.
(٢) الطالع السعيد ٣٧٠، ٣٧٣.

قال واضع هذه السيرة وحدثني القس يونس ريس دير نهيا المقدم ذكره ان صبيا يعرف بابن حالومه كان من جملة الحاضرين فى ذلك اليوم وابصر النور وانه صار بعد ذلك يتعاهد الموضع فنظر النور دفعة أخرى على تلك الصورة المقدسة. وكان بالقرب من البيعة مسجد وفيه موذنا يضر الامنوت [البواب] ويعاديه فعمد ولد الامنوت الى طوبه حك به صورة الشهيد مارى بقطر وقال له:

---

٤ ـ ولأن التصوف أصبح حرفة فى العصر المملوكى، والكرامات مؤهلها الأساسى، فقد كان للأولياء طرقهم الخاصة فى انتحال ما يخدعون به العامة. وقد فطن لذلك بعض العلماء ممن نعدهم ضمن أصحاب الإتجاه العملى المتحرر.

وأبرزهم الجوبرى الذى فضح أساليبهم ضمن ما سجله فى كتابه «المختار فى كشف الأسرار» فكان يذكر الكرامة ثم يتبعها بكشف سرها، ونذكر بعض الأمثلة: يقول عمن جعلهم فى الدرجة الثالثة من المشايخ «.. ومنهم من يتعاطى النزول فى التنور، وقد أوقد فيه قنطاراً من الحطب فينزل فيه ثم يغيب ساعة ويطلع» ثم يشرح الجوبرى تصميم التنور وكيف أن حرارته من أعلاه، وأسفله بارد فلا تضر الشيخ، وذكر طريقة أخرى وهى أن الشيخ يطلى جسده بمادة عازلة «.. التى يعملونها لمنع النار فمن ذلك يؤخذ الضفدع ويسلق حتى ينضج ويتفتت.. ثم يرفع عن النار حتى يبرد فإذا برد جمد الدهن على وجه الماء فيؤخذ الدهن ويضاف إليه الشئ من البارود الثلجى، ثم يلطخ به جسده ويدخل النار فلا تضره»[1]. وقد يلطخ الشيخ أصابعه بهذا الدواء، ويتقدم ويشعل أصابعه من الشمع «ولا يزال يرقص وأصابعه تشتعل حتى يضج الخلق، ثم يدنون الشمعة، فيشعلها ويطفى أصابعه» وفى هذه الحالة يضيف النفط إلى الدواء السابق[2].

(١) الجوبرى. المختار فى كشف الأسرار ٢١، ٢٢.   (٢) نفس المرجع ٢٣.

مـا تقـدر تخلصنا من هذا الموذن. فلحـقتـه علة الارتعاش جميع ايام حياته وكان اكثر اوقاته يصيح قـايلا: هوذا قـد جـا يعاقبنى. ثم انه استـعـان بأبا حذقيه اسقف الجيزة وساله الى ان جا الى الصورة وصلى بين يديه وسـال الشـهـيـد فـانصلحت حـاله قليل ومات.

وكـان فى البـرية بوادى هبـيـب بدير ابو كـمـا

وبعض المشايخ يوهم المريدين بنبع الماء من أصابعه، «وكشـف ذلك أنه يأخذ مصران غنم فيدبغه بعد غسله ثم ينقعه بماء الورد سبعة أيام، وبعد ذلك يأخذه فيربط طرفه الواحد ربطاً جيداً، ثم ينفخه فى الهواء حتى يجف فإذا جف.. أخذه ثم ملأه ماء.. ثم جعله فى قميصه، وقد عمل له حمالات من تحت القميص.. فإذا أراد أن يسقى الناس جعل رأس المصران فى فم الوعـاء وهو دائر من حـيـث لا يعلم به أحـد، ثم يفك رأس المصـران بظفـره، فـينزل الماء فى الوعـاء»[1]. ومنهم من يبقى «أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ويدعون أن طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس»، وذكر عدة طرق لذلك يستعمل فيها بذرة الحبة القمحاء أو كبد الغزال العطشان حين يمتنع عن شرب الماء، أما من يمتنع عن الطعام فيستعين بمسحوق من أكباد الخرفان وذكر طريقة عمله.. وتابع الجوبرى هتك أسرارهم «كمن يظهر فى ظلام الصحراء عامود نور إلى عنان السماء» «ومن يقف يصلى تحت الشجرة فتسجد له» «ومن يظهر الفواكه فى غير أوانها» «ومن يأكل الحيات والنار، ومن ينبع له الماء فى الصحراء»[2]. ثم يقـرر أن هؤلاء المشايخ مجمعون على بطلان معجزات الأنبياء ويعتقدون أنها «مثل هذا النوع الذى سلكوه»[3].

---

(١) نفس المرجع ٢٢، ٢٣ وذكر طريقة أخرى ص ٢٦.

(٢) نفس المرجع ٢٤: ١٤٢.

(٣) نفس المرجع ٢٨٠.

راهب قديس اسمه بسوس عليه نعمة عظيمة وموهبة روح القدس كانت حالة عليه، وشاهدت وسمعت منه عجايب كثيرة منها اننا لما سمعنا خبره ونحن فى اسكندرية، من راهب قس يسمى ابو يعقوب وهو رجل قد تصدق بمال عظيم وترهب، فخرجنا جماعة الى الديارات فى طوبه سنة سبع مايه وثمنية وسبعين للشهد،واخذنا بركة راهب قديس أيضاً اسمه يعقوب قمص ديربرموس

---

٥ ـ وقد وردت إشارات تؤيد الجويرى فى مصادر أخرى.. فابن الحاج اعترض على من يدخل النار ولا يحترق[١]، وأكتشف ابن تيمية حيل الأحمدية في دخولهم النار وواجههم بذلك[٢]، وقيل عن بعض الصوفية أنه كان صائم الدهر بخانقاه سعيد السعداء «يصوم الدهر ويفطر دائماً على حمص مصلوق بغير ادام»[٣].

وقد اشتهر محمد بن عبد الله المرشدى فى مصادر العصر المملوكى بأنه كان يطعم الضيوف ما يشتهونه فى خاطرهم، وقد أورد الصفدى السر فى ذلك «وحقيقة الأمر أن هذه الكرامات إنما كانت بصناعة مقررة بينه وبين قاضي فوه فإنهما كانا روحين في جسد، وكان قد تحصن بالشيخ فلم يقدر قاضي القضاه ولا أحد على عزله... ولم يبق له دأب إلا تلقى من يصل من ذوى الأقدار قاصداً زيارة الشيخ لأن فوة طريق منيه مرشد، فإذا وصل الزاير أنزله وأضافه وشرع فى محادثته ومحادثة من معه حتى يقف على مافى خواطرهم وما يقترحونه، ثم أنه يبعث بذلك إلى الشيخ على دواب مركزه فى الطريق بينهما، وبمده من الأصناف ما لعله لا يكون عنده، ويعطيه حلية كل رجل من المذكورين واسمه»[٤].

---

(١) المدخل جـ٢/ ٢٠١.
(٢) تاريخ ابن كثير جـ١٤ / ٣٦.
(٣) تاريخ قاضي شهبه. مخطوط جـ١ / ٦ ترجمة ابن صديق التبريزى.
(٤) الصفدى . أعيان العصر مخطوط جـ٦ قسم١ ورقة ٤٨، ٤٩.

وهو اخـــو الاب ابا اخـــرسطودلوس البطرك فى الرهبنة كان له أيضاً عجايب وامور كثيرة، ومضينا الى دير ابو كما وبتنا عند القديس بسوس فاكلنا مما احـضـره لنا وكنا احـد عـشـر رجـلا واتانا بجـرة صغيرة وبارك عليها فشربنا منها كلنا الى ان قاربنا لنسكر ولم تنقص الجرة الا الى مقدار نصفها. ولما اصبـحنا سـالنا ان لا ندع احـد من اراخنة مـصـر الذين يخـرجـون الى تلك البـرية للغطاس ياتوه

ومع ذلك فلم يتأثر اعتقاد العامة فى الأولياء، ويقول الفقيه البقاعى عن أحد المعتقدين «وكان للناس فيه اعتقاد كبير جداً وينسبون إليه مكاشفات ولم يظهر إلى أنا شئ من ذلك، فإنه بشر غير واحد من أصحابنا بأشياء لم تقع»[1]. ومن النص يتضح عمق اعتقاد العامة فى الصوفية حتى ولو أخطأ أحدهم فى دعاويه.

والواقع أن الناس فى العصر المملوكى كانوا على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها، فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفيل بتوجه الناس جميعهم إلى صاحبها زائرين ومعتقدين ومتوسلين [2]، واستجابة لتلك العاطفة الشعبية حاول علماء العصر المملوكى أن يجدوا أصلاً شرعياً للكرامات، فوضعت فيما بعد كرامات لصوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين كما فعل الذهبى والسيوطى، ولم يعثر على أصولها التى نقلت عنها مما دفع بعض الباحثين للتأكيد بأنها وضعت لإرضاء عاطفة شعبية تريد إثبات صوفية أولئك الزاهدين، فالشعب لا يقبل الصوفي إلا بما يروى عن كراماته[3].

....

(١) تاريخ البقاعى. مخطوط ٨٨، ٨٩.

(٢) السخاوى. التبر المسبوك ٣٣٨.

(٣) محمد كامل حسين. حوليات آداب القاهرة مجلد ١٦ سنة ١٩٥٤ ص ٤٩.

وقال: ان جانى احد مهم خرجت الى مغاير ابو موسى وتركت الدير. فودعناه ومضينا الى دير ابو مقار فوجدنا جماعة كبيرة من اراخنة مصرالمقدمين قد خرجو الى الديارات فى تلك السنة منهم الشيخ ابو البدر ابن مسينا الزواوى صاحب الديوان الرهجى، والتمس المضى اليه فاعلمناه ما قاله لنا فقال لى لابد لى من الاجتماع به واشكو له ذنوبى ولولا رغبتى فى التبارك منه ما جيت الى هاهنا ،

وما كان لكتاب المناقب أن يحشدوها بكل ماهو مخالف للعقل والنقل لولا أن العامة فى العصر المملوكى على أتم استعدادلتصديقها بحيث يصح اعتبارها مقياساً لعقل العامة واعتقادهم فى كرامات الأولياء.. والعامة فى كل زمان ومكان قليلة العقل تميل لسماع الأقاصيص والأساطير، وتميل أكثر لتصديقها، ولهذا فإن التجارة بالدين سوق رائجة، خصوصاً إذا كان العقل غائباً.

دراسة فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكى

وبعد فلنلق نظرة على كرامات العصر المملوكى:ـ

١ ـ نلاحظ نوعاً من التخصص فى الكرامات بين الأولياء، فالبدوى مثلاً جعلوه متخصصاً فى إحضار الأسرى من بلاد الفرنجة، وقد رفض المتبولى أن يعتدى على هذا التخصص وأرشد المرأة التى طالبته بإحضار ولدها الأسير أن تتوسل بالبدوى[1]. لأنه وحده الذى يأتى بالأسرى من عند الفرنجة.

وكان من السهل على مؤرخى العصر تناقل الكرامات بحذافيرها وترديدها كأمور مسلم

(١) عبد الصمد. الجواهر ٧٩.

وجرت في هذا خطوب كثيرة اوجبت ان سرت انا
وابن عمه ثقة الثقات ابو الطيب بشوى ابن يحنس
الي دير أبو يحنس بسبب نذر كان عليه مبلغه
خمسماية دينار، فخليته في دير ابو يحنس
ومضيت انا الى دير ابو كما واجتمعت بالقديس
بسوس واعلمته ماجرى ولم ازل به الى أن استقر
مسيره اليه الى دير ابو مقار فخرج من الدير بعد
غروب الشمس بساعة ومضيت انا الى دير ابو

بها، بل قد تتكرر كرامة بعينها لأكثر من صوفي مع اختلاف الزمان والمكان [(١)]. وتنافس الصوفية في المزايدة بالكرامات فرويت كرامة للشيخ خليل وهو يطير من بلده إلى جبال الزيتون، فقال له المرسى «ليس الشأن أن تذهب لجبال الزيتون وتعود من ليلتك، ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذك بيدى وأضعك على جبل قاف وأنا هنا لفعلت» [(٢)]. وهو القائل «والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف حتى يلقوا واحداً مثلنا، فإذا لقوه كان بغيتهم» [(٣)]. ويقول «ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتي» [(٤)].

ولقد أوتى الشعرانى مقدرة عجيبة على سبك الكرامات، وهو يوردها أحياناً كغطاء يخفى به الإنحلال الخلقي للأولياء فى عصره كما يبدو فى ترجمته للمتبولى والحنفى وغيرهم، والغريب أنه حين يذكر أحد الصالحين بصفات حسنة فلا نجد أثرا للكرامات [(٥)].

---

(١) رويت كرامات لأبى العباس الملثم فيس ابن الفرات والطالع السعيد بدون تغيير فى الألفاظ ونفس الوضع في ترجمة شرف الدين الصعيدى الذى امتحن الغورى امتناعه عن الطعام والشراب أربعين يوما. الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٣٨، شذرات الذهب جـ٨ /٩١ وقد نسبت أيضا لمعاصر للحجاج بن يوسف، اليواقيت والجواهر جـ٢ / ١٠٤ وغير ذلك كثير.

(٢) ابن عطاء لطائف المنن ٥٧.

(٣) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ١٨.

(٥) كما فى ترجمتها للمرحومي الطبقات الكبرى جـ٢ / ٩٥ والغمرى جـ٢ / ١٢٧.

يحنس وبت فيــه مع الشــيخ ابو الطيب، فلمــا
أصبحت مضيت الى دير ابو كما لاسال عنه فقال
لى الراهب البــواب: نصف الليل جــا وضـــرب
الناقـوس هاهنا حـتى قـام الرهبـان للابصلمــديه
كالعادة. فظننت انه لم يمضى الى دير ابو مقار لان
من دير ابو مقار الى دير ابو كما مسيرة اكثر من
اربعة ساعات، فدخلت اليه مبتسما فعرف انى قد
ظننت انه لم يمضى الى دير ابو مقار. فلما سلمت

وكان الناس على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها. فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفيلاً بتوجه الناس جميعهم إلى أصحابهم زائرين ومعتقدين ومتوسلين[١]، وبعض الكرامات صيغت لسد النقص أو جبر العجز لدى الأولياء، فالولي المقعد الشيخ أحمد السطيحة قيل فيه «إنه يلبس كل جمعة مركوباً جديداً يقطعه مع أنه سطيحة لا يتحرك» «وتسللت زوجته ليلة فرأته قائماً سليما من الكساح فلما شعر بها زجرها فخرست وتكسحت وعميت إلى أن ماتت، وحتى لا يوصف الشيخ أحمد السطيحة بالعجز الجنسي أيضاً فقد ذكروا أنه كان في عصمته أربع نساء، وأنه خطب بنتاً بكراً فأبت وقالت: أنا ضاقت على الدنيا حتى اتزوج بسطيحة، فلحقها الفالج إلى أن ماتت. وطلبته بنت بنفسها فقيل لها يا امرأة المكتسح وعايروها فدخل بها الشيخ وازال بكارتها فملأ الدم ثيابها ورآه الناس.. إلخ[٢].

ونلمح بعض الإرتباط بين الكرامات والأحوال السياسية التى استغلها الصوفية لترويج كراماتهم، فعندما يتولى سلطان يقال أن مجذوباً بشره شفاهاً بالتملك[٣]، وحين يمرض السلطان يفسرمرضه بإنكاره على شيخ بعينه فجوزى بالمرضى[٤]، وكان من العادة شبه

(١) السخاوى : التبر المسبوك ٣٣٨.
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى . ط صبيح جـ٢ / ١٢٣ .
(٣) الضوء اللامع جـ٣ / ١٣٣ .
(٤) مناقب الحنفى (مع الناصر فرج).

عليه واخذت بركته قال لى: مضيت واجتمعت بالرجل. فسالته: متى وصل اليه ومتى عاد اذ كان لا يمكن احد يمضى الى دير ابو مقار ويعود فى الليلة. فقال لى: مالك الى هذا حاجة، قد مضيت الى عنده كما استقر معك. فقلت له: ما صفته؟ قال: هو رجل قصير اشهل العينين ووجدت عنده اخوه ابو العلا فهد ودميان قريبك الاشهل العينين ايضا وتحدث معه بالقبطي. فلما قال لى هذا

الدائمة أن تنتهى حياة الأمراء وأرباب المناصب بالمصادرة والعزل والقتل والحبس، ومع ذلك كانت تفسر فى ضوء غضب الأولياء ومعرفتهم الغيب [١]، وحين منع الناس من الحج بسبب حركة التتر أشيع أن الشاذلى قد حج بخطوة واحدة وعرض بعد مجيئه أن يخطو بالناس جميعاً إلى عرفات [٢]، ولم يتساءل أحد أما كان من الأجدى أن يوجه الشاذلى قدرته لدفع التتر الذين منعوا الناس من الحج.

فالملاحظ عامة أن إدعاء الكرامات قد استهلكه المتصوفة فى نواح تافهة غير نبيلة تعكس حياتهم وتفكيرهم، فلم يحظ الجهاد مثلاً بأقل القليل من إدعاءاتهم الكثيرة بقلب الأشياء ذهباً، مما يفضح نفسية المتصرفة الغارقة فى أحلام الوصول للنعيم الدنيوى بدون كد أو تعب. ولابد أن تنتهى تلك الكرامة بزهد الولى فيما قلبه ذهباً حتى لا يطالبه أحد بالدليل على إدعائه برجوع الذهب إلى حالته الأولى، وحتى يتأكد زهدهم وأنهم إنما تركوا الدنيا وزينتها مع قدرتهم على الثراء السريع، على أن تلك الكرامات بما صاحبها من دعايات حققت أهداف الصوفية ووطدت نفوذهم وأكدت الاعتقاد فيهم وفى تصريفهم.

(١) مناقب الحنفى ٣٨٤،النجوم جـ١١ / ١٨٧، المنهل الصافى جـ٥ / ٤٤١.
(٢) الإلمام بالإعلام للنويرى مخطوط مصور مجلد ٢ لوحة ٧٨.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

خـرجت من عنده عند طلوع الشـمس وركـبت
دابتى واسرعت السير فوصلت الى دير ابو مقار فى
رابع سـاعـة من النهـار، لأنه كـان فى شـهر طوبه،
فدخلت مع الشيخ ابو الطيب الى عندالشيخ ابو
البدر المقدم ذكره فقال لنا: ما عندكم خبرنا مع
القديس بسوس، فانه جا الى عندنا. قلت له: اى
وقت جاكم؟. قال: جا الينا العتمه، قلت له: هو
الوقت الذى خرج فيه من دير ابو كما وفارقته انا

---

* مروجو الكرامات:

أبرزهم المتصلون بالشيوخ المنتفعون بهم كالخدم ومشايخ الزيارة والزوجة وغيرهم.

- الخدم: وقد أصبح بعضـهم شيخاً بعد موت سيده يدعى أنه اختص بأسراره ونشر كراماته، فرويت كرامات عديدة عن الشاذلى عن طريق خادمه الشيخ ماضى أبو العزايم[1]، ويقول خادم الحنفى «وكان سيدى يخبر بما وقع له من الكرامات على عادة السلف من الأولياء المتمكنين[2]»، وقد يحرص الشيخ على تسجيل كراماته، ثم يوصى خادمه بكتمانها فى حياته وإذاعتها بعد موته[3]، كما يدعون، والواضح أن الخادم هو الذى يشيع ذلك ليتكسب به.

ولخادم الضريح دور كبير فى إشاعة كرامات صاحب الضريح طمعاً منه فى النذور، ولابأس بأن يحتال لذلك الأساليب المبتكرة، فعرف أحد القبور- وهو مجهول الصاحب- بقبر صاحب الشمعة، لأن بعض خدام القبور المجاورة أشاع أنه يرى على قبره شمعة مشتعلة فى

(١) تعطير الأنفاس مخطوط ٥١، ٥٥ مابعدها، ٧٧ وما بعدها.
(٢) مناقب الحنفى مخطوط ٤٧٣، ٤٧٤.
(٣) الطبقات الصغرى للشعرانى ترجمة السيوطى ص٣٠، ترجمة زكريا الأنصارى ص٤٠، ترجمة شمس الدين الدمياطى ص٥٣.

من هناك وتوجه الى عندك. فتعجب هو وجميع
الحاضرين ثم قال لي: ولم يزل يتحدث معه وانا
اذا خاطبته بماية كلمة اجابني عنها بكلمتين او
ثلثة قاطعة في الجواب الى ان خرج اخوك ابو العلا
الى برا ابصر الوقت وقال لنا قد جا نصف الليل
فقال بسوس القديس اريد امضي الى الدير فضربنا
له مطانيات ان يقيم عندنا بقية ليلته ويومه فلم
يزل معنا الى ان طلب الانفراد للصلاة فحبسناه

- -

الليالي المظلمة، فاشتهر صاحب القبر بهذه الكرامة [(١)].

ـ مشايخ الزيارة: وهم الذين يعرفون معالم القرافة وطرق الزيارة، وفي كتب المزارات تنقل عنهم الكرامات مشفوعة بكلمات «وهذه الحكاية مستفاضة بين مشايخ الزيارة» أو نحو ذلك.

كان للزوجة دورها في هذا المجال حتى ولو كانت بلاءً على زوجها، فكان الشيخ أبو الحمائل «مبتلى بزوجته» وقد حكت هذه للشعراني إن زوجها كان كثيراً ما يكون جالساً عندها فتمر عليه الفقراء الطائرون في الهواء ينادونه فيجيبهم ويطير معهم فلا تنتظره إلى الصباح [(٢)].

وكان الرأى العام يتوقع من الولى بعض الكرامات حين يغسل ـ بعد موته ـ وحين يلحد في القبر، وتكفل الغسالون واللحادون والحفارون بإرضاء نهم الناس، فالشيخ عبد الغنى الغاسل غسل الشيخ أبا القاسم الأقطع وأورد من كراماته أنه غطى سوأته حين وقعت القطنة، وأنه كان يتقلب ذات اليمين وذات الشمال كلما قرأ الغاسل «ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال» [(٣)]. وتبسم آخر وهو يغسل لأن الحور العين قد غازلته، وأمر آخر مغسله بأن يغض

---

(١) تحفة الأحباب ٣٢٢.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢ / ١١١.

(٣) الكواكب السيارة ٢٤٤، ٢٤٥.

في هذه الخزانة واغلقنا عليه وبتنا على بابها لنتبارك
منه بقربه ونسمع حس صلاته ونصلى معه فلم
نسمع له خبر، فلما اصبحنا فتحنا الخزانة ودخلت
انا اخذ بركته فلم اجده فبقينا باهتين متعجبين الى
الساعة ما ندرى ما كان منه. فقلت لهم: الوقت
الذى دخل فيه الخزانة واغلقتم عليه بابها هو
الوقت الذى دق فيه الناقوس لرهبان دير ابو كما
واقام فيه رهبانه للابصلمديه وجيت اليه سحراً

بصره لأن الجان ستغسله[1]، ويبدو أن الغسالين بالغوا فى إدعاءاتهم إلى درجة أثارت تندر الناس، فأوصى الفقيه ابن الشيخ أن يغسله الشيخ شهاب الدين بن النقيب، فقال بهاء الدين بن السبكى ما قصد بذلك إلا بسط الناس بعد موته[2].

وفى أمثالنا الشعبية نلمح أثر ذلك «كرامات الميت تظهر عند غسله»، «مغسل وضامن جنة»[3]. ونافس اللحادون والحفارون الغسالين فى هذا المجال، فيشيع أحدهم أنه و جد القبر قد اتسع بحيث لا يدرى هل هو فى بيت أم فى قبر، ووجد معه من يساعده في اللحد وذلك لأن الميت كان يدعو «اللهم وسع على فى قبرى واجعلنى ممن تعولاه الملائكة[4]»، ولحد آخر بنتاً للشاذلى فضحكت، وعرفته بأنه يلحقها بعد ثلاثة أيام[5].

وحين حمل أبو مدين فى النعش وكان المؤذن يصيح بالآدان ثقل على حامليه حتى وضعوا النعش لأنه كان متعوداً على القيام حين يؤذن المؤذن[6]، ويبدو أن ذلك أصل لما يشيعونه فى الريف الآن من طيران الشيخ بنعشه أحياناً أو توقفه حيناً.

(١) الكواكب السيارة ٢٤٧، ٢٤٨. (٢) ذيل ابن العراقى مخطوط ٦٥.
(٣) أحمد تيمور الأمثال الشعبية ٣١٥، ٣٧٨ الطبعة الأولى.
(٤) الكواكب السيارة، ٢٥٠، ٢٥١. (٥) تعطير الأنفاس مخطوط ٨٠.
(٦) المناوى. الطبقات الكبرى مخطوط ورقة ٢٨٣.

فاعلمني البواب بذلك ومن عنده جيت اليكم
فزاد تعجبنا وعلمنا ان عجايب الله فى قديسيه.
وايضاً كان اخى ابو العلا [فهد] نيح الله نفسه
قد عاقبه امير الجيوش فى نصف كيهك من السنة
المذكورة حتى كتب خطه بستة الف دينار.

وفى الشهر المذكور عرقت اعمدة دير القديس
ابو موسى. وعرقت ايضاً عدة صور فى كنيسة

تهرب المتصوفة من الإتيان بكرامة:

كان المتصوفة ينسبون الكرامات للأولياء بعد الموت، أما فى الحياة فقد حاولوا تبرير تقاعسهم عن إثبات الكرامة عملياً ـ بشتى الوسائل. ووضع عبء ذلك على الشعرانى ـ بطل سبك الكرامات ـ بطبيعة الحال، فهو يميز الكرامة عن معجزة النبى بأنه لا يجب على الولى إظهارها لأنه لا يحتاج إلى دليل على صحة طريقه، بل يجب إخفاؤها، ويجوز للولى أن يتحدى بالكرامة إذا رأى فى ذلك مصلحة، ومع ذلك يجوز أن تقع الكرامة مع كلام الولى ومع سكوته[(١)].

ويبالغ الشعرانى فيرى أن من الأولياء من لا يستره حجاب ومع ذلك لا يعرف ما فى جيبه[(٢)]. وأن الولى قد يعاقب بأن يحبب إليه إظهار الكرامات كنوع من الاستدراج[(٣)]، وأن أكثر الأولياء كرامة من كثر تكذيب قومه له، وأقلهم كرامة من كثر تصديق قومه له[(٤)]، وعد من المنن كراهيته لوقوع الخوارق على يده فى الدنيا لأنها عرض فان، ومع ذلك يقول أن وقع

(١) اليواقيت والجواهر جـ١ / ١٦٣.
(٢) الجواهر والدرر ١٧٥.
(٣) الجواهر والدرر ١٧١.
(٤) كشف الران ص ٨٠.

القديس تادرس الشهيد الجليل بمصر ببنى وايل
[كفر العلاقمه/ ههيا] حتى كان عرقها يجرى
كالمآ، وهوذا اثره وسيلانه باق الى اليوم على
حيطانها. فحدث فى تلك السنة جدرى مات منه
بمصر احد وعشرين الف صبى فى دون شهر
فكتبت الى القديس بسوس المذكور والى الاب
مقاره الامنوت بدير ابو مقار، الذى لما طلب
للبطركيه بعد الاب اخرسطودلوس هرب واختفا

الخارق لابد منه للفقير ولو مرة واحدة، ثم يفتخر بكثرة اعتقاد أهل عصره فيه من غير مطالبة بدليل [١]، ومع ذلك كان الناس ينتظرون من الأولياء أن يخبروهم بما أوتوا من علم الغيب ووجد الشعرانى الوسيلة للتهرب من ذلك أيضاً. فهناك اللوح المحفوظ حيث لا تغيير فى المكتوب وهناك ألواح المحو والإثبات حيث التغيير والتبديل. فحذر الأولياء من الكشف عن الغيب إلا إذا كان مطمح أنظارهم اللوح المحفوظ محل الغيب النهائى، أما إذا كان ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة والستين لوحاً فيمنع إظهار ما يعرفون من الغيب لأن الحق تعالى كل يوم هو فى شأن، «فربما غير ما تكلمنا به وأظهرناه للناس.. فيسئ الناس ظنهم بأمثالنا»، واستشهد بأن الخواص كان مشهده اللوح المحفوظ، ومشهد أبى الحمائل ألواح المحو والإثبات، فكان الخواص لا يخطئ فى كشفه عكس أبى الحمائل [٢]. وانفرد الشعرانى بهذا القول، وان كان المتبولى قد أشار إلى نحو ذلك حين حذر من إفشاء الولى للغيب لأن الله يحول بين المرء وقلبه [٣]. فلم يرد فى قوله ما ذكره الشعرانى عن اللوح المحفوظ والمحو والإثبات.

(١) لطائف المنن ص ٣١٦، ص ٧، ٩٠، ٢٣٥.
(٢) البحر المورود ٢٧٣، ٢٧٤.
(٣) لطائف المنن ٩٣.

في بعض البلاد، الى ان جعل انبا كيرلص كتابا
وسالتهما فيه الدعا بالخلاص مما لنا وسوال جماعة
الابآ الرهبان ان يهبو لنا ليلة واحدة يصلو فيها عنا.
وكان في الديارات سبع ماية راهب. وسيرت
الكتاب مع راهب من دير نهيا يسمى ابو العلا،
وهو اخو القس يونس المعروف بزكير ريس الدير
المذكور، وكان هذا الشماس ابو العلا الراهب
قديس ايضاً، وكان الاب بسوس يشتهي ان يكون

ويرى الشعراني أن الأولياء يعطون التصرف بحرف (كن)، أي يقولون للشيء كن فيكون، مع أن ترك التصرف بها مرتبة الأكابر منهم[(١)]، وقد أعطى أحدهم هذا المقام فتركه وقال «نحن قوم تركنا الحق تعالى يتصرف لنا»[(٢)]، وما أشد تواضع ذلك الولي!!

والأولياء «أسرار الوجود» كما يقول الحنفي[(٣)]، وقد تكلم فقير ببعض الأسرار فقُتل، وقيل أن من أفشى أسرار الله فجزاؤه القتل بالسيف على عوائد الملوك في قتل من يفشي أسرارهم[(٤)]، وذلك تعليل ظريف لعدم إتيان الولي بكرامة على عيون الأشهاد، وقد عبر الشعراني عن ضيقه من الفقهاء سلفاً وخلفاً لأنهم يطلبون الكرامة كدليل على الولاية[(٥)]، وعلل الخواص ذلك الخلق من الفقهاء مع عدم وجوده لدى الفقراء بكثرة اعتقاد الأخرين الاعتقاد الصحيح في شيوخهم عكس الفقهاء[(٦)]. على أن هناك أقوالاً للمتصوفة السابقين في التهرب من الإتيان بكرامة تنقصها براعة الشعراني، فعبد القادر الجيلي كان لا يشأ أن يرى

---

(١) الجواهر والدر ١٢٣.
(٢) اليواقيت والجواهر جـ٢/١٠٦.
(٣) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢/٨٨.
(٤) لطائف المنن. الشعراني ٤٨ ـ ٤٩، وذكر قصة ص٤٠٩ عن عجز المريدين عن تحمل الأسرار من الشيخي.
(٥) لطائف المنن ٩٠.
(٦) درر الغواص ٦٧.

عنده فى ديره لانه قال رايت افعاله توافقنى، فلما
اوصل إليه كتابى انفذ الى رهبان جميع الديارات
وسالهم فيما سالته فيه، وما راى ان يجمعهم فى
موضع واحد خوفاً من السمعة والشناعة وتحريف
القول عن الرهبان مع حدة امير الجيوش وشدة
بطشه وقوة سلطته، ثم اخذ جمراً يتقد فوقف عليه
ودعا لنا، واصبح يوم الميلاد الاول وهو الثامن
والعشرين من كيهك وكان يوم سبت فقال له ابو

أحداً منه كرامة إلا بإرادته هو، «وكانت الخارقة تظهر أحياناً منه وأحياناً فيه» حسب تعبير مؤلف مناقبه[١].

أما الشاذلى فيقول «أى كرامة أظهر وأعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السُنة»[٢]، مع أن أقواله فى عقيدة الاتحاد الصوفية أبعد ما تكون عن ذلك.

وفى مناقب المنوفى أن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية صاحبها، وأنها تصدر عن الوالى بلا قصد ويجب عليه سترها، ويرى المرسى فى طىّ الأرض وهو انتقال الولى إلى أى مكان بخطوة واحدة لصغار الطائفة، أما الطى الأكبر فهو طىّ أوصاف النفوس[٣]، وطُلبت كرامة من عبدالعزيز الدرينى، قالوا له «مرادنا شىء يقوى يقيننا واعتقادنا فيك حتى نأخذ عنك الطريق، فقال يا أولادى وهل ثَمّ كرامة من الله لعبدالعزيز أعظم من أن يمسك به الأرض ولم يخسفها به، وقد استحق الخسف من سنين»[٤]، واضطُر على وفا للإخبار بالكشف عن مصير غُلام محبوس فقال «لابد له من الخلاص إما فى أول الأمر أو آخره وإن فاته ذلك جميعه

(١) الشطنوفى ـ بهجة الأسرار. مخطوط ١ ـ ٢٩ إلى ٣٠.
(٢) تعطير الأنفاس ـ مخطوط ص٢٠٤.
(٣) مناقب المنوفى، مخطوط من ٥ إلى ٧.
(٤) لواقح الأنوار. ص ٢٤١، ص٣٧١، لطائف المنن ٥٩٢.

العـلا الراهب: اعطنى الجـواب ودعنى اعـود الى ديرى بسـبب العيـد. فـقـال له القـديس بسـوس: الجـواب انهـم قـد تخلصـو وانعم عليـهم السـيـد المسـيح. فـقـال له ابو العـلا الراهـب: اريد الدليل على هذا. فقال له : امضى الى مقاره الامنوت فهو يعرفك. فـجا اليه واعلمـه ما قاله بسوس فـقال له مقاره: الذى قاله لك صحيح فامضى ولا تشك فى قوله. فـقـال لهـمـا: مـا امـضـى الا بالجـواب منكمـا.

فيـتخلص ولو على المغتسـل، يقـول الراوى بسـذاجـة رأيت مـا يؤيد ذلك ويصـحح هذه المقـولة[1] ، وفى أسطورة عن زكريا الأنصارى أن ضريراً من الشام قصده ليرد عليه بصره فأمره بالرجوع إلى غزة، وهناك يرد عليه البصر بشرط ألا يرجع مصر فيكف بصره ثانياً بحجة الخوف من ذيوع الخبر، وتقول الأسطورة إن الضرير قد أبصر هناك[2]. والغرض من ذلك هو إشاعة الكرامة دون المطالبة بدليل على صحتها بالإضافة للتخلص من إثباتها أمام الناس.

وكان نصر المجذوب المصرى «يتظاهر بالخطأ فى الكشف حتى لا يعتقده أحد»[3] بنحـو ذلك برروا خطأهم فيما يدّعون من إطلاع على الغيب.

أصناف من أساطير الكرامات

*** علم الغيب:**

١ – ويسـميـه الصـوفيـة كـشـفـاً، وهو أبرز مـا ادّعاه الصـوفيـة من كـرامـات، ويرجع سـبب شهرتهم بالكشف إلى أن الصوفى ينتظر أو يحس بالإنكار القلبى عليه فيـسبق المنكِر محتجاً على إنكاره قبل إعلان المنكر له، فيشتهر الصوفى بقراءة الخاطر، وبالغ الصوفية فى هذا فادّعوا علم الغيب.

---

(١) مناقب الوفائية. مخطوط ٧٢.

(٢) الطبقات الكبرى ـ الشعرانى جـ٢/١٠٨.

(٣) أخبار القرن العاشر ١٨٥.

فقال بسوس لراهب اسمه قسما كان كاتب ديوان: اكتب عنا كتاب بان السيد المسيح قد خلصهم في هذا اليوم. وتقدم الى قرابة لنا يسمى هبة الله ابن منصور كان مختفي هناك ان يكتب لنا كتاب عنهما بذلك. فاخذ ابو العلا الكتابين بالخطوط التي يعرفها وهو مورخين بغداة يوم السبت الذى كان فيه خطاب بسوس له فى الديارات وفيه كان خلالصنا. وذلك انني قدست

٢ـ ويتواضع بعضهم فيتحاشي الدعوة في شيء من الخمس التي في آخر سورة لقمان «لأنها من خصائص الحق تعالى» ولكنهم في الوقت نفسه يؤولون دعوى بعض الأولياء في علمها[١]، مع أن الغيب كلٌ لا يتجزأ وهو مما اختص الله تعالى به ذاته، ولم يعط الله تعالى العلم ببعض الغيب إلا بعض الرسل مثل يوسف (يوسف٣٧)، وعيسى (آل عمران ٤٩) وأكد القرآن أن خاتم النبيين لا يعلم الغيب.

٣ـ وادّعاءات الصوفية فى هذا المجال يضيق عنها الحصر، فأبو السعود بن أبى العشائر حدّث بإيضاح أحوال الملكوت والآخرة والمنازل والدرجات ومراتب الرجال من آدم إلى يوم القيامة.. إلخ[٢]، ويقول على وفا: ما من نطفة توضع فى رحم.. إلا وقد أطلعنى الله عليها[٣] وادّعى المتبولى بأنه «لاتنزل قطرة من السماء ولا يطلع نبت من الأرض إلا علمت به.. وهذا أمر أعطيته وأنا طفل[٤]»، والعارف يعلم أحوال أهل الجنة علماً لاشك فيه لخروجه عن حجاب بشريته[٥]»، والصوفية يعلمون السرائر لذا نصحوا المريدين بحفظ قلوبهم معهم[٦]..

(١) لطائف المنن للشعرانى ٩، ٤، ٤٣٠.
(٢) الكواكب السيارة ٣١٦، ٣١٧.
(٣) مناقب الوفائية ٤٣.
(٤) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٧.
(٥) درر الغواص ١١.
(٦) درر الغواص ٨١، قواعد الصوفية جـ١/ ١٥٨، الطبقات الكبرى جـ٢/ ٩٤، ١٥٠.

يوم السبت المذكور سحر فى كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع ولزونا الاتراك المرسمين علينا فى المسير نحمل قماشنا وقماش المترسمين الى المركب، وعولنا على الانحدار فى ذلك اليوم الى الريف لنستمنح [نأخذ المنح من] الناس فيما نقوم به مما الزمنا به تحت العقوبة. ونزلنا من الكنيسة المذكورة ونحن متوجهين الى المركب، فقبل خروجنا من بابها جانا رسول الامير جمال الملك

وفى قصة البدوى تتردد معرفته بالغيب حتى أن هلال مأذنته بعد موته ينبأ بالغيب[١] وإذا ولد ولى يبشر آخر أباه بما سيكون من أمره وفتوحه[٢]، وعرف الشاذلى بموته فى حميثرة واستعد لذلك[٣]، وكان ابن ماخلاً شرطياً يتنبأ للوالى بسريرة المتهم[٤]، وفى لطائف المنن ومناقب المنوفى وغيرها من كتب الصوفية أخبار لا تنقطع عن الكشف، «ولولا لسان الشريعة» كما يقول الفرغل «لأخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم»[٥]، وكان شعبان المجذوب «يطلع على ما يقع فى كل سنة من رؤيته لهلالها» وأعطى مجذوب آخر «التمييز بين الأشقياء والسعداء فى الدنيا»[٦]، واطلع الخواص على فتوح قلوب الفقراء وكان يخبر بذلك[٧]، بل إنهم ادّعوا علم ما فى اللوح المحفوظ وتردد هذا فى كتبهم عن الدسوقى والرفاعى والجيلانى[٨] وعبدالرحيم القنائى[٩]. ويقول الحنفى لوسألتنى شيئاً لم يكن عندى أجبتك من اللوح المحفوظ[١٠].

(١) عبدالصمد: الجواهر ٧٦.
(٢) شذرات الذهب جـ٨/ ٣٠، ٣١.
(٣) الإلمام مخطوط مجلد ٢ ـ ٧٩.
(٤) طبقات الشاذلية ١١١، ١١٢.
(٥) مناقب الفرغل ١ مخطوط.
(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٥٩، ١٣٠.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١٣٠.
(٨) طبقات الشرنوبى ٧، ٨.
(٩) مناقب عبدالرحيم ١٥.
(١٠) الطبقات الكبرى.

صاحب الباب وقال لنا: الأمير جمال الملك يخصكم بالسلام ويهنيكم بالخلاص وقال لكم في هذه الساعة دخل مولاه الاوحد الى والده امير الجيوش واستوهبكم منه وامرنى بالإفراج عنكم فامضو اليه واشكروه. ثم قال الرسول لا وليك المترسمين: ارتفعو عنهم ولا تعترضوهم. فمضو عنا، ولما وصل الينا الكتابين وعرفنا الراهب ابو العلا بما كان، علمنا ان تلك الساعة التي تخلصنا

وكان محل كشف الخواص اللوح المحفوظ[1]. خاصة وأن نهاية كشف الولى أن يطلع على ما كتب فى اللوح المحفوظ كما يدعى الشعرانى[2].

والشيخ يعلم الخاطر ويمد مريده به، بل يتفاهمان على أساس الخاطر[3]، وكان الحنفى يقيم ميعاداً سكوتياً فيلقى بخواطره فى قلوب أصحابه كل حسب «مشروبه»[4]، «ويتحلى الشيخ الصادق بعلم يكشف به الحقائق والدقائق، والقاء الملك، ونفث الشيطان، والنفث فى الروع، والإلهام، وخطرات المريد، ونزعاته وأمراض القلوب وأسرار النفوس»، ويلاحظ مريده من حين كان فى عالم النور قبل وروده وهبوطه إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات، كما يقول الشعرانى[5].

٤ـ وكانت كتب التاريخ كثيراً ما تصف الصوفية بالكشف والعلم بما سيكون[6]، ويروى أبو المحاسن أن أحدهم فى نزاع مع السلطان «جقمق» أعلن فى الملأ أن غريمه السلطان سيموت فى حادى عشر جمادى الأولى، وانتظرت العامة النتيجة، ولكن الشيخ مات قبل ذلك

(١) الطبقات الكبرى.
(٢) الجواهر والدرر ١٩٥.
(٣) السبكى معيد النعم ١٥٨، ١٥٩.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٨٢.
(٥) لطائف المنن للشعرانى ٣٨٨.
(٦) ذيل الدرر الكامنة لابن حجر مخطوط ورقة عشرة، ١٦٥.

فـيـهـا هي التى قـال فـيـهـا القـديس بسـوس قـد تخلصو، فتعجبنا من ذلك ومجدنا الله جل اسمه وشكرناه. وسـار الاوحـد الى مـدينة اسكندرية واصطنعنا واخذنا معه لانها كانت اقطعت له جرياً وخراجاً وخدمناه فيها.

وحكي لى الشمـاس ابو حـبيب ميـخاييل ابن بدير الدمنهورى انه كان مختفيا عنده في الدير في

اليوم بعشرة أيام ولم يظهر لكلامه صحة، وحاول أبو المحاسن مع ذلك تأويل كلام الشيخ، وأنه كان يقصد نفسه بالموت وأن الجماهير أخطأت فى النقل عنه[1]، مما يتعارض والقصة التى رواها بنفسه الأمر الذى يظهر مدى الإعتقاد فى علم الأولياء للغيب، وفى الأمثال الشعبية ما يعزز هذا كقولهم «إنت شيخ ولأحد قلك»[2].

* التصريف:

١ـ يقولون إن الولى خرق العادة حين يعطى حرف كن[3]، أى يقول للشيء كن فيكون، ويقول الجيلى عن نفسه «وأعطيت حرف كن»[4]. بل إن الخواص جعل فى باطن كل إنسان قـوة كن[5]. وفى قصة البدوى مع ركين أنه جعل الشعير قمحاً بكلمة كن[6]، وكـان الشربينى يقول للعصا التى كانت معه كونى إنساناً فتكون إنساناً، ويرسلها تقضى الحوائج ثم تعود كما كانت[7].

٢ـ بل إدعوا أن الولى يتصرف فى الموت والحياة، فالحسن أخو البدوى يميت من تعرض

(١) حوادث الدهور ١٠٧ : ١٠٨ سنة ٨٥٥.
(٢) الأمثال الشعبية لتيمور ٩٩، الشعب المصرى فى أمثاله. شعلان ص١٧٩.
(٣) الجواهر والدرر ١٦١.
(٤) لطائف المنن ١٨٨.
(٥) الجواهر والدرر ١٢٢.
(٦) عبدالصمد: الجواهر ٣٧، ٣٨.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١١٨.

بعض الاوقات ومعه جماعة من الاخوة النصارى مختفين وانه رآه وقد جعل زيت فى مسرجة وبارك عليه واوقدها لهم، وانه اقام خمسة عشر ليلة بنسخ الكتب ويقرى مع المذكورين كل ليلة الى نصف الليل، اعنى ميخاييل، وهو محتاطاً على المسرجة يرصدها فما فرغت ولا نقصت عن حدها. وحكى ايضا حضور راهبين من دير ابو بشوى متخاصمين فاجتهد فى ان يصطلحا فرضى

لهما من الأكراد ثم يعيدهم للحياة، والبدوى يميت جمال فاطمة بنت برى السبعة آلاف[1]، وأحيا على وفا غريقاً عند شاطىء الإسكندرية[2]، وحين مات الجمل أحياه على وفا إلى ما بعد الحج والرجوع إلى مصر «فمن وصوله إلى باب النصر وقع ميتاً فعلمت أن محيى الموتى أبقاه للخدمة»[3]، وأحيا المتبولى والد مريده فأخرجه «من القبر» ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ»[4]، وانتهت كراماتهم مع الأسد ـ أحياناً ـ بإحياء من افترسه الأسد[5].

* إنتحال صفات الله: (من عدم الأكل والشرب والنوم والجماع) وغيرها.

فالبدوى حين نظر عبدالمجيد إلى وجهه صعق[6]، وكان يظل أربعين يوماً بلا طعام ولا شراب شاخصاً ببصره إلى السماء[7]، ورفض الزواج ولم تفلح معه إغراءات فاطمة بنت برى، وقال له الرفاعى فى المنام «فإن جميع الرجال والأبطال قد نظروا فى تاريخ الرجال فما

(١) عبدالصمد. الجواهر ٤٧، ٥١، وكان يصف البدوى فى نهاية كتابه بالمحيى المميت.
(٢) مناقب الوفائية ١٥، ١٦.
(٣) مناقب الوفائية ٧٧، ٤٨.
(٤) الطبقات الكبرى جـ٢/٧٦.
(٥) الإلمام مجلد ٢ لوحة ٧٤، بهجة الأسرار مخطوط جـ٢/١٩ : ٢٠.
(٦) عبدالصمد ١١، ٢٤.
(٧) عبدالصمد ٦، ٧، ١٠، ٣٦، النصيحة العلوية للحلبى ٢٣.

احدهما وامتنع الاخر ومضى ولم يطيعه، ثم عاد اليه بعد ثلثة ايام وقد تبرص وساله وتضرع اليه حتى قلع تراج كان عليه فالبسه اياه ومضى واعاده ثانى يوم وقد تنقا. وحكى لى الشماس يونس الراهب أحد أولاد القديس بسوس انه كان حاضر فى بعض الايام وهو فوق الجوسق يصلى، فدخل الى الدير ثمنية عشر رجلا من السودان فملكوه واخذو رجلا من الرهبان فعذبوه، فنزل

وجدوا من لا تهيج له روحانية ولا ينظر إلى النساء بشهوة إلا أنت يا فحل الرجال»[١]، وكان الشيخ خلف ـ أحد أصحاب البدوى ـ لا يضع جنبه على الأرض ليلاً ولا نهاراً[٢]، وقد سأل الشعرانى الخواص عن قوله تعالى «لا تأخذه سنة ولا نوم» هل خلع الله هذه الصفة على أحد من الأولياء فأجاب نعم ومثّل بعيسى بن نجم الذى ظل بلا نوم سبعة عشر عاما[٣]، ومكث بعضهم نحو الخمسة شهور[٤]، وآخر سبعة وثلاثين سنة[٥]، وآخر مكث أربعين سنة[٦]، على أن علياً العياشى مكث فترة قياسية حطمت الأرقام السابقة فظل بلا نوم نحو نيّف وسبعين سنة[٧]، وقال اليافعى عن أحد أصحابه «وله إلى تاريخ تأليف هذا الكتاب خمس عشرة سنة لم يضع جنبه الأرض ويمكث أياماً عديدة لا يأكل فيها شيئا[٨]».

ونلمح مثل ذلك فى مدة إمتناع الولى عن الطعام والشراب فتراوحت بين أشهر لا تكمل سنة كما فى حالة ابن عمر التباعى (ت ٧٠٢)[٩]، أو يمكث سنين قد تمتد إلى عشرين

(١) عبدالصمد ١٧، ٤٩.
(٢) عبدالصمد: ٢٨.
(٣) الجواهر والدرر ١٤٠: ١٤٢.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١٥٥/٢.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١٦١/٢
(٦) صحبة الأخبار للشعرانى ١٣٦.
(٧) الطبقات الكبرى جـ١٦٢/٢.
(٨) روض الرياحين ١٧٩.
(٩) النبهانى جامع كرامات الأولياء جـ١٣٧/١.

الاب بسوس من الجوسق اليهم ومسك رقبة
مقدمهم بيده فاخرجه من باب الدير ولم يزل
ياخذهم واحد بعد واحد برقبته الى أن أخرجهم
الجميع واغلقو الباب، فحلفو اوليك السودان ان
ابصارهم عميت وان يده كانت على رقابهم مثل
الحجر الثقيل. وحكى لى الشماس يونس المذكور
ان في السنة الصعبه كان الدير مقصود اكثر من
العربان وغيرهم، وكان يدفع الكعك والقمح

سنة[1]، وقد تصل أكثر من عشرين[2]، بل إلى أربعين سنة[3]، وقد يجتمع عدم الأكل والشرب مع عدم النوم كما فى حالة عيسى بن نجم[4]، السالف الذكر، وربما يطلق على احدهم صائم الدهر[5].

ويخرج الولى بعد تلك الخلوة وذلك الحرمان يظهر الكرامات والخوارق[6]. ومع ذلك فهم ابطال المآدب، ولهم فى الشراهة كرامات.

هذا وقد عدّ السخاوى من جملة كرامات الأولياء «إنقلاب الأعيان، وكذا المشى على الماء، والكشف عن حال الموتى، وسماع كلامهم، واحيازهم بإذن الله تعالى، وطى الأرض لهم، والكلام على المستقبل والماضى واخبارهم بالمغيبات، وانفاقهم من الغيب، وإيثارهم على أنفسهم، وانطلاق البحر لهم، وغير ذلك من الكرامات التى شوهدت من كثير منهم»، ونحو ذلك ما قاله ابن عطاء فى لطائف المنن[7].

(١) السبكى طبقات الشافعية جـ٥/ ٣: ٧.
(٢) الضوء اللامع جـ١/ ٢٠١ ترجمة ابن عرب.
(٣) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٥٠.
(٤) تنبيه المغترين ١٣٠ وقد ظل على وضوء واحد.
(٥) ابن إياس تحقيق محمد مصطفى ٢/١ ـ ٣٥١، ٣٥٧ ترجمة شمس الدين التبريزى.
(٦) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٥٠.
(٧) تحفة الأحباب ٣٤٩. لطائف المنن ٣٥.

لكلمن يطرقه حتى لم يبق عند الرهبان الا قوت
يوما واحداً فقط وكانو معولين ان ياكلو ويصبحو
يخرجو من الدير هايمين على وجوههم، فطرقهم
قوماً يطلبو ما ياكلو فقال لهم: اعطوهم الذى
عندكم . فتذمرو الرهبان واغتاضو من ذلك فقال
لهم بسكينة وهدو: فى اخر النهار يصل اليكم من
عند المسيح ما يكفاكم ايام فلا تضيقو صدوركم.
فدفعو للقوم القمح الذى كان عندهم فقالو له:

---

*كرامات ما بعد الموت:

١ـ يمكن أن يدخل تحت هذا الإطار الكرامات السابقة واللاحقة لسهولة إدّعاء المتصوفة لكرامة أشياخهم المتوفين دون تقديم إثبات، هذا بالإضافة إلى الدافع المالى فيبالغ المنتفعون فى أكاذيبهم عن كرامات صاحب الضريح طمعاً فى النذور، وحتى لا تفتر حماسة الناس للولى بعد موته[١]، وخشية أن يسرق الأضواء منه ولى آخر على قيد الحياة. وفى كتاب عبدالصمد عن البدوى نلمح إتجاهاً واضحاً لإسناد أكثر الكرامات للأولياء المتوفين. فعبد العال فى ضريحه سمّر شخصاً، والشيخ وهيب يهدد اللصوص إذا حاولوا نهب الودائع التى يضعها أهالى قريته عند ضريحه، والشيخ عمر الشناوى الأشعث يخرج من قبره راكباً فرساً ليغيث زائريه من قطاع الطرق، ومثله الشيخ يوسف البرلسى، وخلف الحبيشى والشيخ عماد الدين وغيرهم[٢]. والهدف من هذا طمأنة القادمين لزيارة الأضرحة وإخافة قُطّاع الطرق. بل إن بعض الأولياء كان يذهب إلى ضريح البدوى يجاذبه أطراف الحديث حتى إن البدوى كان يخرج رأسه من الضريح يسأل عن الشعرانى إذا تخلف عن حضور مولده[٣]، وقال ابن

(١) عاشور البدوى ١٦٣.
(٢) عبدالصمد الجواهر ٢٥ : ٣٥ : ٧٠، ٧١.
(٣) عبدالصمد ٣٣، ٦٧، ٦٨.

ياراهب مـا لنا طاحـون. ولم يكن فى الدير الا
طاحونة فدفعها لهم فتذمرو الرهبان وقالو له: قلت
ان القمح يجينا عشية واخذت الطاحونة التى ليس
عندنا غيرها ودفعتها لهولا القوم فهل اذا جا القمح
نقرقشه او نصلقه؟ فقال لهم لا تقنطو فان الرب
ياتينا بما نحتاجه فانه جل اسمه لا يعوزه علم شى
فطيبو نفوسكم. حلف هذا يونس انه طلع الجوسق
فى الوقت الذى قال له فراى جملين موسقين قمح

الصائغ «من لم تظهر كرامته بعد وفاته.. فليس بصادق»[1]. وكان أبو السعود بن أبى العشائر «كرامته ظاهرة فى حياته ثم بعد وفاته»[2].

ومثله عبدالرحيم القنائى وقد ذكرها رواة مناقبة[3]، ذلك أن الصوفية يعتقدون إعتقاداً جازماً بحياة الولى فى قبره متمتعاً بكراماته متحرراً من قيود الدار الأولى. وقد عد الشعرانى من المنن معرفته بأوقات تواجد الولى المتوفى فى قبره[4].

* الطى:

١ـ ويقصد به إنتقال الولى من مكان لآخر فى لمح البصر أو نحوه، يقول ابن عطاء عنه «أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها فى نفس واحد»[5]، وعليه فقد كان المرسى يحضر يوما من الإسكندرية إلى المقسم حتى يسمع الميعاد ويعود فى نفس الوقت للإسكندرية مع شيخه الشاذلى[6]، ونقل البدوى ابن أخيه من جبل أبى قبيس إلى طنطا فى غمضة عين ثم رده إلى مكانه فى غمضة عين أيضاً[7]، وفى مناقب المنوفى باب عن طى الأرض له مع

(١) الكواكب السيارة ٢٨٧. (٢) تحفة الأحباب ٤٧٤.
(٣) مناقب عبدالرحيم مخطوط ٢٢ وما بعدها.
(٤) لطائف المنن ١٩٤. (٥) لطائف المنن ٣٥.
(٦) تعطير الأنفاس ٢٤٦. (٧) عبدالصمد الجواهر ٥٨، ٦١.

وصلو اليـه من بحـرى برسـالة، وعلى ظهـر احـد
الجملين طاحون فارسى صحيحة جديدة اكبر من
تلك التى دفعها، فسبحنا الله ومجدناه الذى أطلع
هذا القديس على ما هو مكتوم عن غيره وما ظهر
لنا من قـدسـه وعـجـايبـه. وحكـى ايضـاً انه
صـعـد مرة الى جـوسق دير ابو كـمـا ليـصـلى
واصـعـدو مـعـهم قـفـة مملوة كـعك فلما صـعـدو
طرقـهم قـوماً يطلبو ما ياكلوه فقال له القـديس

- -

عدم تحركه[١]، وكان السيوطى يصلى العصر فى مكة ثم يرجع، وقد يصطحب معه خادمه بشرط أن يغمض عينيه، وكان صوفى من أهل الخطوة يقول فى كل يوم زرت سيدى عبدالقادر الجيلانى البارحة، وزرت النبى عليه السلام البارحة، وزرت أبا الحجاج الأقصرى» فقال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى «يحتمل أن يكون صادقاً، فإن الأمر ممكن فإن الدنيا خطوة مؤمن»[٢].

٢ـ على أن هناك طيّا آخر للزمان، فقد اشتاق بعضهم لأهله فى حصن كيفا، فشاور المتبولى وكان ذلك بعد العصر فأدخله الخلوة، فرأى نفسه داخل بلده والتقى بأهله، ومكث عندهم يخطب فى الجامع ويقرىء الأطفال مدة تسعة أشهر، ثم اشتاق للشيخ فأذن له أبواه فخرج إلى موضع خارج البلد، فإذا هو فى خلوة الشيخ وفى نفس الزمان[٣]. وأقام جمال الدين الكردى يخطب فى بلاد الأكراد مدة ستة أشهر ثم رجع إلى مصر، وكل ذلك بعد صلاة العصر[٤].

(١) مناقب المنوفى مخطوط ٤١ : ٤٦.
(٢) شذرات الذهب جـ٨/ ٥٤، الطبقات الصغرى للشعرانى ٣٠، ٣١، ٤٤.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ ٢/٧٥.
(٤) الجواهر والدرر ١٦٤.

بسوس: اعطهم الكعك. فانزل لهم جميع ما فى
القفة وبقيت القفة مرمية فارغة فى اخر القلاية،
فلما فرغ من الصلاة طرقهم قوم اخر مستطعمين
فادار وجهه اليه وقال له: اعطى هولآ الذى
يصيحو من ذلك الكعك . قال يونس المذكور
فقلت له: ما دفعته [ألم أدفعه] لا وليك الذين
جاو من قبلهم ؟ فقال لى : ما رجعت انا مليتها؟
فقلت له: ما انت منذ صعدت الى هاهنا قايم

*** التطور:**

وهو على أنواع، فقد يتطور الولى لتصير له سبع عيون أو يتربع فى الهواء[1]، أو يتشكل فى صورة أسد أو فيل أو فقير أو أمير أو فلاح أو جندى ويوصف حينئذ بأن «التطور دأبه ليلاً ونهاراً»[2]، وقد يكون للولى أكثر من جسد فيرى فى أكثر من بلد فى وقت واحد[3]، وربما يحلف شخص بالطلاق أنه رآه فى عرفات مراراً وهو لم يذهب للحج[4]، وقد ذهب المرسى إلى خمسة ولائم فى وقت واحد[5]، وصلى محمد الحضرى الجمعة فى ثلاثين بلداً فى وقت واحد، يبيت فى الليلة الواحدة فى عدة بلاد[6].

*** فى قراءة القرآن:**

اتخذت الكرامات هنا وسيلة للهروب من تلاوة القرآن خاصة وأنها ظهرت فى أواخر العصر، فكان أبو السعود الجارحى يصلى بالقرآن فى ركعة أو ركعتين[7].

---

(١) الغزى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة جـ١/١٩٨ ترجمة الشيخ الغمرى.
(٢) الغزى نفس المرجع جـ١/ ٢١٣ ترجمة سويدان المجذوب، شذرات الذهب جـ٧/٣٥٠ ترجمة حسين الصوفى.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٩٤ ترجمة محمد الحضر.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١٤٩ ترجمة نور الدين الشوفى.
(٥) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٢٦٢.
(٦) أخبار القرن العاشر مخطوط ورقة ٥٧.
(٧) شذرات الذهب جـ٨/١٦٦، ١٦٧.

تصـلى مكانك ما برحت، متى مليتها؟ فقال لى:
بلا قـد مليـتهـا وهوذا هى مملوة كـعك فادفـع لهم
منه. فـمـضـيـت اليـهـا بامره فـوجـدتهـا مملوة كـعك
فانزلت بعـضـه لاوليك. وحلف يونس واشـهـد الله
على نفسه ان القديس بسوس لم يمسكها بيده مذ
فرغتها وجعلتها قدامى فارغة مطروحة على الارض
الى ان صلا وصليت معه الثالثة وهو فى مكانه ما
برح منه.

وذكر الشعرانى أن أبا العباس الحريشى ذكر أنه قرأ بين المغرب والعشاء خمس ختمات فقال نور الدين المرصفى «الفقير «يعنى نفسه» وقع له أنه قرأ فى يوم وليلة ثلاثمائة وستين ألف ختمة كل درجة ألف ختمة[1]» فقال له الشعرانى بالحروف يا سيدى؟ فقال نعم لأن الروح إذا تجردت عن الجسم الكثيف فعلت ذلك، ويقول «ويقع ذلك للأولياء لشرف قدرهم عند الله فإن أعمار هذه الأمة قصيرة، فأقدر الله خواص هذه الأمة على ذلك، ليرجح أحدهم فى الأعمال على عُبّاد الأمم السابقة الذين عاشوا نحو الخمسمائة سنة[2].

ويحكي الشعرانى عن نفسه أنه أحرم بصلاة الصبح خلف الإمام الذى افتتح سورة المزمل فسبَق لسانُ الشعرانى للقرآن، فقرأه من أول سورة البقرة ولحقه فى قراءة الركعة الأولى قبل أن يركع[3].

* رؤية الله سبحانه والملائكة والعرش:

إدّعى الصوفية رؤية الله فيقول المرسى إن له أربعين عاماً ما حجب فيها عن الله طرفة عين[4]، وكان تاج الدين النخال يتجلى عليه الحق فى الخلوة[5]، وجعل الشعرانى من المنن

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١١٢.
(٢) البحر المورود ٢٦٧، ٢٦٨.
(٣) لطائف المنن ٢٩٤.
(٤) تعطير الأنفاس ٢٢٠، ٢٢١.
(٥) طبقات الشاذلية ١٨ـ١.

ومعلوم مشهور ان يسطس الراهب عميت عينيه فاقام القديس بسوس شهر كامل يصلى عليه حتى انفتحت عينيه، وحكى لى الشماس سنهوت الراهب بدير ابو بشيه عن هذا القديس بسوس عجايب كثيرة يطول شرحها، منها انه تنبى على مرقس ابنه فى الرهبنه وهو اخو بقطر انه يغمضه بيده فى تلك البرية، وكان مقيم فى قرية تسمى ازرى [كفر الزيات]، فحضر اليه وقت وفاته وغمض عينيه.

تشريفه برؤية الله تعالى فى النوم خمس مرات، ويقول إن شخصاً ادعى أنه اجتمع به فى سوق الوراقين فأنكر عليه بعض العلماء، ويرى الشعرانى أن ذلك الإنكار غير صحيح[1]، وقد أطلع الله الشعرانى على عدد أصحابه وعرّفه بأنسابهم[2]، وأطلعه على السعداء من البشر والأشقياء منهم.

٢ـ وتوثقت علاقة الأولياء بجبريل، فكان عبدالرحيم القنائى يستشيره فيما يعن من مشكلات مريديه[3]، خاصة وأن مخاطبة جبريل لا يمنع منه لدى الصوفية عقل ولانقل على حد قول الدسوقى[4]، والكلام مع جبريل وغيره من الملائكة من كرامات الأولياء، وليست بمستحيلة ولا منكرة، وكتب الرقائق مشحونة بحديث الأولياء معهم، وقد ذكر بهاء الدين الأخميمى أن ملك الموت أخبره بعمره، واجتمع آخرون بعزرائيل وأوصى بعضهم ـ على ميت ـ منكراً ونكيراً[5]، وكان بعضهم يكلم «الملكين الكرام الكاتبين»[6].

(١) لطائف المنن ٣٨٢.
(٢) لطائف المنن ٣٩٣، ٣٥٢.
(٣) مناقب عبدالرحيم، مخطوط، ورقة ١٠، ١١.
(٤) حسن شمه، مسرة العينين، مخطوط، ورقة ٨.
(٥) لطائف المنن ٤٠٣ : ٤٠٤.
(٦) لواقح الأنوار ٣٣٥، والطبقات الكبرى للمناوى. مخطوط ورقة ١٠٦.

وحكى لى القديس مقاره الامنوت والقس زكير ريس دير نهيا والشماس ابو حبيب الدمنهورى ان القديس بسوس، رزقنا الله بركته، قال لهم ولجماعة من الرهبان قبل مضى امير الجيوش الى اسكندرية لمحاربة ولده الاوحد، ان فهد اخى يصير شهيداً باسكندرية وقد سرت له بذلك. وكان الأمر كما قال بعد مدة، وحكى لى جماعة من اولاده الرهبان بديرابو كما منهم مقاره النوبى انه اعلمهم

٣ـ واتخذ الصوفية من العرش مجالاً لكراماتهم حتى أن الدسوقى يقول «أنا العرش أنا الكرسى أنا اللوح أنا القلم»[١]، وتواضع باقى الأولياء. فادّعوا أن أبصارهم تطمح حتى تحيط بالعرش»[٢]، وكان الخضرى يقول «لايكمل الرجل عندنا حتى يكون مقامه تحت قوائم العرش»[٣]، واطلع أحدهم على مقام الشاذلى فوجده عند العرش[٤]. وسُمى ياقوت بالعرشى لأنه كان دائماً ينظر للعرش وليس فى الأرض سوى جسده[٥]، ويقول المرسى «والله إنى لأعرف العرش كما أعرف كفّى هذه[٦]»، وادعى كثير من الأولياء بأنه يعلم أزقة السموات أكثر من علمه بأزقة الأرض[٧].

* الأسد:

إستغله الصوفية فى كراماتهم خاصة وأن السباع كانت تهدد الحجاج[٨].

(١) حسن شمه مسرة العينين مخطوط ورقة ١٠.

(٢) الجواهر والدرر ١٦٦. (٣) أخبار القرن العاشر ٦٣.

(٤) لطائف المنن ابن عطاء ٤٤.

(٥) عيون الأخبار جـ٢/٤٤٢، الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٣.

(٦) تعطير الأنفاس مخطوط ٢٧٣.

(٧) طبقات الشاذلية ١١٨ ترجمة تاج الدين النخال، أخبار القرن العاشر ١٧٥ ترجمة ابن عنان.

(٨) السلوك ٨٨٨/٢/٣.

بقتل اخى فهد قبل وصول الخبر اليه بقتله بيومين وانهم تقصو عن الوقت الذى قتل فيه فوجدوه الذى اخبرهم فيه بقتله.

وكان فى ايام الاب انبا اخرسطودلوس حبيس فى صومعة سنجار اسمه بطرس له عجايب كثيرة منها ان اصبعه انصبغ [بالاحمر] من الكاس المقدس، واقام خمسة عشر سنة مربوط بخرقة، وحدثنى يسطس السنجارى القس ببيعة ابو مرقوره

والأسد يتصاغر فى الكرامات الصوفية حين يفترس من ينقذه الولى، وربما يحمل عليه الولى الحطب أو يركبه، أو يلجأ الأسد لبيت الصوفى مستجيراً من جرح[(١)].

* الذهب:

أدى فقر الصوفية إلى إتخاذهم قلب الأعيان ذهباً جانباً هاماً من كراماتهم تفننوا فى حبكها، مع الحرص على انتهاء الكرامة بأن يعود الذهب إلى حالته الأصلية. وربما يعلن الولى مقدرته على قلب الشيء ذهباً ـ بدون قصد ـ فيتحول ما يشير إليه إشارة عابرة إلى ذهب، ومن الأشياء التى حولت ذهباً الطوب والحطب والهواء والحجر والماء وحتى الباذنجان[(٢)].

وتفرد الشاذلى بأن الله أوحى إليه ـ فيما يزعم ـ أن يجعل فى بوله ما يشاء يكن ذهباً، ويبدو أنه كان يتحرج من ذلك فيأمر خادمه أن يبول على الحجر فيحوله ذهباً[(٣)]، وكان آخر كلما استنجى بحجر تحول ذهباً[(٤)].

(١) الكواكب السيارة ٢٠٦ : ٢٠٨، بهجة الأسرار ١٩/٢، حياة الحيوان للدميرى ١٥/٢ : ١٦.
(٢) روض الرياحين ١٩٧، الكواكب السيارة ٣١٨. مناقب الحنفى ١٧ : ٢٢١، المدخل لابن الحاج جـ٢/١٧٤، ١٧٥.
(٣) تعطير الأنفاس ٣١، ٤٩.
(٤) المدخل لابن الحاج جـ٢/١٧٥.

الشـهـيـد الجليل بمصـر، عن الذى طلع بعـده إلى الصـومعة المذكورة أنه راه واصبعه مشدوداً صبغه، ولم يكن يحله ولا يريه لاحـد، وانه كـان عنده لما مـرض قـبل وفـاته بثلثـة ايام وانه سـاله ان يريه[أصـبـعـه]، ولم يزل يلطف به ويضـرب له مطانوات الى ان كشفه له فراه احمر كانه في تلك السـاعـة غطسـه في دم. وحكى لى القس كـيـل السنجارى في بيعة السيدة الطاهره، التى فى قرية

---

* الطعام:

كان كسابقة مجالاً للكرامات، واحتوت كتب المناقب على الكثير منها، وهى على أنواع منها إحضار ما لذ وطاب من الطعام من حيث لا يدرى أحد[1]، أو أن الولى يميـز الطعـام الحلال والحرام حين يكون مدعواً، واشتهروا بهذا التخصص لأن حياتهم قامت على الأكل من طعام الناس حراماً أو حلالاً، حتى أن مباراة عقدت بين وليين حضرها الظاهر بيبرس فيما يرويه الصوفية[2] فى هذا الشأن.

وحكيت كرامات على مثال ما روى فى السيرة النبوية من أن الطعام القليل يكفى جمعاً عظيماً من الناس، وبولغ فى ذلك على عادة الصوفية[3].

ولم يتحرج الصوفية عن وصف تهالكهم فى حب الطعام، فكان من كرامات ابن عبدربه الصوفى أنه أكل طعام مولد بأكمله، وأكل مرة لحم بقرة كاملة[4]، وكان الشيخ دمرداش إذا غلب عليه الحال يأكل الأردب من الفول، وعمل له الأمير أقبردى الدودار سماطاً فلم يدعُ أحداً من أصحابه، وأكله بنفسه، وكان يكفى خمسمائة نفس، ولم يبق شيئاً، فقال لم أشبع

(1) تعطير الأنفاس ٥٥، ٥٦، ٢٣٣، ٢٢٤، ٢٦٣، ٢٦٤.
(2) الكواكب السيارة ١٠٦، ١٠٧، ١٣١، تحفة الأحباب ٢٤٧، تعطير الأنفاس ٢٣٠.
(3) لطائف المنن ١٩٠، ٤٩٠.
(4) شذرات الذهب جـ٣٢٣/٧.

تسمي الجديديه[مركز رشيد]، انه كان يقدس في الصومعة المذكورة بسنجار لهذا القديس بطرس الحبيس فيه في ايام الاعياد وغيرها، وانه قال له: يا ابى القديس انا ما اشبه اقل تلاميذك؟ فلماذا لا تستدعيني حتى اقدس لك ولا تقدس انت لنفسك. قال له: فلا تستقصى على. قال لى كيل المذكور: فقلت له ان لم تعرفني السبب والا مضيت عنك ولا ارجع اقدس لك؟. وضربت له

فأتوه بكسر يابسة، وقيل له كيف أكلت ذلك كله؟ فقال: رأيت شبهات فأحضرت طائفة من الجن فأكلوه وحميت الفقراء منه[1].

* كرامات تافهة:

١ـ أصبح إدّعاء الكرامات ميداناً مباحاً أمام كل من هب ودب من مدّعى الصوفية، هذا بالإضافة إلى أن الكرامات فى حد ذاتها تعتبر إنعكاساً لحياة المتصوفة أنفسهم، فعدّ من كرامات الحنفي أنه «إذا وضع يده على الفرس الحرون لم يعد إلى حرونته»[2]، على أن هذا التفكير إنعكس بدوره على نظرة العصر لكرامات المتصوفة أنفسهم، فنجد أبا المحاسن يعد من كرامات يحيى الصنافيرى المجذوب أنه كان يغطس فى الماء البارد فى الشتاء وفى شدة الحر يجلس فى الشمس عريان مكشوف الرأس، ومن كراماته أيضاً أن امرأة أتته وقالت يا سيدى إن لى بقرتين سُرِقتا فقال لها «حُطى الفول فى المدود وهما يأكلان الفول، فمضت عنه، وجعلت الفول فى المدود حتى كان الليل أقبلت البقرتان إلى المدود وأكلتا الفول»[3]. وكان الولى إذا مات فى خانقاه مثلاً تشترى ثيابه بأغلى الأثمان ويعلن أن ثمنها قدر ما أخذه من معلوم أى مرتب الخانقاه[4].

(١) الغزى الكواكب السائرة جـ١٩٣/١.
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٨٨/٢.
(٣) المنهل الصافى جـ٤٨١/٥.
(٤) أنباء الغمر جـ٣٨٤/٣ ـ ٣٨٥.

مطانوه فــقــال لى: ولا بد لك؟. قلت له : نعم. فــقــال لى : قــدست دفــعــة فى كنيــســة دمــرو [الخمـارة(*) قبل طلوعى الى هاذى الصومعة فلما جـعلت اصـبـعى على حـافت الكاس وقلت هذا يصـيـر دم المسـيح فـاض الكاس حتى امتـلا الى شفتيه وانصبغ اصبعى] وغشى على ولحقنى رعب عظيم، ومن ذلك اليوم شددت اصبعى حتى لا يراه احد وما قدست الى يومى هذا ولا اقدس ابدا.

(*) دمروا الخمارة: هى احدى ثلاث قرى فى دمروا.

٣ــ لذا كان من المقبول أن يتقبل الرأى العام إدّعاءات الصوفية بالغاً ما بلغت تفاهتها. فكان حـسن إبريق العـابد إذا وقع الدلو منه فى البـئـر يأمر الماء. أن يرتفع بالدلو وقـد أعطى انسـاب جميع الحيوانات، وكـان حـسن الطراوى إذا فقد ماء الوضوء ينزل عليه ولى من الـسماء فى عنقه قربة مملوءة من ماء النيل[١]، ويدعى الشعرانى أنه كشـف عنه الحجاب فى عام ٩٢٣ حتى سمع تسبيح الجمادات والحيوانات من البهائم وغيرها، ويسمع من تكلم فى أطراف مصر وقراها إلى سـائر أقـاليم الأرض ثم إلى البحـر المحيط حـتى صـار يـسـمع تـسـبيح الـسـمك[٢]، ووحلت سـفينة فـقال أحـد الأوليـاء «إربطوها فى بيـضى بحبـل وأنا أنزل وأسـحبـهـا، فـفـعلوا فـسحبها ببيضـه حتى تخلصت من الوحل إلى البحر»[٣]، وكـان أحـدهم يقـسم الأرزاق بين الحيـوانات والطيور زمن القـحط[٤]، وكان آخـر يضـرب الأرض برجله فـينبع الماء ثم يضـربها ثانية فيخرج منها قدحاً يضع فيه الماء[٥]، وكان الشيخ محـمد الكناس من أصـحاب البدوى يكنس مقام البدوى والجيلى والرفاعى وعدة مقامات فى بلاد المغرب وغيرها ويرجع إلى طنطا فى ساعة[٦]. وخرج الشيخ البلتاجى من قبره ليعيد حمارة ضائعة ليوسف العجمى[٧]، وكان

(١) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٦.
(٢) لطائف المنن. ٢٣.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٧٨.
(٤) بهجة الأسرار للشطنوفى جـ٢/٢٨.
(٥) الإلمام مجلد ٧٦/٢.
(٦) الطبقات الصغرى للمناوى مخطوط ورقة ٢٦٥.
(٧) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٤.

وكان بنوسا [مركز أجا] شيخ اطروش قديس حبيس في صومعة اسمه شنوده فانفذت له اساله ان يدعو لي ولاخي فهد بالخلاص وكنا يوميذ في يد امير الجيوش في القبض، فعاد الى الجواب منه غداة يوم الجمعة قايلا: قد خلصكم السيد المسيح اليوم. فلما كان ثاني يوم وصل الى كتاب من اخى من مصر يذكر فيه وصوله اليها، وانه دخل الى امير الجيوش غداة يوم الجمعة بمال باع به الرباع

أبو العباس الحرار حين يستنجي تستحلفه الأحجار بالله ألا يستنجي بها، وأخيراً يجد حجراً يقول له إن الله أمرني أن أتطهر بك[1]!!

٤ـ واخترعت الكرامات الصوفية نوعاً من الأولياء يطيرون في الهواء، وقد أولم الشيخ البسطامي وليمة فاخرة لهم فتساقطوا من الهواء وأتوا عليها[2]، وقد طار المرسي في الهواء ليستوثق من أن خادمه يكذب عليه حين قال له أنه سقى الفرس[3].

وعكست الكرامات الصراع بين الأولياء، فقيل عن حبيب المجذوب أنه كان كثير العطب ليست له كرامة إلا في أذى الناس[4]. ومد أبو عبدالله المكي يده من المغرب فهدم الخلوة على زروق الفاسي في بولاق، فنجاه الله ببركة أبي العباس الحضرمي[5][*].

(١) الطبقات الكبرى للمناوي ٢٦٤.
(٢) مناقب الحنفي ٣٨٩.
(٣) تعطير الأنفاس ٢٤١.
(٤) الطبقات الكبرى للمناوي ٣٨٥.
(٥) طبقات الشاذلية ١٢٠.
(*) انظر: العقائد الدينية في مصر المملوكية. د. أحمد صبحي منصور سلسلة تاريخ المصريين. رقم ١٨٦. الهيئة العامة للكتاب القاهرة. عام ٢٠٠٠.

التى كانت لى باسكندرية، وانه اخذه منه وسامحه بالباقى من خط كنت الزمت به حتى كتبته بخمسة الف دينار وهو الفى دينار ورفع عنه الترسيم، ويقول فيه: وقد احسن الله خلاصنا فى هذه الساعة. وهى الساعة التى ذكرها شنوده القديس الحبيس. وحكى لى خالى صدقه ابن سرور نيح الله نفسه عن حكاية مرقوره الشماس ابن القس وزير الفوى، انه كان بدير ابو يحنس راهب

---

١٢. نهاية دولة سلاطين المماليك:

شهد القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر للميلاد ـ تدهورا سريعا فى أوضاع دولة المماليك، وهو تدهور يرجع فى المقام الأول الى اختلال نظامهم الاجتماعى والحربى من ناحية، وسوء سياسة السلاطين الداخلية من ناحية أخرى. فبعد أن كان المماليك يجلبون صغارا وينشئون نشأة قويمة أساسها الطاعة والنظام، صاروا يجلبون الى مصر كبارا. بل أن بعضهم جاء بعدبلوغ سن الرشد[١]. ثم ان السلاطين عدلوا عن تسليمهم للفقيه«ليربيهم بالآداب والحشمة والحرمة»[٢]، وتركوهم وشأنهم، كما سمحوا لهم بالنزول من طباقهم وتهاونوا معهم فى أخطائهم. وترتب على ذلك أن فقد المماليك روح النظام والطاعة،وهى الروح التى ميزت أسلافهم الأوائل، وحلت محلها روح التمرد والعصيان. فاذا وزع السلطان دراهم الكسوة على مماليكه امتنعوا عن أخذها وطلبوا المزيد، بل بلغ الأمر ببعضهم أن قتل أستاذه من أجل تحقيق أطماعه الخاصة[٣]. وساعد على هذه الفوضى انقسام المماليك شيعا وأحزابا متطاحنة فى عهد سلطان واحد، فنسمع فى عهد السلطان المؤيد شيخ عن المماليك الأشرفية والظاهرية والمؤيدية. ولم يقتصر الأمر على الصرع فى شوارع القاهرة بين طوائف المماليك، مما أثار نوعا من الفوضى وترك أثرا سيئا فى أوضاع البلاد وخاصة الاقتصادية وانما أخذت كل

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٧٣.
(٢) المقريزى: كتاب السلوك، ج٢، ص ٥٢٤، حوادث سنة ٧٤١ هـ.
(٣) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج١ ص ١١٣، السخاوى: التبر المسبوك، ص ٣٥٢.

قديس يسمى كييل ابن الجندى، وانه مضى اليه برسالة من ابى البدر ابن صقيل الرشيدى اخو تادرس اسقف رشيد، وهذين هما خالين لخالى صدقه ابن سرور المذكور، وكان صحبة هذا مرقوره الفوى رجلا نصرانى من اهل فوه(*)، قال مرقوره: كلما قرعنا على كييل ابن الجندى باب منشوبيته خرج وفتح لنا الباب وقال لذلك الرجل يافلان وسماه باسمه ما خفت من السيد المسيح ربنا لما

(*) فوه: تقع على فرع النيل قرب رشيد بينها وبين البحر ستة أميال. وهى مدينة تجارية وميناء هام. والفوه هى العروق التى تصبغ بها الثياب الحمر. اسمها القبطى «بوى» وقد قلبت الباء فاء كما

طائفة تتجسس على الأخرى. فاذا مرض مملوك من غير طائفته، أسرع مملوك آخر الى أخذ اقطاعه حيا كان أو ميتا. كذلك أدى عدم انضباط المماليك الى تعرضهم لحريم الأهالى وأولادهم، حتى أمسوا رمزا للسلب والنهب والإجرام وعنوانا للفوضى وعدم الاستقرار فى البلاد[1]. وهذا ما صار اليه المماليك على أيام المقريزى المتوفى سنة ١٤٤١م (٨٤٥هـ)، الذى وصف المماليك على أيامه بأنهم «ليس فيهم الا من من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب». أما المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الذى ينحدر من أصل مماليكى والذى توفى سنة ١٤٦٩م (٨٧٤هـ) فقد قال عن المماليك فى أيامه بأنهم «ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف، جهادهم الاخراق بالرئيس، وغزوهم فى التبن والدريس!!»[2].

هذا الى أن فساد النظام الاقطاعى فى أواخر عصر المماليك أدى اختلال نظام الجيش نفسه، لأن الجيش قام على أسس اقطاعية بحتة. وكانت أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد فى اقطاعهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة فمن أراد النزول عن اقطاعه حمل مالاً الى بيت المال بحسب ما يقرر عليه، الأمر الذى أدى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش[3].

(١) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٣٤.
ابن قاضى شهبة: الإعلام، ج٤، ص ١٨٦.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٩.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٢١٩.

قلبت فى فاو والفيوم وادفو وأطفيح وغيرها. وهى الآن مركز هام تابع لمحافظة كفر الشيخ.

فسقت بالصبى ليلة الاحد فى الطاحون بفوة. فسقط الرجل على الارض وتعلق برجلى كيل وبكا، وساله ان يستغفر له فضمنه وقال له: ان انت تبت فانا اضمن لك الغفران. فتاب لوقته فقال له: طب نفساً فان الرب قد غفر لك. ثم قال لى: اهلا بالشماس مرقوره ابن وزير القس جيتنى برسالة من ابى البدر ابن صقيل [الرشيدى] قول له عنى انت رجل جيد غير انك اذا صليت تصيح

ومن ناحية أخرى، فان سلاطين المماليك فى القرن التاسع الهجرى اتبعوا سياسة اقتصادية قاسية، فتطرفوا فى الاحتكار - مثلما فعل برسباى وقايتباى بوجه خاص - وأمعنوا فى جمع الضرائب مقدما دفعة واحدة، فضلا عن التلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة، ومضاعفة المكوس والرسوم، مما سبب ضائقة اقتصادية خطيرة فى البلاد سنة ١٤٩٢م (٨٩٧هـ)[١].

وزاد الطين بلة أن جمهورية جنوة أخذت تبحث عن طريق جديد الى الشرق بدلا من طريق مصر، بعد أن أدت سياسة المماليك الاحتكارية الى ارتفاع أثمان التوابل ارتفاعا غير محتمل، حتى انها صارت تباع للتجار الأوربين فى الاسكندرية ودمياط بثمن يفوق أربعين مرة أثمانها المستوردة بها الى مصر، وكان أن نجح البرتغاليون فى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد (أوائل القرن العاشر للهجرة) فى الوصول الى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا، وبذلك حققوا نصرا عالميا جديدا واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوروبية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى، بثمن يبلغ ربع الثمن الذى كانت تباع به فى الاسكندرية ودمياط. وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجئ فى طرق التجارة، مما حرم المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم. وعبثا حاول السلطان الغورى أن يعيد عقارب الساعة الى الوراء اذا انتصر البرتغاليون فى النهاية على الأسطول المماليكى فى موقعة

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٧ (تحقيق محمد مصطفى).

كثير فاخفط [فأخفض] صوتك قليلا اذا صليت.
ثم قال لى جواب الرسالة من غير ان اقول له شيأ،
فتعجبنا من قدسه وعدنا نسبح الله. وكان والد هذا
كـيـل الراهب جندى يخـدم السلطان وهو على
دينه وخدمته بالقاهرة فسال كيل السيد المسيح
فيه ان ياتى به اليه ويهديه ان يتعمد، فبينما هو
ذات يوم فى منشوبيته قرع عليه ابوه الباب فخرج
اليه فوجده راكب فرسه بقوسه ونشابه وجعبته

- -

ديو البحرية سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ[١]). وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوروبى جميعا. وبذبول تلك التجارة ذبلت الدولة نفسها. كان ذلك فى الوقت الذى لاح على مسرح الشر ق الأدنى خطر جسيم قدر له أن يجهز على سلطنة المماليك فى مصر والشام، وهو خطر الأتراك العثمانيين.

اما هؤلاء العثمانيون فهم من الأتراك اضطروا فى بداية القرن الثالث عشر للميلاد ــ السابع الهجرى ــ الى أن يتحركوا تحت ضغط التتار من اقليم خراسان حتى استقر بهم المقام فى آسيا الصغرى. ولم يلبث أن أدى انهيار سلطنة سلاجقة الروم فى أوائل القرى التالى الى اتاحة فرصة للعثمانيين فأخذوا يتوسعون بسرعة فى آسيا الصغرى والبلقان حتى سقطت القسطنطينية فى أيديهم سنة ١٤٥٣م (٨٥٧هـ)، وبذلك قاربت الدولة العثمانية فى تاريخها نقطة مفترق الطريق، فهل تواصل توسعها فى وسط أوروبا أم تتجه الى التوسع فى الشرق؟ وعندما اختار العثمانيون الطريق الأخير صار الصدام بينهم وبين المماليك أمرا لامندوحة عنه،اذ كان لابد لاحدى هاتين القوتين اللتين تتزعمان العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى من أن تسحق منافستها لتستأثر بزعامة المسلمين فى المنطقة[٢].

(١) المصدر السابق، ج٤ ، ص ٨٢ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ .
(٢) محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ (بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥١).

وسلاحه فتلقاه بفرح وادخله المنشوبية وساله عن سبب مجيه فقال له: شخص ما اعرفه ساقنى من القاهره الى هاهنا بغير اختيارى. ففرح به ووعظه وعرفه شرف دين المسيح وفضايله ودعاه اليه فاجابه وتعمد واقام عنده زمان وكانت عدته معلقه فى المنشوبيه مدة طويلة والرهبان وغيرهم يشاهدوها. واعلمنى ابو يعقوب الراهب ان كييل المذكور وقف يصلى ليلة الاحد بين يدى صورة الست السيدة مرتمريم العذرى الى بالغداة، فكلمه

وفى الصراع الذى قام بين المماليك والعثمانيين كان من الصعب أن يصمد المماليك بعد أن اختل نظامهم فى الداخل، وفقدت دولتهم المورد الأول لثروتها وقوتها. وهكذا حلت الهزيمة بالسلطان الغورى عند مرج دابق ـ قرب حلب سنة ١٥١٦م (٩٢٢هـ)[1]. ورغم الشجاعة الكبيرة التى أبدها طومان باى آخر سلاطين المماليك ـ فان السلطان سليم العثمانى استطاع الانتصار عليه، والسيطرة على مصر. وتروى المصادر أنه عندما وقع طومان باى فى قبضة غريمه السلطان سليم، فانه واجهه فى شجاعة، وقال له «الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل. وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لاأنتم أفرس منا، ولاأشجع منا، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة القتال!!». وكان أن سيق طومان باى الى باب زويلة حيث شنق سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ).

وهكذا انتهت دولة سلاطين المماليك، وهى الدولة التى كانت فيها مصر قوة مستقلة ذات نفوذ عريض فى الشرق والغرب جميعا، ونشاط واسع فى ميادين الحرب والسلم. وبنهاية هذه الدولة، دخلت مصر مرحلة أخرى من مراحل تاريخها الحافل الطويل[*].

(١) ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ١٢٢ ـ ١٣٦.

(*) انظر: تاريخ مصر الإسلامية: أ.د. سيدة إسماعيل كاشف، أ.د. جمال الدين سرور، أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور. أعدها للنشر: أ.د. عبدالعظيم رمضان. سلسلة تاريخ المصريين رقم ٦٣. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٣.

ابليس خزاه الله من خلف الصورة وقال له: قد تعبت ياكييل يكفي. فزجره كيل كعادته معه وقال له: جيت ايضا؟. وصلب عليه فصار زوبعة سودا ومضى عنه يدوى. وبعد هذا قال لجماعة من الرهبان اذا كان يوم الجمعة وقت الساعة التاسعة احضرو عندى لاودعكم فانى راحل عنكم فى ذلك اليوم، فلما كان يوم الجمعة حضرو عنده فوقف يخدمهم داخل وخارج فى جملة

المجاعات فى العصر الفاطمى وأسبابها(*)

لما كان من المتعارف عليه لدى المؤرخين أن حالة فيضان النيل نقصاً أو زيادة، تؤثر على حياة المصريين أن رخاء أو قحطاً ، فإنه من البديهى إن نحاول أولاً التعرف على حدود الفيضان النافعة والضارة إبان فترة الدراسة ، وقبل التعرض لأحداث المجاعات وتحليل أسبابها.

ورغم وجود المقاييس على النيل، والمناداة اليومية على مقدار زيادة النيل، مما يتيح لعامة الناس معرفة حد الوفاء، إلا أننا ندهش أمام حجم التناقض الملحوظ فى كتابات المؤرخين بهذا الشأن.

فإذا كان من المتفق عليه بين معظم المؤرخين أن حد الوفاء عند غزو العرب كان الستة عشر ذراعاً، والتى كانت تكفى لزراعة أرض مصر، ويفيض من الغلات مايكفى لسنتين كما يذكر المقريزى نقلاً عن القضاعى[1] (ت ٤٥٤هـ)، فإنه ومنذ منتصف القرن الرابع الهجرى تقريباً، نجد اختلافاً واضحاً فى ذكر حدود الوفاء، وما يتطرق إليه الحديث عند سرد أحداث المجاعات ومستوى الفيضان وقتها.

فعلى حين يذكر المسعودى أن ١٦ ذراعاً تكفى لزراعة ثلاثة أرباع أرض مصر، وان ١٧ ذراعاً

(*) انظر: مجاعات مصر الفاطمية. د. أحمد السيد الصاوى. دار التضامن. بيروت ١٩٨٨.
(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ص٥٩. القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ص ٢٩٤.

السلامة ويتحدث معهم، في الساعة السادسة فقام الى المحم[الحمام= المغطس] فافاض عليه ما[ء] حار ولبس ثياب نظاف قد اعدها لنفسه وانضجع قدامهم وقال اقرو على المزامير، وكان يتحدث معي الى الساعة التاسعة ثم ودعهم وتنيح.

كان وصل من الاندلس الى اسكندرية انسان من مقدمي الاندلس يعرف بابي يونس وهو قرابة

فيها كامل النفع، وأن ١٨ ذراعاً تؤدى إلى الإستبحار وتلف مراعى الماشية[1]، نجد أن المقريزى عند تعرضه للمجاعة التى حدثت عام ٣٥٤هـ /٩٦٥م بسبب نقص الفيضان، يشير إلى أن مبلغ الزيادة كان سته عشر ذراعاً وأصابع[2]. وفى هذا الصدد فإن د. المناوى رجح ما ذكره المسعودى بحكم قربه من هذا التاريخ إذ انتهى من وضع كتابه حوالى عام ٣٣٢هـ /٩٤٤م[3]. غير أن الأمر فى حاجة إلى أكثر من ترجيح رأى على آخر استاداً إلى عامل الزمن فقط، ونود أن نلفت النظر هنا إلى أمور مهمة:

١ - أن حد الوفاء كان يتغير بتقادم الزمن بسبب ترسبات الطمى الذى يجلبه الفيضان، مما يؤدى إلى ارتفاع منسوب التربة، وإن كان هذا التغير الطبيعى يتسم بالبطء، نظراً لوجود ترسبات طينية أيضا في مجرى النهر، الأمر الذى يعنى إرتفاع منسوب النهر بالتالى.

٢ـ أن هذا الحد كان شديد التأثر بحالة الجسور والترع، ومدى إهتمام الحكومات بمشروعات الرى، فإذا ما وضعنا فى الحسبان حالة الاضطراب التى سادت مصر منذ سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤ـ٩٠٥م ودوام نزاعات الجند، وتوالى الأزمات الاقتصادية،

(١) المسعودى: مروج الذهب ـ ج١ص ٢١١ـ ٢١٢.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٢
(٣) د. محمد حمدى المناوى: نهر النيل فى المكتبة العربية. القاهرة ١٩٦٦ ص ١٦٨هامش (٤).

لصـاحب المرية(*) المدينة وكـان بينى وبينه مـودة لنزوله فى دار الوكالة الذى لى، وكنت قد سمعت من جماعة تجار من الاندلس شيوخ ان بالاندلس عند بيعة السيدة الطاهرة مرتمريم شجرة زيتون تورق وتثمر فى ليلة عيد تلك الكنيسة كل سنة، ووقع اجتماعهم على صحة هذا الامر(*)، فلما وصل الاندلسى المذكور سالته عن صحة ذلك فاستدعا غلاماً له اسمه رشيد، وكان غلاماً عاقلا

(*) المرية: ميناء وعاصمة اقليم المرية فى الجنوب الشـرقى لأسبانيا. كانت فى هذه الفترة تحت حكم بنو صمادح من ملوك الطوائف.

(*) يورد الدكتـور عبـد العـزيز الأهوانى فى كتاب «نصوص عن الاندلس» نشره معهد الدراسات الاسلامية. مدريد ١٩٦٥م النص التـالى عن ابن الدلائى، أحـمـد

فى مدة حكم الأخشيديين، لأمكننا القول بأن تدهوراً قد طرأ على حد الوفاء نتيجة لإهمال مشروعات الرى، إلا أن هذا التدهور لم يكن ليعنى أن ١٦ ذراعاً هو حد المجاعة خاصة وأن النيل كان يصل إلى هذا الحد فى سنوات لاحقة ولم تحدث مجاعات.

٣ـ أن ثمة ملاحظة جديرة بالإلتفات ، إبداها المقريزى فى معرض حديثه عن المجاعة التى روعت البلاد عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣ـ١٣٩٤م إذ ذكر أن عادة بلاد مصر منذ الزمن القديم، إذا تأخر جرى النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين(١). وفسر ذلك بأن السنة الأولى تقل الغلال فيها، ويزداد الطلب عليها، فاذا ما وفى النيل العام التالى، كانت الحاجة ماسة إلى الحبوب لبذرها، فيزداد إرتفاع أسعارها. وعلى ضوء ذلك يمكن فهم سبب هذه المجاعة التى وقعت عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م- رغم بلوغ النيل ١٦ ذراعاً حسب المقريزى و١٦ ذراعاً و١٥ أصبعاً حسب «أبو المحاسن» ـ على أنها استمرار للمجاعة التى شملت البلاد منذ ٣٥٢هـ /٩٦٣م، حيث بلغت الزيادة فى سنة ٣٥٣هـ خمسة عشر ذراعاً وأربع أصابع(٢). أما إذا صح ما ذكره بن أيبك الدوادارى عن إرتفاع الفيضان (١٦ ذراعاً و١٥ أصبعاً عام ٣٥٣هـ و١٤ ذراعاً و١٩ أصبعاً عام ٣٥٤هـ) فإن مجاعة عام ٣٥٤هـ يكون سببها هو نقص الفيضان، بينما ينطبق التفسير الذى أورده المقريزى على مجاعة سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٤١ ـ ٤٢.
(٢) المصدر السابق ص ١١.

بن عمر بن أنس العذرى (ت ٤٧٨هـ): «... ومن الغرائب زيتونة فى كنيسة فى حومة بجبل على مقربة من مدينة لورقة وبقرب حصن هناك يعرف بميريط (سرنيط)، إذ كان أوان صلاة العصر من اليوم الذى يستقبل أول ليلة من شهر مايو نوّرت الزيتونة فلا يأتى الليل إلا وقد عقدت فتصبح من تلك الليلة والزيتونة كلها قد أسود ثمرها من الزيتون وطاب. وقد عرف الناس ذلك ووقفوا عليها، وأرسل الأمراء قديماً إليها. وقد

يتولى جميع ماله، فقال له: يا رشيد هذا الشيخ قد استعلم منى حال الشجرة الزيتون التى عند البيعة وانت كنت معى عند مضى اليها فاجلس حتى احدثه ليلا يغيب شى عنى فتذكرنى به. ثم التفت وقال : انا كشفت حال هذه الشجرة الزيتون لاننى كنت اكذب من يحكى عنها فسرت الى موضع هذه الشجرة وهى عند كنيسة تعرف بمريم، بينها وبين المرية المدينة ثلثة ايام، وهو موضع يسمى

ومهما يكن من أمر، فقد أصبح واضحاً أن ١٦ ذراعاً لم تعد كافية لزراعة جميع أراضى مصر، حسبما ذكر المسعودى وحسبما تؤكد الروايات التاريخية، وذلك قبيل العصر الفاطمى وإن كانت لاتعنى القحط.

أما فى العصر الفاطمى فإن التوصل إلى معرفة يقينية لحد الوفاء يعد أمراً مشوباً بالمخاطر، فعلى حين يؤكد المقريزى أن زيادة النيل النافعة هى ١٦ ذراعاً إلى ما بعد سنة ٥٠٠هـ، وأن زيادة ١٧ ذراعاً تزيد خراج مصر ١٠٠,٠٠٠ دينار لما يروى من الأراضى العالية[١]، يشير هو نفسه إلى إستمرار الغلاء أعوام ٣٥٨هـ ، ٣٥٩هـ ٣٦٠هـ، والتى بلغ النيل خلالها ١٦ ذراعاً و٢٠ إصبعاً، ١٧ ذرعاً ٢١ إصبعاً، ١٧ ذراعاً، و٢١ إصبعاً، على التوالى، وأن الأسعار إنخفضت وأخصبت الأرض وحصل الرخاء عام ٣٦١هـ/١٧١- ٩٧٢م، على الرغم من أن النيل بلغ ١٧ ذراعاً وأربعة أصابع[٢]. وإذا أمكن القول بأن سبب هذه المجاعات يعود إلى اضطراب البلاد عند الفتح الفاطمى، فإن المقريزى يقرر صراحة أن المجاعة التى وقعت عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م سببها نقص الفيضان الذى بلغ ١٦ ذراعاً وأصابع[٣]. ثم يزيد ناصر خسرو،

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ص٦٠- ٦١.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٣.
(٣) المصدر نفسه.

«انظر واعجب» فنصبت خيمتى تحت الشجرة وهى على باب الكنيسة وليس عليها يوميذ ورقة خضر، وكان معى اربعين فارساً من اصحابى، وكان ليلة عيد تلك الكنيسة وقد حج لها الناس من كل موضع، فبتنا هناك الى بكره، فلما طلعت الشمس يوم العيد اخضرت الشجرة والناس كلهم ينظروها وتفتحت اغصانها واينع ورقها ثم تكاثر الورق وظهر الثمر وتكون الزيتون وتزايد وتكاثر الى

قطعها أهل تلك الناحية لكثرة الوارد عليهم بسببها فبقيت مقطوعة زماناً، ثم لقح الأصل بعد ذلك، وهى باقية إلى اليوم على حالها الموصوف.
وقد رأيت من قدم خبرها أن إبراهيم ابن يعقوب الاسرائيلى الطرطوشى أخبر أن ملك الروم برومية سنة خمسين وثلثمائه من الهجرة (٩٦١م) قال له إنى أريد أن أرسل إلى أميــرا المؤمنين بالاندلس قوماً (قسيس) حاذقاً بهدية، وان من أعظم حوائجى عنده، وأجل مطالبى قبله، وذلك

الذى زار مصر خلال أعوام ٤٣٩ ـ ٤٤٢، الأمر تعقيداً، فيذكر أن الزيادة المعهودة هى ١٨ ذرعاً وأنه كلما قلت الزيادة عن ذلك قيل إن النيل ناقص[١] وعلى النقيض من ذلك تماماً، وقعت المجاعة عام ٥٣٢هـ/١١٣٧ـ ١١٣٨م بسبب توقف النيل[٢] الذى بلغ فى هذه السنة ١٨ ذراعاً و١٢ إصبعاً[٣]، أو ١٧ ذراعاً و٣أصابع طبقاً لابن أبيك. أما أنه «حصل غرق نجم عنه تلف» عام ٥٥٩هـ[٤]، وزيادة النيل ١٨ ذراعاً و١٠ أصابع (أو ٨أصابع) وسنلحظ خلال هذا البحث أن بعض المجاعات، وقعت والزيادة تخطت الذراع السادسة عشر بأصابع بل والذراع السابعة عشر، فى حين أن زيادة النيل قلت عن ذلك فى سنوات كثيرة ولم تحدث المجاعة. ومن استقراء بيانات الفيضانات يمكن الجزم بأن حد القحط خلال العصر الفاطمى كان ما دون الذراع الخامسة عشر، وكان هذا الحد عند الفتح العربى ١٢ ذرعاً. فزيادة النيل لم

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ـ ترجمة وتعليق د. يحيى الخشاب ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٤٥ ـ ص ٤٢.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. محمد حلمى محمد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٣ ـ ج٣ ص١٦٥ ـ ١٦٦.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ ص ٢٦٣.
(٤) د. راشد الراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ ص ـ ٣٧٠

نصف النهار فصار فيها من الزيتون مالا يحصى، فعند ذلك خرج قيم البيعة واخذ من الزيتون ما عصره واوقدمنه قناديل البيعة وصلو وكملو قداسهم وتقربو ثم انصرفو عايدين الى مواطنهم، وعرفت ان القيم وخدام البيعة بعد انقضى العيد يجمعو ذلك الزيتون فيكفاهم لوقيد القناديل وسرج البيعة وما يحتاجو للاكل طول السنة، واخذت انا من ذلك الزيتون وجماعة من الناس

أنه صحّ عندى أن في القاعة الكريمة كنيسة وفي الدار منها زيتونة إذا كان ليلة الميلاد نوّرت وعقدت وأطعمت من نهارها، فاعلم أن لشهيدها محلاً عظيماً عند الله عزّ وجلّ فاضرع إلى معاليه في تسليل أهل تلك الكنيسة ومداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فإن حصل لي هذا فهو كان أجلّ عندى من كل نعمة في الأرض.» ص ٨/٧.

كما يذكر أبو حامد الغرناطي (ت ٥٦٥/ ١١٦٩) في كتابه

تصل إلى ما دون ١٥ ذرعاً إلا ثلاث مرات إبان حكم الفاطميين لمصر، في سنوات ٣٩٧هـ/١٠٠٦ - ١٠٠٧م، ٣٩٨هـ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨م، و٤١٤هـ/١٠٢٣ - ١٠٢٤م، وجميعها كانت سنوات مجاعة. وفيما عدا ذلك فإن زيادة ما بعد ١٥ ذرعاً لم يكن ولو بإصبع واحد كافية لعدم قحط البلاد (٥٥٤هـ)، كما أنه من الوارد حدوث المجاعات حتى لو وصلت الزيادة إلى قريب من ١٨ ذرعاً. ومغزى ذلك أنه بعد ١٥ ذرعاً لم يكن هناك حد قاطع ومحدد لفيضان النيل تحدث معه المجاعة، وأن هذا الحد كان متذبذباً، متأثراً في ذلك بحالة الدولة المركزية، التي كان بإمكانها - إن استطاعت - أن تعبر بالبلاد الأزمة رغم الإنخفاض النسبي للفيضان، أو تعجز عن منع الأمور من الانحدار مع شمول الرى لمعظم الأراضي.

إلا أن ذلك لايعفى من محاولة الوصول إلى حد موضوعي لوفاء النيل يمكن معه الفصل فيما إذا كان سبب المجاعة هو النيل أم عامل آخر.ويبدو أن الحد الذى اعتبرته الحكومة كافياً لتحصيل الخراج هو ١٦ ذراعاً، حيث كان يتم الإحتفال بوفاء النيل عنده حسبما نقل المقريزى[1] عن ابن الطوير.

إلا أنه من الملاحظ أن الاحتفال بوفاء النيل ظل يتم عند بلوغ الذراع السادسة عشر حتى

(١) المقريزى: الخطط - ج١ص ٤٧٦ وقد أورد القلقشندى سجلاً من إنشاء ابن الصير في يؤكد أن ١٦ ذراعاً هي حد الوفاء، القلقشندى: صبح الأعشى - ج٨ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

الحاضرين على سبيل التبارك به وعدت الى المريه. ثم قال لغلامه: يا رشيد ما كذا كان. قال: نعم يا مولاى هكذى كان وأنت اجل من ان تستشهد بعبدك.

وكان يظهرفى ايام الاب انبا اخرسطودلوس عجايب كثيرة منها ان صورة مارى مينا الشهيد التى فى فى اسكنا ابو مقار سال منها دم، وهوذا علامته باقيه الى الان، وشهد بهذا جماعة من الآبا

«المغرب عن بعض عجايب المغرب» تقديم وترجمة وتحقيق إينغرد بيخارانو، مدريد ١٩٩١م، «وبقرب غرناطه جبل عليه الثلج لايفارقه أبداً صيفاً ولا شتاءً لا يقدر أحد من بني آدم يصعد إليه، وبالقرب من هذا الجبل آثار كنيسة عندها عين من الماء وشجرة زيتون، ويخرج الناس ويقصدون تلك الشجرة الزيتونة زمان الربيع في يوم معروف فإذا طلعت الشمس من ذلك اليوم فاضت تلك العين بماء كثير فظهر على الزيتونة زهر الزيتون، ثم ينعقد زيتوناً ويكبر ويسودّ من

العصر المملوكى، رغم إن ذلك الحد لم يعد كافياً لزراعة الأرض وقتها، وكان يحتفل بالوفاء، فقط لكون ذلك «قانون الرى فى القديم»[1] ولذا فليس بالإمكان الإعتداد بهذا الحد، طالما أصبح الاحتفال بوفاء النيل عنده مسألة تراثية لا علاقة لها بالواقع.

وفى ضوء روايات المؤرخين يمكن ترتيب حدود الوفاء على النحو التالى:

١ـ الستة عشر ذرعاً كانت تكفى لزراعة جميع الأراضى ودرء خطر المجاعة عن البلاد، وليس هناك خطر محقق إذا بلغت الزيادة ١٥ ذراعاً.

٢ – السبعة عشر ذراعاً، أصبحت كافية فقط لزراعة معظم الأراضى وليس كلها.

٣ـ أن حد الوفاء الذى يكفى لزراعة جميع الأراضى ويمكن معه الوفاء بالخراج دون عنت كان ١٨ ذراعاً ، وذلك منذ منتصف القرن ٥هـ/١١م على الأقل .

ومعنى ذلك أن حدود فيضان النيل عند الغزو العربى زادت بمقدار ذراعين تقريباً خلال العصر الفاطمى . وقبل الدخول فى سرد أحداث المجاعات التى مرت بمصر الفاطمية نشير إلى أنه برغم من مرور البلاد بفترات من الفوضى والاضطراب وخاصة فى خلافة المستنصر بالله. فإن مصر شهدت إهتماماً لابأس به بمشروعات الرى والزراعة ، فتدل وثائق الجنيزة اليهودية

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص٥٥.

يومه ويأخذ من قدر على أخذه ويحـــــملون من تلك العين للتداوى». ص ١١.
اما محمد ابن عبد المنعم الحميرى (توفى في القرن الثامن الهجرى) فيذكر في كتابه «الروض المعطار في خبر الأقطار»، حققه الدكتور احسان عباس، بيروت ١٩٩٨٤م، في مادة لورقة: «... ومن أغرب الغرائب الزيتونة التى على مقربة من حصن «سرنبط» وهو حصن من حصون لورقة البرانية منها، وهي زيتونة في حومة الجبل.» ص ٥١٢.

الرهبان القديسين منهم القديس مقاره الامنوت الذى هرب من البطركيه، فا نه قال لى من فاه الطاهر: أن [أنه] كان فى الاسكنا امنوت قديس اسمه بهور ظهرت له عجايب كثيرة وهو ابو بسوس ابن الامنوت، وان صورة الشهيد الجليل مارى مينا التى فى الاسكنا انقلع من القونه [الايقونه] مسمار فطلع سمره فخرج الدم من تحت المسمار من أعلا الصورة الى اسفل، وقال لى

- -

Geniza على وجود إدارة خاصة تشرف على أمور الزراعة بالبلاد[1]. كما وأن الكتابات التاريخية تفيد بأن ثلث خراج البلاد كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر[2] والجسور المعنية هنا هى الجسور السلطانية التى توجد فى شرق وغرب الدلتا ، أ ما الجسور البلدية وهى التى تنتفع بها جهات محلية دون أخرى، فكان يتولى صيانتها الملاك والمتقبلون على أن يخصم تكاليف ذلك من الخراج الذى يؤدونه للدولة[3]. وشهدت عهودا إستقرار الحكم المركزى إهتماماً بمشروعات الرى، مثل تطهير خليج الإسكندرية بعد أن طم تقريباً وخاصة فى قسمه الأول عند خروجه من فرع رشيد وبلغت تكاليف ذلك فى سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣ـ ١٠١٤م، ١٥ألف دينار، واستفادت منه القرى الواقعة فى غرب الدلتا فضلاً عن تسهيل الملاحة[4]. وحفر فى عهد الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠٦هـ/ ١١١٢ـ١١١٣م الخليج المعروف بخليج أبى المنجا لضمان رى أراضى البلاد الشرقية فى كل الأحوال[5].

(١) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ١٠٥.
(٢) المقريزى: الخطط - ج١ص٦١.
(٣) د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٦٥.
(٤) المرجع نفسه ص ١٠٣.
(٥) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٧١ ـ ٧٢، د. راشد البروى: المرجع السابق ـ ص ١٠٤ وهامش (٤) ويبدو أن هذا الخليج كان قديماً طمّ ثم أعيد حفره إذ يرجع القلقشندى هذا الخليج إلى أحد ملوك مصر بعد الطوفان. القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ ص ٣٠٥.

مــقــاره أنه شك في الدم الذى خــرج من هذه الصورة بحكم صباه في ذلك الوقت قال: وطلعت لاعـمل غـشـا الاراديون وكـان هناك جـمـاعـة من الرهبان القبط والسريان فاستحلفني احد السريان ان اتقدم الى الصورة لانظر الدم فتقدمت اليها وانا شاك فيها وقال لى قلبي ان الناس يكذبو على فلما رايته فاذا هو دم بالحقيـقة لا شك فيـه، وعند ذلك رايت الارض قـد صـعدت فوقي والحمال الخشب

مجاعات العصر الفاطمي:

قام الفاطميـون منذ استقرارهم في إفريقية وتأسيس دولتهم بتوجيه خمس حملات للاستيلاء على مصر، حققت أربع منها نجاحات محدودة في فرض سيطرتهم على بعض النواحي الواقعة في غرب مصر مثل الإسكندرية والفيوم والجيزة[١]. ولم يكتب النجـاح إلا للحملة الخامسة التي أرسلت عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م بقيادة جوهر الصقلي[٢]، وكـانت مـصـر وقتها تعاني من قحط ووباء بدأ عام ٣٥١هـ/٩٦٢م مما أدى وفاة الكثيرين حتى عجز الناس عن تكفين الموتى فألقوا بجثثهم في النيل وترتب على ذلك اشتداد الغلاء وندرة القمح وانتشار أعمال السلب والنهب[٣]، ولم يصبح في البلاد قوة مادية أو معنوية من جانب شعبها الذى

(١) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر- دار المعارف الإسكندرية ١٩٦٨ ـ ص ٩٦ ـ ١٠٠.

(٢) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ مكتبة القدس ـ القاهرة ١٣٥٠هـ ـ ج٣ ص ٢٦.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٣٢م ـ ص ٩٥ـ ٩٦، وكان في بغداد غلاء ذريع حتى بيع الكر من الدقيق بتسعين ديناراً. انظر: ابن الجوزي: المنتظم ـ ج٧ ص ٤٧.

[في السقف] قد نزلت الى الارض والحيطان قد التقوا والناس الذى كانوا قيام تحتى قد صاروا فوقى وسقطت مغشياً على وصرت كأن ثقل البيعة كله على، فقلت: ياسيدى خلصني فان الله قادر ان يظهر عجايبه في قديسيه وان انا تخلصت علقت على وجهه [اعنى القديس مارى مينا] خرقة مليحة. حينيذ فتحت عيني فرايت نفسى قد استقرت والحيطان قد رجعو كما كانو وسمعت الرهبان يصيحو مات الصبي فاوميت اليهم بيدى

أنهكه الجوع والمرض[1]، وكان وصول أخبار هذه الأحداث المؤسفة ـ التي زادها سوءا موت كافور الإخشيدى وتفرق جنده - كافياً لشحذ همة المعز لدين الله لينتهز هذه الفرصة ويستولى على مصر[2]، خاصة بعد أن كاتبه أعيان مصر يدعونه لدخولها بسبب طمع الجند في أهل القرى[3]. ويبدو أن المصريين وجدوا في الفاطميين منقذهم من الحالة التي تردت إليها البلاد فدخل الجيش الفاطمي الذى بلغ مائه ألف مقاتل مصر «في يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة (٩٦٩م)، فهرب أصحاب كافور وأخذ جوهر مصر بلا ضربة ولاطعنة ولا ممانعة»[4].

ومن الواضح الجلي أن إنخفاض النيل لم يكن مبرراً لحالة القحط التي سادت البلاد في عام الفتح الفاطمي، فالفيضان كان قد وصل في أقل التقديرات إلى ١٦ ذراعاً و٢٠ إصبعاً،

(١) د. أحمد مختار العبادى: في التاريخ العباسي والفاطمي ـ مطبعة شباب الجامعة - الإسكندرية ١٩٨٢ ـ ص ٢٤٨.
(٢) أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٨ ـ ج١١ص٢٢٦، ابن الأثير علي بن أبي سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب: تحقيق د. زكي حسن (وآخرون): مطبعة جامعة فؤاد الأول ـ ١٩٣٥ ـ ج١ ص ٢٠١
(٣) عبد الله الشرقاوى: تحفه الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، مصر ١٩٢٢ـ ص٣٣.
(٤) السيوطي: حسن المحاضرة ـ ج٢ص١١، شمس الدين الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام ـ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٤٢، تاريخ، مجلد ١٦ص ٩٩ حوادث عام ٣٥٨هـ.

اسكتو ولم استطيع الكلام وجلست ساعة حتى رجعت لى روحى وانتعشت نفسى واعلمتهم ما كان منى واننى رأيت الدم وهو بالحقيقة دم لا شك فيه.

وبلغنى عن انسان نصرانى كان دايماً يستشفع بالقديس مرقوريوس الشهيد وكان يقضى حوايجه ويقوم هو ايضا بخدمته، وانه فى زمان ادب [غضب] من اداب الرب لخلقه، استشفع كعادته

وهو حد لا يعنى القحط كما أسفلنا، ولذا فإنه على وجه الترجيح، يمكن إرجاع المجاعة والغلاء إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية واهمال مشاريع الرى والزراعة، ومنازعات فرق الجند، مما أفضى إلى أرتفاع الأسعار حتى بلغ سعر القمح تسعة أقداح بدينار[1]. بل إن ضعف الإدارة المركزية، أدى إلى سوء عيار السكة الإخشيدية وانتشار الغش فيها كما يتضح من خطاب الأمان الذى أعطاه جوهر الصقلى للمصريين عند دخوله مصر[2].

والذى وعد فيه بإرخاص الأسعار، وإقرار الأمن وتجويد عيار السكة. ولكن إقرار النظام، وضمان زراعة الأرض، وإكمال إستعادة الإدارة المركزية لكافة صلاحياتها. لم يكن ليتم بين ليلة وضحاها، إذ استغرق ذلك ثلاث سنوات تقريبا حاول خلالها جوهر الضرب بشدة على أيدى التجار والطحانين الذين استغلوا حالة الفوضى فى محاولة الإ ثراء من ورائها. ففى ذى القعدة عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م قام سليمان بن عزه المغربى، الذى تولى الحسبة[3] عوضاً عن أبى

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٤٨ ـ ق١ ص ١٦٨.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ـ ص ١٠٨.

(٣) يقصد بالحسبة والإحتساب ـ شرعاً ـ الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله ، أى محاولة جعل الحياة السائدة موافقة لأحكام الشريعة، وفى مصطلح التاريخ يقصد بالحسبة الوظيفة التى تراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فعلاً فى المجتمع الإسلامى على اختلاف طبقاته ـ انظر: د.السيد الباز العرينى: الحسبة والمحتسبون فى مصر ـ مقال بالمجلة التاريخية المصرية. القاهرة ١٩٥٣ ـ =

فلم يقضى له حاجة فشك فيه فظهر له فى تلك الليلة واخرجه الى موضع واسع واوقفه على جب فيه خيل وسلاح وقال له: تعرفنى انا ابو مرقوره فلا تشك فى واعلم انى انا واخوتى الشهدا وغيرنا قد امرناباان لا نشفع فى احد فى هذا الزمان لانه زمان ادب. وهذه خيلنا وسلاحنا قد تركناه ها هنا.

وكان غلق الكنايس فى زمان الوزير اليازورى فى يوم الجمعة الخامس من بوونه سنة ست واربعين

جعفر الذى توفى فى ربيع الآخر، باتخاذ بعض الإجراءات لمواجهة إرتفاع الأسعار، فضبط ساحل بولاق حيث ترد الغلة فى المراكب، وجمع تجار القمح وسماسرة الغلال فى موضع واحد، وسد الطرق إلا طريقاً واحداً يتم منه خروج القمح تحت إشرافه وبحضوره[١]، ثم قام بضرب أحد عشر طحاناً وشهرهم[٢]، ويبدو أنهم حالوا تخزين بعض الدقيق لبيعه بثمن مرتفع، ويمكن أن نضيف إلى جانب عامل الإحتكار الذى يتسبب فى إرتفاع الأسعار، اختلال الأمن وانتشار السلب والنهب الذى كان متفشياً فى بداية خلافة المعز بمصر[٣].

وبلغت الضائقة الاقتصادية ذورتها عام ٣٦٠هـ/ ٩٧٠-٩٧١م[٤] ويرجع ذلك إلى

= مجلد٣العدد ٢ ص ١٥٧ .والحسبة عند الشيعة تدخل فى عموم واجبات الإمام الحاكم بسبب كونها خدمة دينية. وكان الإمام يستخلف فيها من يراه أهلاً لها. انظر: د. عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . الإنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٣ـ ج١ ص ١٦١ـ ١٦٢ . وقد كان للمحتسب منزلة رفيعة فى العصر الفاطمى فكان يقوم بتعيين نوابه بالقاهرة وجميع الأعمال ولايحال بينه وبين مصلحة أرادها وكانت تضاف الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحب الشرطة بهما أحياناً. انظر : القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ص ٤٨٦.

(١) د. أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى ـ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج١ص ٧٢ ـ ١٦٩.

(٣) أبو صالح الارمنى: كنائس واديرة مصر ـ المطبعة المدرسية باكسفورد ١٨٩٥ ـ ص ٨٤.

(٤) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣.

واربع مـايه الخـراجـيـة. وقـبض على الاب اخرسطودلوس والاساقفه وطولبو بالمال وعوقب ثلثة اساقفة منهم وماتو، احدهم ابا اسحق اسقف مصيل(*)، وتاودرس اسقف سمنود ابن اخت الاب انبـا شنوده البطرك المتنيح، وابا جـرجـه اسـقف الخندق.

(*) مدينة مندرسة، خربت في الفترة العثمانية، ولاتزال أطلالها تعرف اليوم باسم كوم المدينة ناحية بسنتاواى بمركز أبو حمص غربى مدينة المحمودية محافظة البحيرة.

وكـذلك كان اخوتنا السريان والمومنين بمدينة انطاكيـة فى جـهـد وبلا عظيم، لان الملكيـه وثبـو

استمرار تفشى الأمراض والأوبئة، التى اشتدت بالقاهرة من المحرم، مما دفع جوهراً إلى منع بيع الشواء مسموطا، وأمر بأن يسلخ من جلده كإجراء وقائى[1]. ويلاحظ إرتباط المجاعات بانتشار الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الذى يودى بحياة الكثيرين، فيلحق بذلك الضرر بالأيدى العاملة فى الزراعة، إما لموت البعض، أو لهجرة آخرين لمواطن الداء، فتصبح الأرض ولاتجد من يزرعها[2]. ومن العوامل التى تساعد على تفشى الأوبئة ازدحام البيوت بالسكان، وخاصة فى الفسطاط، والتى تتكون بعض الدور فيها من سبع طبقات ، «وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس»[3] فإذا أضيف إلى ذلك العادات غير الصحية التى كان يتبعها السكان من أن يرموا بما يموت من القطط والكلاب فى الشوارع والنيل ومصادر مياه الشرب فيشربون هذه العفونة، المختلطة بالماء ، فضلاً عن تعذر دفن الموتى فى حالة تفشى الأوبئة والمجاعات مما يؤدى إلى انتشار الميكروب وبقائه لفترة طويلة بالبلاد لتأخر وسائل الطب الوقائى[4]، لعرفنا مدى فداحة الخسائر التى كانت تقع بين صفوف السكان، حتى إن المقريزى يذكر أنه لما سقطت

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج١ ص ١٧٩.
(٢) د. راشد البداوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٨٠ ـ ٨٢.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٣٤١.
(٤) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠، د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ٨٠.

على بيعهم واحرقوها بالنار وجميع كتبها، وبحكم
ان الملك لهم، وكان عليهم منهم طرد عظيم،
وذلك سنة سبع مايه ثلثة وثمانين للشهدا، وكثر
تنهدهم وضجيجهم وبكاهم، وصار منهم جماعة
على راى الملكية بانطكية. وفى سنة ست الف
وخمس ماية اربعة وستين للعالم وهى سنة سبع
ماية ثمانية وثمانين للشهد وصل الملك العادل
البارسلان [عضد الدولة محمد ابو شجاع ت

الدولة الإخشيدية واختل حال مصر بتوالى الغلاء وتواتر الأوبئة والفناء،حدّثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز،بسبب تدهور حالة الفسطاط وموت معظم سكانها[1].

ولايمكن إغفال دور التهديد بالغزو الخارجى فى إرتفاع الأسعار إذ قام القرامطة بغزو الشام ونجحوا في هزيمة الجيش الفاطمى بدمشق عام ٣٦٠هـ/ ٧٠ـ ٩٧١م، بل وحاصروا القاهرة حتى عام ٣٦١هـ/٩٧٢م[2].

ومهما يكن من أمر فقد وضعت هذه المجاعة أوزارها عام ٣٦١هـ ، التى انخفضت فيها الأسعار واخصبت الأرض وحصل الرخاء[3]. وذلك كنتيجة طبيعية لاستقرار أمور الحكومة الجديدة، ونجاحها فى القضاء على الأخطار الخارجية، ونشر الأمن فى ربوع البلاد، مما ضمن زراعة معظم الأراضى، ولا يعتقد أن هناك ثمة علاقة بين هذا الرخاء وحالة الفيضان، الذى كان فى هذا العام ١٧ ذراعاً و٤ أصابع، أى أقل من فيضان العام السابق بأصابع.

وبانتهاء هذه المجاعة كان الخليفة المعز لدين الله قد وعى وبشكل عملى، الدرس ألا وهو الإرتباط بين الإحتكار التجارى واستشعار الناس انخفاض زيادة النيل ، من خلال المناداة على

(١) المقريزى: المصدر السابق ـ ج١ص ٣٥٩.
(٢) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ١١٥.
(٣) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣.

١٠٧٢م] من المشرق في عساكر عظيمة عددها ستماية الف فارس مقاتلين سوى اتباعهم، فاضطربت البلاد وقلقت المملكة بمصر وفتح في الشام الفوقاني بلاد كثيرة وفي بلاد الروم الى ان حسن له اصحابه فتح المدينة الجليلة الرها، وكان فيها يوميذ دوقس[دوق] يسمي بسيل ابن اسار ابن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك. وكان بالرها يوميذ ثمانية الف ارمني وعشرين الف سرياني

زيادة النيل، وبأ ن لا يكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر، وأن يباح النداء عند بلوغ النيل حد الوفاء الرسمي ـ وهو الستة عشر ذراعا[١].

بيد أن ذلك الإجراء فيما يظهر، لم يستمر طويلاً، إذ يشير ناصر خسرو إلى استمرار نظام المناداة اليومية على زيادة النيل خلال زيارته لمصر[٢].

شهدت خلافة الحاكم بأمر الله(٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ـ ١٠٢٠م) سلسلة من المجاعات، استغرقت نحو نصف سني حكمه التي قاربت الربع قرن. ولاشك أن هذه الكوارث قد وضعته في موقف لايحسد عليه إذا أصبح لزاماً عليه أن يحارب في أكثر من جبهة، فقد اعتلى الحاكم كرسي الخلافة وهو في الحادية عشر، و٥ أشهر وستة أيام[٣]، طفل تسعى أكثر من قوة

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ـ ج١ص ١٩١، الخطط ـ ج١ ص ٦١، ويذكر القلقشندي أنه كان يؤخذ المقياس وتكتب له رقعة للخليفة وللوزير لم ينزل بديوان الرسائل في مسير معدله في الديوان ويستمر الحال على ذلك في كل يوم ترفع رقعة إلى ديوان الإنشاء بالزيادة لايطلع عليها غير الخليفة والوزير وأمره مكتوم إلى أن يبقى من ذراع الوفاء(١٦ذراعا) اصبع أو أصبعان ـ صبح الأعشى ـ ج٣ ص ٥١٦.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه ـ ص ٤٢.

(3) Wustenfeld (f) Geschichte Fatimiden cholifen. Aus dem 26und 27 Bande der Abhandungen der Koniglichen Geseilschaft der wissenschaften zu Gottnigen _ Gottingen 881 _ p165.

وستة الف رومى [يونانى] والف افرنجى [لاتينى] فنزل عليهم فى ستماية الف مقاتل وضرب خيمته وانفذ الى اهلها يخدعهم قايلا: ما غرضى فتح بلدكم بل تقطعو لى عليكم مال وارحل عنكم، فلما سمعو هذا اهتمو بجمع المال، وهو ينقب تحت حصن المدينة. ومن بعد سبعة ايام كان فى عسكره صبى سريانى فكتب رقعة يقول فيها لاهل الرها هو يخادعكم وقد نقب تحت البرج الفلانى

للسيطرة عليه وعلى مقاليد الأمور بالبلاد، فنشبت المنازعات بين البربر والأتراك[1]، وقد نجح الحاكم بعد أربع سنوات من وصاية برجوان عليه أن يمتلك زمام الأمور فى البلاد كخليفة قـــوى[2]. وبعد ذلك كان عليه أن يواجه غزواً خارجياً جاءه من الغرب بقيادة الثائر أبى ركـــوه[3]، وخطر الأوبئة الفتاكة والمجاعات، وقبل ذلك وبعده المنازعات التى دارت داخل البيت الخليفى للحد من نفوذه المطلق، تلك المنازعات والمؤمرات التى أودت فى النهاية بحياته بتدبير أخته ست الملك[4]. فضلاً عن بعض المشاكل المتعلقة بالدعوة الفاطمية، ومحاولات البعض إلصاق الألوهية به[5]. ورغم أن التاريخ حافل بشخصيات كثيرة أهضمها المؤرخون حقها وأساءوا فهمها ـ عمداً فى معظم الأحوال ـ إلا أن شخصية الحاكم فاقت كل هذه الشخصيات فى مقدار الظلم الفادح الذى وقع بحقها.

(١) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٢) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة ـ ترجمة د. حسين إبراهيم حسن ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠ـ ص ١٣٤.
(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام ـ مجلد ١٦ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٤) أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ص ١٠.
(٥) د. عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ مكتبة الإنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٩ـ ص ١١٥.

والموضع الفلانى حتى وصف لهم احد عشر موضعاً فيها النقابين ينقبو وقد بلغو تحت الحصن وتجاوزوه، وجعل الرقعة فى نشابه ورماها المدينة، فاخذوها ووقفو عليها، ونقبو قبالة تلك المواضع. وكان الوالى المذكور ياخذ البوق ويجعل راسه فيما يلى خارج البلد على الأرض وطرفه عند اذنه فيسمع حس النقب. فالتقو النقابين بغتة فى النقوب فقتل من نقابين الرها ثلثة ومن نقابين

فكتابات بعض المؤرخين غير واقعية لأنها رمته بالشذوذ والجنون إلى حد وصفه بأنه كان شر خليفة، بل لم يل مصر فرعون شر منه[1]، ولم يسلم الحاكم من كتابات كثيرة معاصرة، حتى من قبل الكتاب الأجانب الذين دخلوا حلبة إدانته اعتماداً على المصادر التاريخية دون تمحيص أو نقد[2].

ولما لم يكن مجالنا هنا تبرئة ساحة الحاكم[3]، فإننا سنقتصر على سرد ما يخص موضوع المجاعات فى عهده، حيث أثبت بتصرفاته وإجراءته مع كل ما واجه من صعاب، أنه كان أنضج وعياً، وأكثر عبقرية من غيره من الخلفاء. الذين لم يتهموا بالجنون.

فعندما توقف النيل عن الزيادة فى عهده، وقيل له إن هذا من فعل الأحباش الذين غيروا مجرى النيل، أمر بطرك النصارى أن يتوجه إلى الحبشة، فذهب وعرض على النجاشى ما وقع بالبلاد مع ضرر، «فأمر ملك الحبشة بفتح سد عندهم يجرى منه إلى

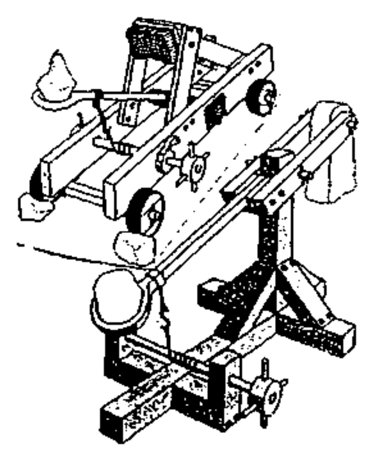
(١) السيوطى: حسن المحاضرة - ج٢ص ١٣، ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول - بيروت ١٩٨٠ - ص ٣١٣.

(٢) لينبول: سيرة القاهرة - ص ١٤٣ - ١٣٥،

Brocklmann (Carl): History of the Islamic peoples. London and Henley 1980 - p 160.

(٣) انظر: د. عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه.

البارسلان ابن داوود المنعوت بالعادل عشرون رجلا واستاسرو تسعة فقتلوهم ورمو رووسهم اليه فى المنجنيقات والغرادات وكان عندهم تسعين منجنيق وغراد وشتموه وصاحو عليه يا غدار يا مكار يا نكاث واكثرو من شتمه بكل قبيح ، فنصب عليهم القتال الشديد ثمنية وثلثين يوماً،وكان يقاتلهم بالافيله وعليهم الرجال لابسين الحديد فاذا دنو لينقوبو الحصن طرحو عليهم الصخور العظيمة فيقتلو منهم، واستظهرو عليه



(*) أعلى : منجنيف متحرك. واسفله منجنيق ثابت.

مصر ماء النيل لأجل أن البطرك قدم عليه، فزاد النيل فى تلك السنة زيادة قوية حتى أوفى»[1].

لم يقنع الحاكم بهذا الحل، الذى يضعه تحت رحمة ملك الحبشة، وأظنه لم يصدق ما ذكر عن وجود سد عندهم يحجب الماء عن مصر، ولا يستبعد أن تكون هذه الرواية التى يكثر تكرارها فى سنوات مختلفة، محاولة لتدعيم مركز القبط فى مصر، خاصة مع ما عرف عن الحاكم من تشدد مع أهل الذمة، وظلت ظاهرة انخفاض الفيضان تستحوذ على إهتمام الحاكم حتى سمع عن أبى على بن الحسين بن الهيثم[2]، الذى نبغ فى الهندسة، فأرسل فى طلبه من العراق، وأكرم وفادته وسير معه جماعة من الصناع فى طول مصر حتى وصل إلى أسوان، لكنه اعتذر عن عجزه القيام بشئ بسبب طبيعة أرض أسوان الجرانيتية، فأبقاه الحاكم معززاً مكرماً[3].

(١) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحى ـ مستخرج من حوليات إسلامية ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٨١ـ مجلد ١٧ـ ص ٣٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ شرح وتحقيق د. رضا نزار رضا ـ مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ترجمة ابن الهيثم ص ٥٥٠ ـ ٥٦٠، وأنظر : أحمد تيمور: المهندسون فى العصر الإسلامى القاهرة ١٩٧٩ ـ ص ٢٨ ـ ٣٠.

(٣) د. ماجد : الحاكم بأمر الله، ص ٦٤ ـ ٦٥، امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله ـ المجلة التاريخية المصرية ـ القاهرة ١٩٧٧ ـ المجلد ٢٤ ـ ص ٣٤ ـ ٣٥.

بقوة السيد المسيح لانها المدينه التى دعا لها تدا التلميذ ولملكها، ثم انه زحف اليها بسبع دبابات(*) عظيم، فعملو عليها صوارى عظيمة وشحم وزفت ونفط، وطرحو عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها وقتلو كلمن كان فيها، ثم امر الملك العادل بقطع الاشجار والاخشاب ورميها فى الخندق الذى على الحصن حتى يمشى الخيل والرجال عليهم الى الحصن، فتوصلو اليها من

(*) دبابات: هى ابراج كبيرة من الخشب القوى سقفه من عروق الاشجار، يدفع إلى اسوار الحصون وبداخله عدد كبير من الجنود، و عند التصاق البرج بسور الحصن يقوم الجنود بنقبه وينفذون منه لداخل الحصن أو يتسلقون سطحها ويقفزون إلي اسوار المدينة المعاصرة.

وفى هذا الصدد، يذكر ابن أبى أصيبعة أن همته انكسرت لما رأى آثار قدماء المصريين وعظمتها ، فأيقن عجزه، وأنه خشى على نفسه من الحاكم فادعى الجنون حتى توفى الخليفة، فعاد للحياة الطبيعية، كناسخ لبعض الكتب الطبية ليقتات منها[1].

وربما لوكان النجاح قد صادف ابن الهيثم والحاكم، لتغيرت كثيراً معالم وجه تاريخ مصر.

لم يفت فى عضد الحاكم فشل ابن الهيثم فى معالجة أمر الفيضان، فلجأ إلى الإجراءات الوقائية إ عتماداً على قوة السلطة المركزية وهيته كرأس لهذه السلطة.

ولما كان إحتكار التجار للغلال، وتلاعبهم بالأسعار سبباً رئيسياً وراء المجاعات ، فقد عمد إلى أقامة سعر لكل شئ ، لاسيما الحبوب والمبيعات، واستخدام وسائله الخاصة فى منع تخزين الأقوات، «فضرب جماعة بالسوط، وشهرهم، وأمر ألا يباع القمح إلا للطحانين» للقضاء على الوسطاء، كما كان يفاجئ مخازن الغلال والبيوت للبحث عن القمح ويفرقه على الطحانين بالسعر الرسمى.

ولأهمية الحسبة ومراقبة الأسواق، كان الحاكم يقوم بنفسه بمهام المحتسب، فيدور فى

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ـ ص ٥٥١، ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ـ ص ٣١٦ ـ ٣١٨.

داخل المدينة من النقوب واطلقوا فيها النيران فتاجج النار حتى صار الخندق نيران تلتهب، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافترا والشتيمة، فانفذ اليه رسول يقول لهم: ما يحسن بى ان ارحل عنكم بعد قتالكم وقد اطاعتنى جميع البلاد الا بعد ان يستقر لى عليكم مال يسير وانا ارحل عنكم ليلا [لئلا] يصير على فضيحة، فا نزل الوالى رسوله فى دار واكرمه،


رسم طائر على طبق صينى انتجه الفنان المصرى فى العصر الفاطمى وعرف كطبق من اطباق غبن متولى الحسبة

الأسواق ممتطياً حماره، وتذكر المصادر السابقة نفسها أن من وجده قد غش فى معيشة، أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى[1]. ويرجع إهتمام الخليفة بالحسبة إلى أنه اعتبرها فى عموم واجبات الأمام، ولذا نجده عندما ولى حسبة القاهرة ومصر والجيزة لقائد القواد ومتولى الشرطتين (القاهرة ومصر) المعروف بغبن[2] عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م يشدد فى سجل التعين على ضرورة مراعاة واجبات وظيفته[3]. ويبدو أن الحاكم اعتبر غبناً مسؤولاً عن إرتفاع الأسعار وتكالب الناس على الخبز عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م[4]، طالما كان ذلك يدخل ضمن واجبات المحتسب فعزله من منصبه فى نفس العام وأمر بقطع إحدى يديه، وأعقبها بالأخرى ثم بلسانه حتى توفى. وعلل ذلك بأن غبن كان متورطاً فى خصومة مع أخته ست الملك، أو بأنه أخفى عن الحاكم بعض الشكاوى

(١) السيوطى: حسن المحاضرة ـ ج٢ص ٢١٣. أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ص ٩.
(٢) عرف غبن أيضا بلقب استاذ انظر: د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية – القاهرة ١٩٦٥ – ج١ ص ٦٣.
(٣) د. حسن الباشا(وآخرون): القاهرة: تاريخها فنونها ـ آثارها ـ مؤسسة الأهرام ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ص ٥١٢.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد ـ مجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ج٢ ص ٩٣، الخطط ـ ج٢ ص ٨٧.

فلما كان بالغداة تخير عشرة الف رجل احداث
مقاتلين من المدينة والبس جميعه من الحديد حتى
لم يبق منهم الا جفون عينيهم واوقفهم صفين فى
الموضع الذى يعبر فيه الرسول الى باب الرها،
وقال للرسول اركب عايد الى صاحبك فركب ولم
يزل ساير فيما بين اوليك الاحداث وهم يزعقو
ويصيحو الى ان انتهى الى باب المدينة، فقال له
بسيل الوالى: قل لهذا الكلب الغدار الذى ارسلك

الموجهة بحق غبن[1]. ويبدو الإحتمال الثانى أكثر ترجيحاً، حيث تم عزل غبن وعقابه أثناء ارتفاع الأسعار، ويحتمل أن تكون الشكاوى قد مست واجباته كمحتسب.

ولم يخل سجل الحاكم بأمر الله من جهود حثيثة لتفادى أخطار الأوبئة، التى كانت عادة ما تصحب المجاعات، فلأجل الحفاظ على الثروة الحيوانية، التى كانت تجتاحها الأوبئة أيضاً، أمر بمنع ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا فى أيام الأعياد حتى لاتنقرض وهو إجراء لجأ إليه ابنه الظاهر فيما بعد[2]. كما كان يصدر أوامره بمنع أكل أو بيع بعض المأكولات، التى ربما يترتب على أكلها مضار صحية وأمراض فى عصره، مثل الملوخيا والجرجير والقرع والمتوكلية، وهى نبات للحساء، ومنع عجين الدقيق بالأقدام وكان يغرم المخالفين لذلك[3].

أما مجاعات عهد الحاكم، فقد بدأت بمجاعة فى العام التالى لتوليه الخلافة عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م وكأنما كان على موعد مع الأقدار، وكان الذى يتولى تدبير الدولة فى هذه السنة (٣٨٧هـ/٩٩٧م)، أمين الدولة أبى محمد الحسن بن عمار. وسبب هذا المجاعة قصور النيل، حسب رأى المقريزى، الذى بلغ زيادته ١٦ ذراعاً وأصابع، فارتفعت الأسعار، واختفى

(١) د. حسن الباشا: المرجع السابق ص ٥٢٢.
(٢) د. ماجد : الحاكم بأمر الله ـ ص ٦٤.
(٣) المرجع نفسه ص ٩١.

كنا نظن ان لك قولا صادقا واذ انت غدار كذوبا نكاثا، وما عندنا السيف لان كذبك وغدرك قد عرفناه وما تحتاج الى نقب ولا دبابات هو ذا باب المدينة مفتوح، ووحق سيدى يسوع المسيح لا اغلق باب هذه المدينة فى هذا النهار الا بعد مغيب الشمس فان اردت القتال فتقدم . ولم يزل باب المدينة مفتوح واوليك الاحداث قيام والحصن معمر بالرجال الى بعد الغروب، واغلقو الباب وصاحو

القمح، واضطرب حبل الأمن، وخطفت النساء من الطرق، ووصل سعر الخبز إلى أربعة أرطال بدرهم ، ثم انخفضت الأسعار بعد ذلك[١].

وإذا ما وضعنا فى الإعتبار حدود وفاء النيل فى العصر الفاطمى فإننا نلحظ أن هذا الحد من الزيادة (١٦ذراعاً و٧أصابع)لم يكن يعنى القحط ، وربما تكون زيادة النيل قد تأخرت بعض الوقت، فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار واحتكار الغلال، خاصة وأن حالة من الفوضى والاضطراب كانت تعم البلاد لتصارع المشارقة والمغاربة على السلطة فى بداية خلافة الحاكم.

وفى عام ٣٩٥هـ/١٠٠٤ـ ١٠٠٥م، انتشر الوباء فى البلاد، وحتى بين الماشية التى أمر الحاكم بمنع ذبح السليم منها إلا فى عيد الأضحى كما حث على قتل جميع الكلاب حتى خلت منها الطرق[٢]، ويبدو أنها كانت تنقل العدوى، وفى إطار مقاومة الوباء منع أكل

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣ - ويذكر ابن إياس ـ ج١ص ٥٥) أن الناس اجتمعوا تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فقال إنه متوجه إلى جامع راشد وفى طريق عودته يريد أن تملأ الغلال الأرض والا ضرب عنق من يجد منها شيئاً عنده.إلخ. وهذه الحوادث يذكرها فى عام ٣٩٩هـ، وهذا أقرب للصحة حيث أن الحاكم فى عام ٣٨٧هـ كان فى الثانية عشر من العمر، ولم يكن له شأن فى تسيير أمور الدولة.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر- ص ٢٢٨ . ويبدو أنه كانت هناك حالة من الجفاف تعم منطقة حوض المتوسط. فقد شهدت أفريقيا فى نفس هذا السنة غلاء شديداً ووباء أودى بحياة الكثيرين. أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١١ص ٣٣٥ ، ابن الأثير: الكامل ـ ج٧ص٢٢٧.

عليـه من فـوق السـور. وفى تلك الليلة رحل عنهم
بعد ان اقام خمسـة واربعين يوماً ومضى الى مدينة
سروج والى حلب وحاصرها فكانو يعيروه بما لقيه
من اهل الرها، وبعـد هذا خـرج اليه مـحـمـود بن
صـالح ليـلا فى زى الغـز حتى وصل الى خيـمتـه
فتطارح عليه فقبله واحسن اليه واخلع عليه واعاده
الى مدينته، ثم عاد [الب ارسلان] ايضاً الى الرها
فى شهر بشنس واقام اربعة ايام بلا قتال وكتب اليه

- -

الدلينس (الدنيس) ومنع السماكين من صيده وهدد من يخالف ذلك بالقتل[1].

ويظهر أن الحاكم تخوف من حدوث مجاعة فى ظل إنتشار الوباء، خاصة وأن النيل وصل فى زيادته فى هذا العام إلى ١٦ ذراعاً و٣أصابع مما يعنى عدم زراعة بعض الأراضى، فأشاع جوا من الرهبة بين الناس، وخاصة بين الكتاب، وأصحاب الدواوين، عندما عمل شونة ملئت بالبوص والسنط والحلفا، حتى قويت الشائعات بأن الحاكم أعدها لحرق الكتاب وأصحاب الدواوين، فاجتمعوا متفزعين منه فأعطاهم أماناً، وتلى ذلك أمانات لطوائف الجند والعبيد، ثم التمس أهل الأسواق على طبقاتهم كتب أمان فكتبت لهم[2]. ورغم ذلك فإن الحاكم قتل جماعة من الأعيان[3].

وينبغى أن يضاف إلى الحسبان، أن ثورة أبى ركوة التى بدأت فى برقة، بالاستيلاء على بعض أملاكها فى جمادى الآخرسنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥[4]، أى فى نفس الوقت الذى أعطيت فيه هذه الأمانات تقريباً، فكان لابد من إتخاذ هذه الإجراءات حتى لاتسول لأحد نفسه أن

(١) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ـ ص ٢٢١.
(٢) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة من أخبار مصر ـ ص ٢٠ ـ ٢١.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٤ ص ٢١٢، الذهبى: تاريخ الإسلام ـ مجلدا ١٦ ـ ص ١٣٠.
(٤) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٢٤٧. ويذكر ابن الجوزى أن ثورة أبى ركوة كانت فى عام ٣٩٧هـ ـ المنتظم ـ ج٧ص ٢٣٣. وكذلك ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ـ ج٣ ص ١٤٨.

نصـــر ابن نصـــر الدولة يقـول له: انت نازل على الرها وما تقدر تفتحها وديوجانس [رومانوس] ملك الروم قـد اهلك بلد الاســلام الى ان قـارب بلاد خراسان. فرحل ليلا وسار الى ان وصل الى خلاط مجاور مازكرد بلد الارمن وبين المدينتين نهر عظيم ، وكـــان ديوجـــانس ملك الروم نازل على نهـــر مازكرد بعسكره وهو أيضاً في ستماية الف فارس مقـاتلة، فـالتقـا الملكان في ايام من بوونه، فعـمل

يستغل هذه الملابسات مجتمعة، ومع ذلك فقد ارتفعت الأسعار عندما تحرك أبور كوة نحو مـصـر، وهدد الإسكندرية ثم أعـمل السلب والنهب في ريف مصـر، متـعـاوناً في ذلك مع الأعراب الذين دأبوا على الإغارة على سكان الدلتا، متمردين بذلك على السلطة المركزية التي أبوا أن ينضووا تحت لوائها بشكل مطلق[١].

وبغض النظر عن بعض الإنتصارات الجزئية التي حققها أبو ركوة فقد نجح الحاكم في نهاية الجولة في أن يقضي على أبي ركوة ويأسره ويشهر به في القاهرة، وإن كان قد اضطر خلال الاعداد للحرب إلى التخلي عن تشدده في أعمال الحسبة، فأقبل المصريون على الإنضمام لجيشه، خاصة بعد أن عاينوا التخريب الذى أحدثته جيوش أبي ركوة، ووضعوا أموالهم كلها تحت تصرف الخليفة بل وتوقفت الأسعار عن الزيادة كدليل على صدق معاونة المصريين للحاكم[٢].

بيـد أن تصـاريف القـدر شـاءت أن ينخـفض النيل في العـام التـالي ٣٩٧هـ/١٠٠٦-١٠٠٧م، لتشهد البلاد مجاعة خطيرة، وطويلة نسبياً. وإذا كانت المصادر التاريخية ترجع سبب هذه المجاعة إلى انخفاض الفيضان، فإن الاضطراب يسود تحديد مقدار هذا الإنخفاض.

(١) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٨٣.
(٢) د. ماجد : الحاكم بأمر الله ـ ص ١٦.

مقدمين عساكر ديوجانس الرومى عليه منصوبة [خديعة] بدسيسة من ميخاييل ابن مريه الذى كان ملك قبله بعد عمه قيصر ، فلما حمل الملك ديوجانس على عسكر الغز وصار فى وسطهم وهو يظن ان اصحابه وعساكره يحملو معه وهم طايعين له ومناصحين ، فلما خذلوه وتخلو عنه قتل بيده جماعة من الغز ولم يزل يقتل ويدفع عن نفسه الى ان قبضوه اسير وتفرقت عساكره بعد ان قبض

البداية كانت بتوقف زيادة النيل فصلى الناس صلاة الاستقاء مرتين، ويبدوا أن ذلك كان والنيل عند الذراع الثالثة عشر وأصابع[1]، ثم كسر الخليج بعد ذلك والنيل عند الذراع الخامسة عشر[2] وبعدها زاد النيل حتى وصل إلى ستة عشر إصبعاً من ١٧ ذراعاً ثم نقص بعد ذلك[3]. ليصل إلى ١٤ ذراعاً و١٦ إصبعاً لأبى المحاسن وابن أيبك، وهو حد فى زيادة النيل يعنى المجاعة، كما سبق التنوية آنفاً، وقد صاحب هذه المجاعة وباء أودى بحياة الكثير من السكان[4].

وكان من الطبيعى أن ترتفع الأسعار، فأصدرت الأوامر لمسعود الصقلى متولى الستر بالنظر فى أمر الأسعار، فجمع خزنة الغلال والطحانين والخبازين، وقبض على ما بالساحل من غلال وأمر أن لاتباع إلاللطحانين لمنع الوسطاء والسماسرة، وتم تسعير القمح، كل تليس بدينار إلا قيراطاً والشعير عشر ويبات بدينار، وللحطب عشر حملات بدينار، وسعر سائر الحبوب والمبيعات، وهاجم عدة مخازن وفرق مابها على الطحانين وضرب جماعة بالسوط وشهرهم، فتوافر الخبز فى الأسواق وهدأت الناس[5].

(١) المقريزى: أغاثة الأمة ـ ص ١٥ .
(٢) المصدر نفسه ـ ص ١٦.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل ـ ج٧ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٥) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٥ – ١٦.

منهم جماعة ودخل بعضهم الى [قلعة] مازكرد(*). فاحضره الملك العادل بين يديه وقال له: اتريد ان ابيعك او اقتلك او اعتقك . فقال له ديوجانس: ما ملكتنى بقتال وانما اجنادى خذلونى وتخلو عنى ولم ينصحونى، والان فان كنت جزاراً فاقتلنى وان كنت صيرفيا فبيعنى وان كنت ملكا فاعف عن، فقام إليه فاعتنقه واجلسه معه فى مرتبته وخلى به ثلثة ايام ياكل ويشرب ويتحدث.

(*) كانت معركة مازكرد سنة ١٠٧١م هى المعركة التى انكسر فيها البيرنطيين بقيادة رومانس الرابع أمام السلاجقة بقيادة الب ارسلان. ومنذ هذه المعركة أخذت الدولة البيزنطية فى التقهقر.

إلا أن استمرار إنخفاض النيل أدى إلى ارتفاع الأسعار مرة أخرى فبلغ القمح كل تليس أربعة دنانير، والأرز كل ويبة بدينار، ولحم البقر رطل ونصف بدرهم ولحم الضأن رطل بدرهم، وزيت الوقود رطل بدرهم وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم[1]. فأعيد على أثر ذلك تسعير الكثير من السلع، فسعر الخبز كل اثنى عشر رطلاً بدرهم، واللحم رطلين بدرهم، وتمت معاقبة من يخالف ذلك بالجلد، فسكنت الأحوال[2]. حيث إن العقاب لم يكن ينزل فقط بمن يخالف الأسعار، فقد ضرب عدة من الطحانين والخبازين وشهروا لأجل ازدحام الناس على الخبز، مما يشير إلى شبهة التباطوء فى أداء العمل، فأصبح الخبز لايباع إلا مبلولاً (عجينا).

وزاد فى الطنبور نغمة، استمرار الزيادة فى فيضان النيل عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧ـ ١٠٠٨م، حتى إن الناس استقوا مرتين، وفتح الخليج والماء على خمسة عشر ذراعاً فاشتد الغلاء[3]. ثم بدأ نقص النيل بعد فتح الخليج بأيام، فاشتدت المسغبة، وبيع الخبز مبلولاً، وضرب جماعة من الخبازين وشهروا لتعذر وجود الخبز بالعشايا، وبلغ الغلاء ذروته فى ربيع الآخر[4]. وعندما

(١) المصدر نفسه ص ١٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٦٩.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٦ـ ٢٨٧.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٧١.

معه ويوادده وقرر معه عهود وهدية وسير معه ثلثة الف فارس حتى اوصلوه المصيصه وعادو، فلما وصل اليها بلغه ان ميخاييل قد جلس ملكا فى القسطنطينيه وذلك فى سنة سبع مايه اربعه وثمانين للشهدا، واستعد ميخاييل بالعساكر وحشد ديوجانس وهو بالمصيصه(*) عساكر كثيرة وطلب المملكة وصارو مقدمى الروم قسمين: فرق مع ديوجانس وفرق مع ميخاييل، فسير ميخاييل

(*) المصيصة هى فى وادى ادنه شمال الاسكندرونه.

توقفت زيادة النيل عند ١٤ ذراعاً وأصابع اشتدت الأزمة ولحق بالناس كل الضرر[١]. وزادت الكارثة بانتشار الأوبئة، فاختفت الأدوية. وضمن إجراءات الوقاية الطبية، «شهر جماعة من الناس وجد عندهم فقاع وملوخيه ودلينس وضربواه»[٢]. ولأجل مواجهة السيل المنهمر من إرتفاع الأسعار، وزيادة الإحتكار، أمر الحاكم بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية، وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل[٣].

ولاعتقاد الحاكم، وكذلك بقية المسلمين، أن سبب توقف النيل هو ما يقوم به العباد من إظهار المنكرات التى نهى الله عنها مثل السكر واللهو، فقد منع الحاكم الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب النيل للتفرج، ومنع بيع المسكرات، وفرض ما يشبه حظر التجول من العشاء وحتى الفجر[٤] وإن كان الأمر لا يخلو من رغبة الحاكم فى تقييد حركة السكان وعدم التمرد.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٦.
(٢) المقريزى: الخطط ج٢ص ٢٨٧.
(٣) د. محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ص ٩٣.
(٤) المقريزى: الخطط ـ ج٢ص ٨٧، د. حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر ـ ٢٨٨، الذهبى (شمس الدين). تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ـ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٢، تاريخ، مجلد ١٦ـ ص ١٤٧.

الدمستق ابن عمه الى ديوجانس بعسكر كبير ولقيه على [نهر] ادنه فظفر [به] ديوجانس وكسره، فعاد منهزماً الى القسطنطينيه، ثم اجتهد ديوجانس بالانطاكيين ان يفتحو له انطاكية فما فعلو، وبقى هو مقيم بعسكره فى المصيصه وادنه الى طرسوس، ثم جرد ميخاييل عسكر اخر مع الدمستق ابن عمه حتى لقى ديوجانس فى ادنه فكسره الدمستق وظفر به فدخل منهزماً الى



جزء من عتب باب علوى من الخشب عليه بالحفر مشهد يمثل دخول المسيح أورشليم على أتان تستقبله الجماهير (القرن الخامس الميلادى الميلادى. كنيسة المعلقة).

وحل موعد إحتفال الأقباط بعيد الشعانين[١]، والغلاء على أشده، فمنع النصارى من تزين كنائسهم، كما جرت عادتهم، وقبض على جماعة منهم فى شهر رجب يبدو أنهم حاولوا مخالفة نواهيه، وأمر باحضار ما هو معلق على الكنائس واثباته فى ديوان الخليفة، وكتب بذلك إلى كل الولاة، وأحرقت صلبان كثيرة على باب الجامع فى الشرطة[٢]. (لعلها شرطة الفسطاط).

وقد أتت الإجراءات السابقة ثمارها فخفت حدة إرتفاع الأسعار بعض الشئ فى شهر رجب[٣]. ويبدو أن عدد الوفيات كان كبيرا خلال الأعوام ٣٩٥هـ ٣٩٨هـ، سواء من مات منهم بالوباء. أو قتل لمخالفة أوامر الحاكم، الأمر الذى دفعه إلى إستحداث ديوان جديد يقال له الديوان المفرد، ومهمته «الإستحواذ على من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم من المصادرين[٤].

(١) وهو عيد الزيتونة ويعرف بعيد الشعانين ومعناه التسبيح، ويكون فى سابع أحد من صوم المسيحيين، وجرت العادة بأن يخرجوا سعف النخيل من الكنيسة يومها للأحتفال بهذا اليوم ويرون أنه يوم ركوب المسيح الحمار فى القدس ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ـ المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٢٦٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٧١.

(٣) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٧.

(٤) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٧.

[حصن] ادنه واخذ [الدمستقى] البخت يسيراً [أسيراً]، وهو الذى كان يشد من [أزر] ديوجانس. وبقى ديوجانس ومن معه محاصرين فى حصن ادنه عدة ايام، فقال لمقدمى المدينة الى متى هذا الامر الذى نحن فيه وقد افنينا النصـ[ـارى] فيما بيننا، لا حاجة لى بالملك على هذه القضية. ثم ارسل الى الدمستق يقول له انا فى هذه الليلة اقصى شعرى واترهب والبس الـ[صوف] وبارك

وعندما كسر الخليج فى العام التالى وكان مقدار الماء فيه، ١٥ذراعاً[١]، تخوف الناس من إستمرار الحالة التى يكابدونها منذ عامين، فتظاهروا فى شارع بين القصرين، واستغاثوا بالحاكم بالحاكم ألا يهمل أمرهم.

وكان الخليفة عند حسن ظنهم به، فركب حماره وخرج من باب البحر ووقف وقال:«أنا ماض إلى جامع راشدة. فأقسم بالله إن عدت فوجدت فى الطريق وموضعاً يطأه حمارى، مكشوفاً من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لى إن عنده شيئاً منها ولأحرقن داره وأهبن ماله» وتوجه إلى الجهة التى حددها، وتأخر حتى آخر النهار، ليعطى فرصة كافية يحمل الناس خلالها غلالها إلى الطريق. ولشدة حركة النقل بلغت أجرة الحمار فى حمل النقلة الواحدة ديناراً. فلما امتلأت الطرقات بالغلال، امتلأت عيون الناس. وساعد ذلك الحاكم على أن يصدر أوامره بتقدير ما يحتاج إليه فى كل يوم وفرضه على تجار الغلات بالنسيئة وخيرهم بين أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره، بما فى ذلك من فائدة محتملة، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم، ولايمكنهم من بيع شئ منها إلى دخول الغلة الجديدة، فاستجابوا له وانخفضت الأسعار[٢].

(١) ذكر المقريزى أنه اشيع بلوغ الذراع السادسة عشر وخلع على ابن الرداد ثم نقص منذ ١٩توت (اتعاظ ـ ج٢ ص ٧٦).
(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ـ ص ١٦ـ ١٧.

الله لكم في ملككم والموعد بيني وبينك اني في
غدا اخرج اليك وعلى ثياب صوف اسود وشعرى
محمول قدامي في صينية، فلما كان بالغداة ركب
الدمستق ليتلقاه فخرج اليه بثياب الرهبنة وشعره
مقصوص بين يديه، فلما راه الدمستق وجميع
جيوشه ترجلو عن خيلهم وسجدو له وبكو وعانقه
الدمستق وبكا وسارو جميعاً الى حرصا مولى
[على] ساحل القسطنطينية وطلع الى دير هناك،

من هذه الرواية يستفاد أنه رغم نقص النيل في العام السابق، إلا أن بعض الأراضي كانت قد زرعت وأنه لولا الاحتكار التجارى والتخوف من استمرار المجاعة، لكانت الغلال تكفى حاجات السكان، وتدل عبارة «الغلة الجديدة» على أن زيادة النيل قد سمحت برى بعض الاراضى، وإلا لما كان هناك مجال للحديث عن «الغلة الجديدة».

وقد وضعت هذه المجاعة أوزارها في شهر شعبان ٣٣٩هـ/١٠٠٩م حينما «تراخت الأسعار» على حد تعبير المقريزى[١].

وشهدت خلافة الحاكم بعد ذلك أحداثاً شبيهة بما حدث وإن كانت أقل شأناً وخطورة، ففى سنة ٤٠٣هـ/١١- ١٠١٢م ارتفعت الأسعار، مما اضطر الحاكم في رجب من هذه السنة إلى «قطع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى كان يقام في شهور رجب وشعبان ورمضان، لمن يبيت بجامع القاهرة من ليلة النصف من رجب»[٢]، ولعل سبب ذلك عدم زراعة بعض الأراضى حيث بلغ النيل ١٦ ذراعاً و١٠ أصابع.

وفى عام ٤٠٣هـ/١٢ـ ١٠١٣م، إرتفعت الأسعار وازدحم الناس على الخبز ففرق الحاكم

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٧٨.
(٢) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة ـ ص ٣.

وبعث الدمستق الى ميخاييل الملك والى عمه قيصر فاعلمهما بذلك.

ولما مضى البارسلان ملك الغز الخرسانى الى اصبهان وجد ابن عمه فارود قد نافق عليه، فاندفع قدامه الى ما ورا النهر وبقى غلام له ديلمى فى قلعة حصينة، فنزل عليه البارسلان وحاصره فلما رأى الغلبة طلب منه الامان فامنه ونزل اليه، فلما كان بعد نزوله اليه بثلثة ايام وهو مقبوض عليه

مالاً على الفقراء[1]. وربما كان ذلك من جراء إنخفاض النيل فى العام السابق لأنه بلغ فى هذا العام ١٧ ذرعاً و١٢ إصبعاً.

ويذكر المقريزى أن مجاعة قد وقعت عام ٤٠٦هـ/١٥ـ١٠١٦م، وإن كانت قد جاءت بعكس سابقاتها إذا ارتفع الفيضان فى هذه السنة إلى ثلاثة أصابع من إحدى وعشرين ذراعاً، «فغرق المقياس وامتلأ كل مكان من المدينة وبلغ الماء إلى نصف النخل مما يلى بركة الحبش، ولم يبق طريق يسلك إلى القاهرة إلا من الشارع والصحراء، وأدى ذلك إلى غرق الضياع والبساتين»[2].

إلا أن قوائم النيل تخلو من ذكر لهذه الزيادة التى اتفقت المصادر التاريخية على أنها كانت ١٦ زراعاً وأصابع فإن كان هناك ثمة مجاعة فى هذه السنة فيكون سببها القصور النسبى لماء الفيضان.

أما ختام هذه السلسلة من مجاعات عهد الحاكم بأمر الله فكان، فى سنة ٤١٠هـ/١٩ـ١٠٢٠م، حيث اشتد إرتفاع الأسعار حتى وصل سعر رطل الدقيق درهماً، وبيع اللحم أربع

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ ص ٩٣، الخططة٢ ص٢٨٧.
(٢) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ص١١٢.

فى خيمة وبعث اليه البارسلان ملك الغز يقول له: لابد من قتلك فاختار اى مو[ته] تموت . فقال لرسول البارسلان: مولاى وانا كنت فى هذه القلعة من قبل ابن عمه واذا كان يريد قتلى فالمال الذى كان لابن عمه جميعه عندى فى هذه القلعة مخبى واريد احضر بين يديه واعلمه موضع المال ومبلغه ويفعل بى بعد هذا ما يريد. فمضى الرسول الى البارسلان واعلمه بذلك فامر باحضاره فلما حضر قبل الارض وتقدم حتى دنا من سرير الملك

أواق بدرهم ومات الكثير من الناس بالجوع وبلغ عدد من مات فى شهور رمضان وشوال وذى القعدة «مائتى ألف وسبعين ألفاً سوى الغرباء وهم أكثر من ذلك»[1].

ومن خلال استقراء قوائم الفيضان يمكن القول بأن سبب هذه المجاعة الأخيرة، هو إرتفاع فيضان النيل إلى حد إغراق الأراضى الزراعية (١٩ ذراعاً و٨أصابع)، ويكون ما أورده المقريزى بشأن المجاعة التى حدثت عام ٤٠٦هـ منطبقاً على هذه السنة، ويرجح أن يكون المقريزى قد خلط بين أحداث السنتين، ويؤكد ترجيحنا لهذا الاحتمال أن سنة ٤٠٦هـ بلغ النيل فيها حسب أبى المحاسن ١٦ ذرعاً وأصبعين وحسب ابن أبيك ١٦ذرعاً و٩إصابع ، وهو حد يعنى عدم زراعة بعض الأراضى، وذلك فى ضوء أن المقريزى الذى انفرد بذكر مجاعة ٤١٠هـ، لم يوضح سببها.

أما الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم، فعلى الرغم من قصر مدة خلافته(٤١١ـ٤٢٧هـ/١٠٢٠ـ١٠٣٥م) فإن البلاد شهدت فى عهده مجاعة مخيفة إمتدت عامى (٤١٤ـ٤١٥هـ/١٠٢٣ـ١٠٢٥م)[2].

وجملة الأحداث والملابسات التى وقعت خلال هذين العامين تثبت بشكل قاطع أهمية

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ ص ١١٥.

(2) Lewis (B) and others: The Cambridg Hisstory Of Islam. London 1970 - Vol . I . P. 1880.

البارسلان فقالو له قل للملك موضع المال، فقال:
الملك مولاى وانا عبده ما اقول شى الا بينى وبينه،
فـامـر ان يدنو منه فـانحنا كـانه يقـبـل الارض
فاستخرج سكين كانت معه بين الرانات والخف
ورمى نفسه على الملك وضربه بالسكين فى صدره
اوله وثانيه فوثب اليه الغلمان بالدبابيس فضربوه
حتى قتلوه وجروه بكعبه، وعاش البارسلان بعده
ساعة واوصا وزيره وخواصه وقال لهم ولدى
الوسطانى هو الملك الذى يستحق ان يكون بعدى.

الدور الذى تلعبه الإدارة المركزية، فى الحد من مخاطر نقص الفيضان، خاصة إذا ما قورنت بما وقع أيام الحاكم بأمر الله.

فلقد كان الظاهر، خلافاً لأبيه، ضعيف الشخصية، مسلوب الإرادة مع رجال الدولة الذين تركزت فى أيديهم سلطات إدارة البلاد حتى أصبح لايدخل عليه سوى ثلاثة (الشيخ نجيب الدولة الجرجرائى، والشيخ العميد محسن بن بدوس، والقائد معضاد)ويخرجون ليسيروا أمور الدولة بينما انهمك الظاهر فى لذاته[1]. فقد اشتهر بشغفه باللهو وحب الغناء، وشراء المجوهرات، وأصبح الترف سمة لعصره، إذ حاكاه رجال الدولة ومياسير القوم، الذين تأنقوا واتخذوا المغنيات والراقصات[2].

ويبدو الأمر كما لو كان الظاهر قد أتى ليجنى فقط ثمار جهاد أسلافه فى إقامة أول خلافة شيعية، غير مدفوع بهذه الروح الدينية التى أشبع بها الخلفاء الأول.

وبداية، فإنه يمكن إجمال أسباب هذه المجاعة فى:

١ـ ضعف سلطة الخليفة، رأس الدولة المركزية، وبداية ظهور رجال الدولة الأقوياء كأنداد للخليفة، يشاركونه سلطته الزمنية.

(١) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٤.
(٢) المصدر نفسه ـ ج١ص ٣٥٥.

فلما مات اجلسو ولده المذكور فسير اخوه يانس
الى الشام ومعه رجال كثير فملكه واقام فيه وسكن
في دمشق.

وكان الاب [انبا اخرسطودلوس البطرك] قد
جرت له خطوب كثير مع القس ابو يعقوب
الراهب الذى ذكرته انفاً حتى انه طمع بالبطركيه
وحدثته نفسه بانه ياخذها بيد ناصر الدولة ابن
حمدان صاحبه، وسار الى عند المذكور وقرر معه

كما أن الظاهر أهمل واجباته، كممثل للسلطة المركزية، فلم يهتم بتوفير الغذاء للناس، بل وفى أوج الأزمة، قام بالاستيلاء على ماورد إلى ساحل مصر من مراكب مملوءة قمحاً، ورسم بتسليمها لقصر الخلافة وأدى ذلك إلى أرتفاع الأسعار[1]. ومن المفارقات التاريخية أن الظاهر نزل إلى القاهرة فى نصف ذى القعدة ٤١٥هـ/١٠٢٥م، والغلاء على أشده «وشق البلد بدلالين وخلفه الخدم المقودون والمصطنعة وبين يديه الرقاصون»[2]، وفى حين أن الحاكم أبطل مظاهر اللهو والاحتفال بوازع دينى كما أسلفنا. ولم يترك أفراد الشعب المصرى هذه المناسبة دون أن يندوا بسلوك الخليفة، مذكرين إياه بما فعله أبوه، فاعترضوا مسيرة الخليفة فى تظاهرة وهم يهتفون«الجوع يا أمير المؤمنين. الجوع، لم يصنع بنا هكذا أبوك ولاجدك فالله الله فى أمرنا»[3].

٢ـ أدى ضعف الخليفة إلى تضخم دور رجال الدولة الذين مارسوا تجارة الغلال بغية الربح، ثم تمادوا فى ذلك إلى حد إحتكار الغلال والتحكم فى أسعار البيع. ويدل على ذلك نصان، وردا لدى المسبحى، أولهما فى حوادث رجب ٤١٤هـ/١٠٢٣م ويتعلق«بفتح مخازن لجماعة

(١) المسبحى، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مصر ـ تحقيق أيمن فؤاد السيد، وتيارى يانكى ـ المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٧٧ـ ج٤ص ٣٩.
(٢) المصدر نفسه ـ ص ٧٣.
(٣) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٤ .

ذلك وعاد [إلى] اسكندرية ينتظر وصول ابن حمدان اليها ليفعل له ما وعده به، فمرض ابو يعقوب الراهب ومات ودفناه في بيعة ابو مينا الشهيد الجليل الذى خارج الحصن، وعند وفاته قال لنا قس راهب كان قد جعله ولده فى الرهبنه اسمه سليمان، وكان اطروش[بطروش] وكان قديس عاقل، اعلمو ان السيد المسيح قد ستر هذا القس ابو يعقوب وستر على الشريعة بموته وما اقول لكم اكثر من هذا. ومن بعد هذا وصل ابن

من رجال الدولة» لتفرق غلاتها على الناس بسعر منخفض[1]. والثانى فى حوادث ذى القعدة ٤١٥هـ/١٠٢٥م ويشير إلى فتح مخزن لرجل يدعى مسعود، غلام الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائى، وبيع القمح الذى فيه بثلاثة دنانير التليس فتزاحم الناس عليه[2]. رغم أن هذا السعر لايبعد كثيراً عن سعر البيع فى ذى الحجة (أربعة دنانير وثلث للتليس) وهو سعر أصاب الناس بمسغبة على حد تعبير المسبحى نفسه[3]. ولقد لعب الإحتكار دوراً بارزاً فى اشتداد هذه المجاعة وخاصة فى عام ٤١٥هـ بعد أن بلغ النيل حداً يمكن معه زراعة بعض الأراضى ودرء خطر الجوع، ولم تقتصر الممارسات الإحتكارية والتلاعب بالأسعار، على رجال الدولة وغلمانهم، فقد كان هناك أيضاً مخالفات من جانب الخبازين والطحانين وتجار الغلال الذين عذروا (عوقبوا) من قبل المحتسب.

٣- خطر الغزو الخارجي، الذى لاح على حدود مصر الشرقية من قبل حسان بن مفرج بن جراح الطائى عام ٤١٥هـ/٢٤ـ١٠٢٥م، مما أدى إلى زيادة الأسعار بعد انخفاضها.

٤- نقص زيادة النيل عام ٤١٤هـ إلى ١٤ذراعاً و ١٤إصبعاً، وهو حد يعنى المجاعة، وان كان النيل فى العام التالى قد وصل إلى ١٦ذراعاً و٨ أصابع.

(١) المسبحى: أخبار مصر ج٤٠ص ١٥، المقريزى: إتعاظ الحنفا ج٢ص ١٣٥.
(٢) المسبحى: أخبار مصرج٤٠ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٦.

حمدان الى اسكندرية وكان قد عظم امره وصار يخاطب بمولانا الناصر، فلما علم بوفاة ابو يعقوب صعب عليه ذلك لانه كان يؤثره وقال: والله لو بقى الى ان اصل لبلغته مراده وجعلته بطركاً. فعلمنا من قوله ومن قول سليمان الاطروش ان ابو يعقوب اراد ان يغتصب البطركيه لنفسه بيد حمدان صاحبه وشكرنا الله اذ قصر عمره ولم يبلغ غرضه في الاخراق بالمذهب المسيحى والشرع الشريف الحوارى. وكنت فى حال وجعه افتقده

وتبدأ أحداث هذه المجاعة فى الثلاثة أيام الأخيرة من جمادى الآخر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م بنقصان ماء النيل بعد أن أوفى، فلم ترو لذلك الضياع، وكثير من الأراضى، «فكثر ضجيج الناس واستغاثتهم إلى الله، وخرج أكثر السكان من الرجال والأطفال ومعهم المصاحف إلى جبل المقطم يستغيثون بالله تعالى فلم يغاثوا»[١].

وكان أول رد فعل ـ هو إحجام التجار عن بيع الغلال فوصل سعر تليس القمح إلى دينار ثم اختفى القمح كلية وأصبح يباع سراً بدينارين للتليس، ووصل سعر حملة الدقيق إلى دينارين وربع، والخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن، مع ندرة وجوده فى الأسواق ، وبيع التبن بعشرين درهماً الحمل[٢].

---

(١) المسبحى:أخبار مصر ج٤٠ص١٢، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٣٤ـ ١٣٥.

(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ١٢ـ ١٣ذكر المقريزى فى إتعاظ الحنفا(ج٢ـص ١٣) الأسعار نفسها عدا أنه ذكر أن «ثمن الحمل الدقيق بعشرين درهما»، وهو ما أثار استغراب المحقق (هامش (١) نفس الصفحة، حيث إنه بذلك، يكون تليس القمح وهو ما يوازى نصف حملة الدقيق وزناً بدينارين وربع دينار حيث إن الرطل المصرى يساوى مائة وأربعة وأربعين درهماً والتليس مائه وخمسون رطلاً وخمسون رطلاً مصرياً حسب ابن مماتى. والراضح أن النسخة المحققة كان بها خطأ من الناسخ أو يكون المقريزى ـ وهو أمر مستبعد ـ قد أخطأ عند نقله عن المسبحى ـ الذى ورد فيه أن الحمل الذى بعشرين درهماً كان من التبن، وكلمة ثمن فهى تعنى درهم فى «الخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن» ولاتعنى الثمن أى السعر.

لانه كان اخذ ولدى يوحنا فى المعمودية فسمعته يقول: يارب قد اخطات فامهلنى سنة واحدة حتى اتوب وابكى على خطيتى، ثم قال فامهلنى ستة شهور ثم قال فشهر واحد الى ان تعقد لسانه ومات . وظهر بعد موته من فعله فى طلب اغتصاب البطركيه ما تقدم ذكره، وتمت فيه المجازاة الدنيانية العاجلة وكفى البطرك امره.

ولما ملكو اللواتيين (*)جميع اسفل الارض (*) اللواتيون: قبائل بدوية انتشرت

- -

وفى محاولة للقضاء على إرتفاع الأسعار عزل ابن عزة متولى الحسبة، وعرضت الحسبة فى رجب ٤١٤هـ/١٠٢٣م على العميدى الذى كان قد عزل من تولى الترتيب، فأبى أن يصير محتسباً بعد أن كان جليس أمير المؤمنين وصاحب خريطة، فتم تعيين دواس بن يعقوب الكتامى، محتسباً على الأسواق والسواحل، وخلع عليه بثوب مثقل وعمامة، ونزل إلى القاهرة فى موكب عظيم، حتى انتهى إلى مجلس الحسبة، فأحضر هناك الخبازين وتجار الدقيق وضرب بعضهم وشهرهم فارتدع الناس، وانخفضت الأسعار وظهرت الغلال فى الأسواق[١]، ولأن هذه الإجراءات لم تمس إحتكارات وغلال رجال الدولة، الذين مارسوا رفع الاسعار ولاشك، فإن الأمور ما لبث أن عادت إلى سيرتها الأولى، فبعد أيام قليلة أفتقد الخبز، وكثر الأزدحام على دكاكين الخبز، وكان غاية ما فعله المحتسب أن أمر ببل الخبز فى الماء فى القصارى على أن يباع بسعر ثلاثة أرطال بدرهم. وبصرف النظر عن أن هذه أول مرة يرد فيها هذا الإجراء، فإن ذلك كا يعنى عملياً إقرار سعر أكثر إرتفاعاً من الذى كان يباع به الخبز جافاً (أربعة أرطال بدرهم وثمن) طالما كان بل الخبز يعنى زيادة وزنه، أى أنه نوع من الغش التجارى المستتر والمقنن.

....

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ١٣- ١٤، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٣٥.

في الصحراء الغربية المصرية، هاجموا الاراضي الزراعية والقرى خاصة في الدلتا وغربها واشاعوا الفساد والنهب والسلب والقتل.

وصارو في اربعين الف فارس سوى اتباعهم، وصارت بلاد مصر بحكمهم يزرعو كما يريدو بلا خراج بلا مساحة الى ان افكرو وتشاورو مشورة ردية ان لا يعملو جسور في الريف ولا يحفرو تراع حتى لا يطلع الما على الاراضي ولا يزرع احد شي فيبيعو غلاتهم التي حصلوها بما يريدو ويهلكو من بقي من الناس، فارسل الله في تلك السنة وهي سنة اربع ماية اثنين وستين الخراجية جا نيل عال

- -

وهو أيضا تحيز للتجار على بيع الخبز نظراً لارتفاع أرباحهم وبحماية المحتسب ـ فظهرت الأخباز في الأسواق بعد ذلك.

ولضمان إستمرار وجود الخبز، فتحت مخازن لجماعة من رجال الدولة، وأطلق للناس من السواحل غلة كثيرة، وقام المحتسب بضرب جماعة من الخبازين وشهرهم بسبب رفعهم الأسعار، وضيق على الطحانين، الذين كانوا فيما يبدو، يقومون ببيع الدقيق للناس بسعر مرتفع بدلاً من بيعه للمخابز التي تشترى الدقيق وتبيع الخبز بأسعار محددة، حتى إنه الزمهم بترك عملهم في طحن الغلال وختم على مخازنهم وفلست طواحينهم وجعلهم خبازين[1].

أهلت سنة ٤١٥هـ والأزمة لازالت قائمة، وتضاربت الأقوال بشأن زيادة النيل في هذه السنة. فالمقريزى يذكر أن زيادة النيل جاءت ناقصة، «ولم يرُ النيل فيما تقدم من السنين أقل نقصاناً منه في هذه السنة»[2]. ثم يعود فيذكر أن ماء النيل بلغ ١٦ ذراعاً و٨أصابع[3]. ويورد

(١) المسبحي: المصدر السابق ص ١٥ـ ١٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٣٥.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢ص ١٤٢، الخطط ١ص ٣٥٤.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٧٢، ويذكر المسبحى أن النيل قد أوفى هذه السنة وهو الأصح. انظر المسبحى ـ المصدر السابق ج٤٠ص ٤٧.

جدا بغتة حتى غطا جميع الارض وزرعو الناس جميع البلاد.

واما الاب اخرسطودلوس فانه توجه بعد موت ابو يعقوب الراهب الى مصر واقام بها مدة طويلة الى ان وصل الاجل [الأفضل] امير الجيوش من عكا الى مصر وقتل من كان فيها من المنافقين وذلك في سنة ثلاث وستين واربع مايه الخراجية وهى سنة سبع ماية وتسعين للشهد الابرار

ابن أيبك وأبو المحاسن أن الزيادة كانت ١٦ ذراعاً. وهذه الحدود كما أسلفنا لاتعنى المجاعة، إلا أنها مع وجود مجاعة فى العام السابق والعوامل السابق الأشارة إليها ، من الممكن أن تزداد الأمور سوءا، وهذا ما كان. فبدأ إرتفاع الأسعار من شهر ربيع الأخر، وخاصة سعر القمح الذى بلغ التليس منه ثلاثة دنانير، «والشعير بيع أربع ويبات بدينار، وبيع الخبز رطلين ونصف بدرهم، وبلغ سعر حمل تبن الدواب ديناراً إن وجد ، وارتفعت أسعار كل ما يؤكل»[1].

وفى الشهر التالى، واصلت الأسعار إرتفاعها ، لاستيلاء الدولة على ما ورد إلى المقس من غلال لصالح مخازن القصر الفاطمى[2].

ويظهر أن الأحوال بلغت حداً لايصح السكوت عليه، تشكك معه الخليفة فى كفاءة، وربما أمانه، المحتسب، دواس بن يعقوب، فتم عزله فى ٤ رجب ٤١٥هـ ، ليحل بقى الخادم الأسود غلام بدر الدولة مكانه، إضافة إلى توليه الشرطتين (القاهرة والفسطاط)، ونظر فى

(١) المسبحى: أخبار مصر ج٤٠ ص ٣٢، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٤٢.
(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ٣٩، المقريزى: نفس المصدر ج٢ص١٤٤.

وصلحت البلاد على يده، وخرج الى اللواتيين وكسرهم وقتل جميعهم وابادهم من اعمال الريف وملكها، وسار الى الصعيد ايضاً ففتحه واباد من كان فيه من المارقين وملكه، وعاد الى مصر واقام بها ورتب الامور على نظامها القديم واعادها الى كيانها بحمد الله ومنه.

وكان اللواتيين منذ امتدت ايديهم الى الديارات بوادى هبيب فنهبوها وقتلو رهبانها وهرب من بقى

الحسبة وأمر أن يباع الخبز الخشكار خمسة أرطال بدرهم والحوارى أربعة أرطال بدرهم[1].

على أن أصحاب الطواحين وحوانيت الخبز، الذين استساغوا تساهل ابن يعقوب ، لم يرتضوا هذه الأسعار، وامتنعوا عن فتح الطواحين والحوانيت طوال اليوم التالى (٥رجب)فلم يجد الناس خبزاً ولا دقيقاً. ومن ثم اضطر الخليفة إلى عزل بقى من الحسبة يوم ٦ رجب وأعادة دواس إليها. فأمر المحتسب العائد بأن يباع الخبز الذى يباع فى الأفران خمسة أرطال بدرهم، ولعله يقصد بذلك الخبز الخشكار وهو نفس السعر الذى قرره المحتسب المعزول، على أن تباع بقية الأنواع الأخرى من الخبز بدون تسعير، وهو كما نرى «حل وسط» يضمن توفر ما يسد به رمق الناس من الخبز الردئ، وفى نفس الوقت يضمن زيادة مكاسب التجار فيما سواه من الأنواع الجيدة، وبالفعل ظهر الخبز فى الأسواق وبيع الخبز السميذ رطلين ونصف بدرهم، وما دون هذا النوع ثلاثة أرطال بدرهم[2].

(١) المسبحى: المصدر السابق ح ٤ص ٤٧ ـ٤٨ .والخشكار هو الدقيق الذى لم يستقص طحنه، ولانخله والخبز الخشكار هو المصنوع بدقيق القمح والردة ، والحوارى هو الدقيق الأبيض، والخبز الحوارى هو المصنوع من الدقيق الأبيض ـ(انظر ـ المسبحى هامش ٣،٤ص ٨٤).

(٢) المسبحى: أخبار مصر ج٤٠ ص٤٨ ـ ويذكر المحققان (هامش ٥) أن السميذ هو الحوارى وربما يكون السميذ نوع أفضل من الحوارى.

منهم الى الريف وغيره واخربوها، ونال الشعب باسكندرية ومصر حزن عظيم معما نالهم من الشدة العظيمة في ايام ابن حمدان واصحابه، وانه تسلط اللواتيين على الريف فملكوه ولم يقدر احد يزرع فيه غلة غيرهم فحرثو الغلات وامتنعو من بيعها الى ان عدمت من ارض مصر وبلغ التليس [جوال] القمح تمانين(*) دينار وعدم حتى لم يوجد، واكلوا الناس البغال والحمير الميتة وغيرها

(*) هذا الرقم يعني في الغالب ثمانية وليس (٨٠) ثمانين، قارنه بالملحق اسفل نفس الصفحة.

ولذلك، فقد كان من الطبيعي أن لايدوم وجود الخبز في الأسواق إلا أياماً معدودات، إذ عادت الأسعار إلى الأرتفاع وخاصة ثمن القمح والدقيق والخبز،واضطربت الأحوال لذلك في نفس هذا الشهر(١). وساعد على ذلك أنه سرت في البلاد شائعة مؤداها أن حسان بن جراح الذى خرج على الخلافة في الشام بعث بخمسمائة فارس إلى العريش ولم يعرف مقصدهم، فخاف الناس أن يدخلوا عن طريق القرافة فانتقل سكانها إلى الفسطاط وكذلك فعل أهالى بلبيس، وازاء إرتفاع الأسعار واضطراب الأحوال اضطرت السلطات إلى أعادة السيطرة على القرافة حتى تسكن الحالة(٢).

إستمر إرتفاع الأسعار حتى شهر شوال فبلغ سر تليس القمح دينارين ثم ثلاثة غير ثمن التليس (العبوة)، وتليس الشعير ديناراً واحداً ثم الست ويبات بدينار، والخبز رطلين بدرهم، والدقيق رطلين بدرهم واللحم الرطل بثلاثة دراهم مع تعذر وجود اللحوم سواء من الدواجن أو الحيوانات(٣). ويظهر أن وباءً قد أصاب الحيوانات والدواجن مما أدى إلى إرتفاع أسعارها حتى

(١) المسبحي: المصدر السابق ص٥٢.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٥٤.
(٣) المسبحي: أخبار مصر ج٤٠ ص٦٧ ـ ٦٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦١ ـ ١٦٢.

حتى فنيت، ثم اكل بعضهم بعضا، وجماعة منه اكلو اولادهم، وجماعة كانو ياكلون الكندر، وهو نخالة خشب النخل، ولم يزل الناس فى هذا البلا الى ان اهلك الله ناصر الدولة ابن حمدان واخوته واصحابه فقتل فى منازل الغز بمصر بيد بلدكور صهره ومن كان معه من الملحية [البحرية] الاتراك وذلك فى سنة خمس وستين واربع ماية الهلالية الموافقة لسنة ا ثنين وستين واربع ماية الخراجية، وبعد قتله بسنة واحدة وصل امير الجيوش الى مصر

وصل ثمن رأس البقر إلى خمسين ديناراً[١]، الأمر الذى اضطر الظاهر إلى إصدار أوامره بعدم ذبح شئ من الأبقار السليمة وهدد من يفعل ذلك بالقتل وذلك بغرض الحفاظ على الحيوانات التى تساعد فى أعمال الزراعة من حرث ورى ونحو ذلك[٢].

وقد أثر تناقص أعداد الحيوانات على أسعار مياه الشرب التى كانت تقوم بنقلها، فبلغت راوية الماء البغل درهمين والرواية الجمل ثلاثة دراهم[٣].

ولم يكن الوباء متفشياً فقط بين الحيوانات، بل انتشر بين الناس وازدادت حدته فى شهر شوال فيما يبدو، وذلك ما يفسر إرتفاع أسعار ما يحتاج إليه المرضى، حيث بلغ سعر الرمانة الواحدة ثلاثة دراهم، والبطيخة البرلسى ثلاثين درهماً، والأوقية الشراب درهماً[٤].

وكان انتشار الأوبئة من الكثافة، حتى إن الناس تشاغلوا بها عن شراء ماكانوا اعتادوا عليه من الفواكه والحلوى فى ليلة ميلاد المسيح، التى حلت يوم الخامس والعشرين من شوال،

(١) المقريزى: الخطط ج١ ص٣٥٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٤٩.
(٣) المسبحى: المصدر السابق ص٦٩ ـ ٧٣. المقريزى: الخطط ج١ص٣٥٤.
(٤) المسبحى: نفسه ص ٦٩ـ المقريزى:اتعاظ الحنفا ٢ص١٦٢.

وفرج الله عن الناس بفتح الريف والصعيد وكل البلاد، وتراخت [هبطت] الاسعار ورخصت فى ايامه حتى صار القمح يباع بربع دينار التليس ولله الشكر دايما ابد.

وكان امير الجيوش عند مسيره الى الصعيد حتى فتحه قد سعى اليه رجلا اسمه على القفطى بالبطرك وقال له: ان مطران اسمه بقطر من قبل اخرسطودلوس البطرك اهدم مسجد فى بلاد النوبة

«حتى إنه لم يخل منزل أحد من المرضى وأوجاع الدم والحلوق»[1].

وفيما عدا المأكولات والمشروبات على اختلاف أنواعها، فقد انخفضت قيمة ما يملكه الناس من متاع، فطرحت الثياب والأمتعة فى الأسواق، ولم تجد من يشتريها بدرهم[2]. بل وانخفضت القوة الشرائية للعملة «فيكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزاً فلا يجده»[3].

ووسط هذا الخضم من المآسى لم يجد الظاهر لإعزاز دين الله أى غضاضة فى أن يحتفل مع الناس بعيد الغطاس فى رابع ذى القعدة وكان منتهى إهتمامه أن أمر بعدم إختلاط النصارى بالمسلمين[4].

وخلال شهر ذى القعدة، ازداد تعقد الموقف، بعد أن نما إلى علم الناس إرسال حسان بن جراح ألف فارس إلى الفرما ، ففر الناس منها إلى تنيس بالمراكب، وأخذ الناس بمصر فى

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٦٩.
(٢) المسبحى: المصدر المصدر السابق ص ٦٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٢.
(٣) المقريزى: المصدر السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٤) المقريزى: الخطط ج١ص ٢٦٦.

وان في بلاد الحبشة مطران اسمه قوريل[عبدون]
وانه يراعى المسلمين ويحبهم ويكرمهم، فانفذ امير
الجيوش من الصعيد كتابا لولده الاوحد يامره فيه
ان يقبض على البطرك فقبض عليه واعتقله عنده
الى ان وصل رسول كان امير الجيوش قد انفذه الى
ملك النوبة يعرف بحسام الدولة جوامرد فعرفه
ضد ما حكاه على القفطى، فلما عاد الى القاهرة
احضر الاب انبا اخرسطودلوس البطرك الى
مجلسه مكرما مبجلا واحضر حسام الدولة

التحفظ على أموالهم «وفقد القمح والدقيق والخبز»[1]. وقام المحتسب بمعاقبة جماعة من الخبازين لأنه وجد موازينهم للأرطال ناقصة، وصنجهم التي يزنون بها الدراهم زائدة[2].

واشتد الغلاء يوم الجمعة ١٣ذى القعدة فبيع الخبز السميذرطلين بدرهم وربع والخبز الخشكار رطلين بدرهم، والحملة الدقيق بأربعة دنانير ونصف وقيراطين، والتليس القمح بثلاثة دنانير ، وبيع اللحم أربع أواق بدرهم[3].

فازدادات مسغبة الناس الذين كثر الموت بينهم لتفشي الوباء وخاصة بين الفقراء والمساكين، وبلغ الأمر بالناس أن جزارا طرح عظمة لكلب فرآه رجل شاب مستور متعفف فطرد الكلب وأخذ العظم منه ولم يزل يمتصه نيا إلى أن نال من مصه بلغه فرماه من يده وذهب. ولم يجد الفقراء ما يأكلونه، فأطعموا أولادهم قضبان القنبيط (وهو أغلظ أجزاءه) التى كان البقالون ينتزعونها من رؤوس الكرنب ويرمونها، فيجمعها الفقراء ليقتاتوا بها وباليسير من كسب اللوز والسمسم، وارتفعت أيضاً أسعار البقول[4].

(١) المصدر نفسه ج١ص ٣٥٤، اتعاظ الحنفا: ج١ص ١٦٦.
(٢) المسبحي: المصدر السابق ج٤٠ص ٧٢.
(٣) المسبحي: المصدر السابق ج٤٠ص ٧٢.
(٤) المصدر نفسه ص ٧٢ ـ ٧٣.

جوامرد وعلى المذكور وكذبه حسام الدولة فيما حكاه فاقر واعترف بكذبه، فاحضر امير الجيوش القضاة والشهود والفقها وقال لهم: ما يجب ان يفعل بهذا القفطى الكذوب الذى كذب بين ملكين؟. فافتوا الفقها بقتله، فقال امير الجيوش للبطرك: فما تقول أنت فيه؟ فقال له: ما عندنا فى مذهبنا قتل ولا مجازاة على الشر بشر وأنت السلطان والامر لله ولك. وامر بقتله فقتل وكفا الله البطرك امره. وكان وصول حسام الدولة

وأخيراً، شمر المحتسب دواس ساعد الجد، فأحضر جمالى القمح وضربهم حتى أقروا بمخازن التجار وسماسرة الغلال، التى يحملون إليها الغلال، وكتبوا له ١٥٠ مخزناً للقمح، «فوضع الطوابع عليها وهدد بقطع يد من تسول له نفسه أخذ حبة قمح منها»[١].

وتقتضى مجريات الأمور أن يقوم المحتسب بالبيع من هذه المخازن فى اليوم التالى ـ السبت ١٣ذى القعدة ـ إلا أن ذلك لم يحدث لسبب لم تذكره المصادر التاريخية. ولعله أن المحتسب أراد أن يعطى الفرصة كاملة لكبار رجال الدولة الذين يتجرون فى الغلال، كى يبيعوا مخزونهم بأعلى سعر ممكن. وهذا ما حدث بالفعل، فقد قام مسعود غلام الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائى، بفتح مخزن قمح له وباع منه بسعر ثلاثة دنانير التليس، فتزاحم الناس عليه[٢].

المهم أن الخبز الدقيق لم يظهر بالأسواق منذ يوم الجمعة وحتى يوم الاثنين ١٦ذى القعدة، ووصل سعر الدقيق، إن وجد، رطلاً ونصف بدرهم والخبز الأسود رطلين بدرهم وربع[٣].

(١) المصدر نفسه ص ٧٤ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٥.
(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ١٧٤.
(٣) نفسه،المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٥.

جـوامـرد فى ذلك الوقت من الآيات العـجـيـبـة، وجـرى لامـيـر الجـيـوش مع الاب البطرك انبـا اخرسطودلو[س] فى هذا المجلس كلام كثير ابان فيـه الاب البطريرك عن فضل وعقل ورياسة حتى عظم قـدره فى اعين الحـاضـرين. ثم قـال لأمـيـر الجيـوش ان قوريل المسمى عبدون مدعى الكهنوة ومغتصب المطرنه لانى ما وسمته ولا صليت عليه ولا جعلت له ما ادعاه لنفسـه ولا كتبت له كتـاباً بالجـملة ، وكـان قـبل ذلك قد استـقـر مسيـر ابا

فثارت الرعية وخرجوا إلى الشـوارع فى مظاهرات ضخمة واعترضوا ركب الخليفة الذى تقدمة الرقاصـون والخـدم فى النصف من ذى القـعـدة وهم يصـيـحـون «الجـوع ـ الجـوع» ومطالبين الخليـفـة أن يهتم بأمـرهم[1]. بل وقام أحد المغاربة وهو أبو عبد الله محـمـد بن جيش بن الصـمصـامى الكتامى ويقال إنه كان مجنوناً، بالوقوف تحت القصـر، وأخذ يسب الخليفة على أقبح وجه وبالغ فى ذلك فضربه الرقاصون حتى سقط وجروه برجله وسحـبوه إلى السـجن، حيث ضربه متولى الشرطة ثلاثين درة واعتقله[2].

ولم تنقطع مظاهرات الناس فى الشـوارع، وظل هتافهم «الجوع» يشق الهـواء ولاوجود لخبز أو دقيق فى الأسـواق، فتم استدعاء المحتسب دواس بن يعقوب إلى القصـر فى سادس عشر ذى القعدة، وعنف وهدد، واتهم بأنه فتن البـلاد على الخليفة، وتم تذكيره بأنه كتب بخطه تعهداً بتوفيـر القـمح والخبز حتى إدراك الغلة الجـديدة (وهذا دليل جـديد على وفـاء النيل) فـتـعـهـد المحتسب مجدداً، بتدراك الأمر وقام من فوره بتوزيع القمح على الطحانين وسعره عليهم بدينار ونصـف التليس، وأمرهم بان يـبـاع الدقـيق بأربعـة دنانيـر ونصف التليس، وأمـرهـم بأن يـبـاع

---

(١) المسبحى: المصدر نفسه ص ٧٣٣، المقريزى: الخطط ج١ص٣٥٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢ ص ١٦٤ – ١٦٥.

مرقوره اسقف وسيم الى بلاد الحبشة بكتاب البطرك وثوب من ثيابه ليلبسه لقوريل المذكور ويجعله مطراناً، وكان الاب البطرك يبكى لما الزم بذلك، فلما بان كذب القفطى وقتل وتكلم البطرك فى مجلس [الأجل الافضل] امير الجيوش بما قدمنا ذكره بطل امر قوريل واستقر مسير مرقوره الاسقف المذكور ويعرف بالوعواع الى بلاد النوبة رسولا الى الملك من قبل البطرك، ومعه رسول من قبل امير الجيوش اليه وهو رجلا شريف

الدقيق بأربعة دنانير الحملة، والخبز رطلاً ونصف بدرهم، فسكن الناس لذلك قليلا[1]. وهذه الأسعار ليست بعيدة عن الإرتفاع.

إلا أن المحتسب كان له رأى آخر، فقبيل انتهاء هذا اليوم نزل من القاهرة ومعه سجل بإلغاء جميع المكوس المقررة على الغلات الورادة إلى السواحل، وهذا يعنى تخفيض أسعارهم، ثم أضاف أمراً غاية فى الغرابة حيث ألغى التسعير الذى قرره قبل ساعات. فظهر الخبز والدقيق فى الأسواق وبأسعار قريبة من تلك التى ضج الناس بالشكوى منها، إذ وصل سعر تليس القمح إلى ثلاثة دنانير إلا ربعاً (وكان ثلاثة دنانير) والخبز السميذ رطلين بدرهم وربع، والخبز الحوارى رطلين بدرهم[2].

وبعد هذه الحوادث يصبح إحتمال تواطؤ المحتسب مع تجار الغلال من كبار رجال الدولة، أمراً أبعد من مجرد التشكك، إذ أنه كرس إرتفاع الأسعار، رغم الغاء مكوس الغلة.

وأطمعت سياسة المحتسب غير العادلة، الجشعين من التجار والباعة، الذين لم يقنعوا بأرباحهم العالية، فلجأوا إلى رفع الأسعار والغش، ففى ٢٤ من ذى القعدة، ضرب المحتسب

---

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٧٤-٧٥، المقريزى: اتعاظ ج٢ص ١٦٥ ويلاحظ ان سعر التليس القمح يوم ختم على المخازن ١٣ ذى القعدة) كان ثلاثة دنانير أى أن الفارق هو نصف دينار فقط.

(٢) المسبحى: المصدر نفسه ص ٧٥، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٦.

لقبه سيف الدولة ويعرف بالشريف الرضيع، فى طلب امير يعرف بكنز الدولة(*) كان قد نافق فى بلاد الصعيد الاعلا وافسد فيه ونهبه وملكه قبل وصول أمير الجيوش الى مصر، فلما علم [كنز الدولة] بمسيره [امير الجيوش] الى الصعيد كما قلنا بدياً هرب منه الى بلد النوبة. فلما سار الاسقف المذكور والرسول الذى معه الى بلاد النوبة بكتاب البطرك سلمه لهم الملك ووصلو به إلى مصر فقتله امير الجيوش وصلبه عند باب

(*) ملك النوبه يعتقل «كنز الدولة» الهارب إلى بلاده ويسلمه لرسول امير الجيوش.

بعض بائعى الدقيق وشهرهم على الجمال فى شوارع مصر وكانوا إثنين وعشرين رجلاً وفيهم مقدمهم ويعرف بابن البورى، وذلك لمغالاتهم فى الأسعار وسواد الأخباز وفساد الدقيق وخلطه بالمسحوق، وأعادهم إلى السجن بعد ذلك(١).

ولم يكن الغش فقط فى الدقيق والخبز، بل امتد إلى الموازين. ففى ٧ذى الحجة ضرب المحتسب بالفسطاط رجلاً حلاوياً يسكن على باب زقاق القناديل وشهره على جمل لأنه وجد أرطاله التى يبيع بها ينقص كل رطل منها أوقيتين وكل صنجة يزن بها الدراهم تزيد ثمن ($\frac{1}{8}$) درهم(٢).

ويعد هذا الحدث تأكيداً جديداً على دور الإحتكار التجارى وممارسات التجار الجشعة، وما وصل إليه الحال من إستخفاف بالسلطة المركزية من قبل التجار.

وكان من المنطقى ألا تفلح محاولات الرد التى قام بها المحتسب، فعاودت الأسعار إرتفاع من جديد خلال شهر ذى الحجة، فبيع القمح بأربعة دنانير وثلث للتليس، والحملة الدقيق بستة دنانير، والخبز رطل بدرهم، «فأصاب الناس لذلك مسبغة شديدة»(٣).

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٧٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٦.
(٢) المسبحى: نفس المصدر ص ٧٨.
(٣) المسبحى: المصدر السابق ص ٨٦.

الحـــديد(*) فيما بين القاهرة ومصر. وزاد امير الجيوش فى اكرام الاب انبا اخرسطودلوس البطرك ومراعاته. وتواتر الرخا فى أيام امير الجيوش، واستقامت الطرقات واتصل وصول القوافل الى مصر من المشرق والمغرب وكل البلاد.

(*) يذكر فى مؤلفات هذا العصر أن باب الحديد كان فى ميناء المقس بالقاهرة على النيل. اما ما يذكر هنا فهو غالبًا باب الحديد الذى كان على ميناء مصر عتيقة (الفسطاط) جنوب القاهرة.

وكان فى اخر ايام انبا اخرسطودلو [س] البطرك قد صار يوحنا بطرك على انطاكيه وهو ابن اخت انبا يوحنا بطركها المعروف بابن عبدون الذى ذكرت عجايبه، ولما تنيح جعل هذا الاب عوضاً

ولم يكن ذلك بأخر تصاريف القدر، إذ سرعان ما قام العبيد بمهاجمة سواحل الغلة ونهبوا وأحرقوا، فاختفت الأخباز والدقيق، رغم إرتفاع أسعارها حتى وصل الخبز إلى رطل واحد بدرهم(١).

وفى عام ٤٤٢هـ/١٠٣١م، كادت مأساة ٤١٤ـ٤١٥هـ أن تكرر نفسها، حينما تأخرت زيادة النيل عن أوانها أربعة أشهر ولولا أن أتخذت الدولة تدابيرها باستيراد الغلال من الشام، ثم جاءت زيادة النيل فاستقامت الأحوال(٢).

وفى سنة ٤٢٦هـ/٣٤ـ١٠٣٥م حدثت بالبلاد مجاعة بسبب تكاثر الفئران حتى أكلت الزرع وانتشر الوباء بين السكان تبعاً لذلك(٣).

تعد فترة خلافة المستنصر بالله (٤٢٧ـ ٤٨٧هـ/١٠٣٥ـ١٠٩٤م) حداً فاصلاً بين عهد الخلفاء الأقوياء وعصر الوزراء العظام وكأى فترة تحول تاريخى، حفلت خلافته بأحداث جسام،

(١) المصدر نفسه ص ٨٨، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٧٠.
(٢) اتعاظ الحنفا ٢ ص ١٨٠، الخطط ج١ص٣٥٥. يذكر أبو الفدا أنه حدثت زلازل بمصر والشام فهدمت شيئاً كثيراً ومات تحت الأنقاض الكثير من الناس سنة ٤٢٥هـ البداية ج١٢ص ٣٦.
(٣) المقريزى: اتعاظ ج٢ص ١٨٠.

عنه واسموه كاسمه [كأسمه] يوحنا وكان قديس، وكتب اليه الاب انبا اخرسطودلوس كتابا يشكو اليه ماجرى عليه من النهب والاسر والعقوبة وانه خرج من نعمته كما تخرج الشعرة من العجين، وأخذ له زايد عن ماية الف دينار وغير ذلك مما شرحه في كتابه، فكتب اليه الجواب على يد انسان قس سرياني يسمى صمويل من اهل القدس وصار حبيساً قديساً في صومعة بالريف تسمى ارري رزقنا الله بركة صلواته، يذكر فيه كلاماً حسناً

يحار الدارس أمام تشابك أحداثها، وتناقض معلوماتها، ناهيك عن صعوبة الفصل بين الأسباب والنتائج، حيث توالي الأحداث عملها تأثيرا وتأثرا.

وبديهى أن ما وقع من أحداث فى خلافة المستنصر بالله، تكمن بذوره فى فترات سابقة، طالما كان كل جديد نابتاً من القديم ويحمل بعضاً من صفاته، وجاءت ولادة عصر المستنصر من رحم خلافة أبيه الظاهر لإعزاز دين الله، والذى يعد فترة إنتقال بين عهدين، عهد سيطرة الخلفاء وعهد سيادة الوزراء.

وقبل الدخول إلى سرد وقائع المجاعات التى عاشها الناس فى عهد المستنصر بالله يحسن أن أعراض للأسباب العامة التى كانت وراء هذه الأحداث.

١. ضعف السلطة المركزية:

يرجع سبب هذه المجاعات قبل أى شئ إلى ضعف شخصية المستنصر بالله، الذى ولى الخلافة وعمره سبع سنوات[١] وإذا كان أبوه قد حافظ بعض الشئ على سلطاته الزمانية، رغم تفرد رجال دولته بإدارة معظم شؤون البلاد، فإن المستنصر لم يستطيع بعد أن شب عن

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ـ طبعة النهضة المصرية ١٩٤٨ـ ج٤ص ٣١٧ويذكر لين بول أن عمره كان ٨أشهر فقط ـ انظر سيرة القاهرة ص ١٣٨.

ويتشوقه ويشرح له الامانة والمحبة والاتحاد المسيحى الذى لبطاركة هذين الكرسيين، ثم قال له فيه: فاما ما ذكره الاخ القديس شريكنا فى الخدمة من خروجه من نعمته كخروج الشعرة من العجين وما ناله مما شرحه في كتابه فاني انا الخاطي اجل قدره ورياسته وقدسه عن هذا القول واى مال لنا نحن الذين صرنا فى هذه الرياسة الجليلة التى لا نستحقها الا غنا السيد المسيح الهنا الذى كان على الارض ياكلو تلاميذه بين يديه خبز الصدقة

الطوق أن يستخلص صلاحياته من براثن الوزراء ورجال الإدارة والجند، مثلما فعل جده الحاكم بأمر الله. إن ظاهرة ضعف سلطة الخليفة التى أطلت برأسها على استحياء فى عهد الظاهر، ظهرت هنا مكتملة الأبعاد، ويوردها المقريزى على رأس العوامل التى أفضت إلى الشدة المستنصرية[1].

وحال ضعف الخليفة دون سيطرته على طموح القواد ورجال البلاط والخصيان الذين أخذوا يحيكون الدسائس، وساعد على ذلك إنسياق المستنصر لما يسمعه من وشايات وشكايات، فأكثر من تغيير الوزراء حتى إن الوزارة وليها خلال تسع سنوات أربعون وزيراً بعضهم قضى فى منصبه يوماً واحداً[2].

وبدأ ذلك الاضطراب فى تغيير الوزراء فيما يبدو عام ٤٥٠هـ/٥٨ـ١٠٥٩م(٤)، واشتدت سرعة تغيير الوزراء وكذلك القضاة فى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م[3].

ولاشك أن سرعة إجراء التغييرات الوزارية والقضائية، أضعف من قوة الوزراء وأعجزهم عن تدبير الأمور، وأوقع الإختلاف بين فئات الجند، نتيجة لإختلاف سياسات الوزراء الذين

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢٣.
(٢) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ص ٨٨.
(٣) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٦.

وهو القادر الذى اشبع الالوف من خمسة ارغفة شعير ورفع من الفضلات اضعاف ذلك، وكذلك بطرس ريس الحواريون وجميع التلاميذ القديسين الذين نحن خلفاهم لم يكنز احد منهم كنزاً ولا كان لاحد منهم سوى ثوب واحد لا غير حتى ان القديس العظيم حبيب السيد المسيح يوحنا ابن زبدى الانجيلى كان يخدم فى زبل الحمام بمدينة افسس عند انسان رومى وياكل الخبز بتعبه فى مستوقد الحمام، فكيف يكون لنا نحن الحقيرين

حاول كل واحد منهم أن يتبع سياسة ترضى الطرف الذى فى مكنته الإيعاز بعزله من منصبة[1].

واضاف إلى ذلك فإن المستنصر كان لايشارك وزراءه المسؤلية كما كان يفعل الخلفاء من قبله، وترك هذه المهمة إلى أمه التى كانت تتحكم فى تغيير الوزراء، وتتلقب بالسيدة الملكة، ويخاطبها الرجال فى حضرة ابنها بمولاتهم ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع[2].

٢. تزايد نفوذ العسكريين:

نشأ عن ضعف الخليفة، وتدهور نفوذ وزرائه فراغ سياسى لم يملأه سوى العسكر، فقد كانوا بحكم تنظيمهم العسكرى، هم القوة الوحيدة فى البلاد التى يمكن أن يكون لها صدى فى تقرير أمور البلاد، سواء لاعتبارات تملك السلاح والقوة، أو سهولة التحرك بأوامر قادتهم، ووجد العسكريون ـ على إختلاف طوائفهم ـ فى ضعف وتردد إدارة البلاد فرصتهم المواتية لتوسيع رقعة نفوذهم وزيادة نصيبهم من ثروات البلاد، فطالبوا بزيادة رواتبهم، وألحوا فى ذلك حتى خلت خزائن الدولة، فأقضوا مضاجع الخليفة والوزراء، وألجأوا الخليفة إلى بيع محتويات خزائنه لهم لأجل تسديد رواتبهم، فأخذوها بأبخس الأثمان، ثم تمادى بهم الحال فاقتسموا ريع الأراضى المزروعة.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢١، اتعاظ الحنفا ج٢ص ٢٦٢ـ ٢٦٣.
(٢) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧٥.

مال. وذكر له من هذا فى كتابه شيأ كثير وهو تعزية وتوبيخ وتسلية.

وبعد هذا تنيح الاب المذكور انبا يوحنا ، وجلس بعده ابا باسيل البطرك واقام سنة واحد ونصف وتنيح، ولم تصل منه سنوديقا ولا ذكر اسمه فى كنايس بلاد مصر لا فى قداس ولا فى صلاة، وبقى اسم القديس يوحنا يذكر على جارى العادة. واقام كرسى انطاكيه خالياً مدة كبيرة لاستحواذ

وقد بدأ صعود العسكرين السياسى منذ عام ٤٥٠هـ[١]، وهو نفس العام الذى كثر فيه تغير الوزراء.

٢. الفتن والمنازعات:

تميز الجيش الفاطمى منذ فتح مصر بتباين العناصر العرقية المكونة له، فكان يضم إلى جانب المغاربة الذين شكلوا العمود الفقرى لجيش الغزو، عناصر موجودة فى الشرق من الديلم والأتراك، وعناصر سوداء من الزنوج ومن العبيد الذين يشترون من تجار الرقيق، وضم أيضاً البدو والمصريين[٢].

ورأينا كيف أن النزاعات التى ثارت بين بعض الطوائف فى عصرى الحاكم والظاهر، قد زادت من اضطراب البلاد وزيادة الأسعار، إلا أنها كانت نزاعات محدودة يمكن لسلطة الدولة تطويقها، فلما ضعفت السلطة المركزية، برزت نزاعات الجند لتصبح ملمحاً رئيساً من ملامح الحياة فى عصر المستنصر، الذى ترك الأمر إلى وزارائه فحاولوا السيطرة على أمور البلاد عن طريق الإستعانة ببعض طوائف الجيش.

ففى محاولة من الوزير الفلاحى للتفرد بشؤون الحكم دون الملكة أم المستنصر، سعى إلى

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢٢-٢٣، اتعاظ الحنفا ج٢ص ٢٦٢- ٢٦٣.

(٢) د. ماجد : المرجع السابق ص ٣٦٩- ٣٧٤.

الغز [الترك] على تللك البلاد وما جرى فيها من
الفتن والسبى والقتل الى ان اجتمع اربعة وثلثين
رجلا مطارنة واساقفة في دير برصوما واقامو بطركاً
على كرسي انطاكية كان اسمه العازر وسموه
ديوناسيوس وكتب رسالة سنوديقا على يد قس
سرياني اسمه توما قد صار الان اسقفا على بغداد،
وكان وصوله بها في ايام القديس كيرلص بطرك
اسكندرية رزقنا الله بركة صلاته وسنذكر ذلك في

تأليب الأتراك على السودان للقضاء عليهم، وهم، أى السودان، كانوا من نفس جنس الملكة، التى اعتمدت عليهم، ولجأ أثناء ذلك إلى زيادة رواتب السودان والمغاربة، وانقاص عطاء الأتراك واوهم أن التسترى هو المسؤل عن ذلك فقتل الاتراك التسترى وما لبثت الملكة أن نجحت فى قتل الفلاحى، وأحلت فى منصبه الوزير أبا البركات الذى اختلف مع سياسة الملكة فى إضعاف الأتراك، فعزلته وولت رئيس ديوانها الخاص الجديد المعروف باليازورى، الذى نجح بقوة شخصيته فى وقف النزاع بين طوائف الجند إلى حد ما[1].

ومع ذلك، فقد ظلت أم المستنصر على سياستها فى تقريب بنى جنسها من السودان وبدا واضحاً للأتراك أن الجيش الذى تم تكوينه من ٥٠ألف جندى سوادنى يشكلون حرس الخليفة وأمه، ليس إلا مقدمة للقضاء عليهم، لهذا أصبحت البلاد وكأنها مخزن بارود، تكفى شرارة صغيرة لإحداث إنفجاره الهائل[2].

(١) ابن ميسر، محمد بن على بن يوسف بن جلب: أخبار مصر ـ تصحيح هنرى ماسيه ـ المعهد العلمى الفرنسى القاهرة ١٩١٩ـج٢ص ١٤، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين: ص ٣٧٥ـ٣٧٦. والتسترى هو أبو سعد بن سهل التسترى، يهودى كان يقوم هو وأخوه أبو نصر هارون بالإتجار فى عهد الحاكم، وتقرب أبو سعد إلى الظاهر وباع له جارية سوداء أولدها المستنصر بالله، فرعت لأبى سعد ذلك، فعينته فى ديوانها، وقد عمل أبو سعد على عزل الأنبارى من الوزارة وتولية الفلاحى .انظر ابن مسير: أخبار مصر ج٢ ص ١٣ـ١٤، المقريزى: الخطط ج١ص٤٢٤.
(٢) د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٨٩.

سيرته. وتنيح الاب القديس انبا اخرسطودولس البطرك يوم السبت الرابع عشر من كيهك سنة سبع ماية اربعة وتسعين للشهد الابرار ودفن فى كنيسة السيدة الطاهرة المعروفة بالمعلقة بقصر الشمع[بمصر عتيقة]، وكان مدة مقامه على الكرسى الانجيلى ثلثون سنة، وبعد مدة حمل جسده المقدس الى دير ابو مقار بوادى هبيب رزقنا الله بركة صلواته امين.

وبمقتل اليازورى قويت إحتمالات تفجر الصراع، إذ تولى الوزارة البابلى، الذى عمل بمشورة أم المستنصر فأغرى السودان بالأتراك، فتغيرت نياتهم«وصار فى قلب كل طائفة من الأخرى إحن»[١].

وجاءت شرارة الانفجار فى جمادى الآخر عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، عندما خرج المستنصر كعادته فى كل سنة إلى جب عميرة وهو موضع نزهة بهيئة أنه خارج للحج ومعه الخمر فى الروايا ليسقيه للناس عوضاً عن الماء، فجرد أثناء ذلك أحد الأتراك سيفاً على بعض السودان، فقتله السوادن[٢].

إحتج الأتراك على هذا الحادث لدى المستنصر، الذى استنكره ونفى رضاه عن ذلك، فحمل بعض الأتراك على جماعة من السودان عند كوم شريك فانهزم السودان وقتل منهم عدد كبير. بعد هذه الهزيمة سارعت إم المستنصر إلى إمداد السودان بالمال والسلاح، فلما ضبط الأتراك بعضاً مما كانت ترسله، دخلوا على الخليفة ثائرين وأغلظوا له فى القول فانكر أى صلة له بتأييد السوادن ، وثار النزاع المسلح ثانية، حتى تمكن أبو الفرج محمد بن جعفر

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ص ١٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ص ١٧ـ١٨، د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٨٩ـ ٩٠.

الاب كيرلس البطرك وهو
من العدد السابع والستون
[١٠٧٨، ١٠٩٢م]

ولما تنيح الاب انبا اخرسطودلوس البطرك فى السنة الحادية والاربعين من مملكة المستنصر بالله امير المومنين فى ايام امير الجيوش [الأجل الافضل] المقدم ذكره، كانت النوبة فى اقامة البطرك للكهنة والاراخنة المصريين ورهبان دير ابو مقار، فسار

المغربى الوزير من الإصلاح بين السودان والأتراك، وخرج السودان على أثر ذلك إلى شبرا دمنهور[١].

لم تستمر الهدنة بين الأتراك والسودان طويلاً، وتجددت الإشتباكات المسلحة بينهما عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، واستطاع الأترك بقيادة ناصر الدولة بن حمدان أن يهزموا السودان بالإسكندرية فى موضع يعرف بالكرم، وقتل نحو ألف من السودان وهرب من بقى حياً، ثم تم الصلح بينهما بعد ذلك[٢].

وهذه أول مرة يرد فيها اسم ابن حمدان مقترناً بقيادة الأتراك، وهو الحسن بن حمدان أبو محمد التغلبى الأمير ناصر الدولة ذو المجدين[٣]. وهو من أسرة الحمدانيين التى قضى الفاطميون على حكمها فى حلب، ومع ذلك فقد ولى بعض الحمدانيين مناصب فى ولايات الشام، وعين ابن حمدان هذا فى ولاية دمشق سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م، إلا أنه عاد إلى مصر سنة ٤٠هـ/١٠٤٨م، وتولى فى وزارة اليازورى حكم الريف بشرقية وغربيه فكان يجبى

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ج١٢ص ١٣، أبو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ص ١٨ـ ١٩، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٧٦.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ج٥ص ٢٠.

جماعة من الاساقفة وهم انبا قزمان اسقف نوسا [مركز أجا]، وابا يوحنا اسقف سخا [مركز كفر الشيخ] المعروف بابن الظالم، وابا مرقس اسقف ابو صير، وابا مرقوره اسقف مصيل، وانبا غبريل اسقف بسطه وهو كرسى الخندق، وانبا خايال اسقف قطور[مركز طنطا]، وابا تادرس اسقف خربتا [كوم حماده بالبحيرة]، واباما جرجه اسقف ابطوا(*)، وابا يوحنا اسقف اتريب [مركز بنها]، وابا مرقس اسقف البلينا وابا بطرس اسقف

(*) ابطوا: كانت عاصمة لمملكة الوجه البحرى قبل عهد مينا. تقع الآن ضمن مركز دسوق محافظة كفر الشيخ.

الجوالى[١]. ويبدوا أنه أعيد مرة أخرى إلى ولاية دمشق فى رجب سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ومنها خرج فى ٦ربيع الأول سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م، بناء على أوامر الخليفة، على رأس جيش كثيف جاءه من مصر، لأجل إعادة خطبة المستنصر إلى حلب، التى سيطر عليها معز الدولة ابن مرداس، ولكنه انهزم عنها فى مستهل شعبان واصيب بضربة شُلت منها يده. وبقيت المدينة تحت سيطرة المرادسيين[٢]. ويعود ابن حمدان إلى مصر ، كأنه على موعد مع القدر، ليقود الأتراك فى فترة حاسمة من تاريخ دولة الفاطميين، وكانت أسرته تتولى زمام الأتراك وأمراءهم منذ عهد الحاكم بأمر الله[٣].

ويعد عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، نقطة تحول هامة على طريق تزايد نفوذ الترك، الذين تقووا بهزيمتهم للسودان مرتين، فقد استغلوا عدم مقدرة الدولة على سداد رواتبهم بسبب نقص النيل عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م. وهو بدء ما عرف بالشدة المستنصرية، وطالبوا بزيادة وجباتهم، ومنعوا السوادن من أرزاقهم، فتفاقم الوضع من تزايد أعداد السودان الذين بلغوا ٥٠ألف رجل ما بين فارس وراجل[٤].

(١) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٨٣-٣٨٤.
(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ص ١٠-١٢. ويذكر د. ماجد أن ابن حمدان توجه إلى حلب عام ٤٥٠هـ، وعاد منهزماً عنها عام ٤٥٢هـ. انظر : ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٨٤.
(٣) د. ماجد : المرجع السابق ـ ص ,٣٨٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٧٣، د. ماجد: المرجع السابق ـ ص ٣٧٧.

البهنسى [البهنسا] وابا مقاره اسقف القيس [مركز بنى ضرار] ، وابا مينا اسقف البنوانين [مركز المحلة الكبرى] ، وغيرهم من الاساقفة والكهنة ، وبعض كهنة الاسكندرية وجماعة من المصريين ومضو الى دير ابو مقار واقامو مقدار شهرين يرتادو من يصلح للبطركية، فلم يتفق لهم. فنهض بعض الاساقفة ومعهم شروط الراهب الارشى دياقن بدير ابو مقار ومضو الى دير ابو كما لياخذو قديس الله بسوس الراهب بالحقيقة الذى تقدم ذكر فضايله وعجايبه،

عندئذ لم يكن السودان بحاجة إلى أوامر المستنصر التى بعثت لتغريهم بالأتراك، فأجتمعوا وحضروا من شبرا دمنهور إلى الجيزة، وانتهت الحروب التى دارت بين الطائفتين بهزيمة السودان وفرارهم إلى الصعيد[1].

كان فرار السودان إلى الصعيد، إنسحاباً تكتيكياً، لإعادة ترتيب الصفوف، وتأهباً لجولة أخرى من الصراع، وبالفعل تجمع السودان هناك وبلغ عددهم نحو ١٥ ألفاً ما بين فارس وراجل فقلق من ذلك الأتراك ودخلوا يشكون إلى المستنصر بالله فاغتنمت أم الخليفة الفرصة وأمرت بعض عبيدها السودان فهاجموا الأتراك وقتلوا منهم. على أثر ذلك بدأت حملة تصفية جسدية للسودان الذين بقوا فى القاهرة والفسطاط، ولم يبق إلا السودان الذين فروا إلى الصعيد، وفريق آخر كان فى الإسكندرية، التى حاصرها ابن حمدان فطلبوا الأمان، ورتب ابن حمدان عليها من يثق به[2].

أعطت إنتصارات الأتراك الجديدة ، زخماً لابن حمدان الطامح إلى السلطة، فاستهان بالخليفة الذى أضحى بلاحماية بعد هزيمة السودان، وبدأ استعداءه للخليفة فى عام ٤٦٠هـ/٦٧ـ١٠٦٨م، عندما طلب زيادة رواتب الأتراك من ٢٨٠٠٠ دينار شهرياً إلى

---

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ١٧ ، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٣ .
(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ـ ج٢ ص١٧ ،المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٣- ٢٧٤ ، د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٩٠.

فلما هموان يمسكوه صاح عليهم واخذ حجارة
يدق بها صدره حتى كاد ان يقتل نفسه ثم قال: انا
ابن مملوك تجعلونى بطرك لا تطلبونى انا ولا مقاره
الامنوت الذى قد هرب منكم واختفا ولا تتعبو فان
بطرككـــهم هوذا هو عندهم فى الاسكنا بدير ابو
مقار. وكان انبا اخرسطودلو نيح الله نفسه قد
تحــدث مع قس عندنا باسكندرية مكفـــوف
[معكوف] في كنيسة السيدة اسمه رجا فقال
القس المذكور للاب انبا اخرسطودلوس: حسره

٤٠٠,٠٠٠ دينار، مع علمه بخواء خزينة الدولة بسبب اضطراب الأحوال وعدم زراعة الأرض[1]. وألح الأتراك فى طلب رواتبهم، وحاصروا المستنصر وأخذوا جميع الأموال ثم اقتسموا الأعمال، وساروا بعد ذلك إلى دار الوزير أبى كدينة مطالبين بالأموال فاعتذر بخروج البلاد عن سلطة الخلافة، وافلاس الخزينة، فأمروه بإعلام الخليفة بمطالبهم، فخرجت الرقعة بخط المستنصر مكتوب بها:

أصبحت لا أرجو ولا أتقى   إلا إلهى وله الفضل
جدى نبى وإمامى أبى   وقولى التوحيد والعدل

المال مال الله ـ والعبد عبد الله. والإعطاء خير من المنع. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

واعتذر الخليفة بأنه لم يبق عنده شئ، فاضطره الأتراك إلى إخراج ذخائر الخلافة وبيعها، فأخذ يخرجها تدريجياً وهم يأخذون التحف والذخائر «لأنفسهم بأيديهم ويثمنونها بأقل القيم، وأبخس الأثمان»[2].

(١) ابن ميسر: نفس المصدر – ص ١٧، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ـ ج٨ص ١١٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

عليك يا ابونا القديس الفاضل كيف يعدمك هذا الشعب ومن اين يجدو مثلك. فقال له: يجلس بعدى على هذا الكرسي راهب جيد اسمه جرجه وهو جران في ضيعة من اعمال البحيره تسمى افلاقه [مركز دمنهور]. وحدثني انا الخاطى ابو البركات ابن زوين (ناقل هذه السيره(*) من القلاية البطركية لنفسه ولولده ابو اليمن ابن بنوب وهو يوميذ كاتب القلاية المذكورة في بطركية الاب القديس ابا يوحنا [يوأنس]

(*) كاتب هذه السيرة أبو البركات ابن زوين.

لم يقف السودان خلال هذه الفترة مكتوفي الأيدى، فتغلبوا على الصعيد وأكثروا السلب والنهب والقتل حتى ضج الناس بالشكوى منهم، عندئذ سار الأتراك إليهم في شهر رمضان سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م وبلغت نفقتهم من ديوان الخليفة مليون دينار أيضاً، إلا أنهم هذه المرة هزموا أمام السودان، فعادوا إلى الجيزة[١].

إتهم الأتراك المستنصر بمساندة السودان بالأموال، وجهروا له بالسوء من القول، فنفى تقديمه يد العون للسودان، ثم أجبروه على أن ينفق فيهم مليون دينار أخرى عوضاً عما ضاع من أموالهم.

وبذلك تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، وعادوا إلى محاربة السودان، ونجحوا في استئصال شأفتهم نهائياً، وتفرد الأترك وابن حمدان بالأمور وتحكموا في الدولة حتى عام ٤٦١هـ/٦٨ـ١٠٦٩م[٢].

ولم تفلح محاولات التخلص من ابن حمدان، فقد هاجمه صيرفي ولم يتمكن إلا من جرحه ، فقبض عليه وشنق[٣]، وكان ذلك بتدبير المستنصر وأمه.

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٧.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ١٨. المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٦، د. راشد البراوى: حالة مصر ـ ص ,٩١
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٢ ص٨٣.

البطرك [رقم ۷۲] فی سنة ست وستين وستماية للشهد عن [ابيه بنوب] وكان كاتب القلاية قديماً عن ابا كيرلس البطرك)، انه كان الاب انبا اخرسطودلوس البطرك جعل ابهامه على فم القرابة(*)، وكان القس المصلح [المُعيّن] بطركاً وهو ابا كيرلس الى جانبه لانه من قسا [قساوسة] الاسكنا، فصلب به على جبينه وقال له: ايتهسك. وتفسيره دهنتك. وعجايب الله في قديسيه الذى يظهر لهم الخفيات. فلما توفا انبا اخرسطودلوس

(*) القرابه : قارورة زيت للتعميد غالباً. وكانت في الغالب على شكل قارب.

سعى ابن حمدان، لإسقاط الخلافة نهائياً، لأنه اتفق مع رجل من الأشراف هو أبو طاهر حيدرة بن الحسن الحسيني الذى نفاه والى دمشق بدر الجمالى، وكان هذا الرجل محبباً للناس وتلقبه العامة المسلمين بأمير المؤمنين، على أن يوليه الخلافة لنسبه الصحيح، وتحالفا لأجل ذلك مع بعض العرب واستقل ابن حمدان بقسم من الجيش وخاصة طائفة الأكراد التى ربما كان تاج الملوك شادى زعيمها(١).

وبصورة واضحة تحول ابن حمدان منذ عام ٤٦١هـ من متمرد تحت دعوى حماية حقوق الأتراك، إلى متمرد على الخليفة الفا طمى وحتى الأتراك. فقد أعمته أطماعه الخاصة عن الحفاظ على قوة الأتراك عناصره الفاعلة فى إرباك أمور الخلافة، واستأثر لنفسه واتباعه المقربين من الاكراد بما كان يخرج من أموال وذخائر المستنصر، وبدأ يتصرف فى الأمور بمفرده كسيد مطلق السلطان، وخاصة أنه قام بتقسيم دور المكوس والجبايات على قواده ءحتى لم يبق للدولة دخل يعول عليه ولامال فى القياصر يرجع إليه(٢).

رأى الأتراك أنه لو زالت دولة الفاطميين، أنهم سيفقدون نفوذهم فتحركوا باتجاه تدعيم

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٣، د. ماجد : ظهور خلافة - ص ٣٨٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٨.

شنع [اشيع] في اسكندرية بان راى الجماعة قد اتفق على ان يجعلوا مقاره الامنوت [بطركاً] وانهم قد سارو كلهم الى الدير لياخذوه، فقال رجا القس المذكور لي : ما هكذى قال لي ابى أبا اخرسطودلوس. فلما لم يجدوه ووصل اليهم الخبر الصحيح بالذى قد جعل قال: حقاً هكذى قال لى. واما الاساقفة والارشي دياقن الذين مضو الى دير ابو كما فانهم عادو من يومهم الى ديرهم واخبرو الجمع بما جرى لهم مع القديس بسوس

الخليفة، بهدف التخلص من ابن حمدان، ورفعوا الأمر إلى الوزير وقالوا إن كل ما يخرج من الخليفة يقصره ابن حمدان على أتباعه ولايعلمهم منه شئ ، فطلب الوزير منهم التخلى عن مساندته والعمل على إخراجه من مصر فوافقوه على ذلك، وشرع المستنصر فى تنفيذ الاتفاق، فطلب من ابن حمدان الخروج من القاهرة، وامتثل ابن حمدان للأمر لما أيقن إنحياز الأتراك للخليفةو، وخرج إلى الجيزة فانتهبت دوره ودور أصحابه وحاشيته[1].

ولكن ابن حمدان لم تعيه الحيل، فتحالف مع القائد تاج الملوك شادى على قتل الوزير خطير الملك، والدكز الذى قاد الأتراك ضد ناصر الدولة، حتى تتاح لهما فرصة التفرد بالسلطة واتفقا على أن يقوم شادى ورجاله بقتل الوزير والدكز عند مرورهما بشارع بين القصرين فى الطريق لقصر الخليفة، ونما إلى علم الدكز تفاصيل الإتفاق فالتجأ إلى القصور واستجار بالمستنصر في الليل. بينما أقدم الوزير فى موكبه صباحاً فبادره تاج الملوك وجنوده فقتلوه، وأرسل إلى ناصر الدولة فحضر إلى القاهرة[2]. آنذاك لم يكن للحرب بد، فلبس المستنصر عدة الحرب عملاً بمشورة الدكز وقاد الجند وعامة الشعب أيضاً، واستطاع أن يهزم ابن حمدان ويقتل الكثير من أتباعه، ففر ابن حمدان إلى البحيرة واستجار ببنى سنبس من قبائل

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٨ ، د. البراوى: المرجع السابق ـ ص ٩١.

(٢) ابن ميسر المصدر السابق ـ ص ١٨ ـ ١٩ ، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٩.

ومـا قـال لهم، فـصلو واكـثرو الابتـهـال الى الله سبحنه في ان يرشدهم الى الذى قد اصطفاه لهذا الامر، فذكرو جماعة ولم يتفقو على واحد منهم الى ان دخل لهم راهب قس فى دير ابو مقار كهل اسـمـه جـرجه، فلما راوه القا الله جل اسـمـه في قلوبهم اجمعين الاتفاق على تصييره، فقامو اليه كلهم واخـذوه كـرهاً والبسـوه الثـوب واسـمـوه كيرلس وهو يبكى ويقول : انا ابن ثانية ما اصلح لهذا الامر. فلم ينثنو عنه وكان ذلك فى يوم احد

العـرب وتزوج منهـم[1]، فتقوى بهم وبقبائل قيس ولواتة، وانضم إليه بعض المشارقة، وبدأ يستعد لجولة جديدة من الصراع[2].

ووجد ناصر الدولة نفسه بعد انفضاض الأتراك من حوله فى طور جديد من النزاع مع الخلافة يصعب خلاله الأستيلاء على الحكم بمجرد التحالف مع بعض القبائل العربية فلجأ إلى الاستعانة بقوة كبيرة يسعدها إسقاط خلافة الفاطميين، وهى السلاجقة، فبعث الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن النجارى رسولاً منه إلى السلطان ألب أرسلان بالعراق فى عام ٤٦٢هـ/٦٩ـ١٠٧٠م، طالباً منه مدداً عسكريا ليقيم الدعوة للخلافة العباسية بمصر[3].

هنا شمر المستنصر بالله عن ساعد الجد، إنقاذاً لخلافته من السقوط، فجهز جيشاً كبيراً من

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ـ شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٢ ـ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
والسنابسة بطن كان يقيم بالبحيرة من أعمال مصر وينتسب إلى لبيد بن سنبس بن معاوية بن ثعل بن عمرو بن الغوث طئ بن أملان من القحطانية . انظر عمرو رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٩٤٩ـ ج٢ ص ٥٥٦.

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٨ـ١٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٧٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٤ـ ١٥، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٨٧.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٢.

الرفاع وسارو به الى اسكندرية وكرز بها فى الثانى والعشرين من برمهات سنة سبع ماية اربعة وتسعين للشهد، ثم سار الى مصر فانفذ انبا يعقوب اسقف مصر الى شيخ ابو الفضل يحيى ابن ابرهيم، وهو يوميذ متولى ديوان الابواب بمصر ومتولى ديوان الصناعة [الاسطول]، واعلمه بوصوله الى كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر [الروضه]، فانفذ له عشارى [قارب] موكبى سلطانى فركب فيه هو ومن معه وعدا الى مصر فاجتمع على الشط

الأتراك وقسمه إلى ثلاثة فرق، لكل منها مقدم، والأرجح أن هذا التقسيم كان تقسيما بحكم الأمر الواقع،إذا أنه راعى فيما يبدو وجود ثلاثة قواد رئيسيين بين الأتراك، فجعل كلاً منهم على رأس فرقة.

ويفسر ذلك أن كل مقدم عمل بمفرده على هزيمة ابن حمدان طمعاً فى أن يعود إليه الفضل فى هذا العمل مما يدعم موقفه في السيطرة على الدولة. ولم يدخل الجيش الحرب مدججاً بروح «المركزية»، فهزمت أول فرقة أمام ابن حمدان وأعراب البحيرة وقتل أفرادها واستولى على أسلحتها، وتلى ذلك إنهزام الفرقة الثانية لم تكن على علم بما حدث ثم تقدم ابن حمدان فأجهز على بقية الجيش[١].

بعد هذه الإنتصارات الباهرة أخذ ناصر الدولة فى تدعيم قواته بفضل ما غنمه من الأترك، وعاث فى البلاد فساداً وأعمل السلب والنهب والقتل، فأثار الذعر فى الوجه البحرى، الذى أصبح تحت سيطرته الكاملة ، وكون لنفسه دولة داخل الدولة، غير خاضعة لنفوذ الخليفة، بل وخطب فيها للخليفة العباسى القائم بأمر الله[٢].

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٣٠٢ـ ٣٠٣، ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٢٠.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٠ ، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣٠٣، د. السيد عبد العزيز سالم:تاريخ الإسكندرية ـ ص ١٨٧.

[الشاطئ] من العامة خلق كثير، وطلع الى القاهرة وبين يديه القراة حتى وصل الى القصر ودخل هو ومن معه من باب البحر حتى وصلو الى باب القاعة، فخرج اليه مامون الدولة عنبر الحرانى الاستاذ، وهو يوميذ صاحب الرسالة، وقال له: امير المومنين يرد عليك السلام. فصقع [فركع] الى قرب الارض ثم اخذه ودخل به وحده الى مولانا المستنصر بالله امير المومنين وعنده امه واخته جالسين وبين ايديهم طيب كثير فضحموه

ولم يكن ذلك آخر ما في جعبة ابن حمدان، فقد أعقب سيطرته على الوجه البحرى بممارسة ضغط اقتصادى شديد على مركز الخلافة، القاهرة ، بقطع الميرة عنها، إضافة إلى أن استمرار الحروب أدى إلى عجز الفلاحين عن زراعة الأرض فاشتدت الحالة على الناس[1].

وأتى الحصار الاقتصادى ثماره سريعاً، إذ ارتفعت الأسعار وثار الشعب، فخاف المستنصر من ثورته وخشى أن يسلمه إلى ابن حمدان، ووافق الأتراك على الإذعان لشروط ابن حمدان، وأصبح هو فى قصره كالمحجور عليه[2]. وعقد الأتراك المصالحة مع ابن حمدان فى عام ٤٦٣هـ ٧٠ ـ ١٠٧١م بسبب نقص الغذاء وعدم زراعة الأرض وانتشار الأوبئة[3].

وتم الاتفاق على أن يظل ابن حمدان بالبحيرة، وترسل له الأموال التى تقرر له، وأن يكون تاج الملوك شادى نائبه فى القاهرة ، وهو الذى يضمن نفاذ الأموال اليه.

وبفضل هذا الاتفاق دخلت الغلال إلى القاهرة والفسطاط، فطابت قلوب الناس، ودام الأمر على ذلك لمدة شهر واحد ، إختلف من بعده الأتراك مع ابن حمدان، فجاء من البحيرة

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٥.
(٣) د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ٩١.

[فضمخوه] من ذلك الطيب وقالو بارك علينا
وعلى قصرنا فبارك عليهم ودعا لهم ففرحو به
وقالو له جعلك الله مبارك علينا وعلى دولتنا، ثم
خرج ووقف على باب القاعة وامر بطرس اسقف
دقميره ان يقر الدعا فقراه وبارك هو ايضاً ودعا،
وخرج والقراة بين يديه الى دار الاجل [الأفضل]
امير الجيوش فلقى منه اجمل ملقا واجلسه وادناه
واكرمه وطيب نفسه فدعا له دعا كثير، وامر
بطرس الاسقف المذكور فقرى الدعا هناك ايضاً

بعساكره إلى مصر وحاصرها في ذى القعدة وأحرق وخطف النساء من الطرق، ثم عاد إلى البحيرة[1] بعد أن وعده الأتراك فيما يبدو بتطبيق نفس شروط الصلح السابقة.

إلا أن تاج الملوك شادى أخل بالتزاماته المالية تجاه ناصر الدولة، فزحف الأخير بالعربان إلى الجيزة، واستدعى شادياً وبعض المقدمين فخرجوا إليه مطمئنين، فقبض عليهم، وألقى العربان النار في الفسطاط ونهبوا وسلبوا[2]. وفي هذه المرة نجح الجيش الذى جهزه المستنصر في هزيمة ابن حمدان ومطاردته هو وأتباعه، فعاد إلى البحيرة مرة أخرى[3].

كان ذلك يعنى إنهياراً لاتفاق ٤٦٣هـ، الذى نص ولاشك على إعادة الخطبة للمستنصر، فقام ناصر الدولة بقطع خطبة المستنصر من الوجه البحرى وخطب مرة أخرى للقائم العباسى وراسله في بغداد، يطلب منه أن يجهز له الخلع والألوية السوداء (شعار العباسيين)، «فاضمحل أمر المستنصر وتلاشى قدره»[4].

(١) ابن ميسر: أخبار مصر - ج٢ ص ٢١، المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ ص ٣٠٥.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر - ج٢ص ٢١.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٣٠٦.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق - ص ٢١، المقريزى: المصدر السابق - ص ٣١٦.

على باب المجلس، وكان والى مصر قايم بين يدى
مولاه امير الجيوش فامره ان يخرج ويركب معه
حتى ينزل الى مصر والى حيث يريد وان يراعيه
ويخدمه ويقضى حوايجه ما دام بمصر، فخرج
مكرماً مبجلا ونزل الى كنيسة السيدة المعلقة
بمصر بقصر الشمع وكرز فيها، ثم طلع بعد ايام
الى كنيسة السيدة بالقاهرة بحارة الروم وكرز فيها،
ولما خرج فى الصوم الكبير الى دير ابو مقار حكا
لى من كان معه هناك من الاساقفة انه لما رفع

ثم حدثت معارك بين المشارقة (الاتراك) والمغاربة عند كوم الريش بالقرب من القاهرة عام ٤٦٤هـ/ ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وقتل فى هذه المعارك ١٢ألفاً من الفريقين[١].

وساعدت هذه الفتن وضعف شخصية الخليفة، ابن حمدان على تفكيك الجبهة الموالية للخليفة، فاستمال كثيراً من الأتراك، وأيقن عندئذ عجز المستنصر عن مقاومته فى ظل تدهور الأحوال الاقتصادية وتفشى الأوبئة، فدخل مصر بعساكره فى شعبان ٤٦٤هـ/١٠٧٢م[٢].

ومن الفسطاط، أرسل ابن حمدان إلى القاهرة ليطلب الأموال من الخليفة، فوجد رسوله الخليفة جالساً على حصير بغير فرش ولاأبهة، وليس عنده غير ثلاثة من الخدم، فلما أدى الرسالة قال له المستنصر، أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس على هذه الحال؟ فبكى رسول ناصر الدولة ونقل إلى موفده ما رأى، فرق له وقرر للخليفة نفقة شهرية مائة دينار، «ومارس الحكم بنفسه، وأصبح الخليفة مجرد مسمى بلا معنى»[٣].

وكانت أول خطوة لناصر الدولة تصفية حساباته مع أم المستنصر فقبض عليها وعاقبها غير

---

(١) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧٧.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ص ٢١، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣١٦.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٢١.

قليلة [إناء] الميرون المقدس في اسكنا ابو مقار يوم الخميس الكبير فاضت القليلة على يديه وعلى المذبح حتى تعجب الحاضرين ومجدو الله جل اسمه، وبعد هذا وصل توما القس المقدم ذكره في هتور سنة سبع ماية خمسة وتسعين للشهدا ومعه الرسالة السنوديقا باسمه واوصلها اليه وقريت في كنايس مصر وذكر اسمه على هياكلها ودعى له فيها في اوقات الصلوات والقداسات كما جرت العادة، وكتب له رسالة سنوديقا جواباً عن رسالته

مرة حتى استصفى أموالها ويقال إنها فرت إلى بغداد مع بعض أهل المستنصر[1]، وإن كان ذلك أمر ا مستبعداً بحكم العدواة التقليدية مع الدول العباسية.

وتمهيداً لإزالة الخلافة الفاطمية من مصر عمل على إخلاء القاهرة من أعوان المستنصر الأقوياء والذين يمكن أن يقفوا حجر عثرة في سبيل ذلك، فكان يوليهم الأعمال ثم يعزلهم منها بمجرد وصولهم إليها ولايمكنهم من العودة مرة أخرى إلى القاهرة[2].

وأخذ ابن حمدان يعد العدة لإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة وإسقاط اسم المستنصر من الخطبة، الأمر الذى أ ثار مخاوف الأتراك من ضيا ع مكانتهم التى تمتعوا بها في الدولة الفاطمية، إذا ما أقيمت الدعوة لبنى العباس وصارت ولاية تابعة لخلافة بغداد والسلاجقة الأقوياء، فعملوا على قتل ابن حمدان، وتزعم هذا الأتجاه صهر ناصر الدولة «الدكز» التركى الذى كان متزوجاً من ابنه ناصر الدولة، وتشارك مع الأمير يلدكوز أو يلدكوشى ، ونجحا في جمع رأى الأتر اك على ذلك[3].

وتولى الدكز هذه المهمة، لأن ناصر الدولة يأمن له لكونه صهره فاصطحب معه غلام له

---

(١) المصدر نفسه المكان نفسه.
(٢) ابن الأثير: الكامل ـ ج١٠ ص ٢٧ ـ ٣٠.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا – ج٢ ص ٣٠٩.

وكـان ابا كـيـرلس البطركى فى اكـثـر اوقـاته فى كنيسة ميكاييل بجزيرة مصر فى الموضع المعروف بالمختارة مقيما فى الجوسق الذى فيها، وكان يشتهى ان يكون مقامـه فى الريف فلا يقدر لكثرة الرسل الواردين من بلاد الحبـشـة والنوبة والعايدين اليـهـا وحاجة السلطان الى حضوره عنده فى كل وقت، وكـان سـلمـون(*) ملك النوبة قـد ترك المملكة وعزل نفسه عنها وسلمها لجرجه ابن اخته وانفرد هو للعَبادة والنسك. فلما كان فى السنة الثانية من

(*) سلمون ملك النوبة يترهب سراً في أحد اديرة الصعيد.

«أبو منصور كمشتكين» ويلقب بحسام الدولة بعد أن أطلعه على جلية الأمر ودخلا على ناصر الدولة، في مستهل شهر رمضان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م.

والفراشون ينفضون البسط ليقعد عليها، وهو يمشي في صحن الدار، فمشي الدكز معه ثم تأخر عنه وضربه في خاصرته «بيافروت» وهو سكين مغربي، فعاجله كمشتكين بضربة قطعت رجليه ثم حزت رأسه[١]. وبذلك وضعت نهاية لحياة ناصر الدولة الذى لم يكن قط ناصراً لدولة الفاطميين. ثم قام الأتراك بتتبع أقارب ناصر الدولة ورجاله حتى أبادو هم وقطع ابن حمدان قطعاً، وأنفذت كل قطعة إلى بلد[٢].

إلا أن الستار لم يسدل مع مقتل ابن حمدان، إلا لينفرج عن فصل جديد، أخذ فيه الأتراك دور ابن حمدان، فقد أرادوا أن يجنوا ثمار انتصارهم على عدو الخلافة، فدخلوا على المستنصر ومعهم رؤوس اعدائه وطلبوا الاموال، فرد المستنصر بأن الأموال أخذها ابن حمدان وأن الخلاف كان بينه وبين الأتراك، وأنهم هم الذين نقضوا العهد معه، ولكن الأمر استقر على ما جرت عليه العادة، إذ أخرج المستنصر من خزائنه قطعاً من المرجان وعروضاً أخرى حمل ثمنها إلى الدكز ورفقته[٣].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢١.
(٢) المصدر نفسه ـ ج٥ ص ٢١ ـ٢٢، ابن المصدر السابق - ص٢٢، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣٠٩ـ٣١٠.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢٢.

بطركية انبا كيرلس مضى سلمون المذكور الى
وادى يعرف بالقديس ابو نفر ليتعبد هناك في بيعة
على اسمه، بينها وبين اطراف النوبة مسيرة ثلثة ايام
وبينها وبين اسوان مسيرة عشرة ايام، وكان والى
اسوان يوميذ اسعد الدولة شاردكين القواسى، فاتاه
احد اخوة كنز الدولة وقال له: يا مولاى تريد
امضى اخذ سلمون الذى كان ملك النوبة واتيك
به. قال له: نعم، فاخذ معه عشرون رجلا وركبو
النجب وسارو في خفية حتى وصلو الى البيعة

ومارس الأتراك منذ بداية عام ٤٤٦هـ/١٠٧٣م، الضغط على الخليفة، وكان على رأسهم سلطان الجيوش يلدكوز التركي والأمير الدكز ومعهم الوزير أبى كدينة. وخاب ظن المستنصر في أن يكون في مقتل ابن حمدان راحة له.[١] وبلغت سيطرة الدكز حداً مكنه من فرض حظر الدخول إلى القاهرة أو الخروج منها، ولعله سعى إلى الملك[٢].

أيقن المستنصر أن مصير خلافته أصبح في مهب الريح، فقد تحالف عليه الأتراك بعد فناء معظم السودان والمغاربة، واستبد به اليأس فلم يجد مخرجاً إلا باستدعاء بدر الجمالى من عكا بفلسطين عله يستطيع إنقاذه من تسلط الدكز والأتراك[٣].

قبل بدر المهمه بشريطة أن يقدم بعسكر من الارمن وأن لايبقى أحداً من عساكر مصر ولاوزرائها، فأجابه المستنصر إلى ذلك[٤].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٣١١.
(٢) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٩٢.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ ص ٢٢، د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ٦٩. وبدر الجمالى هو بدر بن عبد الله، وكان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار أحد ولاة طرابلس الشام، فعرف بالجمالى نسبة إليه وبدر من أصل أرمنى تمكن بجده وحزمه من التنقل في المناسب حتى ولى دمشق وصور عام ٤٤٥هـ/١٠٦٣ وحارب بأمر الخلافة المتمردين في حلب ودمشق ثم تولى ولاية عكا في سنة ٤٦٢هـ/٦٩ـ١٠٧٠ وبقى بها حتى طلب المستنصر نجدته .د. ماجد: المرجع السابق ـ ص ٣٩٣.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٢.

بوادى ابو نفر وكبسوها بغتة فاخذو سلمون المذكور واحضروه الى اسعد الدولة فسيره الى القاهرة، فلما وصل اليها تلقاه كلمن فيها من الامرا والمقدمين بالطبول والبنود والبوقات، ولما دخل الى القاهرة اكرمه امير الجيوش وانزله فى دار حسنة وحمل اليه الكسوة والفرش والانية، واقام على هذه القضية مقدار سنة ثم تنيح ودفن فى دير القديس مارى جرجس بالخندق.

وقسم الاب انبا كيرلس مطراناً للحبشة وهو

سار بدر إلى مصر عام ٤٦٦هـ (ديسمبر ١٠٧٣م) فى مائة مركب ومعه جنوده وعبد الله ابن المستنصر الذى فر إليه أثناء الأحداث وذلك رغم تحذيره من حالة البحر فى الشتاء، ولكن الظروف الجوية واتته ودامت كذلك أربعين يوماً وصل بعدها إلى دمياط[١]. وأقام مدة بدمياط، اقترض خلالها مالاً من تجار تنيس ويقال افترضه عليهم، ثم قدم عليه سليمان اللواتى[٢] وهو يومئذ كبير أهل البحيرة وأوسعهم حالاً، حاملاً معه الغلال، وأمن له الطريق حتى وصل إلى قليوب على مقربة من القاهرة.

ومن هناك طلب من المستنصر القبض على يلدكوز حتى يتمكن من دخول القاهرة، فبادر المستنصر إلى القبض عليه[٣].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٣١١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـج٥ص ٢٠.

(٢) اللواتيون من أعراب غرب مصر وفروعهم بنو هانى وبنو سليمان وبنو متكنيت. انظر : عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب - ج٣ص ١٠١٧.

(٣) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٣، المقريزى: المصدر السابق ـ ج٢ص ٣١٢، ويذكر د. ماجد أن لواته قاومت بدراً عند نزوله إلى دمياط وأنه قتل منهم الألوف وعلى رأسهم سليمان اللواتى (ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٩٣) والواقع أن بدر الجمالي قاتلهم بعد ذلك كما يستفاد من ابن ميسر ـج٢ص ٢٤) ومن سياق ماورد فى سجل من المستنصر إلى حاكم اليمن على بن الصليحى بتاريخ المحرم سنة ٤٦٣ هـ ـ انظر د. ماجد : السجلات المستنصرية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ص ١٨٤. ويمكن إرجاع تعاون لواته مع بدر الجمالى عند نزوله إلى أن اللواتين كانوا حلفاء ابن حمدان الذى قتله الأتراك.

شاب عالم اسمه سويرس ابن اخت بقطر المطران المتوفا، وكان قد تربا هناك مع خاله المذكور، وكان اوعد امير الجيوش بمواعيد[وعود] كثيرة حتى تقدم لابا كيرلس بتقدمته وقسمته، وقال انه يواصله بالهدايا من هناك ويدع الملوك تطيعه. فلما سار ووصل الى بلاد الحبشة قاومه قوريل الذى ذكرناه آنفا، وان الاب اخرسطودلوس قال لامير الجيوش انه لم يقسمه وانه مغتصب الكهنوت وخاصمه وناصبه. ثم جمع هذا قوريل ماله وسار

بعدها دخل بدر القاهرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وأرسل كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة ليلاً، وأمره أن يأتيه برأسه، فأصبح وقد أحضر من رؤوس أمراء الدولة شئ كثير فقبض على بقية الأتراك وتتبع المفسدين حتى قضى عليهم وفر ابن يلدكوز إلى الشام(١).

وبعد القضاء على الأتراك بات واضحاً أن خطة بدر تقضى أولاً باسترداد السلطة المركزية لهيبتها فى العاصمة، القاهرة، وتخليصها من إسار السيطرة التركية ثم التوجه بعد ذلك إلى أقاليم الدولة، للسيطرة عليها. فقتل جماعة من أماثل حكامهم ووزرائهم واتجه إلى الدلتا فحارب فى شرقها وغربها اللواتيين والعرب حتى قضى على كل من سولت له نفسه الأنتقاص من سيطرة الحكومة الكاملة(٢).

٤. نقص فيضان النيل:

لم يصل النيل خلال المجاعات التى وقعت فى عصر المستنصر، إلى حد القحط، كما وأنه لم يقل عن ١٦ ذراعاً إلا فى مرتين (٤٤٦، ٤٦٠هـ) وتعدى خلالها ١٥ ذراعاً، ولذا فليس بإمكاننا أن نحمل الفيضان وزر هذه المجاعات، وتعد مسؤوليته عنها مسؤولية محدودة وجزئية،

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٣.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٢٤، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣١٤ ـ ٣١٦.

الى[مملكة] دهلك(*) وكان معه مال كثير فقبض عليه صاحب دهلك واخذ جميع ماله وسيره الى [الأجل الافضل] امير الجيوش ، فلما وصل الى القاهرة احضره الى مجلسه ثم استقصا عنه فعلم صحة ما قيل فيه فاعتقله في خزانة [سجن] البنود مدة ثم ضرب عنقه في سنة ثمان ماية وستين للشهد، ثم وصلت كتب من سويرس المطران يعلمه ان بلاد الحبشه قد تمهدت وزال ما كان فيها من الفساد، وان الملك ووزراه واهل مملكته

(*) دهلك: من ممالك النوبة فى ذلك الوقت.

ولعل ذلك هو الذى حدا بالمقريزى أن يورده فى آخر قائمة أسباب الشدة المستنصرية، بل إنه يزيد الأمر تفصيلاً فيقول إن من أسبابها«عدم من يزرع ما شمله الرى»[1] أى موت الكثير من الفلاحين. هذا إلى جانب ما كان يقوم به عرب لواته من نهب وسلب منطقة الدلتا.

تبدأ سلسلة مجاعات عصر المستنصر بواحدة وقعت عام ٤٤٤هـ/٥٢ـ ١٠٥٣م، ولايمكن أن يكون سببها قصور النيل[2]، كما يقول المقريزى إذ بلغت زيادة النيل فى هذه السنة ١٧ ذراعاً و٥ أصابع وهو حد لايمكن القول معه بأن النيل ناقص رغم تسليمنا بأن ذلك غير كاف لزراعة جميع الأراضى.

ولذا وجب البحث عن عامل آخر كان له التأثير الأقوى فى نشأة هذه المجاعة، ويشد الإنتباه

(١) المقريزى: إغاثة الأمة – ص ٢٣ . ويذكرBroklmannأن سبب الشدة المستنصرية هو الإنخفاض فى فيضان النيل، انظر. Brokimann. op. cit.p. 162 ويذهب د. ماجد نفس المذهب مستشهداً فى ذلك بقوائم النيل التى أوردها أبو المحاسن فى الجزء الخامس من النجوم الزاهرة.
وتؤكد رواية القلقشندى أن مسؤولية الفيضان عن المجاعة كانت محدودة حيث يذكر أن الفيضان لم يوف خلال العامين الأولين، ثم وفى النيل فى السنة الثالثة وقام إلى الخامسة ثم نزل فى وقته فلم يوجد من يزرع لقلة الناس، وأنه وفى فى السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة. القلشندى ــ ج٣ص ٢٩٦ .
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ــ ص ٢١٧، الخطط ــ ج١ص ٣٥٦.

واصحابه وجميع رعيته كان لهم عدة نسا [نساء] لكل واحد منهم وانه لم يزل مع الملك يردعه عن هذا ويلاطفه ويعضه [يعظه] الى ان ابعد عنه جميع نساه ولم يبق له سوى زوجة واحدة مع ام اولاده، وانه اجتهد في ان يخلى الزوجة ويبقى مع ام اولاده فقط فلم يقدر فقال له قد خليت نساى كلهم واما هذه فما اقدر اخليها ولا لى عنها صبر لشدة محبتى لها، وانه فسح له فى ذلك وتغافل عنه خوفاً من ان ينحرف الامر معه، وانه فعل

أن المخازن السلطانية لم يكن فيها شئ من الغلال، فاشتدت لذلك المسغبة[1]. وأن سبب ذلك هو تغيير الوزير اليازورى عندما كان قاضياً لبضائع المتجرد أو المخازن السلطانية.

والمتجرد عبارة عما يباع للديوان من بضائع يحتاج إليها وتدر الربح أيضا[2]، وكانت الدولة تشترى فى كل عام بمائة ألف دينار غلالاً، وكان هذا الأحتياطى يوزع وقت الحاجة على الطحانين والخبازين[3] وكان وجود هذا المخزون كفيلاً بمنع التجار من التفكير فى التلاعب بالأسعار[4].

ويعنى ذلك أن هذا المتجرد لم يكن هدفه الرئيسى الربح بل كان التخفيف عن كاهل الشعب وخاصة وقت الأزمات، ولكن اليازورى لم يفهم ذلك، ونظر إليه نظرة التاجر الذى يروم الربح، لا نظرة رجل الدولة المسؤول، فذكر للخليفة أن المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين ولربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن فى المخازن.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ١٢٤، الخطط ـج١ص ١٠٩.
(٢) المقريزى: الخطط ـج١ص ١٠٩.
(٣) د. عبد المنعم ماجد: امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى – مقال بالمجلة التاريخية المصرية – القاهرة ١٩٧٧ ـ مجلد ٢٤ـ ص ٣٥.
(٤) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٢٧٤ـ٢٧٥.

كذلك مع اهل مملكته ومقدمين دولته وساير رعيته وتركو كلهم ما كانو يعتمدو عليه من اتخاذ كثرة النسا، وسال فى كتابه ان يكتب البطرك كتاباً الى الملك واهل مملكته ووزراه ورجال دولته يعظهم فيه ويعلمهم ان هذا هو الصواب ويمنعهم من التمسك بعادات العتيقة ويذكر لهم التعاليم الروحانية من الكتب المقدسة العتية والحديثة ويشرح فيه ما يصح قوله عندهم ويقوى امره فى نفوسهم وينتفعو به فى دنياهم واخرتهم، فاجاب

وزين للخليفة أن يقيم متجراً لاكلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة، ولايخشى عليه من التغير فى المخازن لانحطاط سعره، فأمضى المستنصر ما رآه اليازورى واشترى للمتجر الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما إلى ذلك[1].

و لقد وجد اليازورى فى حادثة عابرة مبرراً لمشورته تلك ، إذ قام أحد باعة الخبز ببيع خبزه بسعر أقل من السعر السائد فى السوق وذلك خوفاً من كساده إذا برد، فعاقبه عريف الخبازين بمعرفة عونين من الحسبة أغراماه عشر ة دراهم. فشكا البائع ذلك إلى القاضى (اليازورى) الذى عزل العريف وكافأ البائع الذى ذهبت بعقله المكأفاة، فأخذ يرخص فى سعر خبزه والباعة يتبعونه خوفاً من الكساد، فنزل سعر الخبز من أربعه أرطال بدرهم ، فخيل لليازورى أن ذلك قانون سوف يدوم[2].

إلا أن الإختيار الحقيقى لهذه السياسة التى انتخبها اليازورى تجاه المخزن كان فى عام ٤٤٦هـ/٥٤ـ١٠٥٥م، عندما وقعت مجاعة كان سببها إنخفاض النيل(١٥ ذاعاً و١٤إصبعاً حسب الدوادارى) وصحب هذه المجاعة إنتشار للوباء بين السكان، ولم يكن فى المخازن إلا

---

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ب ج٢ص ٢٢٥.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٧ـ١٩.

سواله وكتب كتاباً كما يجب على اوفا مما راد
وانفذه اليه مع الرسل الذى وصلو اليه بكتبه. ولما
خلت عدة كراسى من اساقفتهم اقسم لهم اساقفة
جدد ولم ياخذ شرطونية بالجملة وقطعها اصلا
واشترط على كلمن يقسمه ان يكون نصف ما
يتحصل فى الكرسى للاسقف والنصف لقلاية
مارى مرقص الانجيلى عن الرسم القديم، واوقف ما
يتحصل من بعض الكراسى على دير القديس ابو
مقار وهى دميره وابو صير بنا ودمنهور والاهناسيه،

جرايات من فى القصور ومطبخ السلطان وحواشيه فقط.[١] نتيجة لتخلى الدولة عن دورها فى شراء الغلال.

حاول اليازورى أن يوقف الكارثة، ولم يكن الرجل الذى تنقصه الفطنة والحصافة، فاتجه إلى مخازن التجار فختم عليها واستولى على ما بها من الغلال، إذ كان التجار يقومون بشراء الغلال قبل حصادها من عمال النواحى مقابل ضمان التجار لسداد خراج الدولة دون أن يجهد العمال أنفسهم فى مطالبة الفلاحين ومطالبتهم بالتعجيل فى الدفع، ثم يحمل التجار الغلال إلى مخازنهم بعد الحصاد[٢].

وقامت الدولة بشراء الغلال المصادرة، وأربحت التجار فى ثمنها $\frac{١}{٨}$ دينار، ونقلت الغلال بالمركب إلى مصر وأودعت المخازن السلطانية، وسعر القمح كل تليس بثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير، وحدد اليازورى تموينا لمصر والقاهرة مقداره يومياً سبعمائة تليس لمصر وثلثمائة للقاهرة، فاستقرت الأحوال لمدة عشرين شهراً حتى دخلت الغلة الجديدة فزال الغلاء[٣].

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ص ٢٢٦، وإن كان المقريزى فى الخطط(ج١ص ٣٥٦) يذكر ذلك فى حوادث ٤٤٧هـ، والأصح أن ذلك حدث فى سنة ٤٤٦هـ حسبما ذكر فى إغاثة الأمة ـ ص ١٩ـ٢٠.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٩ـ٢٠، اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٢٦.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٢٦.

وكتب كتبها وشرط فيها شروط يقويها، وسلمها للرهبان قومة الدير المذكور. واوقف ايضا نصف كرسي رشيد ونصف كرسي مصيل على بيعة القديس مارى مرقس الانجيلي وانفذ المال الذى حصل من نصف الكرس[يين]وصرفه على بناء كنيسة القديسين] باسكندرية المعروفة بالقمحا على يد «بمين» القمص لانه كان رجلا فيه خير وهو من اقرباه، واعمر كنايس كثيرة. فلما كان في سنة ثمان مائة واثنين للشهدا اجتمع اساقفة من بحرى

وتحسباً لاحتمال إستمرار نقصان النيل، طلبت الدولة الفاطمية من الامبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع Constntine IX Nonamochos إمداد مصر بالقمح لمواجهة المجاعة التي استمرت حتى وفاة الامبراطور عام ٤٤٧ هـ / ٥٥ ـ ١٠٥٦م، فلما خلفته ابنته تيودورا Theodora اشترطت إشتراك مصر في معاهدة دفاعية هجومية مع بيزنطة، فرفض اليازورى، لأن حاجة مصر للغلال مسألة مؤقتة رهن بفيضان النيل[١].

وحاول المستنصر أن يؤدب تيودورا لمنعها الغلال، فجهز عسكراً بقيادة مكين الدولة الحسن بن على بن ملهم وتبعهم بعسكر ثان وثالث، ونودى فى سائر الشام بالغزو إلى بلاد الروم[٢]. ونزل ابن ملهم قريباً من فاميّه فحاصرها وجال فى أعمال إنطاكية وسبى ونهب، فأخرج البيزنطيون ثمانين قطعة بحرية حاربت ابن ملهم وهزمته وأسر هو وجماعة كثيرة[٣].

سعى المستنصر بعد ذلك إلى إصلاح العلاقات مع دولة بيزنطة فبعث فى سنة ٤٤٧ هـ/ ٥٥ ـ ١٠٥٦م ، أبا عبد الله القضاعى برسالة إلى القسطنطينية، فوجد بها رسول طغرل بك

---

(١) د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ١٠١.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٧.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.

واراخنه من مصر وقالو للاب القديس انبا كيرلس:
انت ياابونا القديس روحانى لكن هوذا يصحبك
من يفسد احوال الشعب وليس يصلح لمثل هولآ
ان يصحبوك لانهم يشينوك. قال لهم: ومن هولآ
الذين تكرهو صحبتهم لى، قالو له: جرجه اسقف
ابطوا وابرهام اسقف دبقو ويستس الذى كان
راهب وقلع الاسكيم وتزوج بامراة، وبنوب الكاتب
وابو الكرم الراهب، هولآ الخمسة لا ينبغى ان
يكونو لك اتباعاً. وجرى لهم معه خطوب فى هذا

السلجوقي، وقد أتى من العراق وسمح له بالصلاة فى مسجد القسطنطينية والدعاء للخليفة العباسي، فما كان من الخليفة الفاطمى إلا أن قبض على جميع ما بكنيسة القيامة ببيت المقدس، فازدادت العلاقات المصرية ـ البيزنطية سوءاً[1].

وصحب هذه المجاعة وباء شديد أودى بحياة الكثيرين وخاصة فى عام ٤٤٧هـ ـ ٤٤٨هـ[2] حتى إن عطاراً باع فى يوم واحد ألف قارورة شراب[3]. وقدر من مات فى مصر فى سنة ٤٤٨هـ / ٥٦ ـ ١٠٥٧م بألف إنسان كل يوم[4]. ويذكر أن ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور فوجدوا عند الصباح موتى أحدهم على باب النقبة والثانى على رأس الدرجة، والثالث على الثياب التى كوروها[5].

وساعد على تفاقم الأزمة عام ٤٤٨هـ أن الأموال فى القصر خلت نتيجة للإنفاق لأجل

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٧، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٣٠، وشمل الوباء والقحط بغداد والشام أيضاً. ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حيدر آباد وسمى عام ٤٤٨هـ. فيها بعام الجوع الكبير. انظر: الذهبى ـ تاريخ الإسلام ـ مجلد ١٦ـ ص ٢٠٠.
(٣) ابن المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٥٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل ـ ج٨ص ٧٩.
(٥) أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ ص ٦٨.

الى ان كتبو مدرج [وثيقة] وثبتو فيه ابعاد هولآء عنه، واخذو خطه فيه بالرضا بما تضمنه، فلما مضو عنه لم يرى اعتماد برايهم على ذلك والا صار كأنه من تحت امرهم وكأنهم الحاكمين عليه، واحتشم ايضاً من ابعاد المذكورين وقد خدموه وصحبوه وصار لهم عليه خدمة فابقاهم على حالهم، الا ابو الكرم الراهب فانه ابعده لذميم طريقته.

وكان بعض الاساقفة البحريين عند قسمة هذا الاب كيرلس يعتقدو ا نه يكون مدبر برايهم ويكونو

تجهيز المؤيد فى الدين الذى أرسل لدعم ثورة البساسيرى الذى أقام الدعوة للفاطميين فى بغداد[1].

وقد خلط المقريزى بين هذه المجاعة والشدة المستنصرية، حيث ذكر أنها امتدت سبع سنواءت بدءاً من عام ٤٤٧هـ[2].

ولم تكن مصر وحدها هى التى تعانى من المجاعة والوباء. فقد حدث بمكة سنة ٤٤٧هـ مجاعة. بسبب اعتمادها على ما ترسله مصر من الطعام والغلال وعدم إرسال الطعام إليها فى هذه السنة وبلغ سعر الخبز عشرة أرطال بدينار، ثم اختفى الخبز، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك، ولم ينقذهم إلا الجراد الذى ملأ الأرض فأكلوه ثم خفت وطأة الأزمة برحيل الحجاج عن مكة[3].

وفى عام ٤٤٨هـ عمّ الوباء والغلاء مكة والحجاز وديار بكر والموصل وخراسان والجبال وسائر بلاد الشام وأكل الناس الميتة فى العراق[4].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٨، عن ثورة أبى الحارث أرسلان بن عبدالله البساسيرى. انظر: ابن خلكان : رفيات الأعيان ـ ج١ص ١٧٢ـ ١٧٣.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.
(٣) ابن الأثير: كامل ـ ج٨ص ٧٣.
(٤) المصدر السابق ـ ص ٧٩، أبو الفدا: المصدر السابق ـ ج١٢ص ٦٨.

مستحوذين على كل الامور لانه كان فى بداية امره قليل العلم مثل ديمتريوس الاب الآول بل كان كاهناً جيد لانه كان قساً فى اسكنا دير ابو مقار، فلما صار بطركاً لم يتم لهم ما ظنوه، ولازم قراة الكتب وتفسيرها، حتى انى دخلت اليه انا الخاطى فوجدت تفسير الاناجيل الاربعة بين يديه، فسالته عن كلام كثير من الاناجيل المقدسة ففسره احسن تفسير مالا تصل معرفة أكثر الاساقفة والكهنة اليه، ومن جملة بركاته وفضله وقدسه وما

واستمر الغلاء والوباء فى عام ٤٤٩هـ / ٥٧ ـ ١٠٥٨م فى العراق وبخارى وأذربيجان والأهواز، وخلت أكثر دور بغداد وسدت على أهلها أبوابها بما فيها وأهلها موتى وأكل الناس الجيف والكلاب بل والآدميين[١]. وكان سبب هذا الوباء قلة الأغذية والجوع فنبشت الأموات وأكلتها الناس[٢].

وتعرضت مصر عام ٤٤٥هـ / ١٠٦٣م لانتشار وباء الطاعون، فمات فى عشرة أشهر كل يوم ألف إنسان[٣]. ويبدو أن سبب هذا الوباء كان الإرتفاع الكبير لفيضان النيل (١٩ ذراعاً، و١٢ إصبعا).

إلا أن كل هذه الوقائع المريرة، تتضاءل أمام جسامة أحداث المجاعة التى اجتاحت مصر لمدة سبع سنوات بدأت فى عام ٤٥٧ هـ واشتهرت هذه المجاعة باسم الشدة المستنصرية التى يقال إنه لم يحدث مثلها منذ زمان يوسف عليه السلام[٤].

وسبب بداية هذه المجاعة هو قصور ماء الفيضان ـ إلى حد ما ـ فارتفعت الأسعار وأعقب

(١) أبو الفدا: المصدر السابق - ج١٢ ص ٧٠- ٧١.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٢٣٥.
(٣) أبو المحاسن: المصدر السابق- ج٥ ص ٧٤.
(٤) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب- ج٣ص ٣٨٢.

تفضل الله تعالى به على خلقه من اجابة دعاه
فيهم ان مآ النيل المبارك منذ صار بطركاً والى الآن
يزيد عن حد الوفا، والرخا يتزايد والأمن شامل
لجميع هذه البلاد وساير طرقاتها وبراريها نهار
وليل، فشوش الشيطان خزاه الله بعض اساقفة
بحرى وهم بنى الظالم وغيرهم، فاجتمعوا بيسيب
[بنامين] خولي بساتين الاجل امير الجيوش وكان
خصيصاً به [مقرباً]، ووقعو بالاب البطرك عنده

ذلك الوباء حتى تعطلت الأراضى عن الزراعة[1]. وظل النيل بعد هذه السنة يمدّ وينزل فلا يجد من يزرع[2].

ولا شك أن نزاعات الجند التى شلت يد الحكومة، وأخلّت بالأمن، هى التى جعلت من هذه الأحداث كارثة حقيقية طال أمدها إلى سبع سنوات، وبلغت أقصاها فى عام ٤٦٢هـ / ٦٩ ـ ١٠٧٠م، فعظم الجوع واشتد الوباء وانتشر السلب والنهب[3]. ولعل مرجع ذلك الحصار الاقتصادى الذى فرضه ابن حمدان على القاهرة والفسطاط.

وخلال هذه السنوات، إنهارت القوة الشرائية للنقود، وارتفعت أسعار السلع الغذائية بشدة، حتى إن حارة بالفسطاط بيعت بطبق خبز، كل رغيف فيه بمنزل فعرفت لذلك بحارة الطبق[4]. ومثل أحد الأغنياء أمام المستنصر ليشكو من أنه اشترى أردباً من القمح بسبعين ديناراً، فنهبه منه العامة حتى لم يبق منه سوى سبعين حبة قمح، أى كل حبة بدينار واحد [5]. وهناك قصة أخرى مشابهة مفادها أن امرأة اشترت تليس دقيق بعقد جواهر قيمته ألف دينار،

(١) المقريزى: أغاثة الأمة ـ ص ٢٣.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٧.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٢٠، أبو المحاسن: المصدر السابق ج٥ص ٨٤.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٧.
(٥) المصدر نفسه ـ ج٢ص ٢٩٩.

لاجل انه فسخ ما كانو قرروه معه، ورفعو رقاع
علي يده لامير الجيوش [الأجل الافضل] في
البطرك على قضايا قرروها فيما بينهم وين يسيب
[بنيامين] بحكم معرفته الاشياء التي تتفق على
امير الجيوش ويميل الى قبولها، وكان الاب البطرك
قد سار الى دميره بعد استيذان السلطان وكرز
كنايس في الريف واقام بها عدة شهور، فلما رفع
المذكورين فيه الى امير الجيوش انفذ اليه يامره

وعندما تحركت به من الفسطاط فى طريقها إلى القاهرة، وسط الحراسة المشددة التى كانت معها، هجم الناس عليها فنهبوه فلم يتبق لها سوى حفنة من الدقيق فعجنتها وشوتها فصارت قرصة حملتها وتوصلت إلى أحد أبواب قصر الخليفة ووقفت على مكان مرتفع وبيدها القرصة وصاحت: يا أهل القاهرة أدعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار[1].

وحركت الحادثة الأخيرة، مشاعر المستنصر بالله، وربما يكون قد خشى ثورة العامة عليه مع تزايد تمرد الجند وعصيان ابن حمدان، فأحضر الوالى وتهدده وتوعده إذا لم يظهر الخبز فى الأسواق بالقتل والنهب. فخرج الوالى من بين يديه وأحضر من الحبس قوماً من المحكوم عليهم بالإعدام وألبسهم ثياب التجار، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين، وعقد مجلساً عظيماً وأحضر أحد المجرمين فقال له «ويلك ما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن خربت الأعمال ومحق الغلا، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟ أضرب رقبته» فضربت رقبة الرجل وفعل نفس الشيء مع رجل ثانٍ فخاف التجار والطحانون والخبازون ووعدوا الوالى بإظهار الغلة وإدارة الطواحين وعمارة الأسواق بالخبز مع تخفيض

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٥، أنظر: د. ماجد : امرأة مصرية تتزعم مظاهرة (مرجع سابق).

بالدخول [عليه] وان يكون صحبته جميع اساقفته يدخل الى مصر، واستدعى من تيسر حضوره من الاساقفة، فاجتمع عنده منهم بمصر سبعة واربعين اسقفاً، منهم اساقفة بحرى اثنين وعشرين اسقف، واسقف مصر، واسقف الجيزه، واسقف الخندق، واثنين وعشرين من اساقفة الصعيد وهذه اسماوهم: ابا يعقوب اسقف مصر، وابا غبريال اسقف الخندق، وابا حزقيه اسقف وسيم والجيزه،

الأسعار ليباع الخبز رطلاً بدرهم، فرفض الوالى ذلك السعر، فقالوا: رطلين بدرهم، فأجابهم إلى ذلك، فوفوا بعهدهم[1].

ويدل ذلك على مدى خطورة الدور الذى لعبه الإحتكار التجارى أثناء المجاعة وأهمية دور الحكومة المركزية فى معالجة الأمر.

ونظراً لسوء العلاقات مع بيزنطة منذ عام ٤٤٧هـ ، فإن أنظار الخلافة إتجهت إلى أماكن أخرى من بلاد الخلافة لاستيراد الطعام، الذى فقد فى مصر سنة ٤٦٤هـ / ٧١ ـ ١٠٧٢م ، فجاء الطعام بالمراكب من صقلية والمهدية[2] (تونس).

ولاشتداد المسبغة وطول أمدها لجأ الناس إلى أكل نحاتة النخل، بل طبخوا جلود البقر وباعوها رطلاً بدرهمين[3]. ثم أكل الناس الحيوانات الأليفة، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير[4]. والقط بثلاثة دنانير[5]. ولم تسلم دواب الخليفة، حتى لم يبق له سوى ثلاثة أفراس

(١) المقريزى: إغاثة الأمة – ص ٢٥ـ٢٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٧ـ٣٠٧.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٧، المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٣ـ٢٤، الخطط: ج١ص ٣٣٧.
(٥) أبو المحاسن: المصدر السابق ـ ج٥ص ١٦.

اساقفة بحرى يوحنا اسقف دمياط، تاودرس اسقف سمنود، صمويل اسقف تنيس، ميصاييل اسقف دمياط، تاودرس اسقف تلبانه، يونس اسقف دميره، خاييل اسقف ابو صير، يسطس اسقف صهرجت، خاييل اسقف منوف، يونس اسقف طندتا، خاييل اسقف نوسا، خاييل اسقف البرلس، غبريال اسقف نستروه، مقاره اسقف صا، مقاره اسقف بنا، تاودرس اسقف خربتا، غبريال اسقف دمنهور،

بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة، وحدث أن وزير المستنصر ترك على باب القصر بغلته وليس معها إلا غلام واحد، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه، فلم يقدر على دفعهم لضعفه من الجوع، وذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، إذ أكل الناس فى تلك الليلة لحومهم[1].

وتعدى الأمر إلى أكل الجيف والميتات ثم لحوم الآدميين. فقد اعتادت طوائف من أهل الفساد أن تسكن بيوتاً قصيرة السقوف، قريبة من المارة، تمكنها من خطف المارة بواسطة خطاطيف وحبال أعدوها لذلك، ليقوموا بعد خطف الضحية بضربة بالأخشاب حتى يتمكنوا من تشريح لحمه وأكله[2].

ويبدو أن قصص أكل لحوم البشر ليست من نسج خيال الكتاب، إذ أورد لنا ابن دقمان

(١) أبو المحاسن : ج٥ص ١٥-١٦، المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٤.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ـ ج٢ص ١٩ـ ٢٠، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٦. وظاهرة أكل لحوم البشر لم تكن قاصرة على مصر مثلما رأينا فى الوباء والمجاعة التى اجتاحت بغداد عام ٤٤٩هـ، وكان الحصار الاقتصادى والعسكرى يدفع بالسكان إلى أكل الميتة، مثلما حدث لطرسوس التى حاصرها البيزنطيون حتى سقطت فى أيديهم عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م. انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد أبو ريدة ـ القاهرة ١٩٤٠ـ ج١ص ٨، ابن الجوزى: المنتظم ـ ج٨ص ١٧٩.

مرقوره اسقف مصيل، رفاييل اسقف سرسنى، يسطس اسقف رشيد، تاودرس اسقف اتريب، مينا اسقف البنوانين، وبقى منهم من لم يحضر لوجعه، خاييل اسقف قطور، تاودرس اسقف سنجار، بطرس اسقف دقميره، بفام وقزمان اسقفا الواحات. واساقفة الصعيد وما يليه: يعقوب اسقف اطفيح، دانيال اسقف طموه، صمويل اسقف اهناس، متاوس اسقف الفيوم، بفام اسقف القيس،

اسمين لزقاقين بالفسطاط لهما صلة بهذه القصص، أولهما زقاق البواقيل الذى يعرف أيضاً بزقاق الندافين حيث كان جماعة يقفون أيام الشدة المستنصرية «تحت القبو هناك فمن مربهم ندفوه ونزعوا ما عليه ورموه فى بئر هناك»، والآخر هو زقاق العكامين حيث كان «أناس يعكمون الناس باكر فى أفواههم ثم يحملونهم إلى زقاق القتلى ليقتلونهم فيه فسمى بذلك»[1]. وصارت لحوم الآدميين سلعة رائجة يقوم الطباخون ببيعها مطبوخة بعد أن يذبحوا ضحاياهم من الصبيان والنساء[2].

وربما كان أكل الجيف والميتات ولحوم البشر، هو الذى ساعد على انتشار الوباء الذى كثرت ضحاياه حتى عجز الناس عن تكفين موتاهم فألقوهم فى الحفر جماعات وهالوا التراب عليهم، أو قذفوا بهم فى النيل دون أكفان[3].

ويقدر البعض أن هذا الوباء أفنى ثلثى أهل مصر ، خاصة وأن الجدرى إنتشر بين الأطفال حتى أفنى منهم ٢١,٠٠٠ طفل فى شهر واحد[4].

(١) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى: الانتصار لواسطة عقد الأمصار- مطبعة بولاق ١٣٠٩هـ - ج٤ص ١٦- ١٨.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة - ج٥ص ١٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٣٠٣-٣٠٧.
(٤) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٥.

بطرس اسقف البهنسي، بينوده اسقف طحا، خايل
اسقف الاشمونين، اسحق اسقف انصنا، مرقوره
اسقف قوص قام [قزقام]، اندونه اسقف اسيوط،
افرهام اسقف شطب، متاوس اسقف فاو [فاو]،
كليدس اسقف اخميم، مرقس اسقف البلينا، قلته
اسقف هو، مرقوره اسقف الاقصرين، بمون اسقف
ارمنت، تاودرس اسقف اسنا، بفام اسقف اسوان،
يوحنا اسقف دندرا، بدير اسقف قوص. فلما علم

وإزاء هذه الكوارث، اضطر الأثرياء إلى الهرب الشام والعراق هرباً من الجوع والفتن، وعلى رأس هؤلاء التجار من ابتاعوا ثياب المستنصر وذخائره وآلاته التى باعها الأتراك من خزائنه، وتركزت حركة الهجرة فى عامى ٤٦٢هـ، ٤٦٣هـ، (١٠٦٩ـ١٠٧١م)[١].

ويستفاد من المصادر التى ذكرت تاريخ ٤٦٤هـ/٧١ـ١٠٧٢م كنهاية لهذه المجاعة أن الأزمة الاقتصادية إنفرجت بعض الشئ بمقتل ابن حمدان عام ٤٦٥هـ، وإن ظلت حالة البلاد فى اضطراب حتى وضع بدر الجمالى حداً لذلك بقدومه إلى مصر سنة ٤٦٦هـ.

وفى أواخر عهد المستنصر تأخرت زيادة النيل فى سنة ٤٨٢هـ/ ٨٩ ـ١٠٩٠م فأرسل الخليفة بطرك الأقباط ميخائيل بهدية إلى الحبشة، التى أمر ملكها بفتح سد يجرى منه الماء إلى مصر، ففتح وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاث أذرع. وخلع المستنصر على البطريرك عند عودته[٢].

وفى خلافة المستعلى بالله (٤٥٧ـ٤٩٥هـ/١٠٩٤ـ١١٠١م) عانت البلاد من مجاعتين خطيرتين، أولهما كانت فى عام ٤٩٠هـ/٩٦ـ١٠٩٧م وانتشر معها الوباء [٣]. ولم تذكر

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٣، الخطط ـ ج١ص ٣٣٧، ابن الأثير: الكامل ـ ج٨ص ١٠٨.
(٢) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٢٣٧.
(٣) ابن ميسر : المصدر السابق ـ ج٢ص ٣٧، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٩.

امير الجيوش باجتماعهم احضرهم الى بستانه الكبير بظاهر القاهرة في يوم السبت الثالث والعشرين من مسرى سنة ثمان مایة واثنين للشهد الموافق لسنة خمس وسبعين واربع مایة الخراجية، فخاطبهم بكلام شديد انطقه الله به وامرهم ينظمو له مجموع قوانين الدين ويعرضوه عليه(*)، وعطف على البطرك فاكرمه وبجله وعظم قدره وامره قدامهم وتقدم له بالانصراف الى بيعته، فلما

(*) امير الجيوش يطلب من رؤساء القبط أن يكتبوا له قوانين الكنيسة والاديرة.

المصادر التاريخية سبباً لهذه المجاعة ، ولكن من خلال إستقراء مقياس النيل نستطيع أن نرجع هذه المجاعة إلى النقص النسبي في ماء الفيضان الذى بلغت زيادته ١٦ ذراعاً و٢١ إصبعاً حسب الدواداري، وهذا أقرب للمنطق من الزيادة التى أوردها أبو المحاسن (١٧ ذراعاً واصبعاً واحداً).

والثانية وقعت في سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩ ـ ١١٠٠م، مع إشتداد الوباء الذى أودى بحياة كثير من السكان [١]. والسبب أيضاً هو نقص زيادة النيل (١٥ ذراعاً و١٥ إصبعاً حسب الدواداري وهذا أكثر قبولاً من ١٨ ذراعاً و١٥ إصبعاً التى أوردها أبو المحاسن).

وعاشت البلاد مجاعتين أيضاً في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ـ٥٢٤هـ/١١٠١ـ١١٣٠م) وقعت أولى هذه المجاعات في وزارة الأفضل بن بدر الجمالي، ووصل سعر القمح فيها إلى كل مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً[٢].

وربما يرجع سبب هذه المجاعة إلى نقص فيضان النيل، حيث بلغ ١٥ ذراعاً واصبعاً ثم هبط

(١) المقريزي: المصدر السابق ـ ج٣ ص ٢٥ ، الخطط ـ ج١ص ٣٥٦.
(٢) المقريزي: إغاثة الأمة ـ ص ٢٦ـ ويذكر ابن إياس أن ثمن الأردب كان ٣٠ ديناراً (ج١ص ٦٣).

خرجو من بين يديه انفرد منهم اولك الذين كتبو الرقاع الى امير الجيوش فى البطرك وهم خمسة نفر: يوحنا، ومرقس اولاد الظالم، ويونس اسقف دميره، وخاييل اسقف ابو صير، ومقاره اسقف القيس. واجتمعو بالشماس ابى غالب بمين ابن تيادر ابن مرقوره السنجارى على عمل قوانين اخترعوها اكثرها من العتيقة واطالو فيها واكثرو منها، وعمل الاب انبا كيرلس والاساقفة الذين معه

الفيضان بعد ذلك فشرقت البلاد[1]. وإن كانت قوائم النيل لاتحوى فيضاناً بهذا الأنخفاض في عهد الأمر بأحكام الله ولايوجد بالمصادر التاريخية تحديد واضح لسنة هذه المجاعة، التى وقعت في وزارة الأفضل بن بدر الجمالى الذى قتل عام ٥١٥هـ/٢١ـ١١٢٢م[2]. أللهم إلا إذا كانت تلك السنة التي ذكر عنها السيوطى أن القمح «عز بها ثم هان»، وهى سنة ٤٩٧هـ/٠٣ـ١١٠٤م [3]، تكون هى نفس السنة التى قال عنها ابن إياس إن الغلاء دام فيها نحو ستة أشهر، إنخفضت الأسعار بعدها وكثرت الغلال [4]. (فيضان النيل فى هذه السنة كان ١٧ ذراعاً و١٣إصبعا).

ويرجع الفضل فى تفادى هذه الأزمة إلى السياسة الحكيمة التى اتبعها القائد أبو عبد الله ابن فاتك، الذى لقب فيما بد بالمأمون البطائحى فقد قام بالختم على مخازن الغلات، وخير أصحابها بين البيع منها بسعر ثلاثين ديناراً لكل مائة أردب، أو الختم عليها حتى الدخول الغلة الجديدة ، فأجابه بعض التجار إلى ماطلب ، ثم قام بعد ذلك بتقدير ما

(١) ابن إياس : بدائع الزهور – ج١ص ٦٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة – ج٥ص ٢٢٢.
(٣) السيوطى: حسن المحاضرة – ج٢ص ١٥٤.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور – ج١ص ٦٣.

قوانين مختصرة وكان «يسيب» [بنيامين] الخولى
لبساتين السلطان المقدم ذكره قد تعصب لخصوم
البطرك فى يوم حضورهم البستان عند [الأجل
الافضل] امير الجيوش واظهر العناية بهم بحكم
قربه من السلطان وهو الذى كان يرفع رقاعهم
اليه، فعتبه بطرس احد تلاميذ البطرك على ذلك
وخوفه من الاثم فيه، فجرى على التلميذ من
يسيب [بنيامين] ما يكره وخاطبه بالقبيح ، وقال

تحتاجه البلاد يومياً من الغلال ليصرف من المخازن بالسعر الذى حدده، فانخفضت الأسعار(١).

وفى هذه السنة أرسل البطرك للحبشة بسبب نقص الفيضان إلا أن توجهه لم يفد شيئا(٢).

وفى عام ٥١٠هـ/١٦-١١١٧م هبت على مصر رياح مترية دامت ثلاثة أيام، فأهلكت كثيراً من الناس والحيوانات (٣).

وفى آواخر عهد الآمر، وبعد القبض على المأمون البطائحي ومصادرته عام ٥١٩هـ/٢٢-١١٢٣م ثم قتله عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م (٤). إرتفعت الأسعار حتى وصل سعر أردب القمح إلى دينار واحد (٥).

(١) المقريزى: إغاثة الأمة - ص ٢٦-٢٧، اتعاظ الحنفا - ج٣(هامش٤) ص ٦٦- ٧٦. جاء في بدائع الزهور أن الوزير وقت هذه المجاعة كان المأمون البطائحي، إلا أن المقريزى ذكر أن الوزير كان الأفضل، وقال أن القائد أبا عبد الله بن فاتك، عرف بعد ذلك بالمأمون البطائحي عندما صار وزيراً . انظر: ابن إياس: المصدر السابق - ج١ص ٦٣.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق - ج١ص ٦٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ - ج٨ص ٣٠٥.

(٤) أبو المحاسن: المصدر السابق - ج٥ص ١٧٠.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٣٣، ويستفاد ذلك من عبارة المقريزى «وكان الناس قد ألفوا الرخاء أيام الأفضل والمأمون».

لى ابا سيمون اسقف تنيس انه لطف بيسيب ليهد غضبه فما فعل، وتفاقم الامر بينه وبين التلميذ الى ان خرج ابونا البطرك من البستان يسمع ماجرى فكلم يسيب بكلام لين فلم يرعوى [يرتدع] وجرى بينه وبين البطرك خطاب الى ان قال له البطرك: يايسيب اذا كان لك سلطان الارض فالمسيح سلطان السما والارض معى. ونزل عن دابته وضرب مطانوه «ليسيب» فى دهليز البستان ،

ومثل المجاعة السابقة، لايوجد تاريخ محدد لها، سوى أنها حدثت فى أواخر أيام الآمر بأحكام الله [١].

ويرجح أن هذه المجاعة حدثت عام ٥٢١هـ/١١٢٧، حيث سجلت زيادة النيل أدنى مستوى لها بعد عام ٥١٩هـ، وهو ١٦ ذراعاً و١٥ إصبعاً طبقاً لابن أيبك الدوادارى.

أما أول مجاعات خلافة الحافظ لدين الله (٥٢٤ـ٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م) فقد كانت فى سنة ٥٣٢هـ/٣٧ـ١١٣٨م، فى وزارة الأفضل رضوان بن ولخشى [٢]. ويحيط الشك بما ذكر عن سبب نقص الفيضان [٣] فى هذه المجاعة، إذ أن النيل بلغت زيادته ١٧ ذراعاً و٣أصابع (ابن أيبك) أو ١٨ ذراعاً و١٢ إصابعاً (أبو المحاسن) وربما كان السبب هو تأخر الزيادة فقط أو عدم زراعة بعض الأراضى.

ولايستبعد أن يكون وراءها الوزير ابن ولخشى، الذى كان يحاول النيل من مركز الخليفة وتأليب الرعية عليه، فحينما أمر الخليفة الحافظ لدين الله بفتح الأهراء، والبيع منها للناس بسعر منخفض، لم يمتثل الوزير لهذا الأمر مما جعل الحافظ يسعى لقتله فيما بعد [٤].

(١) المقريزى: الخطط ـ ج٢ص ٢٩١.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

فبكا جماعة من النصارى الذين كانو هناك لما ابصرو البطرك القديس يضرب المطانوه «ليسيب» الخولى، ولم يمتغص [يمتعض] من ذلك ولا استقال [قلل] منه. ونزل الاب كيرلس ومن معه من الاساقفه الى كنيسة الشهيد الجليل ابو مرقوره بمصر، فلما كان يوم السبت اخر مسرى مثل الذى ضرب فيه الاب البطرك المطانوه «ليسيب» الخولى انتهى الى امير الجيوش عن يسيب الخولى

وان كان الوزير قد حاول علاج هذه المجاعة عن طريق تأديب محتكرى الغلال الذين يرفعون الأسعار وأمرهم بتوريد ما يحتاج إليه كل يوم من الغلال ، وأشرف على نفاذ ذلك بنفسه حتى إنخفضت الأسعار [1]. ويبدو أن ذلك الإجراء كان فى العام التالى ٥٣٣هـ/٣٨-١١٣٩م، حينما تزايد إرتفاع الأسعار حتى بلغ أردب القمح ثلاثة دنانير، واضطر الوزير كذلك إلى إخراج الغلال التى سبق أن رفض إخراجها بأمر الخليفة وإن كان ذلك بعد أن فسدت وأرادوا رميها فى النيل، فكانت تقطع بالفؤوس وتباع بأربعين ديناراً كل مائة أردب، كذلك الأرز الذى بيع بعشرة دنانير المائة أردب، فوجد الناس بذلك الطعام الفاسد ما يسد رمقهم [2].

وآخر المجاعات التى وقعت فى عهد الحافظ، كانت طويلة نسبياً، إذ استمرت ثلاث سنوات من ٥٣٦إلى ٥٣٨هـ، وصحب المجاعة وباء فى العامين الأولين وإن بلغ مداه فى عام ٥٣٧هـ/٤٢ـ١١٣٤م.

وكان ابتداء ذلك فى شهر شعبان سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م، فبلغ سعر القمح تسعين درهماً للأردب، والدقيق مائة وخمسين درهماً للحملة، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، والشعير سبعة

(١) المقريزى: اغاثة ،الأمة ـ ص ٢٧.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٦٨.

ما انكره واغضبه واسخطه عليه، فركب لوقته الى البستان وامر بيسيب الخولى فضربت رقبته فى الموضع الذى ضرب له الاب القديس فيه المطانوه فى مثل تلك الساعة بعينها، فتعجب جميع الناس من ذلك وازداد الاب كيرلص عندهم جلالة وعظمة، وانتهى الخبر الى الاجل امير الجيوش فقال: حقا قد كان يترب [يدس] على البطرك وجماعته عندى ويعين خصومة عليه

دراهم الويبة، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم، والجبن كل رطل بدرهم، ولم يقدر أحد على شراء الدجاج لارتفاع ثمنه [1].

ويبدو أن سبب هذه المجاعة هو الإنخفاض النسبى لماء الفيضان(١٦ذراعاً و١١إصبعاً) وهو حد وإن كان لايعنى القحط، إلا أنه يمكن أن يكون كذلك مع حكومة مركزية منهارة، وهوما كان واقعاً بالفعل، فبعد الأزمة التى أثارها رضوان بن ولخشى وانتهت بقتله، لم يستوزر الحافظ أحداً حتى عام ٥٣٦هـ/حينما بدأت المجاعة المصحوبة بالوباء[2]. واستمرت لعامين حسبما ذكرنا سابقاً.

أما سبب إرتفاع الأسعار فى العام الثالث ٥٣٨هـ/٤٣ـ١١٤٤م فيرجع إلى خروج محمد ابن رافع اللواتى بالبحيرة على سلطة الخلافة، وإن كان قد قتل بعد عدة مواقع على يد والى البحيرة طلائع بن رزيك، وأدى هذا الاضطراب ولاشك إلى إرتفاع الأسعار[3].

(١) بن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٨٥، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٧٦.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٥٧.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٨٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٧٨.

ولم يميل قلبى الى قبول قوله. واشتهر هذا الامر حتى ان الاجل الافضل ابن امير الجيوش كان له شى على معاملين له فى ضيعة تعرف بالبيهو [مركز سمالوط] فانكروه ولم يقومو به، فقال: امضو بهم الى البطرك يمسكو طرف ثوبه وصليبه ويحلفو ويروحو ما اريد منهم شى غير هذا لانه بالامس احرم يسيب الخولى فسخط مولاى عليه وقتله . ثم ان الاجل اميرالجيوش امر

- -

ووقع الغلاء في خلافة الفائز بنصر الله (٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦٠م ووزارة الصالح طلائع بن رزيك عام ٥٥١هـ/٥٦ـ١٠٥٧م، ولايمكن القول بأن سبب هذه المجاعة إنحفاض فيضان النيل [١]. الذى وصلت زيادته إلى ١٧ذراعاً و٨إصابع . ولعل مرد ذلك إلى إحتكار الغلال، فارتفعت أسعارها [٢].

ولجأت الحكومة إلى إخراج الغلال من الأهراء بكميات كبيرة، وفرقتها على الطحانين مع تخفيض الأسعار، ومنعت الإحتكار، كما تصدق الصالح طلائع نفسه وغيره من الأمراء ، بما نفس عن الناس، ولم يستمر الحال على ذلك سوى مدة يسيرة، حتى «فرج الله وهجم الرخاء» [٣].

وكان من أثر إتجاه الصالح طلائع إلى ممارسة الإحتكار والاتجار فى الغلال أن وقع الغلاء وارتفعت الأسعار فى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م فى خلافة العاضد لدين الله [٤].

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧، اتعاظ ـ ج٣ص ٢٢٩.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٣٣٩.
(٣) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧ـ ٢٨.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣٢٤٤. والغريب أن ابن تغرى بردى يذكر أنه لما توفى الصالح طلائع مقتولاً سنة ٥٥٦هـ حزن الناس عليه لحسن سيرته ـ النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٣٤٥.

باحضار البطرك وجماعة الاساقفة الى مجلسه بعد
ان اقامو بمصر انيف وعشرين يوم، فلما صارو بين
يديه خاطبهم بكلام جميل واكرمهم وقال لهم:
كونو كلكم شرع واحد ولا تختلفو وطيعو
مقدمكم وكونو مثله ولا تكنزو فضة ولا ذهب
وصدقو بكلما يحصل لكم كما اوصاكم المسيح،
وهذه القوانين التى عملتوها ما احتاج اليها وانما
طلبتها منكم ليتجدد عندكم انتم علمها لما بلغنى

أهل الذمة المصريين فى العصر الفاطمى الاول(*)

سبق احتلال الفاطميون لمصر ارسال الدعاة الشيعة لها لكى يستميلوا مسلميها من السنة إلى جانبهم، وقد نجحوا فى ذلك بشكل ساعد على سهولة غزوهم لمصر. ولكن هذا لم يمنع أن يكون هناك جيوب سنية كبيرة داخل مصر خاصة بين القبائل البدوية من العرب واصحاب المصالح والعصبيات القديمة، مما دفع السلطة الفاطمية بعد استقرارها بمصر إلى التودد لأهل مصر من القبط حتى يديروا لهم دولاب الدولة.

ولقد وضح ذلك عند الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وكذلك عند الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ /٣٨٦هـ = ٩٧٥ / ٩٩٦م) الذى كان متزوجاً من نصرانية ملكانية تمكنت من رفع مكانة أخوين لها حتى صار أحدهما بطركاً على الاسكندرية فى سنة٣٩٠هـ = ١٠٠٠م. والثانى بطركاً على القدس سنة ٣٧٥هـ = ٩٨٥م.

أما فى خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ /٤١١هـ = ٩٩٦ / ١٠٢٠م) فقد بدأت الأمور فى أول عهده كما لو أنها أستمراراً لحكم العزيز بالله ثم أخذت تتراوح بين الأضطهاد والرضى لأهل مصر من القبط. ومن الامثلة على ذلك أن الحاكم بأمر الله أعطى ثقته لفهد ابن ابراهيم

(*) انظر: أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الاول والثانى. تأليف: د. سلامه شافعى محمود. سلسلة تاريخ المصريين. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٥.

من بعد عهدكم بها وبقراتها. وكان يخاطبهم الهاماً من الله تعالى لانه سبحانه كان ينطقه بحكم انه ملك كما قال سليمان الحكيم: ان يد الله على قلب الملك. ثم قال امضو وصلو على. وامر احد اصحاب دواوينه وهو ابو الفضايل ابن العبيدى وقال له: اخرج معهم واكتب ثبات [كشف] بما يحتاجه كل واحد منهم ليكتب لهم المناشير بكلما يحتاجوه. فخرجو من عنده مسرورين ونزلوكلهم الى بيعة القديس ابو مرقوره

النصراني وقدمه على سائر الكتاب في دولته وأمرهم بطاعته، غير أنه لم يلبث أن قتله في سنة ٣٩٣ هـ = ٩٨٣م تحت دعوى ميله للنصارى واسناده مناصب الدولة اليهم، واختلاسه لأموال الدولة.

وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحاكم بأمر الله كان حازما في سياسته الادارية، حرصا على انتظام العمل بالدواوين، وليس بدافع التعصب. فالحاكم لم يقتل فهد ابن ابراهيم لكونه نصرانيا، ولكن قتله بسبب الأخطاء التى ارتكبها. كما أمر بقتل أبى غالب ـ أخ فهد ـ متولى ديوان النفقات لظلمه وسوء تصرفه، ومع ذلك فان الحاكم بأمر الله أرسل في طلب أولاد فهد وخلع عليهم، وكتب لهم سجل أمان بحمايتهم وعدم التعرض لقصورهم وأموالهم (١).

واذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على كتاب الدواوين من النصارى واعتقلهم عقب مقتل فهد ـ فان أبا الفتح منصور بن مقشر الطبيب ـ وهو من المقربين إلى الحاكم ـ قد توسط للافراج عنهم، فأطلق سراحهم بعد اسبوع من القبض عليهم، وعاد كل واحد منهم إلى وظيفته (٢).

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٥٩.
(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٨٥، ص ١٨٦.
ـ ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة. مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٩٠ تاريخ، ورقة ٦٦.

المذكورة وقدسو فى ذلك اليوم السبت والاحد غده وكـان لهم يومين عظيـمين لم يسـمع بمثلهـمـا، وسارو الى كراسيهم بعد ذلك وهم مسرورين. ومن بعد هذا كتب راهب يسمي فرج رقعة الى امير الجيوش يقول فيها: ان لابى السرور ابن الابح عند اسقف الخندق مال اودعه اياه فى حياته وان جميع الاساقفة ما منهم الا ومن عنده وديعة لواحد من المنافقين فان امرت بالشد مني استخلصت ذلك

وهذا الحادث يدل على أن ما فعله الحاكم بأمر الله لا يعدو أن يكون اجراء وقائيا، كثيرا ما كان يتخذ أثناء الأزمات من هذا القبيل، خشية وقوع اضطرابات لا يحمد عقباها وحفاظا على أموال الدولة من الضياع أو النهب. ولقد اتخذ الحاكم بأمر الله مثل هذا الاجراء بعد مقتل أبي عبد الله الحسين بن طاهر ابن الوزان (ت جمادى الأخرى سنة ٤٠٥هـ) ، اذ أحضر الكتاب ورؤساء الدواوين، وسألهم عما يتولاه كل منهم، ثم أمرهم بالعودة إلى وظائفهم والتفانى فى عملهم [١].

ويعلق ستانلي لين بول على تعرض بعض كبار موظفى الدولة من أهل الذمة للرقابة الصارمة، وقسوة الحاكم بأمر الله فى توقيع العقوبات عليهم. بقوله: «ان المسلمين فى الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء، فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز» [٢].

وإن كان البعض يقول ان الحاكم بأمر الله قبل اختفائه قد قضى على نفوذ النصارى فى مصر، وأنهم أصبحوا فى ذلك الوقت مهملين فى الدولة [٣].

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٤١٠.
(٢) لين بول: سيرة القاهرة، ترجمة د. حسن ابراهيم، طبع بالقاهرة ١٩٥٠، ص ١٣٥.
(٣) جاك تاجر: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى سنة ١٩٢٢م القاهرة سنة ١٩٥١م. ص ١٣٥.

منهم وحملته اليك. فامر بالشاد منه وعلى يده فى احضار الاساقفة فخرج واخذ من وجده منهم ولم يزل الخطاب يتردد معهم الى ان استقر على جميع الاساقفة بالاعمال القبلية والبحرية اربعة الف دينار، من إساقفة بحرى الفى دينار، من اساقفة قبلى الفى دينار. وكتب امير الجيوش منشور لفرج الراهب وجعل له فيه على كل واحد من الاساقفة بحرى فى كل سنة خمسة دنانير واخذها منهم فى

وما أن اختفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م حتى بويع ولده الظاهر لاعزاز دين الله بالخلافة، وكان صبيا فى السابعة عشر من عمره، لذلك أخذ نفوذ عمته ست الملك سند النصارى القوين فى مصر يظهر من جديد ويتزايد بصورة واضحة، اذ كانت هى المدبرة لشئون الدولة وسياستها فى تلك الفترة(١).

واستطاع الظاهر لاعزاز دين الله أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فلقد أصدر مرسوما يوضح حسن رأيه ورضاه وثقته فى جميع موظفى الدولة ويطمئنهم على بقاء كل واحد منهم فى وظيفته، غير أنه فى نفس الوقت ناشد رجال الدواوين وموظفى الدولة توخى العدل والسهر على خدمة الرعية، والقضاء على الفساد. غير أنه جد فى اصلاح الجهاز الادارى للدولة، فأجرى عملية تطهير فى كل فروع الادارة الحكومية، وأقصى العناصر الانتهازية وأصحاب المصالح الشخصية، وأبعد كل من شك فى اخلاصه وولائه للخلافة(٢).

....
(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
ـ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٨٣.

تلك السـنة، وقـامـو بالمال اولا فـاولا، ولزم الاسـاقفـة بالوجـه القـبلى خسـارة فى الجعل خمس مـاية وخمسين دينار وتخلصـو اجمعين بعد [أن] نالهم صعوبة عظيمة، وكان الاوحد بن امير الجيوش مقيم باسكندرية كما قلنا بدياً وكان من جـملة من يصـحبـه رجل من الجند يعـرف بجمال الدولة طعان صهر تاج العرب واخوه علم الدولة ولدى [بدر] الجـمـالي [الارمنى] الـذين قـتلهـمـا امـير الجيـوش، فافسـد هذا الرجل راى

كما كان كبار موظفى الدولة ووزرائه وبخاصة المسلمين منهم على علاقة حسنة بأهل الذمة. فقد كان الوزير على بن أحمد محبا للنصارى، متسامحا معهم، وحسنت العلاقة بأهل الذمة بوجه عام. وموجز القول فان خلافة الظاهر لاعزاز دين الله اتسمت بالهدوء بسبب سياسة التسامح مع أهل الذمة، وهذا ما عبر عنه مؤلف سير البيعة المقدسة بقوله: «وكان فى أيامه هدوء وسلامة عظيمة... وكان دين النصارى مستقيم وأهله مكرمين» (١).

وفى خلافة ابنه المستنصر بالله ازداد نفوذ أهل الذمة. فقد سيطر النصارى على دواوين الدولة، وقد عبر عن ذلك المؤلف السابق ذكره بقوله ان «جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينه وتدبير أمورها كلهم نصارى، وهم الملاك النافذ أمرهم» (٢). كما ازداد نفوذ اليهود فى قصر الخلافة، وقد تمثل ذلك فى أبى سعيد التسترى ـ متولى ديوان أم الخليفة المستنصر ـ وفى الدور الخطير الذى قام به فى عزل الوزير الأنبارى وتعيين الوزير الفلاحى. كما استبد التسترى بأمور الدولة وسياستها فى وزارة الفلاحى، مما دعا الفلاحى إلى تدبير مؤامرة لاغتياله سنة ٤٣٩هـ = ١٠٤٧م، ولم ينج الفلاحى من غضب أم المستنصر، فأوعزت إلى ابنها

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦١، ٦٣.
(٢) الأنبا ميخائيل: نفس المصدر، ورقة ٧٥.

الاوحد في ابيه وحسن له ان يعصيه وينافق عليه ففعل ذلك واظهر النفاق وجاهر به، فارسل اليه ابو الفرج ابن المعزى ليردعه عن هذا فلم يلتفت اليه، ثم سار أيضاً اخوه الافضل(*) وخاطبه ولاطفه وقبح عليه فعله وعرفه ما فيه من سو السمعةعنه فلم ينفع فيه الخطاب، فعاد الى القاهرة من غير ان يبلغ منه غرض، فسار اليه امير الجيوش [بدر الجمالي] بعساكر عظيمة ونزل على اسكندرية

(*) الأفضل: تولى الوزارة وامور البلاد بعد وفاة ابيه بدر الجمالي واستبد بالناس والملك وجمع في يده كل السلطان دون الخليفة المستعلي بالله الفاطمي.وهو يمثل في تاريخ هذه الفترة علامة تحول في السلطة من الخليفة إلى الوزراء وفي عهده سقطت انطاكية في=

بعزله، ثم بقتله بعد مدة قصيرة سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م. كما كان لأبى نصر هارون التسترى ـ أخ أبى سعيد ـ نفوذ كبير داخل قصر الخلافة، فقد تدخل بصورة سافرة فى شئون الدولة، الأمر الذى أدى إلى اتهامه بالانحياز إلى جانب أعداء الدولة من المرداسيين، والى مصادرة أمواله ومعاقبته، ثم بموته سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (١).

ولم يكن هذا آخر عهد أهل الذمة بالوزارة وتولى المناصب الكبرى، فقد تولى أبو سعد ابراهيم بن سهل التسترى الوزارة سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م، ولكن ما لبث أن صرفه المستنصر عنها فى السنة التالية (٢).

ولقد تعاطف بعض ولاة الأقاليم فى خلافة المستنصر مع أهل الذمة، فوالى القاهرة سنان بن كابر كان يحب النصارى ويعطف عليهم، كما كان الأمير المؤيد حصن الدولة والى الاسكندرية صديقا لأقباط مصر، محبا لهم ومهتما بأمورهم (٣).

ومجمل القول أن أهل الذمة تمتعوا بنفوذ كبير فى خلافة المستنصر، واذا كان قد أصابهم

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، تحقيق هنرى ماسيه ـ القاهرة ١٩١٩م. الجزء الثانى ، ص ١ ـ ٣.
(٢) ابن ميسر: نفس المصدر، جـ٢، ص ١٥.
(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٧.

وحاصرها واقام الحرب بينهما قريب من شهرين، ثم استقر بينهما الصلح وخرج الاوحد الى ولده [والده] ودخلا جميعاً الى اسكندرية، ثم سار الاوحد عنها ونزل على [بلتاج] وبقى امير الجيوش فى اسكندرية، فاستدعى شهود المدينة ومقدميها وقال لهم: انتم ساعدتم ولدى على مخالفة السلطان وحسنتم له ذلك وقتلتم رجال السلطان وجنوده وخسرتموه الاموال. وجرت بينهم خطوب

= يد الصليبيين سنة ١٠٩٨م = ٤٩١هـ، كما استولوا على القدس في السنة التالية، و ظلت الحروب قائمة بين الصليبيين والأفضل حتى سقطت كل الشام ماعدا عسقلان التى ظلت فى ايدى الفاطميين. وعندما توفى الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٩٥هـ، أحضر الوزير الأفضل طفل للمستعلى يدعى علياً وجعله خليفة ولقبه الأمر بأحكام الله. ومنذ هذا الوقت حارب المذهب الفاطمي مما ادى إلى قتله على يد عبدالله البطائحى الذى تولى الوزارة بدلاً منه.

مكروه أو تعرضوا لأذى، فقد كان ذلك في فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى النصف الثانى من عهده [١].

والسطور التالية تلقى الضوء ساطعا على بعض من تولى من أهل الذمة المناصب الكبرى في الدولة ـ وعلى رأسها منصبى الوزارة والوساطة ـ كما توضح لنا أثر ذلك على سياسة الدولة، ونتائجها بالنسبة للمجتمع المصرى بوجه عام خلال تلك الفترة من تاريخ مصر.

الوزراء والوسطاء من أهل الذمة

يعقوب بن كلس:

يعتبر ابن كلس أبرز الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة فى مصر في العصر الفاطمى الأول. وهو من أهل الذمة الذين أسلموا، ومن أعظمهم شأنا، ولذلك أهتم بالحديث عنه والترجمة له كثير من المؤرخين.

فهو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن داود ابن كلس، الوزير الكامل المكنى

(١) الأنبا ميخائيل: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٧٩.
ـ جاك تاجر: المرجع السابق ، ص ١٤٠.

كثيـرة فخافو على نفوسهم، ولم يزالو يتلافو امـرهم مـعـه الى ان استـقـر على جـمـيع اهل اسكنـدرية مـاية وعشرين الف دينار، حمـلت اليه سوى ما صار اليه من جهة اخرى، وسار عنـها فى شـهـر ابيب وعـاد هو وولده الاوحـد الى القـاهرة، واقام بهـا وهو كـالمسـتـوحش من ابيـه الى شـهـر برمهات سنة ثمان مـاية واثنين للشهـدا، فسـعى به الى ابيه امير الجيوش وقيل له: قد قرر مع جمـاعة من الامرا ان يقتلوك، منهم شجاع الدولة صـاف

«بأبى الفرج» ولد ببغداد ونشأ بها، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب، ثم انتقل مع أبيه من بغداد إلى الشام ليعمل بالتجارة [١]، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢م عمل وكيلا للتجارة بهـا [٢] وعندما تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب من الشام ، وسافر إلى مصر سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م وفى مصر اتصل بكافور الأخشيدى، حيث كان يبيعه ما يطلبه من البضائع والأمتعة، ويحال بثمنها على ضياع مصر [٣].

ولكثرة تردد ابن كلس على الريف اكتسب معرفة وخبرة بكل ما يتصل بحيـاة أهله، وساعده على ذلك ما اشتهر به من دهاء وذكاء مفرط ومهارة فى معرفة الضيـاع، لذلك اتسعت تجارته وذاع صيته، وما لبث أن التحق بخدمة كافور وأصبح من المقربين اليه، فعينه فى ديوان الخاص، ثم أسند إليه مهمة الاشراف على النواحي المالية في دواوين الحكومة ومراجعة

(١) العينى: عقد الجمـان فى تاريخ أهل الزمـان، الجزء ١٩ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ، ورقة ٤١٨.
ـ ابن العمـاد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠هـ، الجزء الثالث، ص ٩٧.

(2)Mann : The Jews in Egypt and Palestine Under Fatimid Caliphs, Vol. I. p. 17.

(٣) النويرى: نهاية الارب فى فنون الأدب ، مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة، الجزء ٣٦، ورقة ٤٩.

المكين صاحب بابل[مركز تلا]، ومرهف الدولة سور الملحى، وحصن الدولة صاف الحصنى، وجماعة غيرهم، فقبض امير الجيوش على جميعهم وقتلهم، وقبض على ولده الاوحد واعتقله فى خزانة [سجن] عنده فى داره وجعل فى رجليه طوبة حديد، وكان ذلك فى يوم الجمعة العاشر من برمهات المذكور.

وفى هذه السنة توفى الوزير ابو الفرج محمد

مستنداتها قبل عرضها عليه. وأظهر ابن كلس مقدرة فائقة فى الادارة، فأعجب به كافور لمهارته وحسن سياسته وقال: «لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا» (١).

بلغ ابن كلس ما قاله كافور عنه وتقديره له، والتصريح بصلاحيته للوزارة لو كان مسلما، فأحضر من علمه شرائع الإسلام سرا، وفى يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م أشهر اسلامه، ولزم الصلاة، وواصل دراسته للدين الاسلامى والفقه والتشريع (٢).

ويرى بعض المؤرخين أن ابن كلس أعلن اسلامه طمعا فى الوزارة وحبا فى المنصب واشتياقا إلى الولاية (٣).

وفى عهد كافور أصبح ابن كلس منافسا خطيرا للوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور ـ المعروف بابن حنزابة ـ وما أن توفى كافور سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م حتى أصدر ابن حنزابة أوامره بعزل ابن كلس ومصادرة أمواله والقبض عليه. غير أن ابن كلس استطاع

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٣٢.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢٦، جـ٦، ص ٢٦.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤.
(٣) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٣٢.
ـ سبط بن الجوزى: المصدر السابق، جـ١١، ورقة ١٥٢.

ابن جعفر المعزى قبل اعتقال الاوحد بشهور، واقام الاوحد فى الاعتقال سنة ونصف الى ان انتهى الى امير الجيوش والده عنه وهو معتقل امر لم نعرفه فى اخر مسرى سنة ثمان مااية وثلثة للشهدا، فقطع الطعام والما عنه خمسة ايام النسى(*)، ثم امر من دخل اليه فى الموضع الذى هو معتقل فيه فخنقه حتى مات وذلك فى ليلة النيروز.

(*) أيام النسي: هي الشهر الأخير في السنة القبطية والمكون في الغالب من خمسة أيام تقع بين يومي ٢٤، ٢٨ أغسطس سميت بأيام النسئ. أما ليلة عيد النيروز فتتوافق ٢٩ أغسطس عام ١٠٨٧م.

وكان الاب انبا كيرلس قد كتب قوانين وانفذها

بالرشوة وبمساعدة أعوانه أن يحصل على أمر بالأفراج عنه، فخرج من مصر قاصدا بلاد المغرب [١].

وسواء دخل ابن كلس المغرب واتصل بالمعز لدين الله الفاطمى قبل غزو مصر عن طريق بعض اليهود المقربين إليه والذين يخدمون بالبلاط الفاطمي، وعاونه فى تدبير فتح مصر، ثم جاء معه عند قدومه إلى مصر [٢]. أم أنه التقى بالقائد جوهر الصقلى أثناء سير الحملة من المغرب لفتح مصر فعاد معه [٣]. فالحقيقة الثابتة أن ابن كلس منذ اتصاله بالمعز لدين الله كان على علاقة حسنة بدار الخلافة، ويتمتع بثقته لكفاءته ولمبالغته فى طاعته [٤].

ويرى بعض المؤرخين أن يعقوب بن كلس تقلد الوزارة فى عهد المعز لدين الله [٥]، بينما ترى

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤، ص ٥٥.
- العيني: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤١٩.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤١.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
- العيني: المصدر السابق، ورقة ٤٩.
(٤) ابن ظافر: المصدر السابق، ورقة ٤٩.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٥.
- القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ٣، ص ٣٥٧.

الى الصعيد وقريت فى الكنايس بمصر وساير الاعمال ، فلم تقبلها اهل الصعيد ولا تخلو عن قوانينهم، فقالو له اصحابه: انت قد انذرتهم وتخلصت من الخطية فتغافل عنهم. وفى سنة ثمان ماية واثنين للشهدا كتب سجل وقرى فى الايوان الكبير بالقصر بان تشد جميع النصارى زنانير سود، وكذلك اليهود وتكون اطرافها صفر ليتميزو عن النصارى، وان تكمل الجزية على

الغالبية الكبرى منهم أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد العزيز بالله (١)، الا انهم اختلفوا فى تاريخ تقلده هذا المنصب وانقسموا إلى فريقين:

فريق يرى انه تقلد الوزارة للعزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م (٢)، وفريق آخر يرى انه تقلدها فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ٣٦٨هـ (٣).

هذا بينما يحدد المقريزى اليوم الأول من المحرم سنة ٣٦٧هـ تاريخا لتقلده الوزارة(٤).

---

(١) ابن القلانسى: (الذيل، ص ٣٢)، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ١٥٢) النويرى (نهاية الارب، جـ٢٦، ورقة ٤٩)، المقريزى (الخطط، جـ٢، ص٩٥، العينى (عقد الجمان، جـ١٩، ورقة ٤١٩)، أبو المحاسن (النجوم جـ٤، ص ١٥٨)، ابن ايبك (كنز الدرر جـ٦، ورقة ١١٤)، وابن العماد (شذرات الذهب جـ٣، ص ٩٧).

(٢) ابن القلانسى: (الذيل، ص ٣٢)، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١ ورقة ١٥٢) أبو المحاسن (النجوم، جـ٤، ص ١٥٨)، ابن أيبك كنز الدرر، جـ٦، ورقة ١١٤).

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٧.
- النويرى: المصدر السابق جـ٢٦، ورقة ٤٩.
- العينى: المصدر السابق جـ١٩، ورقة ٤١٩.

(٤) المقريزى: خطط جـ٢، ص ٥.
- المقريزى: نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٦٨.

الجميع دينار وثلث وربع دينار(*)، وكان السبب في ذلك قاضى يعرف بابن الكحال وهو يومئذ مستخرج الجوالي.

(*) أي حوالى دينار و$\frac{7}{12}$ من الدينار = ١,٥٨ دينار.
وهكذا كان علم الحساب في ذلك الوقت لا يرقى إلى جمع الكسور فيفصلها كما في النص.

وكان امير الجيوش مويد في الحروب حتى ان الغز(*) في سنة ست وستين واربع ماية الخراجية وصلو الى صهرجت [مركز ميت غمر] في الفي فارس مقاتلة وملكو الشرقية وعدى بعضهم الى المحله ونهبوها وقتلو اكثر اهلها، وملكو الغربية حتى

(*) هجوم الأتراك الغز على مصر.

والواقع ان ابن كلس منذ اتصاله بالخليفة المعز قد تفانى في خدمته وطاعته، وفي رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣هـ «قلد المعز الخراج، ووجوه الأعمال جميعها، والحسبة، والسواحل، والأعشار والجوالى، والأحباس، والمواريث والشرطتين، وجميع ما ينضاف إلى ذلك، وما يطرأ في مصر وسائر الأعمال أبا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسن، وكتب لهما بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون» (١).

ولكن سيطرة ابن كلس على ادارة الدواوين، وعظم منزلته في قصر الخلافة، واقبال الناس عليه، لم يترك مجالا للمؤرخين لابراز الدور الذى قام به عسلوج بن الحسن الذى شارك ابن كلس مسئولية الاشرف على الدواوين مدة خلافة المعز. كما أن استمرار ابن كلس على قمة الجهاز الحكومي في الدولة بعد وفاة المعز كان من الأسباب التي جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أن ابن كلس قد تقلد الوزارة في عهد المعز.

ومن هنا يتضح لنا ان ابن كلس لم يتقلد الوزارة في عهد المعز، اذ لم يقلد المعز الوزارة لأحد مدة خلافته، وبذلك يكون ابن كلس أول من وزر للعزيز بالله في أول المحرم سنة ٣٦٧

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا الجزء الأول تحقيق جمال الدين الشيال ، ص ١٤٤، ١٤٥٠.

انتهو الى برما [مركز طنطا]، وكان مقدمهم سلار اسمه اطسز ويعرف بالافشيش، ومعه اخوته والمامول [العتاد] ومعهم ناصر الجيوش ابن بلدكوش، فخرج اليهم امير الجيوش فظفر بهم وقتلهم وانهزم الافشيش فى نفر يسير الى الشام وقتل اخوته المذكورين وناصر الجيوش، وعاد امير الجيوش الى القاهرة وعسكره مويد منصور فرحا مسرور، وكان معظم عسكر امير الجيوش ارمن.

هـ/ تاسع عشر أغسطس ٩٧٧م وأول من خوطب بالوزارة فى عهد الفاطميين. ثم منحه العزيز بالله فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقب «الوزير الأجل»، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به[١].

واشتهر ابن كلس بنجاح سياسته المالية، اذ كان أول عمل قام به صبيحة تقلده الادارة المالية فى المحرم سنة ٣٦٣هـ / أكتوبر ٩٧٣م، هو اعلان المزاد عن الضياع والأراضى وسائر وجوه الأعمال التى تريد الحكومة الفاطمية أخذ خراجها عن طريق نظام التضمين أو الالتزام. وقد حررت العقود بالمبالغ المطلوبة على ا لأراضى التى شملها نظام التضمين وأسماء الضمان أو الملتزمين الذين رسا عليهم المزاد [٢].

كما أخذ ابن كلس فى اعتباره عدة أمور فى وضع سياته المالية، وهذه الأمور هى:

أولا: العمل على زيادة ايرادات الدولة عن طريق المزاد لكل ما تريد الحكومة تضمينه، ليتمكن من الحصول على أعلى حصيلة للخراج متبعا نظام القبالات[٣] أو الالتزامات. وهو النظام المعمول به فى أنحاء الدولة [٤].

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥. (٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٣) خلاصة هذا النظام أن يتعهد شخص بجباية الضرائب فى قرية أو عدة قرى أو كور، ويتم هذا العمل بطريق المزايدة وذلك لمدة أربع سنين، البراوى حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ٣٢.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.

فلما كان فى ابيب سنة ثمان ماية وثلثة للشهد وصل من القسطنطينية الى اسكندرية مركب فيه رجل شاب له تجمل واصحاب وغلمان قيل عنه انه بطرك الارمن(*) واسمه اغريغوريس وانه ابن اخت بطركهم القديم وانه من بنى سنحاريب الملك، وان خاله فوض اليه البطركية وانفذه الى ديار مصر واعطاه اعضا جليلة من اعضا القديسين وصلبان ذهب وغير ذلك، وكان قد وصل الى هذه الديار قبله راهب ارمنى قديس يعرف بالمناكيس ودخل

(*) وصول بطرك للأرمن إلى مصر بسبب اعدادهم الكبيرة فى جيش بدر الجمالى.

ثانيا: زيادة عدد الضياع المطروحة للالتزام والقبالات فى المزاد العلنى (١).

ثالثا: تحديد وتقديرالضرائب للمتقبلين والملتزمين والضمان، وكذلك ما يصرف على الأراضى وتطهير وحفر الترع واصلاح الجسور حتى لا يتعرض أحد للتعسف والظلم، وتأكيدا لذلك كان ينظر فيما يقدم من شكاوى (٢).

رابعا: التشدد فى مطالبة المالكين والمتقبلين والعمال لتسوية التزاماتهم وتحصيل ما لديهم من مبالغ متأخرة وهى ماتسمى بالبواقى (٣) ونتيجة لهذه السياسة المالية زادت ايرادات الدولة زيادة كبيرة، وبلغ جملة خراجها فى سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م أربعة ملايين دينار (٤) وتحدثنا بعض المصادر أن ما تم تحصيله من أموال الخراج فى يوم واحد من تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار، ورغم أن هذا المبلغ مبالغ فى تقديره، الا أن المقريزى سيستنكر هذه السياسة المتشددة فى تحصيل الخراج بقوله «وهذا شئ لم يسمع قط بمثله فى بلد» (٥).

(١) المقريزى: نفس المصدر، ونفس الصفحة، ص ١٤٧.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٨١ ـ ٨٢، جـ٢، ص ٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٥.
(٤) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ٣٣٤.
(٥) المقريزى: الخطط. جـ٢، ص ٥.
ـ : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٧.

الى برية ابو مقار واجتمع ببسوس الراهب القديس
وفرح بما رآه من قدسه، ثم وصل الى اسكندرية
وجادلناه في الدين فعرفنا صحة امانته الارتدكسية
واستقامة ديانته المسيحية، وكان لابس حديد على
جسمه وفوقه مسح شعر، ورايته يوماً وقد اتوه
بشاب يعذب من شيطان كل يوم فاحضر قسيسين
ارمنيين فقرو عليه كتب وانجيل يوحنا على قصرية
[وعاء] فيها مآ واقلبها عليه فخرج الشيطان منه
وبرى، ورايته بعد ذلك عنده بالقاهرة وهو يتعلم

على أن أهم أعمال ابن كلس المالية هو أنه اتخذ من الدينار المعزى العملة النقدية الجديدة ـ عملة رسمية بدلا من الدينار الراضى [١]، وهو العملة التى كانت متداولة قبل مجئ الفاطميين إلى مصر. اذ امتنع ابن كلس وعسلوج ابن الحسن أن يأخذا ضريبة الخراج بالدينار الراضى، وارغما الناس على التعامل بالدينار المعزى، فانحط الدينار الراضى، ونقصت قيمته بمقدار الربع وأكثر[٢].

وهنا لابد أن نلقى الضوء على أبعاد هذا الاصلاح المالى الجديد ومغزى هذا الاصلاح الذى يعد فى الوقت نفسه أساسا لسياسة ابن كلس المالية.

ذلك أنه منذ استيلاء جوهر الصقلى على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م حتى قدوم سيده المعز سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م، ظل الدينار الراضى هو العملة السائدة فى مصر رغم أن جوهر سك الدنانير الذهبية التى تحمل اسم الخليفة المعز ولقبه[٣]، اذ كان الدينار الراضى آنذاك أكثر وزنا وأشد نقاء من الدينار المعزى [٤]. وعندما تولى ابن كلس الاشراف على الادارة المالية

(١) نسبة إلى الخليفة الراضى العباسى.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.
(٣) عبد الرحمن فهمي: موسوعة النقود العربية وعلم النميات، الجزء الأول (فجر السكة العربية)، ص ١٩٨.
(٤) البراوى: المصدر السابق، ص ٣٠٣.

ويكتب فى لوح عـاقـلا سليـمـا. ثم وصل بطرك الارمن الى مصر ولقى من امير الجيوش ملقا حسن ونزل فى كنيسـة السيـدة مـرتامريم الذى للملكيه بارض الزهرى بجـانب كنيسـة ابو قزمان الشـهيـد الجليل التى لليعاقبه عند القنطرة التى بين القاهرة ومصر وصار ساكناً بها ومقيما فيها الى الان، ثم اجتمع بالاب انبا كيرلص البطرك فاكرمه وفرح به واعترف له بالامانة الارتدكسية الصحيحة التى هى امانتنا معشر اليعاقبه بحضرة الجمع الكبير الذى

امتنع عن أخذ الدينار الراضى ورفض الا أن تكون جباية الخراج بالدينار المعزى، وقدرت قيمة الدينار الراضى بخمسة عشر درهما، بينما صرف الدينار المعزى بخمسة عشر درهما ونصف، فاضطر الناس إلى بيع الدينار الراضى بأقل من قيمته [١]، كما دخلت الحكومة الفاطمية نفسها فى هذه المضاربة مشترية بالسعر الذى حددته[٢].

وكان هـذا الاجراء المالى يرمى إلى زيادة مـاليـة الدولة عن طريق الربح الناتج من فـرق الوزن بين الدينارين، وذلك بسحب الدنانير الراضية ـ الأكثر وزنا والأشد نقاوة ـ واجبار الناس عـلى بيعهـا واستبـدالها بالدينار المعزى ـ الأقل وزنا ـ فـخسـر الناس من أموالهم الشئ الكثير[٣].

ولقد هيأ ابن كلس كل فرص النجاح لادارة الدولة فبمجرد توليه الوزارة، أحكم سيطرته على الدواوين، ونقل مقرها من قصر الخليفة، واتخذ من داره مقرا لها، ثم أنشأ ديوان «العزيزية» يختص بشئون الخليفة العزيز، وعين بهذه الدواوين خيرة الكتاب والموظفين

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) عبد الرحمن فهمى: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٠٢.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٠٤.

كان فى قلاية ابونا انبا كيرلس البطرك فى ذلك اليوم، واشتهر عند جميع الناس صحة اجتماع القبط والارمن والسريان والحبشة والنوبة على الامانة المستقيمة الصحيحة التى اتفق عليها الابا القديسين الفضلا وخالفها نسطور ولاون ومجمع خلقدونيه.

وفى خامس النسى سنة ثمان مائة واربعة للشهد توفى انبا يعقوب اسقف مصر وكان مدة مقامه

والجهابذة لادارتها والحق بها خزانة للكسوة، وخزانة للمال، وخزانة للدفاتر، وخزانة للأدوية وعين على رأس كل منها «ناظر» للاشراف عليها[1].

ورتب ابن كلس فى داره الحجاب، وحصن داره بالحرس الخاص، وزودها بالكتاب والأطباء والصيادلة، وأفرد لكل طائفة من العلماء، والأدباء والشعراء، والفقهاء، والمتكلمين، وأرباب الصنائع الأماكن الخاصة بهم، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق والمرتبات ـ كما أنشأ مجلسا للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وتظلمات للفصل فيها، وكان يبت فيها بنفسه، ويعمل على فض المنازعات بين الخصوم[2].

وبذلك أصبح قصر ابن كلس مقرا لادارة أقاليم الدولة فى مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب[3]، وأناب عنه فى تلك الأقاليم عمالا، وعيونا له يكتبون إليه بأخبار الولاة[4]، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور فى هذه الأقاليم من أحداث، كما استفاد من صداقته ومصاهرته للوزير ابن الفرات (ت ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) فعول عليه فى محاسبة العمال[5].

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، ص ٦.
(٣) ـــــ: نفس المصدر والجزء، ص ٥.
(٤) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٢٩.
(٥) على ابراهيم: تاريخ جوهر الصقلى، ص ٧٨.

على الكرسى اربعة وعشرين سنة، وكان قبل اسقفيته ارشى دياقن فى دير ابو يحنس بوادى هبيب ودفن فى [بركة] الحبش بمصر، واجتمع مقدمى الشعب على اختيار جماعة من الرهبان بالديارات الى ان وقع اختيارهم على اثنين [إما] سنهوت الشماس بدير ابو بيشيه او بمين الارشى دياقن بدير ابو يحنس، فسيرو رجل يعرف بابى سهل الصهرجتى اليهما، فاختفى سنهوت عنه،

لذا يرى بعض المؤرخين أن العزيز بالله فوض أمور الدولة إلى ابن كلس [1]، وانه كان «متمكنا من صاحبه [2]، وأنه «غلب على العزيز» [3] وأنه «لم يبق لأحد معه كلام» [4].

فما هى حقيقة الأمر؟، هل كانت وزارة ابن كلس وزارة تفويض أم وزارة تنفيذ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لابد من القاء مزيد من الضوء على مكانة ابن كلس فى دولة الفاطميين.

لقد تقلد ابن كلس الوزارة ـ كما سبق الاشارة ـ من أول المحرم سنة ٣٦٧هـ، ولقبه العزيز فى رمضان سنة ٣٦٨هـ/ ابريل ٩٧٨م بلقب «الوزير الأجل» وخلع عليه، ثم أصدر مرسوما فى المحرم سنة ٣٧٣هـ/ يونية ٩٨٣م أن يبدأ فى مخاطبته ومكاتبته باسمه على المكاتبات

(١) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٥، ابن القلانسى (الذيل، ص ٣٢).
سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ١٥٢)، ابن ظافر (أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٥٤)، النويرى (نهاية الارب، جـ٢٦، ورقة ٤٩).

(٢) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء السادس. مخطوطة مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٧، ورقة ٢٧٣.

(٣) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، جـ١١، ورقة ١٥٢.

(٤) العينى: المصدر السابق، جـ ١٩، ورقة ٤١٩.

ومضى الى دير ابو يحنس لياخذ «بمين» فوجد سنهوت مختفياً هناك، فاخذه هو والذين سيرو معه لاخذه ووصلو به الى كنيسة ميكاييل المختارة التى بجزيرة مصر [جزيرة الروضه] وانبا كيرلص يوميذ مقيم به، واجتمع الكهنة والاراخنة والشعب فقسموه في يوم الاحد الثانى عشر من بابه سنة ثمان مايه واربعة للشهد وهى سنة سبع وسبعين واربع مايه الخراجية، وكرز فى كنيسة القديس

النافذة عنه [1]، فكان يكتب عليها: «من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين إلى فلان» [2]. بل ان العزيز بالله رفع إلى وزيره رقعة سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م يقول فى أولها: «سلم الله الوزير وأبقى نعمته عليه» ولم يكن ذلك الا تقديرا للرجل ومكانته. وفضلا عن ذلك فقد أقطعه الاقطاعات والضياع بمصر والشام، وأذن بكتابة اسمه على الطراز تكريما له [3]. كما خطب وده الشعراء والأدباء ومنهم أبو الرقعمق (ت ٣٩٩هـ) صاحب المجون والنوادر[4]، كما مدحه كبار رجال الدولة وقوادها، فهذا جعفر بن فلاح ـ القائد المغربى ـ يكتب إلى ابن كلس قائلا:

ولى صديق ما مسنى عدم … مذ نظرت عينه الى عدمى
أعطى وأقنى ولم يكلفنى … تقبيل كف له ولا قدم [5]

ومع تزايد نفوذه وعلو مكانته فقد اتخذ ابن كلس سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠م موقفا عدائيا

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) ابن ظافر: المصدر السابق، ورقة ٥٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٤) الثعالبى: يتيمة الدهر، جـ١، ص ٣٢٦، ٤٢٧.
ـ ابن العماد: المصدر السابق، جـ٣، ١٥٥.
(٥) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٤ ص ٥٩.

سرجيوس بقصر الشمع يوم الاحد التاسع عشر من بابه المذكور وكان جيد الامانة عالم طاهر فاضل متواضع مليح الكهنوة.

ولما كان في سنة ثمان وسبعين واربعماية الخراجية وصل اخو مطران الحبشة بهدية لم يحسن موقعها عند امير الجيوش ولا اعجبته، فلما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين منه استدعى ابا كيرلس البطرك فحضر ومعه عشرة اساقفة وابو

من الكتاميين ـ وهم الدعامة التي قامت عليها دولة الفاطميين ـ وربما كان ذلك بسبب حقدهم عليه لاستئثاره بالسلطة والنفوذ، كما أنه عزل جوهر القائد من منصبه، مما أدى إلى مواجهة عنيفة بينه وبين الكتاميين الذين حاولوا اغتياله سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣م مما اضطره بعد ذلك بثلاث سنوات إلى أن يسقط المغاربة ويستخدم الأتراك والأخشيدية(١).

ومع ما كان يتمتع به ابن كلس من قوة ونفوذ ومكانة سياسية ومهارة ادارية فإن الخليفة العزيز بالله كان يمتلك من القوة والارادة مايستطيع به في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة أن يكبح جماح وزيره، ليصحح خطأ أرتكبه وليعيد الأمور إلى نصابها، بل ويجرده من جميع مناصبه وسلطاته وألقابه وثروته ويعتقله إذا لزم الأمر.

وقد ذكر لنا المؤرخون ان العزيز بالله اتخذ موقفا حازما من ابن كلس وهو في أوج عظمته. ففي سنة ٣٧٣هـ /٩٨٣م توفي القائد التركي أفتكين، وكان مقربا من الخليفة العزيز بالله، ومن أخص خدمه وحجابه، مما دفعه إلى الترفع على الوزير ابن كلس ومقاطعته، فصارت بينهما العداوة والكراهية، وثارت شكوك العزيز بالله حول ابن كلس ظناً منه أنه قد دسّ السم لأفتكين فأتهمه بذلك وأمر باعتقاله، وعزله من منصبه في

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٥٦.
ـ النويري: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.

مليح مينا ابن زكريا صاحب ديوان الابواب بمصر وكان لقبه الشيخ الاثير نجيب الدولة ومكينها، فلما دخلو الى الاجل امير الجيوش وجدو اخو مطران الحبشة قايم هناك ، فلما جلسو قال لهم امير الجيوش: انتم جعلتم اخو هذا مطران الحبشة ولنا عنده مال وقد كان بذل ان يبنى مساجد فى بلاد الحبشة ويحمل الهدايا وقرر اشيا كثير فما فعل وانفذ شي يشبهه. وكان من جملة الاساقفة

شوال سنة ٣٧٣هـ [١]، ونقل الدواوين من دار الوزير إلى قصر الخلافة [٢]، ورد النظر فى أمور الدولة إلى خير بن القاسم [٣]. ولم يكتف العزيز بكل ذلك، بل صادر أموال ابن كلس وجرده من ألقابه ومحا اسمه من الطراز [٤].

ولبث ابن كلس فى الاعتقال عدة شهور، فارتبكت أمور الدولة، وساءت أحوالها، مما اضطر العزيز بالله إلى اطلاق سراحه سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م. واعادته إلى الوزارة والخلعة عليه، كما أصدر مرسوما برد ما أخذ من أمواله وزاد عليها، واعادة اسمه إلى الطراز، وأن يتقدم الوزير موكب من عدة خيول تكريما له [٥].

ولا يعنى هذا الحادث الا التأكيد على أن الخلفاء الفاطمين الأوائل كانوا يمسكون بالسلطة

---

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٢٨.
ـ النويرى : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٨، ٤٩.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٤.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ٢٦٢.
ـ النويرى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٨، ٤٩.
(٥) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٦٤.
ـ المقريزى: أتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٦٢.

الحاضرين افرهام اسقف دبقو المعروف بالصعيدى
الذى هو اصل كل صداع، اذ كان البطرك اقسمه
على دبقو ولم يدخله كرسى ولا ابصره ولا كرز
فيه ولا قدس على هيكل منه قط كما يجب فى
القانون، وصار كاتبه وبهذا الحكم صار مبغضاً
لرياسة الكهنوت، وهو الذى كانو الاساقفة قامو
عليه وامتعضو منه وكتبو مدرج بانه لا يصلح لهذا
وانه واثنين اخر لا يجب مقامهم فى صحبة البطرك

العليا فى أيديهم، وان الوزراء مهما كانت منزلتهم كانت لهم المكانة الثانية فى الدولة، كما يؤكد أيضا ـ رغم ما يذكره مؤرخو مصر الاسلامية من تعاظم نفوذ ابن كلس ـ ان الوزير كان يأتمر بأمر الخليفة، وينفذ سياسته وان وزارة ابن كلس كانت وزارة تنفيذ، ولم تكن وزارة تفويض. ولقد حرص ابن كلس على تنفيذ أوامر العزيز بالله وتقديم فروض الطاعة والولاء له، كما حرص دائما على أن يثبت له أنه عند حسن الظن به عندما كان يحاول أعداؤه الوشاية به والطعن فيه [١].

ويعتبر ابن كلس أبرز رجال الدولة الفاطمية الذين قادوا الحركة العلمية فى العصر الفاطمى الأول ، ومن القلائل الذين نافسوا أسرة النعمان ـ التى أخذ رجالها على عاتقهم نشر المذهب الشيعى ـ فى تدريس وارساء مبادئ الفقه الشيعى [٢]. فقد ألف ابن كلس وصنف «الرسالة الوزيرية»، وهى كتاب فى الفقه الشيعى على المذهب الاسماعيل، روى فيه عن الأئمة الفاطميين خاصة ما سمعه من الخليفتين المعز والعزيز، وكان هذا الكتاب من المراجع التى

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٦.
(٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الأصر عن قضاة مصر، القسم الثانى. تحقيق د. حامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٦١)، ص ٤٠٩.

لما ظهر من طريقتهم الردية، واخذو خطه كما قلنا فيما تقدم . فاقلب هذا افرهام رايه وقال له كيف ترضى ان تحكم عليك الاساقفة حتى وقعت الخصومة بين البطرك وبين الاساقفة؟. وكتبو فيه الرقاع، وهو كان السبب فى جميع الاساقفة وما جرى عليهم، وهو الى الان معكس جميع امور الاب البطرك لانه راهب قديس، وكلما نالهم من شقاق وخلف. فقال افرهام المذكور للاجل امير

يعتمد عليها العلماء فيما يصدرونه من الفتاوى والأحكام كما كان هذا المؤلف من المؤلفات الهامة التى كان يدرسها الفقهاء(١).

ولم يقتصر ابن كلس على مصنفه السابق الذكر، اذ يذكر المقريزى أن من مؤلفاته كتاب فى القراءآت، وكتاب فى الأديان، وكتاب فى آداب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها وهو مؤلف يقع فى ألف ورقة (٢).

كما عقد ابن كلس الندوات الخاصة فى كل يوم ثلاثاء، وكان يحضرها بنفسه مع الفقهاء والعلماء وأهل الرأى، يتناظرون بين يديه، وكان إذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من الخليفتين المعز والعزيز التف حول مجلسه الخاصة والعامة يستمعون اليه(٣).

وبذل ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته. فكان يجلس فى يوم الجمعة، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ليعطيها اهتماما خاصا، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود فاذا فرغ من قراءته قام الشعراء يمدحونه (٤).

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٧٣.
ـ المقريزى: الخطط ، جـ٢، ص ٦,٥.
(٢) المقريزى: الخطط ، جـ٢، ص.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢.
(٤) ـــــ: نفس المصدر.

الجيوش يا مولاى هذا المطران ما اصلح الا بامرك، فقال له تكذب انت وهذا الشيخ. يعنى البطرك فسكت الجمع، ثم قال امير الجيوش: يجب ان تسيرو اسقفين حتى تبنا المساجد فى بلاد الحبشة وتقام الدعوة وتحمل الهدية وتقرر الهدية على هذا خمسون سنة ولا يقررو هدية هم بالخيار، وقد صارو يقطعو فى تلك البلاد على المسلمين التجار وغيرهم الطريق فيمنعهم البطرك من ذلك والا فانا

وقد شجع العزيز بالله هذه المجالس العلمية، فأجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أرزاقا فى كل شهر تكفيهم [(١)].

واتخذ ابن كلس من الجوامع مراكز لنشر الدعوة الفاطمية، ولذلك امتدت اليها يد الاصلاح والتعمير، وتحت اشرافه ادخل كثيرا من التحسينات على جامع عمرو بالفسطاط. وفى هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء مؤلفات ابن كلس فى الفقه والقراءات بالدراسة والشرح [(٢)]. كما اتخذ من جامع الحاكم، وهو الجامع الذى وضع ابن كلس أساسه سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م مركزا آخر لنشر تعاليم المذهب الاسماعيلى، واجتمع فى ساحته الفقهاء للدراسة على غرار ما كان يجرى بالجامع الأزهر [(٣)].

وفى العصر الفاطمى الاول اشتهر الجامع الازهر كأعظم جامعة علمية اسلامية، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الوزير العالم يعقوب ابن كلس. ففى سنة ٣٧٨هـ = ٩٨٨م وافق العزيز باله ـ بناء على اقتراح ابن كلس ـ على تحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية ومركز للدراسات

(١) ــــــ: نفس المصدر.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٦، ٢٤٨، ٢٤٩.
ـ خطاب عطية: التعليم فى العصر الفاطمى الأول (القاهرة ١٩٤٧م) ص ١٠٠، ١٠١).
(٣) المقريزى: المصدر السابق، ص ٢٧٦.

اعرف ما افعله، فقال الاب البطرك: يا مولاى ايش لى انا فى قطع الطريق انا [لست] خفير، فامر ان يقام [يطرد] هو والاساقفة فاقيمو من المجلس على اقبح صفة، وامر باخو المطران يحبسوه فاعتقلوه فى خزانة البنود، وامر ان تكتب اسما الاساقفة الذين حضرو فلما كتبت اسمايهم خرج اليهم حاجبين موكلين عليهم بدينارين كل يوم حتى يكتبو الى ملك الحبش ويقررو مسير اسقفين منهم،

الفقهية لكل ما يتعلق بالمذهب الاسماعيل، وعين بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء، وخصص لهم الرواتب الشهرية الجزية، وأنشأ لهم دارا ملحقة بالجامع الأزهر لسكناهم، وكانوا يعقدون به ندوتهم العلمية الاسبوعية عقب انتهاء صلاة الجمعة وحتى صلاة العصر، وبالغ العزيز فى تكريم هؤلاء العلماء، فبذل لهم العطايا، ومنحهم الخلع وأمر أن يركبوان البغال تقديرا لهم، ومع كل ما ناله هؤلاء العلماء من تكريم لم ينس ابن كلس أن يقدم لهم الصلات والمنح كل عام مكافأة وتشجيعا لهم [١].

وجالس ابن كلس أهل العلم والأدب، وجمع بداره العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمتكلمين والنساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر، وخصص لهم الرواتب الشهرية، واهتم بزيادة اعداد الكتب والمؤلفات، فعين كتابا لنسخ الكتب ومراجعين لمقابلتها وضبطها خشية التحريف وحفاظا على التراث [٢]. كما زود ابن كلس هؤلاء العلماء بكل ما يحتاجون اليه، فأسس مسجدا بداره وعين له القراء والأئمة للصلاة ، وأنشأ عدة مطابخ

(١) ـــــ: نفس المصدر، ص ٢٧١.

(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٤.

ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.

فنزلو والترسيم معهم الى كنيسة السيدة المعلقة بمصر، وكان الاب البطريرك يعطيهم كل يوم الجعل يدفعوه للمترسمين ولم يدعهم يخسرو شي. وكتبو الكتب وقررو مسير مرقس اسقف وسيم والجيزه وتادرس اسقف سنجار، وكان قد نال بنى المعمودية خوفا عظيم لشدة هيبة امير الجيوش وما جرى منه على الاساقفة الى ان لطف الله سبحنه بوصول هدية حسنة من عند باسل [باسيل] ملك

لخدمتهم، ودعا إلى مائدته أهل العلم ووجوه الكتاب، وأقام مثل هذه المآدب في شهر رمضان للفقهاء ووجوه الناس فاذا فرغوا من تناول الطعام كان يطاف عليهم بالطيب[1].

ونافس الوزير ابن كلس قاضى القضاة على بن النعمان القيروانى فى نشر عقائد الفاطميين وفرض القيود على تصرفات القاضى وأحكامه الفقهية بالدرجة التي جعلت القاضى ابن النعمان يطل الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير فى التقليل من شأنه وأهميته [2]. كما وقف ابن كلس بالمرصاد وتصدى للعلماء والمؤلفات التى لا تنحو نحوا شيعيا، وكان نصيب المؤلفين المعارضين لسياسته الموت أو الاعدام، ونصيب مؤلفاتهم الحرق أو الاهمال[3].

وبوفاة ابن كلس سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م فقدت الدولة الفاطمية واحدا من أخلص وزرائها البارزين الذين أسهموا بجهد وافر فى رسم وتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية.

(١) المقريزى: نفس المصدر والصفحة.
(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ص ٤٠٩.
(٣) القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٨٥.
ـ خطاب عطية: المصدر السابق ، ص ٩٦.

النوبة ومعها ولد الملك الذى كان قبله وتوفا ليجعله البطرك اسقفاً، لان عادتهم اذا مات الملك لا يجعل ولده ملكاً عوضه بل يجعل ابن اخته(*)، فاستدعى الاجل امير الجيوش الاب البطرك ابا كيرلص القديس والعشرة الاساقفة المذكورين فى يوم الاربعا السابع والعشرين من امشير، فدخلو اليه وهم خايفين فامرهم بالجلوس واكرمهم . واكرم البطرك وادناه وطيب قلبه وخاطبه بجميل، واحضر

(*) حول نظام وراثة سلطة الملك فى مملكة النوبة.

عيسى بن نسطورس:

لم يستوزر العزيز بالله الفاطمى أحدا الوزارة بعد ابن كلس، وانما أنشأ منصبا جديداً هو منصب «الوساطة» [(1)].

ويأتى عيسى بن نسطورس فى مقدمة الذين تولوا منصب الوساطة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد اختلفت فى تاريخ تقليده الوساطة[(2)] ، الا أنه من المرجح أن العزيز بالله قسم أعمال الوزير ابن كلس المتوفى فى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م بين كبار رجال دولته، وعهد بادارة الشئون المالية للبلاد إلى عيسى بن نسطورس وهو نصرانى من أقباط مصر [(3)]، ثم ما لبث أن رفعه الى منصب الوساطة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، فأشرف على كل دواوين الدولة وأحكم سيطرته عليها، «وخاطب سائر

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٣٨.
ـ أبى السرور البكرى: عيون الأخبار ونزهة الأبصار، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٢، تاريخ بمكتبة مصطفى باشا، ورقة ١٤٧.
(٢) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٩٠.
ـ العينى : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢١.
(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٥.

اخو المطران، واتفق للوقت ان رفع اليه تاجر من المسلمين رقعة يشكو فيها انه قطع عليه الطريق فى بلاد الحبشة واخذ ماله، فاحضره بحضورهم واستفهم منه قضية حاله فانطقه الله تعالى بان قال اخذ مالى فى بلاد الحبشة وقبض الملك على سورس المطران قبل ان يوصلنى الى حقى، فقال له امير الجيوش: اذا كان المطران قد قبض عليه فكيف يقدر يوصلك الى حقك ومع هذا فالملك

الكتاب عن العزيز، وخاطبه سائر الأولياء وكافة الناس فى مهماتهم وتوقيعاتهم» [1]. كما عين العزيز بالله منشابن القزاز اليهودى نائبا له على الشام [2].

واشتهر عيسى بن نسطورس بسياسته الحازمة، وكفاءته الادارية، وقدرته على ضبط وتحصيل الخراج [3]. ويرى الانطاكى أن ابن نسطورس «رسم أيام نظره رسوما جائرة، وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه» [4] بينما يقول Mann «وكان عيسى قاسى القلب مرابيا، خص نفسه بكل الأعمال المربحة، وزاد كثيرا من الضرائب» [5].

فهد بن ابراهيم:

ويأتى أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصرانى ـ وهو من أبناء ريف مصر ـ كواحد من كبار موظفى الدولة الذين علا شأنهم كشخصية سياسية لها وزنها وتأثيرها فى سياسة الدولة الفاطمية ابان الفترة التى تولى فيها أبو الفتوح برجوان منصب الوساطة سنة ٣٨٧هـ/

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٨٣.

(2) Lane-Poale : AHistory of Egypt in the Middle Ages, p. 119.

(٣) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٤) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٠.

مقنصل ببلاده. ثم إلتفت الى اخو المطران وقال له: كان اخوك قد شرط لنا على نفسه ان يبنى فى بلاد الحبشة اربع مساجد وما فعل. فقال له: يا مولاى قد بنا [المطران] فى المواضع التى استطاع البنا فيها سبعة مساجد وامرها مشهور والحبشة هدموها وارادو يقتلوه وان الملك لما بلغه هذا قبض على المطران واعتقله، فقال الاجل امير الجيوش: مبارك. ثم قال للبطرك والاساقفة: ايش

٩٩٧م[١] إذ عول برجوان على كاتبه أبى العلاء فهد بن ابراهيم فى النيابة عنه ولقبه بالرئيس، فقام بتدبير أمور الدولة وأحكم سيطرته عليها[٢].

وأبدى فهد نشاطا كبيرا فى خدمة برجوان، فكان يجلس فى الدهليز الأول بقصر الخلافة فى عهد الحاكم بأمر الله ينظر فى الشكاوى والتظلمات للبت فيها [٣]، ثم يعرض على برجوان ما يحتاج الى العرض على الخليفة، «فيخرج الأمر بما يكون العمل به»[٤].

وقد استقامت أمور الدولة بمصر والشام أثناء وساطة برجوان بفضل جهود كاتبه أبى العلاء فهد[٥]. ولما ازداد نفوذ برجوان، واستبد بمقاليد الأمور وأصبح خطرا على الخلافة، قتله الحاكم فى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ [٦].

وبعد قتل برجوان استدعى الحاكم بأمر الله أبا العلاء فهد ابن ابراهيم وأمنه، وقال له:

(1) Mann: Op. cit., Vol I, p. 19.

(٢) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٨١.
(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٩.
(٤) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص٣.
(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق ، ص ٥٤.
(٦) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣.

فعلتم. فقالو: قد كتبنا الكتب قبطى وعربى فامر
من شيت يقراها ويفسرها بين يديك. فقال: انتم
عندى ثقات وانا اراعيكم واوثركم اكثر من جميع
النصارى فمن يسير منكم بهذه الكتب مع كتابى
ورسولى. فقالو: هذين الاسقفين. واشارو اليهما
فنظرهما وقال: مبارك. وامر لهما بنفقة، وامر
الحاجبين الذين كانا مترسمين على الاساقفة ان
يرتفعا عنهما ولا يعترضا لهم وطيب نفوسهم

«أنت كاتبى، وصاحبك عبدى، وهو كان الواسطة بينى وبينك، وجرت منه أشياء أنكرتها عليه، فجازيته عليها بما استوجبه، فكن أنت على رسمك فى كتابتك، آمنا على نفسك ومالك[1]. ثم عقد الحاكم بأمر الله اجتماعا لكبار رجال دولته وكتابه ومعهم فهد وقال لهم: «أن هذا فهدا، كان أمس كاتب برجوان عبدى، و هو اليوم وزيرى، فاسمعوا له وأطيعوا، ووفوه شروطه فى التقدم عليكم، وتوفروا على مراعاة الأعمال، وحراسة الأموال»، فقبل فهد والحاضرون الأرض بين يدى الحاكم، وأجابوا بالسمع والطاعة [2].

وعلى الرغم من أن قتل برجوان يعتبر بداية مرحلة جديدة فى خلافة الحاكم بأمر الله، اذ بعد مقتله انتقلت اليه السلطة الفعلية فى الدولة، الا أن حديثه الذى وجهه إلى كبار موظفى الدولة كان أمراً صريحا بالتزام الطاعة لفهد والتعاون معه فى تنفيذ سياسته الجديدة.

لكن الحاكم بأمر الله لم ينس أن ينصب مع فهد رجل الدولة البارز الحسين بن جوهر، ولقبه بقائد القواد، يتقاسم السلطة والنفوذ مع فهد حتى لا ينفرد بأمور الدولة وسياستها، أو خشية ازدياد نفوذه فيصبح خطرا على الخلافة. فكان فهد وابن جوهر يجلسان بقصر الخلافة

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، الجزء الثانى، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٦.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٦.

واكرمهم وخرجو من بين يديه مسرورين شاكرين
لله تعالى، وحكى لى بعض الثقات الخيرين ان
الاجل امير الجيوش قال فى كتابه الى ملك الحبشة
«ان لم تفعل كذا وكذا والا هدمت البيع التى
بارض مصر»، فكتب اليه الجواب يقول: «اذا
هدمت من البيع حجر واحد حملت اليك طوب
مكة وحجارتها جميعها واوصلته اليك كله ومتى
ضاع منه طوبة واحدة انفذت اليك وزنها ذهب».

وينظران فى الأمور، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة. غير أن فهد لقى حتفه فى ثامن جمادى الآخر سنة ٣٩٣هـ عندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله[١].

وتتضارب الروايات فى أسباب مقتل فهد. فيرى مؤلف «سير البيعة المقدسة» أن الحاكم بأمر الله ضرب عنق فهد، وحرق جسده لأنه لم يجبه إلى اعتناق الإسلام بعد أن وعده بالمنزلة السامية والمنصب الرفيع [٢]. وبينما يرى ابن القلانسى أن الحاكم بأمر الله قتل فهد نتيجة مؤامرة أحكم تدبيرها ابن العداس (والى ديوان الخراج) بالاتفاق مع أبى طاهر النحوى (والى ديوان الحجاز) اللذان وشيا به عند الحاكم، وأشارا إلى الثروة التى جمعها، وما اقتطعه لنفسه من اقطاعات عديدة. ووعد الرجلان الحاكم بأمر الله بالعمل بدلا منه أن تخلص منه، على أن يقوما بتوفيرمبلغ ستة آلاف دينار كان فهد يأخذها لنفسه[٣].

منصور بن عبدون:

هو واحد من كبار رجال أهل الذمة الذين تولوا أرقى وظائف الدولة، وتولى ديوان الشام

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٥.
ـ المقريزى: الخطط جـ٢، ص ١٣، ١٤، ٣٠.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥.
(٣) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٩.

وكان من امر ابو الطيب سهلون ابن كيل الظالم وظلمه للناس ومصادرته لهم واعتقالهم فى خزانة البنود وتسليط ابو الحارث كاتب الخزانة عليهم وحثه على عقوبتهم بانواع العقوبة ما هو مشهور معلوم، وكان يوميذ يتولى ديوان المجلس ويجلس في قبة الخراج بالقصر السعيد، فاخرجنى ابو الحرث يوماً من الاعتقال واوقفنى بين يديه، وقال لى: قد ضجرت مما يقول لى الشيخ ابو الطيب ابن

قبل توليه منصب الوساطة فى مصر، ووصف بانه «كان رجلا نصرانيا خبيثا جلدا» [1]. وقد اشتهر بمقدرته الادارية والمالية، ولمع نجمه فى دواوين الحكومة وأصبح مقربا من قصر الخلافة[2] فى الحادى عشر من صفر سنة ٤٠٠هـ، عقد الحاكم بأمر الله مجلسا بدار الخلافة حضره كبار رجال الدولة وأصحاب الدواوين وقرر تعيين منصور بن عبدون النصرانى فى منصب الوساطة وقرئ سجله على الحاضرين [3] ثم منحه بعد فترة قصيرة من وساطته لقب «الكافى» [4]، و كتب له سجلا بذلك... وحمل على بغلتين تكريما له [5]. كما سمح له بالتوقيع عنه والنظر فى أمور الدولة [6] فجد ابن عبدون فى جمع أموال الدولة ومواردها مماجعل الحاكم بأمر الله يمتدحه بقوله:

«ما خدمنى أحد ولا بلغ فى خدمته ما بلغه ابن عبدون، ولقد جمع لى من الأموال ما هو

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٦١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢، ورقة ٥٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٤) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٩.
(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
(٦) ــــــ: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.

الظالم، عاقب موهوب ابن مفرج السكندرى
وولده وزوجته وابو الخير ولد ابو السرور ابن الابح
الى ان يقومو للسلطان بماله الذى كتبو خطوطهم
به. وحلف لى على هذا ايمان عظيمة ان المذكور
حثه على هذا دفعات كثيرة، ثم حلف ابو الحارث
قايلا لى: ان لم تحضر الى عشية هذا النهار كذا
وكذا وذكر دنانير كثيرة لا قدرة لى عليها لاعاقبن
والدك قدامك فى هذه العشية. فقلت له : يا

خارج فى أموال الدواوين تلثمائة ألف دينار [1]. وقد أنشأ ابن عبدون أثناء توليه الوساطة ديوانا سماه «ديوان المفرد» تودع فيه الأموال المصادرة لمن يغضب عليه الخليفة أو يقتله أو يقبض عليه من كبار رجال الدولة، أو أية أملاك وأموال يرى الحاكم بأمر الله مصادرتها[2].

غير أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عزل ابن عبدون فى رابع المحرم سنة ٤٠١هـ / ثامن عشر أغسطس سنة ١٠١٠م لكيد أعدائه له بسبب ما كان بينه وبينهم من شحناء، هذا بجانب نجاح الحسين بن جوهر فى تحريض الحاكم بأمر الله عليه، بالدرجة التى جعلته لا يكتفى بعزله، بل ويأمر باعتقاله ومراجعة أعماله وحساباته، ثم اعدامه فى الشهر التالى، ومصادرة أمواله [3].

زرعة بن عيسى بن نسطورس:

بعد أن عزل الحاكم بأمر الله ابن عبدون، عين أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى

(١) ــــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٥٢.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٨.
ـ ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٦٢.
ــــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٤، ص ٨٥.

مولاى هو مطروح وقد قارب الموت لشدة ما ناله
منك من العقوبة فان أنت استدعيت به مات.
فاعاد القسم وكان اذا اقسم يفعل ما يقسم عليه،
وعلمت ان الذى قاله عن ابن الظالم صحيح
للمشهور من سو افعاله معى ومع غيرى، وكان
هذا الخطاب غداة يوم الاثنين التاسع والعشرين من
برمهات سنة اربع ماية وثمنين الخراجية. ثم اخرج
معى رجلين لاطوف واحصل الدنانير التى التمسها،

منصب الوساطة. الا أنه فى اليوم الرابع عشر من المحرم من نفس السنة قرر عزله، وعين مكانه الكاتب النصرانى زرعة بن عيسى بن نسطورس، وأنعم عليه فى سابع ربيع الآخر من تلك السنة بلقب «الشافى»[1].

وظل زرعة فى منصبه حتى وفاته فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ. وكان قد استطاع بحسن ادارته ومهارته السياسية أن يحوز على ثقة قصر الخلافة، كما كانت علاقته وطيدة برجال الجيش وكتاب الدولة[2].

صاعد بن عيسى بن نسطورس:

يعتبر صاعد بن عيسى بن نسطورس ثالث فرد فى هذه الأسرة يلى الوساطة، اذ سبق أن تولاها أبوه عيسى، ثم أخوه زرعة من قبل. وقد تولى صاعد الوساطة فى آخر شوال سنة ٤٠٩هـ، وظل فى منصبه حتى قتل فى رابع ذى الحجة من تلك السنة [3]. وعندما أسندت اليه الوساطه لقب «بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذواليدين»[4].

(١) القلقشندى: المصدر السابق، ص ٣، ص ٤٩٠.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٦.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ١١٤.
(٤) المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠، ص ٥٠.

فنزلت الى مصر وقصدت كنيسة الست السيدة المعلقه بقصر الشمع وطلعت الى حيث صورتها، فوجدت هناك ابو الفتح ابن رفاييل الكاتب وكان هو ايضاً مطالب مثلى، فبكينا بين يديها وقلنا: مثل هذا اليوم بشرك الملاك غبريال بخلاص بنى البشر، وفى مثل هذا اليوم نحن نسالك لا تغفلى عنا. وكان كثير على هذا ابن الظالم بمصر والقاهرة والريف وكل موضع لاجل ما فعله مع

ابو نصر (أبو منصور) صدقة بن يوسف الفلاحى:

تولى الوزارة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى، وكان يهوديا غير أنه اعتنق الإسلام وخلع عليه فى الحادى عشر من رمضان سنة ٤٣٦هـ خلفا للوزير الحسين بن على الانبارى. وقد ساعدته الأحداث الداخلية والظروف المحيطة بقصر الخلافة على أن يتبوأ هذا المنصب، ذلك أنه فى أيام الحاكم بأمر الله كان يوجد اخوان من أصل يهودى أحدهما أبو نصر بن سهل التسترى وكان يحترف الصيرفة، والثانى أبو سعيد (أبو سعد) ابراهيم وكان يشتغل بالتجارة، وكانت أم المستنصر بالله جارية سوداء، اشتراها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله من أبى سعيد ابراهيم، وأنجب منها ابنه المستنصر [١] ولما صارت الخلافة إلى ولدها قدمت أبا سعيد، وما لبث أن أصبح ناظرا لديوان أم الخليفة ومن المقربين إلى المستنصر، وعلى صلة وثيقة بأمه التى كانت ذا نفوذ عظيم فى أوائل حكم ابنها[٢].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢ ص ١.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩٠ - ١٩١.
(٢) ناصرى خسرو: سفرنامة د. يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٥، ص ٦٤.
- ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص١.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩٥.
- على حسن الخربوطلى: مصر العربية الاسلامية، ص ١٦٢.

بنى المعمودية وغيرهم، وكذلك ابو الحارث ايضاً فاظهر الله فيهما اعجوبة للوقت، وبينما نحن فى الكنيسة المذكورة تواصلت الاخبار من القاهرة بالقبض على ابن الظالم وابو الحارث واعتقالهما فى دار شمس الدولة كمش، فنالنا وجميع الناس سرور عظيم، ولما كان غداة يوم الاربعا اخرجا على جملين إلى خارج باب النصر وصلبا على صاريين ورميا بالنشاب حتى ماتا، وقبضا على اخوته

وحدث أن تولى الانبارى الوزارة، وساءت علاقته بأبى نصر وأخيه أبى سعيد التسترى الذى شكا إلى أم الخليفة فحرضت ابنها المستنصر ضد ابن الأنبارى لعزله من الوزارة، وتعيين أبى صدقة ابن يوسف الفلاحى مكانه (١).

وما أن تولى الفلاحى الوزارة حتى ظهرت أطماع أبى سعيد التسترى ونفوذه بصورة رهيبة، اذ أشرف على الفلاحى الوزير، ووقع تحت سيطرته بحيث لم يبق له معه أمر ولا نهى سوى الاسم وبعض التنفيذ (٢).

وبايعاز من أبى سعيد التسترى، وبتحريض منه، استطاع الفلاحى أن يكيد للأنبارى الوزير السابق، ويتهمه بالاختلاسات المالية، وينتقد سياسته السابقة، حتى تمكن منه، فقبض عليه وصودرت أمواله، ثم قتل (٣).

غير أن الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى استطاع أن يتخلص من أبى سعيد فحرض الجند الأتراك عليه، فاتهموه بدس السم لقائدهم ريحان، وقتلوه ثم مثلوا بجثته، وذلك فى الثالث

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٢٣.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ١.
ـ السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧هـ. جـ٢، ص ١١٦.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٥٤، ٤٢٣.

الاسقفين يوحنا ومرقس وشددوهما للعقوبة حتى كتبا خطوطهما بالفي دينار، وخرجا ومعهما مترسمين فى كل يوم بخمسة دنانير، واقاما مدة لم يحملا الى امير الجيوش الا خمس ماية دينار بعد ان اخذو منها المترسمين ستماية دينار جعل[اتاوة]، ولما وقف امرهما ودخلا الى مصر امر الاجل امير الجيوش باعتقالهما فى حبس الشرطه بالقاهرة، ولم

من جمادى الأولى سنة ٤٣٩هـ/السادس والعشرين من أكتوبرسنة ١٠٤٧م، وبهذا انفرد الفلاحى كلية بأمور الدولة. الا أن المستنصر بالله لم يرض عن هذا التصرف، فأمر بتعيين أبى نصر التسترى ـ أخ أبى سعد ـ خزانة الخاصة، وعين ولد أبى سعد فى أحد الدواوين [١].
كما أن أم المستنصر حقدت على الوزير الفلاحى وثارت عليه، لاعتقادها أنه هو الذى دبر مؤامرة قتل أبى سعد، ولم تزل تدبر له الدسائس وتكيد له، حتى قبض عليه، واعتقل فى خزانة البنود، وانتهى أمره بقتله فى الخامس من المحرم سنة ٤٤٠هـ/العشرين من يونيه سنة ١٠٤٨م [٢].

ابو على الحسن بن أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى:

تولى الوزارة فى الرابع من ذى الحجة سنة ٤٥٦هـ. وكان الرجل يهوديا، ثم اعتنق الاسلام وحفظ القرآن [٣] وأسند اليه الأشراف على بيت المال قبل أن يلى الوزارة. وعندما تقلد منصب الوزارة لقب «بعلم الكفاة» وقد ظل فى منصبه حتى منتصف المحرم سنة ٤٥٧هـ [٤].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٨٤.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٢.
(٤) السيوطى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٧.
ـ مشرفة: المرجع السابق، ص ١٤٢.

يزالا فيه مدة طويلة الى ان سيل فيهما فافرج عنهما وخرجا الى كراسيهما على عادتهما.

وبلغنى عما جرى قديماً ما يجب ان اذكره وهو ان كتاباً وصل من الخليفة ببغداد الى الاستاذ كافور الاخشيد، وهو يوميذ والى مصر جرياً وخراجاً، امره ان يعمل تقدير بارتفاع [عوايد] مصر وما معها وجميع نفقاتها لسنة واحدة، فعمل فاشتمل على جملة مبلغها ثلثة الف الف ومايتى الف

أبو سعد منصور بن أبى اليمن بن سورس بن مكرواه بن زنبور:

كان أبو سعد منصور واحدا من كبار رجال الدولة الذين تقلدوا أرفع مناصب الدولة. وقد كان أبوه ناظر الريف وهو على دين النصرانية، وظل ولده هذا على دينه، فلما تقلد الوزارة اعتنق الإسلام، وخلع عليه[1]، غير أن النصارى ينكرون اسلامه [2]. وقد تولى الوزارة أياما قليلة، ولقب بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف عميد الخلافة محب أمير المؤمنين». غير أن الجند ما لبثوا أن طالبوه برواتبهم فوعدهم وطمأنهم، ثم ما لبث أن هرب سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م تاركا منصب الوزارة بعد أن عجز عن تدبير الأموال اللازمة لرواتب الجند[3].

إزدهار الصناعات والفنون على يد المصريين فى الفترة الفاطمية

مما ساعد على تقدم صناعة النسيج تلك العلاقات التجارية النشطة بين مصر والبلاد

---

(١) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٦.
(٢) ابن ميسر: جـ٢، ص ٣٣.
(٣) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٦، ٢٦٧.
ـ مشرفة: المرجع السابق، ص ١٤٢.

ونيف وسبعين الف دينار، وعمل النفقات والكساوى فكانت ازيد من الارتفاع بمايتى الف دينار، فاحضر كافور وزيره الذى هو ابن كلا [يعقوب بن كلس][*] وقال له: ما الذى يجب ان نفعل فى هذا العجز، فاشار عليه ان يحطه من واجبات ارباب الرواتب ماية الف دينار ويزيد فى ضرايب المكوس ماية الف دينار ليصير ارتفاع السنة سوى بسوى. فلما خرج من عنده احضر كافور

(*) يعقوب ابن كلس ٣١٨ - ٣٨٠هـ= ٩٣٠ - ٩٩٠م.
يعقوب ابن يوسف ابن ابراهيم ابن هارون ابن كلس، أبو الفرج: وزير، من الكتاب الحساب. ولد فى بغداد. سافر به أبو ه إلى الشام ثم انفذه إلى مصر فاتصل بكافور الاخشيدى، فولاه ديوانه بالشام ومصر. كان يهوديا فأسلم فى =

الأجنبية، وكثرة الطلب على مختلف أنواع النسيج المصرى [١]، هذا فضلا عن اهتمام الدولة بالاشراف الدقيق على هذه المصانع [٢] واهتمامها بتوفير الخبرة المدربة، وتوفير الظروف الملائمة للصناع الذين كانوا يعملون بها [٣]، كما كان الخلفاء الفاطميون يشجعون عمال النسيج المهرة بمنحهم المكافآت التشجيعية. ويذكر ناصرى خسرو على سبيل المثال: «أن عاملا نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى»، مكافأة له لدقة صنعتها وجمال منظرها [٤]، كما اهتم كبار رجال الدولة بتشجيع هؤلاء الصناع مما أدى فى النهاية إلى زيادة الانتاج وحسن الصنعة[٥].

ولقد اهتمت الدولة بهذه الصناعة نظرا لأهميتها للاقتصاد المصرى ولبيت مال الدولة نظرا لما يجبى عليها من ضرائب[٦].

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣١.
ـ سميكة: دليل المتحف القبطى، جـ١، ص ١١٨.
(٣) المقريزى: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٤٣.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٥) زكى محمد حسن: المصدر السابق، ص ٨٠.
(٦) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٠.

الشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا المومن النصرانى الناظر فى اعمال مصر، وهو الذى تقدم ذكره فى سيرة الاب افرهام البطرك، وقال له: قف على هذا العمل وشير على بما افعله من الصواب والعدل من السلطان للخلق. فقال: سمعت بخبره وفهمته وما يجوز لى كلام فيه. فالزمه واقسم عليه بان يقول ما عنده واعلمه بما اشار به الوزير ابن كلا[س]، فقال: اما انا فقد الزمتنى واستحلفتنى

= ايامه سنة ٣٥٦. ثم هرب إلى المغرب فخدم «المعز» الفاطمى سنة ٣٦٣. وفى سنة ٣٦٨ لقبه المعز بالوزير الاجل. ثم جاء مصر فى خدمة العزيز ابن المعز فولى وزارته. كان يعقد المجالس فى الجامع العتيق ويشرح المسائل الفقهية على حسب المذهب الفاطمى. توفى فى ايام العزيز.

وقد ساعد توفر خامات النسيج فى مصر على ازدهار هذه الصناعة، فالكتان تتوفر زراعته فى ريف مصر، والصوف المصرى يتوفر فى مناطق الفيوم وأخميم، وأسيوط لكثرة تربية الأغنام فى تلك المناطق[1].

لكل هذه العوامل ازدهرت صناعة النسيج، وأنتج النساجون الاقباط أفخر أنواع المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية التى ليس فى «جميع الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة» [2]، وبلغت تلك المنسوجات درجة من الرقى أذهلت المؤرخين والرحالة الذين زاروا مصر فى هذه الفترة [3]، وقد حملت هذه المنسوجات الكثير من أسماء المدن المصرية التى صنعت بها، فهناك الثياب التنيسية، والشطوبة، والدمياطى، والدبيقى [4] والشرب الاسكندرى [5]، والقماش القيسى والبهنساوى[6].

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٣.
(٣) المقدسى: المصدر السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣.
ـ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠، ٧١.
(٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ٥، ص ٧٩.
(٥) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ١٦٢.
(٦) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٢، ١٣٤.

ان اذكر ما عندى فانا اقول بحسب ما يلزمنى من نصحك ان الذى اشار عليك بان تحصر ارزاق ارباب الرواتب الذين هم فى عول الله سبحنه وفى عولك فقد اغرى بك واراد قبح السمعة عنك لان الله اجرى ارزاقهم على يديك فمتى فعلت بهم هذا قطع بك، واما ما اشار به عليك من الزيادة فى ضرايب المكوس المستقرة فالذى اسس اصل هذا وفرعه قد عرف مقعده فى جهنم لان احداث



اناء من صنع اسيوط.

فقد اكتسبت مدينة تنيس على سبيل المثال شهرة عالمية بفضل مهارة عمال النسيج الأقباط الذين عرفوا «بحسن زيهم ولطافة صناعتهم [1]، فقد أضفوا على مدينتهم مكانة مرموقة بين المدن الصناعية الكبرى فى ذلك العصر. ولا يبالغ ناصرى خسرو عندما يذكر «أن السلطان الروم كان أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على ان يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان، وكان عقده من هذه المدينة القصب والبوقلمون»[2]، وهما من أهم وأفخر منسوجات تنيس.

واذا كانت هذه مكانة مدينة تنيس التى كانت تضم حوالى الخمسين ألف نسمة من السكان [3] وآلاف المناسج، فماذا عن دمياط التى كانت «أحذق صناعا وأرفع بزا، وأنظف عملا» [4].

وأما أسيوط فكان يصنع بها «عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم [5]، هذا بينما كانت تصدرمنسوجات أخميم إلى أقصى البلاد» [6].

(١) أبن دقماق: المصدر السابق، جـ٥، ص ٧٨.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٣) ناصرى خسرو:ن المصدر السابق، ص ٣٨.
(٤) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٥) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠.
(٦) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٣.

الرسوم يعد من الله. فاعجبه قوله وعرف نصحه له وكان خصيصاً به، فلما اتاه الوزير ابن كلا[س] ثاني يوم امر حاجب الحجاب بالقبض عليه وان يعاقبه الى ان يقوم بالعجز من ماله، وقال له: اردت ان تسى سمعة المقصوص [اى المحكى عنه] وتقبح سيرته فى خدمة مولاه. ثم وقع توقيع بان يوضع من اصول الضرايب الثلث من المكوس، وامر الشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا ان يذيع ذلك


نسيج مصرى من العصر الفاطمى.

ولا يسعنا أمام مهارة هؤلاء النساجين وجودة صناعتهم الا أن نذكر أهم أنواع تلك المنسوجات التى أنتجتها آلاف المصانع التى عمل بها الصناع الأقباط ومنها:

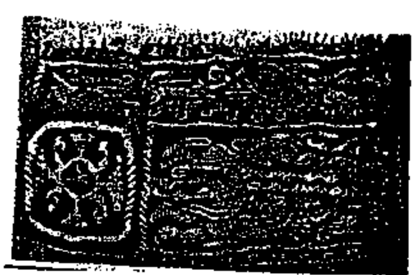
الدبيقى:

وهو ذلك النسيج الحريرى الذى ينسب إلى قرية دبيق، التى اشتهرت بالثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة التى كان يبلغ طول العمامة منها ذراع وتبلغ قيمتها خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل[١]، كما كانت الثياب الدبيقية من أهم منسوجات مدينة أسيوط التى غلب على سكانها الأقباط [٢].

ولشهرة الثياب الدبيقية (الدبيقى) أطلق هذا الاسم على منسوجات أخرى مثل الدمقس والنسيج الحرير المشجر والثياب الكتانية، ولجودة الثياب الدبيقية أطلق هذا الاسم على احدى قرى بغداد اسم دبيقية، وكانت منسوجاتها تباع على أنها من انتاج مصانع دبيق المصرية ليقبل الناس على شرائها [٣].

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٢٥.
(٢) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥١.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٢٥.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٢.

فى ساير ديار مصر، ففعل ذلك وكتب به الكتب وانفذها الى جميع البلاد، فزاد الارتفاع فى تلك السنة اربع مـاية الف دينار. ودعى على الوزير ابن كلا فى مكة ودعى فيها للشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا، وكتب لعنة الوزير المذكور على الحيطان.


سجادة مصرية من الفترة الفاطمية.

وكان بالقاهرة رجل سريانى يعرف بابن الطويل فسكن هو وجماعة من السريان معه فى الحسينية التى بظاهر القـاهرة المرسـومـة بسكن الارمن

القصب:

وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة، وكان ينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ودوقايات ومما يلبس النساء، ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس[(١)]، أما القصب الأبيض فقد اشتهرت بصناعته مدينة دمياط، ويبلغ قيمة الثوب الأبيض وليس فيه ذهبا ثلاثمائة دينار[(٢)].

الشرب:

ويطلق على هذا النسيج اسم الشرابى، وهو نوع من الحرير أو الكتان النقى الفاخر، واشتهرت مدينتا دمياط وتنيس بصناعة أجود أنواع الشروب الفاخرة[(٣)].

كما كان الصناع الأقباط يصنعون بدبيق العمائم الشرب المذهبة وفيها رقمات (رسومات) منسوجة بالذهب. وقد استحدثت هذه العمائم لأول مرة فى خلافة العزيز بالله الفاطمى سنة

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ٢٢٥.
(٢) ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ٥٣، ٥٤.
(٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٣.
ـ كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول ، ص ٨٧.

العسكرية، فامر امير الجيوش بان لا يسكن فى الحسينية الا الارمن فقط، فاخرج منها ابن الطويل السريانى والسريان الذين معه، فوقف لامير الجيوش برقعة يساله فيها ان ينعم عليه بكنيسة ياوى فيها فى دير الخندق من الكنائس الخالية التى هناك هو والسريان الذين معه، فاجاب سواله وامر انبا غبريال اسقف الخندق باجابته الى ما طلبه، فدفع له كنيسة هناك على اسم بولا ابن يسطس الشهيد

٣٦٥هـ/ ٩٧٥م [١]، وكان فى «ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب، كل زنة درهم فضة، وما يدخل فى الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة» [٢].

البدنة:

وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذى كان يصنع للخلفاء، ويقوم بصناعته نساج مهرة تخصصوا فى صنع ملابس الخلفاء، ولا يدخل فى هذا الثوب من الغزل ـ سداء ولحمة ـ غير أو قيتين، وفيه من الذهب أربعمائة دينار، قد أحكمه صانعه باتقان بالغ بدون حاجة إلى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنبائق، ويبلغ قيمة الثوب الألف دينار [٣].

وكان ثياب البدنة ينسج فى مصانع الحكومة، ولا يصرح ببيعه، ولقد حاول أحد ملوك فارس أن يشترى بدنة فأرسل أعوانه إلى تنيس بعشرين ألف دينار لكى يحصل على ثوب من البدنة، فمكثوا بتنيس عدة سنوات، ولكنهم فشلوا فى الحصول على بدنة واحدة من كسوة الخلفاء [٤].

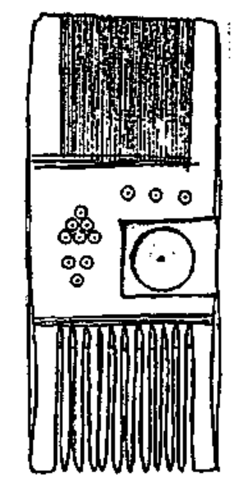
(١) المقريزى: الخطط، جـ١ ، ص ٢٢٦

(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ١ ، ص ١٦٢.

(٣) كتاب الاستبصار: ص ٨٧.

(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق ، ص ٣٨.

وجسده فيها، وكان فى هذا الدير كنيسة على اسم ابو مقار فجعل فيها الاسقف المذكور قرط [برسيم] لدابته، فمضوا جماعة من الارمن ووقفو للاجل امير الجيوش برقعة وقالو فيها ليس لنا بيعة نصلى فيها وفى دير الخندق عدة كنايس لاصحابنا اليعاقبة وهى مغلقة لا يحتاجو لها ولا يصلو فيها وقد جعل اسقفها احدتهن مخزناً للقرط، فانفذ امير الجيوش وكشف عن ذلك فوجده حقاً كما قالو، فامر



مشط من الخشب لنسج الصوف.

القباطى:

وهو نسيج من الكتان أو التيل، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم القباطى، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين اشتهروا بمهارتهم فى صناعة النسيج [1]، ومن القباطى البيض كان ينسج أجزاء من كسوة الكعبة[2].

البوقلمون:

أحد أنواع المنسوجات التى ا شتهرت بها مصر وبخاصة مصانع النسيج فى تنيس ، ويذكر ناصرى خسرو أن البوقلمون لم يكن ينسج فى مكان آخر فى ذلك العصر آلا فى مدينة تنيس. وهذا القماش يمتاز بألوانه البراقة، ويظهر فى ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشمس والوضع الذى يكون فيه واختلاف ساعات النهار، وكان يصدر إلى جميع بلدان الشرق والغرب لشدة الطلب عليه[3].

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام، ص ٣٤٩.
(٢) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٩٠.
(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق ، ص ٣٨.

الاسقف ان ينقل القرط ويدفعها لهم ليعمروها ويصلو فيها فاخذوها. وهى الان باقية بايدى الارمن يخدموها ويصلو فيها، واظهر الله فيها عجايب كثيرة على يد شهيده مارى جرجس وفى غيرها من الكنايس التى على اسمه. منها انه قيل عن رجل بدوى من بنى خلاف دخل كنيسته بدملو [مركز قوسنا] ووقف يحارب صورته فقتله للوقـ[ـت ومات]. وفى كنيسته بديرابو يحنس





امشاط خشبية للشعر.

العتابى:

وهو أحد أنواع المنسوجات الحريرية، وكان هذا النوع ينسج بمدينة بغدادحيث كانت تنسج العتابية، ثم استحدث هذا النسيج فى مصر وصنع فى عصر الفاطميين [١].

وكان للاتصال التجارى مع البلاد المجاورة وسفر بعض المصريين إلى تلك الدول، ومجئ التجار الأجانب إلى مصر أثره الكبير فى تشجيع الصناع على اقتباس أنواع ممتازة وتقليد أجود أنواع الأقمشة التى كانت ترد إلى البلاد المصرية مما يتفق وميول الفاطميين والشعب المصرى. ولذلك عرفت مصر فى العصر الفاطمى أنواعا جديدة من المنسوجات، مثل الخسروانى، والطميم، والأرمنى، والكردوانى والسندسى، والتى تدل بعض أسمائها على أصلها الأجنبى[٢].

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام [٣]، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز والاسكندرية بالحرير السكندرى [٤].

وكان الرهبان بالأديرة ينسجون الأقمشة ويحيكونها وفقا لاحتياجاتهم من أنواع الصوف

(١) البراوى: المرجع السابق، ص١٣٣، ١٣٤.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٤.
(٣) المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ٤١٨.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٦.

بوادى هبيب غابت صورته عنها بسبب غلام باعه يوحنا الراهب بعشرة دنانير حتى اعادها الشماس على الراهب واخذ الغلام فعادت الى كيانها. [وفى] بيعته بدير العسل [مركز المينا] ظهر فيها عجايب كثيرة حدثنى بها بنى خصيب يطول شرحها، وظهر فيها نور فى اليوم الثانى من هتور عند عبورى بها، وبيعته التى فى برنبال من اعمال ابوان عجايبها كثيرة مشهورة، وبيعته بقطور [مركز



الفارس المصرى. نسيج صوف

والكتان اللازمين لعمل الملابس الخاصة بهم، كما أن الراهبات اشتغلن بتطريز الملابس الكهنوتية، وكذلك أفخر الملابس اللازمة لدفن الموتى كما جرت به عادة الأقباط عند دفن موتاهم [١].

واذا كان الخلفاء الفاطميون قد أنشأوا دور الطراز «مصانع النسيج» فى كثير من المدن المصرية، وأنهم استخدموا الصناع الأقباط فى هذه الدور، فقد قامت الى جانب دور الطراز الحكومية مصانع أخرى خاصة لنسج الأقمشة التى يستعملها القبط[٢].

واهتم الصناع الأقباط بالزخرفة المنسوجة على الأقمشة فى العصر الفاطمى الأول، وكانت أهم الألوان المستعملة وبالذات على الأقمشة الحريرية الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والبنى والأخضر. وكانت الوحدات الزخرفية هى بعينها تلك الوحدات التى كان يستعملها النساج قبل العصر الفاطمى، وكل ما هنالك من فرق هى أنها صارت ترسم بدقة ومهارة تدل على رقى الذوق وتقدم الفن [٣].

واشتملت هذه الوحدات الزخرفية على رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية [٤]، على

(١) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١١٨.
(٢) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٨.
(٣) مرزوق: المرجع السابق، ص ١١٦.
(٤) البراوى: المرجع السابق ، ص ١٣٨.

طنطا] الكثيرة العجايب، وحكى لى عبد المسيح القس الدهتورى [الدهشورى] انه مضى اليها وطلع الى صورة مارى جرجس وقطع راس فتيلة القنديل ووقف ينتظر القيم يأتيه بسراج ليقدها وانه نزل على البيعة نوراً ابيض فى ثلثة مواضع ووقد الفتيلة. وعجايبه كثيرة جداً لا تحصى ولا يقدر احد يشرحها على كيانها لكثرتها رزقنا الله شفاعته وبركات صلاته فانها جليلة مقبولة.



سجادة من الصوف.

نساجى هذا العصر كانوا أميل إلى استخدام صور الحمامة فى زخرفة المنسوجات فأكثروا من رسمها وتفننوا فى وضعها، وترجع أسباب تفضيل هذا الطائر على غيره إلى أن معظم عمال النسيج كانوا من الأقباط، وأن هذا الطائر كان محببا اليهم، ويرمزون به إلى الروح القدس[١].

وكان الاتجاه العام فى زخرفة المنسوجات فى بداية العصر الفاطمى الأول يرمى إلى العناية بالزخارف الخطية التى كانت تمتاز بجمالها وتنوعها، بحيث يكون للزخرفة الخطية مكان الصدارة على الأقمشة، ثم تأتى زخرفة الرسوم فى المحل الثانى، الا أنه فى خلافة الحاكم بأمر الله وزعت العناية بين الخط والزخرفة فكانا متساويين تقريبا فى الإتساع، على أن ذلك الحال لم يستمر طويلا. فقد زاد الاهتمام مرة أخرى بالزخرفة، فرسمت الزخارف أكبر فى الحجم من الكتابة، فوضع النساج الكتابة أسفل الزخرفة ولم يجعلها تمتد امتدادها كما كان الحال عليه من قبل[٢].

واستمر التأثير القبطى فى الزخرفة على المنسوجات قائما، وظل أثره واضحا حتى القرنين الخامس والسادس الهجرى / الحادى عشر والثانى عشر الميلادى إلى أن كانت السيادة للخط

(١) مرزوق: المرجع السابق، ص ١١٨.
(٢) ـــــ : نفس المرجع، ص ١٢٢.

وانا اذكر ما رايته فى بيت المقدس وغيره وهو المقبرة والاقرانيون بالقدس المحروس، وراس القديس الجليل مارى مرقس الانجيلى باسكندرية، وجسد القديس ساويرس بدير الزجاج، وجسد القديس مارى جرجس فى كنيسته التى [في] بلد من اعمال فلسطين تحت المذبح. وفى الديارات بوادى هبيب الثلثة ابو مقارات(*). وبهما ابسيت وزينون الملك وولده وبويحنس وبوبيشا، وابو كما وابو

(*) الثلاثة بو مقارات هم: ابو مقار الكبير، ابو مقار القس، أبو مقار الراهب.

النسخ، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها، وصارت أشكالا تقليدية لا تمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة [1].

وكانت أسماء الخلفاء تنسج فى الأقمشة الثمينة بخيوط الذهب والفضة أو الخيوط المتعددة الألوان تمجيدا لهم ودليلا على أنها صنعت في عهدهم، وشارة من شارات الملك، ووثيقة لمن خلعت عليه للدلالة على درجته ووظيفته واشارة إلى رضاء الخليفة عنه [2].

كما كان الخليفة يسمح بكتابة اسم وزيره في الطراز تكريما له [3]، وأحيانا كانوا يكتبون اسم المشرف على العمل فى دار الطراز، ولكن قلما كانوا يذكرون اسم الصانع نفسه[4].

(ب) الصناعات الخشبية:

بلغت الدقة في الحفر على الخشب والصناعات الخشبية مرحلة ممتازة على يد الصناع الأقباط في عصر الفاطميين، اذ كانت الريادة في هذا الميدان لأهل البلاد من القبط[5].

(١) ديماند: المرجع السابق، ص ٢٨.
(٢) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١١٧، ١١٨.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٤.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص١٣٩.
(٥) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.
ـ على حسنى الخربوطلى: مصر العربية الاسلامية، ص ٢٢٩.

موسى ويعقوب الفارسى المقطع وقبر الأريا وابو بولا وطلما(*). وفى دير برماوس اصبع مارى سويرس. وباسكندرية ايضاً قبور اليشع النبي وارميا النبى وبطرس المعترف ودم بطرك اسكندرية بطرس الشهيد واثار مارى مرقس الانجيلى وقبور جماعة من الشهدا، وفى دير سنجار جسد تكلة الرسوله العذرى وجسد فيلاتاوس الشهيد. وفى مصر جسد القديس اباهور [باهور] واخته مهرابيل. وجسد ابو

(*) طلما : هى طموبه حيث تسمى كنيسة القديس بول باسم بول الطمولى.

ونظرا لعدم صلابة الأخشاب المحلية كالجميز والسنط والنبق والسرو فقد استوردت مصر الأخشاب الصالحة لهذه الصناعة من أوربا [1]، وذلك عن طريق تجار أمالفى وجنوة والبندقية[2]، كما استوردت خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصغرى، آما خشب الأبنوس فكان مصدره السودان، كما استوردت مصر خشب التك من الهند وشبه جزيرة الملايو [3] فمصر بالرغم من ندرة الاخشاب بها إلا أنها قدمت أروع الاعمال الفنية الخشبية عبر التاريخ ويكفى أن نذكر هنا تمثال شيخ البلد المشهور. ويمكننا أن نسحب نفس القول على الذهب وما صنع منه فى مصر.

وبرع الصناع المصريون فى استخدام الأخشاب وبخاصة فى عمل السقوف والأبواب والنوافذ والمحاريب والقباب وما بها من حشوات جميلة [4]، بجانب تصنيع كافة الأثاثات الفاخرة والتحف الخشبية الرائعة.

ونقش الصناع الأقباط نفس الزخارف التى نراها على خشب الجوامع والأثاث. ففى

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٤.
(٢) عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ، رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م، غير مطبوعة ، ص ١١٠.
(٣) حسنين ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ٤، ص ٣٩٤.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٠.

يحنس بسنهوت الشهيد وبرباره القديسة، وفى دير الخندق جسد ابو بوله ابن يسطس، وفى دير ابو شنوده اخميم اجساد التلميذين برتلوماوس وسمعان القانانى من جملة الرسل الاثنى عشر وابو شنوده الاب القديس، وفى دير الشمع جسد بنوده الشهيد الجليل، وفى اسيوط جسد اكلوده الشهيد فى كنيسة مارى بقطر وقبر ابو يحنس فولوبس وجسد بفام، وفى دير ابو السرى الذى فى شطب

المتحف القبطى قبة مذبح أصلها من كنيسة المعلقة، وعلى جزئها السفلى عقود وصلبان فى فروع نباتية محفورة حفرا دقيقا تذكر بالزخارف الجصية فى الجامع الأزهر، مما يدل على ازدهار صناعة الحفر على الخشب ابان عصر الفاطميين على يد الصناع والفنانين من المصريين.

وازدهر هذا الفن ازدهارا يثير الاعجاب فى عصرى الظاهر والمستنصر وانتجت أيدى الصناع المصريين نماذج لصناعة النقش على الخشب تدل على أن هذا الفن بلغ أقصى درجات الفن والرقى فى عصر الفاطميين[١].

وكان للصناع والفنانين الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب منها: النقوش البارزة، والنقوش بطريقة التفريغ، وثالثة بتعشيق الخشب وتطعيمه بالعاج، ورابعة بالخرط، كما كانوا أيضا مهرة فى التطعيم بالعاج والصدف، وطريقتهم فى ذلك أن ينقشوا قطعة العاج أولا على انفراد، ثم يثبتونها فى اطار من الخشب قبل تركيبها فى الموضع المعد لها[٢].

ومن أبدع الأمثلة الباقية للتحف الخشبية ـ الحفر على الخشب ـ فى بداية العصر الفاطمى حجاب الهيكل فى كنيسة الست بربارة بمصر القديمة ـ وهو معروض الآن بالمتحف القبطى

(١) ـــــــ: نفس المصدر، ص ٢٠٧.
(٢) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.

جسد الشهيد تادرس الامير قاتل الثعبان وهروفس الاسقف معه على دكة في بيت المذبح، وفي طمبدى جسد الشهيد ابا بيما في ديره، وفي دير ابا نوب انيف وستين راهب شهدا، واثارات سيدنا المسيح ووالدته القديسة [مريم] بديار مصر في عدة مواضع منها كنيسة المعلقة بمصر وكنيستها المعروفة بالدرج بمصر بيني وايل، وفي بسطه ومَنية طانا وسموسه وجبل الكف ودير بسوس



قطعة من النسيج مصور عليها الشهيد تادرس قاتل الثعبان.

بالقاهرة وهو يتألف من خمس وأربعين حشوة خلاف دائرة القبة العليا، والزخارف المحفورة متنوعة الموضوعات لطيور وحيوانات مفترسة وغزلان وأشخاص ومناظر للصيد والقنص، يتخلل تلك الزخارف صلبان، بجانب تفريعات نباتية تشكل مع غيرها من الرسوم وحدات زخرفية كاملة، وتعتبر حشوات هذا الحجاب أجمل ما بقى من صناعة خشبية فى العصر الفاطمى، وأصدق مثال على ازدهار صناعة الحفر فى الخشب على يد الصناع من القبط فى عصر الفاطميين[1].

ولقد بقيت الرسوم الحيوانية والموضوعات الآدمية التى شاعت فى الحفر على الخشب فى بداية العصر الفاطمى مستمرة خلال القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وفى مجموعة الألواح الخشبية والأبواب التى عثر عليها فى مارستان وقبة قلاوون وابنه الناصر محمد والتى يرجع تاريخ تصنيعها الى العصر الفاطمى الأول، نرى زخرفة حافلة بالرسوم

(١) ـــــــ: نفس المرجع، ص ١٤٧.
ـ ديماند : المرجع السابق، ص ١١٩.
ـ زكي محمد حسن : فنون الاسلام، ص ٤٥٢.
ـ ـــــــ: كنوز الفاطميين، ص ٢٠٤.

والاشمونين وفيلس وقوصقام [قوزقام] وجبل اشنين [مركز مغاغه] والمحرقه[مركز منفلوط] ومنها عاد الى مصر، وفى قفط ابو امسا، وفى الخصوص دير مارى بقطر الشهيد، وفى انصنا جسد القديس ابو قلته وشهدا كثير، وفى سمسطا ابو هروده الشهيد وفى قبلى ابو تيج جسد ابو بيشه الشهيد، فى كنيسته ومعه جسد يسه الشهيد وهما تابوتين، وفى اهناس ابو هليا الشهيد، وفى «قوص قام» ابو


حفر على الخشب يمثل ميلاد المسيح.
كنيسة أبو سرجه ـ القاهرة ـ

المختلفة، لكن الحفر والرسوم فى تلك المجموعة أقرب الى الطبيعة، وأكثر اتقانا من مثيلها فى أوائل العصر الفاطمى وأقرب الى الواقعية، ونرى تأثير الأسلوب القبطى فى الفن واضحا كما هو فى استخدام الرسوم الآدمية والحيوانات والطيور [١].

واذا كان الكثير من الصناع الأقباط برعوا فى الصناعات الخشبية، فانه مما يجدر ذكره أن الرهبان بالأديرة قد اشتغلوا بالنجارة لسد احتياجات الدير من الصناعات الخشبية[٢].

فاذا ما انتقلنا الى الريف فاننا نجد أن المهيمنين على الصناعات الخشبية بالقرى هم النجارون من القبط، فقد ورث هؤلاء الأقباط عن أجدادهم سر هذه الصناعة مدة طويلة تصل الى القرن الثامن عشر الميلادى/ الثانى عشر الهجرى [٣]، وكانوا يستخدمون أخشاب الأشجار المحلية فى صناعة ما يلزم الأهالى والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وغيرها من الآلات الريفية [٤]، والى عهد قريب كاد أن يكون كل نجارى القرى المصرية من الأقباط [٥].

(١) ديماند: المرجع السابق، ص ١١٩، ١٢٠.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٥٩.
(٣) سمكة : المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٥) سميكة : المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.

هليتس الشهيد [أبو هلياس] وفى دير غربى قوص ابو بسنده، وغربى الدير عين ما، وفى دفرى [مركز طنطا] ابو اسحق الشهيد، وفى البنوانين ابكرجون. هذا ما رايته وتباركت به انا الخاطى واضع هذه السيرة سو مالم اراه مما يطول ذكره.

وحكى لى ابو البدر بطرس ابن مقاره ان صبى راهب لحقه عارض فى البهلس ببرية ابو مقار افلجه واخرسه، فحملوه الى القديس بسوس بدير ابو



حفر على الخشب يمثل العشاء الأخير.
كنيسة أبو سرجه ـ القاهرة ـ

(ح) صناعة المعادن والعاج:

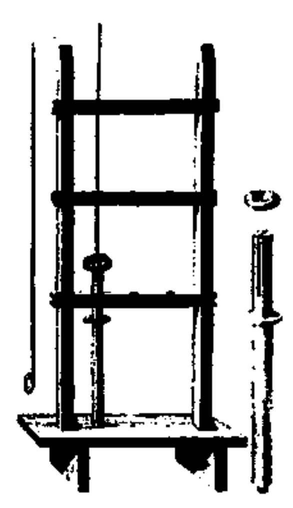
برع المصريون فى صناعة المعادن وسبكها وزخرفتها اذ كانت هذه الصناعة من الصناعات التى عرف دقائقها وأسرارها قبط مصر منذ عهد الفراعنة، هذه الصناعة التى بلغت أرقى درجات الفن والجمال فى القرنين الرابع والخامس الهجريين. فقد عثر على كثير من التحف والأدوات المعدنية ذات الأغراض المختلفة والتى ترجع إلى عصر الفاطميين.

وعرف عن الصناع من المصريين وبخاصة الأقباط مهارتهم الفائقة فى استخدام الذهب والفضة فى صنع أدوات الترف والحلى والسروج والسيوف والمصاحف المذهبة والملابس الموشاة وكثير من التحف التى رصعت بالأحجار الكريمة ونقشت عليها زخارف جميلة، وكلها تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن، ورواج صناعة الذهب والفضة وتقدمها ورقيها فى ذلك العصر(١)، والدليل على ذلك ما وجد بخزائن القصور الفاطمية، وخزائن كبار رجال الدولة من تحف وذخائر من الذهب والفضة.

وكثر استخدام النحاس فى صناعة الأوانى والأدوات المنزلية، فقد اكتشفت مجموعة من المصنوعات النحاسية فى خرائب الفيوم ترجع الى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى

(١) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ٨٩، ٩٠، ٩١.
ـ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٥.

كما فجعله فى كنيسة السيدة التى فى الجوسق واقام عنده ثلثة ايام ، فذكر الصبى انه ابصر ثلثة شخوص خارجين من باب الهيكل فقالو اثنين منهم للاخر وهو مقدمهم اقضى حاجة بسوس فى هذا الصبى، فدفعه برجله وقال له قم فقام الصبى صحيحاً مسوياً متكلماً، وللوقت ناداه بسوس من اسفل قبل ان يراه قايلا يا فلان انزل فنزل الصبى يسعى اليه وقد برى وسجد على رجله وتحدث بما


مغزل لعمل العبايات (الدفيات).

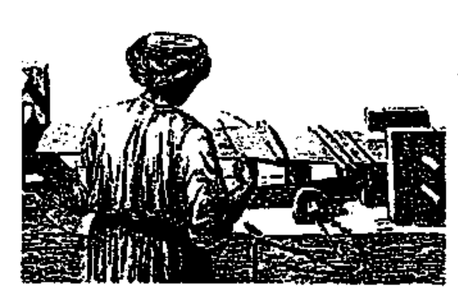
تشتمل على أدوات نحاسية للمائدة من صينية وأطباق نحاسية ووعاء للفاكهة (عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية نقش عليها اسم صاحبها وتاريخ صناعتها)، كما عثر على دست من النحاس (عليه رسوم طيور بارزة وعلى غطائه صورة السيد المسيح مصلوبا)، وعلى ابريقين من نحاس نقش على واحد منهما رسم صليب، وعلى الآخر أشكال نباتية وعلى الغطاء رسمت حروف قبطية، هذان بجانب قدرتين من النحاس أيضا على واحدة منها نصوص قبطية وعلى الأخرى نصوص قبطية وتركية، وكذلك وجدت عدة مسارج نحاسية. ومن بين هذه المجموعة قبة مذبح من نحاس ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرغ، وعلى القبة والصلبان نصوص قبطية باسم الصانع والتاريخ، كما وجدت بعض الأبواب وقد استخدام الصانع معدن النحاس فى عمل النقوش عليها، وكل هذه الأدوات النحاسية والنقوش التى عليها تعطينا دلالة واضحة على مهارة الصناع من الاقباط الذين برعوا فى هذه الصناعة[١].

كما استخدم هؤلاء الصناع البرونز فى صناعة المباخر وصنابير الأوانى وغير ذلك من الأشياء الدقيقة التى عملت بعضها على هيئة الحيوان أو الطير[٢].

---

(١) سميكة: المرجع السابق جـ١، ص ٩٠، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١٠٣، ١١١.
(٢) زكى محمد حسنى : كنوز الفاطميين، ص ٢٣٤.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٣.

راه وسمعه. وحكى لى داوود ابن عبيد ان انسان وجد فى محله ابو على رجلا نصرانى اخرس مفلوج فحمله على دابة الى القديس بسوس بدير ابو كما وانه صلى عليه ثلثة ايام بلياليها فخرج من عنده ماشياً على رجليه متكلماً وعاد الى محلة ابو على يمجد الله وشاهدوه الناس صحيحاً ناطقاً.



مغزل لصناعة احزمة الوسط (المنطقة).

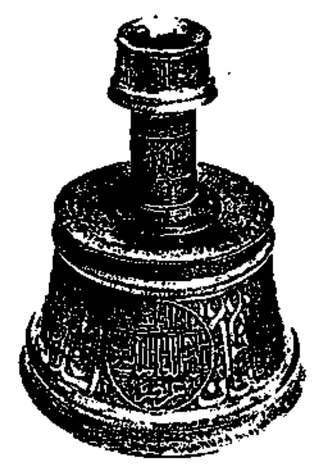
وفى يوم الاحد الثامن من بابه سنة ثمان ماية وثمانية للشهد حدثت زلزلة عظيمة بانطاكية وهى

وفى خرائب الفيوم عثر على عدة أبواب من الخشب صنعت اطاراتها من البرونز وعلى بعضها رسوم بارزة من البرونز لصور الملائكة والقديسين، ورسوم صلبان وعليها نقوش بارزة باللغة القبطية واليونانية، وعليها اسم الصانع، ومعظمها يرجع إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين[1].

وعرف عن الصناع المصريين دقتهم ومهارتهم فى التكفيت اذ وجدت فى القاهرة عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعم أو تطلى به أوانى النحاس من الذهب والفضة نظرا لاقبال الناس فى مصر على هذا الصنف من المصنوعات [2].

واستخدم الحديد فيما يلزم صناعة البناء وبعض الصناعات والآلات البسيطة [3]، واشتهرت بعض المدن الصناعية الكبرى فى ذلك الوقت بصناعة الآلات الحديدية، ففى مدينة الفسطاط عرفت صناعة الحديد المستورد من أوربا وصقلية وبلاد المغرب [4]، ويتحدث المقريزى عن «المناخ السعيد» وهو الذى كان مركزا لصناعة الحديد وآلات الأساطيل من

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ٢٤٢.
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٥.
(٣) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٢.
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٤.


شمعدان من النحاس للسلطان الأشرف أبو النصر قايتباى.

يوميذ فى ملك الغز فسقط منها اثنين وثلثين برجاً من باب البحر الى باب فارس وانخسف بعضها ودخل النهر العظيم المعروف بالعاصى اليها وشق وسطها، وتحدثوا الناس بان رجلا وضع علماً فى كتاب وقراه جماعة من الناس يذكر فيه بان سنة خمس وثمانين واربع ماية الهلالية تحدث امور عظيمة وينقص الما وتخرب البلاد، فابطل الله حكمته وما قاله واتى بخلافه وصعد الما وفاض

الأسلحة [1]. ويذكر ناصرى خسرو ان الصناع فى مدينة تنيس كانوا «يصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين» وأنه رأى مقراضا صنع بتنيس بلغ خمسة دنانير مغربية [2] ولا تنسى أن أغلب سكان تلك المدينة كانوا من الاقباط، كما استخدم الحديد فى صنع بعض الأشياء البسيطة، فقد وجد فى كنيسة أبى سيفين كرسى من الحديد يرجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى [3].

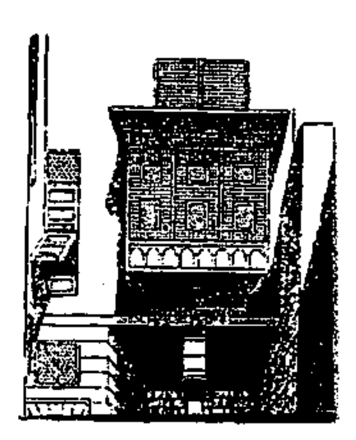
وقد استخدم العاج فى صناعة أشياء كثيرة كقطع الشطرنج والنرد والعلب الصغيرة الثمينة المطعمة بالعاج[4].

وفى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى يتحدث ناصرى خسرو عن «أنياب الفيل» المستورد من زنجبار والتى شاهدها فى أسواق مدينة الفسطاط، كما رأى الأمشاط ومقابض السكاكين والتى عدها ناصرى خسرو من طرائف ما شاهده بأسواق مصر [5].

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤٣.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣) سميكة: المرجع السابق، جـ١ ، ص ١٠٠.
(٤) البراوى: المرجع السابق ، ص ١٧٤.
(٥) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٥٩.

على الارض وزاد عن الحد حتى غطا اراضى لم يصعد عليها الما من سنين، ووزعت البلاد وتزايد الرخا حتى ابيع القمح بالريف عشرة ارادب بدينار بالكيل الدوار، واكثر من ذلك بالنواحى البعيدة من البحر ولله الشكر دايما.

كان الغز قد ملكو مدينة القدس المحروس وقد كذبو نزول النور فى كنيسة القيامة المقدسة على المقبرة الشريفة، فلما علمو صحة نزوله فى كل



صناعة الشبابيك والمشربيات الخشبية.

وكان التطعيم أكثرن المجالات التى استخدم فيها العاج على يد الصناع من القبط، إذ أن صناعة النقش على العاج التى برع فيها الصناع الأقباط تمركزت فى الأقاليم التى يكثر فيها السكان الأقباط [(١)].

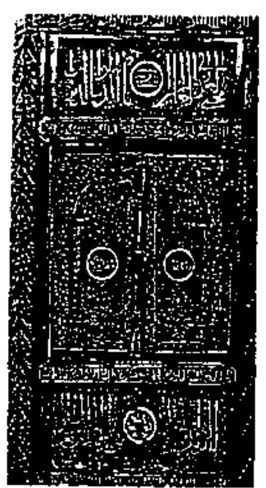
(د) صناعة الورق والتجليد:

اشتهرت مصر بصناعة ورق البردى وظلت تحتكر هذه الصناعة طوال عصر الولاة، وكان معظم الصناع المشتغلين بصناعة ورق البردى من القبط، غير ان صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر حوالى القرن الرابع الهجرى، وحل الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند والصين محل البردى فى الكتابة[(٢)].

ومع مجئ الفاطميين إلى مصر اهتمت الدولة بالحركة العلمية، وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم الى خزانة الكتب الفاطمية لتصبح منافسا عملاقا لمكتبات بغداد وقرطبة، كما شجع الخلفاء الباحثين والدارسين وطلاب العلم، وكان الجامع الأزهر أعظم جامعة

(١) زكى محمد حسن: كنوز ا لفاطمين، ص ٢٢٥.
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٣، ص ٣٢٥.
ـ متز : الحضارة الاسلامية فى ق ٤هـ، جـ٢، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

سنة راعو النصارى المقيمين فيها واستخدمو فى عمالة البلد رجلا نصرانى يعقوبى محب للمسيح يعرف بمنصور البلباتى وله زوجة مثله وهو معونة [معاون] لكلمن يصل الى القدس من النصارى من مصر وغيرها من الافاق، واجتهد الى ان أعمر كنيسة اليعاقبه الارتدكسين فى القدس وكتب الى الاب البطرك يساله انفاذ من يكرزها، واستقر «مصير» احد الاساقفه لتكريزها فتوجه فى برمهات


قائمة من اربعة ضلف يوضع عليها صينيه بالصفحة المقابلة.

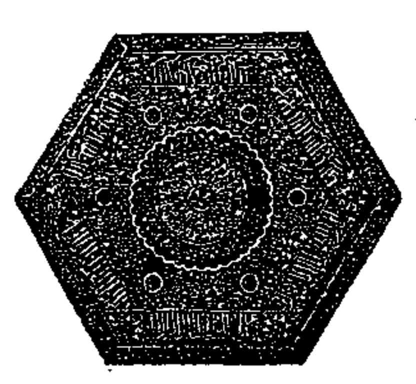
اسلامية فى ذلك العصر [١]، وأصبحت «دار الحكمة» مفخرة العصر بما ضمته من كتب ومؤلفات وكل ما يمت الى الحركة العلمية بصلة[٢].

وكان لكبار رجال الدولة من أهل الذمة سواء من اعتنق منهم الاسلام حديثا أو ظل على دينه دور بارز فى هذا المجال، فكان للوزير ابن كلس دوره الهام فى خلق نواة الجامعة الأزهرية التى كانت مركز اشعاع فى مصر الفاطمية [٣]، كما أنشأ ابن كلس فى قصره خزانة للدفاتر، وجعل على رأسها ناظرا للاشراف عليها، ووفر لها جماعة من النساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر [٤].

وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل الذمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية

(١) البراوى : المرجع السابق، ص ١٦٠، ١٦١.
ـ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص٣٣٢.
ـ سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢١٨، ٢١٩.
(٢) عنان: تاريخ الجامع الأزهر، ص ٥٠.
ـ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٣٣٢.
(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، ص ٣١، ٣٢.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.

سنة ثمان ماية وثمانية للشهد، وفى هذه السنة تنيح مرقس اسقف البلينا وهو مقدم جميع الاساقفة، وكان الاب البطرك انبا كيرلص قد تأخر عن الدخول الى برية ابو مقار فى هذه السنة، وكان ينتقل من دير الشمع غربى طموه الى جوسق كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع، وكان لا يفتر من قراة الكتب المقدسة وكان اكثر قراته فى تفسير



والصينية مصنوعة من النحاس المكفت بالفضة. وهى تخص الملك الناصر قلاون بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

والمخطوطات النادرة، أو الكتب العلمية التى قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقربا اليهم (١).

كذلك امتلأت كنائس وأديرة الأقباط بنفائس الكتب والمصنفات الدينية والمؤلفات والكتب المترجمة إلى العربية، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط العديد من الكتب. وعلى الرغم من أن ا لكثير من الكتب والمخطوطات التى كانت فى حوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أهملت أو تبدد الكثير منها، الا أنه قد بقيت بعض الكتب والمجلدات كاملة ، فقد عثر على بقايا كتب وقطع من البردى والرقوق محفوظة الآن بمتاحف أوروبا وأمريكا والمتحف القبطى بالقاهرة ودار البطريركية القبطية بمصر (٢).

وقد استعمل الأقباط البردى فى الكتابة حتى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، ثم استبدل الأقباط البردى بالرقوق التى استمر استعمالها الى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، ويوجد من هذه الرقوق عدة مجلدات كاملة. ومن أحدث الكتب المخطوطة على الرق كتاب تكريز الكنائس الجدد بمكتبة دير السريان، وتاريخه يرجع إلى سنة ١١٨١م،

(١) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٥٤٥، ٥٤٨، ٥٤٩.
(٢) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٨، ٣٩.

الاناجيل المقدسة الاربعة بالقبطى حتى فهم منها
شيا كثير وتكلم عليه، انا المسكين يوحنا ابن
صاعد القلزمى ناسخ هذه السيرة(*) اعرف حقيقة
ما تضمنه هذا الفصل، وذلك انى مضيت اليه فى
كنيسة ميكايل المختارة يوم الاحد لاتبارك [لأتبارك]
منه واتقرب فيها فوجدته قد نزل من الجوسق وهو
جالس فى الكنيسة فسلمت عليه واخذت بركته
ففرح بى وبارك على واكرمنى، وكان رزقنى الله

(*) ناسخ هذه السيرة هو يوحنا ابن صاعد القلزمى.

ثم استعملوا أخيرا الورق الكتان [١]، وهو نوع من الورق المطبوخ من الكتان والقطن. وكانت الفسطاط من أعظم مراكز انتاج الورق [٢].

وكانت عملية التجليد تشمل الجلدة الخارجية والبطانة والحرير، كما استعمل الورق فى البطانة، واستعمل الصناع جلود العجول واستخدموا الحرير والديباج والأطلس فى التجليد وبخاصة تجليد المصاحف [٣].

وقد عثر على بعض الجلود التى ترجع الى القرن الرابع الهجرى، وهى عظيمة الشأن، لأن تأثير الصناعة والفن القبطى ظاهر فيها، ففى بعض الجلود زخارف مجدولة ووريقات شجر مهذبة تقليدية تتخذ أحيانا شكل القلب وفى بطانة جلدة منه نرى آثار رسوم هندسية ونباتات ورسم طائر صغير ووريدات جميلة. ويرى علماء الآثار الاسلامية أنه من الصعب التميز بين جلود العصر الفاطمى والجلود التى صنعت فى القرن الذى سبق قدوم الفاطميين الى مصر، لأن التطور كان بطيئا، غير أن أساليب الصناعة قد استقرت فى هذا العصر، وازدهر الفن طبقا لناموس العرض والطلب[٤].

(١) ـــــ: نفس المرجع السابق، ص ٣٩.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٦٢.
(٣) ـــــ: نفس المرجع والصفحة.
(٤) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٠٧، ١٠٨.

بركة صلواته، وهو راهب قديس روحانى متواضع وديع زاهد جداً باغض للقنية [لتملك المال] يصدق [يتصدق] بجميع ما يحمل اليه من الكراسى على الضعفا، ومنه ما يصرفه فى عمارة الكنايس والديارات، ومنه ما يصوغ به انية فضة رسم الهياكل المقدسة، ومنه ما يعين به النصارى المصادرين ويفكهم من العقوبة حتى انه لما تنيح لم يوجد له دينار ولا درهم، وكان افعاله كلها حسنة


حفر على الخشب. متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

(هـ) صناعة الزجاج والبلور الصخرى والخزف:

بلغت صناعة الزجاج أرقى درجات الفن فى عصر الفاطميين. وكثر الطلب عليها نظرا لضخامة النهضة العمرانية التى عمت البلاد، وتعدد الأغراض التى استخدم فيها الزجاج، فقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج ومن أهمها الفساط ، والفيوم، والأشمونيين، والشيخ عبادة (بكورة البهنسا، المنيا الآن)، والاسكندرية (١)، كما راجت تجارة الصناعات الزجاجية، فقد عثر على بقايا تحف ونماذج زجاجية فى كثير من المدن مثل مدينة حابو، وكوم بلال، وقوص، وأبيدوس، وأخميم، وأسيوط ، والمنيا، والبهنسا، واهناسيا المدينة، وهوارة، وأطفيح، وسقارة وميت رهينة، وكوم الأتريب (٢).

وكانت أرقى المصنوعات الزجاجية هى الزجاج المذهب المزين بزخارف لها بريق معدنى، التى حاول فيه الصناع تقليد البلور الصخرى (٣).

أما عن صناعة البلور الصخرى، فقد تحدث عن تلك الصناعة ناصرى خسرو أثناء جولته «بسوق القناديل» بالفسطاط، فقد رأى معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال «وكان

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٧.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٥٦، و كذلك الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة.
(٣) ـــــ: المرجع السابق، ص١٦٩.

جميلة، وكان حلو المنطق مقبول الصورة صايم الدهر كثير الصلاة، لا ياكل مما يعمل فى قلايته لتلاميذه شياً من الالوان الا لون واحد يقدم له في زبدية، اما من الحبوب او من البقول يستعمل منه اليسير من العشا الى العشا، فجلست بين يديه وتحدثت معه الى ان اجتمعو الكهنة فسالوه وسالته بمطانوات حتى قدس وتقربنا كلنا من يده الطاهرة وهو يدعو لكلمن يتقدم الى القربان بالقبطى


قمقم ومبخرة من النحاس.

يستورد من بلاد المغرب كما كان يستخرج بالقرب من ساحل البحر الأحمر [١]، وكان وجود البلور الصخرى في مصر سببافى انخفاض ثمنه ووفرة انتاج التحف البلورية، وفى خزائن القصور الفاطمية شاهد أحد المستخدمين فى بيت المال صندوقا من الصناديق التى نهبت من قصور المستنصر ذات يوم، وهو مملوء بأباريق من البلور النفيس بعضها منقوش ويبدو أنها كانت لشراب الفقاع [٢].

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثرها على الخزف ذى البريق المعدنى الذى كان فخر صناعة الفخار فى مصر الفاطمية، وقد تفوقت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى على أيدى الصناع المصريين، فصنعوا منه الأزيار الكبار والأوانى المستعملة فى حفظ العطور والبخور وكثيرا من الأشياء التى يستخدمها الناس، كما امتلأت الخزائن فى قصور الخلفاء الفاطميين وكبار رجال الدولة بروائع التحف الخزفية[٣].

وكان لتوفر الطين الأصفر بمصر الذى يصنع منه الخزف [٤]، أن توافر انتاج الأوانى

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٥٩.
(٢) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ٤٤.
(٣) ـــــ: نفس المرجع، ص ١٥٧.
ـ ديماند : المرجع السابق، ص ٢١٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق: ص ٥٣.

ويبارك عليهم، فلما سرح[صرف] الشعب وخرجو همت بالخروج فخرج الى بطرس مقدم تلاميذه وقال لى : ابونا يقول لك بمطانوه اجلس حتى اخرج من المذبح، فجلست الى ان خرج فقال لى بمطانوه: اطلع عندى اتحدث معك اليوم وانس بك. فقلت: السمع والطاعة. فطلعت معه الى الجوسق وابا افرهام كاتبه، وكان بعد الظهر وقدمو التلاميذ المايده فاكلت انا وابا افرهام، وجاو بالنبيذ



إناء من الزجاج الأزرق صنع بالفسطاط وهو النموذج الوحيد المعروف من هذا الطراز.

الخزفية الممتازة، وقد شاهد ناصرى خسرو فى أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التى بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الاناء، وكان التجار يضعون ما يبيعونه فى أوانى من الخزف بدلا من الورق(١).

وكان أشهر صانعى الخزف فى مصر الفاطمية مسلم وسعد، وقد اشتهرت مدرسة مسلم وتلاميذه بالزخارف الحيوانية والآدمية والنباتية فى زخرفة الأوانى الخزفية فضلا عن الحروف الكوفية (٢).

وتبدو الصلة ين ما أنتجه سعد ومدرسته وبين الخزف ذى البريق المعدنى قبل العصر الفاطمى، ولا سيما فى رسوم الحيوانات(٣).

ولا غرو فقد كانت رسوم الحيوان والرسوم الآدمية العنصر الأساسى فى زخارف العصر الفاطمى، بجانب رسوم الطيور والفروع النباتية والأوراق، ذلك أن الفن القبطى ترك أثرا واضحا فى زخرفة الخزف، وهناك قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى عليها رسم السيد

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٦٧.
(٢) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥٧.
(٣) ديماند: المرجع السابق، ص٢١٦.

فامتنعت من شربه لانه كان زمان الصيف وانا اكره استعماله فى الصيف، ثم جلست بين يديه لاتحدث معه فاعلمه انبا افرهام انى ما شربت شى فعتبنى على ذلك، فاعلمته انى اتاذى بشربه فى الصيف، فقال لى : ثلثة اقداح ما تضرك، فقلت: يا مولاى اذا كان من يدك المقدسة ما يضرنى بل ينفعنى غاية المنفعة، فاشار الى التلميذ فناوله قدح فبارك عليه وناولنى اياه فقمت وقبلت يديه واخذته منه



سلطانية من الزجاج الصخرى من العصر الفاطمى والأيوبى.

المسيح، وحولها اكليل النور المعروف، وهذه القطعة من انتاج مدرسة سعد، ونظن ذلك لوجود صورة السيد المسيح على أنه من المحتمل أن سعدا كان من سلالة الأقباط [1].

أما عن صناعة الفخار الذى كان يصنع من الطين، فكانت صناعته واسعة الانتشار فى بلاد الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطمى، ومنه كانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل والنبيذ والسمن وجرار العسل وكثيرا من الأشياء التى كان يستخدمها العامة [2].

(و) صناعة الخمور:

ان ما ساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الفاطمى الأول من ازدهار وانتعاش، ومن انتشار روح اللهو والمرح وبخاصة فى الاحتفالات والمواسم والأعياد المختلفة التى كثرت فى ذلك العصر، وما شاب هذه الاحتفالات من مظاهر الفرح قد أدى إلى انتشار عادة شرب المسكرات بمختلف أنواعها بين كثير من الناس.

لذلك انتشرت صناعة الخمور انتشارا كبيرا لكثرة الطلب عليها، وازدهرت تلك الصناعة

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥١، ١٥٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣.
(٢) البراوى: المرجع السابق: ص ١٦٧.

وشـربتـه وكـذلك الثـانى والثـالث، ثم اخـذنا فى الحديث فى العلوم الشرعية وشرف مذهبنا وجلالته وحسن اوصافه وقوانينه وما فيه من فنون التواضع والتفضل والمحبة، وانساق حديثنا فيما هذا سبله الى ان ذكـرنا مـا انعم الله تعـالى ومـا ظهـر من عظم محبته لجنس البشر حتى انه جل اسمه ارسل ابنه الوحيد الازلى معه الكلمة الخالقة فاتحد بطبيعتنا واخذ منها جسداً صيره معه واحداً وبرز من امراة


طبق من الخزف الصينى صنع بالفسطاط .

فى المراكز الصناعية والتجارية الكبرى فى مصر، فكانت الفسطاط والقاهرة من مراكز صناعة الخمور، وكانت الاسكندرية والفيوم بوجه خاص من أهم مراكز تلك الصناعة(١).

كما وجدت معاصر الخمور فى المدن الصناعية الكبرى كتنيس حيث تكثر حولها مزارع الكروم ويغلب على سكانها الصناع من القبط(٢)

وفى ريف مصر كانت الخمور تعصر بكثرة وبخاصة فى موسم نضج محصول العنب، «ففى شهر مسرى يكون وفاء النيل، وفيه يعصر قبط مصر الخمر» (٣) وكان معظم الانتاج من النبيذ فى الريف يستهلك محليا ولا يصل منه المدن الكبرى الا كميات قليلة، ولذلك ارتفعت أسعار النبيذ فى المدن لكثرة الاقبال عليها (٤).

واشتهرت منطقة شبرا ونواحيها بأنها كانت واحدة من أكبر مراكز عصر الخمور فى مصر، وكان فلاحو شبرا يعتمدون دائما فى وفاء الخراج على ما ينتجونه من الخمر وما يبيعونه منه فى عيد الشهيد(٥).

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٥، ص ٧٨.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٧٢.
(٤) ـــــ: نفس المصدر، ص ١٢٩، ٣٦٧.
(٥) ـــــ: نفس المصدر، ص ٦٧، ٦٨.

عذرى طاهرة من غير زريعة بشر، وولد منها الاه تام وانسان تام ولم تفك خواتيم عذرتها المطهرة بل بقيت عذرى بتول كما لم تزل، وكانت ولادته المقدسة فى زمان محدود وشهر معروف ويوم معلوم، وكان [هذا اليوم] مشهور مفهوم، وارتضع منها اللبن بانسانيته وهو مطعم كل الخليقة بلاهوته، وكان ينشو فى القامة والحكمة، كما قال لوقا الإنجيلى انه قبل الالام بناسوته وهو منشى



طبق من الخزف الصينى صنع بالفسطاط.

وفى الأديرة كانت تزرع الأعناب ومنها يعصر الرهبان النبيذ، ويصنعون الزبيب لاستعمالهم داخل الدير [١]، كما أن بعض هذه الأديرة كان مقصد الناس للنزهة والتسلية [٢].

ويعتبر النبيذ المستخرج من الكروم من أجود أنواع الخمور، وكان استعماله يكاد يكون قاصرا على الأثرياء وأفراد الطبقة العليا فى المجتمع لارتفاع ثمنه [٣]، أما الغالبية العظمى من المستهلكين للمسكرات فكانوا يحتسون الفقاع، وهو نوع من البيرة كان شائعا فى القاهرة ابان عصر الفاطميين [٤]، كما كانوا يشربون المزر والنيدة، وكانا يصنعان من القمح والشعير[٥]، هذا بجانب أنهم كانوا يتخذون من العسل شرابا مسكرا [٦].

والواقع أن صناعة عصر الخمور كانت منتشرة فى أنحاء مصر وكان الانتاج وفيرا، وليس أدل على كثرة الخمور وانتشارها فى البلاد من تلك الكميات التى كانت تباع فى ناحية شبرا

(١) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٩٦.
ـ ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، جـ١، ص ٣٣٧.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ١، ص ٣٧٣.
(٣) البراوى: المرجع السابق، ص١٨٤.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٩.
(٥) البراوى: المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٦) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، جـ١١، ورقة ٤٠٢.

الخلايق ما يرى منها ومالا يرى بلاهوته، ثم ذكر عظيم فضله علينا بما احتمله عنا فى جسده الماخوذ منا وصبره على ما ناله فيه من اليهود والمخالفين من الهوان والالام والصلب والتسمير على الخشبة وغير ذلك مما الاناجيل المقدسة تشهد به حتى الى الموت والدفن فى المقبرة المقدسة، وان الله الكلمة احتمل هذه الاوصاف والنقايص كلها فى جسده الذى اخذه من طبيعتنا وهو متحدا به



جزء من طبق خزف صينى عليه رسم المسيح.

وحدها والتى بلغت قيمة ما بيع منها فى أحد أيام عيد الشهيد بما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا [١].

وعلى الرغم من انتعاش صناعة عصر الخمور فى بداية العصر الفاطمى، فان صناعة المسكرات لم تتعرض للحد من انتاجها والتضييق عليها الا فى القليل النادر أيام خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله الفاطمى، عندما كانت تصدر الأوامر بالغاء بعض الأعياد أو تقييدها، ثم العودة اليها مرة ثانية.

وفى سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م منع الحاكم بأمر الله من التظاهر بالغناء ومن ركوب البحر (لا نخفاض النيل)، وبيع المسكرات ومنع الفقاع، وفى شهر صفر من العام نفسه قبض على بعض المشتغلين بالفقاع وضربهم وشهر بهم لمخالفتهم أوامره [٢]. وفى سجل أصدره فى ربيع الآخر سنة ٣٩٩هـ أمر بألا يحمل شئ من النبيذ والمزر ولا يتظاهر بشئ منه ولا بشئ من الفقاع والترمس المخمر، وأمر بقتل من يضبط سكرانا [٣]، وفى صفر من العام التالى شهر بجماعة بعدها ضربوا بسبب الفقاع والترمس [٤].

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٦٩.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٣) ابن أيبك: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ١٧٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣٤١.

لم يفارقه طرفة عين منذ حلوله فى الاحشا البتولية والى حين صعوده الى السما والى ابد الابدين. فقلت: يا ابونا القديس ادام الله تعميرك، هذا الجسد الماخوذ من جبلتنا من لحم ودم مرتمريم العذرى القديسة الذى حملته فى احشاها تسعة شهور والله الكلمة متحداً به وصيره ومعه واحداً ولم يفارقه ولا يفارقه ابد، ولدته فى بيت لحم فى زمان اوغسطس ملك الروم وولاية هيرودس على





اطباق من الخزف الفاطمى والأيوبى.

ولقد وصلت الينا صورة من سجل أصدره الحاكم فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ، نهى فيه الكافة عن الالمام بالمسكر، أو شربه، على اختلاف أصنافه وأسمائه وألوانه وطعومه، قليلة وكثيرة، كما نهى عن اقتنائه أو عمله واعتصاره، وطالب رجال دولته المسئولين بتعقب المخالفين لأوامره (١).

وحظر على النصارى تقديم شراب النبيذ أثناء اقامتهم للشعائر الدينية فى الأعياد، على أن الناس لم يلتزموا بذلك، ففى موسم العنب من هذا العام أخذ الناس فى اعتصاره سرا مما دعا الحاكم بأمر الله الى تغريق العنب فى النيل (٢).

واذا كانت أنواع المسكرات كالنبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل ـ حيث يصنع من الأخيرين المسكر ـ قد تدهورت صناعتها فى خلافة الحاكم بأمر الله الذى أصدر القوانين الصارمة بمنعها وتعقبها وانزال أقصى العقوبات بالمشتغلين فى مجالها، فان هذه الصناعة قد انتعشت من جديد فى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله عندما أغفل ما سبق صدوره من القوانين المحرمة لشرب المسكرات، فأقبل الناس على احتسائها وارتياد الملاهى، بل ان الخليفة الظاهر

(١) رسائل الدعاة: مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٧ عقائد ونحل، ورقة ١٠، ١١.
(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

ارض الشام بعد خليقة ابونا ادم بخمسة الف وخمس مایة سنة ورواه الناس ولمسته ايدى البشر ونالته الالام والضرب والهوان والصلب والتسمير على الخشبة والموت والدفن فى القبر وكل النقايص التى تشهد بها الاناجيل المقدسة، كيف ينساغ لمن له فهم وعقل ان يقول عنه ما يوجب افتراقاً او يحدث شكوكا. قال: لا، ففرحت بما سمعته منه وعرفت انه قد قرى الكتب الالهية


ابريق من الخزف.

نفسه أقبل على شرب الخمر، و مجالس الطرب والغناء، فازداد حب الناس لحياة اللهو والمغانى وشرب المسكرات(١).

وشهد عصر المستنصر بالله الفاطمى مزيدا من اقبال الناس على شرب الخمور، وبالتالى ازداد الطلب عليها وراجت صناعتها.

فكان الخليفة المستنصر بالله يشرب الخمر، ويسقيها الناس، وكان يخرج فى كل سنة مع النساء والحشم الى جب عميرة بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة ومعه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس(٢).

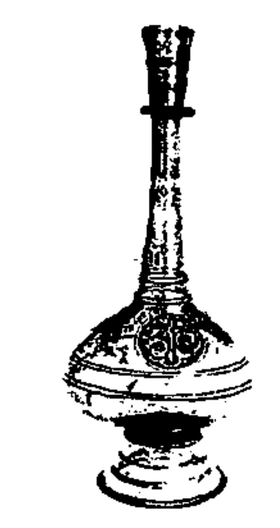
هذا مع ما صاحب عصر المستنصر بالله فى أيام الرخاء من اقبال الناس على الحفلات والأعياد والمناسبات والمتنزهات، وطلب الناس شرب المسكرات مما أدى إلى ازدهار وانتعاش صناعة النبيذ والزبيب والفقاع والمزر والنيدة وكل ما يتخذ منه مسكرا.

(ز) صناعة السكر والعسل:

شهدت مصر فى العصر الفاطمى الأول انطلاقة كبيرة فى صناعة السكر والعسل، فقد

(١) المقريزى الحنفا، جـ٣، ص ١٢٩.
ـــــــ: الخطط ، جـ١، ص ٣٥٣، ٣٥٤.
(٢) ـــــ: الخطط ، جـ٢، ص ١٦٢.

وتفاسيرها وفهمها، وانما اوردت هذا في هذه السيرة تصديقاً لما قاله واضعها عن الاب انبا كيرلص المذكور انه قرى التفاسير وفهمها وتكلم عنها، قال واضع هذه السيرة، وتنيح الاب القديس انبا كيرلص المذكور نيح الله نفسه الطاهرة ورزقنا بركة صلاته في يوم الاحد الثاني عشر من بوونه سنة ثمان مایة وثمانية للشهد وهي سنة احدى



زجاجة للعطور صنعت في العصر الفاطمي.

عرفت البلاد في هذا العصر العديد من الأعياد والمناسبات والمواسم والاحتفالات التي شدت اهتمام الناس على اختلاف طبقاتهم، بجانب ما أدخله الفاطميون من تقاليد وما جرت به العادة في شتى المناسبات على عمل الاسمطة التي زخرت بألوان الطعام والشراب وأنواع الحلوى، كما كانت الولائم تعتبر من وسائل التسلية في هذا العصر، وتطلب ذلك الاهتمام بصناعة السكر والعسل والحلوى والفطائر والكعك [١].

وحيث توجد مناطق زراعة القصب تكثر مراكز صناعه السكر ومعاصر القصب ومعامل العسل، ومن أشهر مراكز صناعة السكر والعسل في العصر الفاطمي الأول مدينة الفسطاط[٢]، والفيوم [٣]، وقفط [٤]وسمهود [٥]، وأسيوط [٦]، وترنوط[٧]، وفي بعض هذه المراكز كالفيوم وأسيوط وترنوط يغلب عليها السكان من القبط.

(١) البراوي: المرجع السابق، ص ١٧٦.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤١، ٤٢.
(٣) أبو عثمان الصفدى : المصدر السابق، ص ٢٩، ٤٠.
(٤) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٢٣١.
(٥) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٦) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ١٩٣.
(٧) البراوي: المرجع السابق، ص ١٧٨، حاشية ١.

وثمانون واربعماية الهلالية بعد ان تناول القربان المقدس، وكانت مدة بطركيته منذ وضع اليد عليه في دير ابو مقار اربعة عشر سنة وثلثة شهور ونصف، ودفن في كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر صلواته معنا امين، وحمل جسده بعد ذلك الى دير ابو مقار بوادى هبيب المقدس والمجد لله دايماً ابداً.



طبق من الصينى عليه رسم لحيوان برأس إنسان.

* * *

وكثرت مطابخ السكر ومعامل العسل في مدينة الفسطاط، وكانت بعض تلك المطابخ والمعامل في حوزة عدد من اليهود القطنين في تلك المدينة الصناعية الكبرى [1]، واشتهرت مدينة قفط بكثرة ما بها من مسابك السكر ومعاصره [2]، كما كانت أسيوط تنتج سائر أنواع السكر [3] ويتضح مما ذكره أبو عثمان الصفدى أن معاصر القصب كانت منتشرة في بلاد الفيوم وأن العديد من تلك المعاصر الملحقة ببعض النواحي كان أصحابها من الأقباط، وأن تلك المعاصر كانت تتكون من حجرتين وتدور بالأبقار [4].

وعرف عن سمهود أنها كانت «كثيرة المعاصر لقصب السكر»[5]، وكان لكثرة مطابخ السكر ومعامل العسل ومعاصر القصب ووفرة الانتاج أن رخصت أسعار الحلوى وكثرت أسواقها.

غير أن صناعة العسل تعرضت للتدهور عدة سنوات ابان خلافة الحاكم بأمر الله، وانخفض انتاج العسل بسبب قراراته بشأن تحريم المسكرات، اذ كان يتخذ من العسل مسكرا،

(١) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤١، ٤٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٣١.
(٣) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥١.
(٤) الصفدى: المصدر السابق، ص ٢٩، ٤٠.
(٥) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٤.

باسمك يارحمن ابتدى(*)

قال يوحنا ابن صاعد بن يحيى ابن مينا المعروف بابن القلزمى الكاتب انى لما كملت نسخ جميع ما وضعه الابا القديسين المتقدمين من سير البيعة المقدسة وهى ستة وعشرون سيرة وما جرى فيها للابا البطاركة باسكندرية وهم سبعة وستين بطركا اولهم مرقس الانجيلى واخرهم ابا كيرلص الثانى القديس الروحانى، وجعلت ذلك فى ثلثة

(*) نبذة هامة حول البطاركة السابقين واللاحقين وكتاب ونساخ سيرهم.


طبق شفاف عليه كتابة بالبنى والأسود. صنع الفسطاط.

مما دفع الحاكم بأمر الله الى أن يأمر باراقة كميات ضخمة من العسل وكسر جراره أينما وجدت، وحددت الكمية للمستهلك عند الشراء، بل قل وجوده فى الأسواق، وارتفع ثمنه لكثرة الطلب عليه، بالدرجة التى كان يعادل ثمن أوقية بدينار فلم توجد[1].

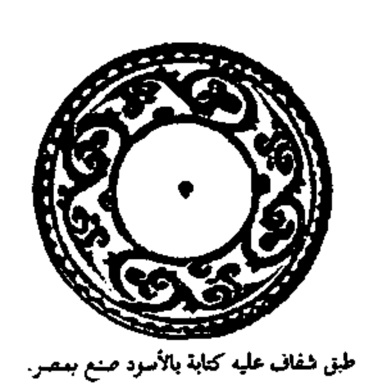
وبانتهاء عصر الحاكم بأمر الله زاد الاقبال على الاحتفال بالمناسبات والأعياد وأقبل الناس على مظاهر الترف واللهو، وزاد الطلب على السكر والعسل، مما أدى الى انتعاش تلك الصناعة، وانتاج كميات كبيرة منها، ويؤكد هذه الحقيقة فى عصر المستنصر بالله الرحالة ناصرى خسرو بقوله «وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا» [2].

النشاط التجارى للمصريين من أهل الذمة

كان لاهتمام الخلفاء الفاطميين بالتجارة أثره فى ازدهار الحركة التجارية فى مصر فى العصر الفاطمى الاول، ففى هذا العصر كثرت الحاصلات الزراعية نتيجة للاهتمام بالزراعة، وازدهر الكثير من الصناعات، وزاد الطلب عليها، كما توفر عنصر الامن وشمل الجميع العدل والطمأنينة، وأحكمت الرقابة على الأسواق، ومنح الخلفاء الفاطميون التجار الاجانب الذين يفدون الى مصر العديد من الامتيازات، كما منحوهم حق الاقامة فى فنادق خاصة بهم، بل

(١) ابن أيبك: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ١٧٢.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٠.

اجزا، الجزو الاول سبعة عشر سيرة لستة واربعين بطرك اولهم مرقس الانجيلى واخرهم انبا خايال الاول، والجزء الثانى خمسة سير اولها السيرة الثامنة عشر واخرها الثانية والعشرين واخبار تسعة بطاركة اولهم انبا مينا واخرهم اثناسيوس، والجزء الثالث الذى فيه هذه الكراسة من جملة اثنى وعشرين كراس وما قبلها الى اخر الكراريس اربعة سير واخبار اثنى عشر بطركا اولهم سبعة وستين


طبق شفاف عليه كتابة بالأسود صنع بمصر.

والسكن فى أحياء خاصة [1]، وكذلك شجعت الحكومة بناء الوكالات والقياسر والخانات، هذا بجانب انشاء أسطول تجارى مصرى ساعد على تنشيط الحركة التجارية [2]، ومما ساعد على ذلك أيضا نشاط أهل الذمة من التجار الذين استخدموا رؤوس أموالهم الضخمة وسفنهم التجارية فى خدمة الحركة التجارية المحلية والعالمية [3].

وكان التجار من أهل الذمة فى مصر على درجة كبيرة من المهارة فى الأعمال التجارية، كما وجدوا فى سياسة التسامح الدينى واهتمام الدولة بالتجارة ما يشجعهم على القيام بهذا الدور الهام فى هذا المجال.

ففى مجال التجارة الداخلية زخرت القرى التى يغلب عليها السكان الأقباط بالأسواق العامرة بما يسد حاجة سكانها، فكانت «منية الأمراء» على مقربة من شبرا يعمل بها سوق كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال والبضائع وكان سوقها من أسواق مصر المشهورة[4].

(١) سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ٢٠٩ ـ ٢١٤.
(٣) القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص ٩٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ١٢٩.

بطركا منهم من رايته وسمعت كلامه وحضرت قداساته، وتحدثت مع بطركين وهم انبا اخرسطودلوس وانبا كيرلص نيح الله نفوسهما ورزقنى بركة صلواتها، شكرت الله تعالى على ما نعم به على من وجود هذه السير ومعونته لى جل اسمه على نسخها بكمالها، ووجب على ان اكتب واشرح سير من رايته بعد انبا كيرلص البطرك نيح الله نفسه الطاهرة الى حين كتب هذا المسطور وهو

كما كان سوق بلدة «بموية» بالفيوم يقام يوم الخميس من كل أسبوع، وكانت تلك البلدة زاخرة بالعطارين ودكاكين البزازين [(١)].

ويذكر ناصرى خسرو أن مدينة تنيس ـ تلك المدينة الصناعية الكبرى التى يغلب على أهلها السكان الأقباط ـ كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار، ويرابط فى مينائها حوالى ألف سفينة [(٢)]، أما فى المدن الكبرى فقد كان فى بعض الأحياء الخاصة التى سكنها أهل الذمة سوق لسد حاجة القاطنين بها [(٣)].

واشتغل كبار التجار من أهل الذمة بتجارة الغلال. ويذكر ناصرى خسرو أن الخليفة المستنصر بالله أرسل الى أحد التجار النصارى الأثرياء أثناء احدى المجاعات التى انتشرت بالبلاد، يطلب منه امداد المخازن الحكومية بالغلال «أما نقدا، وأما قرضا» فرد هذا النصرانى على الخليفة بقوله: «أن لدى من الغلة ما يمكننى من أطعام أهل مصر بالخبز ست سنوات»، ويتعجب ناصرى خسرو من مقدار ثروة هذا التاجر النصرانى بقوله: «أن كل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار [(٤)]،

---

(١) الصفدى: المصدر السابق، ص ٦٩.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨، ٣٩.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٠.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٣.

انبا مقاره، والتجيت الى رحمته تعالى ومعونته وتوفيقه كما الفت من احسانه وجعلتها على مقتضى السير التى قبلها ومن الله نستمد المعونة.

السيرة السابعة والعشرون من سير البيعة المقدسة انبا ميخاييل البطرك وهو من العدد الثامن والستون(*)

[١٠٩٢ / ١١٠٢م]

(*)جلس هذا الاب على كرسى البطركية فى مملكة المستنصر، وبعد جلوسه بسبعة اشهر مات المستنصر وملك بعده ولده المستعلى، وكان وزيره الأفضل أبن امير الجيوش بدر الجمالى الارمنى.

ولما تنيح الاب القديس الروحانى انبا كيرلص

ويذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم اسحق كان من كبار التجار الأثرياء بمدينة قفط[١].

ولما كان بيع الخمور محرما على المسلمين بحكم الشريعة الاسلامية فان أهل الذمة اشتغلوا بتجارة وبيع المسكرات، كما كان فلاحو شبرا يعتمدون فى سداد ما عليهم من الخراج والجزية على ما يبيعونه من خمر وخاصة فى يوم الاحتفال بعيد الشهيد، فكان يباع فى هذا اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا، ويذكر المقريزى أن أحد التجار النصارى باع من الخمر فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة [٢].

ولكن نتيجة لقرارات الحاكم بأمر الله السابق ذكرها سنة ٤٠٢هـ = ١٠١١م أضير التجار من أهل الذمة المصريين المشتغلين بتجارة المسكرات وما يصنع منها، بل ان الحاكم تشدد فى تلك الفترة مع أهل الذمة المصريين فمنع من التعامل معهم بالبيع أو الشراء، مما أثار استياء التجار والباعة من أهل الذمة، ولكن بعد مدة خرج أمر الحاكم بأمر الله بالتعامل مع أهل الذمة المصريين بالبيع والشراء كما جرت به العادة [٣].

(١) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ١٣١.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٦٨، ١٢٩.
(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٧.

الشـانى، قـدس الله روحـه الطاهرة ورزقنا بركـة
صلواته، كانت النوبة للاسكندرانيين فى تخيير من
يقيموه على الكرسى الرسولى عوضاً منه، فاجتمع
اراخنتهم ومقدمى كهنتهم للنظر فى ذلك وتخير
من يصلح لهذه الرياسة الجليلة، ومكثو اياماً فلم
يتفق رايهم على شى، فخرجو الى الريف واجتمعو
بالاساقفة وفا وضوهم فى ذلك ولم يزل الخطاب
يتردد بينهم مدة طويلة فلم يستقر لهم راى فيمن

واشتغل أهل الذمة اليهود بتجارة الرقيق، الا أنه فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م أصدر الحاكم بأمر الله سجلا حرم بمقتضاه على أهل الذمة تجارة الرقيق وأباحها للمسلمين. وشدد على النخاسين وتجار الرقيق فى المنع من بيع العبيد والاماء لأهل الذمة [١]، ثم كرر هذا الأمر فى السجل الذى أصدره فى عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وأمر بتتبع أثار المخالفين لأوامره [٢].

وبوفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م ألغيت جميع القيود التى تحد من حرية التعامل التجارى مع أهل الذمة، فمارسوا نشاطهم التجارى فى حرية مطلقة، وكان بعضهم مقربا من دار الخلافة، ويذكر ناصرى خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر أن أبا سعيد التسترى التاجر اليهودى «كان مقربا من السلطان» الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة [٣].

وكانت أعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجواهر من الأعمال التجارية التى نجح فيها أهل الذمة، وخاصة اليهود.

فقد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله الأخوان اليهوديان أبو سعيد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنا

(١) المقريزى/ اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٥٣.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤، ٦٥.

يقـدمـوه عليـهم، فـدخلو الاراخنـة وجـمـاعـة من
الاساقفة الى مصر ونزلو فى كنيسة الشهيد ابو
مرقوره واجتمعو بجماعة من الاساقفة الصعيدين
الذين وصلو الى مصر لهذا السبب وسمو جماعة
من الرهبان وغيرهم فلم يستقر فى نفوسهم اقامة
واحـد منهم وتقـرر رايهم ان يسـيـرو الى الديارات
المقدسة بوادى هبيب ويجتمعو بالابا الرهبان على
الصلاة والتـخيـر لمن يصلح للكرسى الرسـولى،

سهل التسترى، اذ نبغ أبو سعيد فى الأعمال التجارية، وكان واحدا من كبار التجار الاثرياء الذين اشتغلوا بتجارة الجواهر والآثار والتحف الثمينة وتجارة الرقيق، وكثيرا ما استخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعيد هذا فى ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة. أما أبو النصر هارون فقد برع فى أعمال الصيرفة واستيراد البضائع من العراق. وقد اكتسب هذا الأخوان ثقة التجار فى الداخل والخارج لأمانتهما، واظهار ما يكون عندهما من الودائع لمن يفقد من التجار [1].

وقد تمتع تجار الجواهر والصيارفة بالأمن والطمانينة فى عصر الفاطميين، وكانوا «لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده الى شئ منها[2]، ولم يكن يتأتى ذلك الا باستقرار الأمن وقوة الحكومة المركزية [3].

وصاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق نشاطا ملحوظا للأسطول التجارى. ولقد تعجب المقدسى من كثرة المراكب التى تجوب نهر النيل، كما تعجب من كثرة المراكب الراسية أمام ساحل الفسطاط. أما ناصرى خسرو فانه كان يقدر عدد السفن الراسية حول

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٢٣.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢١٢.

فسارو الى هناك واجتمعو فى بيعة القديس ابو مقار وذكرو اسما [أسماء] جماعة من الرهبان الذين فى تلك الديارات المقدسة، واقامو اياما يتناظرو فى ذلك ويرجح ارايهم فلم يتفقو على من يقيموه ريسا عليهم الى ان ذكر بعض الاساقفة صمويل الحبيس الذى فى قلاية ازرى(*) وكان سريانى، فاذعنو الى ان يصيروه بطركا واتفق رايهم على الرضا به، ثم سارو الاساقفة وفيهم ابا سنهوت

(*) أزرى: من الاماكن المندرسة. وبالبحث تبين أنها كانت واقعه بأراضى ناحية كفر الباجة ضمن أعمال جزيرة بنى نصر مركز كفر الزيات وخربت وهرب من بقى=

مدينة تنيس بألف سفينة منها «ماهو ملك للتجار وكثير منها للسلطان»[١]، كما يذكر أنه رأى فى الفسطاط نصرانيا من كبار أثرياء مصر امتلك اعدادا من السفن، وقيل ان مراكبه وأمواله، وأملاكه لا يمكن أن تعد، وأن سفنه كانت تسير فى النيل حاملة الحاصلات الزراعية والسلع والبضائع الى كثير من الموانى والمراكز التجارية الواقعة على النيل [٢].

دور أهل الذمة المصريين فى التجارة الخارجية

من الجدير بالذكر أن مصر فى العصر الفاطمى الأول احتلت مركزا ممتازا فى مجال التجارة الأولى فى العالم [٣]. ولذلك أصبحت موانيها على البحرين الأحمر والمتوسط ملتقى التجار من الشرق والغرب نتيجة ظروف وعوامل داخلية ودولية[٤].

ولما كان المصريون لا ينزحون عن مصر للتجارة مع العالم الخارجى إلا فى القليل النادر،

---

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٩.
(٢) ـــــــ: نفس المصدر، ص ٦٢.
(٣) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٣ .
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ٢٠٩ ـ ٢١٤.
ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، ص ٢٩٩ ـ ٣٠١ .

اســقف مــصــر الطاهر الفــاضل واسكندرانيين والشـمـاس الفـاضل ابو غـالب بيـمن ابن تيـدر ابن مرقـوره السنجـارى، وتوجهـو من دير ابو مـقـار الى ازرى فقبل وصولهم اليها حضر عندهم من ذكر لهم صموـيل الحبيس السرياني المقـدم ذكـره ان امانته مفسودة وانه يعتقد فى جسد سيدنا المسيح الماخـوذ من الطاهرة العذرى القديسـة مـريم الذى اخذه من لحمها ودمها وصيره واحد معه واحتمل

= من مكانها، إلا أن اسمها ظل باقيا فى جداول المساحة المالية باسم أزرى، كـمـا ورد فى دليل سنة ١٢٢٤هـ = ١٨٠٩م وفى سنة ١٢٢٨ هـ = ١٨١٣م أختفى اسم أزرى بعد ضم زمامها إلى قرية الباجية ومن سنة ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧م وردت باسم الباجية ثم فى سنة ١٨٧٠م وردت باسم كفر الباجة.

فإن أهل الذمة وخاصة يهود مصر قاموا بنشاط ملحوظ فى هذا الميدان(١)، وذلك أن التجارة كانت من أهم الأعمال التى فى أيدى اليهود، وحرصوا على الاشتغال بها(٢)، وكان ليهود مصر صلات تجارية وثيقة مع يهود الشرق والغرب، فأسهموا بروؤس أموالهم فى تجارة أبناء عمومتهم اليهود الراذانية(٣)، وهؤلاء هم تجار البحر الذين كانوا يسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون معهم من الغرب إلى مصر وبلاد الشرق السلع والبضائع القيمة كالديباج وجلود الخز والفراء والسمور، كما كانوا يستأثرون بأهم ما تصدره أوروبا وهو الغلمان والجوارى البيض، وعند عودة هؤلاء التجار من الشرق الأقصى كانوا يحملون معهم المسك والعود والكافور والبهار والدراصينى وغيرها من السلع(٤).

(١) سيدة كاشف وحسن محمود: مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ـ القاهرة ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠م، ص ٢٣٠ .
ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٢٩٣ .
(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢ .
ـ سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، ص ٤١ .
(٣) القوصى: المرجع السابق، ص ٣٢ .
(٤) متز: المصدر السابق، جـ ٣ ، ص ٣١٣ .
ـ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، جـ ٣ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

فيه الالام المحيية والصلب والموت والدفن وغير
ذلك من الامور البشرية اللايقة ناسوته وصنع فيه
الايات الباهرة والعجايب المعجزة الالهية اللايقة
بلاهوته وجميعها لهذا المسيح الواحد، اعنى
غيرمخلوق اعنى الجسد، ويقول انه مساو للاهوته
الخالقة، وان سيدنا المسيح في يوم الخميس الفصح
الكبير لم يفصح مع تلاميذه على خروف ولا اكله
وغير ذلك مما قيل عنه. فلما سمعو هذا امتنعو عن

وكان يهود مصر من أنشط تجار العالم فى هذه الحركة التجارية بين الشرق والغرب، إذ كشفت وثائق الجنيزة من امتلاكهم للسفن التجارية[1]، كما وفد إلى مصر كثير من يهود الشرق المشتغلين بالتجارة لممارسة نشاطهم بها[2]. واتخذ بعضهم من مصر مستقرا له. وعلى سبيل المثال، فإن يعقوب بن كلس اليهودى عمل وكيلا للتجار بمدينة الرملة بفلسطين قبل مقدمه إلى مصر، ثم رحل إليها فى عهد كافور الاخشيد، وواصل احترافه للتجارة، فاشتهر أمره، حتى أصبح أول من تولى منصب الوزارة فى مصر فى عهد الفاطميين [3]. كما أن الأخوين اليهوديين أبا سعيد إبراهيم وأبا نصر هارون ابنا سهل التسترى كانا من أشهر وأنبغ تجار الشرق الذين استوطنوا مصر، ويرجع أصلهما إلى مدينة تستر بخوزستان تلك المدينة التى كان معظم تجارها من اليهود، واشتغل الاخوان فى تجارة الشرق وبخاصة فى تجارة الرقيق والتحف والجواهر، وعرف عن الخليفة الظاهر أنه استخدم أبا سعيد فى ابتياع ما يحتاج إليه قصر الخلافة من سلع الشرق[4]، كما أنه كان يمد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بما يلزم

(1) Goite in: Jewish Arabe New York, 1955 , p. 107.

(٢) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص ١٦٩ .
ـ متز: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ .
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ .
(٤) المقريزى: الخطط، جـ ١ ، ص ٤٢٣ .

المضى اليه وانثنى رايهم عن تصييره وضجرو
الاسكندرانيين من طول مقامهم وغيبتهم عن
اهلهم واولادهم وتشتيتهم عن منازلهم واوطانهم
وان الشتا هجم عليهم فعولو على الرجوع الى
اسكندرية بلا بطرك وان يوخرو ذلك الى وقت
اخر، فمنعوهم الاساقفة من ذلك، واشارو عليهم
بالصبر والمقام معهم ولو اسبوع اخر، فلعل يتوجه
لهم ما يعتمدو عليه، فلم تطيب نفوسهم بالمقام

قصر الخلافة من صنوف الأمتعة والسلع. ولقد ربح أبو سعيد من تجارته ثروة طائلة. وقيل أنه لم يكن يعرف مدى غناه إلا الله»[1].

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها اجتذبت كثيرا من يهود الشرق والغرب[2]، فقد قام يهود الشرق برحلات تجارية إلى مصر، كما كانت السفن التجارية من «الممالك النصرانية كافة» تفد إلى الموانى المصرية وبخاصة الأسكندرية، ولقد شاهد بنيامين التطيلى فى ميناء الاسكندرية تجارا من جميع المدن التجارية والدول الأوروبية المعروفة فى ذلك الوقت، كما شاهد التجار الوافدين إلى مصر من شمال أفريقية، وجزيرة العرب ، وبلاد الهند، والحبشة، واليمن ، والعراق، والشام، وبيزنطة، مع تكالب التجار النصارى على شراء التوابل والعطور وجميع السلع التى يحملها تجار الشرق إلى مصر[3]. كما وجد أثناء زيارته لمصر أعدادا ضخمة من اليهود الذين يقطنون فى الموانى المصرية والمراكز التجارية والصناعية وأن بينهم عددا من كبار الأغنياء[4].

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٥ .
(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٣) بنيامين التطيلى: المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٤) بنيامين التطيلى: نفس المصدر، ص ١٧٣ .

وعولو على المسير الى مدينتهم، فقال لهم انبا
سنهوت اسقف مصر ايها الاخوة المباركين قد
علمتم اجتماعنا معكم منذ وصلتم الى مدينتنا
والى الآن على ما توثروه واننا لم نفعل شيأ الا
باتفاق معكم عليه من المسيرالى دير ابو مقار ومن
التوجه الى ها هنا ومن الرضا بتصيير هذا الحبيس
بطركا عليكم وعلينا وكل هذا كان باتفاقنا
اجمعين، والآن فقد سمعتم من [كا]ن وانتم بقوله

ويذكر ابن ميسر أن بدر الجمالى عند قدومه إلى مصر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م نزل دمياط وتنيس، واقترض من تجار تنيس ـ وكان معظمهم من القبط ـ أموالا كان فى حاجة إليها[١].

وإذا كان أهل الذمة قد امتلكوا رؤوس الأموال، فإنهم قد امتلكوا ـ أيضاً ـ القياسر، وأن بعض هذه القياسر قد أوقفت على الأديرة. ويستدل على ذلك من عبارة وردت فى مرسوم أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م بتجديد عمارة دير القصير ورد الأوقاف التى كانت محبسة على الدير من ضياع وقياسر[٢].

كذلك وجد من التجار النصارى من اشتغل فى مجال التجارة الخارجية فقد كان الانبا إبرهام السورياني ـ قبل أن يصبح البطريك الثانى والستين (٩٧٤/ ٩٧٨م) للكنيسة القبطية ـ من كبار التجار الأثرياء، وتردد إلى مصر عدة مرات للتجارة ثم استقر بها. وكان يمد الخليفة المعز لدين الله وكبار رجال الدولة بما يحتاجون إليه من بضائع وأمتعة، ومن ثم نشأت صداقات وثيقة بين الأنبا إبرهام والخليفة المعز ورجال دولته[٣].

ويرى المؤرخون أن التجار من اليهود فى مصر قد أسهموا بنصيب كبير فى تجارة الكارم

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ ٢ ، ص ٢٢ .
(٢) الانطاكى: المصدر السابق ، ص ١٣٠ .
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة. انظر ص ٤٢٦ وما بعدها من هذا الجزء (الثالث).

فساد امانة هذا الرجل الذى وقع الرضا منا ومنكم به، وانه لا علم له ولا فهم ولا قرا شيأ من كتب الله، ولو كان قرا الكتب المقدسة لعلم منها فساد ما يعتقده، فان فاتحة انجيل يوحنا يقول: فى البدء كان الكلمة والكلمة لم يزل عند الله والاه هو الكلمة، فاتضح بهذا القول انه اله بالحقيقة. ثم قول المسيح من فاه الطاهر فى انجيل يوحنا مخاطباً لليهود: انسان يقول لكم الحق الذى سمعه من

طوال عهد الفاطميين، جنبا إلى جنب مع التجار المسلمين، إذ كانت روح التعاون سائدة بين كل من احترف هذه المهنة من كل الأديان. كما كان لهؤلاء اليهود نشاط تجارى واسع بين مصر والهند واليمن والمغرب والأندلس[1]. وكانت سفنهم تجوب الموانى التجارية الكبرى التى تقع على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى والبحر المتوسط. فكان يهود الشرق يفدون الى مصر لأعمال تجارية [2]. كما كان تجار مصر يبحرون بسفنهم الى موانى البحر المتوسط التجارية [3]، مما أدى الى قيام صلات تجارية وثيقة بين مصر والجاليات اليهودية التى وجدت بتلك الموانى، وارتبط كثير من يهود مصر برباط المصاهرة مع يهود تلك الجاليات، وقامت علاقات تجارية نشطة بين مشايخ التجار اليهود بالقاهرة وغيرهم من تجار يهود الشرق المشتغلين بتجارة الكارم، بل كانت هناك مشاركة فى الأعمال التجارية ورؤوس الأموال اللازمة للتجارة بين يهود مصر ويهود تلك البلاد فى كثير من الأحيان [4]. وحقق هؤلاء التجار أرباحا كبيرة وأموالا طائلة من اشتغالهم بتجارة الكارم. وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم. بجانب السلع الأخرى مثل الحاصلات الزراعية والملبوسات والحرير الخام فضلا عن الرقيق

(١) القوصى: المرجع السابق، ص ٧٩، ٨٢، ٨٤.
(٢) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص١٦٩.
(٣) ـــــــــ : نفس المصدر، ص ٥٠، ٧٧، ٩٠.
(٤) القوصى المرجع السابق، ص ٢١٥.

الله، فاوضح بقوله هذا انه انسان، فصح لنا من قوله انه الاه وانسان معاً مسيح واحد لا اثنين، فاما قوله عن جسد مخلصنا الذى اخذه من العذرى مريم ابنة داوود وابرهيم المخلوقين انه غير مخلوق فهذا اعتقاد من يقول بالفنطسه(*) والخيال والشبح، وليس هذا اعتقاد احد ممن يدين الله بدين النصرانية، وكتب الله المقدسة تشهد بأن الكلمة الله خلق له جسد في بطن العذرى مرتمريم

(*) الفنطسة: هى كلمة غير عربية ولعلها لاتينية دخلت اللغة المصرية كأحد المؤاثرات الناتجة عن الحروب الصليبية ونحن ننطقها الآن «فنتازيا».

الذى كان يصدر الى أوربا حيث يباع بأسعار مضاعفة (١). كما كانت مصر من أعظم أسواق الرقيق الافريقى فى ذلك الوقت (٢). فقد اشتغل فى تلك التجارة يهود مصر (٣).

ولقد عمرت أسواق مصر بسلع الشرق، ولم تكن تلك السع تستهلك جميعها محليا، بل احتفظ التجار المصريون بكميات كبيرة منها لبيعها للتجار الفرنج وتجار الروم بأسعار عالية، وبذلك كان تجار مصر يقومون بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب. كما كان التجار الفرنج يقومون بشراء الحاصلات الزراعية والصناعات المصرية التى اكتسبت شهرة فى الأسواق العالمية (٤).

ويرى المؤرخون ـ من واقع وثائق الجنيزة ـ أن غالبية اليهود الرازانية الذين انخرطوا فى تجارة الشرق قد قل دورهم فى مجال التجارة الخارجية مع بداية القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى. وأن دورهم أخذ فى الاضمحلال بعد أن دخلت الحكومة الفاطمية فى علاقات ومعاهدات تجارية مع المدن والدول الأوروبية (٥). وفضلا عن ذلك فقد

(١) ـــــــ نفس المرجع ، ص ٩٤، ٢١٣.
(٢) سيدة كاشف وحسن محمود: المرجع السابق ، ص ٢١٤.
(٣) القوصى: المرجع السابق، ص ٢١٣.
(٤) ـــــــ : المرجع السابق ، ص ١٩٧، ١٩٨.
(5) Goitein : Op. cit., p. 107.

من غير زريعة بشر وصيره معه واحد ورواه الناس جسوه ولمسوه واكل معهم بالحقيقة وشرب ومشى بينهم وتعب وجاع وعطش وسهر وتالم وصلب ومات وقبر، وفعل كل الافعال البشرية التى تشهد بها الاناجيل المقدسة ما خلا الخطية، وقام من الموتا وظهر لتلاميذه واوراهم اثار المسامير فى يديه ورجليه وطعنه بالحربة فى جنبه، وجسو جسده ولمسوه كما قال لهم: جسو والمسو فان الروح ليس



وشم يمثل صلب المسيح.

استقرت أعداد من هؤلاء التجار اليهود زمن الفاطميين فى مصر والهند واليمن[١]. ويبدو أن اليهود الذين استقروا فى مصر قصروا نشاطهم على التجارة الداخلية والنشاط المصرفى والأعمال المالية [٢]. كما اعتنق بعضهم الاسلام حفاظا على مكاسبهم المالية التى كانوا يحققونها من الاشتغال فى هذه الأعمال، واحتماء بالاسلام مما قد يتعرضون له من وقت لآخر من اضطهاد[٣] ونهب.

وهكذا يتضح مما سبق أن أهل الذمة فى مصر قد شاركوا فى الحياة الاقتصادية، وأسهموا بنصيب وافر ودور له أهميته فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة فى العصر الفاطمى الأول..

الحياة الاجتماعية والدينية للمصريين من أهل الذمة

(أ) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

- القبط واليهود فى مصر فى العصر الفاطمى الأول:

عندما احتل العرب مصر كان معظم أهلها فى ذلك الوقت من الأقباط، والى جانبهم أقلية

(١) متز: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣١٣.
- القوصى: المرجع السابق، ص ٩٠، ١٦٤.
(٢) عاشور: المرجع السابق. ص ٤١.
(٣) القوصى: المرجع السابق.ص ١٦٤.

له عظم ولا لحم كـمـا ترون لى ، واكل مـعـهم وشرب بعد القيامة ليثبت فى نفوسهم صحة قيامته وحقيقة انسانيته وانها بعد القيامة باقية بحالها لم يستحيل الى اللاهوتية. والشهادات على صحة هذا كثير جداً، فمنها انجيل متى البشير ان الملاك قال ليوسف لا تخف يا يوسف ان تقبل خطيبتك مريم فان الذى تلده هو من روح القدس، وفسره القديس يوحنا فم الذهب وقال: ان روح القدس

من اليهود. كما كان يعيش فيها بعض الطوائف التى تنتسب الى شعوب أخرى كانت أهمها طائفة الروم الملكانيين[١].

وفى السنوات الأولى من الغزو سكن العرب المدن الكبرى وظل سائر قرى مصر بأيدى القبط، ثم بدأوا يزحفون الى الريف، وينتشرون فى ريف مصر رويدا رويدا. وعلى الأخص ابتداء من القرن الثانى للهجرة حيث كثر انتشارهم بقرى مصر ونواحيها، ومشاركتهم الأقباط سكنى الريف والمدن الصغيرة.

وقد قام الأقباط فى ريف مصر بعدة ثورات فى سنوات ١٠٧هـ، ١٢١هـ، ١٣٢هـ، ١٥٠هـ، ١٥٦هـ، وكان الدافع الى قيامهم بتلك الثورات، عدم رضاهم عن سياسة الولاة المالية [٢]. وعادة ما كان يتبع اخماد تلك الثورات تحول عدد كبير من الأقباط الى الدين الاسلامى، كما كان لقرارات الخلفاء والولاة ـ فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ـ من تعريب الدواوين، واحلال المسلمين محل الموظفين من أهل الذمة فى الوظائف[٣].

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ١٦٤.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٢٥٩ ـ ٢٦١.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٣) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ١٧٩، ١٨٠.

هو الذى خلق الجسد فى بطن مريم، جسد الكلمة
هو من فعل الروح القدس. وقال القديس ساورس
بطريرك انطاكيـة فى تفسـير انجيل يوحنا ايضاً:
لاجل الثوب الغير مخيط من فوق هكذى ان
الثوب المنسوج من فوق الغير مخيط يدل على
جسد يسوع المسيح، انه مخلوق من روح القدس
من فوق من غير زريعة بشر. وقال بولس الرسول
فى رسالته الى افسس: وتتجددو بروح قلوبكم

واسقاط الجزية عن كل من يعتنق الاسلام أثر كبير فى تحول كثير من القبط الى الاسلام(١).

ثم كانت ثورة ٢١٦ هـ - فى عهد الخليفة المأمون - التى قام بها الفلاحون الأقباط فى الوجه البحرى - وخاصة أهالى البشمور - بسبب سوء سيرة العمال وفداحة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم. ولما استفحل أمر هذه الثورة، جاء الخليفة المأمون الى مصر للعمل على قمع الثورة واخمادها وسار بنفسه على رأس قواته التى نجحت فى اخماد الثورة فى صفر سنة سنة ٢١٧هـ (٢).

وبانتهاء تلك الثورة التى كانت أكبر وآخر الثورات التى قام بها الفلاحون الأقباط، دخل كثير منهم فى الاسلام (٣).

ثم جاء قرار الخليفة المعتصم سنة ٢١٨هـ باسقاط العرب من ديوان العطاء، وقطع أعطيات من فى الديوان منهم، فأصبح العرب لايتميزون عن أهل البلاد الامن الناحيتين الدينية واللغوية، وفقدوا مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية، مما اضطرهم الى الانتشار فى الريف

(١) ______: نفس المرجع، ص ٢١١-٢١٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٧٩، ٨٠.
- سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٠٩-٢١١.
(٣) المقريزى: المرجع السابق، ص ٨١.

وتلبسو الانسان الجديد الذى خلق من الله ببر وحق وطهارة. وقال فى رسالته الى قولاسايس : اخلعو الانسان العتيق مع جميع افعاله والبسو الانسان الجديد الذى يتجدد بالعلم شبه خالقه. وقال اغريغوريس صانع العجايب اللاحق بالرسل فى الحرم الثانى عشر: من قال ان جسد المسيح غير مخلوق ولا يقر ويعترف ان الله الكلمة الغير مخلوقاً قبل الناسوت المخلوق وتجسد واتحد كما هو

بصورة أكثر مما كان عليه الأمر فى القرنين الأول والثانى الهجريين واشتغالهم بالزراعة والصناعة والتجارة، وغيرها من الأعمال التى كانوا يترفعون عن الاشتغال بها وزاحموا أهل البلاد فيما بقى لهم من أرزاق.

غير أنه ـ فى القرن الرابع الهجرى ـ يذكر ابن حوقل أن «معظم رساتيق مصر وقراها فى الحوف والريف. وأهلها نصارى قبط ولهم البيع الكثيرة العزيزة الواسعة»، وأنهم أهل يسار وذخائر وأموال [1]. كما يذكر أبو الصلت أن:«سكان أرض مصر أخلاط من الناس مختلفوا الأصناف والاجناس من قبط، وروم، وعرب، وأكراد، وديلم، وحبشان، وغير ذلك من الأصناف، الا ان جمهورهم قبط» [2]. أما المقدسى الذى زار اقليم مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى فيقول أن «عامه ذمته نصارى يقال لهم القبط، ويهود قليل»[3].

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، مطبعة دار الحياة ببيروت، ص ١٥٠.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ ، ص ٤٧.
وأبو الصلت هو أميه بن عبد العزيز أبى الصلت العلامة الأندلسى الذى زار مصر فى أيام وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فى خلافة الآمر بأحكام الله، وتوفى سنة ٥٢٨هـ(عنان: تاريخ الجامع الأزهر، ص ٥٧).
(٣) المقدسى: المصدر السابق ، ص ٢٠١، ٢٠٢.

مكتوب فليكن محروماً. وتفسيره من قوله: كيف
يقولون ان جسد المسيح غير مخلوق لا يتالم ولا
يطعن جسده بحربة ولا يلمس، والمسيح لما قام من
الموت أورى تلاميذه اثار المسامير وشاهدو الطعنة
والجسد الذى لمسوه، دخل اليهم والابواب مغلقة
ليظهر لهم قوة لاهوته وحقيقة ناسوته. وقال
القديس بوليدس بطرك رومية في رسالته الى
ديونوسيوس : نعترف بالمخلوق لاتحاد الخالق به لما

كما كان النصارى يشكلون غالبيه سكان القرى مثل «أبنوب» و«طنبدى» من قرى الصعيد[1]، فضلا عن كثير من قرى الفيوم التى غلبوا على سكانها[2]. وفى الوجه البحرى وجدت أيضا بعض القرى التى كان النصارى أكثر سكانها[3].

فاذا انتقلنا الى المراكز الصناعية والتجارية، نجد أن أهل مصر القبط كانوا غالبية. فمدينه تنيس التى يقدر ناصرى خسرو سكانها بخمسين ألف نسمة كان القبط يشكلون أكثر سكانها [4]. كما كانت مدينة دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطئ البحر [5]. أما شطا تلك القرية الصناعية الكبرى - والتى تقع بين تنيس ودمياط - فقد كان أكثر سكانها من الاقباط [6].

كما أن مدن الصعيد الكبرى كاسيوط وأخميم - على على سبيل المثال - كانت غالبية

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ١٥٥.
(٢) أبو عثمان الصفدى: المصدر السابق، ص ١٣، ٦٣، ١٠٥، ١٠٧.
(٣) المقريزى: المصدر السابق، ص ٢٩.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٩.
(٥) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.
(٦) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.

اجتمع بالمخلوق طبيعة واحدة ثابتة قايمة من الجهتين لما نعلمه من خلقتنا نحن البشر، وان من الجهتين من النفس والجسد طبيعة واحدة ثم شخص واحد يدعى انسان. وقال ايضاً فى رسالته الى برسطوليس: ليكن محروم كل الذين يقولون ان جسد مخلصنا ليس هو من مريم ويقولون انه من السما وانه غير كاين. وقال يوحنا فم الذهب فى (الميمر) الذى قاله على الميلاد الذى اوله: سرا

سكانها من المصريين القبط نظرا لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية فى مصر الفاطمية [١].

هذا بينما نجد بنيامين التطيلى الذى زار مصر حوالى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، أى فى أواخر العصر الفاطمى يقدر تعداد اليهود فى مصر ببضعة آلاف. فحسب تقديره كان فى المحلة حوالى خمسمائة يهودى، وفى بلبيس ثلاثة آلاف، وفى أبى تيج مائتان، وفى دمياط مائتان، وفى حلوان ثلاثمائة، وفى قوص ثلاثمائة، كما قدر عدد يهود القاهرة والفسطاط بألفى يهودى كان من بينهم عدد كبير من الأثرياء وكبار العلما [٢]. ولابد أن عدد يهود مصر فى العصر الفاطمى الأول كان أكبر بكثير مما قدره بنيامين، اذ يذكر ابن اياس أن عدد من ارتد من اليهود ـ بعد أن تظاهروا بالاسلام ـ فى يوم واحد فى عهد الحاكم بأمر الله كان أكثر من سبعة آلاف يهودى[٣].

كما كشفت وثائق الجنيزة عن حقيقة هامة، وهى أن اليهود لم يعيشوا فى الموانى والمدن

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١١٦.
(٢) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦.
(٣) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.

عجيب مثل صانع حاذق اذا وجد شياً جيد يصنع
منه انا[ء] جيد هكذى سيدنا لما وجد جسد
العذرى المقدس ونفسها المقدسة خلق له منها
هيكلا له نفس، كما شا جسد ناسوتى من البتول
لبسه وظهر اليوم ولم يانف من نقيصة الطبيعة ولم
يحدث له رزيه لما اتحد بلباس طبيعتنا والمخلوق ربح
مجد عظيم لما صار هيكلا للخالق وكما (انه)
غيرممكن فى البدى يقام الانسان قبل ان ياخذ

الرئيسية السالفة الذكر فقط، بل عاشوا فى الريف المصرى أيضا، ولعبوا دورا هاما فى التجارة والأعمال المالية (١).

أما فى الواحات، فقد كان الغالب على الفرفرون (الفرافرة) السكان من القبط، ولم يكن يوجد بالواحات من اليهود أحد (٢).

ولم تمدنا المصادر التاريخية التى وصلت الينا من العصر الاخشيدى بما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة فى مدينة الفسطاط، وان كان طبيعيا أن يفضل أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين (٣).

أما فى القاهرة الفاطمية فقد وجدت أحياء خاصة بأهل الذمة. فعندما اختطت القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها، وأختط الروم الواصلون صحبة جوهر القائد حارة عرفت بهم ونسبت اليهم (٤). ويذكر الأنطاكى أنه كان للروم

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٢) ابن حوقيل: المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٣) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين، ص ٢١٤.
(٤) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٧.

التــراب بيــده، هكذى الانا[ء] الذى هلك ليس
يمكن ان يخلق دفعة اخرى الا ان يصيـر لباسـا
لخالقه، فلاجل هذا لم يخلق له هيكلا من شيا
اخر ولم يخلق جسدا اخر ليلبسه حتى لا يظن انه
يجعل نقيصة للخلق الذى لادم. وقال القديس
اغريغوريس التاولوغس اسقف انيزينزو فى الميمر
الذى قاله على الميلاد المقدس الذى اوله: المسيح
ولد لنا اليوم يالهذا التدبير الجديد الذى لله، يا

الملكانيه حارة بالقاهرة يسكنون بها فأخرجوا منها، وهدمت مبانيها، وجلوا منها الى الموضع المعروف بالحمراء، فعملوا لهم بها حارة، واتخذوا منها موضعا لسكناهم [١].

أما اليهود فقد سكنوا حارة الجودرية – نسبة الى احدى طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر الله ـ، وظلوا مقيمين بها، الى أن بلغ الحاكم بأمر الله أنهم يجتمعون بها أوقات خلواتهم، ويهزءون بالمسلمين، ويسخرون منهم، ويخوضون فى الديانة الاسلامية، ويتعرضون الى ما لاينبغى سماعه، فسد الحاكم بأمر الله أبواب الحارة عليهم ليلا وأحرقها، ثم أفرد لهم حارة زويلة [٢]. وأمرهم فى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م بأن يلزموا حارتهم، وألا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم [٣].

وكان الصناع الأجانب يسكنون فى المناخ السعيد بالقاهرة، ويظهر أن هؤلاء الصناع اجتذبهم الفاطميون بالرواتب المغرية والمعاملة السمحة ، أو أنهم كانوا من الرقيق أو الأسرى الذين علموهم مختلف الصنائع والحرف المصرية [٤].

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤.
(٣) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٤٣.

لهذه الوحدانية الغير ممتزجة العجيبة، الازلى فى كل مكان تكون والغير مخلوق خلق كما هو مكتوب ان اعترفو لرسولى وكاهنى الذى يعترف به يسوع الموتمن عند من خلقه. وقال ايضاً فى ميمره على الامانة: من قال انه خرج من العذرى مثل جواز [الماء] يجرى فقط ولا يعترف انه خلق جسده ووحده منها بلاهوته لانه خلق بلا ذكر بناموس الخليقة فهو محروم.، وقال ابوقلس اسقف

أما مدينة الاسكندرية فكان يسكن بها كثير من الأجانب المشتغلين بالتجارة والذين ينتمون الى جاليات إجنبية مختلفة، وكان لكل جالية فندق خاص بها (١).

وكان الغزو العربى لمصر عاملا مساعدا على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت منتشرة فى مصر ذلك الوقت، فأصبحت الدروس تقرأ فى الكنيسة باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية، وبعد أقل من نصف قرن من الغزو تقريبا بدأ العرب يتجهون الى تعريب الدواوين لعدم معرفتهم باللغة القبطية، وقد بدئ فى تعريب الدواوين فى مصر سنة ٨٨هـ ٧٠٦م فى ولاية عبد الله بن عبد الملك، مما اضطر المصريين العاملين فى دواوين الحكومة الى تعلم اللغة العربية حفاظا على الوظائف التى كانت بأيديهم(٢).

وعلى الرغم من أن اللغة العربية أخذت فى الانتشار، وأن المصريين أقبلوا على تعلمها، الا أن عامة أهل مصر يتحدثون القبطية» (٣).

وكان القبط يتكلمون القبطية بلهجات متعددة، فاللهجة البحرية كانت تستعمل فى

(١) سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢٠٣.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ١٧٩.
(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

كسلس فى ميمره على الميلاد بمحضر من نسطور فى القسطنطينية: يا ايها الاحشا الذى خلق فيه السلاح المقاوم للموت لاجلنا . وقال ايفانيوس اسقف قبرص فى كتابه الكبير المسما المرسا: اخذ جسده من مريم العذرى بلا زريعة بشر وخلق هذا الجسد المقدس، كما قال واتى من امراة واخذ الذى لنا. وقال القديس كيرلس بطرك اسكندرية الاول فى رسالته الى سرجس [سرجيوس] : ليس

الاسكندرية وما جاورها والدلتا ووادى النطرون ، ثم أصبحت اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ أن نقل البابا خريستودولوس البطريركية الى القاهرة فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى /الخامس الهجرى (١).

ويذكر المقريزى أن نصارى قرى الصعيد الأعلى كانوا يتكلمون « القبطى الصعيدى» ـ اللهجة الصعيدية ـ وأن نساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون الا القبطية الصعيدية، وأن لهم أيضا معرفة باللغة الرومية«اليونانية» (٢).

وكان من عادة نصارى مدينة أسنا أنهم كانوا يحضرون أفراح المسلمين ويطوفون فى أسواق المدينة وشوارعها أمام العرائس وهم يهللون ويغنون قبطية صعيدية (٣).

وفى الصعيد كانت هناك أيضا لهجات قبطية فرعية مثل اللهجة الاخميمية التى كانت تستعمل فى أخميم واللهجة الأسيوطية ، واللهجة الفيومية التى كانت تستعمل فى الفيوم. وأما فى شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون باللهجة البشمورية (٤).

(١) زكى شنودة: المرجع السابق، ص ١٠.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥٠٥ ـ ٥٥٦.
(٣) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ٣٠٥.
(٤) زكى شنودة: المرجع السابق، جـ١، ص ١١.

هــو مــستقيــم ان يــقــال ان الجــســد انتقل الى
طبــيــعــة اللاهــوت أو أن الــكلمــة انتــقل الى
طبيــعــة الناســوت وكـمـا ان هذا غيـر ممكن وهو
غيـر منتقل ولا متـبـدل هكـذى الاخـر ليس هو
ممكــن ان ينتــقل شــى المخلوق الــى جــوهر طبيعة
اللاهوت لان الجــسد مخلوق جسد المسيح، نقول
عنه انه صـار جــســد الله، وقــال ساويرس المجـاهد

وفى القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادى أخذ بعض علماء الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية . فقد كتب البطريك الملكاني سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) كتابه فى التاريخ باللغة العربية، كما أن كاتبنا ساويرس بن المقفع أواخر القرن الرابع الهجرى /أواخر القـرن العاشـر الميـلادى) أسـقف الأشـمو نين كتـب مؤلفـه الذى بين ايدينا هنا «سيـر الآباء البطاركة» باللغة العربية أيضا، هذا بجانب القيام بجمع الوثائق اليونانية والقطبية وترجمتها الى العربية [١].

غيـر أن اللغتين القبطيـة واليـونانيـة ظلتا مـسـتـعملين فى المعاملات الخاصـة الى أن بطل استعمالهما فى القــرن الســابع الهجر ى /الثالث عشـر الميلادى . ففى هذا القرن أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب الســائدة وان ظلت اللغة القبطيـة مـستـعملة حتى القــرن الثامن عشر[٢].

---

(١) سيدة كاشف: مصر ى فجر الاسلام، ص ١٨٠.

(٢) زكى شنودة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٣.

ويذكر المؤلف أن اللغة القبطية ظلت لغة التخاطب فى القرى البعيدة فى الصعيد الأعلى حتى القرن السابع عشـر الميلادى (القرن الحادى عشر الهجرى)، وفى القرن الثامن عشـر الميلادى بدأ الأقباط يكتبون اللغة القبطية بحروف عربية، وفى القرن التاسع عشـر انتهى الكلام والتخاطب باللغة القبطيـة وان =

(*) حكم بين عامى ٤٩١ /٥١٨م.

بطريرك انطاكية فى المكاتبة التى كتبها لنسطس(*) الملك البار ملك القسطنطينية لما احرم مقدونيوس: لما كثرت الخطية على الارض نزل الله الكلمة من السما وحل فى بطن مريم العذرى وبنا له فيها جسد بشر غير مدرك ولا تحويه العقول ومكث فى احشاها تسعة اشهر واخذ الجسد منها وخلق له جسد، ليس الاب كان فى احشاها ليلا [لئلا] يقول انسان ان الاب ينتقل الى البنوة بل هو الابن

- المكانة الاجتماعية لكبار أهل الذمة:

كان لسياسة التسامح الدينى التى اتبعها الفاطميون ازاء أهل الذمة أثر ها الكبير عليهم، اذ كان منهم الوزراء والوسطاء وكبار رجال الدواوين، والكتاب والأطباء والمتقبلين، والصناع المهرة، والتجار الأثرياء والملاك أصحاب الضياع فى مصر ، ووصل الكثيرون منهم الى مكانة اجتماعية سامية، فكانوا من الطبقة العليا فى المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الإقطاعات والضياع والمنح والأموال والعطايا فى شتى المناسبات.

ففى سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩م ولد للوزير ابن كلس ولد، فأرسل اليه العزيز بالله مهدا من صندل مرصع وثلاثمائة ثوب، وعشرة آلاف دينار، وخمسة عشر فرسا بسروجها ولجمها، كم اشتملت الهدية على كثير من الطيب، وقد بلغت قيمة هذه الهدية مائة ألف دينار (١).

....

=كانت قد ظلت فى بعض القرى والكنيسة حتى القرن العشرين (زكى شنودة نفس المرجع، ونفس الصفحة).

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٥٢.

بارادة الاب ومشيئة الروح واحده الثالوث المقدس حتى لا يقول احد ان غيره خلقه ولا يقال انه غيرها من اللاهوت بل هو وحده الذى تجسد وصبر على كلما ناله، ليس يرى شبح ولانزل الجسد معه من السما بل هو خلقه من البتول من غير زريعة واتحد به بلا افتراق ولا اختلاط ولا امتزاج. وقال القديس يعقوب اسقف مدينة سروج في ميمره على الالام المحييه التي اوله: يا ابن الله

وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل الذمة ـ الذين سبقت الاشارة اليهم ـ بالأموال والهدايا تشجيعا وتكريما لهم [1]، وكان لبعضهم المكانة المرموقة من أصحاب القصر، وكما شمل الخلفاء أولاد أطبائهم بالرعاية فأطلقوا لهم الأموال الوفيرة والهبات فعاشوا في رغد من العيش [2].

وضم مجلس الخليفة المعز كبار رجال الدولة من اليهود والنصارى، اذ كانوا هم الطبقة التي اعتمد عليها في ادارة دواوين الحكومة، ففي عهده بلغ ابن كلس منزلة رفيعة في بلاط الخلافة وتولى الاشراف على الادارة المالية في الدولة، وليس هناك أدل على علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم، من تلك العلاقة والصداقة التي وجدت بين العزيز بالله ووزيره ابن كلس، وفي كلمات العزيز له وقت احتضاره، ما يؤكد حب الخليفة له، ومكانته الاجتماعية [3]، وفي رسالة العزيز إلى طبيبه ابن مقشر ما يشير إلى علو منزلة الطبيب عند الخليفة وتقديره له. كما

(١) ابن العبرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.
(٢) القفطي: المصدر السابق، ص ٤٣٨.
ـ ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٥٤٨.
(٣) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٦.

الذى صار ذبيحة عنا، خلق له ساعدين ليمدهما
على الصليب وخلق له صدر ليحتمل الشوك.
وقال في ميمره على الميلاد المقدس بشرح ما قاله
الملاك للعذرى : والذى يصور الاطفال الصغار هو
يصور له مثل جسد ويلبسه ورب الابناء يكون فى
احشاك وتحبلى ولبس لباساً فى بطنك الطاهرة
ويعد له لباس توشيح جسد من منسج احشاك.
وقال فيه ايضاً: وكان خالق الاطفال الصغار ينمو

أن الحاكم بأمر الله زار ابن مقشر عندما مرض، وأنعم على أولاده بالأموال والهبات بعد وفاته(١).

وجالس ابن نسطاس الطبيب النصرانى الخليفة الحاكم بأمر الله، وشرب معه عندما أشار عليه بذلك ، وكان من خواصه وندمائه. وواحد من القلائل الذين يفضى اليهم بأسراره، كما جالس ابن نسطاس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين ابن جوهر، وأبو الحسن الرسى، والمسبحى، والقاضى عبد العزيز ابن محمد بن النعمان، وكان يخالطهم، ويحضر مجالسهم الخاصة (٢).

وامتلك كثير من أهل الذمة الأموال الطائلة والقصور الفخمة التى امتلأت بالخدم والعبيد، واكتظت بأثمن ما عرف فى هذا العصر من موجودات وتحف وذخائر ومقتنيات.

فقد بلغت ثروة قزمان بن مينا عامل الخراج بفلسطين فى عهد الخليفة المعز ما يزيد على تسعين ألف دينار (٣)، كما امتلك الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات والضياع والأموال،

(١) القفطى: المصدر السابق، ص ٤٣٨.
ـ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق، ص ٥٥٠
(٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الاصر عن قضاة مصر، القسم الثانى، ص ٣٦٢، ص ٣٦٣.
(٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤٤.

فى الحشا ويخلق اقانيم تامة فى النسا. ولما كمل ملو اكليل جسده وتم تاج اعضا عظمته ولما جمع الجسد حواسه بعلمه وكمل طبايع الخاتم الذى لملو جسده بجمع اقنومه معا. ولما خلق اقنومه فى حواسها وصنع الصورة التى للانسان الكامل منا وكمل جسده. وقال ابوليديس بطرك رومية فى رسالته الى القديس ساويريانوس اسقف عابلا : ولكن هو الذى بنا جسده فى بطن العذرى ولم

وكان قصره واحدا من أعظم قصور القاهرة الفاطمية ووجد فى تركته بعد وفاته (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) من الجواهر أربعمائة ألف دينار، ومن الملبوس والمركوب ما قيمته خمسمائة ألف دينار، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، سكنوا فى المكان المعروف بالحارة الوزيرية التى اتخذها سكنا لحاشيته وعبيده ومماليكه و حشمه، ولما مات ابن كلس كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار [١].

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان محبا لجمع المال فالكل قد اتخذ من الوزارة أو الوساطة وسيلة للثراء [٢]، وليس أدل على ثرائه الفاحش غير المشروع من تلك الغرامة التى بلغت ثلاثمائة ألف دينار، والتى دفعها الى خزينة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله[٣].

أما منشا بن ابراهيم القزاز اليهودى الذى كان عاملا على الشام، فقد جمع ثروة بالابتزاز، مما اضطر الخليفة العزيز الى مصادرته [٤]. كما استحوذ فهد بن ابراهيم

(١) العينى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢٠.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٨٦.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٤) أبو شجاع: المصدر السابق ، ص ١٨٦.

يشاركه احد فى خلقة جسده، فلو كان هذا الحبيس يا اخوتى قرا هذه الكتب او شى منها لم يعتقد اعتقاده الفاسد، ومن لم يقرى فلا علم له، ومن لا علم له فلا نرضاه ان يكون بطركا لنا ولا مقدم علينا لان القوانين المقدسة تمنع من لاعلم له ان يصير في شئ من درجات الكهنوت، ولذلك قالو انه يجب انه يكون الاغنسطس عالماً بالكتب ويوافق ما بين العتيقة والحديثة . قال واضع هذه

النصراني على كثير من الاقطاعات والضياع والأموال وبلغ راتبه السنوى ستة آلاف دينار[1].

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلس الوزير واسع الثراء، وعندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله في سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار عينا يفدى به نفسه فلم يجب إلى ذلك[2].

ويحدثنا ناصرى خسرو عن ثروة أبي سعيد التسترى بقوله أنه «يهودى وافر الثراء... وقيل أنه لا يعرف مدى غناه الا الله، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة، زرع في كل منها شجرة، كأنها حديقة، وكلها أشجار مثمرة»[3]. وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ملكه الفزع رسالة للخليفة المستنصر بأن يقدم فورا لخزانة الدولة مائتى ألف دينار، غير أن المستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس، وتمزيقها على الملأ، وخاطب الجميع قائلا «كونوا آمنين، وعودوا إلى بيوتكم، فليس لأحد شأن بكم، ولسنا بحاجة لمال أحد»[4].

كما يذكر ناصرى خسرو أنه رأى بمدينة الفسطاط نصرانيا من كبار أغنياء مصر، قيل أن

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٥٩.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٥١.
(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤، ٦٥.
(٤) ـــــــ: المصدر السابق، ص ٦٥.

السيرة فقالو الاساقفة والاسكندرانيين ما نقدم علينا الا من نعرف غزارة علمه ونزاهة نفسه وطهارته ونسكه واستقامة امانته، ومن يدخل تحت الشروط التي نشرطها عليه وناخذ خطه بها. ومكثو اياما يحثو ويستقصو عنمن يصلح للبطركية، فحضر من ذكر لهم ان في قلاية سنجار حبيس راهب قسيس اسمه ميخاييل وانه عالم فاضل قد قرا وفهم، وامانته مستقيمة وهو كهل في الرجال

مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد، وأن لدى هذا النصراني من الغلال ما يمكنه من اطعام أهل مصر «الفسطاط» ست سنوات [١]. وعلى الرغم من أن ناصرى خسرو كان مبالغا فيما رواه، الا أن فى روايته الدليل القوى على ثراء الكثير من أهل الذمة فى مصرالفاطمية.

وكان أبى المليح الملقب بمماتى واحدا من نصارى أسيوط الأثرياء، وأنه كان يمتلك أيام الغلام والشدة العظمى فى عصر المستنصر بالله قمحا كثيرا، وكان يوزعه على فقراء المسلمين الذين أحبوه وشكروه لحسن صنيعه [٢].

ويذكر أبو صالح الأرمنى أن واحدا من نصارى مصر ويدعى المعلم سرور الجلال كان ذا مال وجاه، وكانت علاقته وثيقة بالخليفة المستنصر وكان يقدم للخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسر سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحلوى فيقبلها منه، ويخلع عليه ويقضى حوائجه[٣]. أما المعلم اسحق الذى كان واحدا من كبار أثرياء التجار بمدينة قفط، فقد امتلك من الأراضى والأموال والماشية الشئ الكثير [٤].

....

(١) ـــــــ: نفس المصدر، ص ٦٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١٥٩.
(٣) أبو صالح الأرمنى المصدر السابق، ص ٣٢.
(٤) نفس المصدر ، ص ١٣٠.

ويصلح لهذه الرياسة، فسارو باجمعهم الى سنجار
واجتمعو بجماعة من اهلها وسالوهم عن قضية
امره فما من احد ممن يسالوه عنه الا ويصفه
بالاوصاف الجميلة، فلما تحققو ذلك اجتمع رايهم
على تصييره بطركاً، فسارو الى قلايته وطلع اليه
انبا سنهوت اسقف مصر وبعض الاساقفة
والشماس ابو غالب ابن مرقوره السنجارى وتحدثو
معه وفاوضوه فى الامانة وعلوم الشريعة، فاجابهم

وقد امتلك أهل الذمة ـ وبخاصة الأثرياء ـ الرقيق، ليعملوا خدما في القصور. فقد وجد في تركه ابن كلس أربعة آلاف عبد ومملوك [1]، كما امتلأت قصورهم بالجوارى والقينات، وكان اليهود المشتغلون فى تجارة الشرق يشترون الجوارى لاتخاذهم خدما لهم [2]، ومن الجدير بالذكر أن زوجة العزيز بالله أم ست الملك كانت جارية رومية [3]، كما كانت أم المستنصر بالله جارية سودانية لأبى سعيد التسترى أهداها للخليفة الظاهر لاعزاز دين الله [4]، وكان من نتيجة اختلاط أقباط مصر بغيرهم من الطوائف الاجنبية أن تهافت الأقباط ـ وخاصة الموظفين منهم ـ على تعدد السرارى في بيوتهم بدون عقد شرعى، مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية[5].

ونتيجة لهذا الثراء وتلك المكانة الاجتماعية، كان أهل الذمة يلبسون الملابس الجليلة، وكان عمال النصارى يلبسون أثوابا كأثواب عظماء المسلمين، ويركبون البغال ويمتطون الخيول [6].

(١) العينى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢٠.
(٢) القوصى: المرجع السابق، ص ٢١٣.
(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥١.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ١ ـ٣.
(٥) بتشر: تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ، جـ٣، ص ١٦.
(٦) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ٣٦٦.
ـ بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر ، ص ٢٤.

بما استدلو منه على علمه وقوة امانته، فعند ذلك اطلعوه على ما فى نفوسهم من تقدمته ريسا عليهم، وقالو له: انت رجلا عالم عاقل ما يتغطا عليك قدر ما دعوناك اليه وانها رتبة جليلة ورياسة منيفة وخدمة عالية شريفة، وانت تقدر عليها بعلمك وكهنوتك وزهدك وسياستك وما هى من الامور التى ياباها مثلك ويمتنع منها، ونسلك قبول سعينا اليك واجابتنا الى ما عولنا فيه عليك على

وقد أنعم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل الذمة بالألقاب تكريما لهم، ودلالة على مكانتهم فى الدولة . فابن كلس الوزير لقب «بالوزير الأجل» [1]، ولقب عيسى بن نسطورس «بسيدنا الأجل» [2]، أما ابن عبدون فقد منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لقب «الكافى» [3]، كما انعم على زرعة بن عيسى ابن نسطورس بلقب «الشافى» [4]، ولقب أخوه صاعد بن عيسى ابن نسطورس «بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذو الجدين» [5]. أما المستنصر بالله الفاطمى فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الأصل لقب «الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين» [6]، كما منح أبو على الحسن بن أبى سعد ابن ابراهيم بن سهل التسترى لقب «العميد علم الكفاة» ، وخوطب أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصرانى الأصل ـ فى خلافة المستنصر ـ بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف الكناة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين» [7].

(١) المقريزى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٥.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٤٤.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٦.
(٤) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٥) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٥٠.
(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩١.
(٧) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٣، ٢٦٦.

الشـروط التى نذكرها لك ونعرف وجـوبهـا على قـدسك . ثم ضـربو له المطانوه وقـالو له: نريد ان تقبل منا هذه المطانوه وتجيبنا الى ما سالناك فيه بطيبة قلبك بلا عنف ولا تحوجنا ان ناخذك غصباً ولا كرهاً فان ذلك مما لا يليق بك . فاجابهم الى ما ارادو وقال لهم: ماهي الشروط التى تشترطوها؟. قالو : تكتب لنا بخطك قبل كل شي بامانتك على القضيـة التي اتفقنا عليها وسمعناها منك، قال:

. القيود الاجتماعية التى فرضت على المصريين من أهل الذمة:

التزم أهل الذمة في الدولة الاسلامية من الناحية الشرعية بعدة قيود تتعلق بالمظهر الاجتماعي، وتشكل جانبا مما اصطلح على تسميته «بالعهد العمرى» أبو «الشروط العمرية» المنسوبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب.

وتمثلت تلك القيود الاجتماعية في الزام أهل الذمة بلبس الغيار فان كان يهوديا وضع على كتفه خيطا أحمر أو أصفر، وان كان نصرانيا شد في وسطه زنارا وعلق في عنقه صليبا، وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود، واذا دخل الذمي الحمام ينبغي أن يكون في عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تميزا له من المسلم [١].

(١) الشيزرى: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٠٦.
وروى أن نصارى الشام شرطوا على أنفسهم في كتابهم الى عمربن الخطاب أن لا يتشبهوا بالمسلمين في شئ من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا. وأن يشدوا الزنار على أوساطهم. ويرى أصحاب الامام الشافعي أن أهل الذمة يلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس تميزهم عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنار على أوساطهم. ويكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم أو الطيلسانات. وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الأزار. وقيل فوق الازار، وهو الأولى، ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض (الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف، جـ١، ص ١١٠ ـ ١١٢).

نعم. قالو له : وتذكر فيه التزامك بالقيام بما لكهنة اسكندرية ما جرت به عادة من تقدمك فى هذا الكرسي بالقيام لهم به فى كل سنة ليصرفوه فى عمارة البيع التى بها. وفى القرابين المرفوعة على هياكلها وفيما يلزم ضعفاهم من جالية وغيرها، قال: نعم، وان قدرت على اكثر مما جرت به عادة من كان قبلى قمت لهم به فان الحظ والجمال لى فى ذلك. قالو له : وتذكر فيه انك لا تاخذ

كما اشترط على أهل الذمة ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، وألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وألا يتجاهروا بشرب الخمر واظهار الصلبان والخنازير، وأن يخفوا دفن موتاهم وألا يجاهروا بالندب عليهم ولا نياحة وان يمنعوا من ركوب الخيل[١].

تلك هي بعض الشروط التى وردت «بالعهد العمرى» أو «الشروط العمرية» التى تنظم تصرفات أهل ا لذمة فى المجتمع الاسلامي. ويرى البعض أن تلك الشروط المشار اليها والتى عرفت باسم «الشروط المستحبة» انما هى من وضع الفقهاء فى مرحلة متأخرة، مغالاة منهم فى فرض القيود على أهل الذمة الذين لم تفرض عليهم هذه الشروط فى عهد النبى[٢].

وفى بداية العصر الفاطمى الأول لم يلجأ الخليفتان المعز لدين الله وولده العزيز بالله الى فرض أية قيود على أهل الذمة وبخاصة فيما يتعلق بالملابس، الركوبات، والحمامات، واستخدام المسلمين لدى أهل الذمة، فالتسامح كان أساسا لسياستهما تجاه أهل الذمة...

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٢٠، ٢١ (نقلا عن ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة. جـ١، ص ٢٣٦).

(٢) قاسم عبده : المرجع السابق، ص ٢١.

شرطونية من احد ممن تصيره فى درجة الاسقفية
ولا غيرها من ساير طقوس الكهنوت لان القوانين
المقدسة تمنع ذلك وتامر بقطع من ياخذه، فان
الذى ياخذ والذى يدفع كلاهما محرومين
مقطوعين، وترد ايضاً على اساقفة الكراسى ما
اغتصبه من كان قبلك من كنايسهم ودياراتهم
وشاركهم فى كراسيهم، لانك تعلم ان البطرك انما
هو اسقف اسكندرية وله التقدمة على اساقفة

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من توليه الخلافة أصدر عددا من المراسيم والسجلات التي نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة ـ باستثناء الخيابرة ـ [١]، وتلزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات عرفت بالغيار، وذلك تنفيذا لما اصطلح على تسميته «بالشروط العمرية» ولكن الحاكم بأمر الله بالغ فى هذه الشروط وزاد عليها، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم إلى تطبيق هذه الشروط وزيادته عليها امتحانا لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه فى عهود الاضطهاد السابقة [٢]. ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخذهم بالشدة فى تطبيقها بالدرجة التى فاقت احتمال الكثيرين منهم [٣].

ففى النصف الأول من شهر المحرم سنة ٣٩٥هـ أصدر الحاكم بأمر الله سجلا ألزم النصارى. واليهود ـ دون الخيابرة ـ بشدة الزنانير فى أوساطهم، ووضع العمائم السود على

(١) وهم يهود يرجع اصلهم إلى خيبر وما جاورها ، الذين أمر عمر بن الخطاب بنقلهم من شبه الجزيرة العربية الى مصر، وذلك جريا على السنة الأولى منذ أيام النبى (ماجد: الحاكم بأمر الله، ص ٩٦).

(٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٣٥٤.

(٣) الأنبا ميخايل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٩.

كراسى مصر لا مشاركتهم في كراسيهم، وكما
انه لا يجوز لمن له زوجة ان يشاركه اخر في زوجته
كذلك لا يجوز لا سقف ان يشارك اسقف اخر في
كرسيه الذى هو عروسته، وترد عليهم ما كان من
تقدمك اخذه من كراسيهم واغتصبه على سبيل
الشره وطلب المجد الفارغ والزخرفة الدنيانية التى لا
يرضاها الله ولا الناس ولا تليق برويسا الاساقفة.
قال لهم: وما هي البيع والديارات التى اخذها

رؤوسهم ـ اذ كان السواد هو شعار العباسين وهم العصاة في نظر الفاطميين ـ وأعلن هذا السجل في جوامع مصر، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل الذمة في انحاء الدولة[1].

وفي سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦م اشتدت القيود صرامة، ففى هذا العام أمر النصارى، واليهود ـ دون الخيابرة ـ بلبس السواد، وأن يحمل النصارى الصلبان في أعناقهم ، وأن يحمل اليهود في أعناقهم قرامى الخشب والجلاجل [2].

وفي العام التالى أخذ الحاكم بأمر الله أهل الذمة بالشدة فيما يتعلق بالغيار، واشترط على من يقيم في دولته منهم في مصر أن يلتزم بما شرط عليهم من الشروط التى زاد فيها على الشروط العمرية، فشرط على النصارى تعليق الصلبان ظاهرة، وعلى اليهود قرامى الخشب على هيئة رأس العجل. فاتخذ النصارى صلبان الذهب والفضة، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر المحتسبين أن يأخذوا النصارى بتعليق صلبان الخشب واليهود بتعليق القرامى، كما أمر بالنداء في أهل الذمة بأنه من أراد الدخول في الاسلام فله ذلك، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الروم

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٨٧.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٥٣.
(٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦ ، ورقة ٥٣.

البطاركة من كراسي الاساقفة؟، قالو: الماخوذ من كرسى مصر كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع وكنيسة ابو مرقوره بساحل الشعير(*) وكنيسة السيدة ايضاً بحارة الروم وهاتين الكنيستين اعنى ابو مرقوره والسيدة بالقاهرة اخذهما اخر سطودلوس بعد وفاة فيلاثاوس اسقف مصر وجعل لابا غبريال الذى صار بعده اسقفاً رسوماً ياخذها منها فى كل سنة، وقداسات معلومة يقدسها فيها

(*) كنيسة ابو مرقوره: كانت على شاطئ النيل قبل ان يغير مجراه الحالى. وهى الآن على بعد ٦٠٠م تقريباً من شاطئ النيل فى مصر عتيقة قرب الكنيسة المعلقة. أما ساحل الشعير فهو ميناء القاهرة الجنوبى قرب مصر عتيقة حيث كان يستقبل الحبوب والغلال القادمة للعاصمة من الصعيد.

كان آمنا إلى ان يخرج، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة الى الدخول فى الاسلام [١].

كما نودى فى سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م بأن لا يمشى اليهود والنصارى الا بالغيار والاضربوا على ذلك. ويذكر المقريزى أنه فى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م اشتد الأمر على أهل الذمة فى الزامهم لبس الغيار [٢]. وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة الزامهم لبس الغيار [٢]. وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة من النصارى واليهود بتغيير الزنانير الملونة التى يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الألوان مع وضع العمائم السود على رؤوسهم [٣].

وفى سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م أمر النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ بلبس العمائم السود، وأن تحمل النصارى فى أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال،

(١) ابن العبرى : المصدر السابق، ص ٢١٣.
ـ ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٧، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٦، ٨١.
(٣) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٠.
ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٥.

في كل وقت وهي ثابتة في منظرة كرسي مصر، ومن كرسي وسيم والجيزة كنيسة ميكاييل بجزيرة مصر المعروفة بالمختاره، ومن كرسي طموه دير الشمع ودير الفخار وهو ايضاً على اسم الشهيد ابو مرقوره وغير ذلك مما المنظرة المخلدة في القلاية البطركية شاهد به وتاريخ اخذه من الكراسي الذى هو من حقوقهم. فاجابهم الى جميع ذلك وقال لهم: كلما التمستوه وشرطوه واجب وهو حق

وأن تحمل اليهود في أعناقهم عند خروجهم الى الأسواق قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى (1).

ويذكر ابن اياس أن الخليفة الحاكم بأمر الله ألزم النصارى أن تكون الصلبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المآزر الفسيحة، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه(2).

وجدد الحاكم بأمر الله هذا المرسوم في سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، فأمر أن تلبس النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ طيالسة سود، وعمائم شديدة السواد وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبان الخشب مضافا إلى الزنار في أوساطهم، فلبسوا صلبانا طولها فتر، ثم أمر بعد شهر وجعلها قدر شبر في شبر. فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر النصارى بتعظيم الصلبان التى في رقابهم، وأن يكون طولها ذراع في عرض مثله، وفتحها

(1) القضاعي : المصدر السابق، ورقة ١٨٠.
ـ ابن خلكان : المصدر السابق، جـ٤ ، ص ٣٨٠.
ـ العيني : المصدر السابق، جـ١٩ ، ورقة ٦٧٨.
(2) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١ ، ص ٥٢، ٥٣.

وصدق . وكتب لهم خطه بجميعه واحرم فيه من الاساقفة. وكهنة اسكندرانيين الذين طلعو الى صومعته والذين كانو اسفل والتمسو ان ينزل معهم، فقال لهم: ما انزل الا بعد ان تلبسونى الثوب وتصلو على ان كان هذا الامر قد اتفقتو عليه كلكم . فالبسوه الثوب واوسموه بطركاً ونزل معهم وسارو به الى اسكندرية وكرزوه فى اليوم الثانى عشر من بابه سنة ثمان ماية وتسعة للشهد

ثلثى شبر وسمكها أصبع [١]، غير أن الأنبا ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعا ونصفا على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة، وأن يعلقوه فى رقابهم بحبال من ليف [٢]. كما نودى على اليهود بأن يعلقوا فى رقابهم قرامى الخشب على هينة رأس عجل زنة كل منها خمسة أرطال تعلق فى رقابهم بحبال من ليف وتختم بخاتم من رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم[٣]، وعلى أن تكون هذه الصلبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذمة عند خروجهم إلى الأسواق بحيث يراها الناس[٤] وأذن للناس فى البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم [٥]، مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت مخاوفهم، وخلت الطرقات أياما لم ير فيها نصرانى [٦]، واذا وجد واحد من أهل الذمة عليه صليب أو قرمة بغير ختم كان يتعرض للاهانة والغرامة، مما أدى الى أن ضاق أهل الذمة ذرعا بتلك

(١) الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) الأنبا ميخائيل، المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٦.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، ص ٥٦.
ـ الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٣.
(٤) المقريزى: الخطط: جـ٢، ص ٢٨٧.
(٥) عنان : المرجع السابق، ص ١٣٩.
(٦) الانطاكى :المصدر السابق، ص ٢٠٤.

وهى سنة اثنين وثمانين واربع مايه الخراجية، وسار منها الى دير ابو مقار بوادى هبيب وكرزوه فى كنيسة المعلقة بمصر، فلما اقام بها ايام التمس منه انبا سنهوت ان يفى له ما كتب به خطه من اعادة كنايسه المقدم ذكرها اليه فلم يفعل، وجرى بينه وبينه من الخصايم ما يطول شرحه، وانكر الخط وقال: ان ما هو خطه. واحرم من يشهد عليه بما فيه ولم يرد على احد من الاساقفة كنيسة ولادير،

القيود التى فرضت على الملابس. ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة تنيس ذاقوا الأمرين من تلك القيود، ومن مضايقات المسلمين لهم، فاذا نسى نصرانى منهم صليبه ومشى فى طرقات المدينة بلا صليب تعرض للأذى ولقى كثيرا من الاهانة والسخرية [1].

غير أنه قد زاد من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله لرعاياه من أهل الذمة فى صفر سنة ٤٠٤هـ بالانتقال إلى بلاد الروم أو النوبة أو الحبشة، أو التزام الغيار اذا رغبوا فى البقاء [2]، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود وصرامتها الى نزع الغيار والصليب والزنار والتشبه بالمسلمين، والتظاهر بالاسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الاسلام [3].

كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التى أصدرها بشأن أهل الذمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات..

ففى سنة ٣٩٨هـ و٣٩٩هـ/١٠٠٧م و١٠٠٨م، أمر الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل الذمة

---

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٧ ـ ٥٩.
(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٧.
(٣) الأنبا مخائيل: المصدر السابق ، جـ٣، و رقة ٥٧.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ويذكر المقريزى تاريخ هذا المرسوم فى ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ.

وكان الخط الذى قيل انه كتبه على عدة نسخ منها ما كان بيده، ومنها ما كان بيد كهنة اسكندرية، ومنها ما كان عند انبا يوحنا اسقف سخا لانه اكبر الاساقفة، ومنها ما كان عند انبا سنهوت اسقف مصر، فلما جرى منه ما تقدم ذكره انفذ الى كهنة اسكندرية خطه بما يلزمه لهم خاصة من الرسم الذى يقبضوه فى كل سنة، وطالبهم باعادة النسخة التى فيها تلك الشروط،

عند دخولهم الحمامات بعلامات تميزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصليب يعلقونه فى رقابهم، وأن يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب، كما نودى ألا يدخل أحد الحمام الابمئزر، وأخذوا بالشدة والضرب فى تنفيذ تلك الأوامر، كما كبست الحمامات للتأكد من مراعاة ما جاء بتلك السجلات . غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة، ولم يعد أهل الذمة يكترثون بتنفيذ [1].

وفى المرسوم الذى أصدره الحاكم سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م أكد ما سبق أن أصدره من أوامر بشأن الحمامات، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصارى من حمامات المسلمين. وأمر ألا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة - كذلك الحمام الذى أنشأه ابن أبى الدم اليهودى كاتب الانشاء فى عهد الحاكم - ووضع على حمامات النصارى الصلبان الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامى الخشب، كعلامات مميزة تعرف بها، مع التزامهم بتعليق الصلبان والقرامى الخشب فى رقابهم عند دخولهم

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٩٥.
- ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٦.

وتواعـدهم الحـروم والمنع ان لم يعـيـدوها اليـه، فانفذوها له. واوعد اسقف سخا بمثل ذلك فاعاد اليه النسـخة التى كانت مودعة عنده خوفا منه، لانه لما تمكن من الامـر واسـتـقـرت اقـدامـه فى البطركية ظهر من سطوته وهيبته وسلطته ما صار له فى قلوب الاساقفة وغيرهم من الخوف والرهبة مثلما كان للاب اخر سطودلوس نيح الله نفسه، ولم يكن احـد من الاسـاقـفـة ولا الاراخنة يقـدر

الحمامات [1]. وتأكد ذلك مرة أخرى فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م، كما تكررت تلك القيود فى المرسوم الصادر من دار الخلافة فى شهر المحرم من السنة التالية[2].

أما فيما يتعلق بالركوبات، فانه طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك، كما نعموا بحرية استعمالها فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله، فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بأعيادهم [3]، واهتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناء الخيول والبغال، وكانت لهم الاصطبلات المعدة لتربيتها. ويذكر المقريزى أن فهد ابن ابراهيم النصرانى كان يمتلك العشرات من الخيول والبغال، وأنه حمل الى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بغلة ملونة الأجلال، وعشرون فرسا منها عشرة مطهمة باللجم والسروج المحلاة، وعشرة خيول تكسوها أجلال ملونة فاخرة. كما أن الحاكم بأمر الله صرح لأولاد فهد فى شعبان سنة ٣٩٢هـ باسترداد ما أخذ منهم من سروجهم المحلاة

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥.
ـ ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٨٠.
ـ النويرى : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ١٠٠.
(٣) ـــــ الخطط، جـ١، ص ٦٨.

يقاومه فى خطاب ولا يرادده، واذل الاساقفة واهانهم حتى صارو له مثل ارض يطاها، والتمس من انبا سنهوت ان يعيد له الخط الذى عنده فلم يفعل وقال: انت قد انكرته وقلت ان ما هو خطك فما حاجتك به حتى تطلبه. فوعده وتواعده ولطف به وتهدده فلم يصغى اليه ولا دفعه له، فمنعه من التصرف فى كنايسه ومن القداس فلم يهمه ذلك، فانفذ الى كهنة جميع الكنايس بالقاهرة ومصر

بالذهب، وأمرهم بالركوب [١]، وعندما خلع الحاكم بأمر الله فى ربيع الأول سنة ٣٩٤هـ على أبي يعقوب ابن نسطاس الطبيب، حمله على بغلين ومعه الثياب الفاخرة، ولما توفى ابن نسطاس استطب الحاكم بأمر الله صقر اليهودى (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) وخلع عليه فى سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م، وحمله على بغلة محلاوة بالسرج واللجام الفخمة، وأهداه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال [٢].

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التى أصدرها لفرض القيود على أهل الذمة شملت أيضا قيودا على الركوبات ففى سجلاته الصادرة فى سنتى ٤٠٢هـ و٤٠٣هـ / ١٠١١م و١٠١٢م منع أهل الذمة من ركوب الخيل، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والحمير وبسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة، وأن تكون من جلود سود، وألا يركب أحد منهم بركب حديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز، وامر أيضا أن يضرب فى الكنايس بالجرس فى القاهرة ومصر (الفسطاط) وألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذميا، كما منع الملاحين وأصحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحدا من أهل الذمة [٣].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٤٤.
(٢) ـــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٣.
(٣) الأنبا مخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥، ٥٦.
ـ الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.=

وامرهم ان لا يذكرو اسمه فى قداس ولاصلاة فلم ينفعه ذلك فيه. ثم بلغ الاسقف المذكور انه يريد يشخص تلاميذه اليه فيشق عليه ويقطعه بالكلية ولا يجعل فى الكرسى اسقف غيره بالجملة مدة حياته، فلما علم ذلك اختفا منه ومضى الى دير القلمون من اعمال الفيوم،واختفى فيه وبقى كرسى مصر شايل [خالى] واسقفه غايب عنه وكنايسه خاليه منه واحكام اهله واقفة الى ان

كما أن الحاكم بأمر الله أمر فى السجل الذى أصدره فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م بمنع بيع العبيد والاماء لأهل الذمة، ثم جاء فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م ألا يستخدم الذميون مسلما وألا يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة، وقد تتبع آثار المخالفين لأوامره[(١)].

وأمام اقبال نصارى مصر على تربية الخنازير وأكل لحومها، أمر الحاكم بأمر الله بقتل الخنازير التى فى اقليم مصر، فقتلت جميعها، وكانت خنازير كثيرة لاسيما التى كانت فى منطقة البشمور[(٢)].

ولكن ازاء صرامة القيود التى فرضها الحاكم على أهل الذمة، وتشدده فى تنفيذها، فقد جأروا بالشكوى، بل بلغ بهم الأمر أن تشبهوا بالمسلمين وتظاهروا بالاسلام فرارا من قسوة القيود المفروضة عليهم. ثم كان قرار الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤هـ ١٠١٣م بالتصريح لهم

= ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٤.
ـ ـــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(١) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٦.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٥٣، ٩٤.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٢، ورقة ٥٥.

اجتمع الاراخنه ومضو الى انبا ميخاييل البطرك وهو يوميذ مقيم في جوسق كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر وقالو له: امورنا واقفة وبيعنا شايله لغيبة اسقفنا وما نعرف السبب الموجب فى القوانين لما فعلته مع الاسقف من المنع،وهو الان غايب ونحن حاضرين ونريد ان تعرفنا السبب فى منعه، فان ثبت عليه انه قد جنا جناية توجب القوانين عليه فيها ما فعلته معه سلونا عنه وعرفنا انه جنا

- -

المضى الى بلاد الروم أو الحبشة والنوبة دون التعرض لهم [١]، وبهذا القرار وضع أهل الذمة موضع الخيار: أما الالتزام بما فرض عليهم من قيود. أو الاسلام. أو الهجرة [٢] مخالفاً بذلك شريعته الاسلامية و عهود المسلمين الغزاه التى اعطوها للمصريين من قبل وطوال عهود الاحتلال.

وفي خلافة الظاهرة لاعزاز دين الله نعم أهل الذمة بقدر كبير من التسامح فخففوا من الغيار الذى عليهم، واقتصر الأكثرون منهم على لباس الزنار وعمامة سوداء [٣]. كما أن كبار أهل الذمة لم يلتزموا بتلك القيود فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى، اذ يذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم سرور الجلال كان يخرج للقاء الخليفة المستنصر للسلام عليه، وعليه الثياب الفخمة «وعمامة صقلى مشدود الوسط بشملة دبيقى مذهبة»[٤].

(١) ـــــ: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٥٧.
ـ الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٧.
(٢) ماجد: الحاكم بأمر الله ، ص ١٠١.
(٣) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٣٨.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٣٢.

علــى نفــسـه مــا اوجــب منعه ان كـان جــرمـه
مــا له مـغـفـرة ولا اقــاله لجنايتـه، وان لم يثبت
عليــه شــي ولا جنــا جناية توجــب القــوانين
عـليه فيها ما فعلته معه، فما يجوز لك ان تهيننا
وتظلــم اسقـفنا وتبعــده عــنا معـما [مما] تعلمه
مــن طـهارته وحـميد طريقــته وصــحة امانته،
ولا نصــبرعلى هــذا ولا ندخل تحته، وهو ذا نحن
قد جينا اليك فمطانوه لا تحـوجنا نتظلم فيك الى
غيرك. فتمرمر وتنكد وجرت بينهم خطوب يطول

(ب) سياسة الفاطميين الدينية ازاء المصريين من أهل الذمة

. موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجال الكنيسة المسيحية.

تمتع أهل الذمة فى مصر بسياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون فى العصرالفاطمى الأول ـ باستثناء فترة من عصرالحاكم بأمر الله ـ ونعموا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقا من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة.

فالخليفة المعز لدين الله الفاطمى ـ باجماع المصادر النصرانية كان متسامحا فى سياسته الدينية بوجه عام ازاء أهل الذمة، ومع النصارى بوجه خاص، اذ لم يتدخل فى الشئون الداخلية الخاصة بالكنيسة، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها.

فعندما توفى الأنبا مينا البطريرك الحادى والستين للكنيسة القبطية، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦هـ / ٩٦٨م لانتخاب خلف له من بينهم. ووقع أختيارهم على تاجر سورى اسمه ابراهيم بن زرعة ـ الذى اشتهر بتقواه وعلمه ـ ورسموه بطريركا باسم الأنبا ابراهام السوريانى، ليكون البطريرك الثانى والستين للكنيسة القبطية. ولم يعترض الخليفة المعز لدين الله على هذا الاختيار. بل نشأت بينه وبين البطريرك الجديد صداقات طيبة وكان يستدعيه الى مجلسه بقصر الخلاف، ويستقبله باكرام واحترام بالغين، كما كان البطريرك

شرحها الى ان حلله واطلق له التصرف فى كرسيه وكهنوته وانفذ الى كهنة الكنايس ان يذكرو اسمه ويجروه على رسمه، وكتب الاراخنة اليه بذلك مع رسول قاصد وسالوه ان يحضر، فوصل الى مصر وفرحو به الكهنة والاراخنة والشعب ومضو معه الى البطرك انبا ميخاييل حتى سلم عليه وشكروه على اعادة اسقفهم اليهم.

وفى السنة الثانية من جلوس البطرك المذكور

ابرهام محل تقدير واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية، مما كان له الأثر الطيب فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود الذين كانت لهم صلة وثيقة بقصر الخلافة [1].

وكان الخليفة المعز لدين الله يستدعى إلى مجلسه بعض كبار الدين المسيحى واليهودى حيث كانت تجرى بينهم وبين بقية الجالسين من المسلمين مناقشات دينية، وفى هذه المجالس التى كان يعقدها فى قصره تدعمت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء الطوائف الدينية من أهل الذمة، ونشأت صداقات بينه وبينهم دعمتها روح التسامح الدينى التى تحلى بها [2].

أما العزيز بالله الفاطمى فقد شمل أهل الذمة جميعا برعايته وعطفه [3] فضلا عن أنه قلد المناصب العليا فى الدولة لكبار رجال أهل الذمة من اليهود والنصارى دون أن يكره أن يشترط على أحد منهم اعتناق الاسلام، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة، وخاصة المسيحية، فى أحسن حالاتها، اذ كان للعزيز بالله - وكما سبق أن أوضحنا - زوجة

(١) ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣، ص ١٣٣.
(٢) الانبا ميخائيل (أسقف أتريب): السنكسارى، جـ١، ص ١٣٧.
(٣) الخربوطلي: مصر العربية الاسلامية ، ص ١٦٠.

مرض السيد الاجل امير الجيوش وانفلج لكبره سنه
وتولى الامر قبل وفاته السيد الاجل الافضل ولده
فى العشر الاخير من شهر ربيع الاول سنة سبع
وثمانين واربع ماية الموافق لبرموده سنة ثلث
وثمانين واربع ماية الخراجى(*)، وكتب له الامام
المستنصر بالله امير المومنين سجل بتقليده امور
المملكة والنظر فى ساير امور الدولة وقضاياها
وشرايعها واحكامها، واخلع عليه وقرى سجله فى

(*) سنة ٤٨٧هـ = ٤٨٣ خراجية = ٨١٠ قبطية = ١٠٩٤م.

نصرانية على المذهب الملكانى، أنجب منها ابنته المعروفة بست الملك، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير فى قصر الخلافة، فقد كان العزيز بالله يعمل بمشورتهما مما أدى إلى استفحال نفوذ رجال الكنيسة الملكانية واتباع المذهب الملكانية، وأصدر قرارا فى رمضان سنة ٣٧٥هـ بتعيين صهره أريستيس خال ابنته ست الملك بطريركا على بيت المقدس، كما عين صهره الثانى أرسانيوس (أرسانيس) بطريركا للملكانية على القاهرة ومصر. وطبيعى أنه كان للرجلين نفوذهما المؤثر فى دار الخلافة وادارة الدولة، فازدهر حال الكنيسة الملكانية فى عهده،واستبد أهل تلك الطائفة بشئون البلاد، كما عانى النصارى اليعاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هذا النفوذ، فقد حاول أرسانيوس مستغلا قرابته للعزيز بالله الاستيلاء على كنيستى المعلقة والسيدة العذراء بقصر الشمع بالفسطاط، وحدث نزاع خطير بين رؤساء الكنيستين، أنهاه الخليفة العزيز بالله لصالح الملكانيين، بأن أخذت الملكانية كنيسة السيدة العذراء وتسلمها أرسانيوس، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط اليعاقبة [١]، غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيدة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله [٢].

(١) الأنبا ميخائيل: سير البيعة المقدسة، جـ٣، ورقة ٥١.
ـ الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٦٤، ١٦٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٤.
(٢) رؤووف حبيب: كنائس القاهرة القبطية القديمة، ص ٤٤.

اليوم المذكور فى الايوان الكبير بالقصر، وفرح به الخاص والعام واحسن السيرة فى كل الايام فى كل الخواص والعوام، وتنزه عن الظلم وسد ابوابه وعفا اثاره، ولم يرغب فى الاموال الجمة الذى يرى فيها ادنى شبه، ورد على المتظلمين ظلامتهم وانصفهم من خصومهم، وافرج عن رباع كثيرة مثمنة جليلة لاربابها ونصب نفسه لافاضة العدل والجود والفضل، وسلك فى جميع الافعال المرضية

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله لرجال الدين من أهل الذمة بما يسئ اليهم، كما لم يتدخل فى الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعندما خلا كرسى بطريركية الروم الملكانية بالاسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م وظل المنصب شاغرا الى أن اجتمع قساوسة وأساقفة الكنيسة الملكانية بمصر ورسموا فى ذى الحجة سنة ٤١١هـ الأنبا جورجيوس ـ أحد رهبان دير طور سيناء ـ بطريركا لهم، وباركت ست الملك ـ ذات النفوذ القوى فى قصر الخلافة ـ هذا الاختيار، وأرسلت الى البطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الديباج والمصاحف والتحف الفضية الثمينة التى كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك السابق [١].

كما أنه بعد وفاة الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية، طمع بعض كبار رجال الكنيسة فى اعتلاء كرسى البطريركية، وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الدينى الرفيع عن طريق تدخل الدولة ومساعدتها، الا أن الوزير على بن أحمد الجرجرائى (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، الذى كان يسيطر على أمور الدولة، والذى كان يحب النصارى ويعطف عليهم، رفض التدخل فى اختيار بطريرك اليعاقبة الجديد ـ كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة

(١) الانطاكى: مصدر سابق ص ٢٣٧.

والطرايق الحميدة الجميلة ما لم يسبقه اليه من كان
قبله من الملوك السالفة ولا الاكاسرة الماضيين.

ومن بعد تسعة شهور من جلوسه للنظر فى المملكة توفى الخليفة معد ابو تميم المستنصر بالله امير المومنين فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين واربع ماية الهلالية وهو الثانى من طوبه سنة اربع وثمانين واربع ماية

آلاف دينار التى كان يدفعها البطريرك الجديد رسما الى بيت المال ـ كرامة للنصارى ـ، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسير اجراءات انتخاب البطريرك الجديد فى نزاهة وحيدة تامتين وفقا لما هو متبع فى هذا الشأن. ولقد تم اختيار الأنبا شنوده البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢١هـ، بدون أدنى تدخل من دار الخلافة(١).

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هى السمة الغالبة فى السنوات الأولى من عهد المستنصر باله، الى أن كانت وزارة اليازورى.

ففى أثناء وزارته ساءت العلاقات بينهما، حينما اتهم البطريرك خريستودولوس البطريرك السادس والستين بتحريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله، فألقى القبض على البطريرك ورحل الى القاهرة مع الزامه بدفع غرامة مالية كبيرة. غير أن «عبد الدولة» متولى منطقة مصر السفلى توسط لدى اليازورى للافراج عن البطريرك، وأخذ منه تصريحا باطلاق سراحه فى الحال (٢).

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦٣.
(٢) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٣٨.

الخراجية وعمره يوميذ سبعة وستين سنة واربعة اشهر ويومين.

وكان فى حال مرضه قد أوصا اخته السيدة الشريفة والسيد الاجل الافضل فى تلك الليلة بان يكون ابنه الصغير ابو القسم احمد يجلس فى المملكة عوضه، فلما توفى ركب السيد الاجل

ومرة أخرى تعكر صفو العلاقة بين الدولة والكنيسة القبطية، عندما ترامى الى مسامع اليازورى ـ عن طريق دسائس أبى الحسين الصيرفى الذى كان قاضيا بالاسكندرية ـ أن الأنبا خريستودولوس قد اتخذ من بلدة «دمرو» مقرا له، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة قسطنطينية ثانية، وأن البطريرك شيد فيها قصرا رائعا لنفسه، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والأبهة، وبجانب كثرة الكنائس التى استحدثها وجدد عمارتها فى القرى المحيطة بها، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب للاسلام والمسلمين. فما كان من اليازورى الا أن أرسل من رجاله من يتقصى الحقيقة، ثم فرض على البطريرك والأساقفة غرامات مالية فادحة، طولبوا بسرعة سدادها، فاضطر البطريرك الى طلب المساعدة المالية من ملك النوبة الذى استجاب لمساعدته[1].

القيود التى فرضت على دور العبادة لأهل الذمة

الكنائس المسيحية:

يرى السير توماس أرنولد فى كتابه «الدعوة الى الاسلام» فى معرض حديثه عن سياسة التسامح الدينى التى نعم بها أهل الذمة فى مصر فى عصر الفاطميين أن «السلطة المدينة

(١) الأنبا مخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٩، ٨٠.

الافـضل فى تلك الليلة من ساعتـه إلى القـصـر
والبس الولد المذكور ثياب الخلافـة والجوهر بين
عينيه وجلس فى مقعد ابوه ولقب بالمستعلى بالله
اميـر المومنين وعمـره يوميـذ سبـعة عـشر سنة،
وانفذت السيـدة الشريفة عمته الى اولاد اخوها
الكبـار وهم نزار وعبـد الله واسمعيل واعلمتـهم
بوفاة ابوهم، فلما حضرو وابصرو اخوهم الصغير
جالس بزى الخلافة امتغصو [امتعضوا] وتنكرو من

أباحت للقبط أن ينوا كنائس في القاهرة ـ العاصمة الجديدة ـ كما سمح للمسيحين أن يؤسسوا فى بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة»[1]. هذا فضلا عن السماح لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة.

فتحت مظلة التسامح الدينى، انتهز البطريرك ابرهام السوريانى ـ البطريرك الثانى والستون للكنيسة القبطية ـ صداقته الوطيدة بالخليفة المعز لدين الله، والتمس منه تجديده عمارة كنيسة القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين بالفسطاط، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فأذن له المعز ببناء الكنيستين، كما قام البطريرك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالاسكندرية وسائر أنحاء مصر. ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم المتعصبين على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرهم بحجة أن هذا مخالف للإسلام، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحماية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون فى البناء حتى يستكملوا ما بدأوه.

غير أن بعض الكنائس تعرضت فى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م للتدمير على يد عامة المسلمين

(١) أرنولد: الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٨٤.

ذلك، فقال لهم السيد الافضل: قبلو الارض لمولانا المستعلى بالله امير المومنين وبايعوه فهو الذى اوصا مولانا المستنصر بالله به قبل وفاته انه الخليفة من بعده. فامتنعو من مبايعته وقال كل واحد منهم: ان والده اوعده بانه الخليفة من بعده، ثم قال نزار، وهو الاكبر: والله لو قطعت راسى ما بايعت بالخلافة لمن هو اصغر منى ولا رضيت تقدمته على لان مولانا قال لى دفعات كثيرة انى الخليفة من

بتحريض اصحاب النفوذ من المسلمين وكذلك المشايخ المتمسحين بالدين، بعاصمة الخلافة، ففى هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك، اذا بقطع الاسطول الفاطمى الراسية فى ميناء المقس تتعرض لحريق مدمر، أتى على معظمها، فاتهمت الرعية المتعصبة تجار الروم الواردين بالبضائع الى مصر، فقتلوا منهم حوالى مائة وستين، ثم انتهزت هذه الفوضى المغاربة الفاطمين بمصر وبعض العامة المسلمين تحت التحريض الدينى وهاجمت كنيسة القديس ميخائيل التى للملكانية بقصر الشمع كما نهبت كنيسة النسطورية. الا أن العزيز أنزل العقاب الصارم بالمسلمين الذين اشتركوا فى قتل الروم ونهب الكنائس، وأمر برد ما أخذ من ممتلكات الكنائس اليها (١).

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفتين المعز والعزيز قد صرحا بترميم الكنائس، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية فيما يتعلق بالكنائس، الا أنهما صرحا أيضا باقامة وبناء الكنائس الجديدة بالقاهرة وبالأقاليم، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمرية التى حرمت بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة، فخالفا بذلك ما اتفق عليه المسلمين.

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارما فى تنفيذ ما جاء بالشروط العمرية فيما يتعلق

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٧٨، ١٧٩.

بعده وان معى خطه بهذا وهو ذا انا احضره اليكم الساعة، وخرج مسرعا على انه ياتيهم بالخط. فلما صار فى داره ركب فى ساعته واخذ معه من حضر فى تلك الساعة من غلمانه وسار فى الليل، فبلغ السيد الافضل الخبر فانفذ ليث الدولة صاحب الباب ومعه جماعة كبيرة من الفرسان ليقبضو عليه ويعيدوه، فسارو فى اثره فلم يلحقوه ولا عرفو اى طريق اخذ، ولما عرف السيد الاجل الافضل

بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة، بل زاد عليها، فأمر بهدم الكثير من الكنائس فى فترة سياسته المتشددة ازاء أهل الذمة.

ففى سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين النصارى فيما يتعلق بتجديد الكنائس. ففى تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصرانى ـ اليعقوبى المذهب ـ فى تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر الفسطاط، فى الموضع الذى عرف بعد ذلك براشدة، مما أثار غضب عامة المسلمين. ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم عامة المسلمين ما بنى منها، وأمر الحاكم بأمر الله بأن ينشأ مكانها مسجد جامع عرف بجامع راشدة، وبدئ فى عمارته فى ربيع الآخر سنة ٣٩٣هـ، ولما رأى توسعة الجامع أزيلت مقابر اليهود والنصارى التى كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه [١]. كما هدمت فى سنة ٣٩٤هـ /١٠٠٣م كنيستان كانتا بجوار الجامع [٢] احداهما لليعاقبة والأخرى للنسطورية، وبنى الحاكم بأمر الله فى موضعهما مسجدين للمسلمين. وشمل الهدم أيضا كنيستان للملكانية كانتا بحارة الروم بالقاهرة [٣].

(١) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٣.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٤٨.
Stern : Op. cit., p. 15 - 17.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٦.

بخروج نزار قبض على اخوته عبد الله واسمعيل وجعل مع كل واحد منهم عشرة يحفظوه، فلما اصبحو بالغداة جلس مولانا المستعلى بالله على سرير الملك فى الايوان الكبير والسيد الافضل بين يديه وحضر القاضى على ابن رافع ابن الكحال، الملقب بالمويد ثقة الامام فخر الحكام، وشهود القاهرة ومصر واخذو البيعة له على مقدمى الدولة وريسايها، ومضى صاحب الرسالة الى عبد الله

وفى رجب سنة ٣٩٧هـ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ماهو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله فى الديوان، وكتب الى سائر الأعمال بذلك ، كما أحرق العديد، من الصلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط [١] ثم تلاه مرسوم آخر فى رجب سنة ٣٩٨هـ بمصادرة أوقاف الكنائس الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من أقاليم الدولة وجعلها باسمه فى الديوان [٢].

ثم كان أخطر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس، وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة الى أواخر عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م [٣]، الا أن الرواية النصرانية المعاصرة تحدد سنة ٧٢٧ للشهداء وهى توافق سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م تاريخا لهذا السجل الخطير [٤].

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ٢٦٣، ٢٨٦.
(٢) الأنطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٣) القلانسى: (الذيل، ص ٦٦)، ابن الجوزى (المنتظم، جـ٧، ص ٢٣٩). سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ٣٠٤)، المقريزى (اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥) العينى (عقد الجمان جـ١٩، ورقة٥٤٤).
عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٦).
(٤) الأنبا ميخايل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦٠.
- الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٩٦.

واسمعيل وهما في المسجد الذى فى القصر ومعهما المترسمين وقال لهما: قد حضر القاضى والشهود واخذو البيعة على جميع رجال الدولة ومولانا يرد عليكما السلام ويقول لكما انتما تحضر تبايعانى ام لا. فقالا: السمع والطاعة نبايعه لان الله اختاره دوننا لهذا الامر وما نعاند نحن امر الله. ثم نهضا معه فلما صارا بين يدى مولانا المستعلى بالله

ولقد ألقت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التى دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله الى اتخاذ هذا القرار، ويروى الأنبا ميخائيل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأنبا زخاريا بطريرك اليعاقبة أمر باغلاق الكنائس أولا، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحبسه، كما سبق أن أوضحنا.. وفى ثانى يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصرانى النسطورى المعروف بابن شترين، بأن يكتب الى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس، وجاء فى السجل «خرج أمر الامامة اليك، فاهدم قمامة، فاجعل سمائها أرضا، وطولها عرضا» [1]، فقام والى الرملة (فلسطين) بارسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما فى الكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة، واحتاطوا على كل محتوياتها، كما هدمت مبانى الكنيسة الا ما تعذر هدمه، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين وكل ملحقاتها، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول، كما هدم دير السرى وكان خاصا بالراهبات، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها ، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذخائر ، ويؤرخ الأنطاكى الخامس من صفر سنة ٤٠٠هـ تاريخا لابتداء هدم الكنيسة [2].

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٦.
(٢) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٩٦.

قبلا الارض وسلما عليه بالخلافة وبايعاه واستوفا القاضى عليهما ايمان البيع.

ثم اخرج التابوت من باب الملك وفيه المستنصر بالله، واولاده جميعهم يمشو حوله حفاة وصلى عليه ابنه المستعلى بالله ودفن فى التربه بالقصر..

وبعد ايام ظهر ان نزار مضى الى مدينة اسكندرية واجتمع بواليها نصرالدولة افيكين احد

أما معظم المصادر الاسلامية، فقد تعرضت هى الأخرى لهذا الحادث الخطير، وأسباب حدوثه. وتؤرخ له بعام ٣٩٨هـ، وتذكر أنه فى هذا العام خرج النصارى على عادتهم فى كل عام الى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح، فاستدعى الخليفة الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضدى أحد قواده، وسأله عن أمر كنيسة القيامة لمعرفته بها، وما يحدث فى هذا العيد هناك، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى، ويحج اليها من جميع البلاد، ويأتى اليها الملوك وحكام الدول المسيحية حاملين اليها النذور والأموال الكثيرة والثياب الديباج والستور والفروش والقناديل والشموع والصلبان، وأوانى الذهب والفضة والتحف النادرة، فاذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضواء الباهرة، وعلقت القناديل المضيئة والمملوءة بدهن البلسان فى المذبح، وقد اجتمع النصارى لاقامة الصلوات والشعائر الدينية، فى مواكب دينية صاخبة، ورفعوا أصواتهم يرددون الأدعية والابتهالات، حاملين المباخر والصلبان الضخمة، وقد علق خدم الكنيسة بها القناديل المملوءة بدهن البلسان مع دهن الزيبق، فتنبعث منها الأضواء الساطعة التى تخطف البصر، وبطريقة تخيل للناظرين اليها أنها نزلت من السماء، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم. فأنكر الحاكم بأمر الله ذلك، وتقدم الى أبى المنصور بشر بن سورى كاتب الانشاء بأن يكتب رسالة الى الداعى أحمد بن يعقوب بأن يقصد بيت المقدس ، ومعه والى

غلمان امير الجيوش وقرر معه ان يقوم فى نصرته وحلف له انه يجعله مدبر المملكة والناظر فيها عوض السيد الاجل الافضل، فاجابه الى ذلك وتحالفا وتعاقدا.

فلما كان فى اول المحرم سنة ثمان وثمانين واربع ماية ركب مولانا المستعلى فى القاهرة بالمظلة والزى الحسن والتجمل الكثير الذى ما ربى مثله، وركب نزار فى اسكندرية بالمظلة ايضاً ولقب

الرملة، فيهدم كنيسة القيامة، ويأخذ محتوياتها، ويبيح لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها (١). فقام والى الرملة ومعه الأشراف والقضاء والشهود ووجوه المسلمين، وقصدوا كنيسة القيامة. الا أن نصارى مصر عندما علموا بصدور مرسوم الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم الكنيسة سارعوا باحاطة بطريرك بيت المقدس علما بمضمون السجل، فأخفى البطريرك كثيرا مما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول أصحاب الحاكم بأمر الله الذين أحاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئا عظيما، فتمت مصادرته، كما هدموا مبانى الكنيسة، و«قلعت حجرا حجرا» . وتعرضت للنهب والتخريب (٢).

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحى، وارتفعت الأصوات فى أنحائه تطالب بحماية القبر المقدس، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة (٣) فكان هذا من الاسباب التى قوت من دوافع الحروب الصليبية بعد ذلك وما تعرضت له شعوب بلاد الشام ومصر من دمار بسبب هذه الحروب.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥.
(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق، ص ٦٧.
ـ على أن المقريزى يذكر أنه فى صفر سنة ٤٠٠هـ كتب من انشاء ابن سورى لهدم قمامة المقدس (اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١).
(٣) عنان: الحاكم بأمر الله ص ١٣٨.

بالمصطفى لدين الله، فلما علم السيد الأفضل بذلك جمع الجيوش والعساكر وسار إلى اسكندرية وحاصرها ونصب عليها القتال وجاهد فى قتال من فيها بنفسه وماله ولقى فى ذلك مشقة عظيمة ومصاعب شديدة واخرج من خزانته اموال كثيرة وكساوى وخلع وسلاح كثير وعدة والات [آلات]، ولم يزال القتال بينهم متصل من صفر سنة ثمان وثمانين واربع ماية الى ذو القعدة منها،

- -

ولقد اتبع الحاكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضى بهدم جميع الكنائس والبيع فى جميع أقاليم الدولة، الا انه أمسك عن هدم كثير منها خوفا من أن تقوم شعوب العالم المسيحى بهدم ما فى بلادها من مساجد المسلمين [١].

الا أنه فى تاسع عشر ذى الحجة سنة ٣٩٩هـ أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التى فى طريق المقس، وكذلك كنائس حارة الروم، ونهب جميع ما فيها [٢] وفى السنة التالية أمر بهدم كنيسة العجوز بدمياط، وكانت واحدة من أعظم كنائس الملكانية بمصر، فشرع فى هدمها يوم الجمعة فى الثانى عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ. كما نبشت مدافن بالكنيسة كانت لنصارى دمياط من الملكانية وأزيلت معالمها، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب والفضة، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتها وكل ما حبس عليها، وبنى فى موضعها مسجد للمسلمين [٣].

وفى صفر سنة ٤٠٢هـ أمر الحاكم بأمر الله، بألا يضرب بناقوس، والا يظهر صليب بأية

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥.
(٢) النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٦، ورقة ٥٥.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٧.

فلما فرغت الغلات والاحطاب والمواكيل وراى
اهل اسكندرية ومن فيها انهم مغلوبين طلب نصر
الدولة افيكين من مولاه السيد الاجل الافضل
الامان له ولنزار ولاهل البلد فامنهم وفتحو المدينة
له وخرج اليه نزار وافيكين، فامر بمسيرهم الى
القاهرة وامر ان يقيمو بظاهرها الى ان يصل اليها
ويسال مولانا المستعلى بالله فى العفو عنهم، ثم انه
دخل المدينة ورتب احوالها واقام لها والى وقاضى

كنيسة ولا تقع عليه عين، فنزعت الصلبان من الكنائس ومحيت معالمها من ظاهر البيع والكنائس [١].

وفى ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ وقع الأمر بهدم جميع الكنائس فى الديار المصرية [٢]. وأقطع الحاكم ما للكنائس من رباع وأملاك لجماعة من الخدم الصقلبة، ووهب لهم مافى الكنائس من التحف والذخائر وأوانى الذهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل ، كما أقطع كثيرا من الكنائس لكل من التمسها، ولم يرد من سأله شيئا منها [٣] فيما عدا أهل البلاد من المصريين بالطبع. ثم أصدر أوامره الى ولاته بالأقاليم وسائر أعمال الدولة بأن يهدم كل وال ما فى ولايته من كنائس [٤]، فهدم كثير منها، ومحيت معالمها وأزيلت أثارها، وقلعت أساساتها من الأرض، وأخذت أنقاضها، وأنشئ مكان البعض منها عدد من المساجد [٥]. كما

(١) ـــــ: نفس المصدر ، ص ٢٠٣.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦ ، ورقة ٥٧.
(٤) ـــــ: نفس المصدر ، ونفس الورقة.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٩٤.
(٥) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

وقبض على رجل من اهل المدينة كان فى وقت القتال يشتمه فى كل يوم من فوق الحصن، فلما صار قايماً بين يديه امر ان توقع العقوبة عليه الى ان يموت، فلما هيوه للعقوبة قال بعض الحاضرين للسيد الاجل الافضل: يا سيدى احتاط على ماله قبل ان تقتله فان له موجود اكثر من عشرين الف دينار. فلما سمع السيد الاجل الافضل هذا القول امر باطلاقه والافراج عنه وقال له: امضى فقد

تحول بعض هذه الكنائس الى مساجد للمسلمين [1]، ويروى الأنطاكى أنه قد أخرجت عظام الموتى من الكنائس فى عدة بلدان، وأحرقت الكتب الموجودة بها، كما ألزم الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس [2] وذلك زيادة فى النكاية بهم، ويذكر المقريزى أن كنيسة أبى شنودة ـ كبرى الكنائس القبطية بمصر ـ وكنيسة المعلقة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيهما من الأموال والمصاغ وثياب الديباج وغير ذلك من التحف والذخائر وكان شيئا كثيرا [3]. هذا بجانب ما نهب من أموال الكنائس والديارات فى سائر أنحاء الدولة، فباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت اليه أيديهم من تلك الثروات والتحف وتصرفوا فى أحباس وأملاك وعقارات الكنائس بالبيع والشراء [4].

ولقد تتابع هدم الكنائس فى جميع أنحاء الدولة، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها فى منتهى الحزم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات من ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ إلى أواخر

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.

Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

(٢) الانطاكى : المصدر السنق، ص ٢٠٤.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ٩٥.

(٤) ـــــ : الخطط ، جـ٢، ص ٢٨٧، ٤٩٤، ٤٩٥.

وهبتك لمالك ليلا يظنو الناس انى قتلتك رغبة منى
في اخذ مالك، ومثل هذا كثير من افعاله الجميلة
التى لا استطيع احصاها ولا شرحها، ثم انه سار
من اسكندرية الى مصر وركب مولانا المستعلى
للقايه، فلما كان بالغداة جلس فى باب الملك
ودخل اليه السيد الافضل ونزار وافيكين، وفلما
راى مولانا المستعلى بالله نزار اخوه وهو داخل عليه
صاح عليه وانتهره وقال خذوه فوثب اليه صاحب

سنة ٤٠٥هـ. وهدم فى تلك الفترة من الكنائس والأديرة التى بناها الروم حوالى ثلاثين ألف ـ حسب قول المقريزى ـ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره، وأخذ من أوقافها وأملاكها الشئ الكثير (١).

وفى بداية خلافة الظاهر لاعزاز دين الله، سمح للنصارى الملكانيين الذين تؤازرهم ست الملك ـ ببناء الكنائس، الا أن ست الملك ـ التى كان لها نفوذ كبير فى الدولة ـ أخذت الخراج والرسوم التى سبق للحاكم بأمر الله اعفاء أوقاف وأملاك الكنائس منها (٢).

وفى عهد الظاهر أيضا أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس كما استمر النصارى فى تعمير تجديد كنائسهم فى سائر أقاليم الدولة(٣)، «حتى أعيدت لما كانت عليه وأفضل»(٤)، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت اليها فى خلافة الحاكم (٥).

وفى عهد وزارة اليازورى فى الخلافة المستنصرية تعرضت الكنائس لبعض القيود، بسبب الخلاف الذى نشب بين اليازورى والبطريرك خريستودولوس لأنه أنشأ كثيرا من الكنائس

(١) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٩٥.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، ٢٣٨.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، ص ٣٤٣.
(٤) الأنبا ميخايل : سر البيعة المقدسة ، جـ٣، ورقة ٦١.
(٥) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٣٨.

الباب وصاحب الرسالة وجماعة من الاستاذين الصقالبة فقبضو عليه وعلى افيكين، واعتقل نزار في موضع في القصر واعتقل افيكين في موضع في دار مولاه الافضل وضيق عليهما كلاهما الى ان ماتا جميعاً.

وكانت وفاة السيد الاجل امير الجيوش في المحرم سنة ثمان وثمانين واربع ماية قبل مسير ولده السيد الاجل الافضل الى أسكندرية، واستقامت الامور

المستحدثة مما أدى إلى اغلاق الكنائس وهدم ما استجد منها وفرض غرامات مالية على ما استحدث من تلك الكنائس وهكذا أعيد الخراب والدمار مرة أخرى.

على أن حصن الدولة والى الاسكندرية في ذلك الوقت والذى كان يعطف على النصارى، أتى سلوكاً خاصاً به ومنفرداً عن السياق العام للإضطهاد وأرسل خفية الى بعض خواصه من رجال الكنائس بالاسكندرية ليجردوا كنائسهم سرا من الأوانى والحلى وكل ثمين من محتوياتها، قبل أن تصل اليها يد المكلفين بالاستيلاء عليها من قبل السلطة [١].

ولما رفض الروم سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م أن يخطب للخليفة المستنصر بالله بجامع القسطنطينية، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة أملاك كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها ونفائسها [٢].

ومع هذا قام النصارى فى خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض الكنائس اذ يذكر أبو صالح الأرمنى فى تاريخه أن كنيسة القديس جرجيوس بالحمراء ـ والتى كانت قد تصدعت ـ قد أصلحت وجددت على يد المعلم سرور الجلال الذى كان من أغنياء النصارى [٣]، كما كان

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة.
ـ جاك تاجر : المرجع السابق، ص ١٤٠.
(٢) العينى: المصدر السابق، جـ٢٠، ورقة ١١٢.
(٣) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٣١.

لمولانا المستعلى بالله بعد ظفره باخيه نزار، وكان ذو هيبة وبطش إلى ان مرض فى السنة العاشرة من جلوس انبا ميخايل البطرك، وتوفا فى يوم الثلثا السابع عشر من صفر سنة خمس وتسعين واربع مية الهلالية، الموافق للحادى عشر من كيهك سنة احدى وتسعين واربع ماية الخراجية، وهى سنة ثمان ماية وثمنية عشر للشهد الابرار، وكانت مدة خلافته سبع سنين وشهرين، وجلس ابنه المنصور ابو على وعمره يوميذ ست سنين.

هناك كثير من رجال الدولة ـ فى خلافة المستنصر ـ ممن شملوا برعايتهم وتسامحهم كنائس النصارى ودور عبادتهم (١).

الأديرة:

وكانت أديرة النصارى منتشرة فى أنحاء مصر والشام ونعم رهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الدينى ازاء أهل الذمة لفترة، باستثناء فترة من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله.

فعندما أقدم جوهر الصقلى على بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها، عوضا عن دير هدمه كان موضعه بالقرب من الجامع الأقمر، وكان يعرف بدير العظام. كما نقل رفات موتى النصارى الى دير الخندق (٢).

ولما قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر واستقر بها، شمل برعايته وعطفه ديارات النصارى ورهبانها، وصرح للبطريرك ابراهام السوريانى رأس الكنيسة القبطية آنذاك بترميم الأديرة القديمة وبناء ما التمسه من الأديرة الجديدة فى سائر أقاليم الدولة (٣).

وفى خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى فى حمايته، ونعم الرهبان بالأمن والطمأنينة

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٧.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥٠٦.
(٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤١، ٤٤.

وفى هذه السنة وصل رسول من ملك الحبشة الى السيد الاجل الافضل يلتمس ان يقام لهم مطران لبلاده وان يسيره اليه مع رسوله، فاحضر انبا ميخاييل البطرك وتقدم اليه ان يقيم مطراناً للحبشة ويعجل به ليسير مع الرسول، فخرج البطرك من بين يديه وتطلب من يصلح لهذا الامر فلم يجد، فلما اضطهد [أضطر] فى ذلك انفذ الى دير ابو مقار واخذ راهب اسمه جرجس وقسمه

طوال عهده، كما قام النصارى الملكانيين ببناء بعض الأديرة دون الاستئذان منه[1]، وعلى سبيل المثال فان أرسانيوس البطريرك الملكانى صهر العزيز بالله وبسبب قرابته له أحاط دير القصير بالمقطم بسور عظيم، وعمر الدير وجدده، وأنشأ فيه أبنية كثيرة[2].

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة في خلافة الحاكم، وصل ذراها الى الأديرة والرهبان، فهدم الكثير من الأديرة، ولم يبق منها الا القليل[3].

ففى العاشر من رجب سنة ٣٩٨هـ، أمر بوضع اليد على أوقاف الديارات الحديثة والعتيقة بمصر دون غيرها من البلدان، وجعلها باسمه فى الديوان[4]، وفى مرسومه الصادر فى ذى الحجة سنة ٣٩٩هـ، كان هدم كنيسة القيامة بالقدس وشمل الهدم والتخريب دير للراهبات بجوارها يعرف بدير السرى، ونهب ما فيه من تحف وذخائر[5]. كما صودرت أملاك الأديرة وأوقافها فى أنحاء الدولة وامتدت اليها معاول الهدم لنقضها[6].

---

(١) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٧.
(٣) المقريزى: نفس المصدر، ص ٥٠٦.
(٤) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٥) ______: نفس المصدر، ص ١٩٦.
(٦) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٤٩٥.

مطرانا للحبشة وسيره اليهم، فاقام عندهم مدة يسيرة فلم يفلح ولا عرف يسوس امره معهم، وقيل عنه انه تعد هناك الى امور قبيحة وافعال سمجة لا تليق برتبته، فقبض عليه الملك واخذ جميع ما كان تحصل له هناك واعاده الى مصر، وكتب الى السيد الاجل الافضل يشكو ما فعله في تلك البلاد، فامر بالقبض عليه واعتقاله في حبس الشرطة بمصر فاقام فيه معتقل عدة سنين مع فرج

وفى يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوما بهدم دير القصير بجبل المقطم، ونهب جميع ما فيه، وكان أرسانيوس بطريرك الملكانية يومئذ مقيما فيه مع الرهبان، فأخرجوا جميعا من الدير، وأخذت تنقضه معاول الهدم، واستمر الهدم فيه عدة أيام. وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم، ففتح الرعاع من المسلمين والعبيد جميعها، ونبشوها ، وأخذوا توابيت الموتى.

وفى تلك السنة الغيت جميع الأحباس والاوقاف المرصودة على الأديرة بمصر وضمت للديوان[1]. وفى صفر سنة ٤٠٢هـ نزعت الصلبان وطمست آثارها من ظاهر الأديرة، وفى جمادى الأخرى سنة ٤٠٣هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة العتيقة والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها [2].

وأحرق بعضها [3]، ووهب لهم أملاكها وماهو موقوف عليها، وسمح لهم بنهب محتوياتها، وكتب الى عماله فى سائر أعمال الدوله بهدم الأديرة ونقضها ومحو أثارها، فاتى على أكثر الأديرة بالأقاليم، الا الدير الكبير المعروف بدير أبى مقار- فى ترنوط من أعمال الاسكندرية -

(١) عنان: الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٨.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
(٣) أبو صالح الأرمنى، ص ٧٧.

الراهب الذى كان فى ايام امير الجيوش يصادر الاساقفة والرهبان، وقد تقدم ذكره فى سيرة الاب القديس انبا كيرلس نيح الله نفسه.

فاما انبا سنهوت اسقف مصر فانه اقام مدة بطركية انبا ميخاييل فى عيش كدر، وكان كل وقت يمنعه بذنوب يختلقها له ويشرده عن كرسيه ويبعده عن كنايسه، فلما كان فى بشنس فى السنة العاشرة لجلوسه بطركاً عقد مجلس على انبا

وما حوله من الأديرة القريبة منه، اذ بلغ الحاكم بأمر الله أن هذا الدير فى حماية قبيلتى بنى قرة وبنى كلاب العربيتين، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحدا من الوصول اليه والتعرض له، وذلك لأن رهبان هذا الدير كانوا يقدمون للقبيلتين الكثير من الأمدادات الغذائية والأموال فأمسك الحاكم عن هدمه أو الحاق الضرر به [1]، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه اقامة الشعائر الدينية فى الفترة التى ضيق فيها الحاكم بأمر الله الخناق على الكنائس والأديرة بمصر[2].

هذا بينما أقطع الحاكم بأمر الله دير راية، ودير طور سيناء، لرجل عربى يعرف بابن غياث، فهدم احدى كنيستى دير راية وأخذ جميع ما فيه من تحف وذخائر ومحتويات. ويذكر الأنطاكى أن الخليفة الحاكم أو عز الى ابن غياث المسير الى دير ابراهيم أحد الكتاب النصارى الذين اتخذوا من الرهبانية طريقا لهم ، وكان على قدر كبير من الذكاء والسياسة، أحسن استقبال ابن غياث هذا، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانه على استعداد تام للمساعدة فى هدم الدير لساعته وغير ما نعين له منه، وسلم اليه جميع محتويات الدير من التحف والذخائر وما

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٤.
(٢) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٢٥.

سنهوت المذكور اجتمع فيه من الاساقفة جماعة
وادعى عليه بانه كان فى ايام كيرلس البطرك نيح
الله نفسه قدس فى يوم واحد قداسين فى المعلقة
وفى ابو سرجه، وان انبا كيرلس احرمه وتنيح ولم
يحلله، وانه بهذا الحكم قد بطلت اسقفيته ولم
يبق له كهنوة، وكتب ذلك فى ورقة والزمهم ان
يكتبو خطوطهم فيها بغير اختيارهم لخوفهم من
سطوته عليهم، ولما صارت خطوطهم معه انفذ

به من الذهب والفضة، وقال له قولا لينا. وأوضح الأنبا سلمون لابن غياث صعوبة هدم الدير لحصانة مبانيه وضخامة جدرانه وأسواره، وكثرة ما يلزم لهدمه.

أما عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل فى سياسته مع كافة الناس على اختلاف وظائفهم ودياناتهم. ولقد انعكست تلك السياسة على أهل الذمة، اذ استمرت سياسة اعادة بناء الأديرة، وبذل رؤساء الكنيسة جهودا كبيرة لتعمير ما خرب منها[١]، هذا فضلا عن أن الخليفة الظاهر أصدر مرسوما عاما يؤكد استمرار سياسته فى اطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة، وبأنه لا اكراه فى الدين. فمن آثر منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته فله ذلك، ولهم جميعا الحماية والأمان والطمأنينة «على نفوسهم ودمائهم، وأولادهم، وأموالهم، وأحوالهم، ماسلكوا الطريق المستقيمة ولم يقصدوا المقاصد الذميمة» [٢].

كما أصدر الخليفة الظاهر فى المحرم سنة ٤١٥هـ مرسوما للرهبان اليعاقبة بتجديد ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم، وصيانة ممتلكات أديرتهم ، وعدم المساس بأوقافها [٣].

(١) الأنبا مخاييل: سر البيعة المقدسة، جـ٣، ورقة ٦١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(3) Stern : Op. Cit., p. 15 - 17.

بعض تلاميذ الى انبا سنهوت الاسقف ليحضره في ذلك المقام ويقطعه كما قام في نفسه، فسبق الخبر اليه فخرج هارباً من قلايته ومضى الى القاهرة واختفا عند بعض اولاده الكهنة وسار في الليل الى دير القديس ساويرس في جبل اسيوط واقام فيه اياماً، وكان البطرك مقيما في كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع في البيت الذى امر بانشاه في علوها، ومكث عدة ايام يتطلب

بل أن الظاهر لاعزاز دين الله سمح بعودة جماعة من النصارى سبق لهم الهجرة الى بلاد الروم، الا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التى انتهى استخراجها منهم الى السنة التى عاد فيها كل واحد منهم [1].

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمى نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائرهم الدينية في الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧هـ ـ ٤٤٧هـ) أى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى / منتصف القرن الحادى عشر الميلادى. ولم تتعرض الأديرة لما يسئ اليها أو الى رهبانها، اذ سار المستنصر بالله على سياسة أسلافه التى تميزت بالتسامح الدينى وحرية العبادة لأهل الذمة. والرحالة ناصرى خسرو الذى زار مصر وفلسطين في خلافته، يذكر أن كنيسة القيامة «يقيم بها كثير من القسس والرهبان، يقرأون الانجيل، ويصلون، ويشتغلون بالعبادة ليل نهار» [2].

على أن أديرة النصارى في الوجه البحرى امتدت اليها يد السلب والنهب، أثناء تلك الحروب التى قامت بين قوات المستنصر، وبين القائد التركى نصر الدولة الذى شق عصا الطاعة، كما شوهت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها، وتعرض رهبانها

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٩.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٧.

الاسقف فلم يقدر عليه ولا وجده. فلما كان فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من بشنس المذكور عرفنى قيم كنيسة الشهيد الجليل سرجيوس بقصر الشمع ان انبا ميخاييل دفع له دقيق كثير وامره ان يعمله ضارن على صباح يوم الاحد، وان يعلم الكهنة بانه يقدس فيها فى ذلك اليوم، وذكر انه معول على انه يجعلها بطركية ويقول للآراخنة والشعب: انا اسقفكم وما ابرح من عندكم بحكم

لـلأذى والقتل والتشريد، مما أدى الى هروب من نجا منهم إلى الأرياف فرارا من البطش والموت[1].

ومع انتشار المجاعة، وازدياد الفتن، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيبته وسلطانه، وتدهور الأوضاع بوجه عام فى جميع أنحاء الدولة، اضطر المستنصر الى استدعاء بدر الجمالى الى مصر، لعله يعيد الأمور الى حالتها الطبيعية [2].

الكنائس اليهودية:

وإذا ما انتقلنا الى الحديث عن كنائس اليهود فى مصر، فان المقريزى يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة فى الديار المصرية ويتناول فى حديثه احدى عشرة كنيسة منها: كنيسة دموه بالجيزة، وكنيسة جوجر بالقرى الغربية [3]، وفى مدينة الفسطاط كان لليهود ثلاث كنائس هى : كنيسة المصاصة [4]، وكنيسة الشامين [5]، وكنيسة الربانيين [6].

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٩، ٨٧.
(٢) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٣٨٣، ٣٩٢، ٣٩٢ ـ ٣٩٣.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٦٣.
(٤) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٥) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١.
(٦) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٧١.

ما حدثته نفسه به. فقلت: هذا ما لايتم علينا ولا نقبله ولا صبر لنا عن اسقفنا الا بجرم واضح توجب القوانين عليه فيه الحكم. فلما كان غداة يوم السبت ركب انبا ميخايل المذكور دابته وخرج هو وجميع الناس المتميزين ليلقو الافضل عند رجوعه من تنيس فلقيه عند دمنهور [شبرا] فسلم عليه وعاد، فلحقه طاعون فى طريقه فقال لتلاميذه: طعنت. وكاد يقع من على الدابة وخرج

كما كان لليهود عدة كنائس في مدينة القاهرة. فكان بحارة الجودرية كنيسة عرفت بها، ويروى المقريزى أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك الحارة على اليهود[1]. أما حارة زويلة وحدها فقد وجد بها خمس كنائس [2]هي: كنيسة القرائين، وكنيسة دار الحدرة، وكنيسة الربانيين، وكنيسة السامرة . وجميع تلك الكنائس المذكورة ـ على حسب قول المقريزى ـ محدثة في الاسلام [3].

وكان لمعظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود، فهم يعتقدون أن كنيسة دموه ـ أعظم المعابد اليهودية بمصر ـ كانت الموضع الذى لجأ اليه موسى عليه السلام، حينما كان يبلغ رسالة الله عز وجل الى فرعون، مدة اقامته بمصر، منذ أن قدم من مدين الى مصر، الى ان خرج بنى اسرائيل منها وكان بتلك الكنيسة شجرة زنزلخت في غاية الضخامة، لا يشكون من أنها ترجع الى زمن موسى عليه السلام. كما كان لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم اليها، فى عيد الخطاب، وهو فى شهر سيوان، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس [4].

(١) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٦٣.
(٣) المقريزى: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧١.
(٤) المقريزى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٦٤ والشهور العبرية هي الشهور التى استخدمها العرب قبل الاسلام وهي: تشرى، مدحشون، كسليو، طنث، شفط، آذار، نيسن، أير، سيوان، تمز، أوب، أيلل. انظر: جدول السنين الهجرية، وضعه وستنفلد وترجمه: د. عبد المنعم ماجد، عبد المحسن رمضان. مكتبة الانجلو.

لسانه من ساعته فضبطوه تلاميذه على دابته حتى
اوصلوه الى كنيسة المعلقة فاقام بقية يومه وليلته لم
يسـمع منه كلمـه، وتوفى غـداة يوم الاحـد اخـر
بشنس سنة ثمان ماية وثمنية عشر للشهد الابرار،
وهو يوم الخمسين المقدس. وكانت مدة بطركيته
تسع سنين وثمانية شهور. وعاد انبا سنهوت الى
كرسيه وفرح الشعب به ومجدو الله سبحنه.

أما كنيسة جوجر، فيزعمون أنها الموضع الذى ولد به نبى الله الياس (١)، كما يزعمون أن كنيسة المصاصة كانت مجلسا له (٢). كذلك يعتقد اليهود أن فى كنيسة الشاميين نسخة من التوراة لا يشكون فى أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم (٣).

لكن علينا أن نتساءل: هل تعرضت معابد وكنائس اليهود لأية أضرار أو قيود فى العصر الفاطمى الأول؟ ثم لماذا تركزت معظم الكنائس اليهودية فى حارة زويلة بالقاهرة؟.

والواقع أن يهود مصر كغيرهم من أهل الذمة ، قد نعموا بسياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون فى العصر الفاطمى الأول اذ تولوا أرقى مناصب الدولة، وكانوا على صلة وثيقة بقصر الخلافة (٤)، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية فى أمن وطمأنينة. كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز باله، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها.

....

(١) ــــــ: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٦٩.
(٢) ــــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٣) ــــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(4) Goitein : AMediterranean Society. The Jews Communitie: of The Arab World as Porteayeé in the Documents of the Cairo Geniza, Voi I, P. 33-34.

وفى أيام انبا ميخاييل المذكور كان بمصر بخليج بني وايل المودى الى بركة الحبش على حافة بركة ابى قدامه كنيسة تعرف بابى قدامه. وكان فيها ثلثة مذابح احدهم على اسم القديس انبا بخوم ، والثانى على اسم القديسة مهراييل الشهيدة العذرى، والثالث على اسم القديس ساويرس البطرك. فوهت حيطانها وكادت تسقط فهدها الشيخ ابو اليمن وزير ابن عبد المسيح متولى

وفى بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرهم الدينية فى حرية تامة، بل أن بعض الوثائق تمتدحه بسبب «اصلاحاته العظيمة»، كما أن كنائس اليهود فى أوائل خلافة الحاكم لم تتعرض لأية أضرار، فكان اليهود يجتمعون بها لاقامة الاحتفالات الدينية الخاصة بهم (١).

الا أن اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجودرية ثار سخط الحاكم عليهم، فصب عليهم جام غضبه.

فسد عليهم حارتهم ليلا وأحرقها. فامتد الحريق الى كنيستهم بتلك الحارة فدمرها وأصبحت خرابا (٢) ، ثم منعهم من السكن بحارة الجودرية أو المبيت فيها، وأفرد لهم حارة زويلة للاقامة بها (٣)، وأمرهم بعدم مغادرتها والا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم (٤)، مما أدى

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٥٩.
(٢) المقريزى: نفس المصدر ونفس الصفحة.
Goitein : op, Cit., p. 84.
(٣) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص ٤ .
ـ ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠ .
(٤) ابن أياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.

ديوان اسفل الارض وجدد بناها بغير توقيع من السلطان ولا استيذان، فسعى به بعض اعدايه الى السيد الافضل وقال انه هدم الكنيسة وبناها بغير امرك وانه كان بجانبها عرصة لديوان احباس الجوامع وانه اخذها وجعلها بستان وقال فيه اشيا كثيرة قذفه بها، فحنق السلطان وقبض عليه ووكل به بالجعل [بالمال] الثقيل وركب فى جيشه ومعه القاضى والشهود الى الكنيسة وحضرو شيوخ

الى تمركزهم فى حارة زويلة، وبالتالى الى اهتمامهم بانشاء معظم كنائسهم المحدثة فى تلك الحارة.

ولقد تعرض اليهود فى مصر لصرامة القيود التى فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة، وتشدده فى تطبيق الشروط العمرية التى زاد عليها، مما اضطر كثير من اليهود فى هذه الفترة الى الهجرة الى بلاد اليمن، والى تظاهر بعضهم بالاسلام [(١)] وذلك اما حفاظا على وظائفهم فى الدولة، واما هروبا من قسوة القيود الصارمة التى ضيقت الخناق على أهل الذمة بوجه عام.

واذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب فى هذه الفترة من خلافة الحاكم فانه قد عاد وصرح لهم باعادة بنائها [(٢)]، كما أنه لم يكره أحدا على اعتناق الاسلام، والدليل على ذلك أنه عندما انتهج سياسة متسامحة مع أهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م، وسمح لهم بالعودة الى دينهم، ارتد أكثر أهل الذمة ممن كانوا قد تظاهروا بالاسلام [(٣)]، وفى يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودى الى اليهودية [(٤)].

(1) Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

(2) Goitein : The Mediterrean Society. Vol. I, p. 34.

___: Jews and Arabs, p. 84.

(٣) العينى : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٥٤٨.

(٤) ابن أياس : المصدر السابق، جـ١، ص ٥٨.

مسلمين شهدو بذلك فلم يزل التوكيل به حتى بناها مسجد فى بشنس سنة تسعين واربع ماية.

وفى ايام انبا ميخاييل البطرك المذكور وصلت عساكر الروم والفرنج(*) من روميه ومن بلاد افرنجية الى الشام فى خلق كثير وملكو انطاكية وما يليها واكثر الشام الفوقانى وكان يوميذ بايدى الغز الخرسانيين ولم يبق منه بايدى الغز الا دمشق وما

(*) الحروب الصليبية فى فترة الفاطميين.

أهل الذمة فى مصر فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى

سياسة الفاطميين والايوبيين الدينية ازاء أهل الذمة

- موقف الفاطميين والأيوبيين ازاء رجال الكنيسة ورؤساء اليهود

نعم رؤساء طوائف أهل الذمة فى مصر، وبخاصة كبار رجال الكنيسة القبطية بحسن معاملة السلطات الحاكمة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى، ففى عهد المستنصر بالله الفاطمى ووزارة بدر الجمالى تمتع الانبا خريستودولوس البطريرك السادس والستين للكنيسة القبطية بالمكانة السامية والمنزلة الرفيعة فى قصر الخلافة ودار الوزارة وان كان هذا البطريرك قد تعرض للقبض عليه سنة ٤٦٧هـ عندما ترامى الى مسامع بدر الجمالى أن مطران النوبة هدم مسجدا للمسلمين هناك، ثم أخلى سبيله عندما تأكد بدر الجمالى عن طريق مبعوثه الى ملك النوبة ـ كذب الادعاء، بل أمر باحضاره الى مجلسه «مكرما مبجلا» بينما أمر بأعدام من وشى به .

ولما كان بدر الجمالى يميل الى المسيحين [١]، ويحترم البطريرك ويجله [٢] فضلا عما اتسمت به العلاقة بين البطريرك والخليفة من ود وتقدير، فقد قوبل انتخاب خلفه الأنبا كيرلس

(١) بتشر: المصدر السابق، جـ٣، ص ٦٢.
(٢) بتشر: نفس المرجع، جـ٣، ص ٦٢.

يليها، ثم ملكو مدينة القدس الشريف (*) وما يليها فى شهر رمضان سنة اثنين وتسعين واربع ماية الهلالية، وصرنا معشر النصارى اليعاقبه القبط لا نصل الى الحج اليها(*) ولا نتمكن من الدنو من ذلك لاجل ما هو من بغضهم لنا وهو اعتقادهم فينا وتكفيرهم ايانا. وملكو بعد ذلك جميع الحصون الشامية ما خلا صور وعسقلان(*) فان هذين الحصنين باقيين فى ايدى ولاة السيد الاجل

(*) احتلت القدس في ١٥ يونيو ١٠٩٩م.

(*) الحملات الصليبية تستولى على انطاكية والقدس ويمنعوا القبط المصريين من الحج إلى القدس.

(*) احتل الصليبيون عسقلان فيما بعد عام ١١٥٤م.

الثانى سنة ١٠٧٧م بطركا لكنيسة الاسكندرية بالاستحسان فى جميع دوائر الحكومة [١]، ويروى مؤرخ سيرة هذا البطريرك أن متولى دار الصناعة بناء على أمر السلطات الحاكمة أرسل المراكب وعشارى خاص من مراكب الخليفة، لينقل البطريرك من الاسكندرية الى عاصمة الخلافة، وما أن وصل الى الفسطاط حتى وجد فى انتظاره موكب سلطانى، وعامة أهل مصر، وأقباطها ورجال كنيستها، وتقدم الموكب الشمامسة حاملين الشموع والمباخر الى قصر الخلافة، وما أن وصلوا الى باب القصر حتى خف مأمون الدولة عنبر صاحب الرسالة[٢] لاستقبالهم، ثم أخذ البطريرك ودخل به وحده الى حيث يجلس الخليفة المستنصر وعنده أمه وأخته جالستان فى الانتظار، ومعهما طيب كثير فضمختاه منه[٣]، ثم قالتا له: «بارك علينا، وعلى قصرنا»، وما أن استجاب البطريك ودعا لهما حتى بادلتاه الدعاء بقولهما «جعلك الله مبارك علينا وعلى دولتنا»، ثم وقف البطريرك على باب القاعه، وأمر أحد الأساقفة فقرأ دعاء خاصا، وما أن انتهى من الدعاء حتى خرج البطريرك فى موكبه الى دار أمير الجيوش بدر

(١) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٦٦.

(٢) صاحب الرسالة : وهو الذى يخرج برسالة الخليفة الى رجال دولته من وزير وغيره ليبلغهم رسالة الخليفة، وكان من كبار موظفى قصر الخلافة.

(٣) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٣٧.

الافضل، وقد حاصروهم عدة دفعات، وخرج السيد الاجل الافضل اليهم وجاهد وبالغ وانفق المال. ولم تندفع أحكام الله وهو جل اسمه يكفينا ويحمينا برحمته.

ابا مقاره البطرك وهو من العدد التاسع والستون [١١٠٢/١١٢٨م]

جلس هذا الاب الجليل على كرسي البطركية

«فلقى منه أجمل لقاء وأجلسه وأدناه وإكرمه، وطيب نفسه، كما حياه كل أفراد اسرة الوزير[١]، مما دفع البطريرك الى أن يفيض فى دعائه لبدر، ويأمر بقراءة الدعاء الخاص اياه على باب المجلس، فبالغ بدر فى اكرامه واحترامه، وأمر والى مصر أن يكون فى ركابه حتى مقر البطريركية بكنيسة المعلقة بالفسطاط، وأن يكون فى خدمته ويعمل على راحته[٢].

وقد توثقت العلاقة بين قصر الخلافة والأنبا كيرلس الثانى، وكان المستنصر يدعوه الى قصره ويتحدث اليه، ويأنسه [٣]، كما أن وزيره بدر الجمالى لم يتدخل فى الشئون الخاصة بالكنيسة القبطية، بما يعكر صفو العلاقات بينه وبين رجالها، وظلت علاقته طيبة بالأقباط وبطريركهم، وكان يستقبله ويكرمه، ويلبى مطالبه، وعندما اختلف الاساقفة ابان وزارته فيما بينهم لم يكن أذنا لاحدهم، ووقف يساند البطريرك، وأحضر الأساقفة الى اجتماع عقده فى بستان له خارج القاهرة (سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) وطالبهم فى حزم بوضع القوانين المنظمة لشئون الكنيسة، وأظهر احترامه وتعاطفه ازاء البطريرك، وأوصاهم به قائلا لهم: «لاتختلفوا

---

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.
(٢) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٨٨، ٨٩.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.

في ايام مملكة الامـيـر ووزارة الافـضـل ابن امـيـر
الجيـوش ثـم بعـد مـوته وزر المامـون، ولما تنيح انبـا
ميـخاييل البطرك كانت النوبه في تخيـر من يقـام
عوضـا منه للمـصـريين ورهبـان دير ابو مقـار وكتـبو
للاسـاقفه المقيمين باعمـال الصعيـدين الاعلا والادنا
واسفل الارضى [الدلتا] يعلمـوهم بوفاته ويعزوهم
فيه ويسالوهم الحضور ليجتمعو ويقع الاتفاق على
من يرتضـوه للبطـركيـة الجليلة، وكـتـبـو ايضـا

وأطيعوا مقدمكم»، كما أكد لهم أنه لم يقصد التدخل في شئون الكنيسة، وقال أن «هذه القوانين التي عملتموها ما احتاج اليها، وانما طلبتها منكم ليتجدد عندكم أنتم علمها، لما بلغني من بعد عهدكم بها وبقراءتها... » ثم دعا أحد موظفي ديوانه وأمره بكتابة قائمة بما يحتاجه كل واحد منهم، لتخرج المناشير بقضاء حوائجهم[١] وانفض الاجتماع وقد عاد الصفا الى رجال الكنيسة[٢]، وانصرف البطريرك ليعمل في اصلاح الكنائس[٣].

وفي وزارة بدر الجمالي كثر عدد المهاجرين من الأرمن الى مصر، وسكنوا بها، وازداد عددهم ونفوذهم، وفي عهده تأسس لهم كنيسة كبيرة بالزهرى من القاهرة[٤] وتم انتخاب أول بطريرك للأرمن في مصر، باسم غريغوريوس الثاني، الذى حظى بمكانة مرموقة عند أمير الجيوش، وكان بدر قد استقبله لدى وصوله الى مصر من بلاد الأرمن باحترام وتقدير بالغين، كما نجح بدر في أن يوطد أو اصر العلاقات بين البطريرك الأرمني الذى خلف غريغوريوس الثاني وبين بطريرك الكنيسة المرقسية حيث أعلنا في بيان لهما اتفاق القبط

(١) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة.
(٢) بتشر : المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٠.
(٣) بتشر: نفس المرجع، ص ٧٣.
(٤) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧١.

للاسكندرانيين بمثل ذلك، وكان زمان الصيف وادراك الغلات والثمار والكروم والاساقفة مشغولين بتحصيل ما يحتاجو اليه برسم الكنايس المقدسه من الغلات والخمر وغيره، فلم يتفق لهم اجتماع الا بعد [عيد] الصليب(*) فوصل بعضهم الى مصر وبعضهم الى الديارات المباركة، واتفق راى الذين وصلو الى مصر على المسير الى دير ابو مقار القديس للاجتماع مع بقية الاساقفه الذين هناك

(*) يحتفل عادة بهذا العيد في ١٧ توت من كل عام وهو يعادل ١٤ سبتمبر بحسب التقويم الجولياني.

والارمن والاحباش والنوبيين فيما يتعلق بالعقيدة الأرثوذكسية[١] ويذكر لبدر الجمالى أنه نظم أحوال القبط [٢] وحدد الجزية بدينار وثلث وربع ولم تكن سياسة بدر المتسامحه ازاء رؤساء طوائف أهل الذمة وبخاصة القبط والأرمن الا فى اطار الخطة الشاملة الخاصة باعادة تنظيم دولة الفاطميين بعد أن كادت تطيح بها الاضطرابات والفتن [٣].

وانتهج الوزير الافضل ـ الذى ألهجت ألسنة القبط بالثناء عليه ـ سياسة أبيه الرامية الى توطيد علاقة الدولة بالكنيسة ورؤساء الطوائف من أهل الذمة، وعندما انتخب الانبا مقارة الثانى سنة ٤٩٤/ ١١٠٢م بطركا للكنيسة القبطية أمر الافضل باستدعائه الى دار الوزارة، فخرج البطريرك فى موكب حافل ارتفعت فيه الاناجيل والصلبان والشموع الموقدة وأصوات المنشدين ودخان المباخر، فاستقبله الأفضل وهنأه، «وأدناه، وأجلسه وأكرمه اكراما كثيرا، وخاطبه خطابا جميلا»، ثم أمر بكتابة منشور الى ولاة الاقاليم بالوجه البحرى ليخفوا الى أستقبال البطريرك عند مروره عليهم كما كتب الى والى الاسكندرية بأن يقدم كل التسهيلات

(١) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٥٧، ٢٦٧.
ـ بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧١.
(٢) ماجد: المستنصر بالله، ص ١٨٨.
(٣) ماجد: المستنصر بالله، ص ١٨٩.

والرهبان على الصلاة والتضرع الى الرب سبحنه
في ارشادهم الى من يرتضيه ويختاره لرعايتهم
والرياسة عليهم. فساروا الى هناك فى شهر بابه
واجتمعو فى بيعة القديس ابو مقار ومكثو اياما
يصلو ويتذاكرو [مع] من فى تلك البريه من
السواح والقديسين ومن فى الصوامع من الحبيسين
ويرجحو الراى فيمن يصلح لهذه الرياسة والرتبة
الشريفة الكهنوتية والخلافة الرسولية المرقصية، فلم

- -

للبطريرك الجديد، وأن يتجاوز عن الرسوم التي جرت العادة بتحصيلها فى مثل تلك الظروف، لذا ابتهجت قلوب الأقباط جميعا لما أغدقه الوزير الأفضل من الاكرام والمودة لرأس الكنيسة(١).

وفى عهد الخليفة الآمر، ووزارة الأفضل شاهنشاه حرصت السلطات الحاكمة على احترام رجال الكنيسة، وقام ولاة القاهرة ومصر بحراسة المواكب الدينية التى كانت تطوف شوارع القاهرة والفسطاط بمناسبة تقلد أساقفة مصر لمناصبهم، خشية أن يتعرض لها عامة المسلمين بالأذى «فيقع فى ذلك ما يشغل القلب».

وفى المقابل حرص رؤساء الطوائف من أهل الذمة على توثيق علاقتهم بالسلطات الحاكمة، فيذكر المقريزى، أن البطريرك القبطى ورجال الكنيسة والكتاب اليهود كانوا من بين كبار رجال الدولة الفاطمية الذين حضروا للتهنئة أثناء الاحتفال بدخول المأمون البطائحى مجلس الوزارة فى تاسع ذى الحجة سنة ٥١٥هـ (٢) كما كان البطريرك القبطى ورئيس

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٣١، ١٣٢.
- بتشر : المرجع السابق، جـ٣، ص ٨٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٤٢.

يتفق رايهم على من يصلح لذلك ولا استقر فى
نفوسهم من يقدموه واقامو على هذه القضية الى
اخر بابه، واتفق رايهم على تقدمة احد رجلين
احدهما القديس مقاره القس بدير ابو مقار المعروف
بالمصور، او الشماس يونس ابن سنهوت. واختلفو
فيمن يقدموه منهما، فاستقر بينهم ان كتبو الى
الاراخنه بمصر يذكرو فيه طول مقامهم بوادى
هبيب وانهم كشفو عن كلمن فى الديارات التى

اليهود وأبناء ملتهما من بين الذين دخلوا على الخليفة الآمر بأحكام الله بقاعة الذهب بقصر الخلافة يوم عيد النحر سنة ٥١٥هـ للتهنئة بالعيد كما جرت به العادة [١]. ولم ينسوا أيضا أن يقدموا الى دار الوزارة لتهنئة الوزير المأمون البطائحي بعيد الأضحى [٢].

وفي بداية عهد الخليفة الحافظ لدين الله أظهر أبو على أحمد بن الأفضل (ت ٥١٦هـ ١١٣٢م) اعتدالا وتسامحا ازاء المسيحيين كما كان صديقا لرجال الكنيسة[٣]، غير أن كتابنا (تاريخ البطاركة) يذكر أن الامير حسن بن الخليفة الحافظ الذى استبد بالسلطة دون أبيه قبض على الأنبا غبريال الثانى (ابن تريك) البطريرك السبعون للكنيسة القبطية، وصادره وسجنه فى خزانة البنود وفرض عليه غرامة مالية كبيرة، ولم يخل سبيله الابعد أن دفع مبلغ الف دينار جمعها له التجار والكتاب من أبناء طائفته[٤].

وتشير المصادر التاريخية الى تلك الاحداث التى حدت بالخليفة الحافظ فى سنة ٥٢٩هـ الى الانتقام من طبيبه النصرانى ابن قرقة [٥] بينما أنعم على رفيقه أبو منصور اليهودى وجعله

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٦١.
(٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٨٦.
(٣) لين بول: المرجع السابق، ص ١٤٥.
(٤) ساويرس: انظر ص ١١٢٦ من هذا الجزء.
(5) Mann : op, cit, p. 229.

هناك والسواح والحبسا فلم يجدو من يصلح للتقدمه الا احد المذكورين، وقد استقر بيننا رد الامر اليكم فيهما فمن اخترتموه منهما ورضيتم به قدمناه. فلما وصل الكتاب اجتمع الاراخنه بكنيسة القديس ابو سرجه بقصر الشمع وقرو الكتاب، فمنهم من كان يعرف الراهبين المذكورين، ومنهم من كان يعرف احدهما دون الاخر، ومنهم من لا يعرف احد منهم بالجمله. والذين كانو يعرفوهما

رئيس اليهود [١]، ومنحه ما كان لابن قرقة من أملاك وأموال، ثم جعله رئيسا للأطباء بقصر الخلافة [٢]، وأجزل له العطاء، وصارت له نعم جليلة [٣].

وفى خلافة الحافظ ووزارة بهرام الأرمنى، ازداد نفوذ النصارى الأرمن بوجه خاص فى مصر، وقد تظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات، وصار كل رئيس منهم يبنى له كنيسة بجوار داره، وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الاسلامية ويغلبوا على البلاد فيردوها دار كفره[٤].

وكانت الثورة على بهرام وخلعه، وتولية رضوان بن ولخش الوزارة فى جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ، فنهب العامة بعض كنائس القاهرة والخندق وأحرقوا دير الأرمن المعروف بالزهرى، وقتلوا بطريك الأرمن كما نبشوا قبر البطريرك أخو بهرام [٥] ثم ان رضوان فرض عدة قيود صارمة على أهل الذمة، وضاعف الجزية على النصارى وعلى اليهود.

---

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٤٤.
(٢) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ١٨.
(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٤٤.
 - المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٥٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٥٩.
(٥) ابن ميسر : المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٧٩.

زكوهما جميعها، ثم قالو: ان مقاره كهل محجاج جيد الكلام ضابط لقوانين الرهبنه، وان يونس الراهب شاب جيد الكهنوة صبيح الوجه فصيح المنطق. فرغبو جميعهم في مقاره لاجل شيخوخته وحنكته ونادو باسمه كفم واحد وكتبو الجواب بذلك، فلما وصل الكتاب الى الابا الاساقفة والكهنة المقيمين بالدير اجتمعو كلهم لقراته واتفقو اجمعين علي الرضا بما تضمنه وقام بعض الاساقفة

ولما توترت العلاقة بين الحافظ ورضوان سنة ٥٣٣هـ، وكثر سعى الوشاة بين الخليفة والوزير، وتخوف كل منهم من الآخر، قبض رضوان على بعض خواص الخليفة وقتل رئيس اليهود[١].

غير أن الحافظ الذى أسكن بهرام الأرمنى النصرانى فى قصره، وطرد رضوان من الوزارة سنة ٥٣٣هـ بعد أن استفحل أمره[٢]، أمر بحسن معاملة النصارى الارمن فشهدوا فى مصر سنوات من التسامح واللين، فيروى لنا أبو صالح أن البطريرك الأرمنى الذى ولى منصبه بعد الأحداث الأخيرة نشأت بينه وبين الخليفة الحافظ صداقة وطيدة فكان يحضر بمجلس الخليفة الحافظ بقصر الزمرد في يومى الاثنين والخميس من كل اسبوع ليحكي للخليفة ما قرأه فى «السير والملاحم والتواريخ وأخبار الملوك المتقدمين» [٣] كما صرح لهذا البطريرك بالدخول عليه فى أيام الأعياد والمناسبات مع الأمراء ووجوه الدولة. ويذكر أبو صالح أيضا أن تلك العلاقة استمرت وثيقة بين البطريك الارمني والخليفة حتى توفى الحافظ فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ [٤].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٦٨.
(٢) المقريزى: نفس المصدر، جـ٣،، ص ١٦٦، ١٨٩.
(٣) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٤) أبو صالح الأرمنى: نفس المصدر والصفحة.

والكهنة والرهبان حيث مقاره المذكور وقبضوه واتو به الى المجمع فتضور [فتضرر] من ذلك وامتنع واستحلفهم ان يعفوه وقال لهم: انا ابن ثانيه(*) لا علم لى ولا كهنوت ولا اصلح لما تريدوه منى. فلم يلتفتو الى قوله وقيدوه والبسوه الثوب ووسموه، وذلك فى يوم الاحد الثالث عشر من هتور سنه ثمان مايه وتسعه عشر للشهدا، وهى سنة اثنين وتسعين واربع مايه الخراجيه، وسارو الى

(*) بحسب قوانين الكنيسة القبطية فبان اولاد الزواج الثانى يمنعون من تولى وظيفة البطركية.

أما بطريك الأقباط اليعاقبة ميخائيل الخامس (ابن دنشترى)، البطريرك الحادى والسبعين للكنيسة المرقسية (١١٤٥ / ١١٤٦م)، فقد نشأت بينه وبين الخليفة الحافظ علاقة أساسها الثقة المتبادلة مما أدى الى نشاط حركة بناء الكنائس، وازدحامها بالمصلين، وازدهار الأديرة وتضاعف عدد الرهبان[١]، وعندما خلا كرسى البطريركية بوفاته سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٦م لم يتدخل الخليفة الحافظ فى الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة، ورفض الاستجابة لمحاولة أحد الرهبان الرامية الى الوصول الى كرسى البطريركية عن طريق قصر الخلافة بل ومنح الحافظ أساقفة الكنيسة، وأعيان القبط كل الحرية وجميع التسهيلات لينتخبوا بمحض ارادتهم يوحنا الخامس البطريرك الثانى والسبعين رأسا لكنيسة الاسكندرية[٢].

غير أن الملك العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر قبض على البطريرك يوحنا الخامس، وزج به فى سجن دار الوزارة سنة ٥٤٧هـ، لأنه رفض أن يعزل المطران القبطى فى الحبشة بناء على التماس تقدم به ملكها الى الوزير[٣]، لأن ليس فى شريعة النصارى (القبط) أن

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٥٦، ١٥٧.
(٢) ساويرس. تاريخ البطاركة: انظر فى هذا الجزء الثالث ص١٣١٨ وما بعدها.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، ص ١٦٤.

مصر وكان وصوله الى كنيسة ابو قزمان التى عند القنطرة بجوار البستان المعروف بالزهرى فى يوم الخميس السابع عشر من هتور المذكور، فمضى الشيخ ابو الفضل ابن الاسقف الى دار السيد الاجل الافضل، وكان يوميذ كاتبه وهو الموقع عنه فى الاموال والرجال ومتولى ديوان المجلس والنظر فى جميع دواوين الاستيفا على جميع اعمال المملكة، واعلمه بوصول الاب البطرك انبا مقاره

يولوا أنسانا رتبة الكهنوتية ثم يعزلوه، وأن من شريعتهم أن يولوا غيره اذا مات «مما أغضب الوزير، فلبث البطريرك فى السجن مدة حتى أفرج عنه بعد مقتل ابن السلار فى ٦ محرم سنة ٥٤٨هـ (١)، ليعود الى السجن مرة أخرى فى خلافة العاضد لدين الله عندما وشى به جماعة من الرهبان عند الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك، الذى اساء الى البطريك، وحرض الرهبان على ضربه، ولما لم يتمكنوا، طرده من مجلسه، وسجنه، كما كتب الى ولاة الأعمال بفرض ضرائب على كراسى الأساقفة بالوجه البحرى، ومن ثم تعرض رجال الكنيسة والأساقفة لقسوة ولاة الأعمال، ولم يطلق سراح البطريرك الا بعد أن مات الملك الصالح طلائع بن رزيك فى تاسع عشر رمضان سنة ٥٥٦هـ، فأنفذ ولده الملك العادل رزيك الذى ولى الوزارة بعد أبيه من أخلى سبيل البطريرك، وأطلق سراح كل من معه.

ولقد أضيرت الكنيسة ابان فترة الاضطرابات التى عمت مصر بسبب النزاع على الوزارة بين شاور وضرغام بسبب أطماع الصليبيين ونور الدين فى مصر، كما ساءت حالة الكنيسة بسبب القيود الصارمة التى فرضها شيركوه على أهل الذمة ابان وزارته (٢)، فضلا عما

(١) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٦٣، ١٦٤.
(٢) ايسيذورس : المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٧٥.

وانه يحتاج الى المسير الى الاسكندريه ليصلى عليه فى كنايسها لانها كرسى البطركيه، وان الوالى والمستخدمين هناك يطلبو منه رسوم جرت عادة من تقدمه بها، وهذا رجلا راهب ضعيف الحال ليس معه شى ولا اقتنا قط دينار ولا درهم، وساله اعفاه من ذلك واحضاره بين يديه لتطيب نفسه ويقوى امره كما جرت عاده من تقدمه. فاجابه الى ذلك وامر باحضاره مكرما مبجلا، فركب من الكنيسة

تعرضت له بعض الكنائس والأديرة لحوادث النهب والتخريب فى جو الاضطرابات وفوضى الحرب (١).

وفى اثناء وزارة صلاح الدين، وكذا فى بداية سلطنته، أصاب البطريرك القبطى ورجال الكنيسة كثيرا من المعاناة والحزن والأسى، لما أصاب الكنيسة ورجالها على يد صلاح الدين الذى اتخذ موقفا متشددا من أهل الذمة، وبالغ فى فرض القيود عليهم بسبب موالاة بعض النصارى واليهود للفاطميين (٢).

أما بطريرك الأرمن فى القاهرة، فقد حمله صلاح الدين على اغلاق مقر بطركيته بالزهرى سنة ٥٦٤هـ، والانتقال الى كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة (٣)، وكان الأرمن قد قاتلوا قوات صلاح الدين بشراسة عند تصديه لمؤامرة مؤتمن الخلافة فى تلك السنه(٤). ولما ضيق صلاح الدين الخناق على النصارى الأرمن لاشتراكهم فى المؤامرة ضدة سنة ٥٦٨هـ، خرج بطريرك الارمن بمحض ارادته من القاهرة قاصدا بيت القدس فى الثالث والعشرين من ربيع

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٠.
(٢) انظر ماقبل ص ٣٢ ـ ٣٧.
(٣) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢، ٣.

المقدم ذكرها والكهنة بين يديه يقرو وهم حاملين
الاناجيل المقدسه ومجامر البخور والشمع الموقود،
والشعب حوله والاساقفه والاراخنه ركاب دوابهم
خلفه، ومتولى المعونة بالقاهره معه ورجالته بين
ايديهم حتى وصلو الى دار السيد الاجل الافضل،
فلما دخل اليه دعا له دعا كثير، فراه وديع عفيف
حسن الوجه جيد الكلام ورزقه الله منه حظ وقبول
فادناه واجلسه واكرمه اكراما كثيرا وخاطبه خطابا

الاول من نفس السنة ليقيم هناك، «بسبب تلف طائفته بيد الغز و الاكراد»[١]. وقد سمح له صلاح الدين بأن يأخذ معه كل ماحمله من الكتب الدينية، وجميع ماتحت يده من أوانى الكنائس ودنانير الذهب، وقد ترك هذا البطريرك قسيسا نائبا عنه لقيم الصلوات والقداسات فى كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة [٢].

لم يقف صلاح الدين عن حد تدعيم علاقة الدولة بالكنيسة القبطية ورجالها، بل وطد علاقته بكبار رجال الطائفة اليهودية فى مصر، وان لم يتدخل فى شئونها. وكان قد وصل الى كرسي رئاسة اليهود فى بداية حكمه حبر يهودى يدعى يحيى، سبق أن اغتصب هذا المنصب أثناء وزارة شاور لقاء ألف دينار كل عام، وكان أن أساء معاملة أبناء ملته حتى ضاق صدرهم به، وأطلقوا عليه اسم (الشرير)، وثاروا في وجهه، ولما تنبه صلاح الدين الى أمره بعد أربع سنوات من رياسته أمر بعزله، وطرده مع أسرته من الفسطاط ولما اختار اليهود الحبر نيثانيل لرياسة الطائفة اليهودية خلفا له، احترم صلاح الدين رغبة أبناء الطائفة فى اختياره[٣]. كما يرجع الفضل الى صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل فى تولى موسى بن ميمون العالم

(١) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٢) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥.
(٣) ولفنسون: المرجع السابق، ص ١٩.

جـمـيـلا، وامـر ان يكتب له منشـور الى والى الاسكندريه وغيره من الولاه الذين يعبر عليهم فى طريقه باعزازه واكرامه واعفاه من طلب رسم ولا غيره ومساعدته ومعاضدته فى جميع ما يحتاج إليه. وقام خرج من مجلسه على اجمل قضية، ففرح الشعب بذلك فرحا عظيما واخذو المنشور وسارو الى اسكندريه فخرج كل الشعب للقايه وكان دخولهم اليها على اجمل قضية واوفاها،

والطبيب والحبر الكبير رئاسة الطائفة اليهودية فى مصر سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. كما تشير المصادر الى أن صلاح الدين كان ينتفع بما لابن ميمون ـ حبر الطائفة اليهودية الكبير ـ من لطف التدبير، ومن المكانة والقبول عند يهود اليمن فى تهدئة الثورات التى كانت تنزو بها تلك البلاد (١)، كما استجاب صلاح الدين، لرجاء هذا الحبر اليهودى الذائع الصيت، وفتح أبواب القدس بعد طرد الصليبيين منها سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، أمام يهود بلدان غرب أوربا (٢)، كما شجع اليهود على الاستقرار بالمدينة التى أضحت خالية بعد رحيل الفرنج، فتمكنوا من شراء قدر لابأس به من الاملاك والامتعة التى أضطر الصليبين عند رحيلهم الى بيعها بثمن بخس(٣).

واستمر لهذا الحبر اليهودى الكبير مكانته المرموقة فى بلاط الايوبيين ففى ايام رئاسته للطائفه اليهودية ازدهرت المعابد اليهودية فى مصر، ونشطت المدرسة التى أسسها يهود الجالية الاندلسية بالفسطاط، لتعليم الديانة اليهودية والفلسفة والرياضة والطب، وكان موسى بن

(١) ولفنسون: المرجع السابق، مقدمه الكتاب، بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق، ص (ط).
(٢) الخربوطلى: العرب واليهود، ص ٧١.
ـ الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ٢١٩.
(٣) رنسيمان: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٥٥.

ولقى من الوالى ملقا حسن واكرمه وبجله ومنع
المستخدمين من تكليفه درهما واحد فضلا عما
سواه. وكان تكريزه فى كنيسة مارى مرقس
الانجيلي باسكندرية في يوم الاحد الثانى عشر من
كيهك سنة ثمان مايه وتسعه عشر للشهدا، بعد ان
جرى له مع الاسكندرانيين خطوب كثيرة بسبب
الرسم المستقر لهم على من يجلس فى البطركية،
فامتنع من كتب الخط لهم بذلك، وقال لهم: انا

ميمون رئيس اليهود فى الديار المصرية، من أشهر أساتذتها المبرزين. كما أن صلاح الدين بعد صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ استقبل بكل الترحاب هيوبرت أسقف سالسبورى، وأنعم عليه، ومنحه الهدايا، وقبل رجاءه فى تعيين اثنين من القسس اللاتين، واثنين من الشمامسة اللاتين فى كل من كنائس القيامة وبيت لحم، والناصرة، ليمارسوا الشعائر الدينية وفق المذهب الكاثوليكى[١].

وفى عهد خلفاء صلاح الدين فى مصر استمرت العلاقة وطيدة بين الدولة ورؤساء الطوائف الدينية من أهل الذمة، وكان موسى بن ميمون رئيس يهود مصر من أقرب رؤساء أهل الذمة الى رجال البيت الأيوبى وكبار رجال دولتهم[٢] ولما توفى سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٤م تقلد ولده ابراهيم بن موسى بن ميمون منصب رئيس الطائفة وعمره آنذاك ثمانية عشر عاما، وكان اليهود قد اختاروه فى حياة أبيه ليخلفه فى رئاسة طائفتهم [٣]. وقد أيد السلطان الملك العادل هذا الاختيار وعندما ظهر بعض المعارضين والمناوئين لابراهيم بن موسى، ندد بهم الملك العادل وتمسك به رئيسا للطائفة اليهودية [٤]، ولما احترف الطب وأصبح من الأطباء المبرزين

(١) رنسيمان : المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤١.
(٢) القفطى: المصدر السابق، ص ٢٠٩، ٢١٠.
(٣) ولفنسون : المرجع السابق، ص ٢١، حاشيه ٢.
(4) Goitein : the cairo Geniza, p. 87.

رجل راهب مـا لى شى ولا اكـتب خطى بشى ومهما قدرت عليه دفعته لهم فى كل سنه فان رضيتم على هذه القضيه والا اتركونى ارجع الى حـيث كنت فـهـو اصلح لى واحب الىّ مما دعوتمونى اليه. ولم يزل الخطاب يترد بينهم عدة ايام الى كتب خطه بمايتى دينار عدداً فى كل سنه. ووصل الى مصر يوم السبت الرابع والعشرين من كيهك المذكور واجتمع الاراخنه والشعب فى يوم

اختاره السلطان الملك الكامل طبيبا خاصا، الى جانب رئاسته لبنى ملته [١]. كما يذكر ميخائيل مكسى أن السلطان الملك العادل استقبل فى القدس ثلاثة من كبار أحبار اليهود والذين فروا من انجلترا سنة ١٢١١م استقبالا حسنا [٢].

وفى عهد خلفاء صلاح الدين أيضا نعم رجال الكنيسة القبطية بسياسة التسامح الدينى، ولم يتدخلوا فى شئونها الداخلية على الرغم من تفشى بيع المناصب الكنيسة الى القسيسين الذين اتسموا بالجهل والفساد آنذاك [٣]، كما أن الملوك الايوبيين لم يفرضوا على الكنيسة شخصا بعينه دون موافقة جمهور القبط. ففى سنة ٦١٢هـ = ١٢١٦م توفى البطريرك القبطى يوحنا السادس، وسأل نشو الخلافة أبو الفتوح بن الميقاظ، كاتب الجيوش العادلية، السلطان الملك العادل أن يولى صديقه الحميم القس داود بن يوحنا ـ المعروف بابن لقلق ـ البطركية، فأجابه الملك العادل وكتب له توقيعا بذلك، فلم يعجب النصارى ولاية داود [٤]، وقام الأسعد ابن صدقة كاتب دار التفاح وجمع كثيرا من نصارى مصر، واستغاثوا بالملك

(١) ابن أبى أصيبعه: المصدر السابق، ص ٥٨٣.
(٢) الأنبا ميخائيل: المرجع السابق، ص ٦٢.
(٣) أرنولد : المرجع السابق، ص ٩٧.
(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٨٤.

الاحد غدوة في كنيسة السيدة المعلقه وظنو انه يقدس ويكرز، فاجتمع جماعة من رهبان دير ابو مقار وقالو: ما يقدس بعد قداسه في اسكندريه الا في دير ابو مقار كما جرت عادة من تقدمك فان انت نقضت هذا الرسم وقدست اليوم في هذه الكنيسه بمصر قبل ان تقدس في اسكنا ابو مقار ما يكون بيننا وبينك معاملة فيما بعد ولا نرفع اسمك على هيكلنا ولا ندعك تدخله ولا تقدس فيه ابدا

الكامل، الذى حمل الى والده معارضة جمهور القبط [1] وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود، وأنه لا يجوز عندهم تقدمته الا باتفاق جمهورهم» [2]، وكان أن تراجع الملك العادل وعدل عن تعيين ابن لقلق فى منصب البطريركية غير أن النزاع استمر عشرين عاما بين الجماعات المتعادية المتناحرة على من يختارونه لكرسى البطريركية الامر الذى أدى الى خلوه[3].

وعندما تقلد داود بن لقلق فى تاسع عشرى رمضان سنة ٦٣٣هـ (= ١٢٣٦م)، كرسى البطريركية التى سعى اليها طوال العشرين عاما الماضية [4]، اضطر أساقفة الكنيسة وأعيان القبط قبوله على مضض، لانه على حد تعبير البعض «استعان بالسلطان الزمنى، ودفع رشاو طائله حتى وصل أخيرا الى بغيته [5]، ولما كان داود بن لقلق «محبا للرياسة، وجمع المال، وأخذ الرشاوى وتوسع فيها، فى شغل المناصب الكنسية فقد ثار عليه الرهبان، وبعض الأساقفة، وأعيان القبط، وعزموا على خلعه فى أيام السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب،

(١) ابن العميد: أخبار الايوبين ، ص ١٤٢.
(٢) المقريزى: السلوك ، جـ١ ق١، ص ١٨٤.
(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٨٤، ٢٨٨.
(٤) المقريزى: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٥٢.
(٥) الانبا ايساك: موكب الباباوات فى تاريخ الأقباط، (تحت الطبع)، ص ٢٨.

ولو قتلنا كلنا. وشعثو وجلبو واكثرو الكلام
والصياح، فلم يقدس فى ذلك اليوم واقام بمصر
لم يقدس الى بعد الغطاس. وسار الى دير ابو مقار
فى النصف من طوبه وقدس فى الاسكينا بكنيسه
ابو مقار في يوم الاحد الثالث والعشرين منه، وعاد
الى مصر وقدس فى كنيسة السيده المعلقه بمصر
فى يوم الاحد اخر طوبه من السنة المذكورة، وكرز
فيها وكان يوم حسن. وقرى تقليده على الانبل

غير أن الكتاب الأقباط العاملين بالحكومة توسطوا فى صلحه مع خصومه[١]، بعد أن عقدوا له عدة مجالس بحضور نائب السلطان، والعدول والوزير معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ، وغرموه زهاء اثنى عشر ألف دينار[٢]، حمل معظمها الى السلطان حتى استمر فى رئاسته للبطريركية[٣]، وعندما توفى كيرلس الثالث البطريرك الخامس والسبعين للكنيسة المرقسية فى سابع عشر شهر رمضان سنة ٦٤٠هـ = ١٢٤٢م، أتفق أساقفة الكنيسة وأعيان القبط فيما بينهم على أن يرجئوا التشاور فى موضوع انتخاب بطريرك جديد الى أن تهدأ النفوس مما أصابها على يد البطريرك المتوفى، فظل كرسى البطريركية شاغرا حتى نهاية العصر الأيوبى[٤].

سياسة الفاطميين والأيوبيين ازاء دور العبادة لأهل الذمة

الكنائس المسيحية:

اشترط ما اصطلح على تسميته «بالعهد العمرى» أو «الشروط العمرية» المنسوبه الى الخليفة

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص ١٤٢.
(٢) ابن الراهب : المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٧.
(٤) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢٥٩.

يونانى وقبطى وعربى، وكمل القداس كما يجب وقرب جميع الشعب وكان خلق كثير قد اجتمع في ذلك اليوم حتى ضاقت بهم الكنيسه وفرح الشعب وشكرو الله تعالى على رحمته وتعاهده لشعبه في كل وقت كما وعد في انجيله المقدس اذ قال: انا معكم الى انقضى الدهر.

وفى السنه الخامسه لابا مقاره البطرك المذكور قرى سجل في الايوان الكبير بالقصر في يوم

عمر بن الخطاب، على النصارى ألا يستحدثوا من الكنائس شيئا، ولا أن يجددوا ماخرب وماهدم واندثر منها، أويعيدوا بناء البيع القائمة في نواحى من المدن الآهلة بالسكان، ويرى أبو يوسف أن الشروط العمرية نصت في فتح المدن «على ألا تهدم بيع الذميين ولاكنائسهم داخل المدينة، ولا خارجها.. وألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة» وبالتالى فان كل ما أحدث من بناء بيعة أو كنيسة فأنه يهدم [١].

ويتفق الأئمة الأربعة على عدم استحداث بيع أو كنائس في دار الاسلام[٢]، كما أن عمر ابن الخطاب أمر بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة... «وصانع القبط على كنائسهم وهدم بعضها، لم يبق من الكنائس الا ما كان قبل البعثة النبوية، أما اذا استهدم منها شيئا فلا يمنعون من أعادته، وقيل يمنعون لأنه نسبة للاستحداث[٣]. كما اشترط على أهل الذمة ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم[٤].

ومع هذا فان السلطات الحاكمة في مصر في العصرين الفاطمى والأيوبى، أبدت قدرا كبيرا

(١) ترتون : المرجع السابق، ص ٣٩، نقلا عن أبي يوسف وكتابه الخراج ص ٧٢، ٨٧.
(٢) ترتون: المرجع نفسه، ص ٤٠.
ـ الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ١٣٨.
(٣) ابن الاخوة: المصدر السابق، ص ٩٧.
(٤) ابن القيم: احكام أهل الذمة، جـ١، ص ٢٣٦.

الاحد التاسع عشر من المحرم سنة احدى وخمس مايه الهلاليه، الموافق للعاشر من توت سنه تسع وتسعين واربع مايه الخراجيه، يتضمن نقل هذه السنه الخراجيه الى هذه السنه الهلاليه نقلا لا يتجاوز التسميه وان يورخ فى ساير الاعمال لسنيه احدى وخمس مايه الهلاليه الخراجيه ويلغى ذكر ما سواها ويبطل فى ساير الدواوين من الحسابات والمعاملات.

من الواقعية ازاء تطبيق هذه الشروط، ولم تلتفت الى تطبيق البعض الآخر الا عند حدوث الأزمات، ويرى لين بول فى كتابه سيرة القاهرة، فى معرض كلامه عن أهل الذمة فى مصر أنه «بوصول الخلفاء الفاطميين بدأت فترة من التسامح واللين لاعهد لهم بهما فقد كان الحكام الجدد... يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين، وكثيرا ما بنيت أو أصلحت كنائس فى عهدهم[1] أما السير توماس أرنولد فقد أشاد بسياسة الفاطميين أزاء الكنائس فى مصر ويرى أن السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس فى القاهرة العاصمة الجديدة ـ كما سمحت للمسيحيين أن يؤسسوا فى بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة» [2]. كما سمحت لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة وترميمها [3].

لقد انتهج الفاطميون فى عصرهم الثانى سياسة خلفاء العصر الفاطمى الاول فيما يتعلق بسياستهم المتسامحة ازاء الكنائس، كما أن سيطرة الوزراء الأرمنيين على مقاليد السلطة فى مصر اعتبارا من الثلث الاخير من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى قد تمخض عن شعور طيب أزاء النصارى بوجه عام،[4] فقد كان بدر الجمالى يميل الى المسيحيين على

(١) لين بول: المرجع السابق، ص ١١٨.
(٢) أرنولد: المرجع السابق، ص ٨٤.
(٣) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٢٤١، ٤٢، ٤٨.
(٤) لين بول : المرجع السابق، ص ١٢٠.

وفى السنه الثامنه من بطركيته في يوم الاحد السابع عشر من شوال سنه اربع وخمس مايه الهلاليه، وهو الخامس من بشنس سنه خمس مايه الخراجيه، ثارت ريح عظيمه سودا وغبار فى الساعة التاسعة من يوم الاحد المذكور وصار فى الجو حمره عظيمه منتشره على الارض مثل النار ثم صارت ظلمه عظيمه شديدة حتى لم يبصر احد من الناس الاخر، واعتقد جميع الناس ان القيامه قد

أنه لم يظهر ذلك لهم [١]، ففى عهده أقيمت الشعائر الدينية المسيحية فى جميع الكنائس فى حرية تامة [٢] وأنشئت بعض الكنائس المستحدثة، وجدد البعض الآخر، كما رم غيرها، كما ابتنى بدرالجمالى للأرمن الوافدين معه كنيسة كبيرة بجهة دير البساتين فى الفسطاط حيث خصص لهم بقعة لسكناهم[٣]. وفى عهده استقبلت السلطات فى مصر البطريرك غريغوريوس الارمنى استقبالا حافلا، وأعطوا له كنيسة اقطعت للأرمن[٤]، فهدموها وجددوا عوضها كنيسة كبيرة متسعة بعدة قباب باسم مارى جرجس، وبنوا لها جوسقا بابه من داخل البيعة، وبنوا عليها حصنا دائرا وحفروا لها بئر ماء وركبوا عليها ساقية، وزرعوا أنواع الشجر وأصناف الفاكهة والنخيل المثمر[٥].

واذا كان بدر الجمالى قد شمل أساقفة الكنائس برعايته، وخرجت المنشورات فى عهده لولاة الأقاليم ليستجيبوا لاحتياجات الاساقفة، فقد أمر البطريرك القبطى كيرلس الثانى بأن

(١) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٦٢.
(٢) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.
(٣) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٠، ٧١.
(٤) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٦١.
ـ جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٤١.
(٥) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٦١.

حـضـرت(*) فخرجو من دورهم ومساكنها وخلو ابوابها مفتوحة معتقدين انهم هلكا لا رجوع لهم اليـهـا، وصارو هايمين على وجـوههم فى الجوامع والكنايس والازقه. والباعه تركو حوانيتهم وما فيها من ذهب وفضه وقطانى وتجارة وبر ومتاع وغيره وسـاحـو فى الظلمـه حـايرين يطلبـو المواضع المنفسحة المكشوفة خوفا ان تسقط عليهم السقوف او الحيطان، وكانت ساعة مهولة لم يرى

(*) إشاعة يوم القيامه بسبب رياح الخماسين.

يتنازل لكل طائفة من السريان عن كنيسة، فتنازل القبط لهما عن كنيستين في دير الخندق المعروف الأن بدير الأنبا رويس [1].

وعلى الرغم من أن بعض المصادر النصرانية بالغت فى الثناء على الوزير الأفضل، لرعايته أهل الذمة، الا أنها أشارت بأصابع الاتهام الى أنه أمر فى سنة ٥٠١هـ بهدم كنيسة القديس ميخائيل (المختارة) بجزيرة الروضة[2]، لأنها كانت وسط بستان اشتراه [3].

كما يذكر مؤرخ سير البيعة المقدسة أن الوزير الأفضل هدم كنيسة أبى قدامة بالفسطاط، وبنى موضعها مسجدا للمسلمين، لان المدعو أبو اليمن بن عبد المسيح متولى ديوان أسفل الارض استغل نفوذه ومكانته في الدولة، وخرق ما هو متعارف عليه من أحكام فقهية، عندما هدم الكنيسة المذكورة، وكانت قد آلت للسقوط، ثم «جدد بناءها بغير توقيع السلطان ولا أستئنذان» فسعى أحد أعدائه وأبلغ الوزير الأفضل أن أبا اليمن «هدم الكنيسة وبناها بغير أمرك»، كما استولى على عرصة كانت بجانبها لديوان أحباس الجوامع، وجعلها بستانا ألحقه

(١) ايسيذورس: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣١٧.
(٢) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٣٨.
(٣) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٥، ص ٣١٩.
- المقريزى: الخطط ، جـ٢، ص ٤٩٦.

مثلها. وذكر جماعة من الشيوخ انهم لم يرو مثله ولا سمعو به من ايام موسى النبى. وبعد ساعه جاات المطر وانقشعت الغبره وسكنت الرياح وزالت وظهر النور فعاد الناس الى بيوتهم والى حوانيتهم وشكرو الله تعالى ومجدوه الذى اوراهم يسير من قدرته، فلما كادو يهلكو ادركهم بعفوه ورحمته.

بالكنيسة ، ففضب الأفضل «وركب فى جيشه، ومعه القاضى والشهود الى الكنيسة ، وحضر شيوخ مسلمين شهدوا بذلك» فهدم الكنيسة وسواها بالأرض وأقام مكانها مسجدا للمسلمين رغم أن المكان وأرضه يخص الكنيسة.

ومع هذا فان مؤرخ «كنائس وأديرة مصر» يذكر أن الشيخ أبا الفضل المعروف بابن الأسقف (ت ٥٠١هـ) متولى ديوان المجلس بذل الأموال فى تعمير الكنائس وعلى الأخص كنيسة مارى جرجس بالفسطاط، حيث كان دائم التردد عليها للصلاة [١]، كما تمت فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (ت ٥٢٤هـ) عمليات ترميم وتعمير لكثير من الكنائس على أيدى كبار موظفى الدولة من النصارى، وأعيان القبط ورجال الدين المسيحى[٢].

ولكن بعض رجال الدين الاسلامى استغاثوا برضوان بن الوخشى الذى جمع جيشا «واستعلا بكلمة الاسلام فأطاح ببهرام، ودخل القاهرة واخلع عليه بالوزارة فى سنة ٥٣١هـ. وارضاء للرأى العام الاسلامى نهب كنائس القاهرة والخندق، كما نهب عامة المسلمين كنيسة

(١) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٤.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر نفسه ، ص ٤١ ، ٦٥.

وفى يوم الجمعة الثالث من توت سنة احدى
وخمس مايه الخراجيه، الموافقه لسنه ثمان مايه
وثمنيه عشر للشهدا الابرار فى الساعه الثالثه من
النهار، كانت زلزلة عظيمه، فلما كان الليل هدمت
كنيسة ميكاييل المختاره بجزيره مصر(*) وقيل انها
سقطت من الزلزلة، وكان السبب فى ذلك ما
حكاه جميل ابن يحنس الصعيدى قس الكنيسه
المذكوره ومعانى الاحول قيمها ان يوسف

(*) قصة هدم كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة الروضة وكانت مقراً للبطركية

الزهرى التى للأرمن [١]، كما كانت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة بين الكنائس القبطية التى هدمت ابان هذه الأحداث [٢].

وفى خلافة الفائز بنصر الله (ت ٥٥٥هـ) وزارة الصالح طلائع بن رزيك (ت١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ) نعمت الكنائس بكثرة المترددين عليها من أبناء النصرانية لاقامة الصلوات والطقوس الدينية [٣]، و اهتم النصارى بتحديد وتعمير وترميم كنائسهم، وعلى سبيل المثال فان الشيخ المكين أبو البركات بن كتامة الكاتب النصرانى بنى كنيسة باسم مارجرجس بأرض الحبش من القاهرة، وجدد كنيسة باسم مارمينا على مقربة من الكنيسة السابقة، ثم جدد أيضا كنيسة الأربعة حيوانات غير المتجسدين على مقربة من دير نهيا من الجيزة [٤] كما أن خاصة الدولة أبا الفضائل المعروف بابن دخان أشهر كتاب النصارى فى وزارة طلائع بن رزيك عمر كنيسة أبو يحنس بالفسطاط، وأنشا قبالتها جوسقا من ثلاث طبقات[٥].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٩.
(٢) رؤوف حبيب: المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٣) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٩٦.
(٤) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥٣.
ـ أريس حبيب : المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤٤.
(٥) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤١.

المستحب المسلماني ابن مرقوره النصراني البنا، صار مقيما في الجزيرة اكثر وقته لعمارة المواضع المستنزهات المستجدة بجوار هذه الكنيسة وهي البساتين والادر المسماه بالروضه الذى امره السيد الاجل الافضل بانشايها هناك، فلما كملت دار عليها كلها حصن فانتهى الى طاحون الكنيسة وهي قبالة بابها فذكرو ان يوسف المستحب قال لهم اعطوني شي حتى اوارب الحصن عن

الا أن المؤرخ الأرمني النصراني يطالعنا بأن الوزير الصالح طلائع تقدم بأخذ بعض عمد احدى كنائس الفسطاط لعمارة المسجد الذى أنشأة بقرافة مصر [1]، والذى وصفة المقريزى بأنه كان في أعلاه مناظر، وعمارته متقنة الزى» [2]، كما أن حسن الكردى صهر الصالح بن رزيك أتي على كنيسة وجعل موضعها مسجدا [3] للمسلمين وذلك أثناء وزارة الصالح بن رزيك للخليفة العاضد لدين الله.

هذا ويذكر مؤرخ «سير البيعة المقدسة» أن النصارى قد عمروا كنيسة بالمطرية التى فيها بئر البلسم الذى يستخرج منه دهن البلسان على أثر الكنيسة القديمة وكرزوها على اسم القديس مار جرجس وقدسوا فيها قبل أن يكملوا سورها فهدمها المسلمون وبنوا مكانها مسجدا.

كما أن كثيرا من كنائس النصارى في مصر وبخاصة تلك الكنائس الواقعة في منطقة الفسطاط لحق بها التدمير وتعرضت للنهب والتخريب في جو الفوضى التى عمت مصر أثناء الصراع بين شاور وضرغام من أجل الوزارة.

---

(١) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٥٣.
(٢) المقريزى: المصدر السابق، ص ٥٣.
(٣) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٩.

الطاحون والا هدمتها واجزته فى وسطها، وانهم اوعدوه بدنانير ثم رجع يذلهم ولم يعطوه شى وقالو له: ان انت انتهيت عن اذيتنا والا استغثنا فيك للسلطان وعرفناه ما قد عرفناه من ذميم طريقتك في خدمته التى لم نرضاها، وقد نزه الله ايامه عما تفعله فيها ونحن قوم ضعفا تريد تقطع مصانعتنا وتريد منا ما لا نقدر عليه. وجرت بينهم خصايم كثير، فلما حدثت الزلزلة فى اليوم المقدم

ويذكر مؤرخ سير البيعة المقدسة أن عساكر شيركوه في سنة ٥٥٩هـ = ١١٦٣م. هدموا كنيسة الزهرى التى للأرمن، كما يقرر المؤرخ القبطى المعاصر أنهم نهبوا كل كنيسة هدموها[1].

وكثيرا ما يشير مؤرخ «كنائس وأديرة مصر»، الى تحطيم البيع ونشوب الحرائق فيها ونهب نفائسها وذخائرها وأموالها سواء على أيدى قوات شيركوه أوعلى أيدى عوام المسلمين [2]. كما نذكر على سبيل المثال أن كنيسة مارمينا بالحمراء أحرقت وسويت بالأرض مع غيرها من الكنائس في جمادى الاخر سنة ٥٥٩هـ، وعندما أعيد بناؤها فى السنة التالية تذمر عامة المسلمين وانثالوا عليها تخريبا وهدما ونهبا [3].

على أن حريق الفسطاط فى صفر سنة ٥٦٤هـ الذى أمر به الوزير شاور، أصاب القبط بضربة قاصمة وبخاصة فيما يتعلق بكنائسهم فى الفسطاط، فقد التهم الحريق عدة كنائس

(١) ساويرس:، انظر ص ١٣٩٧ من هذا الجزء الثالث.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤٠، ٤٣.
(٣) أبو صالح الارمنى: نفس ارصدر، ص ٣٣.
ـ ترتون: المرجع السابق، ص ٥٧.

ذكره بات هو والفعله معه فى الروضه فى العماره
كما جرت عادته، فلما جن الليل امر الفعله بهدها
فما اصبح الصبح الا وهى مهدومة واوصى الفعله
بكتمان ذلك فلم يجسر احد منهم ينطق به
لخوفهم منه، فلما كان بالغداة اذاع هو والفعله ان
الزلزلة التى كانت بالنهار شققت حيطانها فلما
جن الليل وقويت عليها الرياح سقطت لانها
حيطان قديمه، وان هذا بوانى اهلها وقيّمها وانهم

منها كنيسة أبو نفر [1] بالحمرا الوسطى [2] وكنيسة الملاك غبريال بخط الحمراء أيضا، ويتهم أبو صالح الأرمنى «الغز وعوام المسلمين» بأنهم نهبوها وكسروا أعمدتها وأحرقوا قبة فى علوها [3]، كما أن كثيرا من الكنائس هدمت أسوارها وسويت بالأرض «واختلطت بغيرها من الطريق» فتعرضت الكنائس لنهب الغوغاء والعامة [4]، أما كنيسة القديس مارى مرقوريوس المعروف بأبى السيفين فقد أحرقت [5]، ويتهم ابو صالح «عوام المسلمين» بأنهم هم الذين أضرموا النار فيها، منتهزين فرصة اشعال الحريق فى الفسطاط، وأنهم اندفعوا فى جمع غفير يدفعهم التعصب الى داخلها وتمكنوا من نهب ما كان فيها من الأوانى والأمتعة الثمينة [6].

كذلك تعرضت كنائس الملكيين بقصر الروم من الفسطاط [7] للنهب والتخريب على

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٢، ٤٣.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.
(٣) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٣٥.
(٤) أبو صالح الارمنى: نفس المصدر، ص٣٧.
(٥) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٤٠.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٦.
(٦) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٤٧.
(٧) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.

لو كانو حضرو في ذلك اليوم حتى يبادرو بادعامها ما اصابها شي. واذاع ذلك عند كل الناس فنال النصارى من ذلك غم عظيم وحزنو عليها حزنا عظيما، وبلغ الاب البطرك هذا الخبر فحزن حزينا كثير وقال: انما كان هذا في ايامى لكثرة ذنوبى. ولما وصل بعد ذلك الى مصر تقدم الى وكيل احباس الكنايس المغلقه وغيرها ان يمضى الى كنيسة ميكاييل المختاره يحمل اخشابها والاتها الى

يدى قوات شيركوه التى استولت على أربعة كنائس للملكين ونهبوا أخشابها وهدموا جدرانها وسويت بالأرض ولم يبق لهم سوى كنيسة واحدة ولم يكن ذلك الا بسبب «ضعف الملكية وقلة عددهم» [١]. كذلك هدم الغز الأكراد بيعة بسقط رشين من الفيوم على اسم الشهيد تادرس وبنوا موضعها مسجدا للمسلمين [٢]. أما كنائس الأرمن في القاهرة والفسطاط، فقدى أغلقت بعد أن أوقع بهم صلاح الدين سنة ٥٦٤هـ وصارت خالية «لا يجسر أحد أن يسلك اليها» ثم أفرد لهم صلاح الدين كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة، وصارت مقر للبطريرك الأرمنى [٣].

لكن المصريون الاقباط نشطوا في ترميم وتعمير كنائسهم في السنوات الأخيرة من خلافة العاضد بالله، الذى «كان يعنى بأمر الكنائس» [٤]، كما يذكر أبو صالح الأرمنى أن كنيسة «الموتوتى» حظيت برعايته وحظى رجالها بعطفه [٥]. ومن ثم جد رجال الكنيسة القبطية

---

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٣٧.
(٢) ابو صالح الارمنى : نفس المصدر، ص ٩٥.
(٣) ابو صالح الارمنى: نفس المصدر ، ص ٤,٣.
(٤) لين بول: المرجع السابق، ص ١٢٠.
(٥) ابو صالح الارمنى: المصدر السبقبق، ص ٥٩.
- ترتون: المرجع السباق، ص ٥٧.

حيث امره وبقيت مهدومه الى حيث [حين] نظمت هذه السيرة.

وفى يوم السبت السابع عشر من بشنس سنة ست وخمس مايه الخراجيه، الموافقه لسنه ثمان مايه ثلثه وثلثين للشهدا على ان اول السنه ـ توت ـ تنيح الاب القديس انبا سنهوت اسقف مصر قدس الله روحه، فلقد كان فاضل مليح الكهنوة غزير العلم قنوع متواضع سليم الصدر ساذج النية

وأعيان المصريين القبط فى ترميم وتعمير الكنائس وبخاصة تلك التى أصابها حريق مصر فى صفر سنة ٥٦٤هـ، ويذكر لنا أبو صالح الأرمنى فى تاريخه الحافل بأحداث هذه الفترة أسماء كثيرة لمن قاموا بعمارة الكنائس المسيحية ومن كانوا يترددون عليها ويهتمون بأمرها من رجالات النصارى فى السنوات الأخيرة للدولة الفاطمية [١].

على أن الكنائس فى مصر تعرضت لأقوى عاصفة مدمرة ألمت بها فى العصر الأيوبى وذلك ايام صلاح الدين الايوبى عندما خرج أمره على حد رواية المؤرخ القبطى المعاصر «بأن تنزع الصلبان الخشب التى كانت على كل قبة عالية فى كل كنيسة من جميع الكنائس التى بأرض ديار مصر، وأى كنيسة كان ظاهرها مبيض تليس بالطين الأسود من فوق البياض، وأن لايدق ناقوس فى جميع ديار مصر.... وأن يخفضوا أصواتهم فى صلواتهم» [٢]، وأن لا يزفوا الصليب فى مدينة ولا قرية يوم الشعانين فى الشوارع[٣].

وكان أن تجرأ عوام المسلمين «ورتبوا على بعض الكنائس فى المدن والقرى فهدموها كما

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٩، ٣٩، ٤٣.

(٢) ساويرس: ص ١٥٩٧ وما بعدها من هذا الجزء الثالث.

(٣) ساويرس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

صبور طاهر جميل الافعال، وحمل الى كنيسه القديس ابو سرجه واجتمع الشعب كله وجميع الكهنه المصريين والقاهريين اليها في تلك الليلة. وفي غدها، وكان يوم عيد الخمسين المقدس واتفق ايضا انه كان يوم عاشورا، وحضر الاب اغريغوريس بطرك الارمن لتنجيزه والصلاة عليه، واخرج منها الى التربه التي كان بناها في [بركة] الحبش عند وفاة اخيه القس الراهب سويرس - نيح

تعرضت كنيسة العذراء مريم ببلدة أبريم عند غزو النوبة سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، للهدم والتخريب على يد قوات توران شاه، الذى أمر بحرق الصليب الكبير الذى فوق قبتها، ثم حول الكنيسة مسجدا للمسلمين (١).

وشهدت مصر في الفترة من عام ٥٧٠هـ الى عام ٥٧٥هـ على وجه الخصوص والأعوام التي بعدها، أكبر حركة تعمير وترميم وتجديد للكنائس، وتذكر المصادر والمراجع النصرانية اسماء العديد من الشخصيات المرموقة من أعيان القبط وكبار الموظفين منهم الذين أسهموا بنصيب كبير وجهد وافر وأموال طائله في تعمير الكنائس، ومن هؤلاء أمين الدولة ابن المصوف أحد كتاب الادارة المالية من النصارى في عهد صلاح الدين الذى بذل من امواله الشئ الكثير في تجديد بعض كنائس الفسطاط (٢). والشيخ شرف الرياسة سعيد بن هيلان الكاتب النصراني الذى أسهم في تجديد كنيسة أبي السيفين بالفسطاط وجعلها من أورع العمائر الدينية المسيحية في عصره (٣)، وأبو الفتح بن الأقمص المعروف بالحوفي المصور القبطي اللامع الذى زين كنيسة الزهرى التي كانت للأرمن وآلت الى الأقباط - بأيقونات

(١) ابو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢.
(٢) ابو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ٥٠.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، ص ٢٣٦.

الله نفسـه ـ والكهنه والشعب حول تابوته يمشو ويبكو ويقـرو ومـعـهم الشـمع الموقـود والبطرك والاراخنه ومن حضـر من الاساقفه ركاب خلفه. وحزن عليه جميعهم حزن شديد لمعرفتهم انهم لا يجدو مثله ولا من اجتمع فيه الفضايل والعلم والطهاره والكهنوة مثلما ما اجتمع فيه. وكان الاب القديس ابا مقاره البطرك غايب في قلايته التى في ازرى بجزيرة بنى نصر فكتبت اليه(*)، انا الخاطى

(*) الخطابات المتبادلة بخصوص=

لمختلف القديسين[1] والفضل بن فروج أحد الأعيان النصارى الذى اهتم بعمارة وترميم عدد من الكنائس وتزينها حتى لقد جعل كنيسة أبى جرج[2] ـ (مارى جرجس) ـ بقصر الروم من الفسطاط[3] رائعة البنيان وعامرة بالمصلين،كما اهتم الشيخ الأسعد بن ميخائيل بعمارة كنيسة الزهرى[4]، كما أعمر كنيسة مارمينا بالحمراء من الفسطاط، غيرها من الكنائس، «وكان يتعهدهم ويتفقدهم بالقداسات فيهم، ويهتم بأقمنة الجير حتى كملت العمارة»، وشاركه أعيان القبط فصنعوا لكنيسة مارمينا المشار اليها، الأوانى الفضية الثمينة اللازمة للطقوس الدينية، وضموا اليها بستانا، وأقاموا عليه السواقى[5]، كما أن الشيخ السديد أبا الفضايل المعروف بابن ستمائة، كاتب الامير على بن أحمد الكردى، جدد فى عهد صلاح الدين كنيسة الملاك ميخائيل[6].

ومن الجدير بالذكر أن عامة المسلمين بتحريض من بعض المشايخ اصحاب المصالح أبدوا

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٧.
(٢) اريس حبيب : المرجع السابق، ص ٢٣٦.
(٣) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.
(٤) سميكة : المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٨.
(٥) رزوف حبيب: المرجع السابق، ص ٨٧.
(٦) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٨.

يوحنا ابن صاعد كاتب هذه السيره كتاب اعزيه فيه، هذه نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم(*)، قد صدرت كتبى الى الحضره الساميه القديسه النفيسه البطركيه الفاضله الرييسه، فخر الله اليعقوبيه وضيا البيعه الارتدكسيه، سيد الابا ورييس الرووسا، المخصوص بالفضايل الروحانيه، والمواهب العلويه، والافعال المرضيه، خليفة مارى مرقس الانجيلى ثالث عشر الجمع الرسولى، حرس الله مجدها

= تعيين اسقف لمصر بن يوحنا ابن صاعد والبطرك مقاره.
(*) لاحظ هنا البسملة فى صدر خطاب قبطى.

استياءهم لقيام النصارى ببناء الكنائس ويروى المؤرخ النصرانى الأرمنى أنه لما جددت كنيسة مارمينا بالحمراء، «غاروا لاقامتها الحسدة والمعاندين واستعانوا بعوام القوم، فنهبوها وهدمت أيضا [1].

كما جرت خطوب كثير من المسلمون، عندما قام الأسعد صليب بن ميخائيل بهدم بيت العجين بكنيسة مارمينا السابق الاشارة اليها، وأفرده كنيسة على اسم القديس مارجرجس، بباب مفرد مجاور للكنيسة الكبيرة، وثار الغوغاء من المسلمين، ولم يمكنوا المصريين النصارى من بنائها، مع أنهم قدموا مايثبت أنها جزء من الكنيسة الكبيرة ولم تكن مستجدة.. وشهد من المسلمين من يعرف أنها كانت بيتا داخل الكنيسة ممن يقبل شهادته من جيران البيعة [2]، بل ان هؤلاء الغوغاء المسلمين» هدموا احدى بيعتين على اسم الملاك غبريال بطمبدى سنة ٥٨٠هـ[3].

وأحيانا ما اضطرت السلطات الحاكمة الى الخروج عما انتهجته من سياسة تجاه الكنائس تغليبا للرأى العام الاسلامى المتعصب ضد المصريين القبط، فقد أمر صلاح الدين بسحب

(١) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٣٣.
(٢) ابو صالح الارمنى: نفس المصدر، ص ٤٠.
(٣) ابو صالح الارمنى: نفس المصدر، ص ١١٥.

وثبت سعدها واهلك ضدها، متضمنه ما عندى
من الشوق المسيحى، والارتياح الروحانى، والتلهف
الى قربها، والتبارك من قدسها، والرب جل اسمه
يسرنى بمشاهدتها والنظر الى رياستها، ولا يعدمنى
بركة صلاتها بجوده وعميم رحمته. غير خاف عن
علمها ما كان من نياحة الاب السعيد الفاضل انبا
سنهوت اسقف مصر، ولدها الروحانى ومحبها
الحقانى نيح الله نفسه وارضاه بنظر وجهه، وكرم

أصدره سنة ٥٦٤هـ والذى تملك القبط بمقتضاه كنيسة الزهرى، ورسم بأن يغلق باب الكنيسة.

وازاء نشاط النصارى فى عمران وتجديد كنائسهم فى عهد السلطان الملك الصالح أيوب، نجد رجلا مسئولا هو أبو عثمان النابلسى الصفدى (ت ٦٤١هـ) الذى أشرف على اقليم الفيوم، يسجل فى كتابة «تاريخ الفيوم وبلاده» قائمة بكنائس وأديرة الفيوم البالغ عددها خمسة وعشرون كنيسة وثلاثة عشر ديرا[١] لئلا تطول المدد فى مستقبل الزمان، ويستغفل ولاة الأمور لتنائى هذا القطر عن الفسطاط، وانزوائه عن مرور السالكين اليه وعنه، فيبنى أحد من النصارى الأقباط الجبابرة الجهال الذين لاينظرون فى العواقب كنيسة أو ديرا، ويدعى قدمه اذا تنبه اليه أحد فى مستقبل الزمان... فيكون ذكر الديرة والكنائس مانعا من دعوى الزيادة عليها»[٢].

(١) أبو عثمان النابلسى: تاريخ الفيوم وبلاده ، ص ٢٢.
(٢) أبو عثمان النابلسى: نفس المصدر ، ص٤.

مثواه وانشي اجلها واحسن عزاها وطول عمرها، وجعل الكافة فداها، وهى تعلم ان هذا الكرسى لا يجرى مجرى غيره من الكراسي القبليه والبحريه لان فيه اراخنه مصر ومقدميها ووجوه اقباطها ورويساها، وهم كتاب الدوله وخدام المملكه، واسقفهم فى كل اوان يحضر بحضرة ملك الزمان. ويجب ان يكون الذى يقام لرعايتهم وينتصب لسياستهم والنظر فى احكامهم وامورهم

(علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدول المسيحية) وأثر ذلك على المصريين من أهل الذمة

- علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدولة البيزنطية.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين بالصليبيين.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد الحبشة.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبة.

علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدولة البيزنطية

شهد النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى/ النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى توترا واضطرابا فى العلاقات بين مصر وبيزنطة.

ذلك أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى أرسل الى الامبراطور قسطنطين التاسع ـ وكانت العلاقات اذ ذاك طيبة ـ يطلب منه امداد مصر بأربعمائة ألف أردب من القمح على أثر المجاعة التى حلت بمصر ابتداء من عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م. ولم يتردد الامبراطور فى الموافقة على ارسال ما طلبه المستنصر من الغلال ، غير أنه ما لبث أن توفى فجأة سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، واشترطت الامبراطورة تيودروا التى خلفته على العرش عقد معاهدة دفاع مشترك، تتعهد فيها

قد بلغ الكهوليه وعرف بلزوم طرايق الرهبنه، وقراة الكتب الشرعيه، وخدمة الهياكل المسيحيه، وحفظ الطقوس الكهنوتية، والنظر فى القوانين الرسوليه، واشتهرت حسن عبادته، وعلمه وطهارته، ونسكه وجميل سيرته، وعفافه وتواضعه، وجميل طريقته اذ كانت، ثبت الله سعدها، عارفه بما جرت به عاده المصريين مع اساقفتهم قديما وحديثا، وان نساهم وبناتهم واخوتهم واهاليهم يتضوررو

مصر بمساعدة البيزنطيين ضد أى اعتداء مقابل حصول مصر على الغلال من بيزنطة، غير أن المستنصر بالله رفض الموافقة على مطلب الامبراطورة، فأضطرت بدورها الى الغاء صفقة القمح مع مصر، [١].

وقد أثارت سياسة الامبراطورة غضب المستنصر بالله، وعول على محاربتها [٢]، فأرسل حملة بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، حاصرت اللاذقية، وعاثت فى أعمال انطاكية [٣]. غير أن الامبراطورة أنفذت حملة بحرية أوقعت الهزيمة بالجند الفاطمى فى سنة ٤٤٧هـ[٤]، مماحمل المستنصر بالله على أن يعهد الى القاضى أبو عبد الله القضاعى بالذهاب الى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، ولكن الامبراطورة لم تحفل بوجوده [٥]، ومنعته من اقامة الخطبة باسم الخليفة الفاطمى فى جامع القسطنطينية [٦] بينما سعت الى التقرب من

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦ ، ٧ .=
=ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .
ـ ــــــ: الخطط ، جـ١ ، ص ٢٣٥ .
(٢) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .
(٤) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .
(٥) ــــــ: نفس المرجع، ونفس الصفحة.
(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ ،ص ٢٣٠ .

[يتضرعوا] الى اسقفهم فى مهماتهم، ويخلو به فى ملماتهم، ويشكو اليه ضرهم وما يجرى عليهم من ازواجهم واهلهم، ويكشفو له اسرارهم، ويحتكمو اليه فى امورهم سرا وعلانيه، ويستشيروه فى نوايبهم الظاهره والباطنه، فيكتم ما يسمعه منهم ويشير عليهم بما يعود بمصالحهم، ويصبرهم ويعزيهم ويتلطف بهم، ويبذل جهده فى صلاح ما بينهم وبين رجالهم، خفيا بحسن سياسته كما كان

الترك السلاجقة الذين كانوا راغبين فى ذلك وأرسلوا سفارة الى القسطنطينة [١]، لقيت الترحاب من الامبراطورة، وصرحت لرسول طغرليك السلجوقى بأن أقام الخطبة فى جامع القسطنطينية للخليفة القائم بأمر الله العباسى [٢].

ورد المستنصر ـ ازاء هذا المسلك العدائى من قبل بيزنطة نحو الفاطميين ـ بأن أرسل الى كنيسة القيامة بالقدس من أخذ كل ما فيها من تحف وذخائر وأثاث، و أخرج البطريرك منها الى دار مفردة، وأغلق أبواب الكنائس فى مصر والشام، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين، كما زاد على النصارى الجزية [٣]، ومنع وصول الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس [٤]. وقد أدت كل هذه الاجراءات الى تقييد الحرية الدينية للمسيحيين فى مصر والشام، والى توتر العلاقات بين الدولتين.

وظلت العلاقات عدائية بين الفاطميين والبيزنطيين الى أن وجه الصليبيون حملاتهم على الشام، فوقفت الدولة البيزنطية موقفا محالفا للصليبيين فى الدور الاول من هذه الحروب الأمر

(١) ماجد: الامام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٧٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٣٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٣١.
(٤) أسد رستم: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٨.

يفـعل الاب المتنيح ومن كـان قـبله قـدس الله
ارواحـهم. فلهـذا وغـيـره من احكام هذا الكرسى
ينبغى ان يكون اسقفه قد بلغ حد الكهوليه، او قد
تعداها، وعرفت حميد طريقته فى زمان شبيبته
ولزومه نواميس الرهبنة، واشتهر بالعفاف والصيانه
والتواضع والديانه والصبر والطهارة وصحة الامانه،
والمعرفه بالعلوم الالهيه والسياسه الكلية، والاداب
البيعيه والاحكام الشرعيه، والامانه الارتدكسيه

الذى ترتب عليه تأييدهم للحملات الصليبية ضد المسلمين لا فى الشام فحسب بل فى مصر أيضاً[1].

ولما نجح الصليبيون فى تأسيس الامارات الصليبية فى الشام كان الامبراطور البيزنطى يحرص على أن يبدو وبمظهر السيد الأعلى الحقيقى على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام، بل أن الامبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين أجبر ريموند أمير انطاكية على تقديم الولاء لـه[2] عندما قاد حملة ضد المسلمين سنة ١١٣٨م، واضطر ملوك مملكة بيت المقدس للخضوع للنفوذ البيزنطى وتوثيق علاقاتهم بالأباطرة البيزنطيين[3].

ولما أخذت الأخطار تواجه الفرنجة ببيت المقدس من جراء ازدياد نفوذ نور الدين محمود ـ أمير حلب، وطموحه الى بسط نفوذه على مصر. أدرك عمورى ملك بيت المقدس الذى طمع فى مصر أيضا أنه فى حاجة الى قوة كبرى تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى مصر. وفكر فى تقوية الرابطة مع الامبراطورية البيزنطية، فتزوج بمارى كومنين أبنة أخى الامبراطور البيزنطى

(١) عبد الرحمن الرافعى، سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى الطبعة الاولى ، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٤٦.

(٢) أسد رستم: الروم ، جـ٢، ص ١٥٢.

(٣) كمال توفيق عمر: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٤٨.

والخدمه الكهنوتيه، والقوانين الحقيقية، ويتعين على قدسها وحنوها على شعبها ان يصلى عنهم ويفرغ نفسه النفيسة للفكر فيمن يتخيره لهم ويستصلحه للتقدم عليهم، ويحمل عن قلبها ثقلهم اذ كانت حرس الله عزها عارفة بالاباء والحبسا والمتوحدين فى البرارى والقلالى. وما يخلو ان يكون فيهم من هذه صفته فيرشدها الرب اليه ويدلها بجميل نيتها عليه ببركة صلواتها وحسن طويتها وقدسها

مانويل كومنين [1]، كما تزوج امبراطور بيزنطة بمارى أبنة أمير انطاكية، مما قوى الصلة بين البيزنطيين والفرنجة [2] وكانت النتيجة أن أبدى البيزنطيون استعدادا للاشتراك مع الصليبيين فى حملات عسكرية ضد مصر [3] وبخاصة أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول على الفوز بديار مصر [4].

وما أن أرسل عمورى ملك بيت المقدس مبعوثا سنة ١١٦٨م الى القسطنطينية يحمل اقتراحا يقضى بفتح مصر، حتى سارع الامبراطور ما نويل بارسال سفارة الى بيت المقدس حملت الى عمورى شروط مانويل التى انطوت فيما يبدو على أن يكون له نصيب من غنائم مصر، وأن يكون له التصرف التام فى أمر انطاكية فضلا عن التنازل عن بعض ممتلكات الفرنجة فى الشام.

ولما كانت هذه الشروط بالغة التطرف من وجهة نظر عمورى الأول فقد أرسل الى القسطنطينية المؤرخ الشهير وليم الصورى كبير شماسة صور، لاستئناف المفاوضات مع

(١) عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٦٩٤.
(٢) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٢.
(٣) كمال توفيق عمر: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص ١٤٩.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ : ص ٦٩٤.

وطهارتها ومحبتها وفكرتها، فاذا كان هذا هكذا فانا اومن ان الله تعالى يجمع قلوب الكافه على طاعته وقبوله ومحبته والرضا بتقدمته عليهم ورعايته لهم بمعونة الروح القدس السابغ نعمه ومواهبه على مستحقيها، ورأيها الموفق فى الوقوف على هذه الخدمة والنظر فيما تضمنته بصويب [بصواب] رايها السعيد والصفح عما لعله فيها من ذلل، وكتابها [جوابها] الكريم. فانا اتشرف به واسر

الامبراطور مانويل، وفى شهر سبتمبر سنة ١١٦٨م تم ابرام المعاهدة التى تقضى بأن يقتسم الامبراطور والملك كل ما يجرى من الفتوح فى مصر [١]. لكن هذه المعاهدة لم تنفذ اذ لم يشأ عمورى الأول أن ينتظر فراغ الامبراطور البيزنطى من مشاغله فى البلقان وانفرد دون شركائه البيزنطيين بالهجوم على مصر، اذ وجد عمورى نفسه مضطرا للاسراع فى العمل نتيجة انقلاب سياسة الوزير شاور ضد الصليبيين [٢]، كما أن فرسان مملكته وذوى الرأى فيها أشاروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم والتقوى بها فى نزاعهم مع نور الدين اذ كان اعتقادهم أن فتحها ميسورا وسهلا بسبب وجود حامية لهم عند أبواب القاهرة [٣]، غير أن نور الدين سارع بارسال شيركوه فى حملته الثالثة على مصر، واستطاع شيركوه أن يخلص مصر من خطر الفرنجة وأن يتولى الوزارة الخليفة العاضد الفاطمى فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/ مارس ١١٦٩م [٤].

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٣.
ـ عاشور: الايوبيون والمماليك، ص ٢٦، ٢٧، ٢٨.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٩٦٥.
ـ عاشور : الايوبيون والمماليك، ص ٣٠.
(٣) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم فى مصر، ص ٤٦٨.
ـ ـــــ: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٣.
(٤) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٤.

بوروده واتبارك بوفوده واسعد بنظره سعودى بالنظر الى قدسها، وارغب فى مواصلتى به متضمنا اوامرها ومهماتها وان تذكرنى عقيب صلواتها على معهود عاداتها ان شاء الله تعالى.

فوصل الجواب بما نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم(*)، وصل كتاب الولد الحبيب الموفق السعيد المخصوص بالمحبه الروحانيه والعلوم الدينيه اطال الله بقاه وادام تايده وعلاه وتمكينه وكبت

(*) لاحظ البسملة في مفتتح رد الخطاب كذلك.

أصاب الفزع الصليبيين فى الشام لنجاح قوات نور الدين فى السيطرة على مصر بقيادة شيركوه، «وأيقنوا الهلاك»، كما ثارت مخاوفهم وازداد قلقهم «على بيت المقدس من المسلمين» (١) وأرسلوا جماعة من الرهبان والقسوس الى مسيحى أوروبا لنجدتهم (٢)، كما قرر عمورى من جديد الاستعانة بالبيزنطيين بقصد احتلال مصر (٣).

ولم يكن الامبراطور البيزنطى أقل انزعاجا لاتحاد مصر والشام تحت زعامة نور الدين محمود، لذا رحب فورا بتجديد اتفاقية سنة ١١٦٨م بينه وبين الصليبيين حول الاشترك فى مهاجمة مصر واقتسامها. وأعد الامبراطور البيزنطى أسطولا كبيرا غادر مياه الدردنيل فى ١٠ يوليو سنة ١١٦٩م قاصدا قبرص ومنها الى صور ثم عكا (٤)، وهناك «اجتمع الفرنج والروم جميعا وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية، والاستيلاء عليها وملكها ورأوا التوجه إلى دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه» (٥) ـ وشدد الأسطول البيزنطى الصليبى حصاره لدمياط فى صفر سنة

(١) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٤٥٦.
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق٢، ص ٤٥٨.
(٣) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٤.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧١٤.
(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ١،

اعداه وبارك عليه، وحفظه بيمينه الحصين، ونجاه
من مصايد العدو وفخاخ الاشرار، واستجاب من
مسكنتى فيه صالح الدعا بشفاعة القديسين، ووقفنا
عليه وسررنا بمعرفة خبره اطابه الله، ولم يذكر شيا
من الشوق والوحشه الا وعندنا اضعافه، ونسال الله
قرب الاجتماع على الايثار بمنه وجوده. فاما ما
شرحه من وفاة اسقف مصر قدس الله روحه
وجعلها مع انفس الابرار فقد علم الله ما نالنا لفقده

٥٦٥هـ/ ١١٦٩م، كما احاط بها الفرسان والمشاة برا، اذ كان الامبراطور البيزنطى يرجو أن تحقق هذه الحملة اطماعه فى التوسع فتصبح مصر من الاقطار الداخلة فى دائرة نفوذه[١].

غير أن الاسطول البيزنطى منى بخسائر فادحة، اذ تشير المصادر الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطى أبلغ الضرر واجبرته على الابتعاد عن شاطئ المدينة، ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع لنفاذ تموينها، فاقترح القائد البيزنطى على عمورى قائد الحملة القيام بهجوم شامل على دمياط، ولكن الملك الصليبى عارض الفكرة، بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين وزير العاضد، داخل المدينة، واستبسالهم فى الدفاع عنها [٢]، وارسال صلاح الدين المدد بعد المدد.. وتواصل الأنصار[٣] الى دمياط، كما حشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر [٤] وانتهى

(١) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧.
ـــــ: الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٣٣.
(٢) عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص ٧١٣.
(٣) أبو شامة: الروضتين، حـ١ ، ق٢ ، ص ٤٥٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل ، ح١١ ، ص ١٣١.

من الحزن والكآبه ما لا نقدر نصفه، فاما ارشادنا
الى ما نعتمده فيمن نقدمه بعده مما يقع التراضى
عليه فالامر لله يقدم من يراه وراى من يجرى
مجراه من الاراخنه الصايب فيه، ولو وجدنا من
كملت فيه الاوصاف التى تضمنها كتابه ما عجلنا
تقدمته برابنا ولا كنا نجهل الى هذا الحد الممنوع
منه. نسال الله ان يقضى بما فيه الخيره وحميد
العاقبه وكتابه المسرور لا يخلينا منه متضمنا ذكر

الأمر باخفاق الحملة[١]. وانسحاب السفن البيزنطية من المياه المصرية فى الحادى والعشرين من ربيع الأول، بعد أن عجز بحارتها من السيطرة عليها والتحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وارهاق وغرق كثير من السفن، وظلت الامواج تقذف بجثث بحارتها على الشاطئ مدة أيام [٢].

وقد أسفرت الحملة عن اثارة المهاترات بين الصليبين والبيزنطين، لذا وجه الصليبيون اللوم الى البيزنطيين لتقاصر المؤن، وتوافر عند البيزنطيين من الداعى ماجعلهم ينكرون على الصليبيين تأخرهم فى الهجوم على دمياط. على أن كلا من الجانبين عمورى والامبراطور ادرك أنه لابد من بقاء التحالف قائما ، خاصة وأن الحملة أسفرت أيضا عن تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر، وأضحى سيد مصر بلا منازع.

واستمرارا للتحالف البيزنطى الصليبى ضد مصر سافر عمورى ملك المقدس فى ١٠ مارس سنة ١١٧١م الى القسطنطينية، وانعقدت بين الامبراطور البيزنطى والملك الصليبى معاهدة تم التوقيع عليها غير أن شروطها لم يتم تسجيلها، ويبدو أن الملك الصليبى اعترف فى صورة غامضة بسيادة الامبراطور البيزنطى على المسيحين الوطنيين ، كما وعد الامبراطور مانول

(١) السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧١٤.

اخباره واحواله وسلام الرب يكون معه ورحمته تحل عليه.

فكتب في سلخ شهر بشنس سنه اربع وثلثين وثمان مايه [للشهداء] هذا التاريخ على ان اول السنة برموده(*) وتاريخ كتابى اليه اول السنه توت بمقتضى حساب الابقطى. ولما وصلنى الجواب المذكور عن كتابى الصادر عني خاصة، اصدرت اليه كتابا اخر عنى وعن جميع الشعب، هذه

(*) برموده = مارس / ابريل. يلاحظ هنا ان السنة الهجرية ٥١٢ تبدأ فى ٢٩ برموده عام ٨٣٤ للشهداء.

مساعدة بحرية ومالية متى تقرر وضع خطة لتوجيه حملة أخرى ضد مصر، كما قام الامبراطور بعمل عدة أصلاحات فى كنيسة القيامة بالقدس (١).

وبعد هزيمة الامبراطور مانويل فى معركة «اسكى شهر» فى سبتمبر سنة ١١٧٦م على يد السلاجقة فى سبتمبر سنة ١١٧٧م أرسل سفارة الى بيت المقدس لتعرض على بلدوين الرابع احياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، ليعوض ما لقيه من هزيمة أمام السلاجقة، وأرسل الى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعدادا لغزو مصر، غير أن مرض بلدوين الرابع وطول الأخذ والرد حول مشروع غزو مصر، أدى الى يأس المبعوثين البيزنطيين من جدية تفكير الصليبيين فى غزو مصر، فانسحبوا ومعهم سفنهم الى البسفور (٢).

وبموت مانويل كومنين سنة ١١٨٠م خسر الصليبيون حليفا قويا مناهضا للمسلمين، بل أن حلفاءه نظروا الى الصليبيين على أنهم أعداء لاحلفاء (٣) كما بدأت صفحة جديدة فى العلاقات الطيبة بين البيزنطيين وصلاح الدين سلطان مصر، اذ أرسل الامبراطور الكسيوس

(١) رنسمان : المرجع السابق، جـ٢، ص ٦٣١، ٦٣٢.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٧، ص ٧٥٤.
(٣) عاشور: نفس المرجع، ونفس الصفحة.

نسـخـتـه: بسم الله الرحـمن الرحـيم، لما كـانت
التعزيه، اطال الله بقا الحضره السامیه النفیسه
الریسه الاجلیه البطرکیه القدیسه سیدة الابا،
وریسه الرووسا، المتوجة بالنعمة السماییه، المکللة
بالفضایل الروحانية، فخر الارتدکسیه وضیا البیعه
المسیحیه، وعماد الملة الیعقوبیه تاج بنی المعمودیه،
ثالث عشر الحواریین الاطهار، خامس الانجیلیین
الابرار خلیفة ماری مرقس الانجیلی، حرس الله

الثانی کومنین مبعوثا من قبله وصل الى القاهرة فی صفر سنة ٥٧٧هـ وقع صلحا مع صلاح الدين، وتم بموجبه فی جمادی الآخرة اطلاق سراح مائة وثمانين من أسرى المسلمين ممن وقعوا فی أيدی الصليبيين (١).

وفی سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م تعرض البيزنطيون لغارات النورمان وتهديدهم كما واجه صلاح الدين الامارات الصليبية فی الشام والتی فصلت بين شطری ممتلكاته. ومن ثم أرسل الامبراطور البيزنطی أندرونيكوس الاول كومنين فی سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م سفارة الى صلاح الدين يعرض قيام تحالف بينهما ، يقدم بمقتضاه صلاح الدين المساعدة للبيزنطيين ضد النورمان، على أن يقدم البيزنطيون المساعدة لصلاح الدين ضد الصليبيين فی الشام وفی حالة الاستيلاء على فلسطين يتم اقتسامها بينهما على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ماعدا عسقلان، لاضافتها الى الامبراطورية البيزنطية، وليس معروفا مدى استجابة صلاح الدين لهذه المقترحات، غير أنها فيما يبدو حازت القبول (٢).

وعندما تولى اسحق الثانی انجيلوس عرش الامبراطور (١١٨٥٠ ـ ١٩٥م) فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين، وقد شجعه على ذلك قبول صلاح الدين لفكرة التحالف مع

---

(١) المقريزی: الملوك، حـ١ ، ق١ ، ص ٧٢.
(٢) زبيدة عطا: الشرق الاسلامی والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ص ١١٤ ـ ١١٦.

عـزها، وادام تمكينهـا، وانفـذ احكامهـا، واسـعـد
ايامها سنه بعد التأجيل بها مقصرا فيما وجب
عليه، والنازل لها متاخرا عما لزمه البدار اليه،
وكانت بما ميزها الله تعالى به من القدس الجليل
والفضل الجزيل، والعلم ان هذه الدار الدنيا دار ممر
والاخره دار مقر، وبما استرعاها اياه من امر شعبه
واستخلصها له من هداية المومنين به، يرشد الناس
الى الهدى ويوضح لهم مناهج التقوى، وبتعاليمه

- -

بيزنطة، كما سره أن يجد حليفا قويا فى صلاح الدين وبخاصة بعد أن تعرضت عاصمته القسطنطينية لتهديد النورمان فأقر معاهدة التحالف بين مصر وبيزنطة (بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين) وما أن وصل الى الامارات الصليبية نبأ التحالف البيزنطى الاسلامى حتى أصابهم الفزع، وقبضوا فى سنة ١١٨٦ على الكسيوس انجيلوس أخ أسحق الذى كان ضيفا على صلاح الدين أثناء اجتيازه عكا اذ أمسك به كونت طرابلس وأمر بحبسه ردا على التحالف البيزنطى الاسلامى. وكان أن كتب الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس الى صلاح الدين يحثه على مهاجمة الامارات الصليبية لكى يتم اطلاق سراح أخيه الكسيوس [١].

على أن الصليبيين فسروا تحرك الاسطول البيزنطى بالهجوم على قبرص فى هذه الأثناء على أنه مساعدة بحرية كى يقوم صلاح الدين بهجومه على الامارات الصليبية ، كما فسروا أن هجوم صلاح الدين على مدينة بيت المقدس واستيلاءه عليها فى رجب سنة ٥٨٣هـ / ديسمبر ١١٨٧م لم يكن ليتم الا بتشجيع من الامبراطور البيزنطى ومساعدته.

وحقيقة الأمر أن أسحق الثانى انجيلوس لم يشترك فى حرب صلاح الدين مع الصليبيين فى حطين، ووقف موقف المحايد [٢]، غير أنه بعد فتح صلاح الدين القدس، بادر السلطان

(١) زبيدة عطا: المرجع نفسه، ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) ماجد: العلاقات بين الشرق و الغرب، ص ١٧٦.

الروحانيه يخلص من حبايل الغرور وينجون من كل محذور ويرجون الفوز يوم النشور، اقتصرو منها على ما يقيمون به رسم خدمتها واغناهم العلم بحمله في التسليم لما قدره الله تعالى وقضاه، والرضا بما حكم به وامضاه عن الاكثار في هذا الباب، وحبب اليهم الاقتصار على الموجز من الخطاب. وقد كان من امر الله تعالى وحكمه العدل في نقل الاب القديس الرييس الطاهر انبا

الأيوبي بارسال سفارة الى الامبراطور البيزنطى أسحق الثاني ليخبره بما أحرزه من انتصارات على الصليبين ، وبما حققه من فتح [١]، وليسلم اليه مائة وتسعين من الرعاية البيزنطيين كانوا قد وقعوا في يده أثناء حروبه ضد الصليبين [٢] كما حملت سفارة صلاح الدين وفقا لتقاليد الدبلوماسية الشرقية الى الامبراطور البيزنطى هدايا فاخرة ، وقد استقبل اسحق الثانى سفراء صلاح الدين استقبالا حافلا ، وأظهر سرورا بالغا بما حملته من أنباء طيبة ومن هدايا ثمينة ، كما بالغ في استضافة مبعوثي صلاح الدين وأنزلهم في قصر منيف بالقسطنطينية وجدد المحالفة مع صلاح الدين، ثم رد الامبراطور اسحق الثاني بأن أرسل سفارة الى صلاح الدين، ومعها من الهدايا القيمة الشئ الكثير، وتاجا مرصعا بالذهب [٣]، لتهنئته بفتح القدس [٤] ولتبلغه بمطالب الامبراطور التي تتخلص في وضع كنيسة القيامة، وسائر كنائس القدس تحت اشراف رجال الدين الأرثوذكس الذين يعينهم الامبراطور البيزنطى ، وأن يرسل اليه صليب الصلبوت، كما طلب اسحق الثاني من صلاح الدين عقد تحالف

---

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٧.
(٣) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢١.
(٤) المقريزى: السلوك، حـ١، ق ١، ص ٩٨.

سنهوت اسقف مصر، نيح الله نفسه، الى حيث
اختار الله له دارا واعد لامثاله قرارا استحقه باعماله
التى قضى بين يديه واستوجبه بافعاله التى قربته
منه سبحانه، و ازلفته ماقت [مافت] فى الاعضاد
ونكا القلوب والاكباد. وعند الله يحتسب ذلك
الاب السيد الذى عمل فينا بمرضاته ولم يعدل بنا
عن مفترضاته، واليه نرغب خاضعين لعظمته واياه
نسال ضارعين الى رحمته ان يبقى على اولاد

بين الدولتين ـ مصر وبيزنطة ـ ضد الصليبيين «على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه» (١).

ووصلت السفارة البيزنطية الى عكا فى ٦ يناير سنة ١١٨٨م ، فاستقبل صلاح الدين رسل الامبراطور البيزنطى استقبالا رائعا، وأكرم وفادتهم (٢) لكن جميع مطالب الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس قوبلت بالرفض (٣)، وعلى تعبير ابن شداد فان الامبراطور البيزنطى «أجيب بالمنع عن جميع مقترحاته» (٤).

ومع هذا فاننا نميل الى الأخذ بما أورده البعض من أن صلاح الدين استجاب لمطالب الامبراطور اسحق بعد أن تمهل قليلا (٥). وهذا لا يتنافى مع ما ذكره ابن شداد آنفا، لأن أهم خبر حمله رسل الامبراطور البيزنطى الى صلاح الدين هو ما حدث فى الغرب من الدعوة الى حملة صليبية جديدة لتخليص بيت المقدس من يد المسلمين (٦) ووعد الامبراطور

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٣٤٠.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٤٧.
ـ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢١.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٢٧.
(٤) ابن شداد : المصدر السابق، ص ٣٤٠.
(٥) رنسيمان : المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٥٦.
(٦) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٢.

المعموديه الجمال برياستها، ويعمر البيع الارتدكسيه
بدوام جلالتها ونفاستها، فان النعمه فى ذلك تكثر
ان تخطها الاقلام وتعظم ان يفى بها المسهب فيه
من الكلام. ولقد اتصل بتلاميذها ان وجع يسير
الم بها وعرض حقير عرض لها، فكانو فى صورة
الواله الحيران ارتياعا، وفى صورة الفاقد الثكلان
انزعاجا، الى ان تواترت الاخبار باقلاع الاذى عنها
واحسان الله تعالى الى الكافه فيها، فاخذ تلاميذها

اسحق لصلاح الدين بألا يمكن الالمان المشتركين فى الحملة الصليبية الجديدة من عبور بلاده [1].

وكان فتح القدس فى صالح المسيحيين الأرثوذكس وبخاصة رعايا الدولة البيزنطية، الذين أظهروا عواطفهم الى المسلمين أثناء حصارهم لبيت المقدس. ففى الوقت الذى اشتد هجوم صلاح الدين على القدس، اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك، وأعلن الفريق الاول أنه يفضل الحكم الاسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين [2] كما شاع أثناء حصار المسلمين للمدينة أن اليونانيين الارثوذكس المقيمين بالقدس والمعروفين بالملكانية كانوا مستعدين لتسليم المدينة، وأنه ثمة اتصالات سرية تمت بين الطرفين عن طريق يوسف بطيط وهو ملكانى، ولد ونشأ فى القدس ـ وتعهد يوسف بطيط أثناء الاتصالات بتدبير فتح أبواب المدينة على يد بنى جلدته وديانته [3] والراجح أن الملكانيين فى بيت المقدس قد اتخذوا هذا الموقف نظرا لما بذله صلاح الدين لهم من وعود فضلا عن أنهم لم يكنوا المحبة لجيرانهم الصليبيين من سكان المدينة، وكان لوقوف زعماء الصليبيين بالقدس

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٧٦.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٠.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٠٣.

من المسره الحظ الاسنى وجازو من الجذل بهذه المنحه النصيب الاوفى، وسالو الله تعالى ان يجعل لباس التقا سابغا عليها، وسبوغ النعما رهنا لديها وغير خاف عن علمها ادام الله علايها. ان كرسى مصر مميزا عن غيره فى كل الاوقات، محفوف بمراعاة امره على عدد الساعات، مستوجب للاحظة شانه مع اللحظات، لكونه دار الخلافه ومقر سرير المملكه. وان الحاجه داعية الى قسمة

على كراهية الملكانيين، وتأمرهم عليهم، أحد أسباب مبادرتهم بتسليم المدينة [١].

وعلى الرغم من أنه ليس ثمة علاقة بين صداقة أسحق الثانى انجيلوس لصلاح الدين وبين موقف الارثوذكس اليونانيين فى القدس [٢] فقد استفادت الكنيسة الارثوذكس ورجالها من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس [٣]، اذ فقدت الكنيسة اللاتينية نفوذها على الاماكن المقدس، كما فقدت ما كان لها من وضع يميزها على المسيحية الشرقية. وفى ظل الوضع السياسى الجديد فى القدس بعد فتحها وقوعها تحت الحكم الاسلامى، وفى عهد صلاح الدين لم يتعرض المسيحيون اليونانيون أتباع بيزنطة لأية مضايقات [٤]، فقد ظلوا مقيمين فى بيت المقدس، والتزم كل منهم بأن يؤدى الجزية فضلا عن الفدية المقررة عليه، كما ابتاع أغنياؤهم قدرا كبيرا من الأمتعة والاملاك التى أصبحت خالية بعد رحيل الفرنج [٥] كما أدى تحالف البيزنطيين مع صلاح الدين الى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضى

---

(١) عاشور: المرجع السابق، حـ٢، ص ٨٢٠.
(٢) عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٨٢٠.
(٣) عاشور: المرجع السابق، حـ٢، ص ٨٢٦.
(٤) العرينى: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٥) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٥.

اسقف يرسمه ترتضيه حضرته، ويرضى تلاميذه طريقته، ويحمد جميعهم سيرته وسريرته، عالما بدينه وامانته، موثوق بحكمته وحنكته وتجربته، وقد بان عنه غرة الشباب وحدته، وتميز بسن الكبر وخبرته، فيسير فيهم وفى حرمهم كسيرة من تقدمت رياسته عليهم، ممن اشترى الاخره بالدنيا، وارضى السيد المسيح بافعاله الحسنى، واتفقت الكلمة على استحقاقه الرياسة واستقلاله باثقال

المقدسة الى الشعائر الارثوذكسية اليونانية (١).

وقد رحبت الكنيسة الارثوذكسية اليونانية بالأراضى المقدسة بعودة الحكم الاسلامى، لما هو معروف من العداء التقليدى بين القسطنطينية وروما، فضلا عن عداء الامبراطورية البيزنطية للصليبيين لاسيما بعد وفاة الامبراطور مانويل كومنين (٢).

ولاشك أن الكنيسة الارثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس، اذ أتاحت عودة القدس الى حكم المسلمين الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم على المقدسات المسيحية (٣).

وما أن تأكد صلاح الدين من احتشاد الحملة الصليبية الثالثة التى حملت أخبارها سفارة اسحق الى صلاح الدين، حتى عقد العزم على أن يزيد من توثيق علاقته بالامبراطور البيزنطى كى يضمن مساعدته ازاء ما صح أن يمر بأراضيه رجال الحملة، لذا أنفذ مع السفارة البيزنطية عند عودتها سفارة من قبله ، عهد اليها بالقيام بمفاوضات من هذا القبيل. وفاقت هداياه فى هذه المرة كل ماسبق أن أرسله من هدايا ، كما أرسل صلاح الدين منبرا أعده ليكون بجامع

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٠.
(٢) العرينى: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٦.

السياسه ورضيته الجماعه مقدما عليها ومدبرا لها،
حسب ما اقتضاه قانون البيعه واحكامها، وقرره
قضا الشريعة وحكامها، الذين شد الله بها ما بنو،
وثبت بقدسها ما قضو وامضو واحلها فى
منصبهم، واقضى اليها بمنزلتهم، وجماعه رعيتها
يضربون لها المطانوه امام قدسها الطاهر،
واسكيمها الفاضل، فى شداد ازرهم والاهتمام
بصلاح امرهم ومساعدتهم في تخيير من يرضاه

القسطنطينية، وكان لابد للامبراطور أن ينصبه، تكريما للمسلمين، وفقا لما بذله من وعد سابق أثناء المفاوضات الثالثة بين اسحق وصلاح الدين، ففى هذه المفاوضات أهتم صلاح الدين بالمحافظة على اقامة الشعائر الدينية الاسلامية والدعوة للخليفة العباسي، بجامع القسطنطينية وبعمارته كما أبدى اسحق رغبته فى اقامة الشعائر الارثوذكسية اليونانية فى كنائس الأرض المقدسة [١].

غير أن هذا المنبر لم يصل الى القسطنطينية اذ استولي الجنويون على السفينة التى كانت تحمله الى العاصمة البيزنطية، وحملوه الى صور حيث أذاع كونراد مونتفران حاكم صور وقتذاك نبأ الاستيلاء على المنبر فى سائر انحاء أوروبا واعتبر الصليبيون ارسال المنبر الى القسطنطينية دليلا ملموسا على التحالف بين الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس وصلاح الدين[٢]، واذا كان امبراطور المانيا وملك فرنسا قد ارسلا الى ملك بيزنطة بعزمهما على القيام بحملة الى الاراضى المقدسة فى فلسطين، ويطلبان منه تقديم التسهيلات اللازمة

---

(١) أبو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١٥٩.
- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٣، ١٢٤.
(٢) أبو شامة: الروضتين، حـ٢، ص ١٥٩.
- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٤.

ويرتضوه، ويراه مستحقا لكشف من وراهم ويروه، وعلمهم بما توجبه على نفسها فى هذا الحال اغناهم عن بسط المثال ورايها فى اجابتهم عن هذا الكتاب، بما يغنيهم عن تكرار الخطاب وذكرهم فى صلواتها المقدسه وادعيتها المقبوله المستجابه الموفق الاعلا ان شاء الله تعالى.

واوقفت الجماعه من الكهنه وبعض الشعب على هذا الكتاب فاستصوبوه واتفقت كلمتهم

لقواتهما أثناء مرورها بالاراضى البيزنطية، فان الامبراطور البيزنطى كان قد عقد العزم على تجديد تحالفه مع صلاح الدين [1].

وفى الرسالة التى بعث بها كونراد مونتفران حاكم صور الى أسقف كونتربرى فى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٨م ألقى الضوء على أهم ما ورد فى المحالفة بين صلاح الدين والبيزنطين من شروطه وما قرره صلاح الدين من أن تسير كل الكنائس فى فلسطين التى استولى عليها وفقا لمذهب بيزنطة (الأرثوذكس) كما ألقى الضوء على التزام اسحق بأن تجرى الشعائر فى مسجد القسطنطينية على المذهب السنى [2].

وقد أثارت أنباء تحالف اسحق الثانى مع صلاح الدين ثائرة الغرب الاوروبى وزعمائه ضد الامبراطورية البيزنطية مما أدى الى ازدياد مخاوف الامبراطور على بلاده، وبخاصة عندما تحركت حملة فردريك بربروسا ـ وهى طلائع الحملة الصليبية الثالثة فى مايو سنة ١١٨٩م، وقد شقت طريقها عبر هنغاريا فى اتجاه القسطنطينية[3]، ومن ثم سارع الامبراطور البيزنطى بايفاد مبعوث من قبله ومعه رسالة الى صلاح الدين، وصلته وهو فى مرج عيون بالشام فى رجب

(١) عاشور: الحركة الصليبية ، حـ٢، ص ٨٤٥.
(٢) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٥.

على الرضا به وتسييره الى الاب القديس ابا مقاره البطرك، وكتبوا عنوانه تلاميذها جماعة النصارى اليعاقبه المصريين، وسيرته اليه مع رسول قاصد، فعاد الجواب بما هذه نسخته:

وصل كتاب الاولاد الاحبا المختارون، والاخوه الشيوخ المكرمين الموفقين الاراخنه التقيين وكافة الشعب الارتدكسيين، اطال الله بقاهم وادام عزهم ونعماهم، وبارك عليهم وعلى منازلهم واولادهم

سنة ٥٨٥هـ، يخبره فيها بتحركات الحملة الالمانية ويعده بألا يمكن العاهل الالمانى ـ وقواته من العبور فى بلاده[١].

وفى المقابل بادر صلاح الدين بأن بعث رسالة الى اسحق الثانى تعهد فيها للامبراطور البيزنطى بوضع الاماكن المقدسة فى فلسطين تحت رعاية رجال الدين الارثوذكس واذا كان صلاح الدين قد وافق على تسليم كنيسة القيامة لرجال الكنيسة الارثوذكسية أتباع بيزنطة، فان الامبراطور البيزنطى وافق هو الآخر على أن يجعل لصلاح الدين نوعا من الوصاية على الجالية الاسلامية فى القسطنطينية [٢]، وكان صلاح الدين قد انفذ مع مبعوثه الى القسطنطينية سنة ٥٨٥هـ، حيث لقى باحترام عظيم، وكرم زائد، خطيبا لجامع القسطنطينية، ومنبرا، وجمعا من المؤذنين، «وكان يوم دخولهم الى القسطنطينية يوما مشهودا عظيما من أيام الاسلام» [٣].

ثم عاد رسول صلاح الدين فى سنة ٥٨٦هـ ومعه رسول من قبل اسحق الثانى وبيده

---

(١) ابن شداد: المصدر السابق، حـ٢، ١٣٢.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٢، ص ١٦٠.
ـ ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٢٨.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٦.
(٣) ابن شداد : المصدر السابق، ص ١٣٢.
ـ أبو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

وكافة حوزتهم باتم البركات، وافضل السعادات.
وحفظهم بيمينه الحصين ونجاهم من مناصب العدو
وفخاخ الاشرار، واستجاب من مسكنتي فيهم
صالح الادعيه بشفاعة القديسين والابرار امين.
مقصورا على احد امرين اما توبيخ، او عتب بحمد
عاقبته موعظة، مما لا حاجه الى تكريره ولا اقامه
الحجه فيه من تعزيه وغيرها، فما نزل منهم فيه
الاسهاب والمباشرة في ذلك الباب والاقتصار

كتاب من الامبراطور مختوم بالذهب[1] يتضمن اعلام السلطان «بخبر وصول المنبر من عند السلطان وكذلك الخطيب، والمؤذنين والقراء، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله العباسي[2].

واذا كان اسحق الثانى قد حرص فى رسالته الى صلاح الدين على «استعطاف السلطان واظهار مودته ومحبته» فقد اعتذر له الامبراطور «من عبور ملك الالمان ببلده» وأخبره أن العاهل الألمانى أثناء مرور قواته فى اراضى البيزنطية، «قد نال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأرهاه، وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع»[3].

وهكذا شهدا هذا الدور من العلاقات المصرية البيزنطية تكرار تبادل السفارات والمكاتبات بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطى اسحق الثانى انجيلوس [4]، الذى وقف موقفا عدائيا متشددا من الحملة الالمانية ووضع أمامها العقبات والعراقيل أثناء مرورها بالاراضى البيزنطية[5]،كما أخذ اسحق الثانى انجيلوس يرسل الرسالة تلو الأخرى الى صلاح الدين

(١) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص ١٢٨، ١٢٩.
(٢) المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ق١ ص ١٠٤.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٧٩.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٤٦.
(٥) العماد الاصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص ٣٩١، ٣٩٢.

والتحبب اليهم على الموجز من الخطاب ونعم، فاما
ما شرحوه من انتقال الاخ (القديس الحبيب
الروحانى) الاسقف انبا سنهوت اسقفهم قدس الله
نفسه وخروجه من هذا العالم الفانى ومصيره الى
الله سبحنه فنالنا عليه من الحزن الشديد والغم
الوكيد وكثرة البكا وغزير العبرات ما يزيد على ما
نصوره فى كتابهم مما نالهم عليه والعزا فيه واحد.
وانا اتحقق ان الله جل اسمه قد اسكنه مع الابرار

ليحيطه علما بأخبار الصليبيين الالمان وتحركاتهم، وعلى حد قول ابى شامة فى حوادث سنة ٥٨٥هـ «وكان ملك الروم يكتب الينا بأخبارهم ونبأ خروجهم ، ويقول أنا لا أمكنهم من العبور»[١]، وعندما عجز عن منع العاهل الالمانى من العبور فى الاراضى البيزنطية «لكثرة جموعه .. منع عنهم الميرة، ولم يمكن أحد من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم، فضاقت بهم الازواد والاقوات»[٢] مما جعل العلاقة بين الالمان والبيزنطيين تنقلب الى حرب سافرة انتهت بأن رضخ الامبراطور البيزنطى لمطالب الالمان وأخذوا منه «من الذهب خمسين قنطارا، ومن الفضة خمسين، ومن الثياب الطلسى المعدنية ما بلغ الألوف... وأمد على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه ومعروفى كبرائه»[٣].

واذا كان اسحاق الثانى انجليوس قد وقف هذا الموقف العدائى من الحملة الالمانية لعدائه للصليبيين اللاتين فان هذا الموقف أيضا يعبر عن صدق تحالفه ومساعدته لصلاح الدين.

واذا كانت تلك الحملة الالمانية، قد فشلت فى تحقيق أغراضها[٤]، كما فشأت بعدها

---

(١) أبو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١٥١.
(٢) ابن الأثير: الكامل، حـ١٢، ص ١٩.
(٣) العماد الاصفهانى: المصدر السابق، ص ٣٩٢.
(٤) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٨٠.

والصالحين في حياة النعيم معدن [بعون] رحمته، ودار كرامته، وسمع الصوت البهج الفرح ادخل الى فرح سيدك، واما ما ذكروه من تقدمه غيره وارشادنا الى معرفة القانون فيه لما علموه من عجزى وتقصير معرفتي فلا ضرر عليهم فيه، لان التذكار يقدح فوايد العلم، وان كان عجز او تقصير فليس ذلك مني بل هو منهم لتاخيرهم عن تقدمه غيره الى هذه الغايه حسب ما تضمنه

الحملة الفرنسية التي قادها فيليب أغسطس الى الشام [1]، فان الحملة الانجليزية بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا قد استطاعت أن تلتحم مع صلاح الدين في عدة معارك حربية في بلاد الشام، تخللها العديد من المفاوضات، وأنتهت بتوقيع صلح الرملة في شعبان سنة ٥٨٨هـ/ سبتمبر سنة ١١٩٢م، وقد سمح بمقتضى هذا الصلح للحجاج النصارى بحرية التوجه الى القدس لزيارة الاماكن المقدسة بالمدينة دون مطالبتهم بأية ضريبة أو رسوم مقابل ذلك [2].

غير أن ما لقيه هيوبرت والتر أسقف سالسبورى من مظاهر الترحيب والتشريف بالمدينة المقدسة عند زيارته لها، واستقبال صلاح الدين له، ومنحه الاسقف هدية عند وداعه، وموافقته بناء على طلب الاسقف تعيين اثنين من القسس اللاتين واثنين من الشمامسة اللاتين أيضا في كل من كنيسة القيامة، وكنيسة بيت لحم، وكنيسة الناصرة، قد أقلق بال الامبراطور البيزنطي، وبخاصة أن الشائعات التي بلغت القسطنطينية، ووصلت الى مسامع الامبراطور، رددت أن ريتشارد يلح على صلاح الدين في أن تتخذ الاماكن المقدسة في فلسطين صبغة مذهبية لاتينية.

(١) ماجد: المرجع نفسه ، ص ١٨٢، ١٨٣.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٩١.

القانون الذى عرفونى به، ولا خروج لى عنه ولا اعلم السبب فى تاخيره، فانه يقول ان يكون الاسقف مختارا من شعبه ويقع التراضى من جميعهم عليه، ويكون معروف بالاوصاف التى تضمنها كتابهم، ليس قال القانون ان يكون مختارا من شعب غريب ولا من بطرك. والان فالسمع والطاعه لهم فيما امر به القانون تختارو من يقع عليه رضاكم به وتسكنون اليه ويكون

لذا وبينما صلاح الدين فى بيت المقدس قدمت اليه سفارة من قبل الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس تطلب أن يعود للمسيحيين الارثوذكس السيطرة الكاملة على الاماكن المقدسة بالمدينة، غير أن صلاح الدين رفض الطلب اذا لم يقبل أن يكون لمذهب من المذاهب السيادة على هذه المواضع وأنه سوف يكون الفيصل والحاكم بينها جميعا [١].

لقد تركت العلاقات الوثيقة بين صلاح الدين والامبراطور اسحق الثانى انجيلوس أثرا طيبا فيما لقيه رعايا الدولة البيزنطية من معاملة طيبة ورعاية واهتمام من جانب صلاح الدين وخلفائه، بل أن صلاح الدين حول بعض الكنائس التى استولى عليها فى الشام الى المذهب الارثوذكسى [٢]، واذا كان صلاح الدين وخلفاءه قد اهتموا بعمارة جامع القسطنطينية، وارسال المقرئين اليه، كماحظى المسلمون هناك برعاية وعناية السلطات البيزنطية [٣]، فان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس قد اهتم بأمر الكنائس اليونانية فى أراضى الدولة الايوبية فى مصر والشام، وحرص على عمارتها واصلاحها وزخرفتها بالرسوم والزخارف والفسيفساء اليونانية، كما اهتم باقامة الشعائر الدينية والسماح للمسيحيين بتاديتها [٤]، ودأب هذا

(١) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.
(٢) زبيدة عطا: لمرجع السابق، ص ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ١٢٩.
(٤) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٠٩.

مستصلح لكم، اقدمه عليهم ولا اخرج عن رايكم فيه، لانكم مقاسيه ومباشريه، ونحن شاكرين لما خصهم الله به من محبة من يسوس امرهم وينظر في احكامهم، وهكذا تكون الرووسا والمقدمين الذين بهم قيام منار الدين، وترتيب احوال الضعفا والمساكين، اعنى الشيوخ الاراخنه المسيحيين ادام الله علوهم ويلزمهم مراعاتنا والدب [الذب] عنا عوضا من الملوك الارتدكسيين السالفين لمقامهم فى

الامبراطور حتى أواخر أيام حكمه (ت ١١٩٥م)، على توثيق وتدعيم علاقته بخلفاء صلاح الدين، مع التقرب اليهم [١]، فقد تضمنت رسالته الى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى مصر سنة ٥٩١هـ حسن معاملته ورعايته ـ للمسلمين فى بلاده، وتمتعهم باقامة شعائر الاسلام فى دولته، وبخاصة الصلاة والخطبة فى جامع القسطنطينية من المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة بها»، والتمس الامبراطور فى رسالته من الملك العزيز عثمان الاهتمام «بالبطرك والنصارى، وأن يمكنوا من اخراج موتاهم بالشمع الموقد، واظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يفرج عن أسارى الروم بمصر»[٢]، ولم ينس اسحق الثانى انجيلوس أن يخبر السلطان العزيز عثمان الأيوبى، فى صدر رسالته بنوايا الفرنج ضد مصر، وأن هناك حملة صليبية جديدة يجرى الاعداد لها فى الغرب الاوروبى [٣].

ومن الجدير بالذكر أن الرعايا البيزنطيين فى مصر نعموا بسياسة التسامح الدينى فى عهد السلطان الملك العادل. وقد أبدى بعض الارثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية سرورهم

(١) المقريزى: السلوك ، حـ١ ، ق ١ ، ص ١٢٩ ، حاشية ١٣ .

(٢) المقريزى: المصدر نفسه، حـ١ ، ق ١ ، ص ١٢٩ .

(٣) المقريزى: نفس المصدر، والصفحة.

المجالس العاليه والدواوين المعموره، ومباشرتهم
السلاطين والمقدمين مما افاضه الله علينا اجمعين من
مراحم الحضره العاليه المعظمه المالكه رقنا، خلد
الله ايامها، ونصر عساكرها، وفتح لها مشارق
الارض ومغاربها بشفاعة الصالحين من خلقه،
واستجاب منا ومن الكافة صالح الدعا فى معاليها
التى بحسن رافتها واحسانها اعادة الامور الى
كيانها، وحمل نظامها الملكى والذمى ونعم جزيله.

بوجودهم فى مصر، لأن العادل أحسن معاملتهم دون الكاثوليك على خلاف ما كان يفعله الصليبيون، كما كان عدد كنائسهم يربو على المائة كنيسة [١].

علاقات الفاطميين والأيوبيين بالصليبيين

شهدت مصر والعالم الاسلامى منذ أواخر القرن الخامس الهجرى / أواخر القرن الحادى عشر الميلادى مقدم الحملات الصليبية الى الشرق وقد ترتب على الحروب الصليبية نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الشرق والغرب، واذا كان الدافع اليها العديد من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الغرب الاوروبى [٢] فضلا عن أطماع البابوية [٣]، فإنها قد أخفت وجهها السافر وأطماعها وراء صليب المسيح ودعاوى انقاذ الاماكن المقدسة بفلسطين من أيدى المسلمين، وتأمين سبل الحجاج المسيحين الى بيت المقدس.

ولما كان تاريخ العلاقات بين الفاطميين والأيوبيين من جهة والصليبين من جهة أخرى، يتصل بتاريخ الحروب الصليبية ـ وهى المعروف والمكتوب مفصلا، فأن الذى يهمنا من هذه

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٧ ـ ٤٣.
ـ حسن محمود (وأخرون): مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٦١.
(٣) حسن حبشى: الحرب الصليبية الاولى، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٧م ص ٣١.

نسـال الله ان يوزعنا شكرها، وجـملة الامـر يطيـبـو
نفـوسـهم ويشـرحـو صـدورهم. فـانني يعلم الله لو
جـاتني مـلايكة السـمـا مـا قـدمت واحـدا منهم الا
الذى يقـدمـوه من ذاتهم ويضـربو عنه المطانوه
حسب ما تضمنه القانون والتقدمه منهم والتاخير
منهم، وانا برى من الاثم الواقع فى هذا الباب ليلا
يظنوا انني وخرت [أخترت] هذا الكرسي لفايدة
دنيانية من جملة ما نحن مهتمين به في غير ذلك

الدراسـة هو أثر هذه العلاقات على أهل الذمة فى مصـر، وعلى سـبيل التجاوز وأثرها على نصارى القدس وعلى المقدسات المسيحية فيها.

ففى عهد الخليفة المستعلى بالله الفاطمى ووزارة الأفضل بن بدر الجمالى، تمكنت تجموع الحـملة الصليبيـة الأولى من دخـول بيت المقـدس بعـد أن تغلبت على حـاميتـهـا، من الجند الفاطمى فى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢هـ/ ١٥ يوليـو سنة ١٠٩٩م وقد انطلقوا فى شوارع المدينة وطرقاتها ومـسالكها، والى الدور والمساجد، ليذبحوا كل من يقع فى أيديهم من المسلمين، من الشيـوخ والنسـاء والاطفـال دون تمييـز[١]. كـمـا احدثوا مـذبحـة مروعة بالمسـجد الأقصى، عندما قتلوا ما يزيد على سبعين ألف من المسلمين[٢]. كـانوا قـد فـروا للاحتماء فيه والدفاع عنه، «منهم جماعة من أئمة المسلمين. وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فـارقوا الاوطان وجاوروا بذلك الموضع الشـريف[٣]، وكـما ذكر ابن العبرى فقـد «لبث

(١) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٨١، ٨٢.
ـ عاشور : الحركة الصليبية ، حـ١، ص ٢٤١.
ـ ملر: مختصر تاريخ الكنيسة من البداية الى القرن العشرين، الجزء الاول، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤٨٧.
ـ رنسيمان : المرجع السابق، حـ١، ص ٤٠٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ٢٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، حـ١٠، ص ١٠٥.

لعدم من يصلح، ولله الامر من قبل ومن بعد، سلام الرب سبحنه يكون معهم ويحل عليهم وعندهم. كتب في العشر الثاني(*) من بوونه سنه اربع وثلثين وثمان مايه للشهدا، والشكر لله دايما. هذه السنه ثلث وثلثين وثمن مايه على ان اول السنه توت وهو التاريخ الصحيح الذى وضع عليه الابا حساب الابقطي الشمس والقمر.

(*) العشر الثاني: كانت عادة المصريين منذ القدم يقسمون الشهر إلى ثلاثة عشرات بدلاً من أربعة اسابيع.

فلما وصل هذا الجواب وقريناه وجدناه جواب

الفرنج في البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا[1]. وسالت دماء المسلمين على أيدى الحجاج المسيحيين المسلحين، وخاضوا في دمائهم حتى سيقانهم [2]، كما تعقبوا من فر من المسلمين على مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم، ولم يفلت من القتل الا القليل [3].

كما حول الصليبيون جميع مساجد القدس الى كنائس، وبخاصة مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، فالمسجد الذى على الصخرة حولوه الى كنيسة لاتينية سموها «معبد السيد» templum Domini وأقاموا على قبتها صليبا من ذهب. أما المسجد الأقصى فأستخدموه لمصالحهم. وأطلقوا عليه اسم «معبد سليمان» Templum Solomonis وقسموه الى ثلاثة أقسام فجعلوا القسم الاول كنيسة، والقسم الثاني سكنا للفرسان الداوية، والقسم الثالث مستودعا لذخائرهم كما اتخذوا السراديب التى تحت المسجد اسطبلا لحيواناتهم [4].

(1) ابن العبرى: المصدر السابق، ص ٣٤٢.
(2) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٤٣.
ـ حسن حبشي: المرجع السابق، ص ٨٣.
ـ ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٧.
(3) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٩.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ٢٣.
(4) عارف العارف: تاريخ القدس، ص ٧٤.
ـ جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص ٢٦٣.

من هو محرج وكتابا لا يقتضى ان يكون هذا جوابه، وكشفنا عن السبب فيه فعرفنا ان الاب البطرك لا يشتهى ان يجعل فى كرسي مصر اسقف، وانه قد قام فى نفسه ان يكون هو الحاكم فيه اذا حضر واذا غاب استناب عنه نايب، فلم يرضينا ذلك وقلقنا منه، وقلنا: كما انه لا يجوز ان يكون لنصرانى زوجتين كذلك لا يجوز ان يكون لاسقف كرسيين، وهذا الاب انبا مقاره البطرك هو

واذا كان هذا هو موقف الصليبيين من مقدسات الاسلام والمسلمين فى القدس فما هو موقفهم من اليهود والنصارى الشرقيين، وبخاصة المصريين الاقباط الارثوذكس فى المدينة المقدسة؟.

لقد فر اليهود القاطنين فى القدس الى معبدهم الكبير بالمدينة للاحتماء به عقب اقتحام الصليبيين لها، غير أن الصليبيين قرروا القبض عليهم، وبحجة أنهم ساعدوا المسلمين فى الدفاع عن المدينة، فحاصروهم فى معبدهم الكبير، وأشعلوا النار فى المعبد على من فيه، فلقى جميع اليهود الذين التجأوا بداخله مصرعهم[1]. وعلى حد قول ابن القلانسى وهو المصدر الأساسى لهذه الرواية ـ فان الصليبيين «جمعوا اليهود فى الكنيسة واحرقوها عليهم»[2]، ولم تكن هذه المذبحة التى ارتكبها الصليبيون ضد اليهود الا استمرار للعديد من المذابح التى أقامها الصليبيون لليهود فى القرى والمدن الاوروبية أثناء زحفهم الى الاراضى المقدسة [3].

(١) ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٧.
ـ رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٤٠٥.
ـ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٧٧.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ١٣٧.
ـ ابو المحاسن: المصدر السابق، حـ٥، ص ١٥٠.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ١٤١ ـ ١٤٣.

اسقف مدينه الاسكندريه فكيف يمكن ان يكون له اسقفية مصر. فاستقر الراى على تعجيل الاهتمام بمن نتخيره للاسقفيه، فاجتمع الكهنة والشعب في بيعة الشهيد الجليل سرجيوس بقصر الشمع وتذاكرو من في الديارات من الرهبان الكهنة وغيرهم ممن يصلح للاسقفية بمصر ومن في الصوامع، فذكرو اثنى عشر رجلا وهذه اسماوهم: كييل الابسلمدس [المُنشد أو المرتّل]

أما عن موقف الصليبين اللاتين من الأماكن المقدسة بالقدس، ومن النصارى الشرقيين وبخاصة المصريين الاقباط الارثوذكس، فان القاء الضوء عليه يصبح من الأهمية بمكان. وذلك أن الصليبين اللاتين سيطروا على جميع الأماكن المسيحية المقدسة عقب دخولهم بيت المقدس ووضعت تحت اشراف البطريرك اللاتيني الجديد للقدس، وأقيمت فيها الشعائر وفق مذهب كنيسة روما [١]، كما اضطهد الصليبيون في القدس اليونانيين - اتباع بيزنطة بصفتهم منشقين عن كنيسة روما [٢]، بل أن البطريرك الجديد (أرنولف) الذى سيطر على الشئون الروحية للمسيحيين في القدس، أبعد القسس الذين يأدون الشعائر الشرقية، والذين كانوا يقيمون الصلاة في كنيسة القيامة [٣]، واستخدم وسائل التعذيب ازاء القسس ورجال الدين الارثوذكس بالمدينة حتى حصل منهم على الشطر الأكبر من صليب الصلبوت - هذا ولم يستطيع رجال الكنيسة الارثوذكس في ظل سيطرة اللاتين على القدس أن يعينوا لأنفسهم أساقفة أو بطريركا نظرا لشعور اللاتين العدائي نحوهم[٤].

(١) حسن حبشي: المرجع السابق، ص ٩٤.
- رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٤١٥.
(٢) ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٨.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٥٢.
(٤) رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٥١٥، ٥١٦.

بدير ابو مقار، مينا القس باسكنا ابو مقار، غبريال القس الاسكندرانى، حبيب القس الناسخ، يعقوب القس بدير ابو يحنس، مرقوره الحبيس بابيار، تيدر القس بدير ابو مقار، يونس السنهورى تلميذ مقاره الامنوت، يونس [الشماس] ابن سنهوت بدير القس في الاسكنا، يسيب الراهب بدير ابو مقار، اولاكه الراهب. ثم تخيروا من هذه العده اربعة نفر وهم: مرقوره الحبيس بابيار، تيدر القس بدير ابو

كذلك أساء الصليبيون فى القدس الى رعاة الكنائس ودور العبادة التابعة للكنيسة القبطية، مثال ذلك أن سيدة قبطية كسيحة ـ وهى أبنة كاهن اسمه جرجس بن الفضائل اضطرت تحت تهديداتهم أن تعطيهم كل ما تملك لتنقذ الكنيسة التى كانت ترعاها[٢]. كما منع الصليبيون أقباط مصر من الحج الى المدينة المقدسة بدعوى أنهم ملحدون، وفى هذا الصدد يقول مؤرخنا ساويرس ابن المقفع «وصرنا نحن معشر النصارى اليعاقبة القبط لا نصل الى الحج اليها، ولا نتمكن من الدنو من ذلك، لأجل ما هو مشهور من بغضهم لنا، وسوء اعتقادهم فين، وتكفيرهم ايانا».

ويتساءل جاك تاجر عن سر موقف الصليبين من أقباط مصر قائلا: «لماذا أظهروا هذا التعصب نحو المصريين وحدهم؟» ان السبب فى ذلك ـ يرجع فى رأيه الى أن اليعاقبة فى مصر لم يرتاحوا للصليبين بسبب الخلاف المذهبى بين كنيستى روما والاسكندرية [٣]. ويوافقه فى هذا الرأى اريس حبيب التى تقرر أن الصليبين «كانوا يعتبرون القبط وغيرهم من مسيحى

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٣٦.

(٢) وليم سليمان : الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية، القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٥.

(٣) جاك تاجر: نفس المرجع، ص ١٦٣.

مـقـار، يونس [السنهـورى] الراهب تلمـيـذ مـقـاره الامنوت، يونس الشـمـاس ابن سنهـوت. وكـتـبت اسمـا هولآ الاربعه فى اربع رقاع بخطى وشمعتهم وجـعلتـهم على الهـيكل وقـدسنا عليـه. ولما فـرغ القداس وتقرب الشعب تقدم صبى من الشمامسه اخـذ من الرقـاع واحـده بحيث ينظرها الشـعب جميعه، واذا فيها اسم يونس ابن سنهوت، فرضى الجميع بذلك، وكتبو به مسطور وكتبو فيه الاراخنه

- -

الشرق مبتدعين منبوذين خارجين عن حظيرة كنيستهم الرومانية» [1]. وكـذلك يرى وليم سليمان ان السبب فى كراهية الصليبين لاقباط مصر ا نما يرجع الى أنهم أعرضوا تماما عن النظر الى الغزاة الصليبين على أنهم مسيحيون تربطهم بهم عقيدة واحدة، وأنه عندما اقتحم الصليبيون القدس «لم يكن حزن الاقباط بأقل من حزن المسلمين» [2]، وقد حنق الصليبيون على الاقباط لعدم مساعدتهم لهم أو تعاطفهم معهم، ذلك أن الاقباط كانوا يرون فى استيلاء الصليبين على بيت المقدس والاراضى الشامية التابعة لمصر ما يعتبر عدوانا على مصرهم وقد عبر رأس الكنيسة القبطية عن وقفة أقباط مصر بجانب السلطات الحاكمة، عندما خرج البطريرك ميخائيل الرابع لتهنئة الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى بسلامة الوصول بعد عودته من قتال الصليبين فى عسقلان فى سنة ٤٩٢هـ [3]، وهو القتال الذى كاد يلقى فيه حتفه[4].

على أن الاحداث السياسية فى السنوات الاخيرة للدولة الفاطمية تركت أثارا هامة بالنسبة

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٣٦.
(٢) وليم سليمان: المرجع السابق، ص ١٥.
(٣) بتشر: المرجع السابق، حـ١، ص ٨٢.
(٤) المناوى : المرجع السابق، ص ٢٢٧.

والكهنه وكبار الشعب خطوطهم بالرضى به.
وامتنعت انا الخاطي ان اكتب خطي فيه وقلت اذا حضر الرجل ورايته وتحدثت معه وعلمت انه عالم مستقيم الامانه حينيذ اكتب خطي بالرضا به.فلما كملت خطوط الكهنة والشعب المصريين والقاهريين في المحضر اصدرته الى الاب انبا مقاره البطرك طي كتاب عن الجماعه اليه نسخته [نصه]:

لأهل الذمة في مصر، اذ تطور النزاع بين شاور وضرغام من أجل الوزارة الى تدخل الصليبيين ونور الدين محمود أمير دمشق ـ بهدف السيطرة عليه.واذا كانت القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه قد استطاعت اعادة شاور الى الوزارة في رجب سنة ٥٥٩هـ فان شاور غدر بشيركوه وطالبه بالخروج من مصر [١]، فأغلق أبواب القاهرة أمام القوات النورية [٢]، وجرت عدة وقائع بين شاور وشيركوه واحترق وجه الخليج خارج القاهرة بأسره وجزء من حارة زويلة[٣]، ويرى مؤرخنا ساويرس أن النكبات قد حلت بنصارى مصر على أيدي شيركوه، اثناء قتاله شاور، «اذا امتدت أيدي الغز الى سكان مصر من النصارى.. والأرمن.. وكانوا يقتلون منهم ويبيعوهم، فان وجدوا من يشترى منهم والا قتلوا ذلك الشخص، ونهبوا أموالهم وأخذوا نساءهم، وكانوا ينادوا على النصراني: من يشترى كافران. وعلى التركي المصري، من يشترى تركي خليع بات في الصقيع، وعلى الاسود، من يشترى سويدان. وكانوا يبيعوهم بثمن بخس، بعشرين درهم للنصراني وعشرة دراهم التركي، وخمس دراهم للاسود»، كما يذكر المؤرخ نفسه أن قوات شيركوه أرغمت بعض النصارى على اعتناق الاسلام، وأنهم قتلوا أحد

(١) المقريزي: الخط، حـ١، ص ٣٣٨.
(٢) ساويرس: انظر هذا الجزء ٣ ص ١٣٩٥ وما بعدها.
(٣) المقريزي: الخطط، حـ١، ص ٣٣٨.

وصل كتاب الحضرة السامية الاجلية، القديسه الفاضلة الرييسة النفيسة، تاج الملة الارتدكسية، وضيا البيعه المسيحيه، وجمال بنى المعموديه، سيد الآبا ورييس الررووسا التابعة لاثار الآبا[ء]، الحواريون الاطهار، وخليفة مارى مرقص احد الرسل الابرار اطال الله بقاها وحرس عزها وعلاها، بعد ارتقاب لقدومه وتطلع لوصوله، فتلقاه رعيته بحقه من الاعظام وما يقتضيه محله من الاكرام، واكثرو

رهبان دير أبي مقار، لأنه امتنع عن الدخول في الاسلام،كما هاجمت قوات شيركوه الكنائس التى بضواحى القاهرة، وبخاصة كنائس الملكية، وهدموا كنيسة الحمراء بحارة الروم الجوانية، ودمروا كنيسة الزهرى التى للارمن وسلبوها أمتعتها ، كما نهبوا كل كنيسة هدموها[1] وعبثوا ببعض أديرة النصارى، وأحرقوا أحداها ونهبوه[2].

وفى أوائل سنة ٥٦٤هـ = ١١٦٨م زحف عمورى ملك بيت المقدس للمرة الثالثة على مصر بهدف الاستيلاء عليها [3]، مما اضطر الوزير شاور الى أن يشعل النار فى مدينة الفسطاط فى تاسع صفر من نفس السنة «خوفا عليها من الفرنج» [4]، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما وألحق الحريق بها أفدح الخسائر [5]، كما كان ذلك الحريق ضربة قاسمة

(١) ساويرس: أنظر : ص١٣٩٧ ومابعدها فى هذا المجلد.
- ايسيذورس: المرجع السابق، حـ٢، ص ٣٧٥.
- بتشر: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٠٨.
- منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣) أبو شامة : الروضتين، حـ١، ص ١٦٩.
(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٣٨.
(٥) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٣٣٩.
- ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٤٦٩، ٤٧٠.

شكر الله تعالى على ما اسفر عنه من انبا سلامتها
التى يعتدو بها من اجل المواهب لله عليهم، واوفا
الطافه الخفيه فيهم، فاغتبطو بذلك اغتباط
المتمسكين بطاعتها، المتقربين الى الله سبحنه
بالعمل بمرضاتها، المسترشدين فى جميع امورهم
بما يهديهم الله اليه بتعاليمها الروحانيه واحكامها
العادلة المرضية، والله يحفظ بقدسها نظام الدين
من الشتات، ويحرس ببركات دعاها جميع

للاقباط القاطنيين فيها وهم بها كثير [١]، فقد كان حوالى نصف سكان القسم الشمالى من الفسطاط قبط، أما النصف الثانى، وهو جنوب الفسطاط وبابليون ، فكان كل ساكنيه تقريبا من الاقباط[٢]، كما أن حصن بابليون يضم أهم كنائسهم وأعظمها فنا وجمالا، وعلى الرغم من أنه قد سلمت ست كنائس من الحريق تماما [٣]، الا أنه قد دمرت بقية كنائسهم علاوة على ممتلكاتهم وبيوتهم التى كانوا يقطنونها فى المدينة [٤].

وفى أعقاب تولى شيركوه للوزارة فى ربيع الثانى سنة ٥٦٤هـ، وفى جو الاضطرابات وفوضى الحرب [٥] والنهب السلب سواء من عامة المسلمين أو الجنود المرتزقة عبثت قوات شيركوه بأوامر منه بالكنائس والأديرة، وألحقت ببعضها التدمير [٦]، كما انتزعت أراض زراعية وبساتين كانت موقوفة، أو ملحقة ببعض البيع والاديرة، واستولت عليها [٧]،

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٧٦.
(٢) بتشر : المرجع السابق،حـ٣، ص ١١٤ .
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٧٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣.
ـ عبد الرحمن زكى: الفسطاط، ص ٨١.
(٥) لين بول:المرجع السابق، ص ١٨٧ .
(٦) ترتون: المرجع السابق، ص ٥٤.
(٧) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٣، ٨، ٧٨، ٧٩.

الشعب من الافات، ويصون بصلواتها المرفوعه اليه
سبحانه بغير حجاب، ودعاها المقبول المستجاب
الكلمة الارتدكسية من الافتراق، ويويد البيع
المسيحيه بمزية الاتفاق، ويقرب اوبتها ومثول
شعبها بين يديها، وتبركهم من قدسها على افضل
الاحوال الماثوره، والقضايا المختاره بصلواتها
المقدسه. فاما ما رسمته ادام الله علاها من تخير
من يرتضونه للتقدمه عليهم، والنظر في امورهم

كما أمر شيركوه بالمناداة في القاهرة بالاعلان عما فرضه من قيود على غيار النصارى[1].

كما أن صلاح الدين في سنوات ٥٦٤، ٥٦٨، ٥٦٩هـ أوقع بالمصريين القبط، عقوبات صارمة بلغت حد الصلب والاعدام[2]. بالرغم من أن أقباط مصر عامة كان احساسهم ضد الصليبين[3].

واذا كان هدف صلاح الدين من حروبه ضد الصليبيين تخليص فلسطين وفتح بيت المقدس، فقد خاض في سبيل هذا الهدف معارك طاحنة ضد الصليبين، الى أن حقق انتصاره عليهم في حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وأعقب هذا الانتصار استيلاؤه على العديد من القرى والمدن الشامية[4]، ثم حاصر ا لقدس حصارا شديدا، حتى اضطر الصليبيون الى

(١) ساويرس: المصدر السابق، مجلد ٣.
(٢) أبو شامة: المصدر السابق، حـ١، ص ١٧٨، ٢٢٠، ٢٢١.
ـ ابن واصل كالمصدر السابق، حـ٢، ص ٤٧٩.
(٣)ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، حـ٢١، ص ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٣ ـ ٢٠٧.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٣، ص ٧٥، ٩٢.

حسبما توجيه قوانين البيعة، فقد قابلوه بالسمع والطاعه بعد المعرفه بقدر المنّه عليهم به والانعام بموجبه، واجتمعو في بيعة الشهيد الجليل سرجيوس بعد ان قدمو استخاره الله امامهم، ورغبو اليه عن ضماير سلميه من الهوى، صادقه فى النجوا فى توفيقهم لارتضا من يوافقهم قولا وفعلا، ويسير فيهم احسن سيره ونبلا واثبتو اسما اثنى عشر رجلا ممن اتفقت الكلمة على العلم بدينه

طلب الصلح والأمان [١] وأجابهم صلاح الدين على أن يخرجوا بأموالهم سوى الخيل الحربية والسلاح [٢]، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين وأن يتحولوا منها الى مأمنهم وهو مدينة صور [٣]، واستقر الأمر على أن يؤخذ منهم الفدية، من الرجل عشرة دنانير، والطفل من الذكور والاناث دينارين والمرأة خمسة دنانير، فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ، ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا [٤]. أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان أحد امراء الصليبيين فى القدس لسبعة آلاف منهم مبلغا اجماليا قدره ثلاثة ألف دينار[٥]، وبهذا اعتبر الصليبيون أسرى حرب وعليهم دفع الفدية الحربية [٦].

(١) ابن واصل :المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٤.
(٢) الحنبلي: شفاء القلوب، ورقة ٣٥.
(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، حـ١ ص ٣٣١.
ـ العيني : المصدر السابق، حوادث سنة ٥٨٣هـ، (ورقة ٤٢).
(٤) ابن الاثير: المصدر السابق، حـ١١، ص ٢٠٨.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٢، ص ٩٥.
(٥) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٤.
ـ عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٢.
(٦) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٤.

والمعرفه بصحة يقينه، ثم تخيرو من هذه العده اربعه نفر، وهم: مرقوره الحبيس بابيار، وتيدر القس بدير ابو مقار، ويونس السنهورى، والشماس يونس ابن سنهوت. واودعت اسمايهم اربعة رقاع وشمعت وحملت على الهيكل المقدس بالبيعه المذكورة وقدس عليها ثلثة ايام اخرها يوم الاحد الرابع عشر من ابيب، واجتمع الكهنه واحاطو بالهيكل والشعب عند بابه قيام، وارتفع من

وما أن دخل صلاح الدين بيت المقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م، واحتل قلعتها، حتى حافظ على وعده لمن فيها من الصليبين. فسمح لهم بالخروج بعد دفع الفدية المتفق عليها، وأظهر تسامحا كبيرا تجاه الذين عجزوا عن دفعها [١]، كما وفر الأمان لمن كان فى المدينة من نساء ملوك وأمراء الفرنجة المترهبات، ولمن معهم من الحشم والعبيد والجوارى، وما بحوزتهن من الاموال، بل أن صلاح الدين سير معهم من يقوم بحراستهم حتى بلغن مأمنهن [٢]. هذه المعاملة التى لم يحصل على مثلها المصريون القبط من صلاح الدين.

واذا كان الصليبيون قد انصرفوا لبيع ما لم يستطيعوا حمله بأبخس الأثمان قبل أن يغادروا المدينة فان البطريرك اللاتينى وأتباعه من رجال الكنيسة جمعوا ما فى كنائسهم ودور عبادتهم من أوانى الذهب والفضة [٣]، وعلى حد تعبير العماد الكاتب فانهم «كنسوا كنائسهم، وأخذوا نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الاوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من

(١) عاشور: الحركة الصليبية ، حـ٢ ، ص ٨٢٢، ٨٢٣.
(٢) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢ ، ص ٢١٦ .
(٣) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٢١٦ .

جميعهم الضجيج والابتهال والتضرع الى السيد المسيح والسوال فى ان يختار لسياسة شعبه وتدبير بيعته من يراه عاملا بفروضه، سايرا فيهم سيرة القديسين الاطهار، والصالحين الابرار، الذين انتخبهم لرعى خرافه واصطفاهم لرياسه المومنين بـه.

وتقدم الشماس الطفل ولد الشيخ ابو الفخر،

الستور والمناديل، ونقضوا من الكنائس الكنائن واستخرجوا من الخزائن الدفائن» [١]. ووقف المسلمون في القدس ـ وهم الذين وصفوا بالاستقامة والانسانية ـ ينظرون بعين الدهشة الى هرقل بطريرك بيت المقدس وهو يدفع لنفسه الدنانير العشرة، ويغادر المدينة، وقد انحنى جسمه لكثرة ما ينوء به من أثقال [٢] هي «كل ما كان في القبر المقدس من صفائح الذهب والفضة وجميع ما كان في القمامة [٣] كما تبعته العربات وفيها «من أموال البيع ـ منها الصخرة والأقصى وقمامة ـ ما لا يعلمه الا الله وكان له من المال مثل ذلك» [٤] دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم [٥] والسلطان لم يعرض لهذه الاموال الطائلة، ولما استكثرها من حوله، وسأله العماد الكاتب أن لا يترك للبطريرك هذه الاموال لأن الامان على أموالهم لا على أموال الكنائس والأديار [٦] ، يقوى بها المسلمون، رفض وقال لا أغدر به».

(١) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٥.
(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٣.
(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، حـ١ ص ٣٣٠.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.
(٥) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٣.
(٦) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٥.
ويقدر العماد الكاتب الاموال التى أخذها البطريرك بحوالى مائتى ألف دينار (نفس المصدر والصفحة).

ادام الله تاييده، واخذ بحضور الجماعة واحدة من الرقاع المذكورة وفتحت فوجدت باسم يونس ابن سنهوت، فشكرو الله تعالى على ما هداهم اليه واستبشرو بما دلهم عليه ورضو بما رضيه واختاره مقدما عليهم. وقد ضمن تلاميذها بجميع ذلك مسطوراً [وثيقة] اثبت فيه خطوط جماعتهم، وتلاميذها يقبلون اسكيمها، ويضربون المطانوات بين ايديها، استدعى الشماس المذكور كما جرت

ولم يأخذ منه غير العشرة دنانير [1]. بل ان صلاح الدين اطلق سراح سبعمائة أسير من الصليبيين هبة منه للبطريرك المذكور، وأمر رجال الشرطة بالمدينة أن يطوفوا بالشوراع والابواب ليمنعوا كل اعتداء يقع على المسيحين فيها، وأعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل أمرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، وسألن صلاح الدين ماذا يكون مصيرهن بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر أجاب بأنه وعد باطلاق سراح كل ما فى الأسر من أزواجهن، وبذل للارامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته [2]، وفى هذا الجو من الأمن والأمان والتسامح غادر الصليبيون بيت المقدس وقد أخذوا ما خف حمله وتركوا ما ثقل[3]، وسير صلاح الدين الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور [4]. والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض ما فعله مع المصريين القبط.

(١) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢ ، ص ٢١٦.
(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢ ، ص ٧٥٣.
(٣) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، حـ١ ، ص ٣٣١.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢ ، ص ٢١٦.

العادة بان يستدعى مثله، وتقدمته اسقفا عليهم ليقوم بعماره البيع وتدبير امور الشعب وينعم باجرايهم على جميل عاداتها الكريمة يذكرهم فى صلواتها المقدسة، وادعيتها المستجابه، ورايها الموفق انشا الله تعالى.

فوصل الجواب بما نسخته [نصه]: وصلت مكاتبة الاخوة المختارين الاحبا السعد الكهنه الاخيار

على أن عددا كبيرا من الصليبيين قبل مغادرتهم للقدس، شاهدوا الاجراءات العملية التى اتخذها صلاح الدين بشأن ازالة كل أثر للصليبيين فى المدينة المقدسة [١] ففى اليوم الاول لدخوله القدس أمر صلاح الدين بخلع الصليب الكبير الذهبى الذى اقامه الصليبيون فى أعلاقبة الصخرة وقد صرخ فرنجة القدس توجعا وفجيعة لحظة أن خلعه المسلمون وأسقطوه وأفجعهم تهليل المسلمون وتكبيرهم عندما وضعوا الهلال مكانه [٢]، كما أمر صلاح الدين بازالة ما بداخل مسجد القبة من التماثيل والصور والايقونات والمذبح ومواضع الرهبان، وكل رموز العبادة المسيحية، وأمر باظهار الصخرة المقدسة، وغسلها بماء الورد، وأزال مقابر الفرنج ومقدميهم المجاورة للصخرة [٣]، ومحا كل آثار احتلال الداوية له، وما استحدثوه من مبان وما

(١) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ، حـ١١، ص ٢٠٨، ٢٠٩.
- ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.
- ابن سعيد: المصدر السابق، ص ١٥٤.
- المقريزى: السلوك ، حـ١، ق١، ص ١٠١ - ١٠٢.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧، ٢٢٩، ٢٣٠.
- أبو شامة: الروضتين، حـ٢، ص ١١٣.

والشيوخ المكرمين المحبوبين الموفقين التقيين الفايزين
بكل فضيلة مسيحية، المخصوصين بجميع التحيات
الروحانيه الاراخنه الارتدكسيين وكافت الشعب
المسيحيين اطال الله بقاهم وادام نعماهم وعلاهم
ورفعهم وكبت اعداهم وبارك عليهم وعلى منازلهم
واولادهم ومعايشهم ببركات يعلو بها شانهم ويزيد
منها رفعتهم ويعظم منها مكانهم ويوفر حظوظهم
ويثبت عليهم النعمه الدايمه والغبطه الحاله

أدخلوه من الأقصى فى أبنيتهم[١]، وكانوا قد بنوا فى القبة دارا وسيعة وكنيسة [٢] وأمر صلاح الدين بازالة كل ما أحدثوه من البنيان واعادة الأبنية الى حالها القديم [٣]، وجد فى عمارة المسجد الأقصى [٤].

كما أمر صلاح الدين بتحويل كنيسة سانت حنه (كنيسة القديسة حنا أوسانت أن) الى مدرسة للفقهاء الشافعية وهى التى عرفت بالمدرسة الصلاحية، ووقف عليها وقوفا جليلة[٥]، كما جعل دار البطريرك المجاورة لكنيسة القيامة رباطا للفقراء ووقف عليها أوقافا حسنة[٦]،

(١) ابن الأثير: الكامل، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.
(٢) مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٣١،.
(٣) ابن الأثير: الكامل ، حـ١١، ص ٢٠٩.
(٤) ابن واصل :الصمدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.
(٥) ابو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١١٤.
ـ العينى: المصدر السابق، حوادث سنة ٥٨٣هـ، (ورقة ٤٤).
(٦) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٣٠.
ـ مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٤١.

وحفظهم بعينه التى لا تنام وكنفه الذى لا يظلم
ويكفيهم [شر] كل المناصب الشيطانيه والفخاخ
الرديه ويستجيب من مسكنتى فيهم صالح الادعيه
بشفاعه ذات الشفاعات مريم البتول وصلوات
البشير مارى مرقس مكمل الشهادات ومحقق
الدين والامانات وكافه القديسين والابرار اجمعين،
يتضمن معانيهم السنية والفاظهم العذبة الروحانية
كالشهد والمن المذكورين فى سفر الزبور، ولما

وجعل كنيسة تقع فى شارع كنيسة القيامة بيمارستانا للمرضى ونقل اليه ووفر له جميع ما يحتاج اليه من الاطباء والمستلزمات[١]، كما نزل اخوه الملك العادل فى كنيسة صهيون[٢].

أما كنيسة القيامة، فقد أشار البعض على صلاح الدين بهدمها، ونبش القبر المقدس بها، وحرث أرضها، ومحو معالمها، حتى ينقطع عنها امداد الزوار المسيحيين غير أنه انحاز الى رأى الأغلبية، وأعرض عن هدمها ـ لأن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قد أبقى عليها لما تسلم بيت المقدس[٣] ـ الا أنه أمر باغلاق أبوابها ومنع النصارى من زياراتها [٤] لمدة ثلاثة أيام [٥] ريثما يزول التوتر وتهدأ الاحوال[٦]، وعاد بعدها وفتح أبوابها ، وترك المسيحيين حرية التعبد

(١) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص٤٠٨.
(٢) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٣١.
(٤) العماد الكاتب : المصدر السابق، ص ١٤٥.
ـ المقريزى : السلوك ، حـ١ ، ق١ ، ص ٩٧.
(٥) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.
(٦) عارف باشا العارف: المرجع السابق، ص ٧٩.

تاملت معادن فضلهم ودار اكرامهم وجدتها
مقصوره على امتداحهم لفقرى الذى لست انا
باهله منسوبا اليه ولا حقيق به لمعرفتى بذاتى واننى
غير صالحا لما اهلتمونى شكرة خلوصى محبتهم
وصفو اعتقادهم وبراعة فهمهم ولجة علمهم
وبراعتهم وحسن ادابهم كما قيل عن موسى النبى
فى التوراه: «وتعلم موسى من حكمة المصريين».
فيهم الفخر والكمال وبقية ما سمعت به الامال

فيها الا أنه «قرر على من يرد اليها من الفرنج قطيعة يؤديها»[١].

أما النصارى من أهالى القدس الذين ليسوا من الفرنج، فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام فى مساكنهم على أن يأخذ منهم الجزية [٢]، فأجابهم صلاح الدين الى ما طلبوا.

واذا كانت الطقوس والشعائر المسيحية قد أوقفت بكنيسة القيامة «وبطلت نغمات القسس والرهبان ... وخرس الناقوس..» [٣] فلم يكن ذلك ألا لمدة قصيرة [٤] عاد بعدها المسيحيون يباشرون طقوس عبادتهم فى حرية تامة . غير أنه مما لاشك فيه ان الكنيسة الارثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من خروج الصليبين الكاثوليك من بيت المقدس، فقد أتاح لهم فتح صلاح الدين للقدس الفرصة لاستعادة نفوذهم وهيمنتهم على الاماكن المسيحية المقدسة[٥]، فما أن بلغت القسطنطينية أنباء انتصارات صلاح الدين وفتح بيت المقدس حتى

(١) المقريزى: السلوك، حـ٢١، ق١، ص ٩٧.
(٢) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٦.
(٣) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص
(٤) المقريزى: السلوك ، حـ١، ق ١، ص ٩٧.
(٥) عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٦.

والزيادة في العمر والاجال، والله تعالى ذكره يقيم
بهم منار الدين ويشيد بحياتهم عضد الاخوة
المسيحيين ويديم تعميرهم ويقدس نفوس اسلافهم
ويرزقنا جميعا رحمة ورافة امام منبره المرهوب
وموقفه المرعوب امين. فاما ما ذكروه من الشوق
الروحاني فعندى منه ما يجوز حد الوصف ويعلو
كل اسهاب واطناب، اسال البارى سبحانه قرب
الاويه [الأوبة] وتكميل الاجتماع على اتم القضايا

سارع الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس بارسال سفارة الى صلاح الدين لتهنئته، ولتطلب منه ضرورة اعادة كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والاماكن المسيحية المقدسة الى الكنيسة الارثوذكسية [١]، وقد استجاب صلاح الدين لطلبه بعد أن تمهل قليلا [٢] اذ أدى حسن علاقاته بالبيزنطيين الى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضى المقدسة الى الشعائر اليونانية، كما أنه من الراجح أن ما بذله صلاح الدين من وعود للروم الارثوذكس فى بيت المقدس كان فى صالح الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية[٣].

وكان موقف صلاح ازا اليهود غاية فى التسامح والسخاء، فعلى الرغم من أنه لم تصل الينا أية شروط تتعلق باليهود بعد فتح القدس على يد صلاح الدين [٤]، فالواقع أن انتصار

(1) - Setton : Ahistory of the crusades, Vol. , p. 620.

(٢) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.

(٣) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٤) ربما لأن الصليبين الذين أبادوا جميع اليهود فى المدينة المقدسة سنة ٤٩٣هـ ١٠٩٩م وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم، وحرموا عليهم دخولها (حسن ظاظا: القدس مدينة الله أم مدينة داود، الاسكندرية ١٩٧٠م، ص ٠٣١)، لم يسمحوا لهم ببقائهم معهم فى المدينة، أو تقليدا لماحدث أيام عمر بن الخطاب الذى منح عهد الأمان للنصارى دون اليهود (ماجد: الناصر الدين، ص ٠١١٨) أو لأن عددهم بالمدينة كان قليلا=

الســارة والاحـوال الماثوره، والذى اشـارو فـهـو ممن
يجب فيـه شكرهـم والثنا عليـهم لمحبـتـهم لابايهم
الروحـانيين ورغبـتـهم فـيمن يسـوس احوالهم ويرم
شـعب بيـعتـهم، وانهم قـدمـو الله تعـالى فى بداية
طلبهم ورغبو اليه فى ان يظهر لهم من هو مستحق
لما طلبوه وارادوه، فنعم ما فعلو لان الكتب المقدسه
تقــول: «اجـعل الله بدو امــرك». وبكرمــه ينجـح
مــسـعـاهـم ويقـضـى لنا ولهم بما فـيـه الخـيــره

صلاح وعودة القدس الى السيادة العربية كان فى صالح اليهود، الذين كانوا أول من هلل لطرد الصليبين من بيت المقدس [١]؛ وتمكنوا من شراء قدر لابأس به من الأمتعة والاملاك التى اضطر الصليبيون عند رحيلهم منها الى بيعها بأثمان زهيدة، كما شجعهم صلاح الدين على الاستقرار فى المدينة التى أصبحت خالية برحيل الفرنج [٢]، كما أن أعدادا كبيرة من مختلف الطوائف اليهودية تدفقت على فلسطين من بلدان أوروبا بعد أن سمح صلاح الدين بهجرة اليهود الى الأراضى المقدسة، استجابة لواسطة قام بها طبيبه الخاص موسى بن ميمون رئيس الطائفة اليهودية فى مصر [٣]، ويذكر الرحالة اليهودى والشاعر الاندلسى يهودا الحريزى

....

=(بنيامين التطيلى المصدر السابق، ص ٩٩) أو لأن هذا العدد الذى كان يشتغل بالصياغة وبتصريح من الحاكم الصليبى لقاء مال يدفعونه له (حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ٣١)، غير أنه لم يكن لهم نفوذ سياسى، أو تاثير على مجريات الأحداث فى القدس، كما لم تكن لهم أملاك بالمدينة حيث حرم الصليبيون عليهم امتلاك الاراضى (عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس، ص ١٣٣).

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٧.

(٢) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٧٥.

(٣) الخربوطلى: العرب واليهود فى العصر الاسلامى، ص ٧١.

ـ ـــــ: الاسلام وأهل الذمة ، ص ٢١٩



القدس فى العصور الوسطى

الذى زار القدس سنة ٦١٣ ـ ٦١٤هـ/ ١٢١٦ ـ ١٢١٧م، أن فتح صلاح الدين القدس أعقبته هجرة أعداد كبيرة من اليهود الى الاراضى المقدسة (١)، وأن صلاح الدين أكرم اليهود وأحسن معاملتهم وكان يشجعهم على الاقامة فيها (٢).

وعلى الرغم من أن صلاح الدين بالغ فى تسامحه مع الصليبيين عند خروجهم من القدس، الا أن سقوط المدينة المقدسة فى يده أثار مشاعر الصليبين في أوروبا من جديد لتشهد الاراضى المقدسة بفلسطين حملة صليبية جديدة، هى ما اصطلح على تسميتها بالحملة الصليبية الثالثة، التى تزعمها فردريك الاول بربروسا امبراطور المانيا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الاول ملك انجلترا، الملقب بقلب الأسد (٣).

واذا كان الصليبيون قد استولوا على عكا فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ/ يوليو ١١٩١م(٤) وهزم الملك الانجليزى خصمه صلاح الدين فى أرسوف فى شعبان من نفس

(1) -Setton: op, cit vol. 1, p. 621.

(٢) حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) ماجد: الناصر صلاح الدين، ص ١٢٥.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، حـ١٢، ص ٣٤.



حملة بطرس الناسك

العام[1] كما استولى على يافا، الا أن جميع محاولاته لاسترداد بيت المقدس باءت بالفشل، مما اضطر، الى جانب مايعانيه من مشاكل في بلاده فضلا عن مشاكل الصليبين في الشام، الى طلب الصلح وفتح باب المفاوضات للوصول الى هدنة مع صلاح الدين، انتهت بعقد الصلح والمهادنة بينهما في يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢م، وهو ما عرف بصلح الرملة الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، أما عسقلان فتكون للمسلمين بعد تخريبها، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبين، وماعدا ذلك بما فيه القدس يظل بأيدى المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالحج الى بيت المقدس في أمن وأمان [2]، كما أعفى صلاح الدين الحجاج الصليبيين من رسوم زيارة الاماكن المقدسة، «وان لم تكن قد نصت عليه معاهدة الصلح [3].

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٤، ٢٣٥.
ـ أبو شا مة: الروضتين، حـ٢، ص ٢٠٣.
ـ مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٩٠.
(٣) أحمد دراج: وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٧٣.

وحـميـد العـاقبـه، والذى اضح الله اسـمـه لهم
واخرجه الوجود لديهم وتراضى جميعهم عليه فهو
نعم الانســان، والقلب طيب على مـا تطيب به
نفوسـهم وتستـقيم به امـورهم وتكمـيل لسيـاسة
احوالهم، فيتقدمو بمشية الله جل اسمه بتحصيله
عندهم والاستيثاق منه وحفظه. وحينيذ احضر ان
اعـان الله بالحيـاه ونتـمم محـبوبهم ونبلغ ايثارهم.
فغير خاف عنهم ان المذكور يسوم نفسه مقام غير

وبمـوجب هذا الصلح انتـهت الحملة الصليبيـة الثالثة، كـما كان اقرار شروط الصلـح بداية لصـلات المـودة بين الصليبـيين والمسلمين، اذ لم يكد يفـرغ صـلاح الدين من اعـداد مايلزم من التدابير لحراسة الحجاج وايوانهم، حتى فتحت المدينة المقدسة أبوابها على مصراعها أمام جماعات من الجيش الصليبى التى وفدت اليها بعد أن تجردوا من ســلاحهم، وغصت القـدس بأعداد كبيرة من الزوار المسيحيين، الذين زاروا كنيسـة القـيامة والاماكن المسيحية المقدسة، وطافوا انحاء المدينــة فى حرية وأمن وسلام، بل نفذ معهم صلاح الدين الخفراء لحراسـتـهم فى طريق عـودتهم الى يافـا [١]. وكـان هـدفه من تقديم كـافة التـسهـيلات للحجـاج الصليـبيين «أن يقـضـوا وطرهم من الزيارة ويرجعـوا الى بلادهم، فيأمن المسلمين شرهم» [٢].

ولما علم ريتشـارد كثرة من يزور القدس من الصليبيين، ساءه ذلك «وسيـر الى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح أن لايأذن لأحد الا بعد حضورة علامة من جانبه، أو بكتابة» [٣] أو

---

(١) أحمد دراج: المصدر السابق، ص ٧٢.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٠٦.
(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٦.

مقام الاسقفيه، حتى انه مضى الى الحضرة الاجيلية
[الانجيلية] القدسية الطاهرة النقية الابوية البطركية
الأرمن ادام الله قدسها، وقصدها وتطارح عليها الى
ان الزمتنى بان كتبت له حجة من القلاية انى لا
اجعله فى شي من درجات الكهنوت بشهادة ذلك
القديس بطرك الارمن عليّ ومخاطبته اياى عليه
وذالك فى السنة التى سير فيها الرسول الى بلاد
الحبشه، فاستفهمو هذا الامر منه واستعينو به فى

مع رسول من قبله (١) الا أن صلاح الدين رفض مطلب الملك (٢) حتى لا يجعل له أى سيطرة ولو معنوية على بيت المقدس، وخشية أن ترجع تلك الجموع الى بلادها غاضبة مستثارة لصدها عن زيارة كنيسة القيامة فينفروا أممهم ضده، وكتب الى ريتشارد «أنت أولى بمنعهم وردهم بردعهم، فانهم الينا وافدين ولزيارة الكنيسة قاصدين، وما يقتضى كرمنا أن نرد الوفود، ولا نبلغ من يقصدنا المقصود» (٣).

بل أن صلاح الدين بالغ فى اكرامهم، ومد الطعام لهم ، وعرفهم برسالة الملك، ورفضه لمطلبه وعزمه على تقديم كافة التسهيلات (٤)، كما قبل صلاح الدين ما طلبه منه هيوبرت والتر أسقف سالسبورى من تعيين اثنين من القسس اللاتين واثنين من الشمامسة اللاتين فى كنيسة القيامة، وكذا فى كنيستى بيت لحم والناصرة (٥)، وذلك الى جانب ما كان فى تلك

---

(١) مجير الدين: الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٩٠.
(٢) ابو شامة: الروضتين ، حـ٢ ، ص ٢٠٤.
(٣) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ٦١٠.
(٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٦.
(٥) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢ ، ص ١٤١.

احضار الشخص المذكور اليكم وتحصيله عندكم
لتعلمو برات [براءة] ساحتى وان الامر منكم
والسوال له فيه والرغبه اليه، ولا ينظرنى بانى قلت
له قول ونقضته، وعلى الجمله فتحرصو فى
تحصيله، واننى لا اتاخر عن تقدمته لهم حسب ما
اقترحوه وارتضوه، والى حين ذالك لا يخلونا من
مكاتبتهم متضمنه ذكر احوالهم واخبارهم، سلام
الرب سبحنه يكون معهم ويحل عليهم وعندهم.

الكنائس من رجال الدين الارثوذكس والسريان واليعاقبة [١]، واذا كان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس قد بلغته الشائعات أن ريتشارد فى مفاوضاته مع صلاح الدين يلح فى أن تتخذ الاماكن المسيحية المقدسة صبغة لاتينية [٢]، فقد وصل رسول من قبل الامبراطور مثل أمام صلاح الدين فى القدس فى ثالث جماى الاولى سنة ٥٨٨هـ، وسلمه رسالة اشتملت على مطالب منها: صليب الصلبوت، وأن تكون كنيسة القيامة بيد قسس من جانبه وكذلك سائر كنائس القدس [٣] وأن يعود للمسيحيين الارثوذكس وللكنيسة الارثوذكس السيطرة التامة على الاماكن المسيحية المقدسة، الا أن صلاح الدين رفض الطلب، ولم يقبل أن يكون لمذهب السيادة التامة على هذه المواضع وفضل أن يكون هو الفيصل والحكم بينهما جميعا[٤]، كما قيل لرسول الامبراطور بان عليه شراء صليب الصلبوت مقابل مائتى ألف دينار[٥].

واذا بات واضحا لدى الصليبيين الدور الكبير الذى تقوم به مصر فى التصدى للغزو

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٩٩.
(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.
(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٠٩.
(٤) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.
(٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٠٩.

وكتب في الرابع والعشرون من شهر مسرى سنه اربع وثلثين وثمان مايه للشهدا الابرار والحمد لله دايما ابديا.

ولما وصل الكتاب من الاب مقاره البطرك ووقفنا عليه اجتمعنا ومضينا الى بطرك الارمن، وهو يوميذ في كنيسة السيدة بارض الزهرى التى ما بين القاهره ومصر [عتيقه]، وقريناه عليه فقال:

- -

الصليبى فقد أعدوا فيما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة لغزوها، غير أن تلك الحملة انحرفت وولت وجهها شطر القسطنطينية وقطعت أوصالها سنة ١٢٠٤م [١]، الا أن الديار المصرية شهدت هجوما صليبيا مفاجئا فى نفس العام، ومن جهة رشيد، وتقدم الصليبيون الى فوه، وكان فيها أقباط كثيرون، ولها أسقف مخصوص، فقتلوا كثيرين منهم وطردوا غيرهم، وسبوا البعض، والبعض الآخر لم يسعه الا الهرب [٢].

على أن مدينة دمياط ـ وكان يسكنها كثير من الاقباط ـ تعرضت لجموع الحملة الصليبية الخامسة التى تزعمها حنادى برين والتى اقتحمت المدينة فى شعبان سنة ٦١٦هـ، بعد حصار دام حوالى سبعة عشر شهرا وبنفس المشاعر التى دخلوا بها بيت المقدس من قبل، اذ ذبحوا الكثير ممن وجدوه من الاهالى فى المدينة [٣]. واسترقوا البعض الآخر [٤]، وحولوا الجامع

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢، ص ٧٤.
ـ عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٩٣٥.
(٢) وليم سليمان : المرجع السابق، ص ١٦.
(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب، ص ٣٣١.
(٤) ابن و اصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٣.

صدق الاب البطرك فيما تضمنه كتابه. وسالناه فى مساعدته لنا فى احضار يونس الراهب ابن سنهوت المقدم ذكره، فكتب كتابا للاب مقاره البطرك ان يسير اليه من تلاميذه من يحضره. فسير اليه تلميذان فاحضروه وانزلوه فى دار الشيخ ابو الفضل التى فيما بين بجيب ودار العدل بمصر. فلما كان فى اليوم الثانى استدعاه بطرك الارمن الى قلايته واقام عنده ايام، وذالك براى انبا مقاره

الكبير الى كنيسة [1]، باسم السيدة العذراء [2]، وأخذوا منبر الجامع وكسروه، وأهدوا كل قطعة منه الى ملك من ملوكهم [3] كما احتلت فرقة صليبية منهم مدينة تنيس[4]، التى كان يسكنها ودمياط فضلا عن القرى المحيطة بهما آلاف من السكان الاقباط، الذين فروا أمام السيوف الصليبية المسلطة على رقابهم.

وقد انتهت أحداث هذ الحملة، بأن وافق الملك الكامل على عقد صلح بينه وبين الصليبين فى رجب سنة ٦١٨هـ، على أساس جلاء الصليبيين عن دمياط، وعقد هدنة لمدة ثمانى سنوات (٦١٨ ـ ٦٢٦هـ = ١٢٢١ ـ ١٢٢٩م) ، واطلاق سراح الأسرى من كلا

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين، حـ١١٧.
ـ مجير الدين الحنبلى، المصدر السابق، حـ١، ص ٤٠٢.
ـ الحنبلى: شفاء القلوب ، ورقة ٨٣.
(٢) زيادة : المرجع السابق، ص ٥٧.
(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين، ص ١١٧.
ـ ابن واصل : المصدر السابق، حـ٤، ص ١٠٠.
(٤) زيادة: المرجع السابق،ن ص ٥٧.

بطركنا، اراد بذالك يمتحنه بطرك الارمن ويختبر
حاله وعلمه وامانته، فوجده كما يجب في كلما
يحتاج اليه منه، فاخذه الشيخ ابو الفضل سعيد
ابن ابراهيم ابن المصطنع، المنسوب الى بني
الاسكاف بحكم مصاهرتهم وليس هو منهم،
واعاده الى داره فيما بين بجيب ودار العدل واقام
فيها منذ خروجه من قلاية بطرك الارمن. فلما كان
اليوم السابع عشر من بابه المذكور اجتمع الكهنة

الجانبين[١]، كما وافق السلطان الكامل على أن يعيد اليهم صليب الصلبوت[٢]، وان يمنح الحجاج المسيحيين بعض الامتيازات [٣].

وفي عهد الملك الكامل أمر بتدمير مدينة تنيس عن آخرها وتركها كل اهلها وتشردوا في البلاد بعد أن فقدوا اموالهم وممتلكاتهم، كما تم التوصل أيضا الى عقد معاهدة بينه وبين الامبراطور فردريك الثاني امبراطور ألمانيا، في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م استجاب الكامل بمقتضاها الى تسليم بيت المقدس الى الامبراطور، وأن يأخذ الصليبيون الى جانب ما في حوزتهم من المدن الساحلية: الناصرة وبيت لحم، وأن يكون للصليبين ممر من الارض يصل بين عكا وبيت المقدس [٤]، كما اشترط عقد الصلح أن تبقى مدينة القدس على ماهي عليه من الخراب، ولا يجدد سورها، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لاحكم فيها للفرنج، وأن

(١) ابن الاثير: المصدر السابق،حـ١٢ ،ص ١٢٦ ، ١٢٧.
ـ ابن العميد: المصدر السابق، ص ٤١٣.
ـ المقريزي: الخطط، حـ١، ص ٢١٨.
(٢) العريني: المرجع السابق، ص ٣٣١.
(٣) سيد أمير علي: المرجع السابق، ص ٣٣١.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ١٠١١.

والاراخنه والشعب الى دار الشيخ ابو الفضل المذكور، وانفذو الى متولى المعونه بمصر واعلموه ان قد اقيم لهم اسقف جديد عوضا من المتوفى، وانهم يريدو يزفوه من حيث هو الى كنيسه ابو سرجه بقصر الشمع بالذى جرت به العاده، وهم يخشو من عوام الناس ان يتعرض لهم منهم سفه فى الطريق فيقع فى ذالك ما يشغل القلب. فانفذ الوالى اليهم خليفته وجماعه من رجالته وركب الاسقف بغلة عالية من دواب بعض اصحاب

الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين لايدخله الفرنج الا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين ويقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة [1] كما اتفق الطرفان على أن تكون مدة هذه الهدنة عشر سنوات وأن يتعهد الامبراطور طوال هذه المدة بمنع أية حملة صليبية عن السواحل المصرية والشامية [2].

واذ «قامت القيامة في جميع بلاد الاسلام» [3]، لتسليم القدس الى الصليبين، فان الملك الكامل واجه العاصفة بقوله: «انا لم نسمح لهم الا بكنائس وادر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله، وشعار الاسلام قائم على ما كان عليه، ووالى المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله» [4].

على أن عودة القدس الى الصليبيين بموجب هذا الصلح بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، قد مكن رجال الدين اللاتين من تحسين مركزهم فى الاماكن المسيحية المقدسة[5]

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ٢٣٠.

(٢) زيادة: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) العينى: المصدر السابق، حوادث سنة ٦٢٦هـ.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٤، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

(٥) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧.

الدواوين فى الساعة الثالثه من النهار، وزفوه بالقراه وبين يديه الشمع والاناجيل ومجامر البخور من الدار المذكورة الى كنيسة ابو سرجه المذكورة، وقدس وقرى تقليده فيها انبا مينا اسقف مليج، وانبا ميخاييل اسقف اطفيح وانبا يوحنا اسقف الخندق وهو كرسى بسطه وكان يوم عظيم. وكان له مثل ذالك فى يوم الاحد الذى بعده فى القاهرة فى كنيسة السيدة بحارة زويله، وكرز فيها بعد ان زفوه بالقراة والشمع والاناجيل والمجامر من باب

كما أن طائفة الرهبان الفرنسسكان، أخذوا تصريحا منه سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، يسمح لجماعتهم بالاقامة فى فلسطين [١]، وقد تمكنوا فى ظل هذا الصلح، ومنذ عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م من الاستقرار فى بيت المقدس[٢]، وبخاصة بعد أن اعترفت الكنيسة الكاثوليكية سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م بهذه الطائفة[٣].

وفى جو العلاقات الطيبة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، تمكن الانبا كيرلس الثالث البطريرك الخامس والسبعين للكنيسة القبطية من أن يعين مطرانا قبطيا فى بيت المقدس ليترأس احتفالات الاقباط فى الاعياد، بعدما كان المتبع أن يذهب مطران دمياط إلى القدس لهذا الغرض فى أعياد الميلاد والقيامة والعنصرة، ويعود بعدها الى مصر. كما أصبح من مهام المطران القبطى مباشرة مصالح الاقباط وزوارهم ورهبانهم فى الأراضى المقدسة. وكان طبيعيا أن يكثر عدد الاقباط المقيمين فى القدس، ويزداد عدد الحجاج الذين يؤمونها للزيارة ، بعد أن صار للقبط مطران قبطى فى المدينة. وبعد أن انفردوا بادارة كنائسهم وأديرتهم فى الاراضى المقدسة [٤].

(١) أحمد دراج: وثاذق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٢.

(٢) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧،

(٣) أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٢.

(٤) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٥ ــ ٣٢.

خوخت [خوخة] ميمون التى على الخليج الى هذه الكنيسه، ومعه خليفة متولى المعونة بالقاهرة ورجالته. وحدثنى الشيخ ابو الفضل المقدم ذكره لما حضر ليفتقدنى انه ما دفع لتلاميذ البطرك ولا لكاتبه درهما واحدا لا عن رسم ولا عن غيره ولا جسرو يطلبو منه شيأ خوفا من الاراخنه. وكذالك جرت حال سنهوت نيح الله نفسه عند تقدمته اسقفا، وكذلك انبا يعقوب الذى كان اسقفا قبله،

غير أن الصليبين فقدوا نهائيا مدينة القدس سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٤م بعد أن انتزعتها منهم القوات المصرية والقوات الخوارزمية المتحالفة معها، لينزل الخوارزمية بالاتين فى المدينة المقدسة شتى ألوان الاضطهاد والتعذيب (١)، فقد أعملوا السيف فى رقاب من كان فيها من النصارى وسبوا ذراريهم ونسائهم ، كما استهدفوا الكنائس والمعابد، ودخلوا كنيسة القيامة، فهدموا المقبرة التى يعتقد النصارى أنها قبر المسيح (٢) وأشعلوا النار فيها (٣)، ونبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج التى بالكنيسة، وحرقوا عظام الموتى (٤).

على أن الملك الصالح أيوب طرد الخوارزمية من القدس، ودخلها سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٥م(٥) ورحب به أهالى المدينة وبخاصة المسيحيين، الذين أحسن اليهم (٦)، كما أظهر قدرا كبيرا من التسامح ازاء طوائف الرهبان (٧) وبخاصة الرهبان الفرنسكان الذين

(١) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى، ص ٤٧، ٤٨.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٣٧.
ـ عارف العارف: المرجع السابق، ص ٨٦.
(٣) جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٤٨.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٣٧.
(٥) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، حـ٨، ص ٥٠٦.
(٦) الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ٢٠٤.
(٧) لين بول : المرجع السابق، ص ١٨٧).

بل لما صير البطريرك المذكور هذا الاب انبا يونس اغومنس امتنع من تكميله اسقف حتى اخذ خطه بانه يحمل نصف ارتفاع [عوايد] الكرسى فى كل سنة للقلاية البطركية عن الدياريه. وكان ما يوخذ من انبا سنهوت الاسقف نيح الله نفسه فى كل سنه للقلايه خمسة عشر دينار، والكتاب والتلاميذ دينارين اذا حملو اليه الارتسطتيكا، الجميع فى السنة سبعة عشر دينار.

استطاعوا ان يحصلوا من السلطات الأيوبية فى هذه السنة على حق توليهم رعاية الاماكن المقدسة فى القدس[1]، وبذلك أصبحوا الممثلين الرسميين للكنيسة الكاثوليكية، واتخذوا لقب «حراس الاماكن المقدسة»[2].

على أن الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر قد الحقت أبلغ الضرر بمدينة دمياط التى كان يسكنها كثير من النصارى عندما دخلتها فى الثانى والعشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ/ يونية سنة ١٢٤٩م [3]، كما حولها الصليبيون الى مدينة صليبية [4]، اذ شرعوا فى تثبيت رسومهم وشعائرهم فى المدينة [5]، فحولوا جامع دمياط

(١) أحمد دراج: وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٥.
(٢) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧.
(٣) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، القديس لويس، حياته، وحملاته على مصر والشام، ترجمة د. حسن حبشى، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٦٨م. ص ، ٩٦.
ـ محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٤) رنسيمان : المصدر السابق، حـ٣، ص ٤٥٣..
ـ محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٥) حسن حبشى: الشرق العربى بين شقى الرحى، وحملة القديس لويس على مصر والشام، ص ٤٨.
ـ جوزيف نسيم: لويس التاسع فى الشرق الاوسط ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٤٢.

وفى ابيب سنه ثمان مايه اربعه وتلتين للشهدا، وهى السنه الخامسه عشر لبطركية الاب القديس انبا مقاره البطرك، وصل بردويل(*) [بلدوين] مقدم الفرنج فى عسكر عظيم الى الفرما فنهبها واحرقها، وعول على الهجوم الى مصر بغته فمرض، وفى ثالث يوم اشتد مرضه فامر اصحابه ان يحملوه ويعودو الى الشام فحملوه وعادو، فلما وصلو الى العريش مات هناك فشقو بطنه وملحوه

(*) حدثت حملة بردويل على مصر فى عهد الخليفة الأمر لأحكام الله سنة ١١١٧م = ٥١١هـ. وقد أطلق اسمة على بحيرة توجد فى شمال سيناء على البحر المتوسط.

الكبير الى كنيسة كتدرائية كاثوليكية [١]، دشنها القاصد الرسولى فى الحملة باسم كنيسة نوتردام (السيدة العذراء)، وعينوا لها أسقفا لاتينيا يدعى جيل [٢]، وحولوا قبة فاتح الأسمر المقابلة للجامع الى مكان للمعمودية [٣]، كما جعلوا جميع مساجد المدينة كنائس، ووهبوها لشتى القديسين والقديسات [٤]. كما خصصت بعض أحياء المدينة لسكنى الجاليات الايطالية التى اشتركت فى الحملة [٥].

ويذكر البعض أن لويس التاسع عامل المسيحيين الوطنيين من الاقباط اليعاقبة معاملة طيبة كما يدعوا أنهم رحبوا بحكمه[٦]، استنادا الى نص التقرير الذى وضعه الكونت دى شامبانى عن الحملة، حيث يقول فيه «وعلمنا أنه بينما كان لويس يستعد لمحاصرة دمياط قام المسلمون بقتل النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقة ولا رحمة، وفى اليوم التالى وجد الصليبيون مدينة

(١) زيادة: المرجع السابق، ص ١١٩.
- جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٤٢.
(٢) جوانفيل: المصدر السابق، ص٩٨.
(٣) زيادة : المرجع السابق، ص ١١٩.
(٤) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٤٨.
(٥) زيادة : المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٦) رنسيمان : المرجع السابق، جـ٣، ص ٤٥٣.
- جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٩.

[حنطوه] كما اوصاهم، وعادو به الى القدس. وكان السيد الاجل الافضل [ابن بدر الجمالى] لما بلغه وصولهم الى الفرما جرد اليهم عسكر عظيم، فلما مات بردويل مقدمهم وعادو تبعهم العسكر الى الشام وعاد. وقد كفانا الله امرهم، نساله جل اسمه دوام رحمته ونعمته ويلهمنا شكره ولا ينسيلنا [ينسينا] ذكره بجوده ومجده.

ولما كان يوم الاحد النصف من كيهك سنة

دمياط خاوية ، أما النصارى الذين فروا من المدينة ونجوا من القتل فقد عادوا اليها، واعملوا سيوفهم فى رقاب المسلمين الذين لم يلحقوا بالجيش الاسلامى المتقهقر، فان هؤلاء النصارى خفوا الى استقبال الصليبيين الذين اعتبروهم كأخوانهم وأشركوهم فى موكب انتصارهم» (١).

الا أنه ينبغى علينا أن نأخذ ما جاء فى هذا التقرير الذى وضعه الكونت دى شامبانى أحد قادة الحملة ـ بكثير من الحذر، فيما يتعلق بأقباط دمياط، لأن التقرير صادر من جانب واحد، وهو الجانب الصليبى المعتدى والمتعصب، الذى يهمه أن يضفى على الاحداث ما يتوهم أنه فى صالحه. ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية الشرقية اسلامية كانت أم نصرانية، وبعضها معاصر للاحداث وقريب منها، لم تعطنا أية معلومات عن موقف أقباط دمياط من هذه الحملة. ولو حدث أنهم انحازوا الى الجانب الصليبى، لأفاضت المصادر فى القاء الضوء على موقفهم هذا، وكان لهذا الموقف من جانب نصارى دمياط ردود فعل من جانب المسلمين كان لابد من أن تشير اليها المصادر المعاصرة.

واذا كان الصليبيون قد خرجوا من مصر بعد هزيمتهم فى المنصورة وفارسكور بمقتضى

(١) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٩، ١٧٠
ـ محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦.

احدى عشر وخمسمايه الخراجيه، وهى سنة ثمان
مايه ثمانيه وتلتين للشهدا، وهو سلخ شهر رمضان
سنه خمس عشر وخمس مايه الهلاليه الذى فى
غده يكون الفطر، ركب السيد الاجل الافضل من
داره بمصر التى تسمى دار الملك وطلع الى القاهرة
المحروسه ودخل الى القصر الشريف وجلس بين
يدى مولانا الامر باحكام الله وعرضة [عرضت]
عليه المضال [المظلات] والدواب والسروج وغير

الاتفاق الذى أبرم فى سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م [1]. فانهم خلفوا وراءهم عددا من الصليبيين الذين اعتنقوا الاسلام [2]، كما عادت المساجد التى كانوا قد حولوها الى كنائس الى حالتها الاولى [3].

علاقات الفاطميين والايوبيين ببلاد الحبشة

من الأمور الجديرة بالبحث موضوع العلاقات بين مصر والحبشة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى، تلك العلاقات التى كان لكنيسة الاسكندرية الدور الأكبر فى استمرارها وتدعيمها، فكنيسة الحبشة تعتبر «كبرى بنات الكنيسة القبطية» [4]، ويرسم لها أساقفة مصريون بناء على طلب ملوكها، وكانوا دائما أبدا من القبط اليعاقبة، وتتم قداستهم فى الكنيسة المرقسية فى مصر [5]، ولا يخرج هؤلاء الاساقفة من الديار المصرية الى الحبشة الا

(١) جوانفيل:المرجع السابق، ص ١٩٦.
ـ العرينى: المرجع السابق، ص ١٤٨، ١٤٩.
(٢) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٣) زيادة : المرجع السابق، ص ٢٢٣.
(٤) سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٧.
(٥) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

ذالك، وتخير منه ما يكون برسم الركوب فى غد ذالك اليوم، على جرى العادة فى مثله. وخرج من القصر وعاد الى مصر، فلما تجاوز سوق السيوفيين وراس الجسر خرج عليه ثلثة رجال لم يعرفوا، وقيل انهم من بلاد الشرق، فاستقبله اثنين منهم وبايديهم سكينتين، فلما راهم الغلمان بادروا اليهم بالسيوف فقتلوهم، وفى اشتغال الغلمان بقتلهما خرج اليه الثالث من زقاق دار الكتابه وضربه

بناء على أوامر السلطات الحاكمة للبطريرك القبطى بارسال مطران اليهم وبعد أن يرسل ملك الحبشة هداياه[1].

اذا جرت العادة حينما يريد ملك الحبشة أن يطلب مطرانا لبلاده، أن يرسل الى مصر رسالتين احداهما الى صاحب الأمر فى مصر والاخرى الى بطريرك الاسكندرية، ومع الاولى هداياه من العبيد والجوارى والمسك والعاج [2]، وبعض الحيوانات [3]، ومع رسالة البطريرك مبلغ كبير من المال يقدمه الاحباش لرأس الكنيسة القبطية، حينئذ يلتمس البطريرك الأذن من الخليفة أو السلطان أو من بيده الأمر فى مصر، ليقوم برسامة أحد الرهبان ممن يتوسم فيهم الصلاحية مطرانا للحبشة.

ويتضح من مصادر الفترة موضوع البحث أن ركنا أساسيا مما تضمنته الاتصالات بين مصر والحبشة دارت معظمها حول موضوع واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلو

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ٩١.

(٢) ساويرس: المصدر السابق.

ـ عبد المجيد عابدين: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، حـ٣، ورقة ١٥٠.

بسكين فقتله، وبادرو الغلمان اليه فقطعوه بسيوفهم وحملو السيد الاجل الافضل(*) الى دار الملك وهم يظنو انه حى، فلما صار فى الدار وجدوه قد مات، فلما بلغ خبره لمولانا الامر باحكام الله نزل من ساعته الى دار الملك واحتاط على جميع ما فيها من الاموال، وامر بكتمان وفاته فى تلك الليله عن الناس، وفى غد اظهر امره للوجود، وفى غداة يوم الثلثا اخرج تابوته فى السحر وجميع الناس

(*) قتل الأفضل ابن بدر الجمالى على يد عبد الله ابن محمد البطايحى بايعاز من الخليفة الآمر باحكام الله وتولى الوزارة مكافأة له. ولكن الآمر قبض عليه سنة ٥١٩هـ = ١١٢٥م وسجنه ولم يصبح من بعده وزير فى مصر حتى وفاة الخليفة الأمر مقتولاً سنة ٥٢٤هـ= ١١٣٠م.

الكرسى الأسقفى فيها [١]. وفى المقابل كان الاحباش فى العصور الوسطى على حد قول القلقشندى «يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر الى مصر، ويساعدون على اصلاح سلوكه تقربا الى صاحب مصر [٢].

ومن ثم يتضح لنا أن الأسقف المصرى الذى تعينه الكنيسة المصرية مطرانا على الحبشة كان له مكانته الموموقة والمقدسة فى بلاد الاحباش. كما كان له نفوذه وسيطرته الروحية ليس فقط بالنسبة للاحباش المسيحيين بل لدى ملك الحبشة وبلاط المملكة، فالى جانب رئاسة الأسقف المصرى للكنيسة الحبشية وترسيمه للقسس والشمامسة من أهل البلاد، ورئاسة الاحتفالات الدينية الكبرى فى الحبشة [٣]، فقد صار لهذا للاسقف المصرى مهام سياسية. فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد يعتلى عرش مملكة الحبشة، ويرأس الاحتفال الكبير الذى يقام فى تلك المناسبة، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه[٤].

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ١٣.
(٢) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٢٣.
(٣) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٣٢، ١٣٣.
(٤) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٠٨.
- عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ١٣ نقلا عن ابى صالح الارمنى، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

يمشو حوله حفاه، وخرج مولانا الامر خلد الله ملكه راكب خلفه بثياب غسيل وعمامه حمدانيه بذوابه حتى وصل الى تربة والده بظاهر القاهره خارج باب النصر فصلى عليه ودفن فيها. وعاد مولانا الى دار الملك بمصر واقام فيها سبعة عشر يوم(*) حتى حمل جميع ما فيها من الاموال والجواهر والذهب والفضة والملابيس والفرش والاثاث والالات الى القصر. ويقال ان المال الذى

(*) في بعض مصادر هذه الفترة قبل أن الآمر بأحكام الله استمر اربعين يوماً بلياليها بنقل الأموال.

ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها في حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر، ومطران الحبشة هو الذى يضفى على القوانين الملكية صيغتها القانونية، وعن طريقة يصدر قرار الحرمان ضد أى شخص يغضب عليه فيصير ذلك الفرد محروما من الكنيسة مطرودا من رحمتها (1).

ومن ثم فان أهل الحبشة على اختلاف طبقاتهم كانوا يخفون الى الترحيب بكل مطران جديد موفد اليهم من مصر، فيخرجون في موكب هائل لاستقباله، وعلى رأسهم الملك وكبار رجال الدولة (2)، وينتظرونه على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة ، فاذا رأوه خروا ركعا أمامه، ونثروا فوق هامته الذهب، وأحرقوا حوله البخور، ونشروا فوق رأسه مظلة من القماش الثمين الموشى بالذهب ومشوا خلفه حتى يصل الى الكنيسة ليصلى بهم(3).

واذا كانت هذه مكانة الأسقف المصرى المرسم على الحبشة فما بالك بمكانة بطريرك الاسكندرية خليفة مار مرقس عند ملوك الحبشة وشعبها.

ومن ثم فان أهل الحبشة على اختلاف طبقاتهم كانوا يخفون الى الترحيب بكل مطران

(1) عاشور: المرجع السابق، ص ١٤.
(2) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٦، ١٢٧.
(3) اريس حبيب: نفس المرجع، حـ٣، ص ١٢٦.

وجد عيناً فى الاكياس اربعه الف الف دينار، وما سوى ذلك مما تقدم ذكره مع السلاح والدواب، ما [لا] يعرف قيمته. وصار مولانا عليه السلام(*) يجلس كل يوم فى قاعة الذهب بالقصر السعيد للنظر فى امور المملكة، ورجال الدوله والقايد الاجل ابو عبدالله واخوته بين يديه لتنفيذ الامور، والركوب معه فى كل يوم سبت ويوم الثلثا الى البساتين والمناظر بضواحى القاهرة وظاهر مصر.

(*) لاحظ هنا عبارة «عليه السلام» وقيمتها ومعناها فى المعتقد الفاطمى.

جديد فلا عجب أن تركزت غالب الاتصالات بين مصر والحبشة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى حول موضوع رئيسى واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلوا الكرسى الأسقفى فيها. كما تناولت بعض الاتصالات أوضاع المسلمين فى الحبشة[1]، وأهمية رابطة النيل بين البلدين[2].

وفى العصر الفاطمى الثانى، وأثناء وزارة بدر الجمالى كثرت المراسلات بين مصر والحبشة، وكثر الوافدون من الحبشة على دار البطريركية فى القاهرة. وقد استخدم البطريرك نفوذه لدى الاحباش لتدعيم العلاقات بين البلدين [3]، كما وقف بدر الجمالى منذ عهد خريستودولوس يساند البطريركية عندما قررت عزل من يدعى قوريل الذى اغتصب كرسى المطرانية فى الحبشة، بعد وفاة الانبا بقطر مطرانها المعتمد لدى كنيسة الاسكندرية، بل ان بدر الجمالى اعتقل قوريل هذا فى خزانة البنود، عندما قبض عليه وأرسل الى مصر، ضرب عنقه، ثم صرح بدر الجمالى للبطريرك كيرلس الثانى برسامة راهب قبطى يدعى ساويرس السابق الاشارة اليه، مطرانا على الحبشة، بعد أن وعد أمير الجيوش «بمواصلة الهدايا من هناك وبدء

(١) ساويرس: المصدر السابق.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٦.
(٣) ساويرس: المصدر السابق.

واستمر على ذالك بقية شهور سنه خمس عشر وخمسمايه الهلاليه.

ولما كان في سنه ستة عشر وخمس مايه [الهلالية] اخلع مولانا، خلد الله ملكه، على القايد الاجل عبدالله [البطايحى] وقلده الوزاره وتدبير مملكته والنظر في امور رجال دولته وكتب له بذالك سجل معظم وذكر فيه القابه ونعوقه [نعوته] ومن جملتها السيد الاجل المامون، الى ان عول على قتله اذا خلا به في قصره، فاتضح له

الملوك تطيعه»، وأن يتعهد المسلمين في الحبشة برعايته، ويوصى بهم، وأن يبنى بالحبشة أربع مساجد للمسلمين[1].

على أن ساويرس المطران الجديدة للحبشة لم يستطع أن يفى بالتعهدات التى قطعها على نفسه أمام بدر الجمالى فيما يخص حسن معاملة المسلمين، ولم يتمكن من بناء مساجد للمسلمين. كما أن هذا المطران أوفد أخاه بهدية «لم يحسن موقعها عند أمير الجيوش ولا أعجبته» [2] وزاد من غضب بدر الجمالى أن الاحباش ضايقوا التجار المسلمين في تلك البلاد وفرضوا عليهم ضرائب ثقيلة أضرت بهم [3] مما أدى الى توتر العلاقات بين السلطات الحاكمة فى مصر وبلاد الحبشة كما توترت العلاقات بين الدولة فى مصر والكنيسة القبطية اذ احضر بدر الجمالى البطريرك كيرلس الثانى الى مجلس ، ومعه عشرة من الأساقفة، ووبخهم، وهددهم، لأن شيئا مما تعهد به المطران لم يحدث، ثم طرد البطريرك من مجلسه، وأمر بأخ مطران الحبشة فقبض عليه، واعتقله فى خزانة البنود، وفرض غرامة يومية مقدارها ديناران على كل أسقف حضرهذا اللقاء العاصف، وأساء معاملة النصارى، حتى قرر البطريرك ورجال

(١) ساويرس: المصدر السابق.

(٢) ــــــــ: نفس المصدر.

(٣) يذكر أبو صالح الارمنى فى تاريخه انه كان فى بلاد الحبشة عدة كبيرة مسلمين ويقوموا بالجزية (أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص١٣٤).

ذالك بدلايل عرف صحتها وحقيقتها [فـ] سبق اليه وبادر بالقبض عليه وعلى اخوته واولاده ووالده في عشية يوم الجمعة الثالث من رمضان سنة تسعة عشر وخمس مايه، واعتقلهم في خزانه بالقصر السعيد موثوقين بالحديد والقيود. وبعد مدة مات حيدوه [حيدره] وبقي محمد ابن فاتك الملقب بالمامون.

وانتهى الى الخليفة ان محمد ابن فاتك المذكور

الكنيسة ارسال وفد من الاساقفة الاقباط الى ملك الحبشة، مع رسول من قبل أمير الجيوش[1]، حمل رسالة شديدة اللهجة الى ملك الحبشة تتطالبه بتنفيذ مطالب بدر، والا على حد قول بدر «هدمت البيع بأرض مصر» وقبل ملك الحبشة التحدى وأرسل الى بدر الجمالي يقول: «اذا هدمت من البيع حجر واحد حملت اليك طوب مكة وحجارتها جميعا وأوصلته اليك كله»[2].

ومات الانبا كيرلس الثاني سنة ٤٨١هـ، وخلفه على عرش البطريركية الانبا ميخائيل البطرك الثامن والستين والعلاقات بين مصر والحبشة على حالتها من التوتر. حتى اذا نقص النيل وهدد انخفاض الفيضان بمجاعة، أرسل الخليفة المستنصر بالله الفاطمي البطريرك ميخائيل بهديه سنية وتحف جليلة الى بلاد الحبشة ، فتلقاه ملكها[3]، على رأس موكب حافل ضمن كبار رجال دولته وشعبه، وسجد بين يديه[4]. وحين علم بالسبب الذى حدا بضيفه الكبير أن يحضر الى بلاده، أمر رجاله في الحال بتطهير مجرى النيل[5] وفتح السد

(١) ساويرس: المصدر ا لسابق.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
(٣) المقريزي: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٤) سمكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٥) القلقشندى: المصدر السابق،حـ٥، ص ٣٢٣.
ـ اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٦.

كان في ايام وزارته سير الى بلاد اليمن رجل من خواصه يعرف بابى الحسن نجيب الدولة على انه رسوله الى الحره (*) ملكة اليمن فى الظاهر، وقرر معه في الباطن ان يذيع عنه انه ولد ابن نزار ابن مولانا المنتصر بالله، وانه احق بالخلافه، وهو الان مقيما بها، وان يقيم له الدعوة هناك ويضرب له السكه باسمه هناك، فسير اليها الامام الامر باحكام الله احد الامرا وينعت باسد الدولة ومعه كتب الى

(*) الحرة ملكة اليمن: كان لأمراء الصليحيين باليمن علاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين فى مصر، فلما تقلدت السيدة الحرة زمار الأمور فى اليمن بعد وفاة زوجها المكرم أحمد، ظلت تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية فى اليمن، وكانت على اتصال وثيق بالخليفة الآمر، =

الذى يجرى منه الماء الى أرض مصر [1] تكريما وتقديرا لرأس الكنيسة المصرية [2]، فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع، واستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت» [3].

كما نجح هذا البطريرك ميخائيل فى أن يقيم علاقات ودية بين ملك الحبشة والسلطات الحاكمة فى مصر، ومن ثم توثقت العلاقات بين الدولتين [4]، وعندما عاد البطريرك الى مصر ـ بعد أن مكث فى الحبشة عدة أسابيع ـ خلع عليه المستنصر بالله وأحسن اليه [5].

ومن الجدير بالذكر أن الانبا ميخائيل البطريرك الشامن والستين فى سلسلة بطاركة الاسكندرية كان أول من سافر الى بلاد الحبشة من بطاركة الكنيسة المصرية [6].

ولم تمض فترة وجيزة على عودة الانبا ميخائيل الى مصر، حتى وفد رسول من ملك الحبشة الى الافضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة المستعلى بالله، يلتمس تعيين مطران جديد لبلاده، وأن يسيره اليه مع رسوله ، ولما كان الأمر عاجلا، فقد بادر البطريرك القبطى على

(١) المقريزى: الخطط، حـ٣، ص ٤٩٦.
(٢) سميكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٤) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٧.
(٥) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٦) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص١٢٧.

الحره، فلما وقفت عليها وعرفت قضيت [قضية] حال ابوا الحسن المذكور لم تزل تتحيل بسياستها الى ان قبضت عليه وسيرته الى مصر، فلما وصل يوم الثلثا العاشر من محرم سنه احدى عشر وخمسمايه استشهد [شهّر] فى القاهره ومصر وهو راكب على جمل وتحته دكه وعلى راسه طرطور رصاص مزوق، وعلى كتفه قرد، وفي يده مراه تريه وجهه، وخلف ظهره رجال [رجل من] العوام وفى

= فتبودلت بينهما الكتب والرسايل، وأظهرت ولاءها لهذا الخليفة فاعترفت بامامته، كما اعترفت من قبل بامامة أبيه المستعلى، وأقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن. وكان الخليفة الآمر حريصاً على أن تظل موالية لأبنائه من بعده، فلما رزق أبنه ابا قاسم الطيب، كتب إلى السيدة الحرة بأمرها أن تذيع هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن .

عجل برسامة راهب يدعى جرجس مطرانا للحبشة، غير أن هذا المطران أساء السيرة، وتعداها الى أمور قبيحة، فقبض عليه ملك الحبشة، وأعاده الى مصر وكتب الى الوزير الأفضل يشكو ما فعله المطران، فاعتقل الأفضل المطران، كما بادر البطريرك بخلعه، وقام برسامة مطران جديد وسيره الى الحبشة (١).

وفي عهد الخليفة الحافظ لدين الله توترت العلاقات بين الكنيسة المصرية والحبشة واصطدم ملك الحبشة بالبطريرك غبريال بن تريك الذى رفض الاذعان لرغبة الملك برسامة أسقف أكثر من العدد المتفق عليه بين كنيستى الاسكندرية والحبشة، وأرسل ملك الحبشة يطلب تدخل السلطات الحاكمة في مصر، وسأل الخليفة الحافظ لدين الله أن يأمر البطريرك بترسيم أكثر من سبعة أساقفة للحبشة، غير أن البطريرك اعتذر للخليفة، وأوضح له أن تعيين أكثر من سبعة أساقفة في الحبشة، سيمكن الأحباش من ترسيم مطران لكنيستهم دون الرجوع الى الكنيسة المصرية مما يعنى استقلال كنيسة الحبشة وانفصالها عن أمها كنيسة الاسكندرية، وخروج الاحباش عن طاعة بطاركة مصر، وبالتالى أضعاف العلاقات بين البلدين، فضلا عن أن

(١) ساويرس: المصدر السابق.
- سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
- اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٨.
- منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٧١.

يده نعال وهو يبطش به [يضربه على قفاه] طول الطريق الى ان وصل الى القصر الشريف، واعتقل عند صاحبه محمد ابن فاتك.

اسال الله جلت قدرته وتعالى ذكره ان يرزقك ايها الاب الراهب ابن يوحنا النفيس الشماس الابصلمدى النعمه والامن والكفايه بشفاعه السيده البتول الطاهره مرتمريم والدة الخلاص [الخلصاء] وكافة الشهدا والقديسين.

الاحباش سيقومون بمحاربة المسلمين المتاخمين لبلادهم، ومن ثم اقتنع الخليفة ووافق على رأى البطريرك فى عدم رسامة أساقفة جدد لمملكة الحبشة [(١)].

وفى عهد الخليفة الظافر بالله، وأثناء وزارة الوزير على بن اسحق ابن السلار، اغتصب عرشى الحبشة مغتصب فوبخه الانبا ميخائيل مطران الحبشة على سوء فعلته ، فغضب مغتصب العرش لذلك [(٢)] ، وأرسل الى الوزير ابن السلار يطلب مطرانا جديدا للحبشة بدل المطران الموجود بها والمسمى أنبا ميخائيل، الا أن الانبا يوحنا الخامس البطريرك الثانى والسبعين للكنيسة القبطية امتنع، واعتذر لوزير العادل بن السلار، بأن الشريعة المسيحية تحرم عزل رجال الكهنوت من مناصبهم بغير سبب جوهرى، فغضب العادل، وأمر باعتقال البطريرك فى سجن دار الوزارة، ولم يفرج عنه الا بعد مقتل ابن السلار فى شهر المحرم سنة ٥٤٨هـ [(٣)].

واستمرت العلاقات ودية وطيبة بين مصر والحبشة حتى نهاية العصر الفاطمى، حتى اذا انتقلت السلطة الى صلاح الدين، بادر ملك الحبشة باجراء اتصالات مع نظام الحكم الجديد

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة : المرجع السابق، حـ٢ ، ص ١٤٩ .
(٢) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٦٣ .
(٣) ساويرس: المصدر السابق.

الاب غبريال ابن تريك البطرك
وهو من عدد الابا السبعون
[١١٣١/١١٤٥م]

هذا الاب الجليل غبريال ابن تريك كان من اهل مصر من نسل شريف من اعيان الكتاب، جلس على كرسى البطركيه اربعه عشر سنه وسته شهور، وتنيح فى العاشر(*) من برموده سنه اثنين وستين وثمان مايه للشهدا، الموافقه للحادى عشر

(*) ١٠ برموده ٨٦٢ = ١١ شوال ٥٣٦هـ = ١١٤٥م.

فى مصر، فالمقريزى يذكر أنه فى ذى الحجة سنة ٥٦٧هـ «وصل رسول متملك الحبشة بهدية وكتاب الى الخليفة فقرئ كتابه وأخذت هديته» (١).

ومن ثم بادل صلاح الدين الاحباش ودا بود، وحافظ على العلاقات الوثيقة بين مصر والحبشة، وحرص على تدعيمها، فعندما فتح البيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. وطرد الصليبين من المدينة المقدسة، رد الى الاحباش أماكنهم التى اغتصبها الصليبيون منهم، وأبدى كثيرا من التعاطف ازاء الرهبان الاحباش وديرهم بالقدس (٢)، وشمل الحجاج الاحباش برعايته، وأمر باعفائهم من أية ضرائب مقابل زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس ووفر كل الرعاية للاحباش لأنهم«من جيرانه» (٣)، وقد تمسك الاحباش بهذا الحق منذ صلاح الدين وطوال العصر الايوبى، وطالبوا خلفاءه من سلاطين الأيوبيين من بعده

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ت ٤٨.
(٢) دير الحبش بالقدس: ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب، وقيل أنه جزء من دير السلطان للاقباط، ذلك الديرالذى لم ينقطع الخلاف حوله بين الاقباط والاحباش منذ سنين (عارف العارف: المرجع السابق، ص ٢٥٤).
(٣) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٢.
ـ المرجع السابق، ص ٨٠.
ـ اريس حبيب : المرجع السابق، حـ٣، ص ١٩٣.

من شوال سنه تسع وثلثون وخمس مايه الهلاليه.
وكان اسمه وهو علماني ابو العلا، شماسا في كنيسه القديس ابو مرقوره [أبو سيفين] بمصر، رجل كهل عاقل صالح عالم خبير ذات [ذا] سيره جميله وصدقه كثيره وبر ومعروف، محباً للصلوات والقداسات، وخدمة الكنايس والغربا والمرضى، مفتقد الارامل والايتام ومن في السجون والضيق، ومجتهد في قراه الكتب وتفسير معانيها

باعفائهم من أى رسم مقابل السماح لهم بالتردد على الاماكن المقدسة فى فلسطين(١). كما دأب ملوك الحبشة على ارسال الاموال والهدايا الى دير الاحباش بالقدس طالبين من رهبانه الدعاء والبركة (٢).

كذلك يتحدث بعض الباحثين الاقباط عن وجود دير للاحباش فى وادى النطرون فى مصر، قبل نهاية القرن الثانى عشر الميلادى (قبل نهاية القرن السادس الهجرى أى فى العصر الأيوبى) وأن الاقباط وهبوا لهم هذا الدير. كما يرى هؤلاء البعض أن الرهبان الاحباش خلال هذا القرن كانوا يشاركون الرهبان النوبيين دير ايليا، وكان دير الاحباش هذا يجاور دير القديس يوحنا بوادى النطرون، وأنه قد نشأ بين الرهبان الاحباش والرهبان المصريين فى هذا الوادى رباط من الألفة والمحبة (٣). كما سافر الى الحبشة كثير من الرهبان المصريين، وحملوا معهم بعض كتب الصلوات والطقوس الدينية، فضلا عن سير الآباء والقديسين، وقد ترجمت هذه الكتب الى لغة الاحباش وصارت لاتخلوا منها كنيسة أو دير، كما صادفت رواجا كبيرا بين

(١) عاشور: أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ٢٢.
(٢) عاشور: المرجع نفسه، ص ٢٤.
(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

والبحث عنها، ناسخ جيد قبطي وعربى، ينسخ لنفسه كتب كثيره ومجلدات اشتراها من كتب العتيقه والحديثه مما يصلح للبيعه المقدسه والدين المسيحى، وكان يخدم فى ديوان المكاتبات وقت، وفى بيت المال وقت. ومَن كتابة بيت المال اخدوه لما وقع عليه الاتفاق وكرزوه بطركا، وكان عمره فى ذلك الوقت سبعه واربعين سنه. وكان المساعد فى قسمته مع الاراخنه الشيخ ابى البركات ابن ابى

الاحباش، الأمر الذى أدى الى تقوية الروابط الروحية بين مصر والحبشة بالاضافة الى تدعيم الصلات بين الكنيستين المصرية والحبشية فى ظل المذهب الارثوذكسى [1].

وفى عهد السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أرسل ملك الحبشة مبعوثا يحمل هدية جليلة لسلطان مصر وكتابا اليه بأن يتقدم للبطريرك برسامة مطران جديد للحبشة لوفاة المطران الذى عندهم. فاختار البطريرك يوحنا السادس الانبا كائيل بن الملبس ورسمه مطرانا للحبشة، غير أن هذا المطران،عاد الى مصر بعد أربع سنوات هربا من الاحباش الذين أرادوا قتله. ولما أرسل البطريرك رسولا من قبله الى الحبشة ليقف على حقيقة الأمر، أخبره الاحباش أن المطران الهارب قتل واحدا من القسس بالحبشة، وأساء السيرة، وبنى قصرا منيفا أحاطه ببستان كبير غرس فيه الاشجار وحفر له جداول الماء، ومهد داخله الطرقات والدهاليز، واحتجب عن الناس، وصار لا يخرج الا يوم الأحد فى غاية الابهة فى موكب عظيم، على بغلة عالية، وعلى رأسه مظلة، وحوله غير الخدم نحو خمسمائة من الحراس [2].

وأرسل ملك الحبشة آنذاك المسمى «لاليبلا بن شنوده» رسولا الى السلطان الملك العادل،

(١) عاشور: اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ١٠.

(٢) ساويرس: المصدر السابق.

ـ سميكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٥٠.

الليث الملكى صاحب ديوان التحقيق ومن حضر من الاسكندرانيين بمصر، لان النوبه كانت لهم، وطلع به الى كنيسه المعلقه فى يوم الثلثا التاسع من امشير من سنه سبع واربعين وثمان مايه للشهدا، فدهنوه ومضو به فى عشارى موكبى الى اسكندريه واوسموه بطركا، وذلك فى ايام احمد ابن الافضل ابن امير الجيوش ويسمى شاهنشاه.

وذكر مولف هذه السيره وهو الاب مرقس ابن

وصل الى مصر سنة ٦٠٦هـ، ومعه هدايا جليلة من جملتها: فيل، وسبع ، وزرافات، وحمار وحشى، وتاج مرصع بالذهب، هذا الى جانب كتاب منه يلتمس ترميم مطران جديد، بدل المطران الذى عزلته الكنيسة وجردته من ألقابه، ولما كان السلطان الملك العادل فى الشام، فقد أمر ابنه الملك الكامل ـ نائب السلطنة فى مصر ـ البطريرك بسرعة ترسيم مطران للحبشة، وألا يؤخر الرسل الاحباش فى القاهرة، وعليه أن يرسلهم على وجه السرعة الى ملكهم ومعهم المطران الجديدة [١].

ولقد تركت مثل هذه العلاقات الطيبة أثرها الطيب فيما يتعلق بموقف الحبشة من أقباط مصر، اذ لجأ عدد كبير من الاقباط الى بلاد الحبشة، طلبا لحماية ملكها «لاليبلا»، على أثر إضطهاد الملك العادل أبو بكر للقبط وتدميره للمدن الساحلية المصرية مثل تانيس ودمياط وغيرهما سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م [٢]، وهرب سكانها وكثير منهم من الأقباط فرارا من الحصار الطويل والشديد الذى تعرضت له المدينة، وفرارا من المذابح التى ارتكبها الصليبيون ازاء أهل

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة: المرجع السابق السابق، حـ٢، ص ١٥٠.
(٢) عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، ص ٢٥.
ـ عبد المجيد عابدين: المرجع السابق، ص ١٦٦.

زرعـــه(*) انه لم يكن لاحد من الاساقفه علم بقسمته ولا الرهبان ولا مشوره في امره لان كرسي البطركيه اقام خاليا سنين كثيره بعد وفاة انبا مقاره. واخبر من يوثق به ان الجماعه التي اجتمعت من الاراخنه لطلب بطرك مضو الى دير ابو مقار فاخذوهم اولاد ابو مقار ومضو معهم الى ابا يوسف القديس السرياني في دير السريان لكي يشاوروه وياخذو بركته، وكانت نعمة الله حاله عليه

(*) مؤلف هذه السيرة هو الاب مرقس ابن زرعه.

دمياط، وقد وفر الملك «لا ليبلا» الحماية لهؤلاء اللاجئين المصريين من بني ملته [1]، ورحب بهم واكرمهم [2]، على اعتبار أن بلاده من وجهة نظر الاحباش مركز الامبراطورية المسيحية المنيع والدرع الواقي لكل مسيحي يلوذ بها ويطلب حمايتها [3].

واذا كان الصليبيون قبل قيامهم بحملة حنا دى برين، لم يفتهم أن يتصلوا بملك الحبشة ليتعاون معهم على حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة وهو ما هدد به ملك الحبشة، الوزير الفاطمي بدر الجمالي من قبل[4]، الا أن ظهور فكرة قيام تحالف أوروبي حبشي نشأت سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢م بعد أن منيت حملة حنادى برين على دمياط بالفشل إذ أرسل جاك دى فترى. أسقف عكا رسالة الى ملك الحبشة، يدعوه الى تكوين تحالف أوروبي حبشي من أجل انقاذ الاماكن المقدسة من يد المسلمين، والقيام بحملة صليبية مزدوجة ضد مصر من الشمال والجنوب في وقت واحد تشترك فيها الحبشة.

الا أن هذا المشروع المقترح لم يكتب له الخروج الى حيز التنفيذ ولم يقدر له أن يتم، على الرغم من أن ملوك الفرنج حاولوا عدة مرات بحث تنفيذه.

(٣) عبد المجيد عابدين :المرجع السابق، ص ١، ١٧١.
(٤) عاشور: بعض أضواء على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٥
(٥) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق، ص ١٧١.
(١) ساويرس : المصدر السابق.

وروح القدس ساكنه فيه، وكان يخبر بالغيب، فلما تحدثو معه في امر البطركيه ومن يصلح لها، لان قوم منهم كانو تطاولو لها، فقال لهم ابا يوسف: ارجعو الى منازلكم فقد تعبتم في مجيكم الى هاهنا فان بطركم في مصر. واشار اليه واسماه لهم وقال لهم: هو فلان ابن تريك. فرجعو وفعلو كما قال لهم. وكذلك يقال عن البطرك انبا مقاره الذى كان قبله ان ابا يوسف هذا قال عنه مثل ذلك،

على أنه من الجدير بالذكر أن ظهور فكرة تحالف أوروبى صليبى مع الحبشة لم تغب عن ذهن الأيوبيين في مصر، مما دفعهم الى الحرص على استمرار قيام علاقات طيبة وودية للغاية مع الحبشة، وللحيلولة دون تنفيذ المشروع الصليبى، واقتضت هذه السياسة منهم معاملة المسيحيين من الحجاج الاحباش على وجه الخصوص معاملة طيبة، ومنحهم الامتيازات أثناء تواجدهم في الاراضى المقدسة بفلسطين، واعفائهم من الرسوم المفروض على الحجاج المسيحيين عن زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسة ورعاية دير الاحباش في بيت المقدس والاهتمام بأمر رهبانه والعطف عليهم [١] الى جانب ما يصلهم من الاموال والهبات من ملوك الحبشة [٢]، فضلا عن ذلك فقد حرص سلاطين الأيوبيين على الاهتمام بأمر الرهبان الاحباش في مصر ورعاية ديرهم ـ الذى وهبه الاقباط لهم بوادى النطرون [٣].

علاقة الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبة

يتسم كل من العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى في مصر بقيام علاقات دالة على

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٢.

ـ ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢) عاشور: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٤.

(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٦٩، ٢٨٥، ٢٨٦.

وكذلك الحبيس بابيار انه اخبر بذلك. وذكر من
كان يعاشره من صباه ويخالطه من اترابه انه كان
يعمل موضع من دار ابوه مثل كنيسه، وكان يقرا
فيها كانه يقدس ثم يبارك على اهل دار ابوه،
ويلعب وهو طفل ويقول لهم انا بطركم ويلبس
مزره حرير كانت له مثل القصله. ولما كبر اقسم
شماساً. ولله في خلقه اسرار لا يعلمها الا هو ومن
يطلعه عليها من قديسيه ومحبى اسمه، وقد قال

حسن الجوار والمسالمة بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية اذ حرصت السلطات الحاكمة فى مصر على استمرار العلاقات الطيبة بين البلدين وتوثيقها لاعتبارات سياسية واقتصادية، كما حرص ملوك النوبة المسيحية على تقوية هذه العلاقات وتعميقها حفاظا على العلاقات والروابط القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية، وتدعيما لمركز البطريرك القبطى والأقباط فى مصر [1].

على أن علاقات مصر بالنوبة شابها بعض التوتر فى بداية عهد بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، اذ يذكر مؤرخ «سير البيعة المقدسة» أن أحد الوشاة أبلغ بدر الجمالى ـ أثناء مسيره على رأس حملته الى الصعيد سنة ٤٦٩هـ للقضاء على ثورة كنز الدولة محمد فى أسوان ـ أن المدعو بقطر مطران كنيسة النوبة من قبل البطريرك خريستودولوس هدم مسجدا للمسلمين هناك، ولم يحرك ملك النوبة ساكنا بايعاز من البطريرك، فأسرع بدر الجمالى وأرسل من الصعيد كتابا لولده الاوحد فقبض على البطريرك، وزج به فى السجن، وألقى عليه تبعة ذلك العمل، كما أنفذ بدر الجمالى الامير حسام الدولة رسولا الى ملك النوبة ليتحقق من صحة النبأ، وبعد حين عاد الرسول وقد اتضح أن الأمر لا يعدو أن يكون أكذوبة

(١) مصطفى سعد: المرجع السابق، ص ١٠٠، ١٤٢.

الرسـول: انه لا ياخـذ احـد كـرامـه من ذاته الا ان يعطاها من السمـا من عند الله، لان الله قال لارميـا النبى: قـد جـعلتك نبـيـا وانت فى بطن امك اصطفيتك للنبوة. وقال لحزقيال النبى: قد جعلتك مثل ناطور لهذا الشعب. وقال لموسى: قد جعلتك الاه فرعون. وقال لداوود النبى: انى امسحه ملكا وارفـعـه على جـمـيع ملوك الارض. ونظاير هذه الاقوال كثيره فى الشريعه.

فحكم على صاحبها بالاعدام، وبرئ البطريرك، وأخلى سبيله[١]، وأغلب الظن أن ملك النوبة قد استخدم نفوذه فى قصر الخليفة فى مصر للافراج عن البطريرك [٢].

وحرصا من جانب مملكة النوبة على كسب مودة أمير الجيوش، أبدى ملك النوبة استعداده للتعاون مع مصر فى الجهود الرامية لاعادة الأمن الى البلاد ، فعندما ثار الزعيم العربى كنز الدولة فى أسـوان، وأعلن فى سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م اسـتـقـلال امـارته التـام عن الدولة الفاطمية[٣]، وسيطر على اقليم الصعيد وأفسد فيه ونهبة [٤] ثم هرب الى بلاد النوبة ومعه أهله بعد آبادة معظم قواته على يد امير الجيوش [٥]، بادر بدر الجمالى بارسال الشريف سيف الدولة ومعه الأسقف «مرقورة» المعروف «بالوعواع» يحمل رسالة توصية من البطريرك القبطى خريستو دو لوس الى ملك النوبة، يطلبان منه باسم الخليفة الفاطمى تسليم كنز الدولة محمد

(١) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، ورقة ٨٧.
ـ ساويرس: المصدر السابق.
ـ القوصي: بنو الكنز، ص ٥٥، ٥٦، ٥٨.
(٢) مصطفى سعد: المرجع السابق، ص ٩٩.
(٣) القوصي : بنو الكنز، ص ٥٦.
(٤) ساويرس: المصدر السابق.
(٥) القوصي : المرجع السابق، ص ٥٦.

ولما عاد هذا البطرك الى الجيزه بعد مجيه من اسكندريه طلع الى دير القديس ابو مقار ليكرزوه هناك على جارى العاده لمن تقدمه من البطاركه، جرى الحديث فى معنى الاعتراف[و] القول على القربان قبل تناوله وهو: اومن واعترف ان هذا جسد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى اخذه من والدة الاله مرتمريم العذرى وصار واحد مع لاهوته. فانكر قوم من الرهبان بالدير المذكور قول هذه

الى السلطات المصرية، وكان أن استجاب ملك النوبة ـ لاعتبارات سياسية ودينية ـ لمطلب الحكومة المصرية، وسلمها كنز الدولة [1] فى سنة ٤٧٤هـ تقريبا [2] حيث أعدم بالقاهرة[3] بل أننا نجد اثنين من أخوة كنز الدولة يلتمسا من ملك النوبة سالمون أن يتوسط لهما عند بدر الجمالى فى الصفح عنهما، والعفو عن بنى الكنز، وتقديرا لموقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمالى، قبل أمير الجيوش وساطته وعفا عن بنى الكنز، ورضى بعودة نفوذهم على منطقة امارتهم عند اسوان[4]، وزاد أمير الجيوش فى اكرام الأب الانبا خرستودلوس البطرك ومراعاته[5]، وكان أن تدعمت علاقات مصر والنوبة فى جميع المجالات [6].

وحرص بدر الجمالى على استمرار سياسة حسن الجوار والمسالمة مع مملكة النوبة وتدعيم علاقة مصر بالنوبيين فعندما علم أن والى قوص قبض على ملك النوبة سلمون سنة ٤٧٢هـ

(١) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، ص ٨٧، ٨٨.
(٢) القوصي: المرجع السابق، ص ٥٨.
(٣) ساويرس: المصدر السابق.
(٤) القوصي: بنو الكنز، ص٥٩.
(٥) ساويرس: المصدر السابق.
(٦) ــــــ: نفس المصدر.

اللفظه الذى هي: «وصـــار واحـــد مع لاهوته»، لكونها مضافه. وذكرو انهم لم تجرى عادتهم يقولوها، فاعتذر بانه قالها في يوم تقدمته كما لقنوه الاساقفه الذين قدموه ولا يسوغ له تركها ولا النزول عنها لكونها لفظه صحيحه. وجرى فى ذلك خطوب ومفاوضات استقر[في] اخرها اضافة الكلمات الاخر التى تقرر الحاقها بها وهى: «وصار واحد مع لاهوته بغير امتزاج ولا اختلاط»،

أثناء زيارته لبعض كنائس أسوان هرع بدر الجمالى وأمر بارسال ملك النوبة الى القاهرة معززا مكرما[1] حيث تلقاه كل من فيها من الامراء والمقدمين بالطبول والبنود والبوقات، ولما دخل القاهرة استقبله أمير الجيوش وأنزله فى دار حسنة، وحمل اليه الكسوة والفرش والآنية[2]، وبالغ فى اكرامه واتحفه بالهدايا الجليلة[3]، وكان يزوره فى كل وقت ويتحدث اليه[4]، أقام ملك النوبة مقدار سنة فى ضيافة بدر الجمالة [5] الى أن ادركته الوفاة فى مصر قبل أن يعود الى بلاده[6]، فدفن بالقاهرة فى دير القديس مار جرجس بالخندق[7].

وفى جو العلاقات الودية بين البلدين، كثيرا ما كان يلجأ ملوك النوبة الى السلطات

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٥.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
ـ أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٥.
(٤) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق،، ص ١٢٤.
(٥) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢٤.
ـ بتشر: المرجع السابق، حـ٣، ص ٦٧.
(٦) ابن ميسر : المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٥.
(٧) ساويرس: المصدر السابق.
ـ أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢٤.

فوافقهم على ذلك وقاله واستعملها الى الان.
واتفق اكثر الناس على القول بها الا قوم من اهل الصعيد فانهم استمرو على عادتهم المعروفه فلم يعارضهم فى ذلك ولا جبرهم عليه.

وفى بدايه قسمته توفى انبا يونس اسقف مصر فى ربيع الاخر سنه ثمان وعشرين وخمس مايه الهلالية، وصلى عليه مع جماعه من الكهنه ودفنه فى [بركة] الحبش ولم يقسم احد بعده على مصر

المصرية يلتمسون وساطتها فى ما ينشب من خلاف بينهم وبين بطاركة الكنيسة المرقسية فى المسائل الدينية. مثال ذلك ما حدث عندما أرسل ملك النوبة باسيل سنة ١٠٨٩م وفدا فيه ابنه الى بدر الجمالى، يلتمس فيه و ساطته ومساعدته لتعين كنيسة الاسكندرية هذا الابن رئيسا دينيا للنوبة[١].

ولكن العلاقات مع النوبة ساءت فى عهد الأفضل بن بدر الجمالى، وينفرد المقريزى بالقاء الضوء على مظاهر التوتر والقطيعة بين البلدين فى حوادث سنة ٥٠١هـ دون أن يذكر السبب الذى أدى الى هذه القطيعة فقد حملت الاخبار الى القاهرة سنة ٥٠١هـ أن ملك النوبة قد حشد قواته على حدود مصر الجنوبية، «وتجهز برا وبحرا وعول على مهاجمة الصعيد، فسير الأفضل عسكرا الى قوص وأمر والى قوص بأن يسير بنفسه الى أطراف النوبة، للتصدى للقوات الغازية، غير أن الأخبار وردت القاهرة، بمقتل ملك النوبة بيد أخيه واضطرام الفتنة بين أبناء الاسرة الحاكمة حتى باد أهل بيت المملكة، وأجلس صبى فى الملك بادرت أمه فارسلت تستنجد بعفو الأفضل ، وتسأله الايسير اليهم من يغزوهم، فكتب الأفضل لوالى قوص «بأن يسير عسكرا الى أطراف بلاد النوبة ويبعث اليه رسولا يجدد عليهم القطيعة الجارى بها العادة

(١) ساويرس: المصدر السابق.
- البراوى: المرجع السابق، ص ٢٣٦.
- المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٦.

مده بطركيته، ومنع دفن الموتى فى الكنايس. ولما اتصل به تعدى قوم ومخالفتهم امره في ذلك وانهم دفنو بسوس القمص في كنيسه حاره الروم بالقاهره فانفد اغلق الكنيسه، واقامت مده مغلوقه ثم امر بفتحها بعد زمان بسوال [بتوسل] الاراخنه، وحمل جسد الاب انبا مقاره البطرك الذى كان قبله، وكان مدفون في كنيسه المعلقه بمصر بعد ان جدد عليه الصلاة ولفه في عفاره حرير، وحمله

(يعني البقط) وهى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا رقيقا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة، ويستطرد المقريزى قائلا: «فلما دخلت العساكر دخلوا تحت الطاعة، وكتبوا المواضعات، وسألوا فى الاعفاء عما يخص السنين الماضية ، وحملوا ما يتسر لهم، وعادت العساكر كاسبة[1] وان كان الملاحظ أن البيت الحاكم فى النوبة قد أصيب بالضعف، ولم تعد للنوبة - لفترة ليست بالقصيرة - القدرة على مناوأة الفاطميين أو الخروج على طاعتهم - ومن ثم عادت العلاقات الى الصفاء، ولم نعد نسمع أى احتكاك بين البلدين [2]، حتى نهاية الدولة الفاطمية وربما صارت أكثر عمقا عندما سيطر الأرمن والنصارى على مقاليد الأمور في مصر أثناء وزارة بهرام الارمنى النصرانى. لدرجة أن الوزير بهرام عندما فر أمام رضون بن وخشى سنة ٥٣١هـ الى الصعيد، حاول ومعه قواته ان يسيروا الى أسوان «فيملكونها ويتقوون بالنوبة أهل دينهم»[3]، ولكنهم لم يجدوا أية مساعدة من النوبيين[4] حتى لا تغضب السلطة الحاكمة فى مصر «بل حرص ملوك النوبة على استمرار العلاقات الودية مع الفاطميين، فكان ملك النوبة يرسل البقط والهدايا حتى لا يذهب جيش مصر الى النوبة ليؤذى

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٤١.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٦٠.
(٤) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

الى دير القديس ابو مقار فى ثانى سنه من تقدمته، وجعله فى غشا ادم من فوق وكفنه، وامر ان يوخذ الغشا الادم بعد وصوله الدير ودفنه مع اجساد البطاركه، [و] يجعل فيه [أى الادم] جسد القديس ابو مقار الكبير، ويوخذ ما عليه يكفن به البطرك وفى أيام هذا البطرك بعد قتل احمد ابن الافضل الذى كان يسمى «كتيفات»، جلس الامام الحافظ فى الخلافه، وكان وزيره يانس[الارمنى]. ولما ملك

أهلها، وتوتر العلاقات[1] وحفاظا على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية وتدعيما لمركز البطريرك القبطى والاقباط فى مصر، الى جانب حرص السلطات الفاطمية فى مصر على استخدام نفوذ البطريرك ومكانته لدى ملك النوبة لتنظر بعين العطف والرعاية الى رعاياه من المسلمين [2].

على أنه فى أعقاب زوال الدولة الفاطمية وفى بداية فترة انتقال السلطة الى صلاح الدين، وما صاحب ذلك من عدم الاستقرار فى مصر، واهمال ثغر أسوان، سار ملك النوبة فى ذى الحجة سنة ٥٦٧هـ الى القرى المتاخمة لثغر أسوان، على رأس عشرة آلاف من جنده، ونزل بعض النواحى وأسر من كان فيها من المسلمين [3]. ثم حاصر أسوان ونهب قراها سنة ٥٦٨هـ، ومع أن كنز الدولة فى أسوان تصدى للغزو النوبى الا أنه استجد بصلاح الدين الذى بادر بارسال الامير الشجاع البعلبكى على رأس قوة لمؤازرة كنز الدولة، مما اضطر النوبيين الى العودة الى بلادهم، غير أن الشجاع البعلبكى تسانده قوات كنز الدولة،

---

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقطها فى مصر، ص ٢٣٧.
(٢) مصطفى مسعد: المرجع السابق، ص ٩٩، ١٠٠.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ١٩٨.
ـــــــ: السلوك، حـ١، ق١، ص ٤٨.

قتل صبيان الخاص الذى كانو اجناد الامام الامر [الآمر باحكام الله] لما قامت نفسه منهم لاجل انهم كانو قتلو من تقدمه. ولم يقيم فى الملك سوى سنه واحده وسموه فى ما[ء] عملوه له فى ابريق المرحاض، فلما استعمله تهرى تحته ووقع جوفه فمات.

فقام من اولاده رجل يسمى الامير حسن(*) وادعى الخلافه وبايعه قوم اسماهم صبيان الزرد،

(*) لما مات الوزير يانس الارمنى تولى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه و لم يستوزر أحد فلما كان فى=

طارد النوبيين داخل اراضيهم، واشتبك معهم فى معركة وقتل كثيرا منهم وعاد الى القاهرة[1].

على أن صلاح الدين عاد فأرسل أخاه توران شاه فى جمادى الاولى سنة ٥٦٨هـ لغزو النوبة[2] ليس فقط بهدف القضاء على النصارى الأرمن الفارين الى النوبة [3]، ولكن ليتخذ من النوبة أيضا موئلا له ولأسرته اذا ما قرر نور الدين المسير الى مصر وطرد بنى ايوب[4]، وما لبث توران شاه ان توغل بقواته فى النوبة حتى وصل بلدة أبريم، على مقربة من وادى حلفا، فا ستولى على قلعتها، وأسر عددا كبيرا من النوبيين، وخرب كنيسة العذراء مريم التى هناك، وأمر بحرق الصليب الكبير الذى على قبة الكنيسة ثم حولها الى مسجد للمسلمين، وقبض على أسقف الكنيسة واعتقله فى قلعة مهجورة، وأساء معاملة من بها من رجال الدين كما ذبح سبعمائة خنزير، ونهب ابريم [5] ثم عاد

(١) العينى: المصدر السابق، حـ٢١، ورقة ٥٠٦.
(٢) ابن واصل : المصدر السابق، حـ١، ص ٢٢٩.
(٣) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٦، ص ٥١٠.
(٤) ـــــ: لمصدر نفسه ، حـ٥، ص ٢٧٦.
(٥) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢.

وكـانو من خلط الاجناد ومن جـمـيع الطوايف، فـقـوى بهم وسـاعـدوه فـانعم عليـهم وقـدمـهم واقطعـهم البـلاد وولاهم الولايات وجـعلهم امـرا دولتـه واجناده فقوى امره، وقبض على جمـاعـه كبيره من امرا دوله ابوه وكان يحضرهم بين يديه بالليل ويضـرب رقـابهم ويدفع دورهم وامـوالهم لصـبيـان الزرد، واهلك عـالم وخلق بالسـيف من جـميع الناس الامـرا وغيـرهـم، وكـان فى كل يوم

= سـنـة ٥٢٨هـ = ١١٣٣م عهد إلى ولده سليمان ـ وكان أسن اولاده وأحـبـهم إليـه ـ و أقامه مقام الوزير، فمات بعد شهرين من ولاية العهد، فجعل مكانه حيدره فى ولاية العهد، فـشق ذلك على أخيـه الأمـيـر حسن، وكان كثير المال وله عدة بلاد وحاشـيـة وديوان مـفـرد، فـسـعى إلى نقض ذلك واوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشـيـة والطائفـة الريحـانيـة، وكـانت الريحانيه قوية الشوكة فاشتعلت

- -

الـى أسـوان بعـد أن أقطع ابريم لرجـل كـان فى صـحـبـتـه يعـرف بالأمـيـر ابراهـيـم الكـردى[1].

وظل ابراهيم الكردى هذا ورجاله يواصلون شن الغارات على بلاد النوبة «حتى برحوا بهم واكتـسبوا أموالا عظيـمة وكثرت مواشيـهم [2]، الى أن مـات ابراهيم الكردى غـرقـا سنة ٥٧٠هـ، أثناء احدى غاراته على النوبة، فرجع من بقى من رجاله الى ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها، ومن ثم عاد النوبيون اليهـا وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسـولا الى توران شاه ومعه الهدايا وكتابا فيه طلب الصلح، لكن توران شاه أعاد الرسول ومعه رسالة شديدة اللهجة الى ملك النوبة، كما أوفد معه رسولا من قبله يعرف بمسعود الحلبى، «وأوصـاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها» [3]، وعاد مسعود بعد أن تجول فى دنقلة حيث سرير الملك، والكنائس الكثيرة [4]، وتعرف على أحوال النوبة وبخاصة احوالها الاقتصادية فوجدها «بلاد

(١) أبو شامة: الروضتين، حـ١، ص ٢٠٨.
(٢) العينى: المصدر السابق، حـ١، ورقة ٥٠٦.
(٣) أبو شامة : الروضتين، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ العينى: المصدر السابق، حـ٢١، و رقة ٥٠٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ١٢١.

تصبح جماعه مقتولين بين القصرين اجساد بلا رووس حتى لا يعرفو. ولما تمكن وقوى خلع الحافظ ابوه من الخلافه وقبض عليه وقيده وسجنه.

وجرى فى ايامه بين العبيد السودان وبين الاجناد حرب عظيم فى موضع يسمى كوم الدرب قبلى مصر فى بلاد اطفيح، وقتل من السودان خلق كثير، وقبض الامير حسن على الاب البطرك انبا غبريال وصادره وسجنه فى خزانه البنود الى ان

نيران الحرب بين الفريقين فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس وانهزمت الريحانية، واستظهر الأمير حسن وقام بالأمر وجنّد طائفة من العامة ووزع عليهم الزرد، وسماهم صبيان الزرد وجعلهم خاصته، وشرع فى تتبع الأكابر فقبض على أبن العساف وقتله، وقصد أباه الخليفة الحافظ وأخاه حيدره وحاربهما فقبل الحافظ أن يعينه وليا للعهد ولكن حسن استمر فى استبداده. وقتل قاضى القضاه

ضيقة ليس لهم الا الذرة وعندهم نخل صغار»[١] الا أن ملك النوبة أمر بمسعود الحلبى فكويت على يده هيئة صليب قبل أن يسمح له بمغادرة النوبة[٢].

والى هناك التزمت جميع المصادر الاسلامية والنصرانية الصمت التام فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر والنوبة.

على أننا نرى أن ثمة علاقة ما بين ما حدث من غزو متبادل لاراضى البلدين سنة ٥٦٨هـ، وأسر لمواطنين مسلمين ومسيحيين من كلا الجانبين، وتخريب لكنيسة السيدة العذراء بابريم وتحويلها الى مسجد واعتقال أسقفها على يد توران شاه، وبين تلك السياسة المتشددة التى انتهجها صلاح الدين نحو أهل الذمة وبخاصة النصارى فى بداية مملكته فضلا عما فرضه من قيود صارمة على الكنائس ودور العبادة المسيحية بوجه خاص.

هذا ولم نعد نسمع عن أى احتكاكات بين النوبة ومصر طوال العصر الأيوبى، بما يفسر على أنه عودة الى العلاقات الطبيعية الطيبة بين البلدين، وأنه لم يحدث ما يعكر صفوها.

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ٥١.
(٢) أبو شامة : المصدر السابق، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ العينى: المصدر السابق، حـ٢١، ورقة ٥٠٦.
ـ المقريزى: السلوك، حـ١، ق١ ص ٥١.

قـسطو له الكتـاب من جـواريهم [عـوائدهـم] وساعدوه التجار من اموالهم حتى حمل له الف دينار وخلصه الله من يديه. ولما اطلع الله على ظلمه وشره وقتله للنفوس وغصبه اموال الناس بغير حق اثار عليه جماعه من اجناد دولته فمضو الى الغربيه الى واليـهـا، وكـان رجل نصـراني ارمني يسـمي بهرام وينعت تاج الدولة، وكان مقدم الارمن لكونه ارمني من جنس ملوكها، ثم وصل الى ديار مصـر

أبا الثـريا نجم لأنه كـان من خـواص ابيـه ورد القـضـاء لأبن ميـسـر. وقـتل غيـرهم من اكـابر الدولـة، فـــضـج منـه الجـنـد واجتـمعوا بين القـصـرين وهم عـشرة آلاف وسـيروا إلى الحافظ طالبين منه عزل ابنه حسـن من ولاية العـهـد، فـخـاف حسن سطوتهم وعجز عن مقاومتهم فهرب إلى قصر ابيه الذى نجح في اعتقاله وبعث إلى قواد الجند يخبرهم بذلك فأجمعوا على قتله فرفض الحافظ فأصروا على

نشوب الحروب الصليبية



استمرت الحروب الصليبية في الشرق مائتى سنة تقريبا،من اواخر القرن الحادى عشر الى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر. وقد كانت بصورة رئيسية حروب الفرسان . اسميت بهذا الاسم لان الذين اشتركوا فيها كانوا، حين يتجهزون لمحاربة المسلمين، يخيطون على ألبستهم ـ الصدر أو على الكتف ـ علامة الصليب من قماش احمر، رمزا للدوافع والاهداف والنوايا الدينية، وقوامها تحرير فلسطين، اى الارض المقدسة في تصورات المسيحين، من سلطة الكفار،

ذلك واشتد طلبهم إياه حتى احضروا الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر وبالغوا في التجرى على الخليفة، فلم يجد بدا من اجابتهم إلى قتله، فطلب طبيبه وهما:
أبو منصور اليهودى، وابن قرفة النصراني، وبدأ بأبي منصور وفاوضه في عمل سقية قاتله، فامتنع من ذلك، وحلف بالتوراه أنه لا يعرف عمل شئ من ذلك، فتركه، واحضر ابن قرفه وكلمه في هذا، فقال: «الساعة، ولاينقطع منها جسده، بل تفيض النفس لاغير». فاحضر السقية

مع امير الجيوش بدر الجمالى عند مجيه من عكا في ايام المستنصر بالله، واستمر في خدمه الدوله فقدموه وولوه الولايات وهو باق على دينه، وكان عندهم جليلا موقرا لهم فيه راى جميل ومحبه فولوه الغربيه. فمضو اليه الاجناد واستصرخو به ورغبو فيه وسالوه ان يكون وزير وسلطان عليهم، فدخل معهم الى القاهره فاخذوه وملكوه بغير اختياره، فهرب الامير حسن واختفا وعاد ابوه الى

لان يسوع المسيح، مؤسس الدين المسيحى، كما تقول الاناجيل، قد ولد هناك، وعاش وصلب وسمر على الصليب.

ولكن المعاصرين كانوا يجهلون تماما مفهوم «الحرب الصليبية». ففى القرون الوسطى كان يشار الى الى هذه الحرب بمصطلحات اخرى ـ peregrinatio (الترحل، التطوف، التجوب) expeditio (الحملة) iter in Trram sanctam (الطريق الى الارض المقدسة)، «التجوب ما وراء البحار» «السير على درب الرب». اما مصطلح «الحرب الصليبية» («الحملة الصليبية»)، فقد ظهر على تخوم الازمنة الحديثة. ففى فرنسا، حسبما يبدو، كان المؤرخ فى بلاط لويس الرابع عشر، لويس ممبور، اول من استعمله، مسميا مباشرة بحثه فى هذا الموضوع «تاريخ الحروب الصليبية» (سنة ١٦٧٥)؛ وفى المانيا، كما يفترض، يعود تعبير «الحروب الصليبية» الى المفكر الشهير ليسينج.

ولكن هل من الصحيح الظن ان الحروب الصليبية لم تكن تنطوى دائما وبالنسبة للجميع إلا على الاهداف المعلنة فيها وعنها؟ واذا لم يكن من الصحيح، فما هى اذا الاسباب الحقيقة لذلك النزاع الذى لاسابق له ـ من حيث الابعاد والمدة ـ بين الغرب والشرق فى القرون الوسطى؟ وعم نجمت تطلعات اقطاعيى اوروبا الغربية فى اواخر القرن الحادى عشر

مـا كـان عليـه واسـتـوزر هذا الامـيـر وهو نصـرانيا. وجلس الحافظ يوم عودته الى خلافتـه فى شـهـور من سنه تسع وعـشـرين وخـمس مـايه الهلالية، وكان اخو تاج الدوله بهرام الوزير رجل قديس لا يرغب فى الدنيا فقسموه بطركا للارمن فى بلاده، ثم وصل الى مـصـر وهو بطركـا لهم وكـان مشـهـور بالدين والعـفاف والقدس والكرم والصدقه والرحمه وسـموه انبا اغريغوريس، فلما

من يومه، فبعثها إلى ابنه حسن مع عدة من الصقالبة، ومازالوا يكرهونه على شربها حتى فعل ومات في العشرين من جمادى الأخـرة سنة تسع وعـشـرين وخمسمائة = ٩ إبريل ١١٣٥م، فبعث الحافظ إلى قواد الجند يخبرهم بذلك، فأصروا على أن يشاهده واحد منهم، وندبوا منهم أميراً معروفاً بالجراءة والشر يقال له «المعظم جلال الدين محمد ـ ويعرف بجلب راغب الأمرى ـ» فدخل إلى القصر وصار جنب حسن فكشف عن وجهه، وأخرج من وسطة خنجر صار

ومطامحهم العدوانية؟ واى دور لعبه فى الوضع آنذاك الدين المسيحى الذى كان يسيطر على العقول والارواح فى اوروبا الغربية، ولعبته الكنيسة الكاثوليكية التى كانت مركـزا عـالميا للنظام الاقطاعى؟ كيف تكونت العلاقات المتبادلة بين الغرب الكـاثوليكى من جهة، والشرق الارثوذكسى والمسلم مـن جهة اخرى؟ ان دراسة هـذه المسـائل تتيح لنا ان نفهم المقـدمات التاريخية والمنابع العميقة«للحروب المقدسة» التى خاضها الفرسان الاوروبيون فى الشرق.

ازمان الفتن

فى القرن الحادى عشر، توطد نظام الاقطاعية والقنانة نهائيا فى بلدان اوروبا الغربية. وفى الوقت ذاته اخذت المدن تظهر وتتنامى، ومعها بدأت العلاقات التجارية تتطور وتترسخ تدريجيا، لابين المدينة واقرب القرى الريفية اليها وحسب، بل ايضا على نطاق اوسع، اى بين تجار اوروبا الغربية (ولاسيما منهم الفرنسيون الجنويون والايطاليون) وتجار بلدان البحر المتوسط ومنها بيزنطية ومصر وسوريا ولبنان. ثم ان الاقتصاد الطبيعى، اخذ يتراجع شيئا فشيئا. وطفقت النقود تقتحم حياة المجتمع الاقطاعى ـ حياة الفلاحين الاقنان، وحياة الفرسان العائشين من ثمار عمل هؤلاء الفلاحين ـ بقدر اكبر فاكبر من التسلط والتحكم. ونظرا لذلك، تغير مستوى

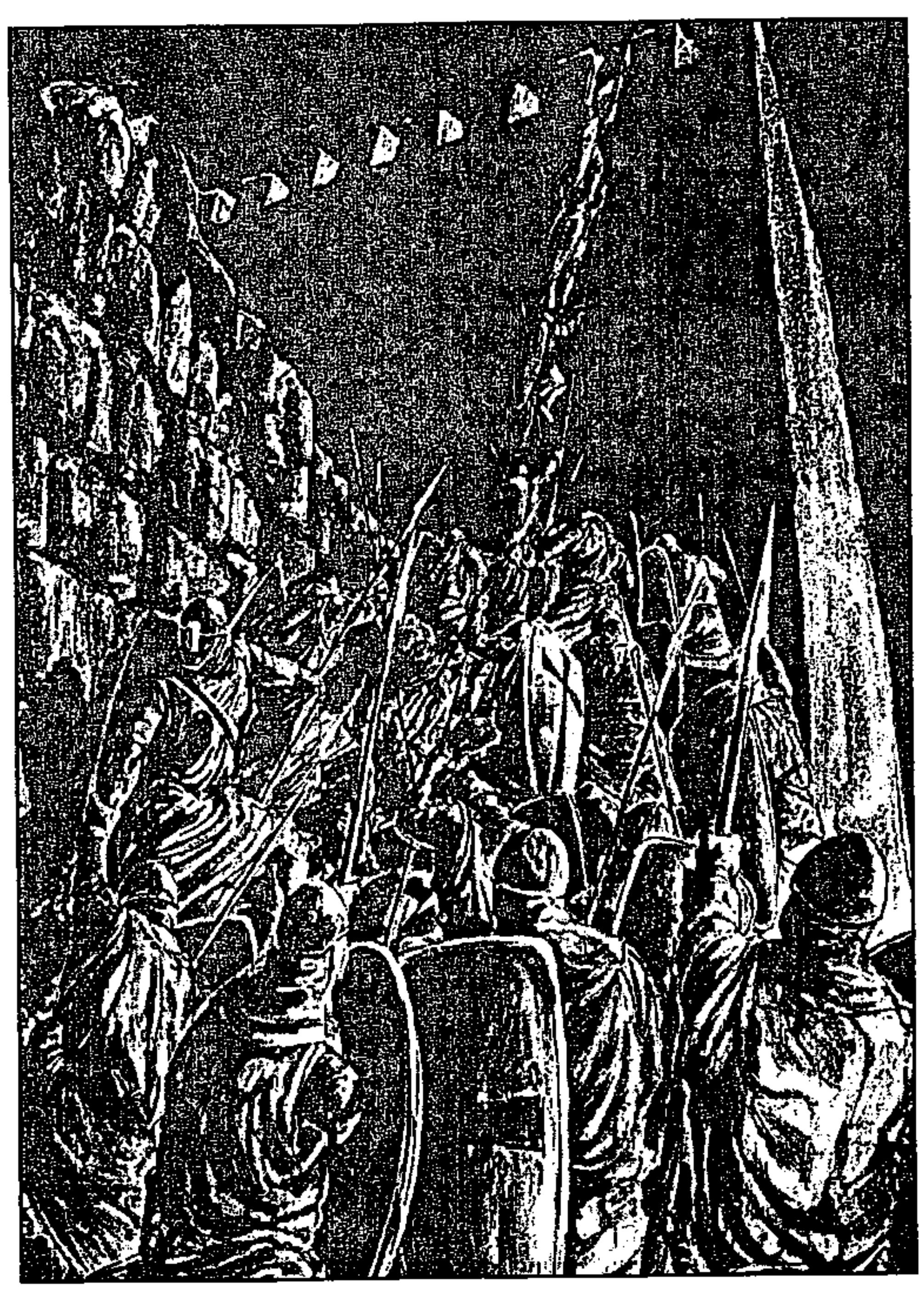
تنيح اقامو اخر عوضا منه بطركا فى ديار مصر واسموه نانياس.

ثم لما تمكن الحافظ من خلافته دس بعض الامرا والاجناد ان يطلبو ولده الامير حسن ويقتلوه، وقرر ذلك مع كبار العسكر ومقدمين الدوله واوعدهم عليه بالانعام والاقطاعات، فاجتمع جميع الامرا والاجناد الى القصر ورمو فيه النشاب واحضرو حطب كثير، وقالو جميعهم صيحه

يغرزه فى عدة مواضع من جسده إلى أن تيقن من موته. وعندما سكنت الأمور قتل الحافظ ابن قرفة الطبيب النصراني وأنعم بجميع ما كان له على أبى منصور اليهودى، وجعله رئيس الأطباء. انظر: اتعاظ الحنفاء، للمقريزى. ص ٣١٨. تحقيق د. جمال الدين الشيال، ١٩٤٨. القاهرة.

حاجات الطبقتين الطبيعية وتغيرت بنيتها. فمن قبل كان الاقطاعيون يكتفون بالجزية العينية والسخرة من الاقنان. ومع ظهور المدن، وتطور التجارة، تعاظمت شهوات الاسياد الاقطاعيين ومطامعهم، فصاروا اشد تطلبا، وطفقوا يزيدون سنة بعد سنة من ابتزاز الاموال، وإدخلوا هنا وهناك فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن المدفوعات العينية، الامر الذى كان مرهقا اقصى بالنسبة للفلاحين. وعند جباية العوائد كان الاقطاعيون يتحكمون ويستبدون بملء هواهم. ومن جراء ذلك، كاد الفلاحون، فوق ما هم عليه من فقر، يتجاوزون باغلبيتهم حد البؤس المدقع، وينزلقون الى مهاوية.

وكانت الحروب الداخلية المتواصلة التى نشبت فى كل مكان فى القرنين العاشر والحادى عشر فى الغرب عاملا لايستهان به من عوامل املاق الريف. وفى ذلك الزمن، كانت بلدان اوروبا تعانى من سوء المواسم الزراعية، ومن شتى ضروب الكوارث الطبيعية. كما كانت المجاعة تسود فى كل المناطق. وبلغت الامور حتى اكل لحم البشر. فان الراهب المؤرخ رادولف جلابر، مثلا، يذكر حالات كانوا يأكلون فيها اجسام الموتى. وامسى الجوع يحل اكثر فاكثر فى الريف فى اواخر القرن الحادى عشر، اى فى ذلك الزمن العصيب الذى سماه المؤرخون «بالسنوات العجاف». وفى هذه السنوات التى سبقت الحروب الصليبية مباشرة. ومن سنة الى سنة،



الصليبيون يهاجمون ليلاً أحد حصون الشام

واحده: نريد الامير حسن تسلموه لنا والا احرقنا
القصر وكلمن فيه. فطلبه ابوه الحافظ من اهل
القصر وقال لهم: ان تاخر ساعه لا يظهر حرقونا
واحرقو جميع قصورنا وهم اجنادنا واعواننا على
من يناوينا وقد قامو علينا فاين لنا غيرهم يعيننا
عليهم. فطلبوه سكان القصر من بعضهم بعضا
الى ان ظفرو به واحضروه بين يدى والده الحافظ
فلما راه بكا وقال له: يا ولدى قد غلبت عنك

اخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر بضن وشح، المعلومات ذاتها تقريبا. وقد نعت الراهب سيجبرت جامبلو سنة ١٠٨٩ بسنة «الطّاعون»؛ فان وباء «الطاعون النارى» الذى ينشب عادة فى سنوات قحط الموسم الزراعى قد حمل الموت المؤلم الى العديدين من سكان اللورين، وحول كثيرين آخرين الى مشوهين ومقعدين. وفى السنة ذاتها ، وقعت هزات ارضية فى المانيا الشمالية وفى برابان؛ وفاضت الانهر فى بعض الانحاء ، الأمر الذى اشارت اليه حوليات دير القديس يعقوب وغيرها من المدونات التاريخية. وتذمر سيجبرت جامبلو من ازدياد جدب التربة فى سنة ١٠٩٠ واعرب عن المخاوف بصدد «الجوع الزاحف تدريجيا». وكتب المؤرخ الالمانى ايكهارد عن مرض رهيب اصاب الناس والمواشى معها فى سنة ١٠٩٢، ونجم الجوع عن نقص المنتجات الغذائية والاعلاف بسبب القحط الناشئ بدوره من برد الربيع. وفى اول ابريل تساقط الثلج. وكان صقيع وجليد سنة ١٠٩٣. كما تميزت انجلترا بالعواصف وسوء الطقس: ففى الربيع كانت الفيضانات، وفى الشتاء جاء الصقيع القارص؛ وقد تجمدت وهلكت جميع المحاصيل. وفى السنة ذاتها كانت الغلة فى المانيا ضئيلة، وجاع الالمان.

وفى معرض الكلام عن الاحداث المشهورة فى سنة ١٠٩٤ ، اشار المؤرخون الى الوفيات

وعن روحي فعرفني الحيله في سلامتك فان دفعتك
لهم عاقبوك واهانوك ثم بعد ما يفعلوه بك يقتلوك
وكـاني ارى من وجـه صـلاح حـالي وحـالك ان
تمص هذا الخاتم فتموت في سبيل الله بلا عقوبه
منهم. ثم رمى له بخـاتم مـسـمـوم يعـدوه الملوك
عندهم لمثل هذا الامـور الغـالبـه علـيـهم فـيـرون
الموت لهم اخـيـر من الحـيـاة في يد اعـدايهم
وتحكمهم فيهم، فاخـذ الخـاتم فـمـصـه فـمـات

بالجملة من جراء الوباء الشامل الذى شمل بلدانا مختلفة. ففي ريجنسبورج، مات في ١٢اسبوعا ٨,٥ آلاف نسمة؛ وفي احدى القرى مات في ٦اسابيع ١٥٠٠شخص، وفي قرية اخرى ٤٠٠شخص . وانتقل الوباء من المانيا الى فرنسا وبورجانيا وايطاليا. ومن جديد تسببت الامطار الغزيرة للموسم الزراعي بضرر فادح. وفي اراضي هولندا استمرت الفيضانات من اكتوبر ١٠٩٤الى ابريل ١٠٩٥. وفي فرنسا الجنوبية ، وجزئيا في المانيا، كان الجوع قدخف، ولكنه انفجر بقوة جديدة في فرنسا الشمالية وفي انجلترا. ويفيد الراهب والمؤرخ النورمندى، اورديريك فيتالي (الذى كتب في القرن الثاني عشر، كتاباً اعتمد فيه عـلى شهادات شهود العيـان، وعلى وثائق كثيـرة. ان «الجفاف الرهيب حرق العشب في المروج واباد السنابل والخضروات وتسبب بالتالي بجوع فظيع». وفي سنة ١٠٩٥ ، «كانت نورمنديا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة مـن الوفيات افرغت الكثير مـن البيوت، ودفع الجـوع الناس إلى أقصى البلايا.

ويتحدث المؤرخون جميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذى ساد في الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والاوبئة الفتاكة وموت المواشي.

ولكن النير الاقطاعي كان يشتد اكثر فاكثر، ويثير استياء الفلاحين المشروع. واحيانا كان



وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطىء المصرية، ونزولها على البر قبالة دمياط القديمة، فيما يعرف باسم الحملة الصليبية الخامسة.
رسم من العصور الوسطى بالمتحف الوطني باريس.

فاخرجه الى وسط القصر ووضع جسده على دكه
خشب وفتح ابواب القصر وامرهم ان يدخلو
وينظروه فدخلو ورواه ميت فكشفو الغطا عن
وجهه ليلا يكون نايم ونغزوه في جميع جسده
بالسكاكين ونصول النشاب فلما تحققو موته تركوه
وخرجو. وكان اشدهم في الكلام والطلب له
واحد يسمى رضوان ابن ولخشي من امرا الدوله
فانعته الحافظ بفحل الامرا وولاه الغربيه.

- -

الزراع الذين عذبهم العوز والجوع يحرقون الضياع ويخربونها وينكلون بالاسياد الاشد مدعاة للكره. ولكن احتجاج الفلاحين الاقنان العفوى كان في معظم الاحوال يتخذ اشكالا سلبية، واحيانا كان الفلاحون ينزحون قرى بكاملها من الاماكن المألوفة إلى حيث تقودهم الصدف. كان فرار الفلاحين ظاهرة جماهيرية في القرن الحادى عشر. وعنها تروى الشهادات ومدونات الاخبار، وسير القديسين، وغير ذلك من الآثار الادبية. كان الفلاحون يفتشون في الفرار عن الخلاص من الابتزاز والبلص بالعنف، ومن غارات العصابات الاقطاعية اللصوصية، ومن الجوع الضارى والاوبئة الفتاكة، وفي الوقت ذاته، كانت تشتد مختلف مظاهر التقشف والزهد الديني، ويشتد الميل الى دخول الاديرة، والنسك، ولاسيما على امتداد «السنوات العجاف»، حين انتشرت في بلدان اوروبا «روح النسك والزهد». الحقيقة ان هذه السمة من سمات النفسية الاجتماعية السائدة في الفئات السفلى من المجتمع مهمة جدا لفهم اسباب الحروب الصليبية؛ فهي تفسر في كثير من النواحي قابلية الجماهير الواسعة لفكرة المأثرة الدينية.

ان تعاظم الميول الدينية في الريف قد نجم عن ظروف حياة الفلاحين الاقنان التي لاتطاق. فان الاقنان كان يسحقهم العوز، وتضغط عليهم التبعية الشخصية حيال السيد، وكانوا مهانين

واستمر تاج الدوله بهرام في الوزاره لاستقبال
جمادى الاول سنه تسع وعشرين وخمس مايه
الهلاليه الى اخر ربيع الاخر سنه احدى وثلثين
وخمس مايه، فكثر كلام المسلمين فيه لاجل
مذهبه وحسدوه لاجل محبه الخلفه له وكونه علا
كلمته عليهم، وكان للنصارى في ايام دولته نفاد
كلمه وعزه انفس وكل تصرف جليل من الدواوين
الكبار الذى للخليفه والوزرا في ايديهم، وكان

واذلاء بسبب جهلهم. وهذا الجهل كان رجال الدين الكاثوليك يحافظون عليه ويطالبون الفلاحين بالصبر الطويل والاستكانة للاسياد، ويشون الخوف من نيران جهنم، وبموجب التعاليم المسيحية كانت عذابات جهنم تنتظر في «العالم الآخر» العصاة والمتمردين على السلطات. كان الفلاح الجاهل والامى الذى اعتاد على العوز والذى لم ير شيئا ابعد من كوخه، يتقبل ويدرك البلايا الاجتماعية والطبيعية من خلال المفاهيم الدينية. فحط الموسم الزراعى، الجوع، «الطاعون النارى» الذى يسوق زوجته واولاده الى القبر- كل هذا كان يتصوره بصورة عقاب من السماء نزل عليه من اعلى بسبب خطايا مجهولة. ومن هنا نشأت عفو الخاطر فكره، والاصح القول، شعور غامض بانه لايمكن التخلص ، اغلب الظن، من العذابات اليومية الدائمة الا بطلب الرحمة من الرب الغاضب. ولكن بأى نحو؟ قبل كل شئ، بعمل مأثرة ما، خارجة عن المألوف ، بطولية - ولكن بالمعنى الدينى على وجه الدقة، - لاجل «التكفير عن الذنوب»، لاجل «غفران الخطايا»، من نوع الاستشهاد باسم الايمان!

وهكذا انعكس التحرق الى الخلاص من اضطهاد الاسياد، والسعى الى خلع سلاسل القنانة والتفلت من براثن العوز في دماغ الفلاح المرهق بمشقات العيش انعكاسا فاسدا، مشوها، وتحولا الى رغبة عارمة في اجتراح مأثرة دينية.

منهم النظار والمشارفين في جميع ارض مصر قبليها وبحريها وثغورها، فلما ضعفت كلمه المسلمين وعزت كلمتهم الجتهم الضروره الى عمل الحيله في قطع هذا المرض من اصله فقصدو الراحه منهم بزوال الوزاره عن تاج الدوله بهرام، فتعصبو منهم جماعه امرا واجناد وخلط الناس ومضو الى الغربيه واستصرخو برضوان ابن ولخشي واليها قالوا له: الخليفة سماك فحل الامرا وما للمسلمين من ينقذهم من اهانة الارمن غيرك، فإن قويو أكثر من

وكانت التطورات الاقتصادية، كما سبق ان قلنا، قد مست الطبقة السائدة ايضا. وكانت امكانيات تلبية الحاجات الجديدة على حساب الاقنان محدودة للغاية، فسلك الاقطاعيون سبيل الاستيلاء على الاراضي. وكانوا، بدافع اية ذريعة، مهما كانت تافهة، يشنون الحروب الدامية المتواصلة فيما بينهم. ولاجل شن الحروب بنجاح كان يتعين على الاسياد ان يمولوا عددا عديدا من الاتباع للفرسان (تابع ، منقطع ـ vassal) الملزمين باداء الخدمة العسكرية له. ولقاء الخدمة كان ينبغي المكافأة بعقار. ولكن الاراضي الحرة في الغرب لم يبق لها وجود. ولهذا دخل كثيرون من الاسياد الميالين الى القتال طريقا مسدودا: فمن اين يأخذون الاموال التي لم يبق بمقدور الاقنان ان يؤمنوها، رغم جميع حيل الاسياد على اختلافها؟

ثم ان الوضع ازداد تعقدا لكون عقارات المالكين الصغار والمتوسطين اخذت تصبح اكثر فاكثر غنيمة للأقطاعيين الذين كانوا يستولون على هذه العقارات. وفي الحاصل تشكلت في الغرب شريحة واسعة من الفرسان الذين لايملكون ارضا. وهذا ما أسهم به كذلك نظام وراثة الاقطاعات ـ نظام البكورة(او حق البكورة) ـ ومفاده انه لايجوز تقسيم ممتلكات السيد بعد وفاته على ابنائه، بل يجب ان تعود بكليتها الى الأبن الاكبر (البكر) بينهم. أما الباقون، فلم يكونوا يرثون سوى الاموال المنقولة ـ الخيل، والدروع والخوذ، والاسلحة، والالبسة. وظهر في

هذا تنصر كثير من المسلمين. واستنهضوه فنهض معهم وحشد العربان ومقطعين البلاد ونادى: يا مجاهدين فى الكفار. وعلق مصاحف القران على اسنه الرماح قدام العسكر وسار وقد اجتمع له من المسلمين جيش عرموم لا يحصى عدده من كثرته واستعلا بكلمه الاسلام، فلما وصل الى مسجد الخضر(*) وأمر العسكر ان يعدى البحر الى الجانب الاخر، تواصلت اخباره لبهرام بذلك فخفق [حقن] دما[ء] الناس وقال لاصحابه: لابد ان

(*) مسجد الخضر: من القرى القديمة تقع على الضفة الغربية لفرع النيل الشرقى (فرع دمياط) وهى تابعة للمنوفية. كانت تسمى قديما «أنتو» و«أنتوهى» و«أنتوهه».

عائلات الاقطاعيين عدد لايتهان به من الابناء الاصغر سنا المحرومين من الارض ـ وكانوا احيانا يلقبونهم القابا سخرية ولكنها تتطابق تماما مع وضعهم الحقيقى، وتصبح فيما بعد القابا عائلية. وغدا اقتناء العقارات حلم اخلاف الاعيان هؤلاء. وكان الفرسان يعتبرون،بالطبع، العنف المسلح اسهل وسيلة لاصلاح امورهم . فعمدوا افرادا وعصابات الى التجوب فى الاراضى المجاورة والبعيدة، واخذوا يهاجمون القرى، وينتزعون من الفلاحين كل ما تقع عليه ايديهم. بل انهم كانوا لا يترددون عن قطع الطرق وسلب المسافرين. وقد امست بعض القصور اوكارا لصوصية حقيقية ومأوى لعصابات الفرسان. واحيانا كانت هذه العصابات تتجاسر على شن الغزوات على العقارات الكبيرة ايضا. وقد كانت الممتلكات الغنية لدى الكنائس والاديرة الطعم الاكثر اغراء.

ان اعمال العنف التى كان يقترفها الفرسان المنحطون كانت تستكمل خراب الفلاحين ولكنها كانت تتسبب بالضرر لعقارات الكنائس والاديرة التى لم تكن تتوفر لها الحماية المسلحة الكافية. وفى قلب الطبقة السائدة نشب الصراع، الامر الذى بث القلق فى اوساط الفئات العليا الحاكمة من المجتمع الاقطاعى فى الغرب ، واجبرها على البحث عن مخرج ما من المصاعب الناشئة. الانتفاضات الفلاحية، المجاعات، الاوبئة، فرار الفلاحين بالجملة، ناهيك عن لصوصية الفرسان «المعدمين» وتعسفهم، والنزاعات بين الاقطاعين والتكتلات الاقطاعية...

امـوت فـيطالبنى الله بدم من قـتل منكم ومنهم، وبملكه هذه الديار قد جعلها الله للمسلمين، فما يجوز ولا يحل لى من الله ان اقـاتل القـوم على مملكتهم وانتزع منهم حقهم، ولو لم يستعين بى الخليفه على ما جرى عليه من ولده ورضى بى بما فعلته من خدمته وطاعته ما ابتدعت شيأ من نفسى، قومو خذو ما قدرتم عليه من اموالكم واولادكم وامضو بنا الى قوص اخذ اخى ـ وكان

وقد نشأ فى اوربا وضع مقلق؛ فان الحياة الاجتماعية اخذت تكتسب طابعا اقل فاقل استقرار. وبعد فترة من الوقت، كتب اورديريك فيتالى عن هذه العقود من السنين: «الفتن والهموم الحربية شغلت بال المعمورة كلها تقريبا. وكان الناس ينزلون بعضهم ببعض بلا شفقة افدح المصائب بعمليات القتل والنهب. وبلغ الشر بجميع صوره اقصى الحدود وتسبب لمن قام به ببلايا لاعد لها».

ان مصالح الاقطاعيين الملحة والحيوية قد طرحت امامهم مهمة عاجلة قوامها البحث عن اسلوب لحل القضايا الناشئة يتيح لهم تلبية حاجاتهم المتعاظمة الى الاراضى والايدى العاملة الاجبارية والنقود والثروات من كل نوع، ويخلص كبار الاسياد من مأتم صغار الفرسان، والفرسان من مصير ونصيب المعدمين و«الذين لاارض عندهم»، ويثبت ويوطد فى الوقت نفسه دعائم النظام القائم. وهذه المهمة لم يدركها بالطبع شخص ما بمثل هذه الصورة المحللة والمفهومة بدقة ووضوح، بل ظهرت كضرورة عملية، ناجمة فى هذا الصدد او ذاك، ولكنها كانت على العموم تصبح اكثر فاكثر الحاحا.

وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية الأبعد نظرا فى المجتمع الاقطاعى، فأخذت على عاتقها ان تنتشل وتخلص الطبقة السائدة من البلايا الزاحفة عليها.

قد ولى اخوه باساك قوص ـ ثم نمضى الى بلادنا
ونترك للقوم مملكتهم فمالنا بقتالهم حاجه. فقالو
له الشجعان من الارمن: كيف نفعل ما قلت
ونحن الف قوس نقدر نفتح الدنيا الى باب روميه
ونحن نلقاهم ونكسرهم بمعونه الله لنا. فلم
يوافقهم وسار من وقته الى قوص فى طلب اخوه
باساك، فلما وصل اليها وجد الخبر بوزاره رضوان
ابن ولخشى قد سبقه وقد قتلو اهل قوص

«كلونى» وعدوان الفرسان

فى تلك الازمات كانت الكنيسة مالكة غنية للحقول والمروج والبساتين، وكانت تستثمر الفلاحين الاقنان الذين يخصونها استثمارا وحشيا. وعدا ذلك ، كان رجال الدين يجبون بانتظام من جميع الزراع ، سواء كانوا من اتباعهم ام من الغرباء، اتاوة عامة اخرى هى ضريبة العشر. وبما ان الكنيسة كانت اكبر مالك عقارى اقطاعى، فقد كانت حصنا روحيا لعموم طبقة الاقطاعيين؛ وفى ذلك كانت تتخلص وظيفتها الاجتماعية وكان رجال الدين يساعدون الاقطاعيين فى السيطرة على الفلاحين والحرفيين، وذلك بالوعظ بالتعاليم المسيحية التى تقول ان النظم الارضية هى من صنع الرب وانه لايصح ولايمكن بالتالى تغييرها، وبمطالبة الكادحين الخضوع التام لاسيادهم، وبوعد الودعاء بالنعيم فى الجنة بعد الموت، وبتهديد المتمردين والعصاة بالعذابات الابدية فى الجحيم. وكانت الكنيسة تدافع دائما وفى كل شئ عن مصالح الاقطاعيين ـ سواء فى ميدان الايديولوجية أو فى ميدان السياسة.

وعندما اخذ الاقنان فى القرنين العاشر والحادى عشر يهبون فى كل مكان ضد الاقطاعيين او يلوذون بالفرار، وعندما اخذت مآثم وموبقات الفرسان «المعدمين» تتسبب بضرر افدح

اخـيـــه ودفنوه فى الزبل فى اصطبل دوابه بدار الولايه، فنزل عليها فغلقو ابواب حصنها فى وجهه فحاصرهم ثم عفا عنها وفرق العسكر عنه وطلع الى الديارات البـيض [الدير الابيض](*) وحــده واقام فى احدها. واما رضوان ابن وخشى فدخل الى القاهرة واخلع الخليفـه عليه للوزاره فى سنه احدى وثلثين وخمس مايه ونهب كنايس القاهره والخندق، واحـرقـو المسلمين دير الارمن المعـروف

(*) الدير الابيض: يقع غــــرب ســوهاج والدير اقدم الأديرة وبه عدة كنايس. اهمها كنيسة الأنبا شنوده. وبهذا الدير عدة أماكن بنيت بحجارة عليها زخارف ونقوش فرعونيه قديمة مما يوحى بان الدير بنى على معبد فرعونى قديم أو بالقرب منه.

فأفدح للرهبان والاكليريكيين، قلقت الكنيسة جديا، وقبل كل شئ على ممتلكاتها بالذات. ولوقايتها من الخطر المزدوج (من جانب الرعاع ومن جانب الفرسان)، عمدت الاديرة حتى في القرن العاشر ـ وكانت اقوى المؤسسات الكنيسة من الناحية الاقتصادية ـ الى اجراء مختلف التحويلات. وكان مغزى هذه التحويلات العام توطيد مواقع الكنيسة، المادية منها والمعنوية، وتحسين تنظيمها، وزيادة قواها،ورفع مكانتها.

ان الحركة الكنسية الاصلاحية فى ذلك الزمن قد دخلت التاريخ تحت اسم الحركة الكلونية، اذا ان دير كلونى فى بوجونيا كان المبادر اليها. وقد حاول رجال كلونى ان ينشئوا بيئة كنسية مركزية ولذا اسهمو فى رفع مكانة السلطة البابوية التى عانت الانحطاط زمنا طويلا. وفي عداد الاصلاحات التى قاموا بها، يبرز منع العمليات الحربية ـ سواء لآجال طويلة («السلام الربانى») أم لآجال قصيرة («الهدنة الربانية»)، مثلا، من مساء السبت حتى صباح الاثنين. ان هذه الاجراء الموجه ضد عمليات النهب والسلب والتى يقوم بها صغار الفرسان وضد النزاعات المسلحة الاقطاعية، لم يكن له مفعول بين. واذ ذاك طفقت الكنيسة تتلمس سبلا اخرى من شأنها، برأى قادة الكنيسة، ان تصون الفئات العليا من الاقطاعيين من غضب «الذين لا ارض عندهم»و«المعدمين»، وان تحسن فى الوقت ذاته الى الاقطاعيين الفقراء، وتروى

بالزهرى وقتلو بطركهم وكلمن وجدوه معه من الرهبان في الدير. ورضوان ابن ولخشى اول وزير امر ان لا يستخدمو النصارى فى الدواوين الكبار ولا نظار ولا مشارفين، وان يشدو زنانيرهم فى اوساطهم، ولا يركبوا الخيل، وضاعف عليهم وعلى اليهود الجزيه وجعلها ثلث طبقات قوم من الاغنيا اربعه دنانير وسدس وقوما دونهم دينارين وقيراطين فاما بقيه عامتهم فدينار واحد وثلث وربع وعليه

عطشهم الى العقارات والثروات. ويقينا ان «البحوث» ذاتها كانت عبارة عن عملية عفوية كان يشترك فيها الاقطاعيون الاعيان والفرسان البسطاء. وفى كل حالة بمفردها كانوا يستهدفون اهدافهم القريبة، المباشرة، دون التفكير اطلاقا فى القضايا الكبيرة الابعاد ذات الطابع الاجتماعى والسياسى. ومع ذلك، كانت اعمالهم التى تمليه اعتبارات آنية كأنما تشق طريقا يؤدى فى المستقبل الى ايجاد حل القضية التى تهم جميع الاقطاعيين. وهنا عاد دور كبير الى البابوية التى كانت تعزز مواقعها تدريجيا.

ان شعار الاحداث التى اطلق نداء البابا «الى الشرق!» اشارتها فيما بعد كانت معقدة ومتعددة الابعاد. وهنا يشغل مكانا خاصا الحج من بلدان الغرب الى فلسطين ومركزها المقدس، القدس. ان هذا الطقس المسيحى القديم الذى ظهر فى القرن الرابع،والذى قلما كان ملحوظا على العموم فى القرون التالية، قد انتشر بقوة هائلة فى القرن الحادى عشر. فقد اخذ يشترك فى الحج الى القدس عدد اكبر فاكبر من الناس. واخذت عمليات الحج تتكاثر وتكتسب طابعا جماهيريا. ويقول رادولف جلابر الذى تلاقى مع كثيرين من الحجاج وسمع عن غيرهم ان «جموعا لا تحصى كانت تمضى من جميع انحاء الدنيا» الى القدس. واضاف هذا المؤرخ قائلا:«من قبل لم يكن من الممكن ان يصدق احد ان هذا المكان سيجتذب مثل هذا التجمع المدهش من الناس».

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م

ورقا [فضة] درهم. واستخدم في ديوان الجوالى رجل من شهود مصر يعرف بالقاضى المهذب ابن ابى البقا، وكان سبب ذلك ما كان من استخدام الخليفه للشيخ صنيعة الخلافه ابو زكرى ابن يحيى ابن بولس الكاتب النصرانى فى ديوان التحقيق واخلع عليه بالدراعه واجلسه داخل قصره فى قاعه باب الذهب فى موضع افرده له منها، واستخدم معه اثنى عشر كاتبا من النصارى الاعيان

ان عمليات الحج، او زيارات الاماكن المقدسة، اى اسفار التقى والورع قد انتشر على درجة من السعة بحيث ان هذا قد انعكس على كل قيم المجتمع الاقطاعى الروحية وفى المقام الاول على التصورات عن القداسة، التى كانت لها اهمية كبيرة فى الايديولوجيا الاقطاعية، واصبحت عمليات الحج بمثابة قسم الزامى من الزهد والنسك، والمشى الى القدس سمة لاغنى عنها فى سيرة اى من ابطال الادب المقدس(سيرة القديسين). كان من يريد ان يخلق ويثبت لنفسه سمعة الطاهر «الفقير بالمسيح» كان يذهب الى القدس للهدف التالى ـ وذلك كان على كل حال الفهم العادى لهذا العمل ـ وهو تكريم المقدسات المسيحية المتواجدة هناك من قديم الزمان، والصلاة فى كنيسة قبر السيد المسيح، والتمتع باجلال ومهابة بمشاهدة جميع الاماكن التى وطأتها ذات يوم قدم المسيح. وقد ترابطت عادة الحج فى مفاهيم العهد بممارسة سلوك النساك المقدسين الى حد انه كان لايندر لسير القديسين ان تنسب السفر الى القدس حتى الى الذين كانوا «يكرمونهم» باذاعة صيتهم كقديسين مع انهم لم يكونوا يوما فى فلسطين . واحيانا كانت سير القديسين تشير بكل بساطة اى نية قديس ما فى الذهاب الى القدس،.وكأن النية كانت بحد ذاتها تصف الاستعداد لمأثرة التقى والورع العليا.

في ايام وزاره بهـرام في اواخـر سنه ثلثين وخـمس
مايه، وكان معه ايضا كاتبان من المسلمين يعرف
احـدهـمـا بالقـاضي الخطيـر ابن البـواب، والاخـر
بالقاضي المتضي ابن الطرابلسي الذى كان رضوان
ابن ولخشي استخدمهما في ديوان المجلس عوضا
منه، ثم حرفه بعد ذلك وابعده الى بلاد اسيوط
لانها بلده وموطن اسلافه. وبقيا الكاتبان المذكوران
مـسـتـمـرين كل واحد منهم انفرد بديوانه وبقى

خلاصة القول ان السفر (الحج) الى الارض المقدسة قد صار اهم علامة على واقع ان الانسان قد. قطع صلته بالعالم الباطل،وغدا رمزاً على العصمة عن الخطيئة و«الطاهرة» اللتين تؤمنان بالتأكد الخلاص السماوى. ان الاسفار الى القطر الذى اجترح فيه فيما مضى يسوع المسيح العجائب، والذى يحفظ الكثير من ذخائر حياته وموته، انما كانت الكنيسة تعتبرها مأثرة كبيرة امام الله. وكان ينسب الى الصلاة فى الارض المقدسة مفعول خاص. وكل هذا كان يضفى على القدس جاذبية كبيرة.

كانت اسفار التقى الورع الى هناك عاملا جوهريا من عوامل نشوب الحروب الصليبية. وبفضل الحج، قام فى اوروبا الغربية جو مفعم بامزجة الزهد فى خيرات الدنيا والندم والتفكير عن الذنوب، جو من الزهد الدينى نبع اصلا، كما رأينا، من اضطراب كل الوضع الاجتماعى فى الغرب، الذى اسفر (فى المقام الاول بين الفئات الدنيا، وجزئيا بين ممثلى الطبقة السائدة) عن ظهور الاحساس بالاضطراب والاعتلال وعن السعى الى التفلت من المصائب الحياتية، ان على الاقل، فى السبل التى يفتحها الدين. وكانت عمليات الحج تسهل كثيرا على البابوية اختيار وتعيين اتجاه عدوان (جهاد) الفرسان، الاتجاه الذى كان من الممكن ان تتلاقى فيه الرغائب المتناقضة لمختلف فئات الاقطاعيين.

يطبق الجـوالى على الذمـه الى ان سطرت هذه السيره.

وحدث فى ايام وزارة رضوان ابن وخشى غلا شـديد الى ان عـدم اكـثـر الناس القـوت، وابا ع رضـوان المذكـور قـمح وغـيـره من الارز الاحـمـر والفـول المسـود والحـبـوب المسـوسـه والقـمح الذى صـار من قـدمـه وطول مكثـه فى الشـون والمخـازن والمطامير والاهرا السلطانيـه من ايام امير الجيوش

كانت عمليات الحج من حيث التركيب الاجتماعى للمشتركين فيها حركة مبرقشة جدا. فقد كتب رادولف جلابر يقول: «فى البدء مضى الى هناك (الى القدس) الشعب البسيط ثم الناس الميسـورون». وينبى مدون الاخبـار عن حـالات الحج الذى قـام به «الملوك العظام» والكونتات والمركيزات والاحبار. كذلك كانت اهداف الحجاج الفعلية مختلفة، رغم ان الحج كان يبدو لهم انفسهم مشروعا دينيا صرفا. وكانت روح الحج عند المتحدرين من الفئات الدنيا فى القرى والمدن تعبيرا، مغلفا بغلاف الدين، عن امانى التحرر. وفى عيون الاسياد، كان، للاعتبارات الدينية كذلك وزن معين، ولكن اكثر ما استحثهم على السفر ما وراء البحار انما هو البواعث الدنيوية، اى الرغبة فى اكتساب سلع البذخ فى الشرق، ورؤية اماكن جديدة، والتخلص، ولو موقتا من رتابة الحياة القروية مع همومها اليومية ـ الصيدوالولائم الصغيرة، والشؤون الاقتصادية. وليس عبثا يؤكد مدون الاخبار فى معرض حديثة عن حاج وجيه من هذا الطراز هو البورجندى ليبولد دى اوتن الذى سافر برفقة عدد كبير من الناس. ان هذا الحاج «قد قام بسفرته الى القدس، بسبب الغرور مثل كثيرين غيره الذين يذهبون لكى يتباهوا بذلك بعد عودتهم».

وبالفعل، كانت اسباب المكانة حافزا مهما بالنسبة لافراد الوسط المذكور. وهذا ما يصح

لضروره عدم القوت شيا كثير بثمن كثير، حتى ان
المصريين اسموه «القمح الدنوكى» [اى المعفن].
وكان سعر الخبز فى تلك الايام رطل مصرى
بدرهم، ثم ادرك الله الخلق وارخص اسعارهم.
وكان قد جرى مثل ذلك فى سنه اربع وتلتين
وخمس مايه هلاليه، لم يبلغ النيل فيها الا دون
اربعه عشر ذراعا، فغليت الاسعار لما شرقت

بالقدر نفسه على ذوى المراتب الكنسية العليا ـ الاساقفة ورؤساء الاديرة ـ ام على الاسياد الدنيويين. فان اودالريك، اسقف اورليان، قد اشترى، اثناء وجوده فى القدس، قنديلا نفيسا من بطريرك القدس مقابل رطل من الذهب. وقد كتب رادولف جلابر يقول أن الاسقف «حمله الى اورليان، لاجل تجميل كنيسته حيث عاد على المرضى بكثير من النفع». وهذا يعنى ان الاسقف استخدام الثروة لاجل رفع مكانة كنيسته. والدوق روبير الاول النورمندى الذى انطلق الى الشرق فى سنة ١٠٣٥ اجبر اتباعه الكبار، قبل بداية الحج، على حلف اليمين والاعتراف بابنه غير الشرعى، غليوم ابن الزنى (Guillaume le Batard) (الفاتح فيما بعد) ووريثا له. وهكذا كان الحج فى هذه الحالة ذريعة مناسبة لاجل بلوغ هدف سياسى معين. واثناء السفر كان الحجاج من الاعيان يوزعون شتى المجوهرات التى اخذوها معهم لهذه الغاية. وكان الاعيان يعتبرون هذه التوزيعات وسيلة موثوقة لتوطيد نفوذهم فى اوساط الشعب البسيط وكانت الكنيسة تشجع هذه التوزيعات بوصفها فعلا يرضى الله.

وعادة كانت جموع الفرسان تنضم الى كبار الاقتطاعيين. ففى سنة ١٠٦٥ انطلق من المانيا الى الحج زهاء سبعة آلاف شخص (او ١٢ الفا). كان «الذين لا ارض عندهم» و«المعدمون»

البلاد فاصاب الناس ضر شديد بسبب تشريق البلاد.

وكان ميخاييل اسقف صهرجت [مركز ميت غمر] قد اهتم بتجديد كنيسه منيه زفتى وكرزها وقدس بها واكملها على اسم القديس مارى جرجس، فوثبو المسلمين بمنيه زفتى عليها وهدوها لبغضهم فى النصارى وجعلوها مسجدا، فوقف ميخاييل الاسقف للوزير رضوان ابن ولخشى

يفتشون فيما وراء البحار عن الفرص لاصلاح اوضاعهم ، وكان بعض منهم يرغبون فى غفران الجرائم التى اقترفوها فى بلدهم . وواقع ان الفرسان نهبوا فى بلدهم الكنائس والاديرة لم يمنعهم من ان يكونوا اناسا متدينين. فقد تقبلوا العقائد المسيحية على طريقتهم، كما فهموها، وكيفوها للمفاهيم المألوفة على الاقطاعيين. وكانوا يتصورون الرب بصورة المولى الاعلى الذى يكافئ اتباعه الارضيين بسخاء على خدمتهم الامينة، ويغفر الخطايا، ويمنح الغبطة الابدية فى الجنة. ان خلاص الروح كان مسألة تهم الفرسان الجهلة بقدر لايقل عما تهم الفلاحين الاقنان. وكان الفرسان على العموم يتقيدون بكل دقة بالطقوس الكنسية، حتى وان «كانت قواعد الاخلاق المسيحية»، كما لاحظ احد المؤرخين بدقة وصواب، «تمارس فيهم تأثيرا ضعيفا جدا».

كل هذا يفسر اشتراك الفرسان فى عمليات الحج. وفى هذه العمليات كانت تلتقى التحبيذ التام من جانب رجال كلونى. وكانت اخوية دير كلونى تشجعها فى الواقع بجميع الوسائل؛ فقد بنى رجالها على جوانب الطرق الفنادق لاجل الحجاج، وكانوا يجمعون بانفسهم الحجاج، فى فصائل،ويساعدون فى تجهيز الناس المقيمين فى جوار اديرة كلونى وفى ارسالهم الى الحج، وبهذه الطريقة كانوا يستبعدون العناصر التى تشكل خطرا على ممتلكات الكنيسة.

واستصرخ به واوضح له انها بيعه قديمه، فوقع له بخطه بعمارتها واعادتها الى ما كانت عليه من حدودها علوا وسفلا، فاعمرها وكملها وكرزها بعد ان قاسا عليها شده عظيمه وغرامه كثيره.

واستمر رضوان في الوزاره الى ان قامو عليه الاجناد وامرا الدوله فخرج من دار الوزاره بالقاهره هاربا وليس يلبس لرجليه سوى خفاً واحدا ولم

وبالنسبة للقتلة، كان الحج غالبا ما يصبح، بفضل خفة يد رجال كلونى، اسلوبا مطبقا عمليا، تقليديا تقريبا، «للتطهير من الخطيئة المميتة».

ان حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريا وعمليا؛ فقد اسهمت فى تعاظم الامزجة والميول الدينية الزهدية، وعرفت الاوروبيين على الطرق الى الشرق، وعلى الوضع فى البلدان الشرقية ، كما وانها هيجت تعطش الاقطاعيين الذى لايرتوى الى امتلاك الاراضى فيما وراء البحار.

وفضلا عن الحج، هيأت الحروب التى نشبت فى القرن الحادى عشر فى الغرب بالذات والتى جرت احيانا هى ايضا تحت رايات دينية التربة من اجل (الجهاد) والتوسع الاقطاعى الواسع الى الشرق. فان الفرسان الفرنسيين، مثلا ، قد انخرطوا فى الصراع من اجل استعادة الاراضى التى سبق ان احتلها العرب فى اسبانيا ـ الريكونكيتو (Reconquisto). ففى سنتى ١٠٦٣ و١٠٦٤ انطلق الى ما وراء جبال البرانس فرسان دوقية كيتين ودوقية تولوز، وهزموا العدو فى المعركة بجوار برباسترو. ثم قام الجديد تلو الجديد من الحملات على اسبانيا. وفى اوائل السبعينيات تحركت الى اسبانيا وحدات من الفرسان برئاسة الكونت ايبولى دى روسى. وعندما انتزع ملك كاستيليا الفونس السادس الجرئ مدينة طليطلة من العرب فى سنة

يمهلوه حتى يلبس الاخر، ونزل عند العرب الدرماويين(*) فمضو به الى الشام. فافسد نفر من الغز وانضاف معهم العرب الذين اجازوه وجا الى القاهره ونزل فوق الجبل عند موضع الرصد على جبل المقطم، وخرج اليه عسكر المصريين فقاتلوه فكسرهم ثم صدقوه القتال فانتصرو عليه وغلبوه، فلما راى انه مغلوب عاد الى بلاد الشام دفعه تانيه، فكتب اليه الامام الحافظ وامنه وطيب قلبه

(*) من القبائل العربية البدوية التى كانت تحيط بالقاهرة من جهة الشرق.

١٠٨٥، لم يشترك فى هذه العملية الفرسان الفرنسيون وحسب، بل اشترك فيها ايضا الفرسان الالمان. وبعد ان سحق العرب المرابطون القوات المسيحية فى المعركة بجوار الزلاقة عام ١٠٨٦، تشكلت فى فرنسا عام ١٠٨٧ وحدات اقطاعية قوية ترأسها هوج (Hugues) الاول،دوق بورجونيا وريمون دى سانجيل، كونت تولوز، القائد المقبل للفصائل من بروفانس فى الحملة الصليبية الاولى. وقد اشترك فى اعمال هذه الوحدات سيد آخر مضى بعد بضع سنوات يحارب من اجل القدس هو غليوم شاربانتيه، فيكونت ميلون.

وليست اسبانيا وحدها هى التى اجتذبت الضوارى الاقطاعيين، الصغار منهم والكبار. فمنذ سنة ١٠١٦، اخذ اخلاف الفيكينج السكاندينافيين الذين سبق ان احتلوا نورمنديا (ولذا يسمونهم كذلك بالنورمنديين)فى اوائل القرن العاشر يندفعون الى الاستيلاء على المناطق الخصبة فى ايطاليا الجنوبية. وبعد صراع ضار ضد العرب وبيزنطية، اسسوا هنا جملة من الامارات الاقطاعية. ومن سنة ١٠٦١ الى سنة ١٠٧٢ استولى النورمنديون على صقلية ايضا. ومن سنة ١٠٦٦، تعرضت انجلترا ايضا لغزو كاسح قامت به فصائلهم القتالية. وفى سنة ١٠٧٣، استقر المغامر النورمندى روسل دى بايل، العامل فى خدمة بيزنطية قبل ذاك، فى وسط آسيا الصغرى بالذات مع مقاتليه. وهنا نشأت امارة نورمندية، كانت النموذج المسبق

وسير اليه من اصحابه من وثق به وعلى يده مال يتسفر به للحضور هو ومن معه من اصحابه واتباعه، فعاد صحبه من ندب لاحضاره من امرا الدوله، فانزله الامام الحافظ عنده فى قصر واخلا له قاعه عظيمه ومحالها ومرافقها وجميع بنيه وبنين عياله وكان فيها مكروما متصرفا فى نفسه منطلقا.

فاما بهرام الارمنى الذى كان وزير قبله لما

- -

للامارة التى اسسها نورمانيو (*) ايطاليا الجنوبية فى سوريا بعد مرور ٢٥ سنة. الا ان امارة روسل دى بايل (Roussel de Bayle) لم تصمد، والحق يقال، سوى سنة واحدة؛ فان هذا الامير قد وقع، من جراء خيانة احد ابناء قبيلته، فى يد القائد العسكرى البيزنطى الكسيوس كومنينوس (الامبراطور فيما بعد)، وزالت الدولة النورمانية فى آسيا الصغرى بعد حياة قصيرة، ولكن محاولة تأسيسها واسعة الدلالة بحد ذاتها.

حفل القرن الحادى عشر كله بمغامرات جماعات الفرسان وحملاتهم الجهادية اللصوصية. فحيثما كانت تنشب الحرب، كان دائما يتواجد عدد كبير من الراغبين فى اشهار السيوف املا فى غنيمة سهلة المنال. وهذه الحملات العدوانية الاغتصابية استرعت هى ايضا انتباه الكنيسة. فقد استحث رجال كلونى الاسياد والفرسان بجميع الوسائل على الاشتراك فى استعادة اسبانيا(الريكونكيستو). وحبذت البابوية بدورها هذه الحملات. فقد رأى البابوات فى الريكونكيستو وسيلة يمكن بها رفع مكانه الكرسى الرسولى، وارسال الفرسان الى طرف اوروبا الغربية ، يدل محبى القتال المزعجين الى ميدان جديد للقتال؛ فبفضل ذلك، كانت عقارات

(*) فيما يلى، اذ نستعرض تاريخ الحملات الصليبية التى اشترك فيها سواء النورمنديون من ايطاليا الجنوبية وصقلية، أم النورمانيون من البلدان السكاندينافية، سنشير الى هؤلاء واولئك بالمفهوم التقليدى «النورمانيين» تحاشيا لضرورة التدقيقات المتكررة فى المصطلحات.

احضره رضوان من الديارات البيض جعله عنده فى داره، فلما جرى على رضوان ما جرى انفد مولانا الحافظ نقله الى قصره وطلبه ان يعود الى وزارته، فلم يفعل وقال: انا راهب ما انا جندى واستقر مقامه فى القصر الى ان توفى مخدوما واخرج تابوته من باب الساباط الى كنيسه الزهرى ودفنوه فيها.

وكان فى اطفيح اسقف للارمن يسبب [يدفع

الاعيان ورجال الدين تتخلص، وان جزئيا، من خطر غزوات الفرسان «المعدمين» اللصوصية!

ولزيادة حدة نيران حمية الفرسان القتالية الدينية الجهادية فى فرنسا، حاولت الكورية الرومانية (البابارية) ان تحيط المشتركين فى الحملات الاسبانية بهالة الاستشهاد من اجل الدين والايمان . ثم ان رجال كلونى الذين افلحوا فى التسرب الى شبه جزيرة أيبيريه وفى بناء اديرة لهم هناك، اعلنوا الحروب ضد المسلمين فى اسبانيا حروبا مقدسة. واعلن البابا الكسندر الثانى، الذى بارك حملة ١٠٦٣ـ١٠٦٤ ، ان الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب الى أسبانيا للقتال والجهاد من اجل قضية الصليب، بل انه ارسل نائبا (قاصدا رسوليا) الى فرسان فرنسا الجنوبية الذين اعتزموا الذهاب الى اسبانيا. ان نشاط الكرسى الرسولى فى الريكونكيستو لم يغب عن نظر المعاصرين: ومن الطريف ان المؤرخ العربى ابن حيان، فى معرض حديثه عن معركة برباسترو، ينعت قائد القوات المسيحية بانه «رئيس فرسان روماه. ولاجل حث الفرنسيين على القيام بمثل هذه الحملة، سمح لهم البابا جريجوريوس السابع فى سنة ١٠٧٣ بامتلاك الاراضى التى ينتزعها المسيحيون من «الكفاره، ولكن، والحق يقال، بشرط واحد هو اعتراف الفرسان الفرنسيين بالسلطة العليا لكاهن روما الاول على الاراضى المنتزعة ، ذلك ان اسبانيا، كما قال جريجوريوس السابع، كانت تخضع، بزعمه، منذ قديم الازمنة للقديس بطرس.

الرشاوى] حتى صار بطركا وعند قسمته طلب
حضور انبا غبريال ابن تريك اليه لكي يضع يده
عليه، فلم يحضر اليه وقت قسمته الى ان تقرب
في كنيسته وافطر ليلا [لئلا] يلزموه ان يضع يده
عليه، وكان انبا غبريال قد منع اخذ شرطونيه على
الكهنوت ولا ياخذ شي على قسمه اسقف ولا
غيره ولا يستحسن ذلك لغيره، وسلك فيه ما قاله
الانجيل المقدس: مجانا اخذتم مجانا اعطو. لان

وهذا البابا غفر ايضا مقدما خطايا الذين يقتلون في المعارك من اجل الدين والايمان.

كانت حروب الفرسان الفرنسيين في اسبانيا بمثابة حروب صليبية قبل الحروب الصليبية - من حيث الشعارات ، ومن حيث الالبسة والرايات، ومن حيث المضمون.

كذلك دعمت البابوية، وان لم يكن في الحال،مشاريع النورمنديين الاغتصابية العدوانية في ايطاليا الجنوبية وصقيلة، واستغلتها في اهدافها السياسية. وان قائد الفاتحين النورمنديين روبر جيسكار (Robert Guiscard) الذى صار دوق أبوليا وكالابريا، قد اعترف في سنة ١٠٥٩ ببابا روما سيدا له، وتعهد بان يدفع له ضريبة سنوية ويقدم العون العسكرى ويدافع عن حرمة كرسيه، الكرسي الرسولي، ضد تطاولات الاباطرة الالمان. وقد صادقت البابوية على هجوم الدوق في سنة ١٠٦١ على صقلية التي انتزعها النورمنديين التابعين لغليوم الفاتح الذين استولوا في سنة ١٠٦٦ على انجلترا . وفي كل هذا، يتبدى بكل جلاء خط سياسي واحد قوامه تنظيم عدوان الفرسان في اطراف اوروبا الغربية ، وبخاصة في حوض البحر المتوسط وتشجيعه الى اقصى حد. وفضلا عن ذلك كانت روما لاتبارك فتوحات الفرسان وحسب، بل ان اسطول مدينة بيزا التجارية في ايطاليا الشمالية الذى شن في سنة ١٠٦٣ غارة على باليرمو قد اشترك كذلك في حروب النورمنديين من اجل صقلية. وفيما بعد، انخرط التجار في المدن الساحلية

نعمه الله وعطيته ورياسة الكهنوت لا تباع بالمال.
وكان متشددا في هذا الحال وكتب مسطورا بذلك ومنع من ياخذه ومن يدفعه. وذكر عنه من كان خبيراً به انه قد اقسم ثلثه وخمسين اسقفا، وكان قد حضر اليه رجل قسيس يسمى بقيره وطلب منه ان يقسمه اسقف على بلاد اخميم وبذل له مال فلم يفعل، فلما رده مضى يسبب [اى يدفع الرشاوى] الى ان استعان بولد الخليفه ابن الامام

الاخرى فى ايطاليا فى النضال من اجل اقصاء المسلمين من حوض البحر المتوسط. وقد ساندت البابوية مبادرات سكان المدن هذه كل المساندة. وفي عام ١٠٨٧، عندما اقتحم الاسطول المتحد لمدن بيزا وأمالفي وجنوه ميناء المهدية في افريقيا الشمالية واحتل المقاتلون الكاثوليكيون المهدية هذه، كرس البابا فكتور الثالث نهبها. ودليلا على عطفه الشديد، ارسل الى القراصنة راية القديس بطرس وغفر لهم خطاياهم. وقد شكر اهالى بيزا الكرسى الوسولى، بالتبرع بالاموال التى استحصلوها من نهب المهدية لاجل بناء كنيسة أخرى في مدينتهم سموها تكريما للنصر المحرز بكنيسة القديس سيكست (وقد تطابق يوم الاستيلاء على المهدية مع يوم عيد هذا القديس). وقد كان المشروع البحرى فى افريقيا الشمالية وثيق الارتباط بحرب الفرسان الدائرة رحاها آنذاك ضد المرابطين في اسبانيا (وفيما بعد ايضا، فى سنة ١٠٩٢، ساعد اهالى بيزا ملك كاستيليا الفونس السادس فى محاربة المغاربة فى فالنسيا).

وهكذا كانت الاصلاحات الكنيسة فى القرن الحادى عشر احدى المقدمات المباشرة للحروب الصليبية في الشرق؛ فقد ضمنت للباباوية مكانة ارسخة لاجدال فيها واجبرت العالم الاقطاعي على الاصغاء بانتباه الى صوت الحبر الاول فى روما.

ولكنه صار من الواضح نحو اواخر القرن الحادى عشر ان الطرائق التى لجأت اليها الكنيسة ولجأ اليها الاقطاعيون الدنيويون لاجل تأمين مصالحهم كانت قليلة الفعالية. فقد منى

الحافظ وكان يسمى ولى العهد، وحمل له مال جزيل له مقدار وساله ان يشفع فيه عند البطرك حتى يقسمه اسقفا، فانفد اليه ولى العهد وتقل عليه بسببه فلم يقبل واعتذر له وكتب رقعه للخليفه اعلمه فيها قصه حال الاسقف وانه طلب الرياسه والكهنوت بالرشوه، وان ذلك لا يجوز فى مذهب النصرانيه. فلما عرضت رقعته على الحافظ شكره وعظم منزلته ووقع له بان لا يعترض فى

الفرنسيون فى اسبانيا بالاخفاقات، لان الاقطاعيين المسيحين الاسبان كانوا لايرغبون فى ان يسلموا حلفاءهم حتى أنهم اتفقوا احيانا مع الامراء العرب (*) ـ قد حكمت بالفشل سواء على خطط الاعيان الفرنسين ام على خطط البابوية المتعلقة باسبانيا، ناهيك بان العرب قاوموا هناك بصلابة وثبات. ولكن فى ذلك الزمن بالذات، بدأ يرتسم هدف جديد سيوجه اليه رئيس الكنيسة عما قريب افكار ومقاصد الاقطاعيين الميالين الى القتال.

فى الثلث الاخير من القرن الحادى عشر، اخذت خيوط السياسة الاوروبية تمتد اكثر فاكثر الى بابوية روما . وقد غدت هذه البابوية المركز الذى يستطيع وحده دون غيره ان يوحد قوى الغرب الاقطاعى المتفرقة، ذلك ان السلطة الملكية كانت لاتزال هناك ضعيفة جدا. ومنذ عهد حكم البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ـ١٠٨٥)، سعت البابوية لتوطيد الوضع النهائى بصورة رئيسية بفضل نجاحات حركة كلونى، ولذا طفقت تفصح بالحاف عن ادعاءاتها بالزعامة، لافى الكنيسة المسيحية وحسب. بل ايضا على الحكام الزمنيين. فان البابا السابع قد اعلن على المكشوف فى رسالته الشهيرة «امر البابا» انه يحق للكرسى الرسولى ان يتصرف

(*) يستفاد من اقوال المؤرخ الالمانى اردمان ان الفونس السادس لم يكن مناضلا طليعيا من اجل الدين المسيحى؛ فحين دعا الفرسان الفرنسيين الى مساعدته (بعد هزيمته فى جوار الزلاقة) بلغ به الامر ان هدد باعتناق الاسلام اذا ما رفضوا مساعدته.

مـذهبـه ولا يلزمـه احـد بما لا يجـوز في شـرعـه. ثم
بلغـه بعـد ذلك ان له مـال جـزيل وخـاف ان يمـنع
القس بقيره من الاسقفيه فيخرج من دينه ويتلف
المال فقسمه اسقفا على كرسي اخر غير الذى
طلبـه وقـصـد بذلك ربح نفسـه ولا يتلف مـاله،
فحمل بقيره اليه المال فلم يراه بعينه بل امر ان
يسلم لوكيل رباع الكنايس، وتقدم له ان يصرفه
في عماره جوسق دير الشمع وغيره.

بالتيجان ويعين ويعزل الاساقفة والدوقات والملوك والاباطرة؛ كل سلطة، ايا كانت، لن تكون فعلية وحقيقة الا بقدر ما تكز وتدعم من رئيس الكنيسة ، ممثل الإله الاعلى في الارض. وقد رسم جريجوريوس السابع خطة لاخضاع جميع الدول المسيحية للكورية الرومانية التيوقراطي (من الكلمة اليونانية التي تعني «حكم الرب») – وهو برنامج يرمي الى انشاء ملكية اوروبية عامة، او، حسب مصطلحات ذلك الزمن، كلية ، اى عالمية، على رأسها البابوية، واجبار جميع الملوك المسيحيين على حلف اليمن الأقطاعي للكرسي الرسولي. ولكن هذه السياسة قوبلت بالصد من جانب كثيرين من الملوك،وبخاصة من جانب الاباطرة الالمان، الذين استمر النضال ضدهم، بنجاح متقطع في صالح روما، في عهد اخلاف جريجوريوس السابع.

ان سعي باباوات روما الى انشاء تيوقراطية كلية في اوروبا دليل ساطع على الاهمية التي اكتسبتها هناك في القرن الحادى عشر الكنيسة (الكاثوليكية الرومانية الغربية) ومركزها القيادى ـ البابوية. وبما ان الكنيسة كانت اغنى المؤسسات الاقطاعية ، فقد كانت لها مصلحة حيوية في توطيد النظام الاقطاعي. ولهذا اعتزمت البابوية ان ترص تحت سلطتها العليا قوى الاقطاعيين المتفرقة لكى تعزز بالتالي مواقع الملكية العقارية الاقطاعية حيال الفتن التي تتهددها.

وكانت فكرة القضاء على استقلالية الكنيسة الشرقية الارثوذكسية، التي انفصلت نهائيا

وكان رجلا من اولاد الكتاب المميزين ممن له تقدمه في قومه ورياسته يسمى ابو اليمن ابن العميد فترك الخدم [في الدواوين] والتصرف ولزم خدمه كنيسه القديس ابو جرج بدير الطين، فنقلو الناس السو للبطرك انبا غبريال عنه كلاما زسجا [سجس] قصدو به فساد حاله عنده، وان يخرجوه من البيعه المذكوره، او يكونو ابصرو عليه شي منكر فانكروه. فلما اعلمو البطرك بذلك لم يمكنه

عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سنة ١٠٥٤ جزاء لايتجزأ من برنامج البابابوية التيوقراطي. ولمناسبة هذه المحاولات على وجه الضبط، ظهرت الخطوط الاولى من مشروع حملة الجهاد ضد الشرق الاسلامي.

بيزنطية والغرب والسلجوقيون

كانت بيزنطة، وريثة الامبراطورية الرومانية، قد فقدت من زمان بعيد الكثير من ممتلكاتها السابقة في الشرق. وغدت مواقع القسطنطينية في آسيا الصغرى اقل فاقل صلابة. وكان زحف البدو الاتراك ـ السلجوقيين (او السلاجقة نسبة الى القائد سلجوق شبه الاسطورى الذى وحد في النصف الثانى من القرن العاشر قبائل اوغوز في آسيا الوسطى) الاشد خطرا على الدولة البيزنطية. وفي عهد السلطان ألب ارسلان (١٠٦٣ـ١٠٧٢) اقتحم السلجوقيون مقاطعة ارمينيا البيزنطية واشتبكوا في حروب ضد جورجيا، وتغلغلوا اوسع فأوسع في اقليمى بيزنطية في آسيا الصغرى ـ قبدوقية وفريجيا.

وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨ـ١٠٧١) ان يضع حدا لتقدم السلجوقيين. فشنت القوات المسلحة البيزنطية ضدهم حملتين ناجحتين. وامكن عقد هدنة مع ألب ارسلان ولكن رومانوس الرابع دفع فجأة فيما بعد ضد العدو جيشا آخر، من ٣٠٠ الف رجل، اى اقوى جيش بين الجيوش التى جهزها قبل ذاك. كانت قواته المختلفة

الصبر عن النظر فيما قالوه والبحث عنه، فصعب ذلك على ابو اليمن ابن العميد وخرج من مذهبه، فعظم امره على الاب البطرك وندم عليه غاية الندم ولم يرجع بعده يتشدد على احد خوفا ان يفعل مثله.

واجـــــرى الله على ايدى هذا البطرك ايات وعجايب واعمال حسنه، وانا اذكر بعضها وهو ما حدث في بلاد الحبشه، وذلك ان ملك الحبشه

القوميات تتألف اساسا من المرتزقة وكانت داخليا هشة، ضعيفة، غير موثوقة. وعشية الاشتباك العام، انتقلت الفصائل التركية من قوات رومانوس الى جانب اخوانها الاتراك. كذلك كانت الخيانة تعشعش بين القادة العسكريين البيزنطيين انفسهم.

فى ١٩ آب (اغسطس) ١٠٧١ دارت رحى معركة هائلة بمقاييس ذلك الزمن شمالى بحيرة فان (ارمينيا)، غير بعيد عن المدينة ـ القلعة ما نزكرت (باليونانية ما نتسيكرت). وقد منيت عساكر الامبراطورية البيزنطية بهزيمة ما حقة انزلها بهم السلجوقيون الذين لجأوا الى الحيلة التكتيكية التى سبق لهم ان خبروها مرارا: فقد تراجعوا فى الظاهر لكى يغروا البيزنطين ثم ارتدوا فجأة عليهم وشنوا حملة عاصفة بالخيل على العدو. وقد ابيد جيش رومانوس الرابع كليا تقريبا، ووقع الامبراطور نفسه في الاسر ـ الامر الذى لم يحدث يوما قبل ذاك فى تاريخ بيزنطية، وطرح ارضا عند قدمي السلطان الظافر. وسرعان ما اخلى السلطان سبيل الاسير النبيل، ولكن نتيجة الكارثة فى معركة مانزكرت كانت وبالا على الامبراطورية، اذ فقدت ممتلكاتها الغنية فى آسيا الصغرى. وبين سنة ١٠٧٨ وسنة ١٠٨١، رسخ السلجوقيون اقدامهم فى مناطقها الغربية ايضا؛ وبالكاد استطاعت بيزنطية ان تحتفظ لنفسها بعدد قليل من المدن على ساحل بروبونتيدا(بحر مرمره). ومن نوافذ القصر الامبراطورى في القسطنطينية، اخذت تبدو الأن الجبال في الشرق التى لم تبق ملكا للفاسيلفس الجبار فى الماضى (الامبراطور البيزنطى).

طلب ابا ميخاييل، واسمه قبل قسمته مطران على الحبشه حبيب، وطلب منه ان يكرز له اساقفه زايد عن العده الجارى بها العاده المعروفه المقرره من قديم الزمان، فامتنع من ذلك وقال: ما اقدر اعمل شى الا براى البطرك. فانفذ الملك الى البطرك كتابا يساله في ذلك وكتابا اخر صحبه رسوله الى ملك مصر، فخرج امر الخليفه الى البطرك باجابته الى ما طلبه، فاعتذر عن ذلك وقال للخليفه: يا مولاى

كانت بيزنطية تعانى من الفوضى فى اكمل مظاهرها. فقد كانت مختلف تكتلات الاعيان الاقطاعيين، فى العاصمة والارياف على السواء، تتخاصم وتتهاتر بلا نهاية بعضها مع بعض، وتحاول بشتى المكائد والدسائس ان تزيد امتيازاتها وسلطتها. وكان من المستحيل تقريبا الاعتماد على الجيش المؤلف على الاغلب من المرتزقة. وكانت الخزينة تشكو على الدوام نقصا فى الاموال؛ فمنذ ان تحول الفلاحون الاحرار الى اقنان نضب المصدر الرئيسى للضرائب. ومع مرور الزمن، صارت بيزنطية تتعرض بمزيد من الشدة للتقسيم الى ممتلكات اقطاعية شبه مستقلة فى الميدان السياسى. ومذ ذاك ، بدأت قوة الامبراطورية تتوقف على الفصائل العسكرية التابعة لملاكى الاراضى الجبابرة فى الارياف! بل ان الهزيمة فى معركة مانزكرت كانت قبل كل شئ ثمرة الاقتتال بين الارستقراطيين، فان بعضا منهم كانوا على استعداد (وهذا ما حدث بالضبط فى سنة ١٠١٧ !) للخيانة السافرة شرط أن يحتفظوا ويزيدوا من امتيازاتهم، وعندما أفرج السلطان السلجوقى عن رومانوس ، انفجرت فى الامبراطورية حرب حقيقة بين الزمر الاقطاعية. واضطر الامبرطور السابق الى الاستسلام للاقطاعيين ووضع نفسه تحت رحمتهم، ولكنهم اسروه وسملوا عينيه ونفوه.

ولم يلبث البابا جريجوريوس السابع ان استغل مصاعب بيزنطة التى اضعفتها وانهكتها الحروب ضد السلجوقيين والاضطربات الداخلية ، وذلك لكى يجعل الكنيسة الارثوكسية

اذا صارت الاساقفه عند الحيشه اكثر من هذه العده
تجاسرو على قسمه مطران وطغو نفوسهم من طاعه
بطاركه مصر، واستغنو عنهم وصارو يقيمو
لنفوسهم، وما يبقا لهم ببطاركه مصر حاجه، ولا
يودو لهم طاعه، ويخرجهم ذلك الى العداوه
والمحاربه لمن هو متاخم بلادهم من المسلمين، فيخل
منهم النظام وتكثر فيهم الحروب، كما كانو
يفعلون فى قديم الزمان فى ايام فرعون وموسى

الشرقية تابعة للكرسي الرسولي، الامر الذى كان من شأنه ان يوسع الموارد المادية لدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ويسهل على البابوية تحقيق برنامجها التيوقراطي الكلي في الغرب.

في البدء لجأ جريجوريوس السابع الى التدابير الديبلوماسية: ففي صيف ١٠٧٣ بدأ يتفاوض مع الامبرطور البيزنطي ميخائيل السابع دوكا. وقد قال البابا في رسالة الى الامبراطور انه ينبغي تجديد الوفاق القديم بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية. ولكن البابا دفع فكرة التوصل الى الاهداف المنشودة بقوة السلاح وذلك بتنظيم حملة حربية يشنها الفرسان على الشرق بحجة حماية الدين المسيحي وتقديم العون للارثوذكس ضد المسلمين السلجوقيين. وبما ان العساكر الغربية ستكون كثيرة، فمن المؤكد ان الامبراطور البيزنطي سيكون اكثر تساهلا وتنازلا، وبعد ذلك، من ذا الذى يعلم كيف ستتطور هذه المبادرة؛ وخاصة إذا تكللت بالنجاح. والقدس ليست بعيدة جدا عن القسطنطينية!

في سنة ١٠٧٤ وجه البابا رسالة إلى الكونت غليوم الأول البورجوني والى الامبراطور الألماني هنريخ الرابع الذى أمسى فيما بعد عدوه اللدود، والى ماتيلدا مارك كونتيسة توسكانا، وأخيراه إلى جميع الأوفياء للقديس بطرس» ، دعاهم فيها إلى تخليص الكنيسة الشرقية من البلية والى الاشتراك لهذا الغرض في الحرب في الشرق. ولم يضن جريجوريوس السابع بالوعود بالمكافآت السماوية على الذين يوافقون على محاربة «الكفار». وقد نصح البابا

ومن تقدمه من ملوك الفراعنه، فانهم كانو يغزوهم
فى البر والبحر، والاخبار بذلك مدونه فى سير
الاوايل. ثم كتب البطرك كتابا يردعه ويامره ان
يرجع عما طلبه وسير الكتاب اليه. ولما عادو رسل
البطرك من الحبشه اخبرو ان نار نزلت من السماء
على قصر الملك فاحرقت بعضه ثم اصاب بلاد
الحبشه غلا عظيم فى تلك السنه، ووبا عظيم، ولم
يمطر فيها مطرا، وقاسو لاجل ذلك صعوبه

الكاثوليك فى رسائله: «قاتلوا بجرأة، لكى تنالوا فى السماء مجداً يتجاوز جميع توقعاتنا. تسنح لكم الفرصة لاكتساب الغبطة الابدية بعمل طفيف».

وعلق جريجوريوس السابع أهمية جدّية على المشروع الذى حاكه. فقد ردد غير مرة فى رسائله أنه ينوى أن يسير شخصيا فى طليعة قوات المسيحيين الغربيين ويمضى إلى ما وراء البحار. وكان لابدّ لهذا المشروع ان يستتبع صدى ملائما عند «المعدمين» و«الذين لا أرض عندهم» الذين سبق لهم أن حاربوا المسلمين تحت الراية الدينية وبموافقة البابا وية. كتب البابا إلى ماتيلدا دى توسكانا: «اؤمن فى أن كثيرين من الفرسان سيساعدوننا فى هذه القضية».

وبديهى أن شعار حماية الدين المسيحى لم يكن غير قناع؛ فإن نوايا روما لم تكن تمت باى صلة إلى انقاذ المسيحية. الأمر الذى لم يطلب أحد من البابا فعله. ثم أن المصالح الدينية التى أبرزها جريجوريوس السابع بمثل هذا الاصرار فى المرتبة الأولى فى رسائله لم تلعب يوما على الاطلاق دورا اوليا بنظر هذا السياسى الكنسى. وكان البابا لا يرى من الضرورى الاصرار على أية خلافات مبدئية بين المسيحين والإسلام إذا كانت مصالح روما السياسية تتطلب ذلك؛ ففى سنة ١٠٧٦ بلغ الأمر بالبابا جريجوريوس ان صرح فى رسالة إلى أمير مدينة بجاية الجزائرية الناصر: «اننا نحن وانتم نؤمن فى اله واحد وأن يكن بأساليب مختلفة».

عظيمه. فقبل الملك كتاب البطرك ورجع الى الله وكتب الى خليفه مصر يساله ان يسال البطرك يحلله ويكتب له كتاب بركه عليه وعلى بلاده. فكتب له بذلك وسيره اليه، فرفع الله فى ساعه وصول الكتاب اليهم بخطه عنهم وادركتهم رحمته، فمطرت المطر وزرعت بلادهم ورخصت اسعارهم وزال وارتفع عنهم الغلا والوبا برحمه الله ورضا هذا الاب عنهم.

أما الجوهر الحقيقي لمشروع الحرب ضد السلجوقيين، فقد كان مغايرا، وقوامه إعادة الكنيسة البيزنطية الارثوذكسية إلى حضن الكنيسة الرومانية، وتوسيع منطقة نفوذ الكاثوليكية، بادراج بيزنطية بالعنف فى فلك التأثير البابوى، وامتلاك ثروات الكنيسة الارثوذكسية.

ان نداءات البابا التقية الورعة قد سبقت من حيث الجوهر شعارات الحرب الصليبية المقبلة. أغلب الظن أن هذه النداءات قد لقيت التفهم من جانب الفرسان. على كل حال أكد البابا نفسه فى أواخر ١٠٧٤ للأمبراطور الألمانى هنريخ الرابع انه تسنى له هو البابا أن يجمع جيشا من ٥٠ألف إيطالي وفرنسي لأجل المشروع فيما وراء البحار ضد الوثنيين. وقد لقى البابا الدعم، مثلا، من بعض الاقطاعيين فى فرنسا الجنوبية مثل غليوم البورجونى وريمون دى تولوز.

ولكن جريجوريوس السابع لم يستطع أن يحقق مقاصده. فان الصراع الذى بدأ ضد الامبراطورية الالمانية قد صرف انتباهه عن بيزنطية لزمن طويل. ومع ذلك عاد فيما بعد غير مرة إلى فكرة إعادة الكنيسة الارثوذكسية إلى «حضن الأم». وعندما هاجم روبر جيسكار ممتلكات بيزنطية فى ايطاليا سنة ١٠٨٠ باركه البابا جريجوريوس السابع على هذه الحرب. وطلب البابا أن يدعو رجال الدين فى ايطاليا الجنوبية الفرسان المحليين إلى الاشترك فى حملة الزعيم النورمندى واعدا لقاء ذلك بغفران الخطايا. وبعد أن اقتحم النورمنديون شبه جزيرة

وكان البطرك المذكور قد مرض مرضا شديد اشرف منه على التلف، فراى فى منامه كان جماعه كهنه ورهبان ومعهم اناجيل وصلبان ومجامر وقالو له: جينا نفتقدك اليوم وانت تبرا من مرضك هذا، ولكن نحن نعود اليك فى العام القابل فى مثل هذا الزمان وناخذك معنا. فعوفى من مرضه فى تلك الدفعه ومن بعد سنه مرض وتنيح فى التاريخ الذى قدمنا ذكره فى اول هذه السيره.

البلقان فى سنة ١٠٨١ واستولوا على قلعة دراتش البحرية فى ابيروس وتغلغلوا فى أعماق البلاد، هنأ جريجوريوس السابع روبر جيسكار بالنصر دون ان ينسى تذكيره بأنه مدين بنصره إلى حماية القديس بطرس. صحيح أن جريجوريوس السابع كان فى السنوات التالية مستغرقا كليا فى الصراع ضد هنريخ الرابع، لكن ثمة أمر لا ريب فيه هو أن الاستعدادات التى قام بها البابا فى السبعينيات لشن حرب فرسانية كبيرة «لحماية بيزنطية» قد كانت نقطة انطلاق مهمة للخطة التى نضجت فيما بعد لأجل تنظيم حملة فتوحات واغتصابات فى الشرق.

ان القضية التى دبرها جريجوريوس السابع قد طورها فيما بعد أقرب خلفائه من الباباوات. وكان الوضع الذى نشأ فى العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط يناسب تحقيق مقاصد البابوية. وفى ذلك الوقت احتل السلجوقين آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين. وفى سنة ١٠٧٠ احتلوا دمشق وحلب وغيرهما من المدن السورية وفى سنة ١٠٧١ احتلوا مركز الاديان الثلاثة بما فيها الدين المسيحى، مدينة القدس، التى كانت حتى ذاك خاضعة لسلطة خلافة الفاطميين فى مصر وفى سنة ١٠٨٤، انتزع السلجوقيون انطاكية من بيزنطية واستولوا عليها. وفى عهد ملكشاه (١٠٧٢ـ١٠٩٢)، شملت ممتلكات السلجوقيين قسما كبيرا من اراضى سوريا ولبنان والاردن وفلسطين.

وهكذا شملت فتوحات السلجوقيين رقعا شاسعة من الاراضى. ولكنهم لم يؤسسوا دولة

وكان فى ايام هذا البطرك واحد من رهبان دير ابو كما اسمه حلوش من اولاد بنات بسطيه، الذى كان امينا على استخراج دهن البلسان اعنى الميرون، رفع [اكاذيب] فى الرهبان وسعى بهم عند الامام الحافظ ان عندهم ملاحم وعلوم يعرفو منها ما يجرى على الملوك، وكيف يكون تغلب الدول، ويجمعو الدنانير وغيرها من قنايا الذهب والفضه والمصاغ ويخالفو بهذا مذهبهم وكلام

مركزية. ولم تكن دولة السجلوقيين قائمة الا بالاسم. اما فى الواقع، فقد كانت عبارة عن اتحاد ضعيف العرى بين كثرة من الاقطاعات شبه المستقلة. واهمها كانت السلطنة الرومية (سلطنة سلاجقة الروم او دولة السلاجقة) التى تشكلت سنة ١٠٧٧ فى آسيا الصغرى، وكان مركزها فى البدء نيقية، ثم قونية، وكان السلاطين يطمحون الى وارثة الامبراطورية البيزنطية ولذا سموا دولتهم بالدولة الرومية، لأن البيزنطيين كانوا يسمون انفسهم بالروم (بالرومانيين). واخذ السلاطين هذا الاسم كما اخذوا الادعاءات المناسبة. وبعد سنة ١٠٩٢ تداعت الدولة السلجوقية كليا. وتفجرت الخلافات والخاصمات بين الحكام الكبار والصغار وصارت آسيا الصغرى مسرحا لحروب لاانقطاع فيها.

وبعد حقبة طويلة من الزمن، اى بعد ان تعاظمت الحركة الصليبية، اختلق مدونو الاخبار الغربيون لتبريرها مختلف الاساطير عن الملاحقات والمطارادت التى قام بها، بزعمهم، السلجوقيون ضد المسيحيين فى البلدان الشرقية وعن اهانة وتدنيس الوثنيين للمقدسات المسيحية ، وبخاصة عن مطاردات الحجاج المتجهين الى القدس. وقد تلقف المؤرخون الاوروبيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولاسيما منهم الكاثوليكيون، هذه الاساطير وزينوها بشتى التفاصيل . وقد وصف مؤلف «تواريخ الحروب الصليبية» ــ وهى تواريخ عديدة ــ الوضع بسمات متماثلة تقريبا :كان السلجوقيون يشكلون خطرا على المسيحية ، ولذا كان

انجيلهم ووصيه المسيح لهم، وان عندهم صوره
ساقيه بلور لا يوجد عند احد من ملوك الدنيا
مثلها. فندب معه حجاب واجناد فاخذهم وطلع
الى الديارات بوادى هبيب [النطرون] وسلطهم
على الرهبان فاهانوهم واخرقو بهم وغرموهم
ونهبوهم وقطعو مصانعتهم وحل بهم منه شده
عظيمه، واخذ منهم قوم من شيوخهم ودخل بهم
القاهرة، فلم يصح شى مما حكاه عنهم وخلصهم

صد هذا الخطر يتطلب تدخل الكاثوليك المسلح. واخذ بابا روما على نفسه قيادة الكاثوليك. ومن هنا جاءت الحروب الصليبية. وهذا يعنى ان هؤلاء المؤرخين، رغبة منهم فى تفسير منشأ حروب المسيحيين الغربيين، نقلوا مركز ثقل الاحداث التى استتبعت الحروب الصليبية الى الشرق؛ فمن وجهة نظرهم، كان كل شئ يعتمد على فتوحات السلجوقيين، وبينها فى المقام الاول القدس، مهد المسيحية.

وهذا الضرب من التصورات عن اقرب اسباب الحروب لايزال واسع الانتشار الآن فى الغرب، واليوم يصدر هناك عدد لايستهان به من الكتب التى تبدأ ابدا ودائما بوصف العقبات التى اقامها السلجوقيون، كما يزعم المؤرخون الصليبيون، فى طريق الحجاج الاتقياء، وبوصف المصاعب التى واجهها الحجاج فى الارض المقدسة. ان هذا التفسير للاحداث لايتطابق البتة مع الوقائع التى قررها المؤرخون المسيحيون فى العصور الوسطى.

فان السلجوقيين لم يكونوا يتصفون اطلاقا بالتعصب الدينى الاعمى. يقينا ان فتوحاتهم قد رافقها هلاك الناس وآلامهم، ورافقها الدمار، اى رافقها كل ما يرافق ايه حرب كانت، ولكن هذا لم يكن له البتة اية علاقة بالدين المسيحى.

ثم ان السكان انفسهم فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط، المنتمين الى مختلف التيارات والطوائف المسيحية، لم يفتشوا يوما، لا فى بيزنطية، عن الحماية من

الله منه واحسن الخليفه اليهم واعادهم الى دياراتهم بسلامه. وكان هذا حلوش لما دخل بالمترسمين معه الى دير ابو مقار احرق حشمة الهيكل المقدس، اعنى هيكل بنيامين، وهجم عليه ودخل اليه هو ومن معه وفتشوا الاسكنا جميعه. وقيل عنه انه رفص الهيكل برجله عجبا وتكبرا فضربه الله فى رجله بحيه رديه اكاله ولم تزل تاكل رجله حتى مات منها بعد شدايد عظيمه، وكان الدود والنتن والضربان لا يفتر منها لا ليل ولا نهار، وكان

الملاحقات الدينية المنسوبة الى السلجوقيين. وكان بوسع الحجاج ان يزوروا القدس كما فى السابق. اما مشاعرهم الدينية فلم تكن تتعرض للاهانة من قبل الحكام السلجوقيين. بديهى انه كان يتعين على الحجاج ان يكونوا على يقظة: ففى فلسطين كانوا على أى حال فى ارض العدو. وليس عبثا أن تتخذ عمليات الحج شيئا فشيئا طابعا مسلحا. ولكن السلجوقيين. لم يهتموا البتة بمصالح الحجاج الدينية وعبادتهم للمقدسات المسيحية فى القدس وبيت لحم وغير ذلك من الاماكن المقدسة. وكان المسلمون يتقاضون من الحجاج رسوم معينة لقاء زيارة المدينة المقدسة.

ان الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين فى ظل حكم السلجوقيين وعن العقبات التى اقاموها فى وجه الحجاج هى، بقدر كبير ، اختلاقات باطلة تفتق عنها خيال كتاب كنسيين احدث عهدا الينا ـ هم جزئيا بيزنطيون، ولكنهم غربيون وشرقيون ـ من امثال وليم الصورى (١١٣٠ـ١١٨٦). فاحينا كثيرة كانوا قصدا وعمدا ينشرون الاشاعات عن مآثم السلجوقيين ضد المسيحية ، قائمين بذلك، كما قد نقول اليوم، لاغراض دعائية بحتة، ـ لكى تسهم الاشاعة عن الخطر الذى يشكله «الكفار» على الاماكن المقدسة فى تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب. وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق وينشر من

يعترف بما فعل ويقول: هذه مكافاه الرجل الذى تعديت ودخلت الى ذلك المكان المقدس بغير وقار. ولم يزل كـذلك الى ان مـات. ونسـال الله ان يرحمنا صدقه منه علينا.

ميخائيل ابن دنشترى(*) البطرك
وهو من العدد الحادى والسبعون
[١١٤٥/١١٤٦م]

(*) دنشترى: هى احدى قلايات دير ابو مقار بوادى النطرون. ومعنى اسمها القلاية الكبرى. وكان هذا البطرك تربطه صداقة قوية بالخليفة الفاطمى الحافظ.

هذا الاب الجليل كان راهبا من قلايه تعرف

روما البابوية. وقد استغل الباباوات ضعف اطلاع اوروبا الغربية على ما كان يجرى فعلا فى الشرق لتضليل العالم الكاثوليكى. ويلاحظ المؤرخ المستشرق الفرنسى المعاصر كاين ان روما قد صورت الكارثة التى حلت ببيزنطية بصورة كارثة حلت، بزعمها ، بالمسيحية الشرقية على العموم.

اما فى الواقع، فان الفتح السلجوقى، اذا كان قد شكل حجة لاعداد حرب الغرب ضد الشرق لاجل اهداف دينية كما يزعم ، فليس ذلك الا بقدر ما سدد ضربة الى بيزنطية التى كانت من زمان بعيد موضع مطامع الكنيسة الرومانية. ثم ان انتشار الفتوحات السلجوقية لاحقا فى السبعينات والثمانينات فى آسيا الصغرى، وتقسيم دولة ملكشاه الذى جرى فى الوقت نفسه، لم يوفرا للباباوية فرصة التوصل الى تحقيق خططها القديمة الموجهة ضد بيزنطية وحسب، بل اتاح كذلك توسيع تطلعاتها، باشاعة كذبة بينة عن الخطر الذى يتهدد المسيحية اجمالا، والذى يزحف، حسب زعمها، من الشرق.

ومشاريع جريجوريوس السابع بعثها بكليتها واكملها بصورة جوهرية خلفه البابا اوربان الثانى (١٠٨٨ـ١٠٩٩)، الفرنسى الاصل. ووفقا لارشاداته كان ينبغى ان يخضع كل القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط لحكم وسيطرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وخدمها

بدنشترى بدير القديس ابو مقار شيخ حسن الوجه
والهيه [الهيئة] ذات وقار وعفه، قديس طاهر الا انه
لم يكن عالما ولا راض نفسه فى قراه الكتب. لان
ابويه لم يهتمو بذلك، فلم يتعرض لطلب كهنوت
ولا طقس بل انه لزم قانون الرهبنه من غير قراه
قبطي ولا عربى، فلما تنيح الاب البطرك انبا
غبريال وبقى الكرسى خاليا ممن يدبره اربعه شهور
وايام تعرض لطلب البطركيه راهب من دير ابو

الامناء، الفرسان الغربيين. ولكن اوربان الثانى احاط مشاريعه بالمبررات الدينية بقدر اكبر بكثير من التفصيل. وفى اداء هذه المهمة ساعده كذلك الوضع العصيب الذى واجهته بيزنطية فى الثمانينات واوائل التسعينات من القرن الحادى عشر.

فان النورمنديين الذين كان يقودهم روبر جيسكار، واصلوا الفتوحات فى الاقاليم الاوروبية من الامبراطورية البيزنطية ذارعين الذعر فى القسطنطينية . وكان بمقدور الكسيوس كومنينوس، (١٠٨١ـ ١١١٨) ان يقضى على الخطر النورمندى باللجوء الى قوة السلاح والى وسائل الديبلوماسية البيزنطية الماكرة الداهية، ولكن السحب اخذت تتلبد فى ذلك الوقت فى شمال وشرق بيزنطية، فقد ثار عليها السلاف القاطنون على ضفاف نهر الدانوب فى بلغاريا، بسبب ماكانوا يعانونه من بلايا من جراء ابتزازت الموظفين الامبراطوريين. فاستنجدوا بالبدو البتشينيج. ووفى سنة ١٠٨٨ انزل البتشينيج بالامبراطور الكسيوس كومنينوس هزيمة شنعاء فى جوار سيليسترا؛ ودمر هؤلاء البدو ادريانوبول وفيليبوبول ، ووصلوا حتى اسوار العاصمة بالذات. وجهز الامير السلجوقى تشاها الذى استقر فى غرب آسيا الصغرى وفى بعض جزر بحر ايجه، اسطولا ضد العاصمة البيزنطية. واجرى تشاها مفاوضات مع البتشينيج بشأن العمليات المشتركة. ووضعت خطة مشتركة لهجوم البتشينيج والسلجوقيين على القسطنطينية.

مقار يسمى ونس [يونس] ابن كدران وتعصب معه
قوم من اخوته الرهبان. واجتمعو قوم من الاساقفه
وتساعدو جميعا، وهم يعقوب القارى اسقف لقانه
من اعمال البحيره، واخرسطودلوس اسقف فوه،
وميخاييل اسقف طندتا. واجتهد يونس ابن كدران
في طلب البطركيه وساعدوه المذكورين فلم يرضى
فعله الرب، ولاجل ذلك لم يرغب فيه ولا رجلا
واحد من الشعب باسره. وقد كان قبل حضوره

في سنتى ١٠٩٠ـ١٠٩١، عندما كانت شؤون الامبراطورية في البحر والبر في وضع شاق جدا، على قول المؤرخة البيزنطية حنة كومنينة (ابنه الكسيوس الاول) ارسل الامبراطور البيزنطى الرسائل الى ملوك وامراء الغرب مفادها ان بيزنطية تطلب معونة عسكرية . كذلك بعث الامبراطور كومنينوس بالرسل الى بابا روما. وكان يعلق عليه هو ايضا الآمال. كان ينبغى مد عساكر الامبراطورية مهما كلف الامر. وقبل ذاك، كان الغرب قد قدم لجيش الروم عددا لايستهان به من المرتزقة، فقد كان يخدم فيه النورمنديين والسكانديناقيون والانجلو-ساكسونيون. والآن احتاجت القسطنيطنية إلى المرتزقة ، وكان بوسع روما ان تقدم لبيزنطية مساعدة مهمة من المرتزقة. وهذا يفسر تنازل الحكومة البيزنطية الظاهرى في المفاوضات مع البابوية بصدد الاتحاد، بين الكنيسة الشرقية (بيزنطه) والكنيسة الغربية (روما) ومع ذلك يعتزم الفاسيلفس الاعتماد كليا على الكنيسة الرومانية؛ فان ادعاءاتها بالزعامة كانت معروفة جيدا من زمان في القسطنطينية.

ومع اجراء المفاوضات مع البابا بشأن اتحاد الكنيستين، ومع اغراء الاسياد الغربيين بامكان نهب البلدان الشرقية، اتخذت الحكومة البيزنطية تدابير اخرى اكثر وثوقا لاجل شق طوق السلجوقيين والبتسينيج. فوجهت ضد البتشينيج حلفاء الامبراطورية الجدد ـ البولوف

الى مصر قسموه قمصا فى دير ابو مقار، وكان
رجلا طويل القامه جميل الوجه حسن الهيه
[الهيئة] طيب الخلق حلو الكلام، عالم باللغه
القبطيه وكتب البيعه، ماهرا فى العتيقه والحديثه،
الا ان الشيطان، نجانا الله واياكم من تجاربه وحيله
ومصايده وكفا جميع بنى المعموديه شر ضرباته،
ضربه بهذه الضربه الرديه التي هى طلب الرياسه
للكبريا الذى اسقطه الله بها، فهو حريص ان

(البولوفتسيين). ففى ٢٩ (ابريل)، نزلت هزيمة ماحقة بجحافل البتشينيج. الضخمة فى المعركة على ضفة نهير ماوروبوتام (رافد نهر ماريستا)؛ اذ ان اسطول الامير تشاها لم يفلح فى الوصول إلى نجدتهم. وبعد حقبة وجيزة استطاعت بيزنطية أن تتخلص من الامير تشاها أيضاً، فإن الامبراطور قد حرض على تشاها سلطان نيقية قلج (او اقليج) ارسلان الاول (١٠٩٢ـ١١٠٧) فقتل تشاها اثناء وليمة. وهكذا ، باللجوء تارة الى القوة المسلحة، وطورا الى الدسائس والرشوة، تخلص الكسيوس الاول في آخر المطاف من المخاطر التي تتهدد القسطنطينية. واعادت بيزنطية الى ما تحت سلطتها عددا من المدن الساحلية في بروبونتيد، وجزر هيوس وساموس ولسبوس. وازيح السلجوقيون. وفي هذه الحال لم يبق ثمة داع الى مغازلة روما. ودخلت المفاوضات بصدد الاتحاد طريقا مسدودا. ولم تقبل بيزنطية عمليا مقترحات اوربان الثانى، والمجمع المرسوم لم ينعقد هو ايضا، وبقيت الخلافات الدينية معلقة.

ولكن النداء الموجه الى الغرب بطلب العون فى لحظة حرجة بالنسبة لبيزنطية لم يمر دون ان يترك اثرا. فان الشرق مع مدنه التجارية الكبيرة، والمتطور فى الميدان الاقتصادى اكثر من الغرب، القروى اساسا، كان يبدو للفرسان الاقطاعيين الطموحين مصدرا لكنوز عظيمة .

يسقط من قدر عليه منا بها ليكون معه فى الجحيم، فحسن له طلب الرتبه والتقدمه على شعب الله بغير رايهم ولا رضاهم. وكان الشيخ ابو يوسف ابن سويرس الفيلسوف مشارف [المشرف على] البحيره في ذلك الزمان، فكتب الى الاراخنه بمصر يعرفهم ما صح عنده من قبح اخبار يونس ابن كدران، وكونه تعدى فى انه طلب ولم يوفق حتى يكون مطلوب، وان تهجمه وطلبه مما يدل

وكانت اقاصيص الحجاج العائدين من القدس والقسطنطينية تصور بالخيال المعابد والقصور الرائعة فى المدن الشرقية وعجائب البذخ التى تغمر الاغنياء البيزنطيين والعرب. وعن هذه العجائب نشأت اساطير كان ينقلها المغنون القاصون المتجولون الى قصور الفرسان .وها هى الغنيمة اللذيذة تقع فى ايدى السلجوقيين!

وهذا ما اقلق على الاخص النورمنديين الذين استقروا فى ايطاليا الجنوبية وفى جزر البحر المتوسط. وخلال عشرات السنين كانوا مرتبطين مباشرة ببيزنطية ـ بصفة قراصنة تجار ، وبصفة محاربين مرتزقة. ومن ذا الذى كان بوسعه خيرا منهم ان يقدر ثروات القسطنطينية؟

وكان مصير بيزنطية يثير القلق كذلك في نفوس الكثيرين من الامراء والفرسان الآخرين فى الغرب، الذين كانوا ينتظرون الفرصة لكى ينقضوا على ثروات الامبراطورية البيزنطية (او امبراطورية الروم). ذلك ان الشرق كله كان يبدو ارض الامبراطور البيزنطى بنظر البارونات المارك ـ كونتات والدوقات والفيكونتات القليلى الاطلاع على الجغرافيا . ولم يكن من الجائز ان تصبح هذا الارض فى حوزة السلجوقيين!

ان البابابوية التى كانت تسعى إلى اهدافها كانت تأخذ بالحسبان، عن وعى او بلا وعى، مصالح الاقطاعيين الغربيين المشتركة؛ فلم تغب عن بالها الميول العدوانية المشتدة اكثر فاكثر

على نقص عقله وعما [عمى] قلبه، وكيف يقدر
يدبر شعب الله من لا يعرف يدبر نفسه ويعلمهم ما
انطلقت به الالسن فى عرضه من الاحاديث
السمجه لاجل تعرضه للطلب على هذا الوجه.
فاقتضى الحال اجتماع من حضر من الشيوخ
الاراخنه المصريين ومن حضر من الاساقفه استقر
اخرها ايقاف امر يونس المذكور وان يطلب غيره
ممن يصلح لهذه الرياسه، ويقع اتفاق الشعب

ين الفرسان الى الفتوحات. وكان الوضع الذى نشأ نحو أوائل العقد العاشر من القرن الحادى عشر صالحا للغاية لتحريك تلك النوابض التى جربت الكورية الرومانية تحريكها منذ عشرين سنة.

وكان الجو فى الغرب يزداد توترا باستمرار. فان مشقات الفلاحين فى غضون «السنوات العجاف» قد بلغت الذورة، وكان الفرسان «المعدمون» ينهبون ويسلبون بجموح مشتد ابدا. وكان عدم الثقة بالغد يستحوذ بصورة اقوى فأقوى على الاسياد، سواء منهم الكنسيون ام الدنيويون. وفى مثل هذا الوضع جاء نداء بيزنطية بطلب العون فى الوقت المناسب تماما. وكان الحجاج قد شقوا الطريق الى الشرق. وكانوا فى القصور الاقطاعية يظنون انه سيكون من السهل الاستيلاء على بلدان الشرق. والامل فى هذا خلقته الفوضى السائدة فى الدولة السلجوقية المقسمة الى اقطاعات شبه مستقلة. وكان الحكام السلجوقيون لايضايقون بعضهم بعضا وحسب، بل كانوا يتنافسون كذلك مع الملوك والامراء المسلمين، وعدا ذلك، قامت فى مدن سوريا ولبنان فى العقود الاخيرة من القرن الحادى عشر حركة من اجل الاستقلال الذاتى، وضد سيادة الخلفاء المصريين الفاطميين؛ وهذه الحركة شملت، فيما شملت، صور وطرابلس، اللتين طلبتا حتى المساندة من السلجوقيين. واستغل السلجوقيون بدورهم الذريعة المناسبة لكى

والاراخنه عليه، وعمل بذلك مسطورا واخذ فيه خط من حضره. قال الاب الجليل انبا مرقس ابن زرعه البطرك مولف هذه السيره(*) وناظمها نيح الله نفسه مع القديسين، انه لما وقع الاتفاق على طلب من يختاره الله لتدبير شعبه كتبت رقاع فيها هذه الاسمآ وهم: يونس [يوحنا](*) ابن ابو الفتح راهب من اولاد بويحنس، سليمان ابن الدحيادى من دير برموس، وانا الحقير مرقس ناقل هذه السيره

(*)مرقس ابن زرعه مؤلف هذه السيرة. وهو نفسه البطرك رقم ٧٣. انظر ص١٤٢٢ وما بعدها.

(*) سوف يتولى البطركيه بعد وفاة ميخائيل تحت رقم البطرك ٧٢ في المدة من ١١٤٧/١١٦٦م. انظر ص١٣٣٧.

يستولوا على صيدا. وفى سنة ١٠٨٩ فقط، استطاع الخليفة المصرى ان يستعيد السلطة على صور وسائر المدن التى انفصلت عنه. ولكن اضطربات جديدة نشبت فى صورة . وفى سنة ١٠٩٤ حاصرت القوات الفاطمية التى انطلقت باتجاه الشمال هذه المدينة الكبيرة واستولت عليها بعد مرور ثلاث سنوات بانقضاض عاصف، واعملت فيها نهبا وسلبا.

ومن المؤكد ان الكثير من تفاصيل الوضع المضطرب سياسيا فى بلدان القسم الشر قى من حوض البحر المتوسط لم يكن معروفا فى الغرب، ولكن فكرة عامة عن سوء الاحوال فى هذه المناطق كانت تكونها الانباء التى يحملها الحجاج واخبار التجار العائدين من الشرق، والتقارير الديلوماسية التى كانت تتوافد الى الكورية الرومانية. ولهذا ، عندما طلبت بيزنطية من امراء الغرب ومن البابا العون، لم يعمد الفرسان الى المماطلة فى الرد على هذه الطلبات. فقد فهموها وتقبلوها كدعوة الى شن حملة على الشرق لانقاذ بيزنطية.

ولكن الاقطا عين انفسهم كانوا فى حالة من التشتت المفرط فلم يكن بمقدورهم بالتالى ان يقوموا باعمال منظمة على مثل هذه الابعاد الكبيرة من حيث الجوهر. فكان لابد من تدخل قوة كانت، كما رأينا، المعبرة الرئيسية عن مصالح الاقطاعيين الغربيين الطبقية ـ عنينا

كنت حاضر، وميخاييل الذى اختاره الله من دنشترى كان حاضرا، وطلبو منه ان يكتب خطه فى المسطور على ابن كدران فلم يفعل، فتوهم قوم من الحاضرين انه حضر معه لمساعدته وانما كان امتناعه كونه لا يعرف قبطى ولا عربى، فعرفتهم به وانه ممن يصلح لهذه الرياسه، وكانت اراده الله فيه فكتبوه وكتب الرقاع باسما تلته منهم كما تقدم القول على جارى العاده، وكتبت رقعه باسم السيد

بهذه القوة الكنيسة الكاثوليكية ورئيسها، وما لبث هذا التدخل ان ظهر. فان البابا اوربان الثانى، وقد اقتنع بعقم المحاولات لتحقيق الاتحاد بالوسائل الديلوماسية، سلك سبيل جريجوريوس السابع. فقد عزز خططه بالضغط المسلح على بيزنطية بحجة تقديم العون لها ضد «الكفار» . واخذ البابا بالحسبان الميول العدوانية للحكام الاقطاعيين فى الغرب وحاول ان يستخلص من كل هذا اقصى النفع لاجل الكنيسة الكاثوليكية. فقد وفر تجمع الظروف وتطورها فرصة مناسبة لتحقيق المقاصد التوسيعة القديمة للكورية الرومانية بمساندة الفرسان، والقيام بخطوة مهمة لاجل تأسيس درلة تيوقراطية عالمية. وقررت البابوية ان تستغل الوضع الناشئ فى العلاقات الدولية وتبلغ اهدافها السياسة الخاصة مع تلبية حاجات الاقطاعيين الغربيين الناضجة على حساب الغير.

واخذ البابا اوربان الثانى على نفسه زمام المبادرة الى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق كانت فكرتها قد انتشرت فى الاوساط الاقطاعية فى اوروبا الغربية. وفى سنة ١٠٩٥ طرح برنامجا واسعا لتوحيد الفرسان لاجل فتح البلدان الشرقية تحت شعار مساعدة الروم من الاخوة فى الدين وتحرير قبر السيد المسيح.

هكذا نضجت فكرة الحرب الصليبية . وقد وقعت فى تربة مهيأة تماما.

المسيح الراى الصالح ورفعو على الهيكل، واقام
القداس عليهم ثلثه ايام متواليه، واحضر طفلا
فاخذ واحده منهم فطلعت الرقعه التي باسم
ميخاييل وذكر من حضر من شيوخ الرهبان
التقات ان ابو الخير الابسلمدس [المرتل] بدير
القديس ابو مقار وكان قديسا طاهرا يندر [يتنبيء]
بالغيب قال لما سمع ما جرى لابن كدران ان
البطرك يكون من قلايه دنشترى هذه التي ميخاييل

الحملة الصليبية الاولى



الدعوة الى الحرب واصداؤها. تكوين ايديولوجية الحرب الصليبية

فى نوفمبر ١٠٩٥ ، عقد بابا روما اوربان الثانى مجمعا لرجال الدين فى مدينة كليرمون فران الفرنسية. ان البابا لم يأت إلى فرنسا لكي يضبط شؤون الكنيسة فيها وحسب. فعندما

منها. وذكر عنه انه ليله توفا انبا غبريال البطرك
راى روحه بين الملايكه صاعدين بها الى السمآ
فاعلم من كان عنده من الاخوه حاضر بذلك فى
ساعته، وقال لهم: قد تنيح البطرك فى هذه
الساعه وبعد ثلثه ايام من قوله لهم وصلو قوم من
الرهبان الى الدير واخبرو بوفاه البطرك فى ذلك
الوقت الذى قاله. وذكر عن راهب اخر ان هذا انبا
ميخاييل البطرك كان قد مرض قبل بطركيته

وطأت قدماه الاراضى الفرنسية، انبأ كذلك انه ينوى ان يساعد الاخوان المسيحيين الشرقيين. اغلب الظن ان البابا كان قد رسم فى الوقت المناسب خطة ما للعمل، قد لاتكون بعد كاملة الخطوط، ولكنها واضحة الى هذا الحد او ذاك من حيث اهدافها ومغزاها العام. الا انه كان لابد من بضعة اشهر لكى تكتسب هذه الخطة ملامحها الدقيقة..

بعد ان وصل اوروبان الثانى الى فرنسا، اخذ يطوف على الاديرة الكلونية فى جنوب البلد واحداً بعد آخر (فقد سبق له فى حينه ان كان رئيس دير كلونى). وهناك جرت مفاوضات اولية بصدد الحرب المقبلة التى كان لابد لها، من حيث ابعادها، ان تتجاوز كثيرا حملات الفرسان الفرنسيين منذ امد قريب الى ما وراء جبال البرانس. ومع من كان بمقدور البابا ان يتشاور بشأن مشروعه وسبل تحقيقه ان لم يكن مع الرهبان الكلونيين؟. كان الكلونيون لايدركون فحسب، ضرورة التدابير الجذرية التى من شأنها ان تقضى على الفتن الخطيرة التى تهدد الملكية العقارية الكبيرة فى الغرب، بل كانوا كذلك يدركون بصورة اوضح من اى وقت آخر تلك الوسائل العملية التى يمكن استعمالها لاجل بلوغ هذا الهدف. وقد تكدست عندهم تجربة لايستهان بها فى الدعوة المقدسة والحج . وكان بمقدورهم ان يوحوا للبابا اوربان الثانى بامور وافكار كثيرة، وما هو اهم، ان يكونوا ذوى نفع فعال له فى تحقيق المشروع.

مرضه صعبه شديده اشرف فيها على الموت انه قال لقوم من الرهبان سالوه عن مرضه: انه لا يموت في هذه المرضه ولا يموت الا بعد ان يصير بطركا. ولما اتفقت الجماعه على الرضا به كرزوه شماسا ثم قساً، وفي ثالث يوم كرزوه قمصاً في كنيسه المعلقه بمصر بعد استيدان[استأذان] الخليفه يوميذ وخروج امره بتقدمته، وكتب له سجل بذلك. فسار مع من حضر من الاساقفه والكهنه

لم يكتف اوربان الثاني بزيارة ديور الرهبنة الكلونية. فان الحرب المقدسة التي كان يهيئ لها الكرسي الرسولي كانت تحتاج في المقام الاول الى مقاتلين يملكون السيوف والرماح، وكذلك الى قادة ذوي مكانة. وفيما بعد فقط، اعلن اوربان الثاني ان الاحداث التي وقعت بعد مجمع كليرمون هي «قضية السيد الاله». هذه الكلمات وضعها مدون الاخبار فولير دي شارتر(فرنسا) على لسان البابا. من الممكن ان يكون البابا قد نطق فعلا بهذه الكلمات، ومن المحتمل انه حتى آمن في صحتها. ولكن تلميذ جريجوريوس السابع كان سياسيا ثاقب النظر لكي يفهم هذه الحقيقة البسيطة وهي انه ليس من مصلحة البابوية، بل ليس من المعقول القيام بمشروع قبل التأكد سلفا من ان هذا المشروع سيحظى منذ بادئ بدء بمساندة اوسع الاسياد الاقطاعيين والكنسيين نفوذا على الاقل. ولقد اجتهد البابا لنيل مساندتهم سلفا.

ففي الطريق الى كليرمون قام بزيارتين مهمتين. في اغسطس ١٠٩٥ قابل اوربان الثاني في مدينة بوى مع صاحب المقام الرفيع الكنسي البارز، الاسقف اديمار دي مونتيل (Ademar de Monteil). ويبدو ان البابا استطاع ان يتفق معه على ان يأخذ هذا الحبر الجليل على نفسه مهمة رئيس الصليبيين الديني. كذلك زار اوربان الثاني ريمون الرابع كونت تورلوز في مقره الرئيسي ـ قصر سان جيل. وبنتيجة المفاوضات ، وافق هذا السيد، ـ وكان من اكبر

والشـــعب الى المدينه العظمى الاسكندريه فى
عشارى موكبى جرده الخليفه، واجلسوه على
كرسي مارى مرقص واكملو تكريزه في يوم الاحد
الخامس من مسرى سنه ست وسبعين وثمان مايه
للشهدا القديسين، وبكلفه[بمشقة] عظيمه حتى
حفظوه قداس باسيليوس خاصه الى ان قدس به
وعاد الى مصر. وكان يوم دخوله اليها مشهور تلقاه
من وجوه المسلمين وكبارهم اكثر ممن تلقاه من

- -

الاقطاعيين فى اوروبا الجنوبية، على الاشتراك فى الحملة. وقد تجاوب الكونت ريمون الرابع بكل طيبة خاطر مع رغائب البابا؛ فان الحرب التى كانت تهيئ لها روما كانت تتطابق تماما مع مصالحه بالذات.

ولئن كان اديمار دى بوى وريمون دى سان جيل مطلعين على مقاصد البابا، فان الاقطاعيين الأخريين، كما يجب الظن، كانوا يخمنون ان اوربان الثانى جاء الى فرنسا لاهداف اكبر من حل قضايا الكنيسة الداخلية . كذلك كان شعور مسبق غامض باحداث جدية ما ترتبط بوصول الرسول الاعظم (هكذا يسمى المؤرخون البابا احيانا).

فلاغرابة اذا كان قد توافد الى كلير مون آلاف الفرسان وعدد كبير من ذوى الالقاب الدينية، واذا كان قد تجمعت جموع لاتحصى من بسطاء الناس. وكل هذا الجمهور من الناس لم يكن من الممكن ان تتسع له المدينة حيث انعقد المجمع بحث فى سياق اسبوع (١٨ـ٢٥ نوفمبر ١٠٩٥) مواضيع عادية ومألوفة بالنسبة لمثل هذا الضرب من المداولات، وفى المقام الاول مسألة «السلام الر بانى»، الا انه ضم عددا استثنائيا من الناس. يستفاد من بعض المعلومات انه ضم اكثر من ٢٠٠ (وحسب معلومات اخرى اكثر من ٣٠٠) من الاساقفة و٤٠٠ من رؤساء الاديرة. ان عدد المشتركين فيه غير معروف بدقة؛ فان الارقام التى

النصارى، وكان فرح عظيم ومسره عند النصارى
بمدينتى مصر والقاهره واحبوه كثيرا واطاعوه،
وكان يفرح اذا راى الشعب كثير فى البيعه
والكهنه كثير فى الاسكنا ويكثر من الدعا لهم،
وكانت ايام بطركيته طيبه جدا وبعد ايام يسيره من
جلوسه اقسم خمسه اساقفه احدهم كان من اولاد
الاراخنه بمصر يقال له ابن نفرا كان قد ترهب فى
دير ابو مقار فى قلايه دنشترى الذى هذا البطرك

ساقها فى هذا الصدد فولير دى شارتر وجيبرت دى نوجان وغيرهما من مدونى الاخبار تختلف بعضها عن بعض، على كل حال، تميز مجمع كليرمون بالفخامة وسعة التمثيل.

وبعد انتهاء جلسات المجمع الرسمية، وبعد ان «وعد جميع الحاضرين، سواء منهم رجال الدين او المؤمنون، بمراعاة قرارات المجمع بأمانة» ، كما كتب احد مدونى الاخبار، القى البابا اوربان الثانى فى ٢٦ نوفمبر ١٠٩٥ خطابا احتفاليا فى الهواء الطلق مباشرة امام حشد الذين تجمعوا فى السهل بجوار المدينة، وهذا الخطاب سبق ان فكر فيه البابا عميقا وجيدا، و لم يكن البتة خطابا مرتجلا «من وحى الرب». فقد دعا البابا الكاثوليك الى حمل السلاح والجهاد لاجل الحرب ضد «قبيلة الاتراك الفارسية... الذين وصلوا الى البحر المتوسط... ذبحوا واسروا كثيرين من المسيحيين، ودمروا الكنائس واجتاحوا الامبرطورية البيزنطية)».

وهذا يعنى انه اطلق فى كليرمون النداء الذى دعا الغرب الى الحرب الصليبية فى الشرق.

وقد حاول اوربان الثانى ان يصور الحرب التى استحث «المؤمنين» على شنها بصورة

منها، وكان معه مقيم فيها فقسمه اسقف علي...(*) وهو صبى حدث السن كان شماسا فى الاسكنا فى ايام انبا غبريال، فلما وصل الى مصر وخرج الى دير الشمع كرزه فى يوم الخميس، والعاده الجاريه ان لا يكرز اسقف الا يوم الاحد، وانما خصه بذلك لاجل انه من اولاد قلايته، وكان عمره يوميذ نحو من ثلثين سنه، فجا منه من القدس والطهاره والعلم ما لم يلحقه كثير من

(*) كلمة غير موجودة فى المخطوطات ولعلها دير الشمع.

مشروع يجب القيام به لتحرير قبر السيد المسيح فى القدس ولانقاذ «الاخوة العائشين فى الشرق»، اى المسيحيين الشرقيين. ودعا البابا المستمعين باسم الرب العلى:«انا اقول هذا للحاضرين واكلف بابلاغ الغائبين ــ هكذا امر يسوع المسيح».

وفى وقت كان فيه الفرسان لايفكررون نهارا وليلا الا فى ايجاد مجال لميلهم الى القتال، فقد وجدت خطبة البابا صدى من التعاطف فى الجمهور الواسع الذى استمع اليها. ناهيك بان اوربان الثانى وعد المشتر كين فى الحرب، الصليبية، «المجاهدين فى سبيل الايمان»، باسم الرب العلى مرة اخرى، بغفران الخطايا، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون فى المعارك ضد «الكفار» بالثواب الابدى فى الجنة السماوية. وهذا الوعد اضفى على اقوال البابا وزنا خاصا فى عيون ذلك الجمهور اللجب من الاسياد ومن حملة اسلحتهم الذى تجمع من جميع انحاء البلاد فى سهل اوفيرن، كما قال مدون الاخبار من بريتانيا، وشاهد عيان مجمع كلير مون، بودرى دول. وكثيرون من هؤلاء الاسياد سبق ان حجوا للتكفير عن ذنوبهم وقاتلوا المسلمين فى حروب مقدسة. ان تحرير قبر السيد المسيح، الذى صوره البابا بصورة هدف الحرب، قد امن بالتأكيد غفران جميع الجرائم التى اقترفوها من قبل؛ فقد كان ذلك أمرا مفرطا فى الاغراء بحيث تركت فيهم ملامات البابا الذى ضرب على وتر مشاعرهم الدينية وبسالتهم القتالية

الشيوخ المتقدمين. ثم اقسم الشيخ ابو المكارم ابن يوسف الارخن، ثم اقسم الشماس ابن جارود، وكان من كهنه بيعه القديس ابو سرجه، وكان من اعيان الكتاب وتولى دواوين كبار كبير البيت فى المصريين، اقسمه اسقفا على كرسى شبرا الخيمه واسماه مرقس. وكان كرسى شبرا دمنهور(*) خال من اسقف جميع ايام بطركيه انبا غبريال ابن تريك لان العاده جاريه له ان لا يكون عليه الا

(*) شبرا دمنهور: يتم الخلط أحياناً بين هذه القرية وأخرى أقرب لشمال القاهرة هي دمنهور شبرا، وهي شبرا الحالية التي عرفت = =في وقت من الاوقات باسم دمنهور الشهيد لمجاورتها لشبرا الشهيد (شبرا الخيمة) أو شبرا دمنهور. واسمها القديم هو شبرو وهو محرّف عن كلمة «جبرو»

فعلها وان الراهب روبر من مدينة ريمس الذى اشترك فى مجمع كليرمون قد نسب الى اوربان الثانى انه وجه الى الفرسان كلمات التملق والتزلف.

ولكن بواعث ودوافع اخرى انداحت من خطاب البابا. فان الذين يقطعون على انفسهم عهدا ونذرا بالذهاب الى الارض المقدسة لاينتظرهم الخلاص فى الجنة السماوية وحسب؛ فان النصر على «الكفار» سيعود عليهم كذلك بمنافع ارضية محسوسة. الارض هنا، فى الغرب.ـ كما قال البابا اوربان الثانى ـ لاتفيض بالثروات. اما هناك، فى الشرق، فانها تسيل عسلا ولبنا. «والقدس انما هى محور الكون، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع المناطق الاخرى... جنة ثانية». ومن المؤكد ان الوعود كانت اقوى حجة فى خطاب البابا. «ان من لهم الحزن والفقر هنا، فى الارض سيكون لهم الفرح والغنى هناك، فى السماء». هكذا يعطى فولهير من شارتر هذا الفقرة من خطابا البابا. محورا احكام الانجيل. ويروى روبير دى ريمس ان هتافات مدوية قاطعت هذه الفقرة من خطاب اوربان الثانى:«هذه هى ارادة الرب! هذه هى ارادة الرب!» لربما كانت هذه الهتافات مقررة سلفا، ولكنه ليس من المستبعد انها كانت رد فعل عفويا من المستمعين المتكيفين لهذا الجو.

وخاطب البابا اوربان الثانى فى المقام الاول الفرسان المعدمين الذين تكاثروا!: «اجل،

بتول وهذا الاسقف كان قد تزوج وماتت امراته. وكان انبا غبريال قد منع من يرجع يخرج جسد القديس ابو يحنس سنهوت من بيعته لما كان يجرى عليه عند طرح جسده فى البحر [النيل] من نجاسه المصريين، ولما لم يرجعو كهنته يطرحو جسده فى البحر نشف البحر قدام بيعته، فلما رجع هذا الاسقف امرهم ان يطرحوه فى البحر فرجع البحر زاد الى ان طف قدام بيعته، فحملو له

القبطية وتعنى الكوم أو التل. كانت مشهورة بصناعة شراب العسل ومعاصر زيت السرج و طواحين الغلال، كما عرفت باسم شبرا رحمة وشبرا المكاسة لأن خيمة المكس (الجمارك النيلية) كانت تضرب فيها، وفى الخطط المقريزية: شبرى الخيام ويقال لها شبرا الشهيد لأنه كان يوجد بهذه القرية صندوق صغير من الخشب فى داخله إصبع شهيد من شهداء النصارى محفوظ بها دائماً، فإذا كان ثامن

لايجتذبكم ملك ما اليه، ولاتقلقكم شؤون عائلية ما لان هذه الارض التى تسكنونها انما يضغط عليها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال، ...ومن هنا ينجم انكم تلتهمون بعضكم لبعض بكثرة من الجراح المميتة». وقد دعا البابا الفرسان الى وقف الحروب والمذابح، والتحرك الى فتح البلدان الشرقية: «روحوا فى الدرب المؤدى الى القبر المقدس (هكذا كانوا يسمون آنذاك طريق الحجاج الى القدس)، انتزعوا هذه الأرض من الشعب الكافر، افتحوها لانفسكم!». صحيح ان صراحة البابا اوربان الثانى تبدو من النظرة الاولى غريبة نوعا ما على لسان الراعى المسيحى الاعلى الذى كأنما نسى وعظ الانجيل بحب القريب، بحب الغير، ولكن هذه الصراحة ليست مدهشة اطلاقا، اذا اخذنا بالحسبان ان البابا كان يعرف جيدا من يخاطبهم ومن يتعامل معهم.

لم يكن للكنيسة ان تتوقع اى خير من قطاع الطرق النبلاء، الامر الذى اقتنع به أوربان الثانى مرة اخرى اثناء اقامته فى فرنسا. فعشية انعقاد مجمع كليرمون تقريبا، اضطر الى الاهتمام بقضية واحد من هؤلاء الفرسان الذين يعيثون فسادا، هو المدعو جارنيه دى ترنيل، الذى اسر الاسقف فى جوار مدينة بروفن بصورة لم تكن متوقعة من فارس كان يهدف إلى أن يتقاضى فدية كبيرة عن اسيره الثمين، ولكن تدخل البابا الذى حرم

المصريين ندور كثيره. فرجع هذا الاسقف طالب الكهنه بالرسم الذى كان ياخذه من تقدمه فاخذه منهم. واقسم ايضا راهباً اسمه سنون [زنون] صعيدى على كرسي منيه بني خصيب اسقفاً، واخر صعيدى من بلاد اسنا كان تاجرا اسمه تاونا اقسمه اسقفاً على كرسي اخميم، وقس من اهل البلينا [محافظة قنا] اسمه ابو البدر خصيب اقسمه اسقفا على كرسي البلينا. وكان البطرك انبا

شهر بشنس يخرجون ذلك الإصبع من الصندوق ويغسلونه في بحر النيل لزعمهم أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يغسلونه فيه. ويسمون احتفالهم بذلك عيد الشهيد فاشتهرت بهذا الاسم، قال وتعرف بشبرا الخيمة أو الخيم أو الخيام لأن الناس كانوا يحتفلون سنويا بذكرى عيد الشهيد في خيام ينصبونها على شاطئ النيل بشبرا هذه للإقامة فيها مدة أيام عيد الشهيد فاشتهرت بشبرا الخيمة

الفارس من الكنيسة هو وحده الذى اجبر جارنيه على التخلى عن غنيمته «بخفى حنين»، «لوجه الله».

وامثال هؤلاء الفرسان الذين كانوا من قبل مرتزقة لقاء جزاء زهيد هم الذين قصدهم البابا اوربان الثاني فى المقام الاول فى خطابه فى كليرمون وبالطبع، كانت الحياة الابدية فى الجنة السماوية لاتكفيهم ؛ فقد كانوا يتحرقون الى الدور والعقارات ، والى القطع النقدية الرنانة، وغير ذلك من خيرات الارض ونعمها. والشئ نفسه يصح على الاسياد المالكين الذين اخذوا يشعرون بالضيق فى ممتلكاتهم والذين كانوا يسعون الى توسيعها بأى شكل كان. وقد توجه اوربان الثاني فى خطابه الى هؤلاء الاقطاعيين ايضا ناعتا اياهم بتملق وتزلف«بالمقاتلين الجبابرة وباخلاف الاجداد الغزاة».

يزعم بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين ان البابوية كانت تهتم، اكثر ما تهتم، بتنظيمها الحملة الى الشرق، بالسلام فى اوربا ، وانها حملت ورفعت فكرة مجردة ما، مسيحية من حيث جوهرها واصلها، هى فكرة. اما فى الواقع، فان مطالب الاقطاعيين الاجتماعية والسياسية المحددة تماما قد قامت فى اساس الفكر البابوى بالحرب الصليبية. لقد ارادت الكنيسة الكاثوليكية أن تلبى تحرقهم الى الاراضي والنهب والسلب ولكن خارج حدود اوروبا.

ميخايل عظيم السطوه على الرهبان والمتكبرين، وكان يادب من اخطا منهم ليس بالكلام فقط بل والضرب والسجن. ولم يقال عنه قطان [قطّ أن] احد خرج من دينه في ايامه. وكان مدة مقامه على الكرسى ثمانيه شهور واربعه ايام منها ثلثه شهور فى عافيه ثم مرض، فلما طال مرضه توجه الى دير القديس ابو مقار واقام فيه مقاسي المرض خمسه شهور الى ان انتفخ وتنيح في يوم الجمعه

وهو اسمها الحالى.

ولذا كان من شأن الحرب الصليبية ان توطد وتوسع سلطلة الكنيسة الكاثوليكية بالذات ايضا، ليس فى الغرب فقط،بل ايضا، فى بلدان الشرق.

لن نبسط التاريخ؛ فان الفرسان لم يبقوا عديمى الاكتراث بشعارات الزحف الدينية التى صاغها البابا. فان الاقطاعيين كانوا باغلبيتهم يتصورون الاهداف الفعلية من الحرب، اى اهداف النهب والسلب ،ملفوفة بغطاء دينى. ان انقاذ المقدسات المسيحية كان يرمز فى المخيلة الصليبية إلى امتزاج الاهداف السامية، الدينية، مع التطلعات الدنيوية، العدوانية والاغتصابية المحضة. لم يكن ثمة اى تناقض بالفعل فى امتزاج مبادئ متنافرة على ما يبدو. ان الحرب الصليبية كانت تبدو للفرسان مواصلة للحج، اى بتعبير آخر، ضربا من حج مسلح. وفى هذه الحرب كان يتجسد انكار الذات من اجل الاهداف العليا، لاجل انقاذ الروح بنحو اكيد للغاية، وفعل الندم والتوبة، التكفير عن الذنوب، علما بان الفرسان انفسهم كانوا يتوهمون انفسهم «فقراء بالمسيح» يزدرون، «حبا للمسيح»، المصالح العملية الدنيئة. وفى الوقت نفسه كانت الحرب الصليبية تجسد مأثرة المشتركين فيها امام الرب العلى الذى يجازى ابناءه المخلصين له بالنصر ، وبالغنيمة والثروة والاراضى.

منذ اواخر القرن الحادى عشر، وبخاصة منذ زمن خطاب البابا اوربان الثانى، اخذ ينشأ

مـن جمعه الفصـــح، وهـو الـيوم الثالث مـــن برموده سنه ثلث وستين وثمان مايه للشهدا. وذكرو ان رهبان من قلايه كدران اسقوه سما حتى كان سببا لموته والله يعلم ان كان كما قالو عنهم ام لا، وهو المجازى كل احد باعماله. فكفنوه ودفنوه مع ابايه البطاركـه، رزقنا الله واياكم بركـه صلواتهم. وكانت البيعه فى ايامه فى هدو وسلامه ولله المجد دايماً.

ايمان صليبى اصيل امتلأ به الفرسان، ايمان كان يجمع نكران الذات الدينى (الجهاد) مع الافكار عن المكافأة الارضيه السخية، التى يجازى بها الرب جهود ابنائه المحبوبين القتالية. بهذا الباعث المزدوج جاء خطاب اوربان الثانى، فى كليرمون، وهذا الباعث يتبدى فى جميع الاخبار التاريخية وفى سائر النصوص المحفوظة منذ زمن الحرب (او الحملة) الصليبية الاولى. «ليكلل الثواب المزدوج اولئك الذين كانوا (من قبل)لايرحموا انفسهم لما فيه ضرر اجسادهم وارواحهم». هكذا قال البابا داعيا الفرسان النهابين وقاطعى الطرق فى الامس، الى الاستيلاء على ثروات الاعداء وارض القدس التى يسيل فيها العسل واللبن انهارا، مانحا غفران الخطايا، وضامناً الغبطة السماوية للمقاتلين الصليبيين المقبلين.

هذه الايديولوجية كانت منذ بادئ عاملا جبار جدا اسبل رداء دينيا على تطلعات الفرسان الفعلية، الارضية تماما. واحاطت دوافع الفتح والاغتصاب بهالة من القداسة فى عيون الفرسان انفسهم، وصورت الحرب الصليبية بصورة مشروع لخلاص النفس وللفتح والاغتصاب فى آن واحد.

فهرس الجزء السادس

• رقم الإيداع: ٢٦٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موريفيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496